مصطفى كامل

باعث الحركة الوطنية

(تاريخ مصر القومي من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨)

بقلم

عبد الرحمن الرافعي

الطبعة الخامسة

١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م



دار المعارف

راجع هذا الكتاب

المستشار حلمى السباعى شاهين

نائب رئيس قضايا الحكومة السابق

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع



عبد الرحمن الرافعى

ولد فى ٨ من فبراير سنة ١٨٨٩ – وتوفى فى ٣ من ديسمبر سنة ١٩٦٦





مصطفى كامل
باعث الحركة الوطنية
١٨٧٤ — ١٩٠٨



إهـداء الكتاب

إلى من كانت حياته للأمـة بَعْثاً وطنيًّـا. من كان لى أبـاً رُوحيًّا. وسأبقى لـه تلميذاً وفيًّـا. من علّمنى أن الحياة بغـير المثـل العليا عـرض زائـل. وعبثٌ ضـائـع. إلى «مصـطفى كامل» أهدى كتاب مصطفى كامل هديـة الوفـاء إلى روحه العظيمة.

عبد الرحمن الرافعى

يناير سنة ١٩٣٩



تقديم كتاب

مصطفى كامل - باعث الحركة الوطنية

نهج جديد سار عليه المؤرخ الوطنى الاستاذ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه «مصطفى كامل» اذ يؤرخ الرافعى تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨ ويربطه بتاريخ زعيم وطنى كان له أثره البارز خلال هذه الفترة من حياة مصر، ففى الوقت الذى يسرد الرافعى حياة مصطفى كامل حتى تاريخ وفاتة سنة ١٩٠٨ يشرح للقارئ مامرت مصر فيه من أحداث ووقائع هامة. وان حب الرافعى فى زعيمه وانتماءه إلى مصر من خلال اعتناقه لمبادئ مصطفى كامل ومثله العليا يبرز ذلك فى أهداء الكتاب اليه وما احتواه الكتاب من أبواب عديدة.

ولعل كثيرا لا يعرف أن أول ما فكر فيه الرافعى كتابةً لتاريخ مصر القومى فكر فى أخراج كتاب عن مصطفى كامل يربطه بتاريخ بلده فهداه تفكيره إلى أن تاريخ مصر القومى يرجع إلى ما قبل مصطفى كامل بكثير، فعاد يرجع إلى الوراء حتى هداه الله ان يخرج هذه السلسلة من مؤلفاته فى تاريخ مصر القومى الحديث وهى ضمن مؤلفاته العديدة التى أشرنا اليها فى نهاية الكتاب.

يقول الرافعى فى مقدمة الطبعة الثالثة من كتابه «واذا كانت الأعوام والأيام من شأنها أن تجر على الحوادث والأشخاص ذيول النسيان، فإن هذا ليس شأن العظماء والعباقرة بل أن مرور السنين والأجيال تزيدهم رفعة وخلودا، ولا غرو فهم قطعة من عمر الزمان وهم بناة الانسانية ودعائمها، فكل مرحلة من عمر الزمان وتطور الانسانية تجدد من ذكراهم فهم لا يزالون أحياء فى كل عصر وفى كل عام».

أشار الرافعى فى مقدمة الطبعة الأولى للكتاب إلى صورة عامة لشخصية مصطفى كامل ثم بين أقسام الكتاب فى فصول بلغت أثنين وعشرين فصلا.

وما يهمنا أبرازه فى تقديم الكتاب روح الرافعى الوطنية التى تجلت فيها كتب وتعلقه

بمبادئ الحرية والديمقراطية والاستقلال التام لوادى النيل شماله وجنوبه.

ولعل الرافعى فى كتابه يرسم لكل من يريد الكتابة عن تاريخ شخصية مصرية أو غير مصرية كان لها أثرها البارز فى بلدها أن يحلل حياة هذه الشخصية من نشأة صاحبها العائلية، والديه واسرته ويبرز اخلاقيات ووطنية مصطفى كامل،ويشرح حالة العصر الذى ظهر فيه، ومراحل جهاده فى المدرستين الثانوية والحقوق، وشعوره بواجبه نحو مصر مدافعا عن حقوق الأمة أمام العالم أجمع فى أحاديثه وخطبه فى مصر والخارج فى الصحف والمجلات والمؤتمرات ومقابلاته السياسية لساسة العالم من محبى الحرية والاستقلال وغيرهم ونداءاته فى المناسبات وتمسكه بالوحدة الوطنية بين أبناء الوادى مرددا قوله «أن المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ولا يمكن التفريق بينهما مدى الابد».

أن كثيرين لا يعرفون أن لمصطفى كامل مؤلفات منها كتابه عن المسألة الشرقية وكتابه عن اليابان الشمس المشرقة أخرجه فى يونيو سنة ١٩٠٤ وكتابه «المصريون والانجليز» طبعه بباريس فى ديسمبر سنة ١٩٠٥.

إن جهاد مصطفى كامل لم يكن مقصورا على قضية الاحتلال ومطالبته بالجلاء عن وادى النيل، بل امتد نشاطه فى سائر النواحى الاجتماعية ومنها نشر التعليم وبناء المدارس والجامعة المصرية والمطالبة بإلغاء الامتيازات الأجنبية وقيام دستور يكفل للمصريين حقوقهم وإنشاء الصحف والمجلات، فكان للحزب الوطنى جريدة اللواء ومجلة اللواء باللغة العربية والانجليزية والفرنسية.

لقد سطر الرافعى خطوات جهاد مصطفى كامل واعماله فى سائر النواحى وربط هذه الخطوات بحالة مصر وتاريخها القومى خلال حياة الزعيم الوطنى، الذى بعث فى مصر روح الكفاح والوطنية وقضى على حالة اليأس والقنوط التى كانت تخيم على كثير من المواطنين، شرح كل هذه الخطوات بأمانة ودقة شأنه فيما جمعته مؤلفاته الأخرى وبسمات المؤرخ الصادق النزيه بعيدا عن الهوى والغرض، وانتهى الرافعى بعد هذا السرد الأمين إلى الحديث عن القضاء المحتوم لفقيد مصر فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ وكيف كانت جنازته الشعبية التى خرجت فيها الأمة كلها تشيع فقيدها وسجل الرافعى المراثى من

أقوال الشعراء والادباء منها شعر أمير الشعراء أحمد شوقى وحافظ إبراهيم شاعر النيل وخليل مطران وأحمد محرم وغيرهم.

ولم يكتف الرافعى فى كتابه عند هذا الحد بل أوضح كيف خلدت مصر زعيمها فى إنشاء ضريح له ضم رفاته فى ١٠ فبراير سنة ١٩٥٣ بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ وبعد ٤٥ سنة من وفاة مصطفى كامل ثم ضم الضريح رفات محمد فريد فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩٥٣ بعد ٣٤ سنة على وفاة فريد وشاءت الأقدار أن يضم جثمان عبد الرحمن الرافعى الذى توفى فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٦٦ فى اليوم التالى بجوار زعيمى الحركة الوطنية والجهاد مصطفى كامل ومحمد فريد، ثم بهذا التمثال القائم فى ميدان مصطفى كامل بالقاهرة.

اوضح الرافعى فى كتابه علاقة الفقيد بالخديوى عباس حلمى الثانى وعلاقته بتركيا ورد على هذه الفرية التى وجهها البعض لمصطفى كامل أنه من أنصار السيادة العثمانية بتحقيق علمى وسياسى سليم انتهى فيه إلى تمسك مصطفى كامل بمصريته ووطنيته، يتمثل ذلك فى قوله «لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا».

ان الكتاب لا غنى عنه لكل قارئ يريد معرفة سيرة الزعماء وحياتهم وكفاحهم وعلاقتهم بكبار الساسة والمسئولين وزملائهم وتلاميذهم، جزى الله الرافعى خير الجزاء على ما قدمه من مؤلفات فى الوطنية وتاريخ مصر القومى حديثها وقديمها وفى عصورها الوسطى وهيأ الله سبحانه وتعالى له مقاما حميدا فى جنات النعيم.

المستشار

حلمى السباعى شاهين

نائب رئيس قضايا الحكومة السابق

أكتوبر سنة ١٩٨٤

مقدمة الطبعة الخامسة

نحمدك يا رب. إذ الطبعة الخامسة من كتاب «مصطفى كامل» بين يدى القارئ وهى مطابقة تماما للطبعة الرابعة التى ظهرت سنة ١٩٦٢.

والله ولى التوفيق

سنة ١٩٨٤ كريمات المؤلف

عبد الرحمن الرافعى

مقدمة الطبعة الثالثة

ظهرت الطبعة الأولى لكتاب «مصطفى كامل» سنة ١٩٣٩، والطبعة الثانية سنة ١٩٤٥، واليوم تظهر الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٠.

لئن كان «مصطفى كامل» قد انتقلت روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى سنة ١٩٠٨، فإن تاريخه لا يقف عند هذه السنة، بل إنه مستمر إلى اليوم وإلى غد وإلى ما شاء الله، وإذا كانت الأعوام والأيام من شأنها أن تجر على الحوادث والأشخاص ذيول النسيان، فإن هذا ليس شأن العظماء والعباقرة، بل إن مرور السنين والأجيال تزيدهم رفعة وخلوداً، ولا غرو فهم قطعة من عمر الزمان، وهم بناة الإنسانية ودعائمها، فكل مرحلة من عمر الزمان وتطور الإنسانية تجدد من ذكراهم، فهم لا يزالون أحياء فى كل عصر وفى كل عام. وإذا كان مصطفى كامل قد فارق هذه الدنيا منذ اثنتين وأربعين سنة، فإن دعوة الجلاء التى كانت أساس رسالته الوطنية، والتى دعا إليها منذ ستين سنة، وناضل من أجلها، وفنى فى سبيلها، قد استقرت فى النفوس، وصارت مع الزمن عقيدة الأمة وموضع الإجماع من المواطنين جميعاً، وصارت علَم الجهاد وقوامه، فى شمال الوادى وجنوبه، وهذا هو الخلود الذى يجعل مصطفى كامل حياً فى نفوسنا، وكأنه لا يزال بيننا.

لم تكن الدعوة إلى الجلاء أمراً ميسوراً فى العصر الذى نشأ فيه مصطفى كامل، فلقد ظهرت دعوته سنة ١٨٩٠ فى وقت خيَّم اليأس فيه على نفوس المصريين، فبدت غير معقولة ولا مقبولة، وعدّها الناس وهما من الأوهام أو حُلماً من الأحلام، ولكن مصطفى كامل كان مؤمناً برسالته، فنهض بها، وشق لها طريقها وسط العقبات والعراقيل، والآن شهدت البلاد منذ وضعت الحرب العالمية الأخيرة أوزارها سنة ١٩٤٥ استقراراً لهذه الدعوة وإيماناً بها فى نفوس سكان الوادى، فصارت شعارهم، وصارت عقيدتهم، واحتلت مكان الصدارة فى أهداف البلاد الوطنية، فإيمان الأمة برسالة مصطفى كامل هو بعث وإحياء لتاريخه، وهو استمرار لهذا التاريخ.

والطبعة الثالثة من هذا الكتاب تزيد على الطبعة الأولى بما جاء فيها عن إزاحة الستار عن تمثال الفقيد سنة ١٩٤٠، وقد وردت هذه الزيادة فى الطبعة الثانية، ثم إقامة الضريح الجديد لمصطفى وفريد، وهى زيادة جديدة، إذ تم فى العام الماضى (١٩٤٩) تشييد الضريح الجديد، وصدر قرار الحكومة بنقل رفات المرحوم محمد فريد إلى جوار مصطفى كامل، وهكذا يتاح للزعيمين العظيمين، والصديقين الوفيين، أن يلتقيا بعد طول النوى، ويضمهما قبرٌ واحد، بعد أن فرق الزمن بينهما نيفاً وأربعين سنة.

والله أسأل أن يجعل لنا من حقائق التاريخ ما يزيدنا علماً وبصيرة وإيماناً.

أبريل سنة ١٩٥٠

عبد الرحمن الرافعى

مقدمة الطبعة الثانية

ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب سنة ١٩٣٩، وها هى الطبعة الثانية بين أيدى القارئين والقارئات.

ليس تاريخ العظماء مجرد سرد وقائع لحياتهم وأعمالهم بل أهم من ذلك أن تبرز فيه صورة واضحة لمبادئهم التى نشروها، والرسالة التى أدوها، وبذلك يكون تاريخهم مرآة لهذه الرسالة وهاتيك المبادىء.

إن رسالة مصطفى كامل التى تخلد على الزمن هى رسالة الاستقلال الحقيقى لمصر والسودان، الاستقلال الذى لا يتحقق إلا بجلاء كل قوة أجنبية عن البلاد، فالجلاء فى نظر مصطفى كامل هو الرمز الصحيح، للاستقلال الصحيح، هو جوهر الاستقلال ومعناه وهو أساسه ومبناه، ولذلك جاهد الاحتلال الأجنبى طول حياته، ودعا قومه إلى مجاهدته وعدم الأعتراف به، وعدم التعاون وإياه، وكان ينادى طول حياته أن «كل احتلال أجنبى هو عار على الوطن وبنيه»، ذلك هو شعاره، وتلك هى رسالته، لم يقبل فيها هوادة، ولم يتراجع أمام العقبات أو المغريات، وهذا هو السر فى نجاحها واستمرارها من بعده، لأنها الرسالة الطبيعية لكل شعب يفهم معنى الاستقلال، ويتمسك به ويناضل من أجله، ولا يرضى عنه بديلا، وفى ذلك يقول رحمه الله فى محاجة خصومة سنة ١٩٠٠ : «يمكننى اليوم أن أقول أمام الملأ كله أنه لا يستطيع إنسان أن يدعى أنى خالفت مبدأ من مبادئى لحظة واحدة مع تغير الظروف وتقلبات الأحوال، وموت الآمال عند كثير من الرجال، ولا يوجد من يقول إنى عملتُ طمعاً فى عز أو ثروة، لأن الطامع فيها لا يقف موقفى ولا يجاهد ضد الاحتلال».

إن رسالة مصطفى كامل يجب أن تبقى، وعلينا أن نحافظ عليها، علينا أن لا نقبل التعاون مع الاحتلال ما بقى الاحتلال فى هذه البلاد - مصر والسودان - تحت أى شكل وبأى اسم كان، ولقد بقيت هذه الرسالة ما بقى خلفاؤه يحملونها ويناضلون عنها،

وفى ذلك يقول محمد فريد - رمز الإخلاص والتضحية - حين عرض عليه الاشتراك فى الوزارة سنة ١٩١٠: «كيف تطلب منى الاشتراك فى حكم البلاد وأنا أجاهد الاحتلال، وكيف يتفق النقيضان».

ظلت هذه الرسالة قائمة فى عهد الاحتلال، وفى عهد الحماية، ثم فى ظل معاهدة ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦، التى رفضها الحزب الوطنى، وما كان له أن يقبلها أو يقرها، وهى تناقض رسالته التى حملها فى مختلف العهود، وما كان لهذه الرسالة أن تتغير أو تتبدل، سواء بعد إعلان الاستقلال الإسمى فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢، أو بعد إبرام معاهدة سنة ١٩٣٦، فإن الاحتلال الأجنبى قد بقى قائماً فى ظلها.

بقيت هذه الرسالة سليمة وبرزت واضحة جلية فى سياسة الحزب الوطنى وموقفه إلى بضع سنوات مضت، وفى ذلك قال الأستاذ مصطفى الشوربجى بك فى خطبته التى ألقاها باسم الحزب الوطنى سنة ١٩٢٣ فى إحدى الأزمات الوزارية: «تريدون أن تسمعوا كلمة الحزب الوطنى فى الوزارتين الماضية والحاضرة، إنها كلمة مختصرة، فنحن نرى أن كل وزارة تتألف فى عهد الاحتلال لا تستطيع أن تفيد الأمة بقدر فائدتها للسياسة الانجليزية، بل إن أية وزارة تتألف فى هذا الجو لا يمكن لها أن تقدم للبلاد إلا فائدة ظاهرية».

وعندما ائتلف الحزب الوطنى مع الأحزاب السياسية لإعادة الحياة الدستورية وعادت سنة ١٩٢٦ بفضل دعوته وجهاده مع الأحزاب المؤتلفة، امتنع عن الاشتراك فى الوزارة التى تألفت فى أعقاب الانتخابات لقيامها على أوضاع سياسية تخالف مبادئه، وفى ذلك أعلن (اللواء المصرى) لسان حال الحزب الوطنى وقتئذ «أن الحزب الوطنى لم يكن فى أى وقت من الأوقات سواء قبل الحرب أو بعد الحرب يرمى إلى تملك ناصية الحكم، وهو زاهد فى هذا الأمر مادام الاحتلال قائما فى البلاد، لأنه على يقين بأن حكومة ما لا تستطيع أن تخدم الأمة خدمة صادقة نافعة فى حرية واختيار وإلا اصطدمت به صدمة تكشف عن ضعف غالبية البلاد وهنا تكون الطامة الكبرى سواء كان الموقف شريفاً بترك الحكم أو ذليلا بالرضوخ والعدول عن خدمة البلاد إلا وفق مرامى الغاصب»، وأيد الأستاذ حافظ رمضان باشا هذا المعنى فى حديثه بجريدة الأنفور ما سيون إذ سأله محدثه: «هل يمكنكم أن تحدثونى عن موقف الحزب الوطنى إزاء تطور الأزمة الحاضرة وهل تقبلون الدخول فى وزارة؟» فأجابه على الفور: «يمكننى أن أصرح لك فى غير مواربة أن الحزب الوطنى

الذى أتشرف برآسته بعد كبار الرجال الذين ذاع صيتهم ليس له مطمع وزارى فى النظام الحاضر، إن برنامجنا واضح جدا، وهو يفرض علينا خطة صريحة جلية. ولكن فى انتظار حوادث جديدة تنشىء لنا أمراً جديداً، قد رأينا أن لا نضع أية عقبة فى سبيل وزارة تعمل على إعادة الحياة الدستورية وتبذل الجهد فى إدارة أعمال البلاد فى طريق الرقّى، فالحزب الوطنى هو وطنى قبل أن يكون سياسيًّا».

ولم يتبدل أساس الوضع السياسى القائم فى البلاد بعد إبرام معاهدة ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦. بل إن هذه المعاهدة قد أقرت ما أقرت من أوضاع نهض الحزب الوطنى لمقاومتها على تعاقب السنين، وأخصها الاحتلال الأجنبى وفصم عرى الوحدة بين مصر والسودان.

وما كان للحزب الوطنى وقد ارتبط ماضيه ووجوده بمقاومة هذه الأوضاع التى تناقض الاستقلال الصحيح أن ينفصل عن ماضيه لمجرد إبرام معاهدة رفضها وأنكرها استمساكا بمبادئه؛ ولكن فريقاً من أعضائه قد سلكوا منذ بضع سنوات طريقاً يتعارض مع هذا الماضى المجيد، فوافقوا على اشتراك الحزب فى الوزارة فى ظل هذه المعاهدة وعلى أساس تنفيذها «بروح الود والاخلاص»، وبذلك أقروا التعاون الودى مع الاحتلال الأجنبى، ولم يكن التعاون مع الاحتلال مبدأ ولاشعاراً لحزب الجلاء، وليس هو التراث الوطنى الذى خلفه لنا مصطفى كامل ومحمد فريد.

ولعل فى كتاب (مصطفى كامل) ما يبصرنا برسالة (مصطفى كامل) ويحييها فى نفوسنا، ويجلوها على وجهها الصحيح، فنعرف منها كيف يكون الجهاد الخالص لله والوطن.

والله أسأل أن يهدينا سواء السبيل

يناير سنة ١٩٤٥ — عبد الرحمن الرافعى



مقدمة الطبعة الأولى

هذا هو الكتاب الذى اعتزمتُ وضعه عن «مصطفى كامل» منذ سنوات عدة، وقد تأخرتُ فى إخراجه عن الموعد الذى كنت قدرته، لأننى إذ بدأت فى كتابة فصولة الأولى استوقفنى البحث فى مبدأ ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديثة، فبدا لى أن أرجع إلى الأدوار التى سبقت عهد مصطفى كامل، لكى أقف عند حد يصح أعتباره مبدأ الحركة القومية، فانتهى بى البحث إلى اعتبار المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر أول دور من أدوارها ومن ثم اتجهت نيتى إلى دراسة تلك الأدوار على التعاقب، قبل الكتابة عن مصطفى كامل، فانتظرت حتى أتممت المجلدات السبعة التى وضعتها فى تاريخ الحركة القومية وأدوارها، من عهد ظهورها فى إبان الحملة الفرنسية، وتطورها بعد انتهاء تلك الحملة، إلى اكتمالها فى عصر محمد علـى، ثم تجددهـا فى عهد سعيـد وإسماعيـل، إلى الثورة العرابية، ثم الانحلال الوطنى العام فى السنوات الأولى للاحتلال.

واليوم أكتب من «مصطفى كامل» باعث الحركة الوطنية الحديثة، وغرضى من دراسة تاريخة أن أطالع الجيل بصفحة من الجهاد القومى، تصل حاضرنا بماضينا، وتنير لنا السبيل فى جهادنا الحالى، وجهادنا فى المستقبل، أريد بدراسة هذه الصفحة من تاريخنا القومى أن أدون وقائعها، وأسجل حقائقها، لأن حوادث التاريخ وأعمال الرجال إذا انقضت عليها السنون ولم يسجلها القلم، يخشى أن يجر عليها الزمان ذيول الإهمال والنسيان.

* * *

من أراد أن يعرف فضل مصطفى كامل على الحركة الوطنية ويستخلص من تاريخه صورة عامة لشخصيته، فليرجع ببصره إلى العصر الذى ظهر فيه، فلقد ظهر سنة ١٨٩٠

على حين فترة من الحركة الوطنية، وهجعة من الكفاح القومى، وانحلال فى الروح المعنوية، ظهر والنفوس قد استحوذ عليها اليأس والقنوط، على أثر إخفاق الثورة العرابية واحتلال إنجلترا مصر سنة ١٨٨٢، ظهر حين خيم على البلاد جو من الخضوع والاستسلام، بقى مضروبا عليها نحو عشر سنوات، فنهض يدعو إلى الحرية والاستقلال، فى وقت تحالفت فيه عوامل اليأس، وتضافرت أسباب الجمود والضعف، دعا دعوته، فبدأت غريبة عن الأذهان، بعيدة عن الأفهام، وتساءل معاصروه كيف تقوم حركة وطنية لاستخلاص الاستقلال من يد أقوى الدول نفوذاً وأوسعها سلطانا ؟ ولكن وطنية مصطفى كامل كانت أقوى من الجيل الذى ظهر فيه. وأقوى من العوامل المثبطة، فأخذ يثابر عل دعوته، ويناضل عنها، حتى استجابت الأمة لندائه، فكانت نهضة، وكانت حياة، وكان شعور، وكان جهاد، كانت رسالته إلى مصر كصرخة الحياة المدوية فى سكون النوم العميق، كانت رسالة الأمل بعد اليأس، والحياة بعد الخمود، والكرامة بعد الهوان، والجهاد للحرية والاستقلال، بعد الاستسلام للاحتلال والاستعباد، وإذا كانت الدعوة الوطنية التى دعا إليها وناضل من أجلها قد صارت بعد ثمانية عشر عاماً من جهاده طبيعية محببة إلى النفوس، فإن الطريق إليها كان شائكا، ولقد كانت فى حاجة إلى إقدامه، وعبقريته وإيمانه، فهى كحادث اكتشاف القارة الأمريكية، ظهر طبيعيًّا ومعقولا بعد تمام الاكتشاف، ولكنه كان فى حاجة إلى إقدام «كريستوف كولومب» وعبقريته.

* * *

ولد مصطفى كامل سنة ١٨٧٤، وظهرت وطنيته أول ما ظهرت سنة ١٨٩٠ حين كان لا يزال طالباً بالمدرسة الثانوية، إذ شعر بهاتف الوطنية يهتف بين جنبيه، يناديه بأن عليه واجباً نحو مصر يجب أن يؤديه، ويدعوه إلى الجهاد لتحرير الوطن من الاحتلال الأجنبى، وعرف فيه على باشا مبارك وزير المعارف وقتئذ أنه الشاب الذى سيكون له شأن كبير، فقال له: «إنك امرؤ القيس»، وبشره بأن سيكون عظيما، وقد تحققت نبوءته، فصار الفقيد عظيما بوطنيته وجهاده، ثم دخل مدرسة الحقوق سنة ١٨٩١، واختارها «لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأمم والأفراد» كما قال فى كتاب له إلى شقيقه على فهمى كامل (بك) فى ١٢ يوليه سنة ١٨٩١. دخلها لكى يعد نفسه لأداء مهمته الوطنية. وقد راسل الصحف وهو بعد طالب، وأنشأ مجلة (المدرسة) سنة ١٨٩٣

وهو طالب، واتخذ شعارها (حبك مدرستك حبك أهلك ووطنك) فالوطنية كانت عقيدته وشعاره وهو فى تلك السن المبكرة، نشأت فيه دون أن يتلقاها عن معلم، أو يقتبسها من العصر الذى ظهر فيه، لم تكن نتيجة درس أو تعليم، بل كانت وحى الإلهام والعبقرية، ثم نال شهادة الحقوق سنة ١٨٩٤، فلم يتبع ما درج عليه معاصروه من اختيار منصب فى الحكومة، أو الانتظام فى سلك المحاماة، بل وقف حياته على ما عاهد عليه الوطن من المحاماة عن الأمة، والعمل لاستقلالها وحريتها وكرامتها، وقد صدق وعده، إذ كانت سنو حياته وقفاً على الجهاد، فكان لايفتأ يعمل، ويكتب، ويخطب، ويؤلف، ويجوب البلاد متنقلا، رافعاً صوت مصر فى الداخل والخارج، ينادى بحريتها واستقلالها، مستحثاً مواطنيه على الالتفاف حول راية الجهاد والأمل حتى تفتحت الأذهان على توالى السنين إلى قبول دعوته، ثم جاءت سنة ١٨٩٨، ووقعت فيها حادثة فاشودة، فصُدمت الحركة الوطنية صدمة زلزلت الأمل الذى أحياه مصطفى فى النفوس، بدأت تلك الحادثة بتنازع فرنسا وانجلترا على المسألة المصرية، وكان الظن أنها تنتهى بجلاء الانجليز عن مصر، ولكنها انتهت على العكس بتراجع فرنسا، ورسوخ أقدام الاحتلال فى وادى النيل، وأعقبها إبرام اتفاق السودان بين مصر وانجلترا فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩، ذلك الاتفاق الذى قضى على مركز مصر فى السودان، فيئس المصريون، وانصرفت نفوسهم وقتاً ما عن الاستماع إلى النداء الوطنى، ولكن مصطفى كامل لم ييأس ولم يتراجع، بل استمر ماضياً فى جهاده، وعول من ذلك الحين على عدم الاعتماد على فرنسا، وفقد أمله فى عدالة أوروبا عامة، منذ رأى جمودها أمام مأساة (البوير) سنة ١٩٠٠ وتركها إياهم يسحقون أمام القوات الانجليزية، دون أن تأبه لهم، فدعا الأمة إلى الاعتماد على النفس، ومتابعة الجهاد، وكان هو المثل الأعلى فى الثبات والمثابرة، والشجاعة والإقدام، وأنشأ اللواء سنة ١٩٠٠، فكان مدرسة تعلم المصريين حقوقهم وواجباتهم، وثبت فيهم روح الوطنية الصادقة، والأخلاق الفاضلة، واستمر يناضل عن مصر على صفحات اللواء، وفوق أعواد المنابر، وفى صحف أوروبا وأمريكا، إلى إن جاءت سنة ١٩٠٤، فصُدمت الحركة الوطنية صدمة جديدة، إذ أبرم العهد المعروف «بالاتفاق الودى» بين فرنسا وانجلترا، وبمقتضاه أقرت فرنسا الاحتلال الانجليزى فى مصر، وتعهدت بألا تعرقل عمل انجلترا فيها، فكان لهذا الاتفاق أسوأ الأثر فى نفوس كبراء مصر وعظمائها، ورجالها المعدودين، ورأى أكثرهم أن الخير لهم فى مسالمة الاحتلال، والانضواء تحت لوائه، واكتساب رضاه، ولكن

مصطفى كامل خالفهم واستمر فى طريقه يحمل علم الجهاد، لاينى ولا ينثنى، مناديا بالجلاء، وتجلت وطنيته فى روعتها حين عظمت هموم الوطن، وقلّ المعين والناصر، فقد ضاعف جهوده، وصمد للعقبات والعراقيل، يتغلب عليها بقوة العزيمة والإيمان، وبتأثير دعوته ووطنيته ومثله الأعلى نشأ جيل من المصريين أشربت نفوسهم الوطنية الحقة، وحب الحرية والاستقلال، ودرجوا على الأمل والحياة، وتعددت مظاهر هذه الحياة الجديدة، وأهمها تأسيس نادى المدارس العليا سنة ١٩٠٦، إذا اجتمعت فيه صفوة الشبيبة المصرية المثقفة، وتشبعت بتعاليم الفقيد ومبادئه، متعاهدة على الإخلاص فى خدمة الوطن، وبذلك سرت روحه إلى الطبقة المثقفة من الأمة، ثم كانت حادثة دنشواى فى يونيه سنة ١٩٠٦، فحمل فيها الفقيد على الاحتلال وسياسته الحملات الصادقة، وجاءت محققة لصدق نظره فى أن لا حياة للأمة ولا كرامة لها بغير الاستقلال، ومن انتشرت تعاليمه ومبادئه حتى سرت إلى طبقات الشعب كافة وضاعف الفقيد جهاده، وظل يخطب ويكتب ويعمل فى أوروبا وفى مصر داعياً إلى الاستقلال، وأنشأ سنة ١٩٠٧ جريدتين يوميتين، إحداهما بالفرنسية (ليتندار اجبسيان) وأخرى بالانجليزية (ذى اجبشيان استاندارد)، تدافعان عن حقوق مصر فى العالم الأوروبى، إلى جانب (اللواء) فى العالم الشرقى، وهكذا كان الفقيد يصدر ثلاث صحف يومية كبرى، بثلاث لغات مختلفة للدفاع عن مصر، وهى مهمة تنوء بها العصبة أولو القوة من الرجال والجماعات، وقد تأثرت صحته من هذه الجهود المضنية المتواصلة، وشعر بدبيب المرض فى سنة ١٩٠٦، حيث كان بباريس صحبة صديقه وزميله فى الجهاد محمد بك فريد، لاختيار محررى جريدتى ليتندار اجبسيان وذى اجبشيان استاندارد، وهناك عاده طبيب عالمى مشهور، وبعد أن فحص عن مرضه نصحه بحضور فريد بك أن يترفق بصحته ولا يحملها فوق طاقتها، ولكنه لم يسمع لنصح الناصحين، وسارع الخطى فى تنفيذ مهمته، لكى يتمم رسالته قبل أن يدركه الأجل، فكانت سنوات ١٩٠٦ و١٩٠٧ وأوائل سنة ١٩٠٨ حافلة بعظائم الأعمال، ومازال يجاهد ويناضل حتى ذوت زهرة شبابه فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره.

* * *

إن الثمانى عشرة سنة التى قضاها الفقيد فى الجهاد هى أساس الحركة الوطنية الحديثة، فهو باعثها ومحييها، وبانيها وسط الشدائد والعقبات، ومدعمها بالإيمان

والشجاعة والثبات، ومغذيها بالإخلاص والتضحية، مات فى ميدان الجهاد كقائد الجيش فى ساحة الوغى، يرى الخطر محدقا به، فلا يكترث له، ويتقدم الصفوف حتى يستشهد فى سبيل الواجب، أو كما قال فريد بك «مات رئيسنا فى ساحة الوغى كالقائد يعانى سكرات الموت ويده تشير إلى جنده بالتقدم إلى الأمام».

فالروح التى بعثها مصطفى كامل فى الأمة هى التى صارت على مر السنين غذاء الحركة الوطنية، وهى التى مهدت السبيل لثورة ١٩١٩ التى اعتاد الكثير من الكتاب أن يجعلوها مبدأ الحركة الوطنية، وهم فى ذلك مخطئون، لأن الثورات ليست حركات ميكانيكية تبدو فجأة للناظرين، بل هى حوادث اجتماعية، تتمخض عنها حياة الشعوب تبعاً لدرجة استعدادها، ونتيجة لسريان روح الوطنية فى نفوس أبنائها، فلولا الوطنية التى بثها مصطفى كامل فى نفوس المصريين خلال الثمانية عشر عاما التى قضاها فى الكفاح، لمرت سنة ١٩١٩ كما تمر غيرها من السنين، دون أن تتجلى فيها روح الثورة، فالثورة هى غرس الوطنية. والوطنية هى نتيجة جهاد مصطفى كامل المتواصل طوال هذه السنين، ولهذه الصفحة من الجهاد قد خصصت هذا الكتاب، فاليوم أؤرخ «مصطفى كامل» وغداً بمشيئة الله سأؤرخ «محمد فريد» وبذلك أكون قد أديت واجبى نحو عبافرة الوطنية الذين رسموا للأمة طريق الجهاد الخالص لله والوطن.

أقسام الكتاب

أفردت الفصل الأول من الكتاب لدراسة نشأة الفقيد والعصر الذى ظهر فيه، وتناولت الكلام عن نشأته العائلية والمدرسية، ثم الأخلاقية والوطنية، يليه الفصل الثانى وفيه بيان المرحلة الأولى من جهاده فى عهد التلمذة، والفصل الثالث عن المرحلة الثانية، بعد حصوله على شهادة الحقوق، ثم الفصول الثلاثة التالية عن جهاده من سنة ١٨٩٤ حتى سنة ١٨٩٧، والفصل السابع عن حادثة فاشودة وجهاده سنة ١٨٩٨. والذى يليه عن جهاده عام ١٨٩٩، يتبع ذلك الكلام عن ظهور اللواء سنة ١٩٠٠ والجهاد الأكبر، ثم الاتفاق الودى الإنجليزى الفرنسى سنة ١٩٠٤، وأثره فى الحركة الوطنية، وموقف الفقيد منه، ومضاعفة جهوده بإزائه، ثم تأسيس نادى المدارس العليا، ثم حادثة دنشواى واستقالة اللورد كرومر، فظهور جريدتى ليتندار اجبسيان وذى اجبشيان استاندرد، يلى ذلك تأسيس الحزب الوطنى، وخطبة الفقيد الكبرى بالإسكندرية، يليه الفصل الخامس عشر عن وفاة الزعيم وجنازته، ومراثى الشعراء والكتاب فيه، ثم الفصل السادس عشر عن الخديو عباس الثانى وتاريخ مصر السياسى فى عهده، يلى ذلك فصول تحليلية عن مصطفى كامل والخديو، ومصطفى كامل وتركيا، ثم مجلس شورى القوانين، ثم مصطفى كامل ومعاصريه، يليه الفصل الحادى والعشرون وفيه دراسة لشخصية الزعيم وصفاته وأخلاقه ومقدرته السياسية والخطابية والصحفية، وتضحياته فى الجهاد، وفضله فى بعث الحركة القومية وتأسيس الوحدة الوطنية، ثم الفصل الأخير (الثانى والعشرون) وفيه نماذج من حياته الخطابية، وبه ختام الكتاب.

* * *

إن الحديث عن مصطفى كامل يتجدد كلما تعاقبت الحوادث وكرت الأعوام، إذ من الحق علينا للزعماء الراحلين أن نذكر على الدوام فضلهم ولا ننساهم، فالوفاء ركن من أركان الوطنية، بل هو ركن الفضائل وقوامها، والأمم الحية هى التى تعرف أقدار بنيها الذين أفنوا حياتهم فى سبيل مجدها وعظمتها، وإنى بإخراج هذا الكتاب لا أنشد الوفاء

فحسب، بل أقصد المساهمة العملية فى النهضة القومية، لأنه مهما تعددت نواحى النهضة وسبلها، فمن الواجب لكى تؤتى ثمرها أن ترتكز على أساس ثابت من الروح الوطنية العامة التى تضع مصالح الوطن فوق المطامع الشخصية والمنافع الذاتية، وليس أدعى إلى بث هذه الروح فى النفوس من الرجوع إلى تاريخ الزعماء والمجاهدين الذين كانت حياتهم رمزاً للاخلاص والتضحية، فمن ذكرياتهم نستروح نسيم الوطنية الصادقة، وستبقى سيَرهُم على مر الزمان مثالا يُقتدى به فى العمل لإحياء الوطن، هذا ما أنشد وإليه أقصد، «إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب».

يناير سنة ١٩٣٩   عبد الرحمن الرافعى



الفصل الأول

نشأة الفقيد والعصر الذى ظهر فيه

نشأته العائلية

ولد مصطفى كامل بمدينة القاهرة بحى (الصليبة) بقسم الخليفة يوم ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٤ م (أول رجب سنة ١٢٩١ هـ)، وهو ابن (على أفندى محمد)أحد خيار المهندسين الضباط.

والد المترجم

نشأ (على أفندى محمد) فى بلدة كتامة الغاب من أعمال مركز طنطا عاصمة الغربية، إذ كان والده من تجارها، ودخل فيمن دخل من أبناء التجار مدرسة طره سنة ١٢٤١ هـ (١٨٢٥ م)، ومكث بها خمس سنوات، ثم انتقل إلى مدرسة (الخانكة) وبقى بها أربع سنوات كان فيها مثال الجد والاستقامة، وكان أول أقرانه. وفى سنة ١٢٥٠ هـ (١٨٣٤ م) نال رتبة الملازم الثانى مهندساً طوبجيا وعين معيداً فى المدرسة، ثم نقل إلى بلوكات المهندسين التى كانت تعمل فى إقامة الكبارى وبناء الثكنات فى عهد محمد على، ثم رقى إلى رتبة الملازم الأول فى عهده أيضاً، وإلى رتبة اليوزباشى فى عهد عباس باشا الأول، وعين قومندانا لأحد بلوكات المهندسين.

وفى سنة ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣ م) شيد منزلا بحارة درب الميضأة بشارع شيخون، وهو المنزل الذى ولد فيه المترجم، وفى عهد سعيد عين ضمن أركان حرب معيته، ثم أحيل إلى الاستيداع فى عهد اسماعيل، ثم عين مهندساً ملكياً بوزارة الأشغال حتى أحيل إلى المعاش سنة ١٢٩٤ هـ[1] (١٨٧٧ م) وقد أنجب من البنين سبعة، ومن البنات اثنتين،

(١) هذه البيانات الأولى عن كتاب (سيرة مصطفى كامل) تأليف على فهمى كامل بك شقيق الفقيد.

فأبناؤه هم: المرحوم محمد أفندى على الذى كان صيدلياً بطنطا وتوفى سنة ١٢٢٠ هـ (وهو والد الأستاذ أحمد زكى المستشار بمحكمة النقض فيما بعد) ثم المرحوم سليمان افندى علوى الذى تخرج من مدرسة الحقوق وعين بالمحاكم المختلطة وتوفى فى التاسعة



المنزل الذى ولد فيه الفقيد سنة ١٨٧٤
بدرب الميضة بشارع شيخون بالصليبة

والعشرين من عمره، ثم حسين بك (باشا) واصف وزير الأشغال الأسبق، ثم المرحوم الدكتور عبد الفتاح فتحى من نوابغ خريجى مدرسة الطب (وقد توفى سنة ١٨٩٤ م)، وأنجب من السيدة «حفيظة» المرحوم على بك فهمى كامل، ثم المترجم، ثم السيدة

عائشة حرم المرحوم عثمان افندى صبرى (والد ابراهيم افندى صبرى من نوابغ خريجى كلية الحقوق سنة ١٩٣٧ وسفير الجمهورية العربية المتحدة فى ألمانيا الغربية الآن)، ثم الأستاذ حسن حسنى كامل أمد الله فى حياته، ثم المرحومة السيدة نفيسة وهى آخر خلف له.

كان الفقيد ضابطا ومهندسا، جمع بين الصبغة الحربية والصبغة الملكية، إذ كان فى أواخر عهده بالحكومة مهندساً ملكياً، وكان معروفا بالاستقامة والشهامة وطيب العنصر والأخلاق الكريمة، وكان له من غير شك فضل كبير فى ظهور مصطفى كامل، إذ كان يعنى بتربية أولاده وتنشئتهم النشأة الصالحة، فكان إذا بلغ الولد الخامسة من عمره دعا أحد الفقهاء إلى منزله لتلقينه مبادئ القراءة والكتابة، فإذا شب أرسله إلى الكتّاب ليحفظ ماتيسر من القرآن الكريم، ثم يدخله المدرسة. وكان من ناحية أخرى يجمع أولاده حوله فى معظم الليالى ويقص عليهم أحاديث الشهامة والنجدة، ويعلمهم الصدق والإخلاص؛ كما كان يتفقد أحوالهم فى المدرسة، هذا فضلا عن أنه هو بذاته وبأخلاقه الطيبة كان قدوة لأولاده، فعلى افندى محمد له يد طولى فى نشأة الفقيد وتربيته الحسنة، وهذه التربية قد مهدت السبيل للنشأة الوطنية التى نشأها الفقيد.

والدة المترجم

وكذلك كان لوالدته السيدة حفيظة كريمة المرحوم اليوزباشى محمد افندى فهمى فضل كبير فى نشأته. وهى سيدة من فضليات النساء من جهة المحجر بالقاهرة (بشارع الكومى)، وكانت على جانب كبير من مكارم الأخلاق، وكان الفقيد يعزها ويجلها ويشيد بذكرها طول حياته، وحزن أشد الحزن على وفاتها سنة ١٩٠٧، وقد انطبعت فيه أخلاقها من صفاء النفس وحب الخير، والصبر والجلد، مرضت بالقلب فى آخر حياتها عدة أشهر، وكانت وطأة المرض تشتد عليها بين حين وآخر، ولكنها كانت تقابل آلام المرض بالصبر والجلد، وظلت كذلك حتى أسلمت الروح، فهذا الصبر على احتمال الآلام والمتاعب قد ورثه الفقيد عن والدته الفاضلة.

نشأة الفقيد المدرسية

بدت على مصطفى كامل مخايل الذكاء والنجابة وقوة الذاكرة فى طفولته، وكان كثير الاهتمام بما يحدثه به أبوه من القصص على عادته مع أولاده، ويعى هذه القصص ويدركها تمام الإدراك وهو بعد لم يتجاوز الخامسة من عمره، وقد عهد أبوه وهو فى هذه السن إلى فقيه يدعى الشيخ أحمد السيد أن يعلمه فى المنزل مبادئ القراءة والكتابة؛ ويحفظه القرآن الكريم؛ ولما أتم السادسة أدخله مدرسة (والدة عباس الأول) الابتدائية بالصليبة، وهى القائمة إلى الآن، فهذه المدرسة تفخر بحق بأنها أول معهد علمى تخرج فيه نابغة مصر العظيم.

وبدا على مصطفى أول مابدا فى أول عهده بالحياة المدرسية تعلقه بعلم الحساب وميله إليه أكثر من ميله إلى أى علم آخر، ولا غرو فأبوه كان مهندساً، فورث عنه الميل إلى العلوم الحسابية، وظهرت عليه أيضاً علائم الشمم والإباء والشجاعة، فمن ذلك أنه بعد أن مكث بمدرسة والدة عباس سنتين حدث أن تلميذاً معه فى الفرقة سأله الأستاذ سؤالا لم يجب عليه فأجاب بدلا منه، فسبه الأستاذ وعاقبه بالحبس ساعتين، فعافت نفسه هذا الظلم، وطلب إلى أبيه أن يلحقه بمدرسة أخرى لأنه لم يستطع أن يتحمل هذه الإهانة، فذهب والده فى اليوم التالى وحقق الحادثة وتبين أن ابنه محق فى شكواه، فأخرجه من المدرسة وأدخله مدرسة (السيدة زينب) الابتدائية التابعة لوزارة الأوقاف وأكب على الدرس فى تلك المدرسة كما كان دأبه فى مدرسة والدة عباس إذ كان شديد الإقبال على الدرس والمذاكرة، وبدا منه الميل الكبير إلى دروس التاريخ، وظهر ذكاؤه الفائق واستعداده الكبير فصار أول أقرانه.

وفاة والده

أدركت والده الوفاة يوم ٢٣ جمادى الثانية عام ١٣٠٣هـ (١٨٨٦م) والفقيد فى مدرسة السيدة زينب، فحزن لوفاته حزنا شديداً وأثر فيه الحزن تأثيراً عميقاً، وقد كفله من بعده أخوه الأكبر حسين بك (باشا) واصف (وزير الأشغال الأسبق) فطلب منه أن ينقله إلى

مدرسة (القربية) لأنها أقرب إلى منزل جده لأمه الذى أقام فيه وإخوته، فأجابه أخوه إلى طلبه ونقله إليها.

حصوله على الشهادة الابتدائية

وفى هذه المدرسة تجلت فى الفقيد مواهبه فى الذكاء والعزيمة والجد والاجتهاد، فتفوق أيضاً على أقرانه بها، ونال شهادة الدراسة الابتدائية فى احتفال فخم حضره الخديو الأسبق توفيق باشا سنة ١٨٨٧.

فى المدرسة الثانوية

دخل المترجم المدرسة التجهيزية (الخديوية) سنة ١٨٨٧، وكان من أساتذته فيها الدكتور محمود بك فوزى الحكيم، وأحمد بك كمال، واحمد بك حمدى، وعثمان بك أنور، ومحمد بك إدريس، واسماعيل افندى فهمى، والدكتور محمد بك كامل الكفراوى وغيرهم، وقد ظل الفقيد على صفاته التى لازمته فى التعليم الابتدائى من الجد والإكباب على الدرس والعمل، وظهرت مواهبه من الشجاعة والجرأة والذكاء وقوة الذاكرة واستقلال الفكر وعلو النفس والصراحة فى القول، وحسن الإلقاء، فنال احترام الأساتذة والتلاميذ جميعاً، وكان موضع إعجابهم. وقد عرفه فى ذلك الحين على باشا مبارك وكان وزيراً للمعارف العمومية، فأعجب بفصاحته وشجاعته وقوة عارضته، وقال له مرة: «إنك امرؤ القيس»، وبشره بأن سيكون عظيما، وأعجب به إعجاباً كبيراً، وقابله يوما فى سراى الوزارة وشكى إليه حيف نظام الامتحان إذ أدى إلى رسوبه ورسوب زملائه، فأعجب بجرأته واقتنع بشكواه وحجته، فعدل عن هذا النظام مما أدى إلى نجاح مصطفى وكثير من زملائه، وكان الفقيد على حداثة سنه موضع احترامه، فكان الوزير ينشطه ويدعوه إلى منزله ويناقشه فى المسائل العلمية والاَجتماعية، ويقدمه إلى جلسائه من العلماء والكبراء، ويثنى عليه أمامهم.

فى مدرسة الحقوق

ونال شهادة الدراسة الثانوية (البكالوريا) صيف سنة ١٨٩١، ودخل مدرسة الحقوق الخديوية فى أكتوبر من تلك السنة، ونجح فى امتحان السنة الأولى، ثم التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية فى أكتوبر سنة ١٨٩٢، وجمع بين المدرستين، وحصل على شهادة الحقوق من كلية تولوز فى نوفمبر سنة ١٨٩٤.

نشأته الأخلاقية

إن الأخلاق هى مهد الوطنية وقوامها، فالأمم التى يتحصن أفرادها بالأخلاق هى التى تنمو فيها الوطنية وتتأصل فى نفوس أبنائها، ولاغرو فالوطنية الصادقة لا تسكن إلا النفس المتحصنة بالأخلاق القويمة، ولقد كان مصطفى كامل زعيما أخلاقيا كما كان زعيما وطنياً، وكانت نشأته الوطنية متابعة لنشأته الأخلاقية، لأن الأخلاق أساس الوطنية الصادقة.

بدأت نشأته الأخلاقية فى البيت، من حسن تربية والده إياه، وقدوته الحسنة، ثم استمرت فى المدرسة الابتدائية، ثم الثانوية والعالية، ودخل ميدان الجهاد الوطنى متميزاً بالأخلاق التى اكتسبها طفلا وتلميذاً وشاباً، ولازمته طوال حياته.

وأبرز الجوانب فى حياته الأخلاقية الصدق والإخلاص، وقوة العزيمة، والصراحة والشهامة، وعلو النفس. ولقد كانت هذه الأخلاق خير أساس لوطنيته، كما كانت عدته فى الجهاد وسبيله إلى الفوز فى أداء رسالته القومية.

ظهرت هذه الأخلاق للعيان أثناء دراسته بالمدرسة الثانوية، ذكر المرحوم الشيخ على يوسف صاحب المؤيد أنه دخل ذات ليلة على على باشا مبارك فى منزله أوائل سنة ١٨٩٠ وهو يومئذ وزير المعارف، ومجلسه حافل بالفضلاء والأدباء، وإذا بمصطفى كامل وكان وقتئذ تلميذاً بالمدرسة الثانوية يجادل الباشا فى أمره ويقول: إننى لا أطلب منك إلا ماوجدت أنت من مثلك يوم كنت تلميذاً مثلى، ومايدريك ألا أكون عظيما أخدم وطنى غداً بأكثر مما تخدمه أنت اليوم، قال هذا ثم خرج غاضباً، وكأنه ليس بتلميذ، وكأنما الباشا



مصطفى كامل
فى السابعة عشر من عمره

ن يخاطبه ليس وزير المعارف العمومية، وبعد ماخرج ابتسم الباشا وقال إننى أعجب
ماعة هذا التلميذ، ويلذ لى أن يتكلم أمامى بمثل هذه الشجاعة النفسية، ولذلك لم
ره بما أمرت اليوم لأجله، وكان قد أصدر أمره بما طلب منه من قبل، وتركه يخاطبه
هذه اللهجة متلذذاً بما كان يعجبه من كلامه وجداله، قال الشيخ على يوسف: «من
اللحظة عرفت (مصطفى كامل) وكأنما عرفت رجلا لاتلميذاً فى المدرسة».

نشأته الوطنية - سنة ١٨٩٠

تدل الشواهد والبينات على أن نشأة مصطفى كامل الوطنية بدأت وهو بعد فى المدرسة
وية، ونقصد بالنشأة الوطنية اتجاهه إلى العمل والجهاد فى سبيل حرية مصر
تقلالها، بدأ يشعر وهو بعد فى السادسة عشرة من عمره أن عليه واجباً نحو وطنه يجب
يؤديه، ظهر هذا الشعور أول مابدا وهو فى المدرسة الخديوية إذ أسس جمعية أدبية
ة أسماها (جمعية الصليبة الأدبية) واختار لها أعضاء من بين أصدقائه فى التلمذة ممن

توسم فيهم الفضل والذكاء والكفاية، وكانت ثمة جمعية أخرى تسمى (جمعية الاعتدال) تعقد جلساتها الأسبوعية فى مدرسة الأمريكان، فكان المترجم يزورها ليتعرف إلى من فيها من الأفاضل والأدباء فيحبب إليهم زيارة جمعيته، وقد نمت الجمعية ولم يمض على تأسيسها أكثر من ثلاثة أشهر حتى كان فيها نحو سبعين عضواً.

ومن ذلك الحين تعلقت نفسه بالوطنية والخطابة، فكان يقف فى الجمعية خطيباً مساء كل جمعة مرتجلا ماتملى عليه البديهة من الخطب، وتجلت مواهبه الخطابية وهو بعد فى هذه السن المبكرة، وأول خطبة ألقاها كانت فى (فضل الجمعيات فى العالم)، وأخذ يراسل الصحف فى ذلك الحين، ويتجلى تعلقه بالوطنية منذ كان بالمدرسة التانوية من خطابه الذى أرسله إلى شقيقه على فهمى (بك) فى ١٢ يوليه سنة ١٨٩١ لمناسبة حصوله على شهادة الدراسة الثانوية، واعتزامه دخول مدرسة الحقوق الخديوية، إذ يقول فيه مخاطبا أخاه (الذى كان وقتئذ ضابطاً بالسودان):

«السلام عليك أيها الأخ الحبيب، اليوم أبشرك أن العقبة الكؤود التى أمامى وهى شهادة الدراسة التانوية قد زالت من أمامى، فقد نلتها بعد أن أضنت جسمى فأصبح نحيلا، لا صحيحاً ولا عليلا، ولكنى أؤمل أن تعود إلىّ القوى لأدخل مدرسة الحقوق الخديوية، فقد عزمت على الانضمام إلى صفوف طلابها. لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم. وأنت تعلم أنى أميل إليها كثيراً، وعزمت كذلك على تأسيس جمعية أسميها جمعية «إحياء الوطن»، وربما دهشت من إقدامى هذا لضعفى الذى تعلمه فى اللغة الفرنساوية ولكن اعتمادى على الله وعلى نفسى أكبر ضامن لنجاحى والله الموفق إلى أقوم سبيل».

نشرنا هذا الخطاب بالزنكوغراف (ص ٣٩) لأنه أول رسالة بخط المترجمة[٢] ولأنه أول وثيقة تلقى الضوء على نشأة مصطفى كامل الوطنية، فالكتاب مؤرخ فى ١٢ يوليه سنة ١٨٩١، وهو يصف اتجاه المترجم إلى الانتظام فى سلك مدرسة الحقوق «لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم»، وهذا الاتجاه ليس وليد اليوم الذى كتب فيه الخطاب، بل هو وصف لشعور نفسانى خالج المترجم منذ كان طالباً بالمدرسة الثانوية،

---

(١) نشرت صورته لأول مرة فى كتاب (سيرة مصطفى كامل فى أربعة وثلاثين ربيعا لعلى فهمى كامل بك).

وقبل أن يتخطى تلك العقبة الكؤود، وقوله مخاطباً أخاه: «وأنت تعلم أني أميل إليها كثيراً» مشيراً إلى مدرسة الحقوق، يدل على أن هذا الميل كان معروفا عنه قبل كتابته هذا الجواب، واعتزامه تأسيس جمعية اختار لها اسم (إحياء الوطن) دليل آخر على شعوره بالعمل لإحياء الوطن، وأن هذا الشعور ليس وليد الساعة التي كتب فيها الخطاب، بل هو نتيجة تفكير طويل وشعور عميق اطمأنت نفسه إليه.

الإسكندرية في ١٢ يوليه سنة ١٨٩١

أخي حضرة علي أفندي فهمي حماه الله

يسرني مسرة عظيمة أيها الأخ الحبيب أن أبشرك أن العقبة الكؤود التي كانت أمامي وهي شهادة
الدراسة الثانوية قد زالت من أمامي فقد نلتها بعد أن أمضيت جميع نهاري ساهرا [illegible]
و[illegible] ولكنني أؤمل أن أعود إلى القاهرة لأدخل مدرسة الحقوق الخديوية فقد
عزمت على الانضمام إلى صفوف طلابها لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق
الأفراد والأمم

وأنت تعلم أني أميل إليها كثيرا وعزمت كذلك على تأسيس جمعية اسمها
"جمعية إحياء الوطن" وربما دهشت من أن أراني هذا الضعيف الذي تعلم في
اللغة الفرنساوية ولكن اعتمادي على الله وعلى نفسي أكبر ضامن لنجاحي
والله الموفق إلى أقوم سبيل

بلغ الوالدة العزيزة (حرم الله) والأشقاء عموما وفي مقدمتهم سيدنا
الأخ الباز حسن أفندي يهدونك ألف سلام

ووالدتي حليمة ترجوك ألا تكون شديدا على العساكر السود فإنهم أهل عندي
ويحملون الضغينة وأنت خير من يحسن معاملة الناس حفظك الله

أخوك

مصطفى كامل

خطاب الفقيد إلى شقيقه علي فهمي بك كامل

عقب حصوله على الشهادة الثانوية – ١٢ يوليه عام ١٨٩١

لذلك يمكننا أن نحدد مبدأ نشأة الفقيد الوطنية بسنة ١٨٩٠، وهو أصح السنين لتأريخ ظهور تلك العبقرية الوطنية التى سطع نورها فى أرجاء وادى النيل وبعثت النهضة القومية من مرقدها.

ويبدو من هذا الخطاب ضوء آخر تجتلى به أخلاق الفقيد التى لها صلة وثيقة بوطنيته، فمن خلال سطوره وكلماته تلمع معانى العزيمة الماضية، التى كانت من أخص صفاته، فهو قد أجهد نفسه لينال شهادة الدراسة الثانوية حتى أصبح جسمه نحيلا «لاصحيحاً ولاعليلا»، وهذا يدلك مع مبلغ قوة إرادته، وتبدو صورة نفسه المتوثبة إلى عظائم الأمور من اعتزامه تأسيس جمعية لإحياء الوطن وهو منهك القوى من الجهد الذى بذله فى الدرس والامتحان، فهذا الجهد الذى كان فى حاجة إلى الراحة بعد العناء لم يصرف الفقيد عن متابعة الجهد والعمل لإحياء الوطن.

العصر الذى ظهر فيه مصطفى كامل

لا تكمل دراسة شخصية المترجم دون أن ندرس العصر الذى ظهر فيه، لكى نتبين مبلغ تأثير العصر فى شخصيته، وتأثير شخصيته فى عصره.

قلنا إن ظهور مصطفى كامل فى ميدان الجهاد الوطنى قد بدأ سنة ١٨٩٠،فلنقف قليلا لكى نصف حالة مصر السياسية فى ذلك العصر.

مضى على الاحتلال البريطانى نحو تسع سنوات كانت سنوات يأس وقنوط واستسلام من جانب الأمة، كما كانت عهد طغيان وجبروت من جانب الاحتلال البريطانى.

فالثورة العرابية بما انتهت إليه من الإخفاق والهزيمة سنة ١٨٨٢ قد أثرت فى حالة الأمة المعنوية تأثيراً سيئاً، لأن إخفاق الثورات فى ذاته يبعث اليأس فى النفوس، هذا إلى أن الخاتمة التى انتهت بها الثورة وما أفضت إليه من الاحتلال هى مظهر بارز لخيبة الأمل فى الثورات، إذ أن الثورة التى قامت فى الأصل لإنالة البلاد حريتها السياسية قد انتهت بالعكس بفقدان هذه الحرية، ثم بفقدان الاستقلال الذى كانت تتمتع به من قبل، فقلما يوجد من الثورات ما انتهت بخيبة الأمل مثلما انتهت به الثورة العرابية.

أضف إلى ذلك مابدا من زعماء الثورة العرابية من ضعف وتسليم فى ميدان الجهاد، وخضوع ومذلة بعد الهزيمة، وفى أثناء المحاكمة، وتنصلهم من تبعات الثورة التى اقتادوا زمامها، والتجاء معظمهم إلى الإنجليز يستجدون منهم الصفح والمعونة، وما انتهى إليه أمرهم من النفى والنسيان، كل ذلك قد أدى إلى تسرب اليأس فى النفوس، فنهاية الثورة العرابية كانت من أسباب انحلال المقاومة الأهلية فى أوائل عهد الاحتلال البريطانى، فإن روح الخضوع والاستسلام قد تسربت من نفوس الزعماء إلى صفوف الأمة، فركنت إلى الإذعان، وظلت هذه الروح غالبة على الأمة سنوات عديدة. إذ ليس من السهل أن تتخلص الأمم من أمثال هذه الحالة المعنوية، بل قد تمر عليها أجيال ثم أجيال وهى تراها حالة عادية لا غضاضة منها ولا غرابة فيها، حتى يظهر فيها الزعماء المخلصون، ينفضون عنها غبار اليأس والذل، ويبعثون فيها روح الحياة والكرامة، فلا تتغير نفسية الأمة إلا بتأثير عوامل وشخصيات قوية تبعث فيها دما جديداً قويا، من أجل ذلك قلنا فى كتابنا عن (الثورة العرابية) إن هزيمة الثورة العرابية لم تقتصر نتائجها على احتلال الإنجليز أرض مصر دون أية مقاومة تذكر، بل كان من آثارها سريان روح الخضوع واليأس فى نفوس المصريين، ومن هنا جاء الانحلال الوطنى العام الذى أصاب البلاد عقب إخماد الثورة العرابية وبقى مخيما عليها نحو عشر سنوات، ولا غرابة فى ذلك فإن البلاد التى تشهد خيبة الأمل فى ثورتها القومية، مثلما رأته مصر من الثورة العرابية، تبقى تحت تأثير اليأس والقنوط إلى أن يقيّض لها الله زعامة جديدة، تسلك بها سبيل الجهاد من جديد، وهذا هو فضل مصطفى كامل فى جهاده، فلقد ظهر فى وقت كان اليأس مستحوذاً على النفوس، فبعث فى الأمة روحا جديدة، فهو بحق موجد الحركة الوطنية ومنشئها، لا ممثلها ونائبها، وفرقٌ بين الزعيم الذى يخلق حركة من العدم، ويستبدل من اليأس أملا، ومن الجمود حياة وجهاداً، وبين الزعيم الذى تدفعه الحركة الوطنية وتخلقه خلقاً جديداً، ولا يكون له من العمل إلا أن يمثلها أو يستغلها.

لم يكن إخفاق الثورة العرابية هو العامل الوحيد لسريان روح اليأس والاستسلام، بل اجتمعت إليه تلك الحوادث التى تعاقبت على البلاد فى السنوات العشر الأولى من الاحتلال، فكانت أيضاً من بواعث القنوط وانقطاع الأمل.

فى هذه السنوات شهدت البلاد التواء السياسة الإنجليزية، ونقضها مواعيدها فى

الجلاء، شهدت جمود الدول الأوروبية إزاء المسألة المصرية، وتركها انجلترا تعبث ما تشاء باستقلال مصر وحقوقها، شهدت تهدم صرح الإمبراطورية المصرية الواسعة الأرجاء التى أسستها فى السودان، ورأت الكوارث والهزائم تصيب جيشها فى أصقاعه، وعواصمه ومديرياته تسقط واحدة بعد أخرى فى أيدى الثوار، شهدت خضوع الحكومة المصرية لأوامر القنصل البريطانى العام، شهدت إلغاء الجيش المصرى، وتأليف جيش جديد هزيل، قائده وكبار ضباطه من البريطانيين، شهدت النفوذ البريطانى يتغلغل فى شئون الحكومة كافة، من سياسية وحربية ومالية وتشريعية وإدارية، شهدت إلغاء الدستور الذى نالته سنة ١٨٨٢ وتأليف هيئة شورية لا حول لها ولاقوة، شهدت نوعا من الحماية مضروبا على مصر، دون أن تعرف له أساساً ولا حدوداً، ولا قواعد ولا وقتاً محدوداً، ثم شهدت فوق ذلك استسلام رجالات مصر لإرادة العميد البريطانى، وتقرب أكثرهم إليه، والتماسهم الزلفى لديه.

كان الخديو توفيق باشا يتولى مسند الخديوية، مذعناً للسيطرة البريطانية، لايرد للعميد الإنجليزى (اللورد كرومر) طلباً، وقد أضفى على الأداة الحكومية روح الاستسلام لإرادة الإنجليز، واللورد كرومر هو صاحب الأمر والنهى فى شئون الحكومة، يتدخل فى كل وزارة بواسطة الموظفين الانجليز الذين كانوا على رأس المصالح المهمة، فالسردار والضباط البريطانيون على رأس الجيش، والبوليس تحت إمرة المفتش البريطانى العام، والمالية فى يد المستشار المالى، والأشغال فى يد وكيل الوزارة البريطانى، والحقانية منذ ١٨٩١ فى يد المستشار القضائى، وكان يتولى الوزارة فى ذلك الحين (سنة ١٨٩٠) رياض باشا، وفى عهده استمر النفوذ البريطانى يتغلغل فى دوائر الحكومة، ثم استقال فى مايو سنة ١٨٩١؛ وخلفه فى رياسة الوزراة مصطفى فهمى باشا، وهو أكثر الوزراء خضوعا للاحتلال الإنجليزى واستسلاما له، وليس فى البلاد هيئة نيابية تمثل سلطة الأمة، بل كان بها ذلك المجلس المعروف بمجلس شورى القوانين، ولم يكن يسمع له صوت فى الشئون العامة، والصحافة إما موالية للحكومة، أو ضعيفة فاترة بإزاء السيطرة البريطانية، وجمهرة الأمة تحت تأثير هزيمة الثورة العرابية وخضوع الحكومة للسياسة الإنجليزية، منصرفة عن الكفاح والجهاد.

وكان الرجال البارزون فى مصر إمامنزوين فى دواوين الحكومة، متربعين فى المناصب،

وبعضهم أعوان الغاصب، وإما منصرفين لأعمالهم الخاصة فى المحاماة أو الطب والزراعة والتجارة والذين أدركوا منهم الثورة العرابية أو كانوا من رجالها قد انصرفوا عنها، وحل اليأس فى نفوسهم، والذين لم يشتركوا فيها كانوا متأثرين بالروح العامة التى خيمت على البلاد، روح الخضوع والاستسلام،ويكفيك لكى تتمثل صورة من الروح العامة للطبقة الممتازة من المجتمع أن تذكر أن المغفور له سعد باشا زغلول (الذى تولى قيادة الحركة الوطنية سنة ١٩١٩) كان وقتئذ المحامى النابه (سعد افندى زغلول)، ومع أنه كان منصرفا للمحاماة ولم يضطلع بعد بأعباء الجهاد القومى، فإنه آثر المنصب الحكومى على الحياة الحرة، فعين سنة ١٨٩٢ قاضياً (مستشاراً) بمحكمة الاستئناف، وأقر لزملائه المحامين فى حفلة تكريمهم إياه أنه اختار القضاء «ليستريح بعد العناء[٣]» ففى الوقت الذى ضرب فيه اليأس رواقه على الطبقة الممتازة من المجتمع خاصة وعلى الأمة عامة، بدأ مصطفى كامل حياة العناء والجهاد فى سبيل مصر واستقلالها، من هذه الناحية تستطيع أن تقدر فضل المترجم، إذ أنشأ الحركة الوطنية فى عصر تغلبت فيه عوامل اليأس والجمود، وتظاهرت أسباب الضعف و الخذلان.

والآن يجدر بنا أن نتساءل من أين جاءت مصطفى كامل هذه الروح الوطنية فى عصر اكتنفته عوامل اليأس والقنوط، وكيف نهض وحده وهو فى هذه السن المبكرة، إذ كان لايتجاوز السادسة عشرة من عمره؟

لم يقل أحد إن أباه (على ما كان عليه من الفضائل) هو الذى غرس فى نفسه عقيدة الوطنية. لأن (على أفندى محمد) لم يكن فذاً فى الآباء، بل كان كغيره من خيار الرجال الذين لم يكونوا يعنون بتنشئة أبنائهم النشأة الوطنية، ولم يكن فى المدارس كذلك دروس فى الوطنية يتلقاها تلاميذها، كما أن العصر الذى ظهر فيه مصطفى لم يكن مستعداً لأن تكتسب فيه الوطنية بطريق القدوة، وإذا قلنا إن أخلاق مصطفى كامل هى التى أوحت إليه العقيدة الوطنية، فإن كثيراً من الشبان والتلاميذ كانوا على مثل أخلاقه الفاضلة، ومع ذلك لم ينشأوا على غراره فى العقيدة الوطنية، وإذا أردنا أن نعلل هذه النشأة بأنها كانت نتيجة ما كانت مصر تعانيه من احتلال يعبث باستقلالها ويتغلغل فى شئونها، وأن مصائب الوطن كانت كافية لتحريك نزعة الوطنية فى نفوس المصريين، فإن هذه المصائب لم تحرك

---

(٣) المؤيد عدد ٢٩ يونيه سنة ١٨٩٢.

فى نفوس الناس ما حركت من نفس مصطفى، بل إن المصائب كان لها تأثير عكسى
ذلك العصر، إذ بعثت اليأس فى النفوس، وجنحت بالأمة للاستسلام، هذا أن فريقاً
المصريين كانوا يستفيدون من مصائب الوطن، ويعدها قوم من الفوائد والحسنات

ففى الحق إنه لا تعليل لهذه النشأة إلا أنها قبس من نور العبقرية، فالعبقرية
مصدر هذه النشأة، وقوامها قوة الإرادة والإيمان، ولا غرو فهذه القوة تذلل الصعا
وتأتى بالمعجزات، وهذا هو سر العبقرية، لاتجد له تعليلا دقيقاً، فإذا عللته بتأثير البيئة
الوراثة كما يقولون اعترضك فى هذا أن العبقرى قد ينشأ وغيره من الناس فى بـ
واحدة، ومن أب واحد ، وأم واحدة، ومع ذلك ينفرد بالنبوغ دون أقرانه وإخوانه، فنش
مصطفى كامل الوطنية، ثم حياته الوطنية، هى قبس من عبقريته، وقد اتجهت هـ
العبقرية إلى إحياء الوطن وبعث الحركة القومية من مرقدها، ومن مداد هذه العبقرية خـ
التاريخ دوراً عظيما من أدوارها، ولقد كان مصطفى منشئ هذا الدور، إذ نفخ فى الأمة
روحه، فى وقت كانت الملابسات والظروف تجعل الدعوة الوطنية من أشق المهام وأبعد
عن النجاح، وكانت موضع الزراية والاستخفاف من سواد الأمة، بل من الطبقة الممتا
فى المجتمع، وهذا ولا ريب مما يظهر فضل مصطفى كامل فى بعثه الحركة الوطنيا

* * *

الفصل الثانى

المرحلة الأولى من الجهاد
فى المدرسة الثانوية وفى مدرسة الحقوق

قلنا إن نشأة الفقيد الوطنية بدأت سنة ١٨٩٠، وهو طالب فى المدرسة الثانوية، وقد أسس أول ما أسس (جمعية الصليبة الأدبية)، وتعلقت نفسه من ذلك الحين بالخطابة والكتابة والأدب، فكان يقف فى الجمعية خطيباً فى مساء كل جمعة مرتجلا ما تملى عليه البديهة، وكان يسترعى الأنظار ويملك الأسماع بمواهبه الخطابية.

دخل مدرسة الحقوق الخديوية فى أكتوبر سنة ١٨٩١، وهو فى السابعة عشرة من عمره، وكان قلبه يتقد وطنية وإخلاصاً لمصر، فلم يستطع أن يصبر حتى ينال شهادة الليسانس لكى يبدأ الجهاد، بل بدأ جهاده وهو فى مهد التعليم، فى المدرسة الثانوية، ثم فى مدرسة الحقوق.

وكان رفيقه وزميله فى دراسة الحقوق فؤاد سليم (باشا)، وقد تلاقيا لأول مرة فى المدرسة المذكورة، فتعارفت روحاهما، وأئتلفا ائتلافا قلبياً وروحياً، وقويت بينهما من ذلك الحين أواصر الصداقة، وتعرف الفقيد بواسطته إلى والده لطيف باشا سليم، فكان له خير مرشد ومشير، كما كان له حين عظم شأنه نعم العضد والنصير، كان الفقيد يسبق عصره فى النضج وقوة الوجدان والشعور. كان وهو فى مدرسة الحقوق يتعرف إلى الرجال البارزين فى ذلك العصر، ويتصل بهم ويناقشهم، ويتبادل وإياهم الآراء والأفكار، نذكر منهم الشيخ على الليثى الشاعر والأديب الكبير، ولطيف باشا سليم، وإسماعيل باشا صبرى الشاعر المشهور، وعلى بك فخرى، وأمين باشا فكرى، ومحمود بك سالم، وإسماعيل بك شيمى وآخرين من أعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية.

وقد حدث يوماً وهو فى مدرسة الحقوق أن جرت بينه وبين صديقه فؤاد سليم مناقشة حادة أصدرت المدرسة على أثرها أمراً بحرمانهما دخولها أسبوعا فاستاء كلاهما من هذا

القرار، ولم يرد فؤاد بك أن يعود إلى المدرسة بعد أنتهاء الأسبوع، بل التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية التى تأسست فى ذلك العهد، أما مصطفى فعاد إلى مدرسته واستمر فيها حتى انتهاء السنة الأولى.

انتقل المترجم من السنة الأولى إلى السنة الثانية بنجاح، وفى صيف ذلك العام (١٨٩٢) قصد إلى مدينة الإسكندرية لتبديل الهواء، فاجتمع هناك بصاحب الأهرام بشاره باشا تقلا، وكان واسطة التعارف بينهما صديقه الحميم الشاعر خليل بك مطران، فأعجب به وأجله وأفسح جريدته ينشر فيها ما يبعث إليه من الرسائل الوطنية.

وفى شهر أكتوبر سنة ١٨٩٢ رغب إليه صديقه فؤاد بك سليم أن يتم دراسته فى مدرسة الحقوق الفرنسية، ليكونا بها معاً، فمالت نفسه إلى العمل بهذا الرأى لسببين، أحدهما أنه يجد فى هذه المدرسة الحرية التى تصبو إليها نفسه، فلا يتقيد بالنظم المتبعة فى مدرسة الحقوق الخديوية، والثانى أن يستزيد من دراسة اللغة الفرنسية، فيجيد الكتابة والخطابة بها ويدافع عن قضية الوطن أمام الرأى العام الأوروبى، وقد جمع وقتاً ما بين المدرستين، فكان يقضى سحابة النهار فى المدرسة الأميرية، والمساء فى المدرسة الفرنسية، إذ كانت الدراسة فيها تبدأ قبل الغروب، ويبدو لك من جمعه بين المدرستين ما فطر عليه من الإباء وعلو النفس والتعلق بالحرية، بله الجد والمثابرة على الدرس، فقد أراد أن يكون المجال فسيحاً أمامه لينصرف من إحداهما إلى الآخرى إذ ماضيق على ضميره نظام أو إنسان، وفى تلك السنة المكتبية ١٨٩٢ - ١٨٩٣ أكثر من الكتابة فى جريدتى الأهرام والمؤيد.

وكان وهو يخطب بين إخوانه الطلبة يثير حماستهم الوطنية لمقاومة الاحتلال، فأكبروا فيه وطنيته ومواهبه الخطابية، واجتمعت قلوبهم على محبته والإعجاب به

وفى نوفمبر سنة ١٨٩٢ زار الخديو عباس الثانى مدرسة الحقوق الأميرية، فكان التلميذ «مصطفى كامل» من الطلبة النجباء الذين رحبوا به وألقى بين يديه قصيدة مطلعها:

بشرى الحقوق بسيد الأمراء ... كنز العلا عباس ذو النعماء
بشراك يادار العدالة والهدى ... بمليك مصر وأوحد العظماء

وفى يناير سنة ١٨٩٣ لمناسبة أزمة إقالة الوزارة الفهمية[١] قامت مظاهرة وطنية من طلاب المدارس العالية وفى مقدمتهم طلبة الحقوق لتأييد الخديو فى خلافه مع اللورد كرومر، وكان الفقيد فى طليعة هذه المظاهرة.

وفى أوائل تلك السنة ألف رسالة (أعجب ما كان فى الرق عند الرومان)، وهذه الرسالة على صغر حجمها أوضحت حقيقة الاستعباد الرومانى المنافى لأحكام الرق فى الشريعة الإسلامية.

إنشاء مجلة المدرسة

وفى تلك السنة أيضاً أنشأ مجلة أسماها (المدرسة)، صدر العدد الأول منها يوم السبت ١٨ فبراير سنة ١٨٩٣ - غرة شعبان سنة ١٣١٠؛ وهى مجلة وطنية أدبية تهذيبية علمية تصدر فى غرة كل شهر عربى، وجعل شعارها المطبوع فى صدر كل عدد (حبكَ مدرستك حبك أهلك ووطنك).

كان المترجم مدير المجلة ومحررها، وتطوع بعض الكتاب المجيدين لكتابة المقالات والرسائل فيها، وقد رحب بها السيد عبد الله نديم (خطيب الثورة العرابية)، وكان قد ظهر بعد اختفائه وأصدر مجلته (الأستاذ) فنوه فيها بظهور مجلة الفقيد[٢].

وتبدو فى مجلة (المدرسة) روحه الوطنية، فالروح التى أملت عليه إصدارها وهو بعد فى التاسعة عشره من عمره هى ذات الروح التى أوحت إليه إصدار (اللواء) حين بلغ السادسة والعشرين، فالينبوع واحد، وهو ينبوع الوطنية الفياض.

إن ظهور مجلة (المدرسة) يعطيك فكرة عن شخصية المترجم، فهى أول مجلة مدرسية أصدرها طالب مصرى، وفى إقدامه على إصدارها وهو بعد فى التاسعة عشرة من عمره ما يدلك على عظيم همته ومضاء عزيمته، وقوة وطنيته، فليس من السهل على طالب فى مثل سنه أن يصدر مجلة يتولى تحريرها وإدارتها والإنفاق على تكاليفها، بل هو عمل قد تنوء به الجماعة من الرجال، ولكن عبقرية المترجم كانت تذلل الصعاب، ويدل إصدارها

---

(١) راجع تفصيل هذه الأزمة فى الفصل السادس عشر.

(٢) مجلة (الأستاذ) للسيد عبد الله نديم عدد ٢٨ فبراير سنة ١٨٩٣.

كذلك على ميله للصحافة منذ نشأته الوطنية، لا غرو فالصحافة كانت أداة كبرى لجهاده وكفاحه. ويكشف أيضاً هذا العمل عن قوة وطنيته المغروسة فى فؤاده، فهو يقتطع من وقته لإصدار مجلة يبث فيها بين الشباب روح الوطنية والتهذيب.

كتب إلى أخيه على بك فهمى كامل فى ١٩ فبراير سنة ١٨٩٣ كتابا يقول فيه: «أبعث إليك فى هذا البريد بمجلة المدرسة التى أنشأتها لخدمة الناشئين لا للربح والشهرة».

وهذا الكتاب يدلك على الفكرة التى صدرت عنها المجلة، فهو لا يقصد منها الربح والمنفعة ، بل يرمى إلى أداء الواجب الوطنى نحو بلاده.

وكان عدا إصداره مجلة المدرسة ينشر بين حين وآخر المقالات فى جريدتى الأهرام والمؤيد.

اتصاله بعبد الله نديم

عاد السيد عبد الله نديم إلى مصر من منفاه سنة ١٨٩٢، فاتصل به الفقيد، وعرف من أحادينه أسرار الثورة العرابية، إذ كان النديم خطيبها وأحد كبار زعمائها[٣]، عرف منه حوادث الثورة على حقيقتها، وأدرك أسباب إخفاقها وهزيمتها، وإذ كان يعد نفسه لزعامة الحركة الاستقلالية، فإن أحاديث عبد الله نديم قد أفادته كثيراً فى تعرف مواطن الخطأ وأسباب الأخفاق فى الثورة العرابية، فتجنبها فى جهاده، كما عرف شيئاً كثيراً من دسائس السياسة الإنجليزية، تلك الدسائس التى كان لها دخل كبير فى إخفاق الثورة ووقوع الاحتلال، وإنك لتلمح فى حياة مصطفى كامل الوطنية والسياسية مبلغ تجنبه أخطاء العرابيين، فهو لم يفكر فى اتخاذ الجيش أداة للحركة السياسية، بل كان يعتمد على قوة الرأى العام وتربية الشعب التربية الوطنية والأخلاقية الكفيلة بتوطيد دعائم الحرية والديمقراطية، وإذ علم أن اصطدام العرابيين بالخديو توفيق باشا قد مكن للدسائس الإنجليزية من أن توقع الفرقة والانقسام فى مصر، فإنه نأى عن هذه السياسة، وسلك بالحركة الوطنية سبيل التفاهم مع عباس الثانى، وتفادى الاصطدام به برغم ما شجر بينهما

(٣) ترجمنا له فى كتابنا (الثورة العرابية) ص ٥٣١ طبعة سابقة.

من خلاف كما سيجيء بيانه، وكان ينقم من عرابى استسلامه للإنجليز، وأدرك مبلغ تأثير هذا الاستسلام فى حالة الأمة المعنوية، فرسم لنفسه خطة المقاومة المستمرة للاحتلال، مقاومة لا ضعف فيها ولا هواده ولا تراجع،وهكذا كانت أخطاء الثورة العرابية درساً لباعث الحركة الوطنية، جّنبه مواضع الخيبة والإخفاق فى الجهاد، والزعامة الحقة هى التى تستفيد من تجارب الماضى، وتعتبر بمصائب الوطن، فتقيه مواطن الزلل، وتسلك بالأمة سبيل الحكمة والرشاد.

سفره إلى باريس
لأداء إمتحان الحقوق

سافر الفقيد لأول مرة إلى أوروبا يوم الجمعة ٢٣ يونيه سنة ١٨٩٣ ليؤدى إمتحان السنة الأولى بكلية الحقوق بباريس، فأداه بنجاح[٤]، وقد كانت هذه الرحلة فرصة سنحت له ليستزيد من معارفة ويكتسب من مشاهداته فى بلاد الحضارة والوطنية، وكان أثناء مقامة بباريس مثال الجد والاستقامة، منصرفا عن اللهو واللعب، ولم يكن همه بعد أن يفرغ من دراسته كل يوم إلا أن يزور المكاتب والمعاهد، أو يحادث ذوى الرأى فيما يتعلق بشئون مصر وما يجيش به صدره نحوها من العواطف والآمال، وكان فى خلال رحلاته هذه لا يفتأ يذكر مصر ومجدها، كتب إلى أخيه على بك فهمى كامل خطابا من باريس فى ٢٩ يوليه سنة ١٨٩٣ يقول فيه:

«لقد تعرفت هنا بطلاب روسيين وبولونيين ويابانيين فرأيتهم جميعاً منكبين على العلم، ولكنى أؤكد لك أن المصرى أقواهم عارضة وأعلاهم ذكاء ولا ينقصه إلا الإرادة التى هى أس النجاح».

ولقد أفاد المترجم كثيراً من ذهابه إلى أوروبا عامة وفرنسا خاصة، فإن هذه السياحة التعليمية، قد فتقت ذهنه وعلمته من شئون الأمم والجماعات مالم يكن يعلم، وعرف فيها أوساطاً لم يكن يعرفها، واتصل بشخصيات لم يكن ليتصل بها لو بقى فى مصر، وكانت هذه الرحلة باكورة سياحاته فى أوروبا التى رفعت شأنه فى ميدان الجهاد القومى وجعلت

(٤) ذكرت جريدة المؤيد نجاحه فى عدد ٣٠ يوليه سنة ١٨٩٣.

اسمه عالمياً، وخدم بها القضية المصرية أعظم الخدمات، إذ نقلها إلى أذهان وهيئات كانت مجهولة فيها، ولا شك أن اتصاله بالأساتذة والصحفيين الفرنسيين قد أفاده كثيراً من الوجهة العلمية والمعنوية، فإن وطنية الشعب الفرنسى هى بلا مراء قدوة للشعوب التى تريد أن تحيا حياة الحرية والكرامة.

عاد من أوروبا فى أغسطس سنة ١٨٩٣ ووالى دراسة الحقوق وإصدار مجلة (المدرسة) وقد زادت أواصر الود بينه وبين لطيف باشا سليم (والد فؤاد بك سليم) إذ كان يرى تأليف هيئة تضم صفوف المعارضة، فانضم إلى هذه الهيئة، وكانت تضم الصحفى والخطيب والقاضى والضابط، وكلهم من خيار الرجال.

رواية فتح (الأندلس)

وفى ديسمبر سنة ١٨٩٣ أخرج رواية (فتح الأندلس) ضمنها حوادث فتح العرب للأندلس[٥] وأظهر فيها فضل الصدق والأمانة والثبات وقوة العزم والإرادة، وهى الصفات التى كانت أكبر عضد للفتح العربى، وقصد إلى تربية الأمة على الفضائل الوطنية.

امتحان السنة الثانية

ثم قصد إلى فرنسا فى صيف سنة ١٨٩٤ وأدى بنجاح امتحان السنة الثانية، وزار باريس وبروكسل، ثم أخذ بعد نجاحه يراسل الأهرام، فنشر بها ست مقالات عن معارض ليون وأنفرس، وعاد إلى مصر فى سبتمبر، واعتزم أن يؤدى امتحان السنة الثالثة حيث ينال الليسانس فى نوفمبر من تلك السنة.

---

(٥) المؤيد عدد ١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٣.



مصطفى كامل
فى التاسعة عشرة من عمره

حصوله على شهادة الحقوق
(نوفمبر سنة ١٨٩٤)

وعلى ما فى هذا العزم من الإجهاد، فإن قوة إرادته كفلت له تحقيق أمنيته، فسافر إلى باريس فى أكتوبر سنة ١٨٩٤، ووجد صعوبه فى أداء الامتحان النهائى فى كلية باريس، إذ لا يتفق ونظامها أن يؤدى الطالب امتحانين فى سنة واحدة، فاستعان بأستاذيه فى مدرسة الحقوق الفرنسية، وهما المسيو ديروزاس ناظر المدرسة، والمسيو موللر أستاذ الاقتصاد السياسى بها ،فنصحاه بأن يعدل عما اعتزمه إشفاقا على صحته، ولكنه أصر على عزمة، ولما لم تقبل مدرسة باريس أداء امتحانين فى سنة واحدة ساعداه لدى كلية (تولوز) فى أن يؤدى أمامها الامتحان النهائى، فقبل طلبه بوساطة ذينك الأستاذين، وانتقل المترجم إلى تولوز، وهناك أكب على الدرس لكى يتم علوم السنة الثالثة، ودخل الامتحان، فنجح فيه ونال شهادة ليسانس الحقوق فى نوفمبر سنة ١٨٩٤ وله من العمر عشرون سنة.

* * *

الفصل الثالث

المرحلة الثانية من الجهاد
بعد نيله شهادة الحقوق

شعوره بواجبه نحو مصر

كان أول شعور للمترجم عقب نجاحه أن اتجه إلى استمرار الجهاد فى سبيل الوطن، قال فى كتاب له إلى أخيه على فهمى كامل بتاريخ ١٨ نوفمبر سنة ١٨٩٤:

«واليوم أحمد الله كثيراً وأشكره شكراً جزيلا على فك قيد أسرى والمن بإطلاقى فى ميدان الحرية، فقد أصبحت حاملا شهادة الحقوق، وعولت بمشيئة الله على الانتظام فى سلك رجال المحاماة، لأدافع عن حقوق الأفراد، ولو أتيح لى الخير وبلغت ما أتمنى لكنت المدافع عن حقوق الأمة بأسرها أمام العالم أجمع، لأن مصر وهى جنة الدنيا لا تستحق أن يداس شرفها بالأقدام ونصبح فيها نحن أبناءها الأعزاء ممقوتين غرباء».

لم يفكر الفقيد فى مستقبله حين نال إجازة الحقوق، بل فكر فى واجبه نحو مصر. وهذا يدلك على قوة وطنيته التى ملكت عليه مشاعره، فقد عزم على الانتظام فى سلك المحاماة لأنها ميدان الحرية والدفاع عن الحقوق، ولأنها السبيل إلى الدفاع عن حقوق الوطن، ولم يفكر فى الانتظام فى سلك المناصب لأن لها قيوداً لا يستطيع معها أن يؤدى واجب الجهاد لمصر، ولأن الحكومة فى ذلك العصر كانت خاضعه لسيطرة الاحتلال وهو لا يقبل هذا الخضوع، بل هو ثائر على الاحتلال.

حديثه فى جريدة (جازيت دى تولوز)
(نوفمبر سنة ١٨٩٤)

ويبدو لك مبلغ يقينه برسالته وتلهفه على نشرها أنه لم يكد ينال شهادة الحقوق حتى كان له حديث فى جريدة (جازيت دى تولوز) التى تصدر فى تولوز حيث نال إجازة الحقوق قال فيه:

«أما السبب فى تمضيتى سنتين فى سنة واحدة فهو أنى وعدت شخصاً أحترمه[١] بذلك، ولأن إرادتى رغبت فى هذا العمل حتى أخرج من قيد الطلب إلى ميدان العمل والدأب، ومتى عدت إلى مصر أنضم فى الحال إلى صفوف المحامين لأنى ممن يزدرون الحكومة المصرية الحاضرة ولا يرون التوظف فيها أو الاستظلال بظلها، وكيف لا يكون الأمر كذلك والموظف منفذ لإرادة من اغتصب أثمن وأقدس شئ لديكم وهو الدستور».

وقد علقت جريدة (جازيت دى تولوز) على هذا الحديث بقولها:

«هذا كلام مصطفى كامل المصرى الذى ألقاه بترو وتبصر، ولو أنه تحمس فى الجزء الأخير حماسة تدل على قوة الوطنية عند المصريين وأنهم استفادوا كثيراً من الدروس التى تلقوها على أساتذة منا».

نشرت جريدة دى تولوز حديث الفقيد، وكان وقتئذ قد أتم العشرين من عمره، وظهر من حديثه أنه أعد نفسه للدفاع عن مصر أمام الرأى العام الأوروبى، وأنه سيوجه نصيبا من جهوده للدعاية لمصر فى الخارج، لأن هذا النوع من الجهاد فضلا عما له من الأثر البعيد فى أوروبا وفى مصر، فإنه يرفع من شأن مصر أمام العالم الأوروبى. ولاغرو فقد كان الفقيد بوطنيته وكفايته خير من يمثل الأمة المصرية وترى بداية هذا الأثر فيما نشرته جريدة دى تولوز عنه وعن مصر يوم أن نشرت حديثه، إذ قالت:

«بين الذين نجحوا فى كليتنا الحقوقية شاب مصرى هو مصطفى كامل، وهذا الشاب لم يكن من الذين قيدوا فى الكلية من مبدأ دراسة الحقوق، بل هذه أول مرة له فيها، ومن

---

(١) يقصد أخاه حسين واصف باشا.

يعلم أنه أمضى فى شهر يوليه الماضى امتحان السنة الثانية أمام كلية باريس بنجاح باهر، فإنه يدهش دهشا كبيراً لهذا الذكاء النادر، ومع ذلك فلا يعجب قراؤنا، فإن تاريخ مصر يحوى الكثير من النظريات العلمية الكبيرة التى تدل على مبلغ تقدم العلوم والمعارف عند المصريين وسمو مداركهم من زمن بعيد، وهؤلاء مواطنونا الفرنسيون الذين عاشوا فى مصر واختلطوا بأهلها وأبنائها بصفتهم أساتذة فى مدارسها قد صنفوا التآليف الكثيرة فى دفائن الذكاء المصرى، حتى رفعوه فوق كل ذكاء، والظاهر أن اعتدال الإقليم سبب من الأسباب التى أوجدت فى المصريين هذا الذكاء النادر، فأمة كهذه الأمة لها شهرة تاريخية كبيرة، فضلا عن ميل أبنائها إلى فرنسا ورغبتهم الأكيدة فى الحصول على العلوم الحديثة من منابعها الفياضة لابد أن تسترجع مجدها هؤلاء الأبناء الذين نعجب بهم كثيراً ونجلهم إجلالا كبيراً، وليس فى وسعنا بعد الذى شاهدناه من ذكاء «مصطفى كامل» إلا أن نهنئ مصر به، ونرجو له النجاح التام فى العمل الذى يريد به خدمة بلاده لأن الغيرة التى شاهدناها على محياه، والطلاقة التى تشير إلى مستقبله الباهر، والتى تدل بأوضح بيان على أنه من الذين وهبوا قوة الخطابة، لابد أن ترفعه إلى مصاف مشاهير الرجال، ثم لاينسى القارئ أنه يبدو على سيما مصطفى كامل الصفاء التام فى القول والفعل، وأن قلبه لايزال طاهراً كريماً، وفوق ذلك فإن آدابه الشرقية الجميلة وتحيات نظراته الساحرة قد هذبت علمه الغربى تهذيباً لم نره فى حياتنا إلا قليلا، وإن مدينة تولوز لتفخر بأن تسجل فى عداد الذين تخرجوا من كلياتها شابا كهذا الشاب نقى الفؤاد، متصفا بكل مايزن المرء من علم وأدب ورأى صائب».

جهاده بعد عودته إلى مصر

عاد الفقيد إلى مصر فى ديسمبر سنة ١٨٩٤ معتزما أن يهب حياته كلها للجهاد فى سبيل مصر، ولئن قيد اسمه فى جدول المحامين[٢] فإنه لم يترافع فى قضية لفرد قط، ولم يحترف المحاماة أمام المحاكم، بل شغلته رسالته القومية عنها، إذ انصرفت جهوده

(٢) جاء فى «المؤيد» عدد ٣١ ديسمبر سنة ١٨٩٤ ما يأتى: «قررت لجنة انتخاب المحامين قبول حضرة الفاضل الأديب مصطفى أفندى كامل صاحب جريدة (المدرسة) والحائز للشهادة النهائية فى الحقوق محاميا أمام المحاكم الابتدائية وهو من نخبة الشبان الأذكياء النجباء».

للمحاماة عن القضية الوطنية، وقد كانت هذه نيته التى عقد عليها عزمه منذ حصوله على شهادة الحقوق، قال فى هذا الصدد من كتاب له إلى محمود بك أبو النصر بتاريخ ٤ فبراير سنة ١٨٩٥، أى عقب حصوله على شهادة الحقوق ببضعة أشهر: «لعلك تسألنى عن أخبارى الخصوصية، فأقول إنى تقررت من نحو شهر محاميا ولكن لم أترافع إلى الآن ولن أترافع، ولست أدرى أيحقق الله لى آمالا تخالج فؤادى ليلا ونهاراً، أعتقد أنها إن تحققت أنقذت الوطن من الخطر وأعادته إلى منشأه الأول وأحسن، وسوف تعلمون كنه هذه الآمال»

دراسته المسألة المصرية

حدثنا على بك فهمى كامل شقيق الفقيد فى كتابه أنه لما استقبله فى الاسكندرية عند رجوعه وجد معه ضمن متاعه صندوقين كبيرين مملوءين بالكتب القديمة والحديثة فى تاريخ المسألة المصرية وسياسة الأمم، وفيهما مذكرات بعضها لكبار السياسيين وبعضها من مكتبة باريس وبعضها من وزارة الخارجية الفرنسية، وبعد أن استقر به المقام فى القاهرة وانتقل إلى منزل استأجرته العائلة خلف قسم المنشية (بعمارة خليل أغا) كان لايفتأ يدرس الكتب والمذكرات التى أحضرها معه.

وقد أكب على هذه الدراسات، كأنه لايزال فى دور الدراسة، ولاغرو فإنه قد أعد نفسه ليكون باعث الحركة الوطنية والمحامى عن القضية المصرية، فلابد أن يدرس كل ما كتب عن هذه القضية، شأن المحامى النزيه الذى يعنى بدرس قضيته ليجيد الدفاع عنها، ولم يكن للفقيد سوى قضية واحدة شغلته طول حياته، بل قضت على زهرة شبابه، تلك هى قضية مصر الكبرى.

أكب الفقيد على هذه الكتب يدرسها ويستوعب ما بين دفاتها بذكائه النادروقوة عزيمته، ووضع لنفسه برنامجا للعمل سار عليه، فكان يعمل يومياً ثمانى ساعات فى مكتبه، ذلك أنه يستيقظ فى الساعة السادسة صباحا فيؤدى صلاة الصبح، ثم يتناول الفطور، ويقصد كوبرى قصر النيل للرياضة، ثم يعود فى السابعة ويأخذ فى المطالعة والعمل، فيستمر بين قراءة وكتابة وتدوين مذكرات إلى الظهر ثم يتناول الغذاء، وينام إلى الساعة

الثالثة، ثم يستأنف المطالعة حتى الساعة الخامسة، وبعدئذ يزور إخوانه وأصدقاءه، ويعود فى السابعة مساء ليعاود القراءة مرة أخرى إلى الساعة التاسعة، ثم يتناول مع أفراد الأسرة طعام العشاء، ويقضى السهرة معهم ومع الزائرين حتى منتصف الليل، ثم يأوى إلى فراشه.

وقد نضج فكره من هذه الدراسات العميقة، فكانت عدة له فى الكفاح، إلى جانب إخلاصه وقوة يقينه، ومواهبه الخطابية والصحافية.

* * *

الفصل الرابع

جهاده سنة ١٨٩٥

كانت سنة ١٨٩٥ من أهم سنى جهاد الفقيد فى مرحلته الثانية، وعلى أنها أولى سنوات هذه المرحلة الكبيرة فإنها حفلت بأعمال جليلة دلت على مبلغ إيمانه واضطلاعه بمهمته السامية.

حديثه مع الكولونل بارنج

بدأت أعماله فى تلك السنة بنشر حديث له مع شقيق اللورد كرومر، وهو الكولونيل بارنج على ظهر البآخرة التى أقلته عند عودته إلى مصر، إذ التقى به وانتهز فرصة مقابلته إياه ليرفع صوته بالدفاع عن استقلال مصر، ونشر هذا الحديث بعد عودتة إلى مصر[1]، وخلاصته أن الكولونل بارنج يرى ضرورة بقاء الاحتلال، وأن الفقيد يرى ضرورة الجلاء، وإنه حق لمصر وواجب على انجلترا، وفاقا لعهودها واحتراما لمواثيقها، وقد سأله الكولونيل بارنج خلال الحديث من للمصريين من الأنصار أو السفراء فى أوروبا يعتمدون عليهم فى قرب تحقيق الجلاء؟ فقال الفقيد:

«لنا أوروبا بأسرها التى تناديها صوالحها العديدة بأن تنصرنا نصرة تلك الصوالح التى سعيتم من يوم احتلالكم البلاد فى تقويض أركانها، على انها إن لم تنصرنا فإن لنا من حقنا واتحادنا بوصف أننا أمة عظيمة ذات حضارة قائمة مأثورة ما نبلغ بهما إلى ما نصبو من حرية واستقلال».

وقد نشر هذا الحديث فى الأهرام، فكان لنشره دوى كبير فى المحافل الوطنية.

---

(١) الأهرام عدد ٢٨ يناير سنة ١٨٩٥.

نشر الدعوة الوطنية

وقد استمر الفقيد فى دراسة الكتب التى وضعت فى المسألة المصرية، وأخذ يراسل الأهرام والمؤيد وينشر فيهما المقالات الوطنية، وكثر معارفه من المعجبين بذكائه ووطنيته، وأخذ يتصل بهم ويباحثهم فى شئون مصر، ويحثهم على مقاومة الاحتلال ، فاتسع نطاق المعارضة، وتعرف إلى كثير من الأشخاص البارزين فى المجتمع من الكتاب والأدباء، وأعضاء مجلس شورى القوانين والأعيان، وكان يسافر كل أسبوع أو أسبوعين إلى الأقاليم تلبية لنداء مواطنيه ويبث دعايته بين الأعيان، فكان لجولاته هذه أثر كبير فى ازدياد أنصاره

احتجاجه على تأليف المحكمة المخصوصة

وفى ٢٥ فبراير من تلك السنة استصدر اللورد كرومر من الحكومة المصرية مرسوماً بإنشاء (المحكمة المخصوصة) لمحاكمة من يتهم من الأهالى بالتعدى على ضباط وجنود جيش الاحتلال بمصر، وهى المحكمة التى صار لها شأن كبير فى حادثة دنشواى المشهورة كما سيجئ بيانه، وينص المرسوم على تأليفها برياسة وزير الحقانية، وعضوية المستشار القضائى (الإنجليزى)، وقاض انجليزى من محكمة الاستئناف الأهلية، والقائم بأعمال المحاماة والقضاء فى جيش الاحتلال البريطانى بالقاهرة أو الإسكندرية، أى أن الغالبية فيها للانجليز وقد جعلوا لها نظاماً خاصاً، فلا تتقيد بأحكام قانون العقوبات.

كان إنشاء هذه المحكمة بمثابة انتقاص لسلطة القضاء المصرى وتثبيت لأقدام الاحتلال فتقدم الفقيد جميع المصريين بالاحتجاج على تأليف هذه المحكمة الشاذة التى أثارت سخط الأمة، ونشر احتجاجه فى جريدة الأهرام[٢] تحت عنوان (صواعق الأحتلال).

---

(٢) عدد ٤مارس سنة ١٨٩٥.

حضور النائب الفرنسى دلونكل

(مارس سنة ١٨٩٥)

وفى مارس من تلك السنة جاء مصر نائب شهير من أعضاء البرلمان الفرنسى وهو المسيو فرنسوا دلونكل، للاطلاع على حالة مصر السياسية، وكان الفقيد قد تعرف به بباريس فى صيف سنة ١٨٩٤، إذ كان يؤدى امتحان الحقوق، وعرف عنه معارضته للسياسة الإنجليزية، وبخاصة فى الشرق، وقرأ مقالاته فى الصحف الفرنسية ومناقشاته المهمة فى مجلس النواب الفرنسى عن المسألة المصرية، فعنى بإحاطته بكل صنوف الحفاوة ليكون فى حضوره والحفاوة به مظاهرة قومية ضد الاحتلال الأجنبى، فسافر إلى الإسكندرية مساء الخميس ٢١ مارس سنة ١٨٩٥ لاستقباله، والتقى به على رصيف البحر فى صبيحة اليوم التالى، يصحبه كثير من الوطنيين، وقدم له ولقرينته جميع إخوانه المصريين، وكان للنائب القادم مكانة رفيعة فى نفوس الفرنسيين، فكان فى استقباله قنصل فرنسا فى الثغر مع موظفى القنصلية وكثير من النزلاء الفرنسيين، وقد رافقه الفقيد فى كل روحاته وغدواته بمصر، وكان يقدم له إخوانه ومعارفه من الوطنيين.

وقد أقيمت الحفلات والولائم للمسيو دلونكل، ومكث بمصر زهاء عشرين يوما ألقى فى خلالها عدة خطب طعنا فى السياسة البريطانية، وأقام بالقاهرة وليمة بفندق (نيو أوتيل) قبيل رحيله إلى فرنسا دعا إليها لفيفاً من الصحفيين الوطنيين، ألقى فيها الفقيد خطبة بالفرنسية شكره فيها على دفاعه عن القضية المصرية وبارح النائب الفرنسى الإسكندرية قاصداً فرنسا يوم السبت ٢٣ أبريل سنة ١٨٩٥.

سفر المترجم إلى باريس
ودعايته للقضية المصرية فى أوروبا

(مايو سنة ١٨٩٥)

رأى مصطفى أن الدعاية للقضية المصرية فى الخارج من أمضى الأسلحة فى مجاهدة الاحتلال، لأن المسألة المصرية كانت مجهولة للرأى العام الأوروبى، بل كانت الفكرة

الذائعة عن المصريين أنهم راضون عن الاحتلال، وأنهم أمة قانعة بالحكم الإنجليزى، ليست لها آمال ولا حقوق تطالب بها، فنشط إلى تعريف الرأى العام الأوربى بحق مصر فى الاستقلال، وبأن الأمة المصرية تكره الاحتلال، ولا ترضى به بحال، وأن بقاءه لا يضر بمصر فحسب، بل يضر بالمصالح الأوروبية عامة، وقد كان لدعايته أثر كبير فى إحراج مركز الاحتلال، وإبراز عدم مشروعيته، كما كان لها صداها فى مصر ذاتها، إذ كانت وسيلة لنشر الحركة الوطنية، لذلك كانت دعايته فى أوروبا من أهم صفحات جهاده الوطنى، وكانت فى الوقت نفسه من دلائل عبقريته، لأن اتصال شاب فى سنه بأقطاب السياسية فى أوروبا من كتاب وسياسيين وأدباء وصحفيين، واستطاعته الدفاع عن القضية المصرية على صفحات الجرائد الأوروبية، كل ذلك ليس من المهام السهلة التى يضطلع بها كل من يريد، وإنما هو عمل شاق يتطلب استعداداً وكفايات متعددة وجهوداً هائلة، إذا اجتمعت فى شخص واحد كان ذلك آية عبقريته، ولاغرو فهو أول مصرى أسمع العالم صوت مصر، وعرف الرأى العام الأوروبى من مقالاته وأحاديثه وخطبه أن على ضفاف النيل أمة تشكو الاحتلال وتطلب الحرية والاستقلال.

كان الفقيد أول من فكر فى وجوب الدعاية لمصر فى الخارج، وأول من أدى هذا الواجب الكبير، قال فى هذا الصدد فى كتاب له نشر بجريدة المؤيد(٣).

«إن عقلاء الإنجليز شعروا بخطر احتلال مصر على دولتهم ولا ينقصهم غير معرفة إحساسات الأمة المصرية وحقيقة آلامها وآمالها وحقائق الأمور حتى يقيموا القيامة على حكومتهم ويسألوها الجلاء عن وادى النيل، فأجل عمل يأتيه المصريون اليوم هو نشر الحقائق فى أوروبا بأكثر اللغات انتشاراً خصوصاً باللغتين الإنجليزية والفرنسية حتى يتيسر لنا خدمة الوطن العزيز الذى فى خدمته خدمة الحق، وفى نصرته نصرة الفضيلة والحقيقة والسعادة القومية».

سافر المترجم إلى فرنسا فى مايو سنة ١٨٩٥، وقصد إلى باريس ليرفع فيها صوت الوطن، وهناك اتصل بكثير من رجال السياسة والصحفيين ليعاونوه فى أداء رسالته، كتب فى هذا الصدد إلى شقيقه على بك كتابا من باريس قال فيه: «إنى الآن أقضى ليلى ونهارى

(٣) عدد ٥ أغسطس سنة ١٨٩٥.

فى مخالطة كبار السياسيين لأنتفع منهم بخدمة مصر المحبوبة، والحمد لله قد تشرفت بمعرفة الكثيرين ورأيت من الجميع استعداداً لمعاونتنا وتحريك المسألة المصرية وطرحها على بساط المناقشة من جديد، وإنى أجد من نفسى قوة فى هذه الأيام ما وجدتها فى حياتى، كأن الله يريد أن يكون العامل لبلاده قويا حتى يقاوم هذه الحركة الهائلة، بيد أنى أشعر من جهة أخرى بأن البلاد فى حاجة لرءوس وألسنة وأقلام مصرية كثيرة حتى يقرب للبعيد ما تحدثه فى العالم من تأثير ولى الأمل أن ينتشر الشعور فى البلاد بسرعة، فإنه هو وحده رأس مال محررى الأمم والشعوب، وبدونه لا يستطيع خادم مهما كانت أمانته وقوته أن يصل إلى الغرض المرجو، ولذلك يجب على أغنياء البلاد الذين هم مدينون لمصر بمالديهم من ضياع شاسعة وأراض واسعة أن يؤسسوا المدارس العديدة على أساس من الدين القويم والتربية السليمة، وأن يقوم كبار العلماء بنشر الكتب المفيدة، ومهرة الكتاب بإنشاء الصحف الصادقة فى خدمة قطر هو أثمن وأغلى الأقطار».

وكانت مهمة مصطفى فى رحلته شاقة. لأن صغر سنة، وتقدمه أعلام مصر البارزين وقتئذ فى حمل علم الجهاد بأوروبا، جعل الكثيرين منهم يحيطون مهمته بالتشكيك فى نتيجتها والتهوين من شأنها، كتب صديقه فؤاد بك سليم (باشا) يصف موقفه وقتئذ بقوله(٤): «إنما الأعمال بالنيات، حياة طيبة أو موت شريف، هذه كانت إحساسات الشاب مصطفى كامل ودواعى سفره، بارح القطر المصرى فى أول شهر مايو الماضى (سنة ١٨٩٥) قاصداً أوروبا، نائباً عن أهله وأحبابه، مضحياً نفسه وكل ما تملك يداه فى سبيل خدمة وطنه والمدافعة عن حقوق أمته، فإن كان صغر السن كل ما يؤخذ عليه، فليس ذلك ذنبه، وإن لم يكن من الطبقة الأولى فى مصاف الأمة فإنما نهضته تشرفه».

ندؤاه إلى مجلس نواب فرنسا

(يونيه سنة ١٨٩٥)

ابتكر مصطفى طريقة للدعاية للقضية المصرية كانت أقوى أثراً من مئات المقالات يكتبها فى الصحف أو عشرات الخطب يلقيها فى المحافل، وكانت مادة لنشر المقالات

---

(٤) المؤيد عدد ٣١ يوليه سنة ١٨٩٥.

الجمة عن المسألة المصرية، ذلك أنه وضع نداء إلى فرنسا فى شكل صورة رمزية سياسية قدمها إلى مجلس نوابها تمثل مصر ترسف فى قيود الاحتلال وتستضرخ فرنسا لتعاونها على تحريرها، كما عاونت أمريكا وإيطاليا واليونان وبلجيكا على نيل حريتها من قبل، وجعل فى ذيلها ثلاثة أبيات كتبت بالعربية وكتبت أمامها ترجمتها بالفرنسية، ولم يكن الفقيد شاعراً يقرض النظم، ولكن وطنيته ألهمته وضع هذه الأبيات التى تبدو عليها الفطرة وعدم التكلف وهى:

أفرنسا يامن رفعت البلايا ... عن شعوب تهزها ذكراك

انصرى مصر إن مصر بسوء ... واحفظى النيل من مهاوى الهلاك

وانشرى فى الورى الحقائق حتى ... تجتلى الخير أمة تهواك

وضع مصطفى الصورة وطبع منها عدة آلاف من النسخ، وذهب هو وستة من إخوانه المصريين الذين كانوا مقيمين بباريس إلى سراى مجلس النواب يوم الأربعاء ٤ يونية سنة ١٨٩٥ لتقديم الصورة والكتاب المتصل بها، فقابلهم المسيو بريسون رئيس مجلس النواب، وتسلم منه الكتاب والصورة، وأبدى عطفه على الأمانى القومية المصرية، وأرسل مصطفى عقب المقابلة نسخا من الصورة وللكتاب إلى جميع صحف العالم، كما وزعها على جميع النواب والصحفيين والسياسيين فى فرنسا، وأرسل الآلاف منها لتوزيعها فى مصر، وهذا نص الكتاب:

حضرة الرئيس:

«إنى بأشد انفعال يخالج القلب تأثيره أتشرف بأن أقدم لمجلس النواب الذى أنت له نعم الرئيس هذا اللوح لذى يمثل مصر طالبة من فرنسا أن تكون لها خير عضد يساعدها على استرجاع حربنها واستقلالها، وإن هذا اللوح ليمثل لدى مجلس النواب حالة أمة ناشئة غيور على حريتها المسلوبة بغير حق منذ ثلاثة عشر عاما، ولقد برهنت الأمة المصرية يا حضرة الرئيس مع ما يعتورها من المصائب الشديدة على سكينة وصبر عجيبين استمالت بهما قلوب الأمم الأوروبية، ولكن لما اعتراها النصب جاءت مستغيثة بفرنسا. هذه الدولة العظيمة التى أعلنت حقوق الإنسان، والتى سارت به منذ قرن فى سبيل التقدم والمدنية، جاءت الأمة المصرية تستغيث بهذه الأمة الكريمة التى حررت عدة من الأمم فهل تجاب إلى استغاثتها وتضرعها؟

«وهل لفرنسا أن تؤيد بهذا العمل الجليل مكانتها فى العالم الإسلامى الواثق بها؟ على أن ذكر اسم مصر عندما تكون حرة مستقلة بجانب أسماء الأمم العديدة التى حررتها فرنسا ليس بالفخار القليل لها، فلتحى فرنسا محررة الأمم».

كان لهذا العمل دوىّ هائل فى أوروبا وفى مصر، لأنه نداء غير مألوف من أمه كان الظن الغالب أنها راضية بالاحتلال، وقد نوهت بذلك جميع الصحف الفرنسية وكثير من الصحف فى أوروبا وأمريكا، فكان هذا النشر أكبر دعاية للقضية المصرية.



الصورة الرمزية التى قدمها مصطفى كامل
إلى مجلس نواب فرنسا - يونيه سنة ١٨٩٥

وأهمية هذا العمل أنه لفت أنظار العالم إلى المسألة المصرية، وفى الحق إن هذا النداء كان أول صوت للشعب المصرى دوى فى أوروبا عقب الاحتلال مطالباً باستقلال مصر وحريتها، ولم يكن ممكناً أن يرتفع صوت مصر بأكثر ولا أقوى مما ارتفع وقتئذ بهذا النداء، وتناقل صداه فى الصحف إلى جميع الآفاق، فلقد كان استصراخا للإنسانية يشبه استصراخ بولونيا للعالم إبان محنتها القومية، وإن دعاية الفقيد للقضية المصرية فى أوروبا بهذه الهمة وهذا الإقدام، وهو بعد فى الحادية والعشرين من عمره، لأكبر مظهر من مظاهر عبقريته، فإن العمل الذى اضطلع به وحده قد تنوء به الجماعات والأحزاب، وقد لفت هذا العمل أنظار المصريين إلى شجاعة هذا الشاب وعلو همته، ودهشوا لجرأته، إذ نهض لمقاومة الدولة المحتلة فى وقت كان أغلب كبراء مصر وعظمائها خاضعين للقنصل البريطانى العام، فهذه الشجاعة التى بدت من مصطفى قد حببته إلى نفوس المصريين وأخذ نداء الوطنية والاستقلال يلقى فيهم ملبياً وسميعاً.

حديثه فى جريدة الجورنال
(يوليه سنة ١٨٩٥)

وقد نشرت له جريدة (الجورنال) الفرنسية وهى من أوسع الصحف انتشاراً حديثاً سياسيا عن مصر والمسألة المصرية كان له تأثير كبير فى تبصير الرأى العام بمساوىء الاحتلال البريطانى، وعلقت عليه جريدة (الإكلير) الفرنسية بقولها:

«لابد أن سيكون لمصطفى كامل المصرى دور مهم فى المسألة المصرية لأن أسلوبه السياسى قائم على الصراحة والحق، فهو يذكر بشجاعة وجلاء تلك المظالم الواقعة على المصريين من جراء الاحتلال الانجليزى الذى كلما مرت عليه السنون تجسمت فيه صروف الاعتداء على حقوق الناس».



مصطفى كامل فى الحادية والعشرين من عمره

خطبته فى تولوز
أول خطبة سياسية له فى أوروبا
(يوليه سنة ١٨٩٥)

لم يكتف الفقيد بجهاده بقلمه فى الصحف، بل عمد إلى الخطابة فى المحافل، فأقام اجتماعاً يوم ٤ يوليه سنة ١٨٩٥ بمدرج كلية الآداب فى تولوز[٥] التى نال منها شهادة الحقوق، دعا إليه بعض أساتذة الحقوق وكبار الصحفيين والكتاب وذوى الرأى فيها، وألقى بالفرنسية خطبة مسهبة، هى أول خطبة سياسية لمصرى فى أوروبا ذكر فيها اعتداء الاحتلال على حقوق مصر واستقلالها، وأبان مبلغ نقض انجلترا لعهودها فى الجلاء،

(٥) بشارع ريموزا.

وتغلغلها فى شئون مصر الداخلية فى مختلف الوزارات، واستنجد بأوروبا وفرنسا لمعاونة مصر فى استرداد استقلالها، وشكر المدعوين على عطفهم على القضية المصرية[٦]، فأعربوا له عن عواطفهم نحوه ونحو مصر، قال رئيس تحرير جريدة (الدبيش) التى تصدر فى تولوز فى هذا الصدد:

«إنى واثق كل الثقة بأن هذا المدافع عن حقوق مصر المسلوبة سيغرس لا محالة بعمله بذور الوطنية الصالحة حتى يقضى الشعب المصرى لبانته ويسمع يوما الحكم له على انجلترا، ولذلك أدعو زملائى أصحاب الصحف إلى تهنئة زميلنا الشاب الغيور منذ الآن».

ولقد كان لهذه الخطبة أثر كبير فى فرنسا لأنها جاءت صدى للوطنية الصادقة التى يحترمها الجميع فى فرنسا.

فى فيينا
(يوليه سنة ١٨٩٥)

لم يقتصر مصطفى على الدعاية للقضية المصرية فى فرنسا، بل قصد النمسا ونزل بفيينا عاصمتها فى يوليه سنة ١٨٩٥، واتصل بكبار الصحفيين والسياسيين، وأخذ ينادى بحق مصر فى الاستقلال ويدافع عن كرامتها وحريتها.

كتبت جريدة (اكسترا بلاط) فى عددها الصادر بتاريخ ٢٨ يوليه سنة ١٨٩٥ تقول:

«إن فينيا اليوم ضيفاً كريماً هو «مصطفى كامل» أحد كتاب مصر الفضلاء، وهو شاب حاد الفكر بعيد النظر اشتهر اسمه فى وطنه وفى أوروبا أخيراً، وهو الآن يجوب القارة الأوروبية مطالبا باسم الوطنيين المصريين بتحرير بلاده من ربقة الاحتلال الإنجليزى، ويدهى أن الأمة التى ينتسب إليها هذا الكاتب الشرقى قد استحقت بما أفادته من معاهد المدنية وبما لها من الذكاء الفطرى النادر المثال أن تعد فى مصاف الأمم المتمدنة فهى بذلك لا ترضى أن تكون تحت سيطرة حكومة أجنبية تعمل فى مصر كل ما تريد»

---

(٦) نشر المؤيد خلاصتها – عدد ١٠ و ١٣ يوليه ١٨٩٥، وطبعت بالفرنسية فى رسالة مستقلة فى عشرين صفحة.

وكتب عنه مراسل جريدة (الستاندرد) الإنجليزية فى فينيا ما يأتى «جاء مصطفى أفندى كامل وهو قانونى ومحرر جريدة إلى فينيا وأقام فيها عدة أيام، وقد جال فى كثير من أنحاء أوروبا نائباً عن جمعية وطنية فى مصر تسعى لتحرير بلادها من نير الإنجليز وبذل جهده فى استمالة الدوائر الرسمية إلى آراء وأفكار هذه الجمعية الوطنية».

رسالته فى أخطار الاحتلال البريطانى

عاد الفقيد إلى باريس فى ٨ أغسطس سنة ١٨٩٥ ونشر رسالة بالفرنسية بتاريخ ١٤ أغسطس عن (أخطار الاحتلال البريطانى) أبان فيها خطر الاحتلال على حقوق مصر، ثم على المصالح الأوروبية عامة، وقد وجه فيها الخطاب إلى الرأى العام الأوروبى ليكسب تأييده للقضية المصرية[٧]، وقد طبع هذه الرسالة وبعث بها إلى جميع رجال السياسة والصحف الشهيرة فى أوروبا، فكان لها دوىٌّ كبير، وجاءه نحو مائة جواب من مشاهير السياسيين فى فرنسا وغيرها يعلنون له فيها شكرهم وتهنئتهم.

أحرار فى بلادنا، كرماء لضيوفنا

وفى هذه الرسالة قال كلمته الخالدة عن شعار مصر ومعاملتها لنزلائها الأجانب (أحرار فى بلادنا، كرماء لضيوفنا).

والرسالة تتضمن شرحا وافياً للمسألة المصرية، وتدل على واسع اطلاعه على تاريخها ودقائقها، كما تدل على نضجه الفكرى وبعد نظره السياسى، وحسبك دليلا على قيمتها ما كتبته عنها مدام جولييت آدم، فقد قدمها إليها عند ماتعرف بها، فنشرت عنها فى جريدة (البتى مرسلييه) الفرنسية بتاريخ ١٧ سبتمبر سنة ١٨٩٥ كلمة ثناء قالت فيها: «إن هذا العنوان (أخطار الاحتلال البريطانى) علم على رسالة صغيرة الحجم لا يتجاوز عدد صفحاتها الإثنى عشر صفحة، كتبها مصرى وطنى يحب بلاده حباً شديداً، وقد جاء ليدافع عنها إذ رآها فريسة أغراض الأجنبى، وأودع هذه الرسالة كل ما ينتجه الفكر

---

(٧) نشر المؤيد تعريبها فى عدد ٢٨ اغسطس ١٨٩٥.

السليم والتبصر القائم على أدلة وحجج تفحم الذين جعلوا العمى مذهباً لهم أو تنير ما أشكل عليهم، والعنوان الثانى لهذه الرسالة الصغيرة الحجم الكبيرة الأهمية هو (نتائج الاحتلال الإنجليزى لمصر)، وهو لا يلم بموضوع إلا وفاه حقه وزيادة،وقد قرأت منذ واقعة (التل الكبير) ما كتب عن مصر فى انجلترا وفرنسا ومصر نفسها، فلم أرقط المسألة المصرية موضوعة أحسن من هذا الوضع ولا مستنتجة نتائجها أحسن من هذا الاستنتاج ولا مرتبة أجمل من هذا الترتيب ولا مبسوطة بتعقل وتدبر مثلها بسطت فى هذه الرسالة».

تعرفه إلى مدام جوليبيت آدم
(سبتمبر سنة ١٨٩٥)

إن تعرف المترجم إلى مدام جوليبيت آدم هو حادث مهم فى حياته السياسية والقومية، فإن مدام آدم هى من أعظم شخصيات فرنسا فى عالم الوطنية والسياسية والأدب، وهى الكاتبة الكبيرة ذات الشهرة العظيمة والنفوذ الأدبى فى فرنسا، وكان مشاهير الرجال من نواحى الأرض يرحلون إليها ويجتمع بدارها العلماء والأدباء وكبار القوم وملوك الشعر والأدب والسياسة.

ولدت مدام آدم سنة ١٨٣٦، وتوفيت سنة ١٩٣٦، أى أنها عمرت مائة عام، وهى من أعظم من أنجبتهم فرنسا علماً وأدباً ووطنية ومكانة سامية، وظلت موضع احترام مواطنيها طول سنى حياتها، وقد وضعت سنة ١٩٢٢ كتاباً قيما عن مصر أسمته (انجلترا فى مصر)، وهو من خير ما ألف فى المسألة المصرية

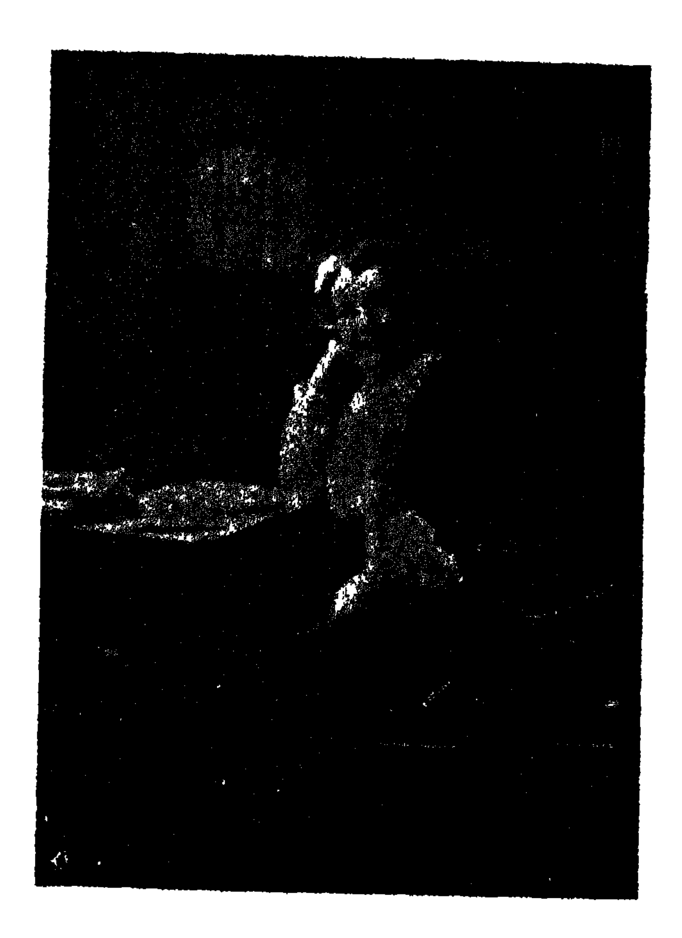
وقد سعى الفقيد سنة ١٨٩٥ إلى التعرف إليها، إذ أرسل إليها من تولوز أول كتاب له فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٩٥، ننشره هنا لأنه يصور لنا مقدار وطنيته ويصف مبلغ إيمانه برسالته القومية الكبرى، فى أفصح عبارة وأبلغ بيان، قال:

«سيدتى

«إنى لا أزال صغيراً، ولكن لى آمالا كباراً، فإنى أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة، هم يقولون إن وطنى لا وجود له، وأنا أقول ياسيدتى إنه موجود وأشعر بوجوده بما آنس له فى نفسى من الحب الشديد الذى سوف يتغلب على كل حب سواه، وسأجود فى

سبيله بجميع قواى، وأفديه بشبابى، وأجعل حياتى وقفاً عليه.

«إنى أبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة، وقد نلت إجازة الحقوق من تولوز قبل سنة، وأريد أن أكتب وأخطب وأنشر الحمية والإخلاص اللذين أشعر بهما فى سبيل الوطن العزيز، وقد قيل لى أكثر من مرة إنى أحاول محالا وحقيقة تصبو نفسى إلى هذا المحال، فاأعيننى ياسيدتى، فإنك من الوطنية بمكان يفردك بمزية تقدير قولى وتقوية عزمى وشد أزرى، وتقبلى تحية واحترام[٨]. مصطفى كامل



مدام جولييت آدم

---

(٨) رسائل مصطفى كامل إلى مدام جولييت آدم ص ٧.

وأرسل لها ضمن كتابه رسالته عن (أخطار الاحتلال البريطانى على مصر)، فلبت مدام آدم نداءه، وكتبت إليه ترحب بدعوته، فجاء وقابلها، وما أن عرفته وأدركت سمو آماله فى تحرير بلاده حتى ازدادت به إعجابا، وتوثقت بينهما من ذلك الحين أواصر الاتصال الروحى، إذ كان الفقيد يعدها أما روحية له، وقد عرفته بكبار السياسيين وأصحاب الصحف والمجلات فى فرنسا، قالت تصف تعرفها به:

«أعجبتنى كثيراً هذه الرسالة (أخطار الاحتلال البريطانى) فأنشأت فى الخامس عشر من شهر سبتمبر سنة ١٨٩٥ مقاله عنها، واقتبست منها أسانيد جديدة فى المسألة المصرية، وقد سبق لى الخوض فيها كثيراً، وأثبتت على المؤلف فى مقالتى، فورد إلى منه خطاب شكر جزيل، ومن ورائه خطاب آخر من باريس يسألنى فيه أن أضرب موعداً للقائه، فسرعان ما أجبته إلى ذلك، وواعدته دار «لا نوفل ريفو»[(٩)] (المجلة الحديثة)، فأقبل علىّ شاب خلته ابن ثمانى عشرة سنة، فقلت له ضاحكة ما صدقتنى سنك فإنك لم تبلغ الحادية والعشرين فقال: «قد بلغتها ياسيدتى وأكملتها، وبعد أن تجاذبنا أطراف الحديث رأيت أن عقل هذا الشاب قد بلغ أشده ونضج قبل أوانه ورأيت قد أطال التدبر والتروى فى إمكان مصيره، كما يقول خطيب مصر، ورأيت أغراضه الجسام محالة وممكنة معاً، فإنه مع انقطاع المعين له حقيقة وحكماً، لأنه غير معول إلا على شبان مثله لا مال لهم، كان يحدث نفسه بإنشاء جريدة ومدرسة ولا أدرى بماذا كان يحدث نفسه أيضاً، وربما لاح لغيرى أن هذا الشاب إنما كل زاده أوهام وأحلام، ولكن جاء كتيبه دالا على أنه حقيقة، هذا ولشدة بغضى لانجلترا وحبى لمصر كنت أرتقب وأتوقع منذ سنين قومة قائم فى وادى النيل، وكانت ثقتى دائما بذوى القول السديد الذين يرسلهم الله فى الوقت المناسب ليزرعوا الحب الصالح فى النفوس التى ظلت زمنا طويلا بورا، لقد فقه مصطفى كامل وأدرك بواطن الأطماع والدسائس الإنجليزية، وكان يتكلم عنها كأنه سياسى مسن متعود البحث عن أسباب الأمور، كفء لأن يحل ببطء ولكن بدون أن يخطىء العقد التى أحكمت عقدها مهارة عاقديها، أو ليست مساعدة وطنى شاب على أن يجاهد ويؤدى مهمة عالية أحد الأغراض التى التزمت توخيها منذ أنشأت جريدتى (لانوفل ريفو)؟ فقلت لمصطفى كامل: «ضع ياولدى مقالة فى إحدى المسائل الخاصة بمصر وامض فيها

(٩) المجلة التى كانت تديرها مدام جولييت آدم.

واسترسل استرسالا بغير تقيد، فإنه لا يضرنى منك ثورة الشباب ولا حدة اليقين».

«ومن عهد تلك المحادثة أخذت أؤدى لمصطفى كامل وظيفة الأم، فعرفته بجميع الرجال الأكابر الذين قد يعنيهم شأن مصر، وأوليته من حب الأم جميع منازل أبنائى المتقدمين عليه الذين كان يختص بالمعزة منهم بييرلوتى والكولونيل مارشان، وإرنست جوديه، وأوجدت له فى آن واحد علاقات نفيسة فى عالم الصحافة الفرنسية، تلك العلاقات التى عرف كيف يستخدمها بأحسن سياسة فى دعواه الشريفة، وأمكنه فيما بعد أن يستفيد من هذا المركز بكل مهارة فى جميع البلدان الأخرى حتى فى انجلترا نفسها».

واستمرت الصلة بين الفقيد ومدام جولييت آدم تقوى على مر السنين، ويدلك على مبلغ تقديره إياها ما كتبه عنها فى ٢٠ أغسطس سنة ١٩٠٢ حين أهدته كتابها (طفولتى وشبابى) إذ قال:

«إذا كان يحق لكل إنسان محب لبلاده أن يحيىٌ هذه السيدة تحية الإعظام والإعجاب، فمن الواجب الحتم على وأنا من خدمة بلادى العزيزة أن أعرب لها عن مزيد إعجابى بعملها وبكتابها، وأن أشرك الجمهور معى ليشكرها على حبها لمصر وثقتها بوصول أمتنا المحبوبة فى مستقبل الأيام إلى ماتبتغى من سؤدد وحرية واستقلال[١٠]».

وقد زارت مدام آدم مصر سنة ١٩٠٤ ملبية دعوة الفقيد، فاستقبلها بالحفاوة والإكرام كما سيجىء بيانه فى الفصل التاسع.

حديثه فى جريدة (الإكلير) الفرنسية

اتصل المترجم وهو فى باريس بكثير من السياسيين والصحفيين الفرنسيين ليضمهم إلى صف القضية المصرية، وقد حدث أن قررت الحكومة المصرية فى أواخر أغسطس سنة ١٨٩٥ إلغاء البعثة المصرية إلى فرنسا، فقصدت إليه جريدة (الإكلير) الفرنسية الكبيرة ونشرت له حديثاً بالعدد الصادر فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٩٥ حمل فيه على الاحتلال وسياسته وبخاصة فى التعليم، قدمت له بقولها:

---

(١٠) اللواء عدد ٢ سبتمبر ١٩٠٢.

«ورد علينا فى الأسبوع الماضى تلغراف من الإسكندرية يفيد أن وزارة المعارف فى مصر قررت إلغاء الإرسالية المصرية فى فرنسا، ولما كان لهذا القرار مساس عظيم بنفوذنا فى مصر فقد رأينا من المفيد أن نقصد من أجله إلى (مصطفى كامل) وهو الكاتب والخطيب المصرى الذى اشتهر اسمه فى باريس، لأن آراءه فى مثل هذه المسألة يعول عليها»[١١]

وقد كان لهذا الحديث تأثير كبير فى فرنسا، وتناولته الصحف الفرنسية، وكان موضع اهتمامها، ونشرت له جريدة (الجولوا) حديثاً له فى شئون مصر السياسية، وأخذ ينشر المقالات فى مجلة «لا نوفل ريفو» وهى مجلة مدام جولييت آدم.

خطبته فى الجمعية الجغرافية بباريس
(ديسمبر سنة ١٨٩٥)

وألقى فى الجمعية الجغرافية بباريس يوم ١١ديسمبر سنة ١٨٩٥ خطبة كبرى بالفرنسية موضوعها الاحتلال الإنجليزى فى مصر)، وذلك فى إجتماع حافل حضره مشاهير السياسيين والكتاب والعلماء والنواب فى فرنسا، وكثير من نزلاء باريس، فقوبلت بالتصفيق والاستحسان، واقتبست الصحف الباريسية كثيراً من فقراتها، ومما يذكر عن هذا الاجتماع أن مصطفى كامل دعا إليه ضمن من دعاهم الفيلسوف الفرنسى الشهير (جول سيمون) وكان يبلغ وقتئذ الحادية والثمانين من عمره[١٢]، فأرسل إليه كتاب إعتذار قال فيه: «إن كبر سنه وهو فى الحادية والثمانين يمنعه عن الحضور ولكنه لا يمنعه من أن يقول إنه أكثر الناس حباً لمصر وإهتماماً بشأنها».

* * *

(١١) المؤيد عدد ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٩٥.

(١٢) ولد سنة ١٨١٤ وتوفى سنة ١٨٩٦.

الفصل الخامس

جهاده سنة ١٨٩٦

استمر الفقيد ماضياً فى جهاده، فحفل عام ١٨٩٦ بمثل ما حفل به عام ١٨٩٥ من الجهود الجبارة فى بعث الحركة الوطنية.

خطابه إلى جلادستون فى شأن الجلاء
(يناير سنة ١٨٩٦)

فكر وهو فى باريس أن يواجه المستر جلادستون شيخ الأحرار فى انجلترا - وكان قد اعتزل الوزارة - يذكره بآرائه فى الجلاء، حين كان رئيس الوزارة البريطانية سنة ١٨٨٢ وأدلى بتصريحات عدة فى البرلمان الإنجليزى بأن انجلترا لا تنوى نقض عهودها فى الجلاء، فأرسل إليه الخطاب الآتى تعريبه:

«باريس فى ٢ يناير ١٨٩٦

«سيدى المبجل

«اسمحوا لأحد أبناء وادى النيل، لوطنى لا أمنية له إلا تحرير بلاده، أن يقصدكم اليوم ليسألكم رأيكم عن حل مسألة مصر، فقد كنتم منذ احتلت انجلترا وطننا أشد نصراء الجلاء، وجاهرتم مراراً عديدة بأعلى صوتكم أنه لا يليق ببريطانيا العظمى أن تحتل مصر إلى أجل غير محدود، فإن عملا كهذا يمس شرفها أشد المساس.

«لقد سجلنا كل تصريحاتكم فى هذا الصدد، ولو أنكم لم تستطيعوا الوفاء بوعودكم عندما كانت السلطة فى يدكم لأسباب نجهلها جهلا تاماً، فإننا لا نزال نظن أن اعتقادكم الآن كاعتقادكم فى سالف الزمن، أى أنه ليس لمسألة مصر إلا حل واحد وهو الجلاء.

«ولهذا رأيت من المفيد أن أرجو منكم فى هذا الوقت الذى اضطربت فيه أحوال المسألة الشرقية أن تعرفونا حقيقة إحساسكم نحو بلادنا.

«فإن كنتم لا تزالون من نصراء الجلاء كما نظن ذلك فمتى تظنون أنه يمكن تحقيق هذا الجلاء المنتظر من عهد بعيد؟

«وفضلا عن ذلك فإن تصريحاً منكم فى مسألة مصر يكون له أعظم قيمة فى هذه الأيام التى يحسب فيها الجم الغفير من أبناء ديننا المسلمين أنكم أكبر عدو رآه الإسلام، وإنى مع إنتظارى الجواب على كتابى هذا أرجو منكم أيها السيد المبجل أن تتفضلوا بقبول عظيم إحترامى».

مصطفى كامل

رد جلادستون

وقد أرسل المستر جلادستون إلى الفقيد على غير تعارف بينهما جوابا رقيقاً ردا على كتابه، أقر فيه بأن زمن الجلاء عن مصر قد وافى منذ سنين، فكان جوابه وثيقة هامة فى المسألة المصرية سجلت على انجلترا مركزها غير المشروع فى مصر، كما سجلت لمصر حقها فى الجلاء وهذا تعريب الخطاب:

«سيدى العزيز

«إنى أستحسن ما فهمته من إحساساتكم نحو بلادكم باعتبار كونكم مصريا، ولكننى مجرد بالمرة من كل سلطة.

«أما آرائى فإنها لم تتغير قط، وهى دائما أنه يجب علينا أن نترك مصر بعد أن نتمم فيها بكل شرف وفى فائدة مصر نفسها العمل الذى من أجله دخلناها

«وإن زمن الجلاء على ما أعلم قد وافى منذ سنين.

«ولما كنت فى منصبى أخيراً رجوت مساعدة الحكومات الأخرى توصلا إلى تسوية هذه المسألة المهمة، والسلوك الذى اتبعه مسيو وادنجتون[1] فى عام ١٨٩٢ شجع أملى،

---

(١) سفير فرنسا فى لندن وقتئذ.

غير أن المخابرات لم تخط خطوة واحدة مع عظم ما أملنا إذ ذاك، ولست أدرى لأى سبب.

«ولقد جاهرت بكل تصريحاتى فى مجلس النواب سنة ١٨٩٣، ولم يبق عندى شيء أضيفه عليها، وقد كنت مستعداً لعمل كل ما هو حسن فى سبيل إعطاء آرائى تأثيرها، إلا أننى تركت المنصب بالمرة، ولست الآن إلا أحد أبناء بلادى الخصوصيين، وإنى أتشرف بأن أكون لك الخاضع الصادق».

بيارتز فى ١٤ يناير سنة ١٨٩٦ — و. جلادستون

كان لخطاب مصطفى ورد جلادستون دوى كبير فى الدوائر السياسية، إذ جاء حجة على إنجلترا فى إخلافها عهودها فى الجلاء، وجاء شهادة قيمة من كبير الأحرار الإنجليز، الذى وقع الاحتلال فى عهد وزارته، بأن لا مسوغ لبقاء الاحتلال، فكان الرد انتصاراً كبيراً لجهاد مصطفى كامل، وقد تناولت الصحف الأوروبية الخطابين بالتعليق، وعلا شأن الفقيد إذ ظهر فى أوروبا بأنه ترجمان مصر المعبر عن آمالها ومطالبها.

نشرت جريدة (الإكلير) الفرنسية فى عدد ٣ فبراير سنة ١٨٩٦ مقالة للمسيو الفونس همبير نائب باريس فى مجلس نواب فرنسا قال فيها:

«تبودلت مكاتبة مهمة بين مصطفى كامل والمستر جلادستون، ومصطفى كامل هو شاب مصرى متعلق أشد التعلق بتحرير بلاده، وقد أقام فى باريس وعرفه فيها معرفة جيدة كل الكتاب المشتغلين بمسألة وادى النيل، وأتى على خلاصة الخطابين.

وكتبت جريدة (الفيجارو) الباريسية مقالا جاء فيه:

«لقد أصبح المستر جلادستون أحد أبناء بلاده البعيدين عن السلطة كما ينادى بذلك، وسهل عليه أن يعترف بتصريح ربما ضايق اللورد سلسبرى (رئيس الوزارة البريطانية) فى المفاوضات الجارية دائماً فى شأن الجلاء عن مصر، فقد كتب إلى زعيم الأحرار ذلك الشاب المصرى مصطفى كامل يذكره بآرائه القديمة التى كان مغزاها دائما أنه لا حل للمسألة المصرية إلا بالجلاء».

وكتبت الصحف الأخرى فى فرنسا وأوروبا المقالات الضافيـة عن الخطابـين والتعليق عليهما. ونوهت بفضل مصطفى كامل فى الحصول على هذه الحجة القوية من شيخ الأحرار الإنجليز ضد الاحتلال، وصار إسم الفقيد فى الصحف الأوروبية علماً على الحركة الوطنية المصرية.

خطابه الثانى إلى جلادستون

أراد المترجم أن يسجل على المستر جلادستون تصريحه بأن الجلاء قد حان منذ سنين، ويطلب إليه أن يعمل على تحقيق ما وعد، فأرسل إليه الكتاب الآتى، وقد بعث به إليه بعد عودته إلى مصر:

«مصر فى ٢٧ فبراير سنة ١٨٩٦

«أيها السيد المبجل

«إعذرنى إذا كنت أكتب إليك مرة ثانية، فإن عدداً عظيما من أبناء وطنى لما رأوا «أن زمن الجلاء على ما ترى قد حان منذ سنين» كلفونى أن أرجوك التكرم على مصر بإحداث حركة فى الرأى العام الإنجليزى لمصلحة الجلاء.

«وإن الحركة الكبيرة العديمة المثال التى أحدثتها فى انكلترا لمصلحة الأرمن بعض عبارات لكم فى شأنهم – حيث لم تكن وقتئذ إلا أحد أبناء بلادك الخصوصيين كما تقول، لهى أعظم كفيل لنا بأن مساعدتك لمصر يكون لها أعظم فائدة.

«وإلا فهل مسلمو مصر أقل إستحقاقا لرعايتك العالية من مسيحيى الأرمن؟ أو هل أنت كما أشاعوا فى بلاد الشرق عدو للإسلام؟ ذلك ما لا نتجاسر على ظنه.

«ولقد قلت فى خطبتك التى ألقيتها فى شهر أغسطس الماضى: «إنك لا تبغض المسلمين ألبتة، فهاهم المسلمون يأتونك اليوم حيث جاءهم الدور يسألونك أن تدافع عن مصر.

«ومع ذلك أفليس من الواجب على انكلترا أن تحترم هى نفسها العهود العلنية

والمعاهدات الدولية الضامنة لمصر حريتها قبل أن توصى تركيا – التى تعتبرها أقل بلاد أوروبا مدنية – باحترام فقرة من معاهدة برلين مختصة بالأرمن؟

«هذا وإننى أرجوك أيها السيد المبجل أن تتفضل بقبول عظيم إحترامى».

مصطفى كامل

لم يتلق المترجم من المستر جلادستون رداً على هذا الخطاب، وإنما تلقى منه كتابا ثانياً رداً على خطاب ثالث أرسله إليه فى سبتمبر سنة ١٨٩٦ كما سيجىء بيانه.

عودته إلى مصر
(يناير سنة ١٨٩٦)

بقى المترجم فى باريس يدافع عن القضية المصرية بقلمه ولسانه حتى أوائل يناير سنة ١٨٩٦، وقد قدر لمدام آدم فضلها ومعاونتها إياه فى جهاده، فبقى على وده لها طول حياته، وظلت هى على إعجابها به وبوطنيته طول حياتها، وقد أبحر من مرسيليا قاصداً مصر فوصل الاسكندرية يوم ١٤ يناير سنة ١٨٩٦:

كتابه إلى مدام آدم

وقبل أن يبارح فرنسا بعث إليها فى ٩ يناير سنة ١٨٩٦ بكتاب من مرسيليا يدل على مبلغ تقديره لما أسدته إليه من المعونة الأدبية، قال فيه:

«سيدتى المديرة المبجلة

«قبل أن أبرح هذه الأرض العزيزة أرض فرنسا أعرب لك من صميم فؤادى عن جزيل الثناء على المساعدة النفيسة جداً، تلك المساعدة التى أوليتنى إياها، وإنه لواجبٌ واجبُ الأداء أن أشكر بكل إخلاص عملك العظيم لوطنى التعس الحزين ولشخصى المتواضع، ولا شىء يؤلمنى أكثر من عجزى فى الكلمات، ولولا ذلك لكنت أصف لك مقدار التأثير الذى وقع فى نفسى من حسن لقائك إياى وما نلته من هذه المقابلة، وبالجملة فإنك أعلم بشعورى نحوك.

«بعد ساعة أبرح فرنسا حاملا تذكاراً متين الدعائم، وأملى أن أعود إليها بعد أن أتمم عملى فى مصر، وإنى أعتمد دائماً عليك أيتها السيدة الوطنية الكبيرة

«وأرجو منك أن تتكرمى بقبول أجل إكبار وأعظم اعتبار من يعترف لك بالجميل».

مصطفى كامل

أول خطبة وطنية له بالإسكندرية
(٣ مارس سنة ١٨٩٦)

لما عاد مصطفى كامل إلى مصر عقب جهاده فى أوروبا سنة ١٨٩٥، اتجهت إليه أنظار المصريين وتعلقت به آمالهم، وتفتحت بتأثير جهاده عواطف الوطنية فى قلوبهم، وتردد صدى خطبه ومقالاته فى أرجاء البلاد، فأخذت القلوب تلتف حوله كزعيم للحركة الوطنية ومحرر البلاد، ومناد بالجلاء، وقد اعتزم عند عودته إلقاء خطبة وطنية كبرى فى مدينة الإسكندرية ليتصل بقلوب الجماهير مباشرة، ولعله اختار إلقاءها هناك لما كان يأنسه فى أهلها من الحماسة والوطنية.

ذهب المترجم إلى الإسكندرية يوم ٢٨ فبراير سنة ١٨٩٦ لإلقاء خطبته، ونزل بأوتيل (آبات) بالمنشية، ولكن صديقه اسماعيل بك شيمى، وكان وقتئذ قاضياً بمحكمة الإسكندرية المختلطة، أبى إلا أن يستضيفه بمنزله على شاطىء البحر (بجهة الأنفوشى)، فقبل الدعوة، ونزل ضيفاً كريماً بداره، وما أن علم أعيان الاسكندرية وأهلها بمقدمه حتى أخذوا يتوافدون على دار شيمى بك ليظهروا للفقيد إعجابهم به، وتقديرهم لجهاده فى سبيل مصر، وليعربوا له عن تأييده والالتفاف حوله، فكانت الدار مدة إقامته بها مهوى أفئدة الوطنيين، وقد ألقى خطبته يوم الثلاثاء ٣مارس فى المسرح العباسى، وكان الاجتماع حافلا بالمستمعين من صفوة القوم، وقد حضره بعض النزلاء الأجانب، وكان الزحام شديدا إذا لم يبق مكان فى التياترو خاليا وارتد المئات من الناس عن بابه من كثرة الزحام، وقوبلت الخطبة بالتصفيق والحماسة والاستحسان، وكان موضوعها حث المصريين على التمسك بحقوقهم فى الاستقلال والمطالبة بالجلاء واستثارة روح الكرامة والأمل فى قلو م، وقد طب الخطيب من الحاضرين فى نهاية خطبته أن يقرّوا نداءه بالجلاء

برفع أيديهم، فأقروا بالإجماع نداءه، فكانت مظاهرة قومية رائعة.

قال «المؤيد» فى وصف الاجتماع[٢]: «وبالجملة فإن جميع الذين سمعوا هذه الخطبة الشائقة أجمعوا على أن حضرة الخطيب الفاضل قد استهوى المسامع بحسن إلقائه وبلاغة منطقه وغزارة مادته ولطيف اعتداله، وقال أيضا: «إنها الخطبة الأولى التى أقدم على إلقائها شاب مصرى غيور عرف واجب الوطن وضرورة التفانى فى حبه المقدس بعد أن مر على الاحتلال الأجنبى أربعة عشر عاما».

وأطنبت جريدة (الفارد الكسندرى) التى تصدر بالثغر فى مدح الخطيب، ونوهت بفضله فى تأليف قلوب الوطنيين والنزلاء، قالت: «وهو الأمر الذى كان له أحسن وقع فى النفوس الحرة لا سيما من شاب لا يتجاوز عمره اثنتين وعشرين سنة قام نائباً عن أبناء وطنه فى الدفاع عن حقوقهم».

كان لخطبة المترجم دوىّ عظيم فى الاسكندرية، تردد صداه فى أرجاء مصر، وظهر تأثيرها فى نفوس الاسكندريين يوم عودته إلى العاصمة، فكان توديعه بمحطة الاسكندرية مظاهرة وطنية، إذ اجتمع على رصيف المحطة جمع كبير من الاسكندريين وفى مقدمتهم أعيان المدينة وفضلاؤها لتوديع الضيف الكريم.

هدية الثغر إلى المترجم

وقدموا له وساما من الفضة رسم على أحد وجهيه صورة السعف المصرى ومسلة الثغر، وكتب على الوجه الآخر هذه الجملة:

برهان الإخلاص من أهالى الاسكندرية
(للوطنى الغيور مصطفى كامل)

فتقبل الهدية شاكراً، وأمطرت عليه باقات الأزهار والرياحين، وما كاد القطار يتحرك حتى هتف له الجمع الحاشد هتاف الإخلاص والحب وهو يرد التحية شاكرا.

---

(٢) عدد ٤ مارس سنة ١٨٩٦.

كتاب المترجم إلى أهالى الإسكندرية

أثرت مظاهر الحفاوة التى لقيها الفقيد من أهالى الاسكندرية فى نفسه تأثيراً كبيراً، وأدرك منها أن دعوة الوطنية تلقى من الشعب استعداداً لقبولها، فنشر فى المؤيد كتاب شكر لهم أعرب فيه عن اغتباطه لتلبيتهم داعى الوطنية قال:

إلى أهالى الاسكندرية

«أبناء وطنى الأعزاء

«يعجز قلمى ولسانى أن يؤديا لكم واجب الشكر على ما أظهرتموه نحوى من العواطف الشريفة، وما أبديتموه لى من علامات الود والإكرام، ولولا أنى معتقد أنكم لم تقصدوا بمظاهرتكم نحو أضعف خدمة الوطن إلا إعلاء منار الوطنية ورفع شأن الوطن العزيز لكنت أخجل أن أمسك القلم وأسطر هذه السطور.

«وإن الأمة المصرية لذاكرة كلها مظاهرة «٣ مارس» الشريفة التى أظهرتم فيها رغائبكم وطالبتم بحريتكم وسعادتكم الاجتماعية، وبرهنتم على أنكم تقدرون الوطنية الصادقة حق قدرها وتعرفون مزية السكينة والاعتدال فى خدمة الأوطان، فاعملوا دائماً بهذه المبادىء السامية لنبلغ الآمال وتشرق لنا شمس السعادة والإقبال

«وما مثلى أمامكم ومثلنا جميعاً أمام الوطن العزيز إلا كمثل رجل وجد امه عليلة سقيمة فأحس من نفسه الحنو والشفقة عليها فقام مناديا إخوته للعمل معه لشفاء علتها حيث وجدهم جميعاً يحسون نفس إحساسه ويشعرون شعوره، ففرح بهم وفرحوا به واجتمعوا على خير أمهم المحبوبة.

«فليتم لنا هذا الاجتماع المرغوب حتى يبرأ الوطن من علته ويسلم من دائه العضال، دمتم له يا أعز بنيه وأصدق حماته»

مصر فى ١٠ مارس سنة ١٨٩٦.

مصطفى كامل

اضطهاد الانجليز شقيقه

نقم الانجليز من الفقيد مجاهدتـه إياهم فى أوروبـا، لأن الدعـاية فى الخـارج تزعـزع مركزهم المعنوى الذى يعتمدون عليه كثيراً فى تثبيت سلطانهم فى مصر، وقد غضبوا عليـه لحمـلاته عليهم فى الصحف الأوروبيـة عام ١٨٩٥، وبـدأ أثـر هـذا الغضب فى معـاملتهم لشقيقه على (بك) فهمى كامل، وكان وقتئذ ضابطا بالجيش المصرى بالأورطـة الأولى من المشاة المرابطة بسواكن، فتشدد رؤساؤه الانجليـز فى معاملتـه فقدم استقـالته من خـدمة الجيش فى أكتوبر سنة ١٨٩٥، ولكن قومندان الأورطة الانجليزى رفض استقالتـه وطلب إليه استردادها متهدداً متوعداً، فاسترد على بك الاستقـالة، ثم صـدر الأمر بـإحالتـه إلى الاستيداع فى شهر نوفمبر، وسافر إلى مصر فوصلها فى ٥ ديسمبر سنة ١٨٩٥.

وقد رافق على بك شقيقه حين خطب بالإسكندرية، ولما عاد معه إلى العاصمة قدم استقالته من الجيش فى مارس سنة ١٨٩٦، ليكون بجانب أخيه فى ميدان الجهاد، وكان الإنجليز قد ساءهم النجاح الذى لقيه المترجم فى خطبته، والحفاوة التى قوبل بها فى الإسكندرية فاعتزموا أن ينتقموا منه فى شخص أخيه، فاعتبروا استقالته من الجيش فى الوقت الذى كانت تعد الحكومة فيه الحملة لاسترداد دنقلة مخالفة للواجب العسكرى تستوجب محاكمته، ومع أنه حين علم بنبأ هذه الحملة استرد استقالته بخطاب مسجل ووضع نفسه تحت تصرف وزارة الحربية، وألحق فعلا بالأورطة الخامسة عشرة، فإن وزارة الحربية أمرت بوقفه، واعتقاله ومحاكمته، وحوكم على الفور أمام مجلس عسكرى، فقضى بتجريده من رتبته العسكرية (وكان ملازما أول)، وتنزيله إلى درجة (نفر)، أى جندى بسيط، ونزعوا عنه علامة هذه الرتبة، وساروا به إلى الثكنة التى بها أورطته (بالعباسية)، فقوبل هذا الظلم بالألم الشديد من زملائه الضباط، وأعربوا له عن صادق عواطفهم نحوه، فشكرهم على إحساسهم، ونصح لهم أن يتبعوا الحكمة والروية، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا، وقد أودع السجن، وعوامل بغلظة وشدة، وألحق (نفراً) بتجريدة دنقلة، فكان ذلك منتهى العسف والتنكيل، وحضر واقعة (فاركة) وواقعة (الحفـير) وهو جنـدى بسيط.

كـان لهذا الـظلم الصارخ أثـر سيىء فى النفوس؛ وبخـاصة بعـد أن تناقلت الصحف والألسنة تفاصيله، وانتقل صداه إلى الصحف الخارجية، واستفـاضت الأنباء بـأن المقصود بهذا الانتقام هو مصطفى كامل.

وقد جعل المترجم لمسألة أخيه صبغة رسمية. فطلب مقابلة الخديو ليرفع إليـه ظلامتـه من هذا الاضطهاد، فأجيب إلى طلبه وقابل الخديو لهذا الغرض يوم الخميس ٩ يوليه سنة ١٨٩٦، فكان لهذه المقابلة ضجة فى المحافل السياسية، وبخاصة الانجليزية. لأن الانجليز عدوا مقابلة الخديو لزعيم حركـة الجلاء مـظاهرة ضـد الاحتلال، وقـابل اللورد كـرومر الخديو فى هذا الشأن، وأظهر له استياء الدوائر الانجليزية من استقبالـه مصطفى كـامل، فأجابه الخديو أنه ككل المصريين له الحق فى أن يشكو إليه مـظلمته، وأخيـراً صدر العفـو عن على بك فى أغسطس سنة ١٨٩٦، وقد استاء اللورد كتشنـر سردار الجيش المصـرى وقتئذ من أمر العفو، فلم ينفذه إلا فى أكتوبر، أى بعد شهرين من صدوره.

خطبته بالفرنسية فى الاسكندرية
(١٣ أبريل سنة ١٨٩٦)

لم يجزع مصطفى لا ضطهاد شقيقه، وكان الظن أنه يتراجع خوفا عليه، ولكنه ألقى وأخوه يتلظى فى محنته خطبة دلت على أنه مهما حورب فى شخصه أو شخص أقرب الناس إليه، فلا يحول حائل دون جهاده، ذلك أنه فى أبريل سنة ١٨٩٦ طلب منه لفيف من الأوروبيين المقيمين بمصر أن يلقى خطبة يشرح لهم فيها القضية المصرية وموقف المصريين من الجاليات الأجنبية. فلبى الدعوة، وألقى بمسرح زيزينيا بالإسكندرية يوم ١٣ أبريل خطبة بالفرنسية، كانت فوزاً كبيراً له وللقضية الوطنية فقد ازدحم المسرح بالحاضرين، وكانوا نحو ألف من خيار النزلاء مختلفى الأجناس رجالا ونساء، ومنهم بعض الإنجليز، وفى مقدمتهم بعض القناصل والشخصيات البارزة من الجاليات الأجنبية وأعيان التجار، وجموع كثيرة من صفوة الوطنيين الدين يعرفون اللغات الأجنبية، وألقى المترجم خطبته بلغة فرنسية فصيحة، وصوت رنان، ولقد جاهر فيها بأن اضطهاد شقيقه لا يثنيه عن جهاده، وسيظل مدافعاً عن وطنه طول حياته، واستمر يخطب ساعة ونصفاً، كان فى خلالها

يقابل بالتصفيق والاستحسان والإعجاب، مما دل على مبلغ تأثيره فى نفوس السامعين، ومعظمهم من الأوربيين.

وكان الموقف يدعو حقاً للإعجاب، لأن تلك أول مرة بعد الاحتلال يلقى فيها خطيب مصرى على جمع من الأوربيين فى مصر خطبة بلغة أوربية، مدافعاً عن القضية الوطنية، منادياً بالجلاء، وقد ظهر هذا الإعجاب فيما كتبته الصحف الأوروبية عن الاجتماع، قالت جريدة (الفارد الكسندرى): «عندما ظهر الخطيب على مسرح الخطابة قدم له جماعة من أبناء وطنه باقات كثيرة من الزهور دليلا على حبهم له وتأييدهم لخطته؛ فكان يتكلم وسط الزهور والرياحين بلسان بديع فى الفرنسية، وبأسلوب خطابى، وصوت جهورى، مما أثر تأثيراً قوياً فى السامعين»، وقالت جريدة الريفورم: «إن هذا الجهاد الذى يقوم به مصطفى كامل لجدير بالفخر، فلقد أمكنه أن يتكلم فوق ساعة ونصف بلسان أجنبى عنه، دون أن يمل سامعوه، ودون أن يستعمل ألفاظاً نابية عن الذوق وبرعاية وتحفظ تامين، ومن البديهى أن الذى يبلغ درجة كهذه لابد أن يكون له شأن كبير، ولقد سمعت بنفسى خصوما مجاهرين بمعارضتهم لآراء مصطفى كامل يعترفون بفضله وكفايته».

مجموعة أعمال المترجم فى عام

حفل عام ١٨٩٥ - ١٨٩٦ بما رأيت من جلائل الأعمال والجهود الجبارة فى بعث الحركة الوطنية، وقد فكر بعض أصدقائه فى طبع مجموعة أعماله فى ذلك العام، تخليداً وتكريماً لجهاده، فنشر الأستاذ العالم محمد بك مسعود (صاحب جريدة منفيس وقتئذ) هذه المجموعة بعنوان (مصر والاحتلال الإنجليزى) ومهد لها بمقدمة بليغة تدل على المكانة التى نالها مصطفى كامل فى النفوس والاعتراف له من ذلك الحين بأنه باعث الحركة الوطنية.

ظهرت هذه المجموعة فى مايو سنة ١٨٩٦، وانتشرت انتشاراً كبيراً، وأقبل الناس على اقتنائها إقبالا عظيما، وإنا مقتبسون هنا بعض فقرات من مقدمة الأستاذ مسعود بك لأنها تحتوى على وصف لشخصية مصطفى كامل فى بداية حياته الوطنية الكبرى، قال:

«نبغ هذا الهمام من مدارس مصر، وتوج ما اكتسبه فيها من المعلومات الجليلة بمتابعة الدراسة فى فرنسا، حتى نال الشهادة الناطقة بفضلة وقوة إدراكة وشدة ذكائه وحدة فهمه،

وقد كان كافة أساتذته وأقرانه يعترفون له بهذه النعوت الكاملة، وبما وهب من طلاقة اللسان وقوة البيان، وأنه الذى إذا ارتقى منبر الخطابة ذلل له القول وسخر له الخطاب، وتابعه الكلام متفق القرائن مطرد السياق، حتى يستميل إليه القلوب النافرة، ويرد الأهواء الشاردة».

إلى أن قال:

«يعترف القارىء المنصف اعترافاً لا تشوبه مداراة أو مواربة بأن الموجد لهذه الحركة الفكرية القوية إنما هو ذلك الذى ينبغى أن يكافئه كل وطنى بالاقتداء به وسلوك منهجه القويم، وما هذا المنهج القويم؟ هو صراط مستقيم يهتدى إليه كل من اجتمعت فيه مزية الإقدام واشتعال العواطف بالوطنية الصادقة، فإن هاتين الصفتين الجليلتين متى منح الإنسان التوفيق بتوافرهما فيه، أوصلتاه إلى سدرة منتهى الغايات المحمودة والمقاصد السنية، وسخرتا له كل الوسائط لتذليل الصعاب وتمهيد العقبات» إلى أن قال:

«علم مما سلف أن الإقدام والوطنية الصادقة، شرطان لازمان للمصريين، إذ بهما يقاومون جميع الصعوبات السياسية كما قاوم بهما من قبل فحول الرجال الذين أنقذوا أوطانهم من ربقة الاستعباد، فخلدوا فى تاريخ أممهم وتاريخ الحرية الذكرى الحسنة، وتركوا للأعقاب أثراً جميلاً ومثلاً يقتدون به، ولا بدع إذا كان المصريون الصادقون يؤملون لوطنيهم وخطيبهم المصقع منزلة فى تاريخ كمنزلة أولئك العظماء فى تواريخ بلادهم، فكلهم ابتدأوا كما ابتدأ، وربما كان عملهم فى المبدأ لم يصادف من النجح والفوز ما صادفه مصطفى كامل فى فاتحة أعماله الجليلة التى نقدمها للقراء متضمنة كل آثاره الوطنية فى عامه السياسى الأول»[٣].

(٣) كتاب (مصر والاحتلال الإنجليزى) أو مجموعة أعمال مصطفى كامل مدة عام من مايو ١٨٩٥ إلى مايو سنة ١٨٩٦ ص٤.

استئناف الجهاد فى أوروبا
(أغسطس سنة ١٨٩٦- نوفمبر سنة ١٨٩٦)

أبحر المترجم من الإسكندرية يوم السبت أول أغسطس سنة ١٨٩٦ قاصداً فرنسا ليستأنف جهاده فى أوروبا، فودعه على رصيف الميناء جمع كبير من ذوى المكانة، وقدم له الوطنيون الإسكندريون باقات الأزهار داعين له بالنجاح فى جهاده[٤]، وما أن وصل إلى باريس حتى بادر إلى العمل والجهاد فى سبيل مصر.

فنشرت له جريدة (ليبر بارول) الفرنسية حديثاً بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٨٩٦ عن الحركة الوطنية، قال فيه:

«إن كراهية المصريين للاحتلال تزداد من يوم لآخر، وقد علمنا الآن حق العلم أن انجلترا تستعمل كل الوسائط بما فيها الشرف البريطانى للوصول إلى غايتها فى مصر، وليس لها من غاية هناك سوى الاستيلاء عليها، وإنه إذا كانت الأمة المصرية ساكتة اليوم سكوتاً تاماً وصابرة صبراً جميلًا فإنى لا أستطيع التكهن بما يمكن أن ينجم عن حقدها الشديد على الاحتلال والمحتلين».

ذكرى ١٤ سبتمبر

وانتهز المترجم يوم ١٤ سبتمبر وهو ذكرى احتلال الإنجليز عاصمة البلاد فى سنة ١٨٨٢، فنشر فى جريدة (الإكلير) الفرنسية بعدد ١٥ سبتمبر سنة ١٨٩٦ حديثاً ضمنه التنويه بهذه الذكرى، وقد مهدت له الجريدة الباريسية بقولها: «أى تذكار محزن وأية ذكرى تعسة مؤلمة؟»

---

(٤) جاء فى المؤيد عدد ٢أغسطس سنة١٨٩٦ مايأتى: «كان من جملة الذين بارحوا ثغر الاسكندرية أمس إلى أوروبا حضرة الكاتب الفاضل والخطيب الوطنى البليغ مصطفى أفندى كامل فودعه على ظهر البحر كثير من أصدقائه وإخوانه كما ودعه الكثير منهم بعد ظهر يوم الخميس الماضى على محطة القاهرة رافقته السلامة والنجاح أينا توجه».



مصطفى كامل فى الثالثة والعشرين من عمره

«لقد مضى على مصر أربعة عشر عاماً وهى مقهورة ومضغوط عليها من قوم يلقبون أنفسهم بمدنى العالم! وإن الإنسان عندما يفكر أن الإنجليز مضى عليهم هذا الزمن وهم يهدمون كل بنيان فى مصر، ويحاربون أوروبا والمدنية الأوروبية على شواطىء نهر النيل ويقوّضون أركان نفوذ فرنسا واحترامها، ويقهرون المصريين، كل ذلك ودول أوروبا لم تعمل شيئاً ما ضد الاحتلال، يظن أن أوروبا هذه تلاشت وأنها لا وجود لها اليوم! وليس تذكار ١٤ سبتمبر تذكار حداد للأمة المصرية فقط، بل هو أيضاً - وأسمح لنفسى أن أقول ذلك - تذكار عار وخجل على سياسة أوروبا ومدنيتها عامة وعلى فرنسا خاصة».

خطاب ثالث إلى جلادستون

كانت المسألة الأرمنية فى صيف سنة ١٨٩٦ متار الأحاديث فى الصحف الأوروبية والدوائر السياسية، وكانت الصحف الأوربية عامة تدافع عن الأرمن وتحمل على الحكومة التركية من أجلهم حملات شديدة، وكان المستر جلادستون من أشد السياسيين انتصاراً لهم، فكتب المترجم من باريس خطابا ثالثاً نوّه فيه بخطابه الثانى الذى لم يتلق عنه رداً، وألمع إلى دفاع المستر جلادستون عن الأرمن ضد الحكومة التركية، وسكوته عن المسألة المصرية، على ما يقع فيها من عدوان السياسة الإنجليزية، ونقضها لعهودها فى الجلاء، وأعرب عن أمله فى أن يكون عادلاً فى موقفه حيال المسألة المصرية، وهذا تعريب خطابه:

«باريس فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٩٦.

«أيها السيد المبجل.

«إن الذى يخاطبكم اليوم هو مصرى تشرف من قبل بمراسلتكم، ولما شرفتمونى فى شهر يناير الماضى بجوابكم الذى صرحتم فيه «أن وقت الجلاء عن مصر قد حان منذ أعوام» كتبت إليكم راجياً باسم الإنسانية والشرف البريطانى أن تلقوا خطبة تذكرون فيها حكومة الملكة بأن هناك معاهدات بمصر يجب احترامها، فلم يصلنى جواب ما، وحسبت أن رجائى لم يؤثر أى تأثير فى روحكم الشريفة الكريمة.

«واليوم أرى مع الأسف أنكم لا تميلون إلا إلى المسيحيين من بنى الإنسان، أوليس لنا حق كذلك نحن معشر المصريين المسلمين فى دعواكم المؤثرة وندائكم القوى؟ أما أنا فأظن ذلك، وخصوصاً لأنكم بدعوتكم للجلاء عن مصر لا تدافعون عن حقوق أمة متمدنة معتدلة فقط، بل تدافعون كذلك عن مقام بريطانيا وشرفها.

«وإن اليوم الذى تدافعون فيه عن مصر تستميلون إليكم لا محالة كل المسلمين الذين يعتقدون الآن أن دفاعكم عن الأرمن إنما هو تحيز للمسيحية ودفاع عنها لا عن الإنسانية وعلى هذا أؤمل أن تعيروا رجائى التفاتكم ورعايتكم، ومع انتظارى لجوابكم أرجو منكم أيها السيد العظيم المقام أن تتفضلوا بقبول صادق اعتبارى وعظيم احترامى».

مصطفى كامل

رد جلادستون

فأجابه المستر جلادستون بالكتاب الآتى تعريبه:

«السبت ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٩٦

«سيدى العزيز

«إنى لا أظن أنه قد وصلنى منكم كتاب من غير أن أجيب عنه، أما إحساسى ورأيى فى مسألة الجلاء عن مصر فقد صرحت بها لجناب المسيو وادنجتون - سفير فرنسا فى لندن إذ ذاك - إذ قلت له إن حكومة سنة ١٨٩٢ (أى الحكومة الانجليزية التى كان يرأسها مستر جلادستون نفسه) مستعدة للمناقشة فى هذه المسألة، ولكن الحكومة الفرنسية لم تجب أى جواب مدة وجودى فى الحكومة، والآن باعتبارى أحد الأفراد أرانى مجرداً من كل سلطة تبيح لى التدخل فى هذه المسألة

«وفى الختام أتشرف بأن أكون لكم العظيم الإخلاص الخاضع»

و. جلادستون

كان لهذين الكتابين صداهما فى الصحف، إذ اتخذت منهما مادة لمناقشة المسألة المصرية وإلزام السياسة البريطانية الحجة.

كتبت جريدة (الديبا) الفرنسية مقالا جاء فيه ما يأتى:

«إن المستر جلادستون الذى كتب أخيراً كتاباً يدعو فيه الأمة الفرنسية إلى التظاهر بغيرة أشد مما هى عليه انتصاراً لمسيحيى الأرمن دعاه بدوره رجل مصرى للدفاع عن أمة أخرى مقهورة، وبيان ذلك أن مصطفى كامل المصرى الوطنى كتب إليه كتاباً يقول فيه أنه يجدر بشيخوخته النشيطة أن تعمل لتحرير مصر وردها إلى أهلها من أيدى الإنجليز محتليها بلا حق، وإن تكن المشابهة بين المسألة المصرية والمسألة الأرمنية طريفة أكثر مما هى صحيحة، ولقد أجاب المستر جلادستون مصطفى كامل بأنه لما كان رئيس حكومة الأحرار سنة ١٨٩٢ فاوض فرنسا فى هذا الشأن وأنه عرض على المسيو

وادنجتون المباحتة فى المسألة المصرية ولكن الحكومة الفرنسية هى التى أغفلت هذا الطلب ولم تجبه، وإننا نعلم كيف كان عرض هذه المناقشة يومئذ، ولكن الخطبة التى ألقاها المستر جلادستون نفسه فى البرلمان البريطانى باعتباره إذ ذاك الوزير الأول لانجلترا تجعلنا نحكم الآن بأن حكومتنا كانت تضيع وقتها سدى لو فاوضت المستر جلادستون فى هذه المسألة، ومع هذا فإذا كان المستر جلادستون لا يزال يعتبر لزوم المفاوضة ويرغب فى أن تحافظ إنجلترا على عهودها وتقوم بوفائها فلماذا نراه لا يقبل رجاء مصطفى كامل بل يعتذر عن نفسه بأنه فرد من أمته مجرد عن كل سلطة ككل أفراد الإنجليز؟ نعم إن هذا القول يعد تواضعاً ممدوحاً، ولكن هل الصوت الذى ارتفع للدفاع عن الأرمن فهيج خواطر الإنجليز غير قادر على أن يقول الحقيقة فى شأن مصر؟»

دعايته فى ألمانيا

سافر المترجم من باريس فى أكتوبر سنة ١٨٩٦ قاصداً برلين ليرفع صوت مصر فى ألمانيا ويكسب لها الأنصار، وهناك تعرف بكثير من رجال السياسة والصحافة، ورحبت به الصحف الألمانية واستقبلته بالحفاوة، فكتبت عنه جريدة (برلينر تاجبلاط) قائلة:

«وفد على برلين فى هذه الأيام أكبر المشتغلين بأمر تحرير مصر من الاحتلال الأجنبى وهو الوطنى الشهير «مصطفى كامل» الذى يكتب ويخطب فى أوروبا منذ عامين دائب السير والعمل والجهاد فى سبيل مشروعه الشريف، والآن قد جاء برلين لاستمالة شعبها إلى وطنه الأسيف، ومصطفى كامل هذا، هو شاب فصيح جذاب، اجتمع به أحد محررى جريدتنا وتحادث وإياه فى المسألة المصرية وكان الحديث باللغة الفرنسية التى يتقنها كل الإتقان».

وقد نشرت الحديث، وهو دفاع مجيد عن حق مصر فى الاستقلال وعدم مشروعية الاحتلال، وتألم المصريين منه.

ونشرت جريدة (ذى بوست) كبرى جرائد المحافظين حديثاً آخر له فى هذا الشأن، وقد نوه فى كلا الحديثين بأن الاحتلال لا يضر بحقوق مصر فحسب بل يعارض المصالح الأوربية عامة، قالت جريدة (ذى بوست) فى هذا الصدد:

«لقد تكلمنا فى جريدتنا منذ بضعة أشهر عن رسالتين مهمتين تتعلقان بالجلاء عن مصر، وقلنا إنهما من قلم الوطنى المصرى الشهير (مصطفى كامل) ذلك الذى وهب حياته ونفيس عمره لتحرير وطنه وتحرير بلاده، ولما كان يطوف أوروبا دائباً فى عمله فقد جاء برلين ليتعرف فيها إلى رجال القلم والسياسة حتى يطالعهم بحالة بلاده الحاضرة، لكى يقتنعوا بضرورة العمل ضد بقاء انجلترا فى مصر، وقد فعل ذلك فى الممالك والعواصم الأخرى، إلى أن قالت: «لقد تعودنا أن نعتقد دائماً أن نصراء الآراء العظيمة وزعماء المذاهب ودعاة الأغراض الكبيرة يكونون من الشيوخ الكبار السن، ولذلك دهشنا أول الأمر إذ شاهدنا مصطفى كامل المصرى المتجول فى أوروبا طلباً لتحرير بلاده من نير الاحتلال الأجنبى شابا فى غضاضة العمر، ولكن لا يلبث الإنسان هنيهة حتى ينسى أنه أمام شاب، بل يحسب نفسه مع شيخ كبير حنكته التجارب والسنون الطوال، ويجده محدثه فضلا عن ذلك فى كل كلمة من كلماته شغوفاً بوطنه مملوءاً غيرة عجيبة وحباً للعمل الذى هو قائم به، وحركات رأسه المملوء نشاطاً وكفاية، وبريق عينيه، كل ذلك يدل على قوة إيمانه وأنه مستعد لعمل عظيم يحقق فيه القول بالعمل، وهو يؤدى الأحاديث بحرارة ما عهدت فى غيره من رجال الشرق، ويجيب مخاطبه بصراحة تامة عن كل سؤال، وهو معتقد تمام الاعتقاد أنه يعمل عملاً شريفاً طاهراً، وأنه واثق تمام الثقة بأن آماله لابد أن تتحقق، وثقته بنفسه وبشعبه واطمئنان خاطره يظهران جلياً من جوابه عن هذا السؤال:

«أى مهمة سياسية أنت مكلف إياها فى حضورك إلى برلين؟

«إنى مكلف من تلقاء نفسى وبواجبى الوطنى بمهمة وطنية محضة يدفعنى إليها الإحساس النفسانى، فإنى لما فكرت فى الحالة التعسة التى فيها وطنى وشعرت من نفسى بأننى إنسان عليه واجبات لأرض آبائه وأجداده رأيت بعد التروى مع أصدقائى الوطنيين أن آتى إلى أوروبا، وقد مضى علىّ عامان وأنا مشتغل بعملى هذا مدافعاً عن قضية بلادى ضد الانجليز المحتلين لها برغم المعاهدات الصريحة القطعية، وأعظم التعهدات العلنية، ولقد وجدت أينما كنت معاضدة محبى الحق والعدل، وهم والحمد لله ليسوا بالقليلى العدد فى أوروبا، وإنى أخاطب الأمم والحكومات، وسواء سمع صوتى الآن أو بعد الآن، حتى لو كان سماعه بعد موتى فإنى عامل ما عشت لأداء واجباتى نحو وطنى، وأنادى كل ذوى الضمائر الحرة من جميع الأمم للعمل لإنقاذ مصر».

فى النمسا

ثم ذهب إلى النمسا ليواصل دعايته للقضية المصرية، فوصل عاصمتها «ڤيينا» يوم ١٩ أكتوبر سنة ١٨٩٦[(٥)]، وكان وهو فى باريس قد دارت بينه وبين المسيو (جوزيف بويوسكى) أحد كبار أعضاء مجلس النواب النمسوى مكاتبة فى صدد المسألة المصرية أراد بها أن يجتذب النائب الكبير إلى جانب مصر، فكتب إليه كتاباً فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٩٦ يشبه من بعض الوجوه كتابه إلى المستر جلادستون قال فيه:

«باريس فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٩٦.

«جناب المحترم المسيو جوزيف بويوسكى

«لم أتشرف بمعرفتك من قبل، ولكنى وطنى مصرى أعمل لجلاء الاحتلال الانجليزى، لذلك أجد من الشرف أن أسأل بلا معرفة رجلًا حراً مثلك اشتهر بسعة علمه وعظيم استقلاله وتمكنه من معرفة السياسة الخارجية بحذافيرها ليشرح لى رأيه هل هو نصير الاحتلال أم الجلاء؟ وما هى السياسة التى يجب أن يتبعها التحالف الثلاثى؟

...

«ورجائى ألا تعتبروا سؤالى هذا مملًا أو مبهماً، فإن الوطنية قوة قاهرة تدفع المرء إلى مخاطبة من لا يعرفه أو الخروج أحياناً عن حد اللياقات، وإنكم وأنتم الذين علمتم الأمم ما هى حدود الوطنية، لابد أن تعطفوا على الوطنيين المصريين وتمدوا إليهم يد المعونة فى سبيل تخليص وطن حكم عليه بالأسر والذل كاد يذهب ضحية طمع بريطانيا وتهاون أوروبا.

«وتقبل أيها العضو المبجل أجل تحيات وعظيم احترامات.

المصرى المخلص

مصطفى كامل

---

(٥) المؤيد عدد ٣١ أكتوبر سنة ١٨٩٦.

فأجابه النائب بويوسكى بالكتاب الآتى:

ڤيينا فى ١٥ أكتوبر سنة ١٨٩٦.

« سيدى

«تسألنى فى كتابك المؤرخ ٢٤ سبتمبر الماضى إذا كنت نصيراً للاحتلال أو الجلاء، فجواباً عن هذا السؤال أقول لك إنى أفهم جداً أنك باعتبارك مصرياً وطنياً لابد أن تتألم لضياع استقلال بلادك، وإن كان يعزيك ويخفف آلامك الاعتقاد بأن الاحتلال الإنجليزى فى مصر ليس إلا مؤقتاً، وأن انجلترا لا تتعدى على القومية المصرية، وأن لكم استقلالاً داخلياً تاماً وأن لكم أميراً حازماً وإدارة منتظمة. ولكن لكى تنال أمة من الأمم حريتها يلزم أن يكون عندها بعض صفات معنوية خاصة. وأولى هذه الصفات أن تكون مستعدة لأن تضحى بنفسها فى سبيل الوطن.

«وقد أرشدنى التاريخ إلى أن روسيا قضت أربعين عاما حتى استطاعت أن تملك القوقاز، وأن فرنسا حاربت فى الجزائر حربا طويلة حتى استطاعت أن تقف مقاومة «عبد القادر» لها. ولا يزال من الصعب على هاتين الدولتين تجنيد الجنود من القوقاز والجزائر! ومن جهة أخرى فليس لانجلترا فى مصر غير ثلاثة آلاف جندى، مع أن للخديو جيشاً منظماً عدته ثلاثة عشر ألف جندى، ولديه خمسة آلاف رجل فى بوليس منظم تنظيماً عسكرياً. فهذه الأرقام تدل على أن أغلب المصريين راضون عن الاحتلال الانجليزى!

«وأنا أعتقد أن الحرب السودانيـة لابد أن تـرفع من شـأن الجنود المصـرية فتكسبهم ملكة عسكرية أهلية تساعد – وذلك ما لا شك فيه – على استكمال الصفات الضرورية لمصر حتى تنال استقلالها يوماً ما.

«وإنك تسألنى أيضاً فى كتابك عن رأيى فى السياسة التى يجب أن يتبعها التحالف لثلاثى تجاه المسألة المصرية.وجواباً عن هذا السؤال أقول لك إنى أفتكر أن المسألة المصرية لا تهم دول التحالف مباشرة بل إن سياستها تتوقف على ما تخطه انجلترا فى المستقبل.

«هذا وإنى أرجوك أن تتفضل بقبول عظيم احترامى ومزيد اعتبارى.

جوزيف بويوسكى

وقد قابل مصطفى كامل بعض كبار رجال السياسة فى النمسا، وفى مقدمتهم المسيو شلومكى رئيس مجلس النواب النمسوى وكبار الصحفيين وشرح لهم المسألة المصرية وجهاد مصر فى سبيل استقلالها. فاكتسب عطف الكثيرين منهم نحو مصر.

ونشرت له جريدة (اكتسر تاجبلاط) حديثا قال فيه:

«إننا متألمون من الاحتلال الإنجليزى لأنه مسقط لكرامتنا باعتبارنا أمة، فضلا عن كونه جارحاً لعزة بلادنا حساً ومعنى، فإننا أمة تقدر محبة الوطن حق قدرها، ونعلم أن بلادنا ما دامت تحتالنير الأجنبى وما دمنا لا ندير شئوننا بأيدينا فلا حق لنا فى أن نحسب أنفسنا أمة من الأمم التى لها حقوق محترمة، ولهذا نرغب من صميم أفئدتنا التحرر من الاحتلال الإنجليزى».

وقال عن سبيل مصر إلى الاستقلال:

«لما كانت الأمة المصرية متألمة ولها حق التحرر من النير الإنجليزى، فنرى للوصول إلى غرضها سبيلين، سبيل الثورة والسبيل السلمى، فأما سبيل الثورة فنحن لا نريده لأننا قبل كل شىء قوم مشهورون بالدعة وحب السكينة؛ ونبغض المذابح والجرائم، ومن جهة أخرى فإن لأوروبا عندنا مصالح تضر بها الثورة. وإذا كنا نحترم حقوق أوروبا ومصالحها فى مصر فمن المحتمل أن الأمة إذا ثارت ضلت سبيل الرشاد فلا تميز بين الإنجليز وغيرهم من الأوروبيين إذ تقول وقتئذ: «لقد تظاهرت أوروبا ضدنا بموافقتها على الاحتلال فمن الواجب إذاً العمل ضدها» - لذلك أعرضنا عن سبيل الثورة الذى نكرهه بفطرتنا.وعلى ذلك قد اخترنا السبيل السلمى ورفعنا صوتنا إلى مسامع أوروبا المتمدنة بمطالبنا الحقيقة وإن الساعة قد آذنت لا محالة وتحتم على أوروبا أن تعمل لجلاء الإنجليز عن مصر».

ذهابه إلى الاستانة
(أكتوبر سنة ١٨٩٦)

لم يكن معقولا أن يطوف المترجم عواصم أوروبا ليكسب الأنصار والأعوان لقضية مصر، ولا يذهب إلى الاستانة عاصمة تركيا، لأن تركيا كانت فى عهد الاحتلال

الإنجليزى الدولة الوحيدة التى كانت لا تفتأ تطالب انجلترا رسمياً بالجلاء عن مصر، وقد أنفذت إلى مصر مندوباً سامياً عنها وهو (أحمد مختار باشا الغازى) مهمته مطالبة الإنجليز بالجلاء، وكان مختار باشا يعلن بأنه احتجاج حيّ على الاحتلال فلا غرابة أن يستعين زعيم الجلاء بتركيا، كما أراد أن يستعين بفرنسا وغيرها من الدول الأوروبية على إحراج مركز الاحتلال.

قصد إذن الاستانة لأول مرة عن طريق فيينا وبودابست، فوصلها صبيحة الثلاثاء ٢٧أكتوبر سنة ١٨٩٦، ونزل بفندق (بيرا بالاس)، وحضر بدعوة من باشكاتب المابين الهمايونى حفلة (السلاملك) وهى حفلة صلاة الجمعة فى الجامع الحميدى حيث يصلى السلطان، وفى ذلك اليوم قابل السلطان، فلاطفه فى الحديث وأعرب له عن إعجابه به وحسن تمنياته، وفى خلال إقامته بالاستانة أهداه هدية ثمينة وهى علبة سجائر من الذهب مرصعة بالماس والأحجار الكريمة، وموضوعة داخل صندوق صغير من الذهب والفضة، وأبدى رغبته فى أن يمنحه رتبة أونيشانًا، ولكنه اعتذر عن عدم قبولها حتى لايتهمه خصومه، وكانوا فى مصر كثيرين، بأنه يعمل حبًا فى الظهور ونيل الأوسمة، وقد لامه أصدقاؤه على هذا الاعتذار بعد عودته إلى مصر، وأقنعوه بألا يرفض رتبة تمنح له من السلطان، لأنهم عالمون بأن الألقاب فى مصر والشرق تعظم من شأن الرجل فى نظر الناس وتعلى من قدره ويزداد بها الزعيم مكانة عند العامة والخاصة، فاقتنع المترجم بهذه الحجة كما سيجىء بيانه.

أقام فى الأستانة بضعة أيام، من ٢٧ أكتوبر حتى ١١ نوفمبر، اتصل فى خلالها بكثير من رجال الدولة ومكاتبى الصحف الأوروبية والأمريكية الشهيرة، إذ وفدوا عليه ليحادثوه فى شأن مصر والمسألة المصرية، فأفاض لهم بما لديه من المعلومات الجمة، وكان فى أحاديثه الترجمان الصادق للأمانى القومية.

كتب مكاتب جريدة (فرنكفور تركوربيه) الألمانية بعنوان (حديث عن المسألة المصرية – مصطفى كامل فى الاستانة) ما تعريبه:

«الأستانة فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٦

«تشتغل دوائر الاستانة السياسية الآن بمسألة تحرير مصر، وهى المسألة الخطيرة التى

لا يبعد أن تظهر قريباً فى مقدمة المسائل الدولية العظيمة الشأن، وفضلا عما لهذه المسألة من الأهمية فى أوروبا فإن الوطنيين الصادقين من المصريين قد أخذوا على أنفسهم المناداة بحقوقهم وإظهارها دائماً على المسرح السياسى، وذلك مما زاد قيمتها ولقد حضر إلى الأستانة منذ أيام ذلك الخطيب المصرى الشهير الناطق بلسان المصريين والمترجم عن رغائبهم، وهو (مصطفى كامل) ذلك الشاب الذى خلق ليكون خطيب قومه، لما وهبه الله من القوة والغيرة العجيبين، ولما هو عليه، من الفصاحة المتدفقة وملكة التأثير فى النفوس، وما فى نفسه الشريفة من المحبة الشديدة لوطنه، لم يكد يجىء الأستانة ويزور فيها رجال السياسة حتى قوبل من كل الدوائر السياسية بغاية الحفاوة والإكرام، وعلى الأخص فى المابين السلطانى فإنه قوبل بأجمل ما يقابل به سياسى من الحفاوة والتكريم، ومن الصعب أن يتكهن الإنسان فى هذا الحين بالنتائج التى تنتج عاجلا عن عمل (مصطفى كامل)، ولكن مقابلته لرجال السياسة ذوى الحكمة والشأن فى العواصم الثلاث (باريس وبرلين وفيينا) ومحادثاته لسائر الصحف الشهيرة وحضوره بعد ذلك لعاصمة الدولة العثمانية لمن الأمور التى يدرك قيمتها كل إنسان، ولقد قابلت هذا الضيف الجليل وتحادثت معه طويلا فى أحوال مصر والشرق فوجدته على جانب عظيم من اللطف والدعة وسعة الفكر والخبرة بكل مشكلات السياسة، وهو يتكلم اللغة الفرنسية كأحد نجباء الفرنسيين النابغين تحت سماء باريس كل ذلك فضلا عن إحاطته التامة بالعادات الأوروبية الحميدة وعدم إهماله العادات الشرقية الكريمة. وهو يقابل زائريه ببشاشة تسلب القلوب وتستميل نحوه ونحو بلاده كل إنسان، وإنى أقول بكل صراحة ودهشة إن لمحادثة هذا الرجل الشهير والخطيب المؤثر لذة مخصوصة تبقى حلاوتها زمناً طويلًا، ولا يزول تذكارها، أما حرارته فى حديثه فهى حرارة غريبة صادقة يمتاز بها سكان الجنوب من بلاد أوروبا، وهى حرارة كلها وطنية صادقة وإحساسات عالية».

ونشرت جريدة (النيويورك هرالد) الأمريكية الشهيرة حديثاً آخر له عن المسألة المصرية والمسألة الشرقية، سأله فيه المكاتب – ما هى إحساسات المصريين نحو الإنجليز؟. فأجاب المترجم:«إن جميع المصريين كارهون للاحتلال الإنجليزى وهم يعتقدون اليوم أن غاية السياسة البريطانية امتلاك كل وادى النيل، ولذلك نزعوا الآن ما كان لديهم من الثقة فى وعود الإنجليز، وباختصار فقد تعلمنا أن نعتقد بأن لاشرف ولا ذمة فى السياسة».

وسأله المكاتب:

– ماهى رغائب الوطنيين المصريين أو الحزب الوطنى فى مصر؟ فقال: إن الحزب الوطنى فى مصر هو عبارة عن الأمة بأسرها تجاه الاحتلال، فرغائبه هى رغائبها، وأهم هذه الرغائب تحقيق الجلاء عن مصر من غير إحداث اضطراب أو أمر من شأنه تكدير الأمن العام».

ثم سأله المكاتب:

– لماذا يرغب المصريون فى الجلاء والإنجليز يشيعون أنكم فى أرغد عيش تحت سلطتهم؟ فقال:

«إننا نعمل للجلاء أو تحرير وطننا أولا لأننا نشعر بواجباتنا وحقوقنا، ونعتقد أن من واجباتنا القيام بهذا العمل الشريف، وأن فينا من الحياة ما يكفى لتمتعنا بكل حقوقنا، أما ما يشيعه الإنجليز من أننا سعداء تحت سلطتهم فهذا كذب محض يدحضه البرهان، إذ الحقيقة أن المحتلين فرقوا مصر أحزاباً حساً ومعنى»
أحدث هذان الحديثان تأثيراً كبيراً فى المحيط السياسى، وذاع اسم الفقيد فى أوروبا كزعيم لحركة الاستقلال المصرى، وجاءته كتب كثيرة من مختلف النواحى والشخصيات البارزة إعجاباً بجهاده، وتقديراً لفضله، فمن ذلك ما بعث به إليه الدكتور هفمان زنيفر رئيس حزب الشمال بالبرلمان الألمانى إذ قال فى كتابه إليه (١٨ نوفمبر سنة ١٨٩٦):

«سيدى

«إنى قرأت أعمالك الأخيرة وتتبعت كل خطواتك السياسية دفاعا عن بلدك العزيز، فوجدتها لم تصدر إلا عن وطنى مخلص ذكى نشيط. فأهنئك بهذه المكانة التى تدهش كل من وقف عليها وعرف أن سنك هى سنك (كانت سن الفقيد وقتئذ اثنين وعشرين عاماً)، وإنى أوافقك على وجوب جلاء الانجليز عن مصر، لا لأن الألمان يكرهونهم كما يشاع عنا بلا حق، ولكن لتحقيق مسألة التوازن الدولى العام ولمصلحة قناة السويس بل لمصلحة انجلترا نفسها.

«إنا مستعدون لمساعدتكم متى كنتم عقلاء، فادأبوا على الدفاع من سبيله الشرعية فكل من سار على الدرب وصل، وتقبل يا سيدى خالص احترام.

الصادق المخلص

هـ زينفر

وكتب اليه كذلك المسيو كانى فورشللا النائب الايطالى المتطرف الشهير كتاباً هذا تعريبه:

«٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٦

«أيها المصرى المحترم

إنك بأعمالك تلفت من جديد نظر العالم إلى تاريخ مصر القديم والجديد، وتعيد ذكرى الفراعنة الذين حملوا قبل بنى البشر تاج العلم ودخلوا جنة الصناعة. إنك لا تقل فى نظرى عن أى أوروبى ذى رأس كبير محنك، وربما فضلت عليه بنشاطك الفائق الذى لا يقل عن نشاط البخار، فمن باريس نسمعك وكذلك من برلين وفينيا والأستانة نسمعك تذكر بلادك، حتى خيل إلينا أن العالم كله معك لأن مسألة مصر هى مسألة العالم كله، وخصوصاً مسألة إيطاليا التى اعتمد ملوككم الحديثون على أبنائها فى الرسم والبناء وتنظيم الجند والبوليس.

«فلا تحريم إيطاليا زيارتك، فإن الأحرار يحبون على الدوام رؤية الأحرار من أى جنس كانوا، واعتقد أيها الوطنى الغيور أن أبناء إيطاليا الذين درسوا الوطنية على جريبالدى وكافور ومازينى لفى أتم استعداد لمعاونتكم على حل مسألة مصر، إن لم يكن اليوم فغداً «وليس الغد ببعيد» وتقبل عظيم إخلاصى.

ك. فورشللا

وكتبت جريدة (الأندبندنس بلج) البلجيكية الشهيرة فصلا مطولا بعددها الصادر فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٩٦ عن المسألة المصرية لمناسبة زيارة المترجم للاستانة أيدت فيها مطالب المصريين فى الجلاء.

عودته إلى مصر
(نوفمبر سنة ١٨٩٦)

مكث المترجم بالاستانة حتى ١١ نوفمبر سنة ١٨٩٦ ثم برحها عائداً إلى مصر فوصل العاصمة يوم ١٥ نوفمبر[٦]، فاستقبله الجم الغفير من أصدقائه والمعجبين بجهاده على المحطة مهنئين إياه بسلامة الوصول، شاكرين له حسن بلائه فى الدفاع عن قضية الوطن.

مكيدة للمترجم
الشروع فى تجنيده

كانت أنباء جهاد المترجم فى أوروبا ترد تباعا إلى مصر وتنشر الصحف خلاصتها فيغتبط بها المصريون، أما الاحتلال وصنائعه فكانوا ينقمون منه رفع صوته فى أوروبا ضد السياسة البريطانية، وقد دبروا له فى غيبته مكيدة حاولوا بها إسكات صوته، ذلك أنهم أوعزوا إلى مجلس قرعة القاهرة بطلبه للتجنيد فى غيابه، وكان يبلغ وقتئذ الثانية والعشرين من عمره، وطلب المجلس من مأمور قسم الخليفة الذى كان المترجم يقيم فى دائرة اختصاصه تبليغ إعلان الاقتراع لأحد أفراد بيته، حتى إذا مضت ثلاثة أشهر على هذا الإعلان دون معارضة يكون اقتراع المترجم واجباً، وقد سلم الإعلان إلى شيخ الحارة الذى كان منزل المترجم فى دائرة عمله، وذهب هذا إلى منزله فعلم أنه غائب فى أوروبا (وكان يجهل أمر المكيدة)، فآثر أن يستبقى الإعلان لديه حتى يسلمه إلى صاحب الشأن عند عودته من أوروبا، ولما عاد إلى مصر تسلم إعلانا من القسم بأن يذهب إلى مجلس القرعة بحجة أنه أصبح مفروضاً عليه الاقتراع إذ لم يبد معارضة بعد الإعلان الأول، فلما فطن للمكيدة دعا شيخ الحارة واسمه الشيخ محمد زيدان واستكتبه إقراراً بأنه لم يسلم الإعلان الأول إلى أحد من ذويه، ثم دعاه رئيس مجلس القرعة، فصارحه بأن لاحق لهم

---

(٦) المؤيد عدد ١٦ نوفمبر سنة ١٨٩٦.

فى اقتراعه لأنه من حملة الشهادات العليا فضلا عن استعداده لدفع البدل العسكرى فلم يقتنع رئيس المجلس وكتب إلى وزارة الحربية، وهذه كتبت إلى المحافظة لتجنيده بحجة أنه لم يبد معارضة فى اقتراعه فى الميعاد، فأبرز شهادة شيخ الحارة التى كانت القول الفصل فى عدم اتباع الإجراءات التى يقضى بها قانون القرعة.

كان لهذه الحادثة ضجة كبيرة فى مصر، وترامت أنباؤها إلى الدوائر الأوروبية، فأرسل مكاتب شركة هافاس تلغرافا مفصلا عنها إلى مركز الشركة فى باريس هذا تعريبه:

«إن المحتلين يريدون تجنيد «مصطفى كامل» السياسى الشهير مع أن قوانين البلاد تستثنى من القرعة حاملى شهادة الحقوق والقادرين على دفع البدل العسكرى وهو متمتع بالصفتين، وإن ما ينتحلونه من أعذار كإعلانه فى غيابه وإتمام الاجراءات القانونية ليس بصحيح، وإنى أؤكد للرأى العام الأوروبى أن هذه المسألة لو تمت على رغبة الإنجليز لأثارت فى مصر حركة نكون نتيجتها وبالا على مصالح دول أوروبا، لأن هذا الرجل من أكبر زعماء الحزب الوطنى الذين وقفوا أنفسهم لتحرير مصر وإخوانه فى هذا العهد أقوياء، وغداً سيقابل محافظ العاصمة الذى شدد فى طلبه ليترافع أمامه فى قضيته بل فى قضية مصر الوطنية بأسرها».

وظهرت جريدة (الجورنال اجبسيان) فى صباح اليوم التالى مصدرة بمقالة فى هذا الموضوع، حذرت فيها الحكومة والاحتلال مغبة هذا العمل، وقد تراجعت الحكومة أمام هذه الفضحية، وقابل الفقيد المحافظ وألزمه الحجة وأثبت له بشهادة (شيخ الحارة) عدم صحة إعلانه فى غيابه، فانتهت الحادثة بالعدول عن اقتراع الفقيد، وكان للشيخ محمد زيدان شيخ الحارة الفضل الكبير فى إحباط مكيدة الحكومة.

* * *

الفصل السادس

جهاده سنة ١٨٩٧

مرضه ثم إبلاله

أنهك المترجم نفسه فى الجهاد خلال سنة ١٨٩٦، فاستقبل عام ١٨٩٧ وهو على فراش المرض، من كثرة أعماله ورحلاته، وقد أبلّ من مرضه فى متصف يناير من تلك السنة، فوصف له الأطباء مدينة حلوان التماساً للراحة وتبديلا للهواء، فقضى بها مدة أسبوعين استجمّ فيهما صحته، وما إن عادت إليه قواه حتى عاد إلى ميدان الجهاد والنضال.

نداؤه إلى ألمانيا

فقد وجه نداءً مؤثراً إلى الأمة الألمانية بتاريخ ٢٧ يناير سنة ١٨٩٧ نشرته جريدة برليتر تاجبلاط) من كبريات صحف ألمانيا ولسان حال وزارة الخارجية الألمانية، شرح فيه القضية المصرية وطلب إلى ألمانيا أن تخرج من حيدتها وتناصر مصر فى نضالها، وعلقت عليه الجريدة بقولها:

«إن هذه الدعوة الصادرة عن مصرى وطنى غيور ستزيدبلاشك فى ميل ألمانيا إلى الأمة المصرية وعطفها عليها، نعم إن هناك فرقا بين ميل أمة إلى أخرى وبين مساعدتها لها مساعدة فعلية، ولكن إذا لوحظ أن رجال السياسة البريطانية لا يخشون المجاهرة الآن برغبتهم فى اهتضام حقوق البوير (سكان الترنسفال) الذين هم أقرب الناس إلينا، فيفهم جيداً كيف أن مديرى السياسة الألمانية يرون ضرورة طرح المسألة المصرية فى ميدان الحل ليفهموا الإنجليز أن فى استطاعة ألمانيا القصاص ممن يتجاسر على إهانة كرامتها والمساس بشعورها واعتبار مصالحها السياسية وغير السياسية عديمة الأهمية قليلة الاحترام، ولذلك نعتقد أن دعوة مصطفى كامل للأمة الألمانية جاءت فى حينها وصدرت فى أحسن وقت سياسى مناسب لها».

رحلته فى أوروبا
(مارس سنة ١٨٩٧)

واعتزم السفر إلى أوروبا فى مارس سنة ١٨٩٧ ليطوف عواصمها ويرفع فيها صوت مصر، متابعا جهاده فى سبيلها، فبرح العاصمة يوم الجمعة ١٢ مارس وأبحر من الإسكندرية فى اليوم التالى[١]، وودعه الكثيرون من أصدقائه وأنصاره وكان من بين المودعين أمريكى اسمه المستر (جولدنيك) جاء خصيصا ليتعرف به لما سمعه عنه من جهاده فى سبيل حرية بلاده، وكان واسطة التعارف بينهما أحد كبار الموظفين الوطنيين بالإسكندرية، فانتهز الأمريكى فرصة تعرفه به وألقى عليه الأسئلة الآتية:

أولا: هل لك أن تتكرم على بإجمال السبب الذى دفعك إلى المناداة بحرية مصر؟

ثانيا: إذا لم تستطيع فرنسا خاصة وأوروبا عامة أن تجبر بريطانيا على الجلاء فماذا تكون خطتك وخطة مواطنيك العاملين؟

ثالثا: هل لك من حاجة فى أمريكا لأقوم بها خدمة لهذا البلد الكبير المظلوم؟

فأجابه المترجم بإسهاب على أسئلته الثلاثة بما نوجزه فيما يلى[٢]:

قال فى رده على السؤال الأول:

«لما كنت مصريا صميما رأيت من واجبى أن أقف قلمى ولسانى على الدفاع عن أم حنون لا حياة لنا إلا بوجودها عالية الشأن سامية المقام، وإنى سأبقى ابنها البار الوفى حتى آخر نفس أردده فى هذا العالم».

وقال رداً على السؤال الثانى:

«إننا نبنى نجاحنا فى عملنا على أمرين، الأول خارجى وهو انتهاز الحوادث الدولية،

---

(١) ذكرت (الأهرام) ما يلى بعددها الصادر فى ١٣ مارس سنة ١٨٩٧ · «سافر اليوم على الباخرة النمسوية حضرة الوطنى مصطفى أفندى كامل وهو مسافر توا إلى فيينا وسيذهب منها إلى بودابست وبرلين وباريس جريا على خطته فى خدمة القطر فنرجو له كل نجاح وتوفيق فى هذه الخدمة الجليلة».

(٢) نقلا عن كتاب (سيرة مصطفى كامل) لعلى بك فهمى كامل ص٣١٧.

والثانى داخلى وهو نشر العلوم والمعارف بين إخواننا المصريين والتشهير بأخطاء الاحتلال الإنجليزى لنرقى بالعقول ونبغض الغاصبين إلى القلوب، وبذلك تقترب الأمة شيئا فشيئاً من الوطن حتى تلتف حوله وتصير وإياه جسما واحداً لا قدرة لأية طائفة من الناس أو أية حكومة مهما كانت قوتها أن تعبث بكيانه أو تفصل أجزاءه»

وقال جوابا على السؤال الثالث:

«أشكر لك كثيراً الخدمة التى عرضتها علىّ بأمريكا، وأملى أن تحلوا تلك العقدة العتيقة التى حرمت العالم صوتكم فى المسائل الأوروبية[٣] حتى نسمعكم صوتنا فى دياركم بنفس النغمة التى أسمعتم بها العالم صوتكم يوم كنتم مثلنا ترزحون تحت النير الإنجليزى، وكذلك أؤمل إلا تشهد السماء مرة أخرى دماء البشر تجرى فى سبيل الخلاص من ظلم بريطانيا، وأن يكون الانجليز أبقى على كرامتهم من أن تلونها بعد تلك الأيمان والعهود الكبيرة أيدى بعض ساستهم الذين يريدون أن يسطر لهم التاريخ ماليسوا أهلا لعشر معشاره».

فأعجب الأمريكانى بهذه الأجوبة السديدة وقال للفقيد: «بارك الله فى شعب أنت منه، ولترق أمة هذه مبادئها وهذا صراطها، فاعمل ودع غيرك يعمل، فإن ما أخذ لا يرد التماسا، ولكن بالصوت العالى والنخوة التى تقلق الظالم فى غدوه ورواحه، واعتقد أن الانجليز أسهل الأمم فى رد الحقوق متى وجدوا من ذويها الإباء والكرامة والشمم».

قصد المترجم إلى تريستا ومنها إلى فيينا. ومكث بها سبعة أيام اتصل فى خلالها بكبار السياسيين، والصحفيين، ومن هناك أرسل إلى مدام جولييت آدم كتابا قال فيه:

«فيينا فى ٢٠ مارس سنة ١٨٩٧

«سيدتى المديرة المبجلة

«أستميحك الإذن أن أكتب إليك بعد سكوت طويل، وصلت إلى هنا من مصر وفى عزمى أن أكون بباريس بعد جولة فى بودابست وبرلين - فى منتصف شهر أبريل - وليس لدى وقت يسمح لى أن أحادثك فى حالة وطنى العزيز التعسة إلى آخر درجات

---

(٣) يقصد مبدأ منرو الذى يقضى بعدم التدخل فى المسائل الأوروبية.

التعس، والتى ما كنا نظن أنه واصل إليها، إن الإنجليز يعملون فى وادى النيل كل ما يريدون، ويرتكبون أفظع الجرائم على الإنسانية والعدل، ويسخرون أكبر سخرية من أوروبا، وعلى الخصوص وأسفاه من فرنسا، لأن خطة فرنسا فى هذه الأيام قد دفعت بلا جدال الإنجليز إلى ظلمنا ظلماً أشد مما كان، والذى زاد الطين بلة أن هذه الخطة التى كلها إخفاق وخيبة قد أضعفت عزيمة أشد الناس حباً لبلدكم الجميل الكريم».

حديثه مع الدكتور رزنر

قابل الفقيد أثناء مقامه بفيينا الدكتور (رزنر) النائب النمسوى والطبيب الشهير، وحادثه حديثاً نشرته جرائد فيينا وتناقلته شركات البرق إلى أنحاء العالم، وكان الحديث بمثابة أسئلة ألقاها الفقيد على النائب النمسوى، وأجاب عليها النائب فى حديثه، وقد دلت الأسئلة وطريقة إلقائها على كياسة الفقيد فى الدعاية للقضية المصرية وعمق أفكاره وإحاطته بالسياسة العالمية.

سأله المترجم: ماذا تكون خطتكم إذا عرضت مسألة مصر على بساط البحث؟

فأجابه النائب النمسوى بما خلاصته أن الكثيرين من زملائه أعضاء البرلمان يميلون إلى طرح المسألة المصرية على بساط البحث رغم العلائق الودية التى بين الحكومة النمسوية وحكومة الملكة فكتوريا، ومتى طرحت نكون فى جانب العدل الذى يقضى بحرية مصر ووضعها تحت ضمان الدول أجمع، لأن أهمية مصر بالنسبة لأوروبا ماثلة فى قناة السويس التى ترتبط مصالح أوروبا الصناعية بآسيا المحتاجة لصناعتها، وليس لأوروبا عامة والنمسا خاصة طريق للشرق إلا قناة السويس، وعدا ذلك فإنه لا يصح أن تتملك القناة دولة بحرية لأنها تخيف العالم أجمع وتصبح سيدة عليه تفعل ما تشاء وخصوصاً الدولة الإنجليزية فإنه فضلا عن كونها أقوى دولة بحرية فإنها كذلك أكبر دول العالم التجارية.

وانساق الحديث إلى اشتداد التزاحم بين ألمانيا وإنجلترا فسأله الفقيد:

«هل يكون لمصر حظ يذكر عند قيام النزاع بين ألمانيا وإنجلترا فى يوم من الأيام؟».

فأجابه النائب النمسوى:

«إنى لا أعرف درجة الأمة المصرية من الاستعداد حتى أحكم لها أو عليها، ولكنى أؤكد لك أنها إذا استمرت على ما نسمعه عنها من السير فى طريق الاستنارة بضوء العلم واتحادها كتلة واحدة كان لها على كل حال الفوز المأمول سواء حدثت بين الدول حوادث أم لم تحدث».

وليمة المترجم فى فيينا
(٢٤ مارس سنة ١٨٩٧)

أراد مصطفى كامل أن يسمع صوته أكبر عدد ممكن من رجال السياسة فى النمسا، فأقام وليمة كبرى فى فندق (متروبول) مساء الأربعاء ٢٤ مارس سنة ١٨٩٧، دعا إليها نيفا وثمانين مدعوا من النواب والصحفيين، ومنهم الدكتور رزنر المتقدم ذكره وبعد أن تناولوا العشاء وقف الداعى وألقى فيهم الخطبة الآتية:

«إن مصر أيها السادة تشكر لكم من صميم أفئدة أبنائها إجابتكم دعوة مصرى منهم جاء بلادكم العزيزة أكثر من مرة واتصل برجالكم المعدودين الذين أنتم من صفوتهم سائلا بكل إلحاح وحق نصرة مسألتنا التى تنحصر فى كلمتين «احتلال مؤقت لا يمكث إلا ستة أشهر وله اليوم خمسة عشر عاما أى ثلاثون ستة أشهر»، إذا كان أيها السادة حبل الكذب طويلا فلابد أن يكون لهذا الطول حد، وإذا كان الكذب شعار المتمدنين فماذا يكون شعار المتوحشين المتعصبين كما يتهمنا الإنجليز، إن لى الحق أيها السادة إذا قلت إن العصر الحاضر عصر ظلم وافتيات على الحقوق لا عصر عدل وإنصاف ورد الحقوق إلى أهلها، إن المصريين مشهورون من قديم الزمان بالدعة والاعتدال، ولهم مآثر على العالم أجمع إن أنكرها الإنجليز فلا ينكرها التاريخ الذى هو أعدل شاهد يحكم بيننا وبين أمة ظلمت رايتها التى أقسمت بشرفها، والتاج الذى يجب احترامه، فقدمتهما ضمانا على صدقها عندما دخلت بلادنا ووعدت بالجلاء عنها عندما يتوطد عرش الخديوية ويستتب الأمن، فها هو ذا الأمن مستتب والأمة بأسرها ملتفة حول أميرها، إنى لا أطيل شرح عيوب الاحتلال فقد شرحت ذلك مراراً، ولكنى أسأل ضمائركم الحرة أن

تكونوا أصوات عدل فى المسألة المصرية، فإننا نعترف على الدوام بالجميل لمن يؤيدنا، كما تجدون منا إلى أبد الآبدين أصدقاء أوفياء يذكرونكم بكل خير، ويجدون فيكم تلك الروح الشريفة التى أودعتموها نفس أمير مصر[٤]، ألا وهى روح الحرية واحترام إرادة الشعب، وفى الختام أكرر لكم بلسان الوطن والأمة عظيم الشكر على الود الذى أظهرتموه نحونا لتكون مصر للمصريين».

وقد رد عليه المسيو رزنر بخطبة كلها عطف وتأييد للقضية المصرية ختمها بالتأمين على كلمات المترجم، وأمل لمصر مستقبلا عظيما.

رحلته إلى بودابست
(مارس وأبريل سنة ١٨٩٧)

سافر المترجم من فيينا إلى بودابست عاصمة المجر يوم الجمعة ٢٦ مارس وودعه على المحطة جميع أصدقائه ومعارفه النمسويين ممن ضمهم إلى صف المسألة المصرية، وماأن وصل إلى بودابست حتى وجد فى إنتظاره أفراد عائلة كبيرة من العائلات المجرية النبيلة، وهى عائلة الكونت (كرونزوت)، وكانت مدام جوليبيت آدم واسطة التعارف بينهما، فلما نزل بالفندق استضافته هذه العائلة فى دارها بضواحى بودابست، وعرفته بعدد كبير من خاصة عائلات المجر وأشرافها ونبلائها، فاتصل بكثير من السياسيين والصحفيين فى هذه العاصمة الكبيرة، وأوجد بها جواً من التأييد والحب لمصر، وقد أعجب بوطنية الأمة المجرية التى يضرب بها الأمثال فى قوة العقيدة والثبات فى الجهاد ورحبت الصحف بمقدمه وحبته بكل مظاهر الحفاوة والتكريم، ومجدت فى شخصه الوطنية المصرية.

فى برلين
(أبريل سنة ١٨٩٧)

ثم سافر إلى برلين فى ٥ أبريل سنة ١٨٩٧، وقابل لفيفاً من الصحفيين والسياسيين ممن تعرف بهم من قبل أو عرفهم فى هذه المرة ودار بينه وبين جريدة (برلنر تاجبلاط)

---

(٤) يشير بذلك إلى أن الخديو عباس تلقى علومه فى النمسا.

الشهيرة فى ٧ أبريل حديث عن شئون مصر إذ سأله المكاتب عن الحالة السياسية الحقيقية فى مصر.

فأجابه المترجم: «إنها حالة فوضى عامة فى إدارة البلاد وقلق شديد فى نفوس الشعب المصرى، فقد أصبح بين المصريين وحكومتهم - كما يوجد بينهم وبين الإنجليز - هاوية عميقة جداً، فإن حكومة بلادنا - ورجالها من صنائع الإنجليز - تعمل فى مصر كل ما ينافى رغبة الأمة، فأكثر من مرة طلب مجلس شورى القوانين وهو الهيئة النيابية فى مصر إجراء إصلاحات فى الإدارة والتعليم، والحكومة بدلا من أن تذعن لرغبة الشعب كجميع الحكومات المتمدنة كانت تقابل المجلس باللوم وبكل خشونة وتجرى ضد رغائبه ومطالبه، والعامل المؤثر فى ذلك معاضدة الإنجليز، فأصبحت الأمة المصرية اليوم لا تحترم حكومتها».

وأفاض فى دسائس السياسة الإنجليزية منذ الثورة العرابية إلى ما بعد الاحتلال وكانت الحرب التركية اليونانية قائمة فى ذلك الحين، وجرى اكتتاب للجيش العثمانى فى مصر، فسأله المكاتب فى ذلك فقال:

«إنه وإن كان المصرى لا يعرف إلا وطنا واحداً وهو مصر فمن الأمور الطبيعية المحضة أن يساعد المصريون دولة الخلافة ويظهروا بذلك امتنانهم لها لأنها لم ترد أن تكون آلة فى يد الإنجليز».

وشرح هذه الفكرة بإسهاب فى مقالة نشرتها له جريدة (برلنربوست نخرختن) الألمانية قال فيها: «إن أهم معنى سياسى لاكتتاب المصريين لإعانة الجيش العثمانى هو القيام بمظاهرة من الأمة بأسرها ضد الاحتلال الإنجليزى، فإن المصريين يعلمون علم اليقين أن كل دسائس إنجلترا فى الشرق ترمى إلى إمتلاك وادى النيل، وأن الإنجليز لما لم يستطيعوا استمالة السلطان إليهم ضد مصر والخديوى، أخذوا يعملون لتقسيم الدولة العثمانية آملين أخذ مصر وبلاد العرب وإعلان سيطرتهم على الإسلام كله، وسواس أوروبا لا يجهلون مطلقا أنه يصبح من العسير علينا حل المسألة المصرية إذا اتفقت تركيا مع الانجليز على احتلالهم وادى النيل».

فى باريس

ثم ذهب إلى باريس فى أبريل سنة ١٨٩٧، فألفى فى صحافتها حركة معادية لمصر لمناسبة الحرب بين تركيا واليونان، وذلك على أثر مقالة نشرتها جريدة (الاجيشيان جازيت) ونقلتها عنها جريدة (الليبرتيه) كلها طعن فى الفقيد وفى الحزب الوطنى، وقد عزت إليه وإلى سائر أعضاء حزبه السعى فى إثارة الخواطر فى مصر ضد الأوروبيين والتحريض على إحداث ثورة.

فبادر إلى إحباط هذه الحركة بكتاب نشره فى جريدة (الليبرتيه) ذاتها، كذب فيه مزاعم الاجيشيان جازيت، ونفى عن المصريين تهمة التحريض على إحداث قلاقل واضطرابات ضد الأوروبيين، وقد علقت جريدة الليبرتيه على هذا الكتاب بقولها:

«نشرنا هذا الكتاب ليقف قراؤنا على الحقيقة التى شوهها الإنجليز والتى تنطق بها كلمات هذا الوطنى المصرى الكبير الذى نرحب به ونفسح صحائف جريدتنا له ولكل غيور على الحق الذى نحن من أنصاره».

عودته إلى مصر

ثم عاد إلى مصر يوم ١٢ مايو سنة ١٨٩٧ ووافقت عودته يوم عيد الأضحى وانتصار الجنود العثمانية فى الحرب اليونانية.

اقتراحه على تركيا
اشتراط الجلاء عن مصر مقابل الجلاء عن اليونان

وقد أرسل إلى باشكاتب المابين تلغرافا بالتهنئة بعيد الأضحى وبانتصار الجيش العثمانى، وأعرب فيه عن رجائه أن يشترط السلطان على دول أوروبا لعقد الصلح جلاء الإنجليز عن مصر، مقابل جلاء الجيش العثمانى عن بلاد اليونان، وقد كان هذا

الاقتراح آية فى الوطنية، إذ دل على أن قضية استقلال مصر كانت تشغل فؤاده طول حياته، وقد هاج اليونانيون القاطنون بمصر لهذا التلغراف، وكتبت جريدة (الفارد السكندرى) اليونانية، تعليقا عليه اتهمت فيه الفقيد بكراهيته الشديدة لليونان، واستندت إلى أنه يطلب من السلطان بقاء الجنود التركية فى تساليا مادام الإنجليز فى مصر، فأرسل إلى جريدة (الفارد السكندرى) رداً على مقالها كتابا بتاريخ ١٦ مايو سنة ١٨٩٧ نشرته جريدة (الريفورم) دافع فيه عن موقفه، وتساءل لماذا تتدخل أوروبا فى المشكلة التركية اليونانية ولا تتدخل فى المسألة المصرية وقال إن الدول الأوروبية التى تريد أن تجبر تركيا على احترام رغبتها وسحب جنودها من بلاد اليونان يجب عليها أيضاً أن تجبر انجلترا على الجلاء عن مصر، وعقب على ذلك بقوله مخاطباً مدير جريدة الفارد السكندرى (وهو من كبار اليونانيين) قائلا: «هذا هو رأيى وهذا هو فكرى، ولعله لا يرضيك، ولعلك يا حضرة المدير لا توافق على آرائنا وأفكارنا، ولكن يجب عليك أن تحترمها كما أننا نحترم إحساساتك وآراءك. فأنت ترى الأشياء من وجهة المصلحة اليونانية، وأنا أراها من ناحية المصلحة المصرية، ومن العدل أن يكون كل منا لوطنه، لا لغيره وطنه».

خطبته بالإسكندرية
(٨ يونيه سنة ١٨٩٧)

وقد رأى من الصحف الأوروبية المحلية حملة شعواء على الأمة المصرية لما أبدته من العطف على تركيا فى الحرب اليونانية، فاعتزم إلقاء خطبة فى الإسكندرية دفاعاً عن موقف الأمة من هذه المسألة وتوضيحاً لعلاقة مصر بتركيا.

ألقى هذه الخطبة يوم ٧ يونيه سنة ١٨٩٧[٥] بمسرح زيزنيا فى اجتماع حافل حضره ألفان من صفوة القوم من الإسكندرية والأقاليم، وبعض النزلاء الأجانب، وقوبل أثناء خطبته وبعد انتهائها بالتصفيق والهتاف، وكان موضوع الخطبة حث المصريين على التواصى بالوطنية والإخلاص لمصر، ومحاربة اليأس واستثارة روح الكرامة والإباء فى نفوسهم، ودعا إلى البذل والتضحية فى سبيل مصر، وحض على دوام الاتحاد بين المسلمين

(٥) المؤيد عدد ٩ يونيه سنة ١٨٩٧.

والأقباط. وحبب إلى الشباب الإقبال على الحياة الحرة، والإعراض عن الوظائف، وأهاب بسراة البلاد وأعيانها أن يبذلوا من أموالهم وجهودهم لنشر التعليم القومى فى أرجاء مصر، ونفى تهمة التعصب الدينى الذى نسبه خصوم مصر إلى المصريين بسبب اكتتابهم للجيش العثمانى فى الحرب اليونانية التركية، وسوغ موقف مصر نحو تركيا قائلا:

«إن مظاهرة الأمة المصرية نحو الدولة العلية هى مظاهرة قوية ضد الاحتلال الإنجليزى واشتراك أفراد الأمة على اختلافهم فى الاكتتاب للجيش العثمانى هو اقتراع عام ضد الإنجليز فى مصر».

إلى أن قال:

«نحن نسأل الذين ينتقدون اكتتابنا للدولة العلية لماذا غير الإنجليز سياستهم نحو تركيا من سنة ١٨٩٣، لماذا قاموا من ذلك الحين ضدها بعد أن كانوا يعلنون للملأ كله أنهم أصدقاؤها وأحباء السلطان؟ أليس ذلك لأن السلطان لم يرض العمل معهم ضد مصر وضد أميرها؟ أليس لأنه قدر آمال المصريين ورغائبهم حق قدرها؟ هبوا أن لا علاقة بين مصر والدولة العلية غير العلائق العادية بين الأمم، أليس من واجباتنا الوطنية أن نعترف بالجميل لدولة رفضت القضاء على حياتنا ومساعدة أعدائنا ضدنا؟ ثم ضرب متلا بصداقة الأمة المجرية للأتراك وحبها إياهم إيواء تركيا أحرار المجر فى بلادهم».

وبعد أن انتهى الخطيب من خطبته اقترح على الحاضرين إصدار قرار بالإحتجاج على الاحتلال الإنجليزى أشد الإحتجاج وبالإعراب للنزلاء الأجانب عن عواطفهم الودية نحوهم وأنهم لا يرغبون إلا أن يعيشوا معهم فى سلام، ويسألون سلطان تركيا أن يطلب من الدول الأوروبية الاتفاق على حل المسألة المصرية وتحقيق حرية مصر واستقلالها، فوافق الحاضرون بالإجماع على هذا القرار.

وقد كانت هذه الخطبة فوزاً كبيراً للفقيد، وأسهبت الصحف الوطنية والأوروبية فى وصف الاجتماع، وطيرت الشركات البرقية نبأ الخطبة إلى الخارج، قالت جريدة (الفارد السكندرى) فى هذا الصدد ما يأتى: «قد اندفع الناس أفراداً وجماعات لسماع الخطبة التى ألقاها حضرة الفاضل مصطفى افندى كامل فى مسرح زيزنيا عن المسألة المصرية،

فكنت ترى هذا الملهى الجميل الكائن بشارع باب شرقى يموج بالأهالى من لابسى الطرابيش وحملة العمائم مزدحمين فى المقاعد والألواج أو وقوفا على الأقدام، جائلين بين المنافذ والأبواب، حتى كان الزحام شديداً، فلم يخل منه مدخل التياترو، وعند الساعة التاسعة مساء حضر مصطفى أفندى كامل ووقف على المسرح، فقوبل بتصفيق شديد، وقدمت له عدة باقات من الأزهار وشاهدنا على الأخص باقة من الزهور بديعة الشكل تدل على حسن ذوق صانعها قدمت له باسم أهل الإسكندرية، ثم افتتح الخطيب موضوعه وظل يخطب ساعة ونصفاً بين تصفيق شديد كان يدوى فى نهاية كل جملة، وكان التصفيق يمتد فى بعض الأحيان حتى يضطر الخطيب إلى الإنفطاع عن الكلام، أما صوته فحسن جهورى، ذو رنة قوية، لذلك كان يسمع من كل أرجاء الملهى، حتى أن كل من فى هذا الجمع العظيم على كثرته استطاع أن يعى كل أقوال الخطيب التى كان يلقيها بعبارات فصيحة خالية من شوائب التعقيد، ثم أتت الجريدة على خلاصة الخطبة.

وكتبت جريدة (الوطن)[٦] تحت عنوان (الخطباء فى مصر) مقالة طويلة جاء فيها «قد انشرح كل من سمع خطاب حضرة الوطنى الماهر مصطفى أفندى كامل لأنه ظهر فى المصريين من هو مقتدر على الإعراب عن نوايا الأمة المصرية بالاعتدال والرزانة والحض على مكارم الأخلاق والحث على المحبة والمسالمة، ونقلت قول الفقيد: «**إن المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد**».

وقال المؤيد تعليقاً على تقريظ الوطن: «قد نشرنا أيضا ما كتبته جريدة الوطن الغراء فى هذا الصدد، **وهو ليس من قبيل تقريظ الخطيب بل هو إعراب حق عن حكم عقلاء الأقباط على تلك الخطبة الوطنية**».

وكتب الفقيد إلى مدام جولييت آدم يصف النجاح الذى لقيه فى هذا الاجتماع ويدافع عن خطته وخطة الحركة الوطنية حيال تركيا، وقال:

---

(٦) لصاحبها المرحوم ميخائيل عبد السيد، عدد ١١ يونيه سنة ١٨٩٧.

«الإسكندرية فى ١٢ يونيه سنة ١٨٩٧.

«سيدتى المديرة المبجلة.

«لابد أن تكون تلغرافات هافاس قد أنبأتك بهذه المظاهرة الوطنية الكبرى التى كانت يوم الثلاثاء الماضى والتى ما كنت أنتظر وقوعها من مواطنى لعظيم جلالها، ذلك أنه لم تكد الصحف تعلن عن الخطبة التى ألقيتها حتى جاءت الوفود من أنحاء الأقاليم للاشتراك فى هذه المظاهرة التى حضرها أكثر من ألفى مصرى، وقد وافقوا بكل سرور، وهم محقون فى هذه الموافقة على ما عرضته عليهم أخيراً من عدم الرضا بالاحتلال وطلب الجلاء، وإن الأوروبيين حتى اليونانيين منهم لمرتاحون إلى تلك المظاهرة وهذا القرار، إنك تعلمين خطتى نحو تركيا، وما أراه واجبا نحوها، فقد أفصحت عن ذلك فى خطبتى، واعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأنه من السياسة القومية لمصر أن تكون حسنه العلائق مع تركيا ما دام الإنجليز محتلين وطننا العزيز».

«وإنى لا أرتاب فى أن حياة الأمة المصرية النضرة التى تجلت للعيان ستملؤك سروراً، ولذلك كتبت إليك هذه الكلمة، وأنا أؤمل أن تتفضلى بإفراد مقالة فى المجلة أو فى غيرها للوطنية المصرية».

سفره إلى أوروبا
(يونيه سنة ١٨٩٧)

ثم سافر من الإسكندرية يوم ٢٦ يونيه إلى أوروبا ليواصل جهاده بها، فوصل إلى الاستانة يوم ٢٩ يونيه، ونزل بفندق (سمر بالاس) بترابيا على البوسفور، وقصد إليه كثيرون من رجال السياسة الأوروبيين، وفى مقدمتهم مراسلو الصحف الأوروبيه والإنجليزية، وأخذوا يستوضحون آراءه فى المسألة المصرية.

وبعد أن قضى أسبوعاً فى الاستانة سافر إلى بودابست فوصلها فى ٧ يوليه ورحبت به صحفها أحسن ترحيب.

ذكرى ضرب الإسكندرية

وقد صادف وجوده بها ذكرى ضرب الإسكندرية بمدافع الأسطول الإنجليزى (١١ يوليه سنة ١٨٨٢) فأرسل تلغراف احتجاج على الاحتلال إلى اللورد سلسبرى رئيس الوزارة البريطانية فى ذلك الحين، قال فيه:

«بودابست فى ١١ يوليه سنة ١٨٩٧.

«جناب رئيس الوزارة الإنجليزية.

«إنى فى هذا اليوم ١١ يوليه الذى هو التذكار الخامس عشر لضرب الأسكندرية أرى من الواجب علىّ تذكير جنابكم بالوعود التى قدمت باسم التاج الإنجليزى والشرف البريطانى للجلاء عن وطننا، وإذ كانت مصر محتلة ظلما وعدوانا ضد رغبتها وضد مصالحها الحيوية فهى تعتبر يوم ١١ يوليه هذا تذكار حداد لها وتذكار عار لإنجلترا، وما دام الاحتلال الإنجليزى باقياً فهذا العار يحمله كل فرد من الإنجليز أمام المدنية والتاريخ والعالم أجمع».(٧)

مصطفى كامل

وقد أبلغ نص هذا التلغراف إلى الصحف المجرية، مع شرح وإيضا للمسألة المصرية، وكتبت الفصول الضافية دفاعا عن مصر وتعريفاً بشأنها فى العالم.

كتبت جريدة (بسترلويد) فى هذا الصدد:

«إنا نحن المجريين الذين توارثنا فى دمائنا أبناء عن آباء حب الوطن وتمجيد الوطنية لنعطف بكل جوارحنا على مطالب المصريين ونهنئهم بوجود رجال بينهم مثل (مصطفى كامل) الذى نسميه بحق (كوشوت مصر)، ونسأل دول أوروبا كافة أن تؤازر المصريين مؤازرة فعلية بإجبار الإنجليز على الجلاء عن مصر وتركها لأهلها، لأنه من العار أن تظهر

---

(٧) المؤيد عدد ١٩ يوليه سنة ١٨٩٧.

اوروبا المتمدنة بمظهر الكاذب فى سياستها أمام الشرق، إن مركز مصر ليس كمركز أى بلد شرقى آخر، فهى مصدر فوائد كثيرة للعالم، ولها مزايا فوق كل مزايا أخرى».

وقالت جريدة (ما جيانوك لابجا)»

«إننا نرحب بعمل مصطفى كامل صديق المجر ترحيب الوطنى بالوطنى، ونقول للإنجليز إنكم تحسنون كثيراً إلى أنفسكم بالجلاء عن مصر قبل أن توغروا صدور الدول عليكم إذا استرسلتم فى البقاء فيها، وإن بلداً مركزه كمصر لا يصح أن يكون فى يد دولة واحدة، وأملنا كبير فى أن مصلحة الدول المشتركة فى مصر تحمل الحكومة الانجليزية على الوفاء بوعودها، وإنا نعتقد أنه مهما طال الزمن على هذا الاحتلال المضر بالعالم أجمع فلابد من جلائه يوما من الأيام، ولذلك لا يصح أن ييأس المصريون من تحرير بلادهم، مادام فيهم مثل (مصطفى كامل) الوطنى المشتعل وطنية وحباً لبلاد الفراعنة العظيمة».

وكذلك كتبت الصحف النمسوية تؤيد مطالب المصريين.

صدى جهاده فى أمريكا

تردد صدى جهاد الفقيد فى الصحف الأمريكية، فنشرت جريدة (نيويورك هرالد) رسالة للمسيو سيمون المعروف بمبادئه الديمقراطية قال فيها:

«إن العالم المتمدن يسمع فى هذه السنين الأخيرة صوتا رنانا وطنيا من الشرق، وهو صوت سليل الفراعنة (مصطفى كامل) هذا الصوت الذى أسمعه بكل انشراح وأقرؤه بكل إمعان، ومما يدهش أن الصحافة الأوروبية عامة والانجليزية خاصة لا تعير هذا النداء الحق ما يستحقه من التشجيع، بل بالعكس نرى أكثرها يتهمه شخصياً بمآرب غير وطنية، وقد أردت بما أكتبه فى جريدتكم المحترمة أن أكون أحد المشجعين لهذا الوطنى المحبوب، وأقدم للعالم مناقشة بسيطة فى المسألة المصرية، يقول مصطفى كامل إنه مصرى، ونحن لاننكر عليه ذلك، ويقول إنه يدافع عن بلاده طالباً وفاء الانجليز بوعودهم سائلا أوروبا أن تساعده على تحقيق أمانى مواطنية، ونحن بإزاء هذا القول يجب علينا أن نقول (إنك صادق فى دعواك ولا نسألك إلا انتظاراً)، لأن انجلترا بمهارتها تخلق كل يوم

ما يبعد عنها المناقشة فى المسألة المصرية التى ليست فى الحقيقة إلا مسألة الهند أولا ومسألة الشرق ثانياً، فهذا الطريق أو بعبارة أخرى قناة السويس لم تحفر لتكون وقفاً على الانجليز، بل لتكون طريق رحمة تجارية للعالم كله.

«خلقت انجلترا مسألة الترنسفال لتشغل ألمانيا، وخلقت مسألة الأرمن واليونان لتشغل تركيا، كما تسعى لحفر بئر للروسيا فى الشرق الأقصى، وكل هذه المسائل تعطل كثيرًا عرض مسألة مصر على بساط البحث وإعطاءها حقها بين الأمم الحرة التى تتقلب فى نعيم بينما هى تعانى آلاما جساما.

«إن مصطفى كامل قائد حركة وطنية فى مصر، فبقدر سرعة هذه الحركة من العلم والعرفان وتمثيل حالتى الوطنى للناشئين (حالة الشقاء وحالة الرخاء) تقرب ساعة تحرير ذلك الوطن الجليل.

«وإذا سأل الإنجليز (مصطفى كامل) أين أسلحة مصر وبواخرها وذهبها لتتغلب أمته على انجلترا وتملك مصر؟

فالجواب عندى عن ذلك: أن بواخر مصر هى نيلها، وأسلحتها إرادة أبنائها، وذهبها جمال وضعها، فليتخذ أبناؤها فوق هذه المزايا من العلم دروعا، ولينازلوا الإنجليز بثبات الساكن الصابر، فإن قائد السفينة فى حاجة لعقل سليم وجسم سليم ليقود سفينته، وإلا فهى بغيرهما غارقة، إن الوطن بيننا نحن الأوروبيين الراقين عظيم جليل محترم، مفضل على الحياة والولد والمال، فما بالنا نحتقره عند غيرنا ولا نود ألا نحتكر العواطف الشريفة لأنفسنا؟».

وقد علقت جريدة (نيويورك هرالد) على هذه الرسالة بقولها: «إن غرض مصطفى كامل شريف. وقد قدمناه لقرائنا بلسان جريدتنا، فهو رجل إذا تكلم أسمع العالم صوته، ومن عرف أنه ليس بغنى كبير ولا وزير حكومة ذات سلطان، قال معنا إنه نابغة ككل عظماء الرجال الذين يهبهم التاريخ من حين إلى حين إلى الأمم المضطهدة المظلومة ليهدوها طريق السداد؛ وأنه إذا كان المصريون إلى اليوم فى نظر بعض الساسة لا يستحقون ما يبتغونه من سعادة لا نحطاط مستواهم العلمى فانا نؤكد من جديد أن مصطفى كامل الذى حادثه مراسلنا بالاستانة فى العام الماضى لايقل علمًا عن أعظم

سياسى من ساسة أمريكا وأوروبا، ولكن لسوء حظ مصر جاء فى الزمن الذى بلغ فيه حب الحياة المادية مبلغاً عظيما فأصبحت المدافع والمدمرات تستخدم لاغتيال الحقوق لا لنصرة أمة مظلومة على أمة ظالمة ولكننا مع ذلك نقول له ما قاله المسيو سيمون: «إن خطوة إلى الأمام ولو كل قرن فى سبيل تحرير الوطن لخير من لا شىء»، فليسر مصطفى كامل ومواطنوه إلى حيث يجدون بعون الله «مصر رمسيس» سيدة مهيبة».

هذا بعض نتائج جهاد مصطفى كامل وصداه فى أوروبا وأمريكا، ولا شك أن تعريف أوروبا بمصر الحديثة يرجع أول الفضل فيه إلى جهاده بقلمه ولسانة فى الصحافة والمحافل الأوروبية، ومن يقرأ هذه النماذج من أقوال الصحف عن مصر والمسألة المصرية تعليقاً على دعاية الفقيد يدرك مبلغ الاحترام الذى نالته بفضل هذه الدعاية الكبيرة التى قام بها ذلك الرجل العظيم.

فى فيينا وباريس

مكث المترجم فى مدينة بودابست حتى ٢٣ يوليه سنة ١٨٩٧، وسافر منها إلى فيينا، وهناك واصل دعايته للقضية المصرية، ثم برحها إلى باريس، فجاءها فى أغسطس وبادر بإمداد الصحف والأندية بآرائه فى الشئون المصرية ودفاعه عن قضية مصر، فبدأ حملته بحديث مستفيض فى جريدة (الإكلير) الباريسية حمل فيه على السياسة الإنجليزية وتصرفاتها فى مصر.

كان لهذا الحديث صداه فى النفوس، فانبرى أحد كبار الكتاب الفرنسيين وهو المسيو (ادوار فلدتوفل) ينتقد السياسة البريطانية فى مقالة نشرها بجريدة (لابيه) تعليقا على حديث مصطفى كامل، وأيده فى آرائه، وكذلك كتبت جريدة (الدبيش كولونيال) مقالة فى هذا المعنى.

خطبته بباريس

(ذكرى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢)

ألقى الفقيد بباريس يوم أول سبتمبر سنة ١٨٩٧ خطبة من أقوى خطبة الوطنية فى حفلة أقامها فى الفندق النازل به، دعا إليها المصريين والعثمانيين الذين كانوا وقتئذ بباريس، بدأها بالتنويه بانتصار الجيش العثمانى فى الحرب اليونانية، ثم عرج بذكرى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢، وهو يوم دخول الإنجليز القاهرة، فقال مشيراً إلى هذه الذكرى مستحثاً المصريين على الجهاد الوطنى:

«هناك تذكار آخر أراه قريباً منا وأشخصه أمام عينى مكتوباً بحروف الحداد، ألا وهو يوم ١٤ سبتمبر المقبل، التذكار الخامس عشر لدخول الإنجليز مدينة القاهرة عاصمة مصر التعسة، نعم أرى هذا التذكار وأحس آلاماً شديدة لذكراه، آلاماً تختلج الفؤاد وتزاحم الفرح والسرور، فالبسوا ثياب الحداد فى ذلك اليوم، واندبوا حظ بلادكم التعسة، وخففوا من آلامها بالعمل لخدمتها والتفانى فى سبيل خلاصها».

الدعوة إلى الجهاد الوطنى

«فمن كان وطنه وادى النيل عارٌ عليه أن يسلمه لسواه، ويعيش حقيراً ذليلا غريباً فى بلاده، أجنبياً فى ربوعه آبائه وأجداده، ولطالماردد الفلاسفة أن كلمة الحق تصل إلى آذان الأفراد والأمم وتبلغ أعماق القلوب ولو بعد قرون فنادوا إذن بتحرير الوطن المصرى، فإن لم يسمع صوتكم اليوم فهو مسموع غداً بمشيئة الله.

«ولاتظنوا أيها الأخوان أنكم تكونون أبرياء من إثم ضياع مصر إذا سكتم عن المطالبة بحقوقها ولم تعملوا لإخراج الأجنبى من ديارها، فقد يظن الكثيرون فى مصر أن الذى لا يخون وطنه ولا يخدمه ولا يدافع عنه يكون بريئا من مصائبه غير مسؤول عن الأخطار التى تتساقط عليه، كلا إن الذى يرى النار بعينه ويقف عند حد المشاهدة فلا يعمل لإطفائها هو شريك فى الإثم لمن سعرها، فكيف بنا ونحن نرى الأجنبى يعتدى

على حياة أمتنا ووطننا ويهتك عرض بلادنا ويسلبنا أموالنا وحقوقنا ويستذلنا ويحسن للحيوان الأعجم أكثر من إحسانه إلينا، ألا إن الحياة الذليلة خير منها الموت، والموت فى سبيل الحياة الشريفة خير من حياة ذليلة».

الشباب والشيوخ فى الجهاد

ثم تكلم عن واجب الشباب فى الجهاد الوطنى فقال:

«وإذا كنا معشر الشباب لم نجر على بلادنا هذه المصائب الجمة فلا جرم أننا إذا أهملنا الأمر كنا الجانين على أبنائها من بعدنا، فلقد سلمنا آباؤنا مصر وفيها بقية من حياة، فهل يليق أن نسلمها لأبنائنا ميتة لا حراك فيها؟ إن مصر كعليل أنتم تعرفون دواءه فقدموه لها ولو قطّعت أيديكم بالسيوف ومزقت أفئدتكم بالخناجر، ولو ناجيتم سرائركم وتنزلتم إلى أفئدتكم وتساءلتم من المسئول عن إحياء مصر، أهم الشيوخ أم الشبان أهم الذين بلغوا غاية العمر وقضوا حياتهم، أم الذين لهم الشبيبة والقوة والحياة ونشأوا على مبادىء الوطنية السليمة وتربوا على محبة مصر العزيزة، ورأوا غيرهم من أبناء الأمم الحية يضحى فى سبيل بلاده بكل نفيس وعزيز؟ لا ريب أن ضمائركم تجيبكم أنكم وحدكم أنتم، أى كل رجال الشبيبة المصرية، المسئولون عن إحياء مصر، وكفاكم من الشيوخ رضاؤهم عنكم وعن أعمالكم».

الإشادة بالوطنية

ثم أشاد بالوطنية ودعا إلى اعتبارها فرضاً على كل مصرى صغيراً كان أو كبيراً وضرب الأمثلة التاريخية على تعلق الأمم بأوطا· فقال:

«ولا يرينّ أحدكم نفسه صغيراً فيقول ومن أنا حتى أدافع عن بلادى وأطالب بحريتها وأسعى لسعادتها؟ فذلك فكر خطأ، فكل مصرى مسئول عن حالة مصر ولكل مصرى الحق فى خدمتها، بل عليه واجب إنهاضها وإعلاء شأنها، وجميع المصريين أمام مصر سواء، وحنانها لكل فرد من أبنائها لا ينقص عن حنانها للآخرين، وقد جاءنا

التاريخ بالأمثال العديدة على قيام أفراد من آخر طبقات الشعب بأكبر الأعمال وأشرفها، وأرانا التاريخ فتاة (هى جان دارك) قد حررت فرنسا وطنها وأخرجت الانجليز من ربوعه وهذا (كوشوت) محرر المجر بدأ صغيراً لا مقام له فى بلاده ولا مكانة، ولكن وطنيته الطاهرة، وفؤاده المتقد غيرة على وطنه، وخلوّه من الغرض الشخصى، جعلته فى تاريخ بلاده وفى تاريخ الأمم رجلا من عظماء الرجال، وقدوة كبيرة فى تحرير الأوطان، والتاريخ مملوء بذكر الرجال الذين نهضوا من الطبقات الفقيرة إلى أسمى المراتب بوطنيتهم الصادقة وإحساساتهم السامية».

محاربة اليأس

«فاعملوا إذن والأمل ملء قلوبكم، ولا تيأسوا طرفة عين، بل ليزدد عملكم بازدياد الخطر، شأن ذوى النفوس الشريفة والمقاصد العالية».

الوطنية والحياة فى أوروبا

«وإنى لست فى حاجة لأن ألفت أنظاركم إلى ما ترونه فى أوروبا من مظاهر الوطنية الجليلة، ومن معالم الحياة الحقيقية، فهذا العمران العظيم ناطق بأبدع بيان بأنه من ثمار الوطنية، وكل ما فى هذه الديار من عدل ونظام، وحرية واستقلال، ونعيم عظيم، وملك كبير، وهو لا ريب من مبتدعات هذا الإحساس الشريف الذى يسوق أفراد أمة بأسرها إلى العمل لغرض مشترك ومطلب واحد، ولا ريب عندى أنكم كلما دخلتم مدافن عظماء الرجال وزرتم قبورهم أعجبتم بهذه الوطنية العالية التى رفعت مقام هؤلاء الرجال وخلدت لهم الذكر الجميل على تعاقب الأجيال، لا ريب أنكم أعجبتم بهم وغبطتموهم، فلقد عاشوا كرماء أوفياء لأوطانهم، وماتوا مشرفين عالى الأقدار والمقامات، وبقيت أعمالهم دروساً ومثلا للأبناء والأعقاب، ولا ريب أنكم أملتم أن يظهر فى المصريين كثير من أمثال هؤلاء الرجال، حتى تبلغ مصر مبلغ تلك البلاد من عزة الكلمة وقوة البطش والسلطان.

«ولاجرم أن أنفع درس يحتاج إليه المصرى من أوروبا هو الوقوف على قوة الإحساس الوطنى فى البلاد على اختلافها، فأهل هذه البلاد على تفرق مشاربهم وأهوائهم يحبون بلادهم حباً شديداً، ويستقبل الفرد منهم الموت فى سبيل خدمة بلاده راضياً مسروراً.

«ومن أجلّ ما ذكره التاريخ عن إحساسات هؤلاء القوم نحو بلادهم أن قائداً فرنسياً أحس عام ١٨١٥ باقتراب منيته حينما هزم نابليون الهزيمة الأخيرة واحتلت عساكر الدول الأوروبية المتحدة أرض فرنسا، فدعا إليه أحد أصدقائه وقال له:

«إنى لى عندك أمراً أسألك بحرمة فرنسا أن تؤديه بعد موتى» فقال له صديقه: «وما ذاك فأجابه القائد: «إذا جلت العساكر الأجنبية عن أرض فرنسا العزيزة فزر قبرى وناد بأعلى صوتك: «لقد جلا الأجانب عن بلادنا فنم آمنا مطمئنا، عندئذ تسكن روحى ويتم لى الموت بسلام»، هذا مثل صغير يكفى وحده لتعريفكم كيف قامت هذه البلاد وبماذا تقوم.

«وإذا كانت فخامة تلك الأمم المتمدنة ورفعة مقامها وحرية أفرادها وسعادة أبنائها أموراً من شأنها أن تنشطنا على العمل لتحرير مصر وإبلاغها هذا المبلغ البعيد، فهناك أمم أخرى تنذرنا بسوء المصير إذا استسلمنا للمحتلين، وأهملنا أشرف واجب علينا فى الحياة، فالهند وراءكم، وايرلندا أمامكم، تنذركم حالتها آناء الليل وأطراف النهار بالخراب والدمار والمجاعة والعار والموت إذا رضيتم بالذل وسلمتم البلاد للمحتلين، فحاسبوا أنفسكم واسألوها: أتفضل العار على الشرف؟ والمذلة والهوان على العز والرفعة؟ والموت على الحياة؟»

وقد نشرت الصحف الباريسية مقتطفات من هذه الخطبة العظيمة، وكان لها صدى كبير فى مصر وأثر عميق فى نفوس المصريين، لما احتوت من آيات الوطنية الصادقة، وترجمت عن شعور النفس العالية التى تفيض بهذه المعانى الجليلة.

سفره إلى برلين ثم عودته إلى باريس

وبعد أن كتب الفقيد عدة مقالات فى صحف باريس سافر إلى برلين، وامد الصحف الألمانية بقلمه مما يحتاج نشره إلى مجلدات، ثم عاد إلى باريس، وعاود الدعاية للقضية المصرية فى الصحف الفرنسية

اعتزازه بمصريته

فى هذه الأثناء بعث أحد أنصار الاحتلال ألى الدكتور «شيونفرت» الرحالة الألمانى الشهير بكتاب زعيم فيه أن الذين يطالبون بحقوق مصر وفى مقدمتهم مصطفى كامل ليسوا من صميم المصريين، وقد كتب العلامة شيونفرت كتابا بهذا المعنى نشره فى جريدة (فوسيشه زيتنغ) الألمانية فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٩٧.

فلم يكد يطلع عليه المترجم حتى رد عليه لفوره بالكتاب الآتى تعريبه:

«فيينا فى ٥ أكتوبر سنة ١٨٩٧

«يا جناب المدير

«اسمح لى أن أرد على ماكتبه مسيو (شيونفرت) فى جريدتكم ونشر تموه فى عدد ٣٠ سبتمبر الجارى فى شأن الوطنية المصرية، يدّعى مسيو شيو نفرت أن المصريين القائمين بالدعوة إلى الوطنية هم من أصل أجنبى، وليس لهم بالفلاحين أدنى علاقة، وقد تكرم حضرته بأن عدّنى من رجال الفئة المترفعة عن الأمة، البعيدة الأصل عنها، أى ممن لا يجرى فى عروقهم الدم المصرى الحقيقى، وهى دعوى باطلة كل البطلان، لأن المصريين القائمين بالدعوة الوطنية، العاملين ضد الاحتلال الإنجليزى، الساعين فى سبيل تحرير وطنهم مصريون من سلالة المصريين الحقيقين، وأغلبهم أبناء الفلاحين، أما أنا فأفخر وأتشرف بأنى ابن ضابط شهم آباؤه فلاحون مصريون، يظهر إذن جلياً أننا لسنا من تلك الفئة الغريبة الأصل عن الفلاحين، ولسنا كذلك بظلمة الفلاحين فى الماضى، لأنهم إما إخوتنا وإما آباؤنا، أما اكتتابنا للجيش العثمانى فما هو إلا ثمرة وطنية يانعة

صادقة، نعم هو ثمرة الوطنية الحقة، لأننا نعلم علم اليقين أن إنجلترا لا ترمى بكل دسائسها ضد تركيا إلا إلى مصر، وإننا بسرورنا واحتفالاتنا بالانتصارات التركية نسر ونحتفل بهزيمة السياسة الإنجليزية، أى بأجلّ وأبهى شئ يتمناه كل مصرى وطنى على الدوام، وإنى أختم كتابى للدكتور (شيونفرت) بأنى أجله أعظم إجلال ، غير أنى مندهش جداً من أن رجلا مثله يقول عن الفلاح المصرى إنه لا يعنى بشئون بلاده، فإذا كان الدكتور (شيونفرت) يحكم علينا بأننا أجانب عن الفلاح لا ندرك ما بفؤاده، فكيف يستطيع هو أن يعرف هذا الفؤاد ويدرك مابه ويتكلم عن عدم عنايته بشئون الوطن؟ هذا وتفضل بقبول احترامى.

مصطفى كامل

وقد علقت تلك الجريدة على الكتاب بما تعريبه:

«إن على هذا الكتاب طابع الحق والإخلاص، ونحن لا نشك فى أن المسيو (شيونفرت) قد اقتنع بما فيه. ولذلك نرجو من قرائنا أن يمحوا ما علق بأذهانهم من كتابه، فإن هذا الرد صادر من صاحب الدار، وهو أدرى بما فيها، وعلى الأخص مايخصه منها».

عودته إلى مصر ومرضه
(أكتوبر - نوفمبر سنة ١٨٩٧)

عاد مصطفى كامل إلى مصر، فبلغ العاصمة يوم ١٠ أكتوبر، واستقبله أصدقاؤه وأنصاره بالحفاوة والإعجاب.

ولم يمض يومان على عودته حتى اعتراه مرض أصابه من إجهاد نفسه فى العمل والكفاح، فأنهك قواه، وأقلق بال إخوانه وأنصاره فنصح له الأطباء أن يقضى الشتاء فى حلوان، فعمل بمشورتهم وقصد إليها حتى أبل من مرضه فى أواخر شهر نوفمبر، فعاد منها سليما معافى، واستأنف جهاده الوطنى والسياسى، وكتب إلى شقيقه على بك كتابا يصف فيه مرضه ويقول فيه:

١٢٢

الجمعة ٣ ديسمبر سنة ١٨٩٧

«أخى. لا شك أنك قلقت كثيراً حتى بعثت بثلاثة تلغرافات بعد عدة خطابات لتقف على صحتى، لأنى منذ ثلاثة أشهر لم أكتب إليك كلمة، إنى كنت فى مرض شديد، يئست معه من حياتى، وقد أصابنى بعد وصولى إلى العاصمة بيومين، وهو مسبب عن كثرة المتاعب التى صادفتها فى هذا العام، التى أؤمل أن تكون ناجحة لأنها كما تعلم صادرة بإخلاص، ولا أمل لى فى شئ من ورائها سوى عودة مصر إلى زهوها ورجوع السيادة فيها لأبنائها المخلصين».

* * *

الفصل السابع

حادثة فاشودة
وجهاد الفقيد سنة ١٨٩٨

استهل الفقيد عام ١٨٩٨ وقد استرد صحته، وكله أمل ونشاط فى الجهاد، وكان جهاده سنة ١٨٩٧ قد آتى ثمره، إذ تحركت فى النفوس فكرة الوطنية بتأثير دعوته الصادقة ومقالاته وكلماته وخطبه ورحلاته ورسائله فى الدفاع عن القضية المصرية.

خطبته فى حديقة الأزبكية
(يناير سنة ١٨٩٨)

بدا أثر هذه الدعوة أوائل سنة ١٨٩٨، إذ اتفق الشباب المثقف من طلبة المدارس العليا على إقامة حفلة وطنية كبرى كان المترجم خطيبها ورئيسها، واختاروا لها حديقة الأزبكية بالمطعم الذى كان مشهوراً باسم (سانتى)، وحددوا لها يوم ٨ يناير عيد جلوس الخديو عباس الثانى، وألفوا لجنة لتنظيم هذه الحفلة، وقد أقيمت الحفلة، فكانت آية فى الجلال والبهاء، وبعد أن تناول المدعوون الطعام وقف أحد أعضاء لجنة الاحتفال وهو أحمد افندى حافظ عوض (بك)ودعا للخديو ثم أثنى على الفقيد قائلا: أشكر ضيفنا الكريم الذى رأيناه فى شبابه الغض كثير الأعمال، كبير الآمال ونرى الليلة فى وجوده بيننا شخص الوطنية الحقة، ومثال الإخلاص لمصرنا العزيزة»[١]

وما انتهى من كلامه حتى وقف الفقيد موقف الخطابة، فقوبل من جميع الحاضرين بعاصفة من التصفيق، فشكرهم على إحساساتهم، ثم ألقى خطبة مستفيضة من أعظم خطبه الوطنية، افتتحها قائلا:

---

(١) المؤيد عدد ٩ يناير سنة ١٨٩٨.

«إخوانى الأعزاء:

«لقد شكرنى حضرة زميلكم الفاضل على حضورى بينكم الليلة وإجابتى دعوة الذين تفضلوا بها إلى هذه الحفلة الشائقة، على أن الشكر يجب أن يقدم منى إليكم لأنى أرى فى حضورى بينكم شرفا عظيما لى، وأقدر عنايتكم بدعوتى حق قدرها ولطالما تمنيت أن أقضى بضع ساعات مع نخبة المدارس المصرية، وأناجى أولئك الذين خرجت من صفوفهم، وما نسيت عهودهم وأتحدث معكم يامستقبل مصر ورجاءها المنتظر فى ذلك الواجب العظيم الذى يجب علينا جميعاً أن نقوم به حق القيام، وأعنى به خدمة الوطن العزيز».

تمجيد الوطنية

وبعد أن تكلم عن الخديو ونوه بتأييده ميول الشعب، عرج بالوطنية وأشاد بها قائلا:

«إن الوطنية هى أشرف الروابط للأفراد، والأساس المتين الذى تبنى عليه الدول القوية والممالك الشامخة، وكل ماترونه فى أوروبا من آثار العمران والمدنية، ما هو إلا ثمار الوطنية أصبح اليوم الوطن المصرى ينتظر منكم ومن بقية أبنائه عدلا وإنصافا، أصبحت مصر تؤمل منكم أن ترفعوها إلى منصة الحرية والاستقلال، وأن تردوا إليها حقوقا وهبها إياها الخالق عز وجل، ولاريب أنكم معشر المتعلمين، معشر النابغين فى المعارف والآداب، أول من يسأل عن خدمة مصر وتأييد مبدأ الوطنية الحقيقية، فإنكم قرأتم فى التاريخ الأمثال الكثيرة للوطنية، وعرفتم سير ناس عديدين ماتوا محبة لبلادهم وإخلاصاً لأوطانهم، فحيوا بموتهم، وأدركتم أن الحياة سريعة الزوال، وأن لا شرف لها بغير الوطنية والعمل لإعلاء شأن الوطن وبنيه».

الوطنية والمال

إلى أن قال مستحثاً كل متعلم مهما يكن صغيراً على القيام بواجبه الوطنى:

«إنكم إذا خرجتم من المدارس ودخلتم صفوف الرجال وشرع أحدكم فى عمل من

الأعمال سمع لا محالة من قوم غايتهم تثبيط الهمم وإقعاد العزائم: من أنت حتى تعمل هذا العمل؟ وإذا كان الأغنياء والكبراء لم يقدموا عليه، فكيف تقدم أنت عليه؟ وهو قول فاسد لأن الوطنية لا تمييز فيها بين الصغير والكبير، والغنى والفقير، بل كلنا سواء أمام مصر، وكل واحد منا مسئول عن مصائبها مطالب بخدمتها وإعلاء قدرها».

وبعد أن ضرب الأمثلة بكبار الوطنيين الذين خرجوا من صفوف الفقراء، قال: «قد يكون الرجل الصادق الوطنية فقيراً فى المال، ولكنه يعيش ويبقى فى التاريخ من أكبر سراة الوطنية، ودعا فى خطبته إلى نشر العلوم والمعارف فإنها الوسيلة إلى التمسك بالحقوق والكرامة.

الدعوة إلى الحياة الحرة

ودعا الشباب إلى الحياة الحرة والإعراض عن المناصب الحكومية، قال:

«لاشك أنه لا يمكنكم القيام بإنارة الأمة وإرشادها إلا إذا كنتم فى الحياة الحرة مجاهدين بأنفسكم فى سبيل الحياة، لاعمالا فى إدارة أو ديوان تنقدون فى آخر الشهر مرتباً معلوماً يقتل فيكم عواطف الاستقلال ويحبس فى نفوسكم الحرية الشخصية والميل إلى عظائم الأعمال».

ثم نوه بالحياة الحرة فى أوروبا وما أنتجته من جلائل الأعمال، وختم خطبته بقوله:

«إن أثمن نصيحة تلقيتها فى صغرى وألقيها اليوم على أبناء بلادى المحبوبة وأختم بها كلامى معكم الليلة هى: العمل بالاتحاد على خدمة الوطن العزيز»

وقد قوبلت خطبة المترجم بتصفيق الإعجاب والحماسة والاستحسان، وكان لها الأثر الكبير فى نفوس الشباب.

الرد على الحملات الاحتلالية

كانت دعوة مصطفى كامل تقضّ مضاجع الاحتلال وصنائعه، لأن إنتشار الدعوة الوطنية تزلزل مركز الاحتلال القائم على الغصب والعدوان، فكانوا يعملون على إحباط

دعوته بالصحف الموالية لهم فى مصر، وبالحملات الاحتلالية فى الصحف الأوروبية، وقد تردد فى بعضها إتهامه بأنه يدعو إلى ثورة، فكتبت إحدى الصحف الفرنسية وهى جريدة (لوريان) مقالا بهذا المعنى.

فرد عليها الفقيد بكتاب فى ٣ فبراير سنة ١٨٩٨، بدأ بقوله:

«قرأت فى أحد الأعداد الأخيرة من جريدتك حملة على الوطنيين المصريين، كتبت بتحيز للاحتلال الانجليزى وأشياعه، وليست عليها مسحة من الحق، ولما كنت أعتقد أن مبادئكم حرة شريفة، وأنكم تستظلون براية الحرية والإخاء والمساواة، رأيت أن أرسل إليكم كتابى هذا خدمة للحقيقة راجياً نشره فى المكان الذى نشرتم فيه مقالتكم التى نسبتم إلىّ فيها أموراً أنا أبعد الناس عنها وكذلك أبناء وطنى جميعاً».

ثم فند مقالة (لوريان) تفنيداً مسهباً فى رده عليها. وقد نشرته الجريدة المذكورة وعلقت عليه بكلمة جاء فيها:

«إننا نحب المصريين كثيراً ونميل إلى خلاصهم وعودتهم إلى التحلى بتاج الملك وجواهر العلم، ولكن لكى نصل إلى تحقيق هذا الحل يجب أن يساعدونا من جانبهم بالتؤدة والسكينة، وإننا لا ننكر أن أعمال «مصطفى كامل» كلها رزينة حكيمة لا تقل عن جمال أى عظيم ذكره التاريخ فى سبيل تحرير بلاده، وإن له فى بلاده عصبية تذكر بالإعجاب والإعظام، وإنه من أبناء فرنسا فى العلم، ولكننا ننكر على غيره الشدة فى القول والحماقة فى الرأى».

ونشرت جريدة (لاكوريرى) الإيطالية حديثاً للمترجم بعددها الصادر فى ١٥ مارس سنة ١٨٩٨ فى شرح القضية المصرية والدفاع عنها.

ظهور كتابه عن المسألة الشرقية

وفى أبريل من تلك السنة ظهر كتابه عن (المسألة الشرقية)، وهو كتاب قيم يشرح فيه تطورات المسألة الشرقية وموقف الدول الأوروبية، وبخاصة إنجلترا حيالها، وأفاض فى تعريف المسألة الشرقية وبيان حوادثها فى القرن الثامن عشر ثم التاسع عشر،

مستطردا إلى ذكر إستقلال اليونان ثم مسألة سورية بين محمد على وتركيا، وحرب القرم، ومؤتمر برلين، ثم شرح المسألة المصرية ثم المسائل البلغارية واليونانية، ويرمى الكتاب إلى تحبيب الاستقلال إلى الأمة وإحياء الشعور الوطنى فى نفوس قرائه.

جهاده فى أوروبا
(يونيه - سبتمبر سنة ١٨٩٨)

سافر مصطفى كامل من الاسكندرية يوم الجمعة ٢٤ يونيه سنة ١٨٩٨ ليواصل جهاده فى أوروبا[٢]، وما أن وصل إلى باريس حتى وقف على خطبة ألقاها اللورد سالسبرى رئيس الوزارة الانجليزية بسبب إخفاق سياسة وزارته بالصين قال فيها تعريضًا بالهند ومصر: «إن إنجلترا لم تعمل السيف فى الصين كما أعملته فى الهند ومصر فانبرى للورد سالسبرى ورد عليه بالكتاب الآتى تعريبه، وقد نشره بالفرنسية فى جريدة (الانترانسيجان) ونشرته عدة صحف باريسية.

«باريس فى ٤ يوليه سنة ١٨٩٨:

«جناب اللورد سالسبرى

«اطلعت فى الجرائد على نص خطبة سياسية زعم جنابكم فيها أن إنجلترا قد فتحت مصر بالسيف، والوجدان الأبىّ يتجافى عن زعم كهذا، والوطنيون المصريون يقيمون الحجة عليه بأشد ما لديهم من الحزم والعزم، فإن بلادكم لم تفتح بلادنا، وإنى أستشهد الدنيا بأسرها على هذا الادعاء، إن انجلترا لم تكن فى حرب مع مصر فى عام ١٨٨٢، بل هى تدخلت فى حوادثها تدخلا وديا لتأييد عرش الخديوية فهل يليق بها وهى على ما تدعى أمة متمدنة أن تقوم اليوم بعد أن حلفت حين حلولها فى مصر بأنها تتركها تحكم نفسها بنفسها، فتصرح للعالم بالرغم من الشرف والوعد الصريح أنها قد فتحت بلادنا بحد السيف؟ وإلا كان معنى هذه الكلمات «شرف وتمدن وإنسانية» فى عرفك يا جناب اللورد استعباد الأمم الواثقة بالتمدن؟ ألست القائل فى عام ١٨٨٦: «لنحترم وعودنا

(٢) المؤيد عدد ٢٣ يونيه سنة ١٨٩٨.

المقدسة ولنجلو عن مصر»؟ ألست القائل فى شهر نوفمبر من سنة ١٨٨٦ للمسيو وادنجتون: إن بنى قومكم يكونون فى ضلال مبين إذا اعتقدوا أننا نريد أن نمكث فى مصر إلى ما شاء الله، فنحن لا نبحث إلا عن الوسائل التى نخرج بها من مصر بشرف وكرامة، أولستم أنتم الذين قلتم فى البرلمان يوم ١٠ يونيه سنة ١٨٨٧ هذه العبارة: «لا يسوغ لنا أن نأخذ على عاتقنا حماية مصر، حتى على فرض أن عملا كهذا ينطبق على الشرائع الدولية ومصالح بلادنا»؟ أولستم أنتم الذين قلتم وكررتم القول فى شهر أغسطس سنة ١٨٩٨: «إن التصريح بإقامة انجلترا فى مصر دليل على قلة إحترام العهود المقدسة التى إرتبطت بها حكومة جلالة الملكة والتى علينا الاذعان لها»؟

«فإذا كنتم يا جناب اللورد قد نسيتم أو ازدريتم هذه التصريحات الشريفة فإنه ينبغى لكم أن تذكروا بأنكم قلتم فى إحدى خطبكم الأخيرة: إن انحطاط الأمم العظيمة قد كان سببه على الدوام طمعها وشرهها».

«ولا يغيبنّ عن البال أن مصر التى كانت فى جميع عصور التاريخ سبب موت الأمم الطاغية، فإنها لا محالة ستكون كذلك فى المستقبل، ولا يمكن أن تنجو انجلترا من هذا المصير إذا أصرت على احتلال بلادنا، لأنكم إذا كنتم تعتبرون أن إرادة انجلترا فوق إرادة أوروبا، فإنه لابد أن يأتى يوم تنتصر فيه الوطنية المصرية وحدها على انجلترا العظيمة القادرة، وربما هزرتم كتفيكم يا حضرة اللورد حين قراءة هذا الكتاب، ولكن كل انجليزى يضع شرف بلاده فوق المصلحة الذاتية الحقيرة يخجل ويستحى بعد قراءته».

مصطفى كامل

وكتب الفقيد عدة مقالات فى الصحف الأوروبية دفاعا عن قضية مصر، ونشر حديثاً فى جريدة (الإكلير) الباريسية عن يوم ١١ يوليه وهو ذكرى ضرب الاسكندرية.

ثم ألقى بباريس خطبة سياسية فى سبتمبر سنة ١٨٩٨، وعاد إلى مصر فوصلها يوم ١٨ سبتمبر، وله فى المؤيد مقالات وطنية قيمة نشرها فى سبتمبر وأكتوبر من تلك السنة.

حادثة فاشودة وتأثيرها في الحركة الوطنية

وقعت فى تلك السنة حادثة خطيرة كان لها وقع شديد فى النفوس وأثر بالغ فى مصير
لسألة المصرية؛ ونعنى بها حادثة (فاشودة) التى اهتزت لها أوروبا بأسرها وكادت تؤدى
ى نشوب الحرب من أجلها بين فرنسا وانجلترا.

كان السودان المصرى فى عهد الخديو إسماعيل يصل جنوبا إلى خط الاستواء وشرقا
ى سواحل البحر الأحمر وخليج عدن، ووصلت حدوده الجنوبية الشرقية إلى المحيط
ندى، وحدوده الغربية إلى (واداى) غربى دارفور (انظر الخريطة ص ١٣١ وهى مقتبسة
ن كتابنا «عصر إسماعيل» جـ١ ص ١٣٤ طبعة سابقة).

فلما شبت الثورة المهدية فى السودان، ثم أكرهت إنجلترا الحكومة المصرية على
خلائه سنة ١٨٨٤، اعتبرته إنجلترا نهباً مقسما بينها وبين الدول الاستعمارية فاحتلت
غندة ومنطقة البحيرات الاستوائية، والجزء الجنوبى من مديرية خط الاستواء المصرية،
محافظتى زيلع وبربره، وأخذت إيطاليا مصوع والاريترية ورأس جردفون (جردفوى)،
رنسا تاجورة وجيبوتى، والحبشة بلاد هرر وبنى شنقول.

وفى غضون ذلك النهب الاستعمارى اشتد التنافس بين إنجلترا وفرنسا على اقتسام
اطق النفوذ بينهما، فاعتزمت فرنسا تجريد حملة لاحتلال مركز هام فى أعالى النيل
كانت ترمى بهذه الحملة إلى صد التيار الانجليزى فى باطن إفريقية، ثم إلى فتح باب
مسألة المصرية برمتها وإجبار إنجلترا على تنفيذ عهودها فى الجلاء عن مصر، ومن هنا
اءت أهمية حملة مارشان على فاشودة.

ترددت فرنسا طويلا فى إنفاذ هذه الحملة، فقد فكرت فيها فى أواخر سنة ١٨٩٣
بهدت بها أولا إلى القومندان (مونتى)، ولكنها ما لبثت أن عدلت عنها، ثم تجددت
كرة فى أواخر سنة ١٨٩٥، ومن المؤلم أن الوزارات المصرية كانت خاضعة لأوامر
سياسة الانجليزية. فانجلترا هى التى أوعزت إليها بإخلاء السودان ففعلت، ثم أوعزت
ها باسترجاعه فأعدت جيشها لتحقيق هذه الغاية، على حين لم تكن مصر فى حاجة إلى

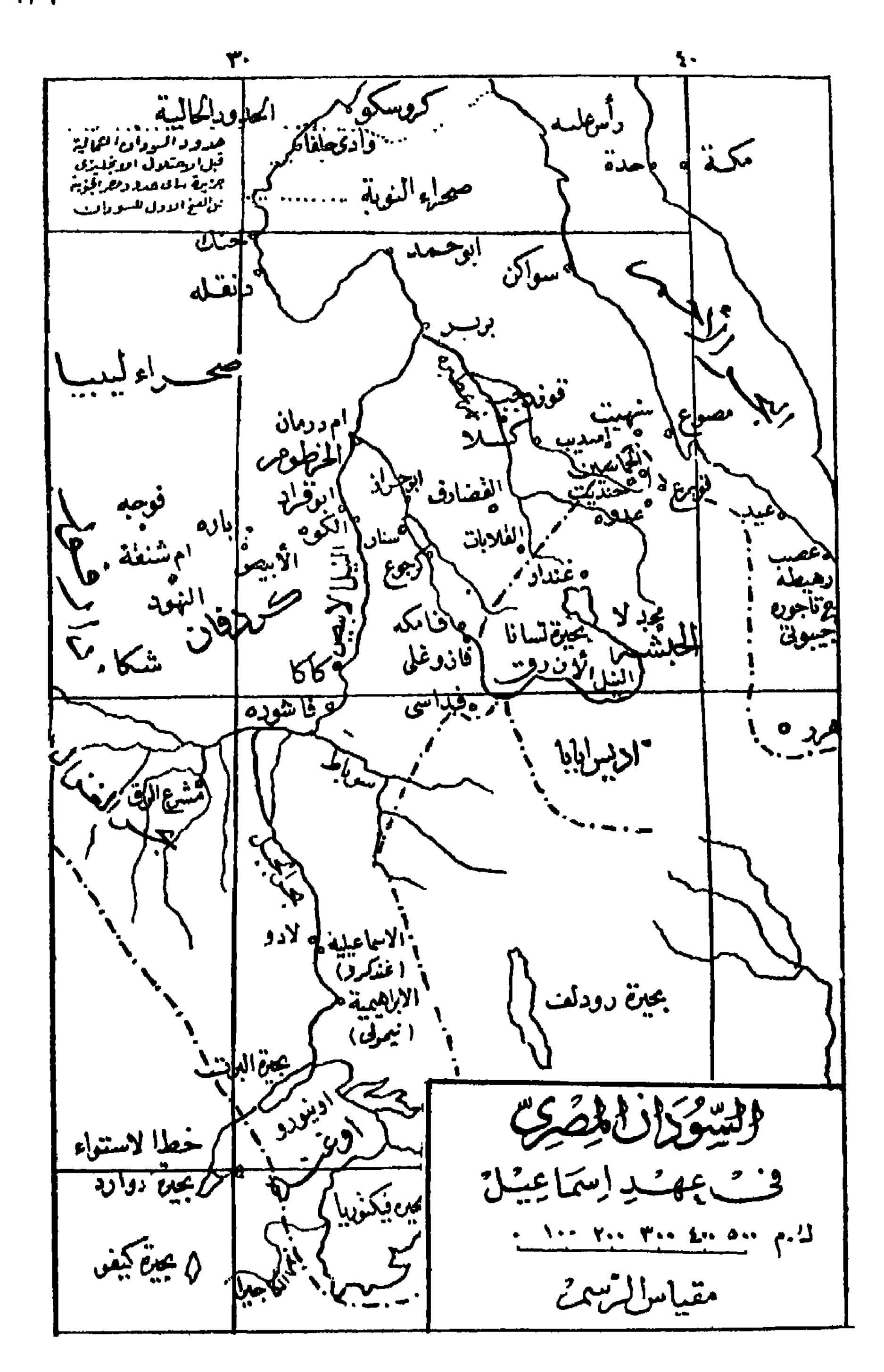
تجريد جيشها لاسترجاع السودان لو لم تقرر إخلاءه سنة ١٨٨٤، وهكذا كانت مصر ضحية السياسة الاستعمارية الانجليزية وضحية الوزارات التى تستسلم لها وتخضع لأوامرها.

عهدت فرنسا فى سنة ١٨٩٦ إلى الكابتن (مارشان) بالزحف على فاشودة الواقعة على النيل وإحتلالها، وقد إختارت هذه النقطة لأهميتها من الوجهة الحربية والجغرافية، فهى تعد مفتاح النيل الأعلى، إذ تقع على ملتقى الطرق المختلفة الواصلة من الخرطوم والحبشة إلى جنوبى السودان، وعلى مقربة من ملتقى روافد النيل، كنهر سوباط وبحر الغزال وبحر الزراف، ومن يملكها يضمن النفوذ فى شمالى السودان وجهات خط الاستواء (أنظر موقعها على الخريطة ص ١٣١).

صدع الكابتن (مارشان) بأمر حكومته، وسار على رأس كتيبة من الجند قاصداً فاشودة، فقضى عامين فى طريقه إليها يعانى المشاق والمتاعب المضنية فى مجاهل افريقية، حتى بلغها واحتلها فى يوم ١٠ يوليه سنة ١٨٩٨، وكان احتلالها إيذانا بفتح باب المسألة المصرية.

أدركت إنجلترا غرض فرنسا من هذه الحملة، فبادرت إلى العمل لإجلائها، وهنا ظهرت (مؤقتاً) بمظهر المدافع عن مصر المؤيد لها، فاعترضت باسمها على هذه الحملة، واحتجت عليها باعتبار أن فاشودة أرض مصرية، وسار إليها اللورد كتشنر سردار الجيش المصرى وقتئذ على رأس قوة مؤلفة من ١٨٠٠ جندى مصرى ومائة جندى بريطانى، فوصلها فى سبتمبر سنة ١٨٩٨. وهناك التقى بالكابتن مارشان، واحتج على احتلاله بلداً مصرياً ورفعه العلم الفرنسى «على أملاك سمو الخديو»، وأبلغه أن هذا الاحتلال يعد إنتهاكا لحقوق مصر، وأنه قد جاء ليرفع العلم المصرى على فاشودة، وكان مارشان يعلم أن لا قبل له بمقاومة القوة المصرية التى جاءت لإجلائه عنها إذ لم يكن لديه سوى تسعة ضباط فرنسيين ومائة وعشرين جنديا من أهالى السنغال فلم يقاوم، ورفع المصريون عليها العلم المصرى.

اشتدت الأزمة السياسية بين انجلترا وفرنسا على أثر هذه الحادثة، وكان الظن أن تتمسك فرنسا بموقفها، وتفتح باب المسألة المصرية، وتضطر انجلترا إلى الجلاء عن مصر،


٣٠
٤٠
السودان المصري
في عهد اسماعيل
ك.م ٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠
مقياس الرسم
الحدود الحالية
كروسكو
وادي حلفا
صحراء النوبة
رأس علبه
جدة
مكة
ابو حمد
سواكن
دنقله
بربر
صحراء ليبيا
البحر الأحمر
ام درمان
الخرطوم
كسلا
سنهيت
مصوع
القضارف
القلابات
غندار
مجدلا
بحيرة تسانا
الحبشة
النيل الأزرق
عدوه
سنار
الكوه
الأبيض
باره
فوجه
ام شنقة
النهود
كردفان
شكا
كاكا
فاشوده
فامكه
فازوغلي
فداسي
اديس ابابا
سوباط
مشرع الرق
عصب
رهيطه
تاجوره
جيبوتي
هرر
لادو
الاسماعيلية
(غندكرو)
الابراهيمية
(نيمولي)
بحيرة رودلف
بحيرة البرت
اونيورو
اوغندا
خط الاستواء
بحيرة دوارد
بحيرة فيكتوريا
بحيرة كيفو

مقابل جلاء الفرنسيين عن فاشودة، وقد استيقن المصريون أن آمالهم فى الجلاء ستتحقق، إذ كانوا يعتقدون أن فرنسا لا تقدم على هذا التحدى لانجلترا إلا وهى مصرة على المضى فى سياستها إلى النهاية، وكاد الخلاف بين الدولتين يصل إلى امتشاق الحسام بينهما، فعظم بذلك شأن المسألة المصرية، وقويت آمال المصريين فى الاستقلال، ولكن فرنسا تخاذلت وتراجعت آخر الأمر، وخشيت مغبة الحرب إذ لم تتقدم حليفتها روسيا لمعاونتها، فسلمت بوجهة نظر انجلترا، وأمرت مارشان بالجلاء عن فاشودة، وتم جلاؤه عنها يوم ١١ ديسمبر سنة ١٨٩٨، فكان هذا التسليم أكبر صدمة سياسية أصابت الحركة الوطنية، لأنه دلت على أن فرنسا لا تنوى معارضة انجلترا فى احتلال مصر والتصرف فيها كما تشاء، ودل على نية الإنجليز فى دوام احتلالهم لمصر والسودان، فزلزل هذا الحادث أمل المصريين فى الاستقلال.

ثبات مصطفى كامل فى الجهاد

كان انسحاب مارشان من فاشُودة انتصاراً كبيراً للسياسة الإنجليزية، وإيذانا بإصرارها على البقاء فى مصر والسودان، وتجاهل عهودها فى الجلاء، فجنح معظم رجالات مصر إلى الولاء البريطانى واكتساب رضاه، إذ رأوا فى حادثة فاشودة برهاناً جلياً على رسوخ أقدامه فى البلاد.

كتب مصطفى إلى أخيه على بك (وكان وقتئذ من ضباط حملة السودان) كتاباً قال فيه

«... إن الأحوال السياسية سيئة للغاية بعد مسألة فاشودة، وأظهر بعض الكبراء الجبن وكادوا يخونون بلاداً أحسنت إليهم بما لا يحلم به غيرهم، ولكنى ثابت على خطتى حتى الممات، لأن اعتقادى أن ثمر الدفاع وإن لم يجنه المدافع الأول أو الثانى فلسوف يجنيه مصرى على مدى الأيام وأننا إذا لم نقتطف ثمر علمنا وجهادنا فى حياتنا فإننا على الأقل نضع الحجر الأول لمن يبنى بعدنا».

وكتبت مدام آدم كثيراً عن حادثة فاشودة، ومنها قولها فى مقالة لها فى فبراير سنة ١٩٠٤ عن أغلاط السياسة الفرنسية:

«فاشودة إنها الضربة القاضية ! لقد قلت فى رسائلى قبلا إن غير واحد من ساسة فرنسا قد أفهم الخديو والوطنيين المصريين أن فرنسا ستتدخل لصالح مصر سريعاً وبصفة حاسمة وأبانوا لهم أن بعثة مرشان هى الحاملة لراية استقلال مصر فصاروا جميعاً يعتقدون أن تحرير وطنهم سيأتى من السودان، ولكن حادثة فاشودة قضت على آمال الوطنيين المصريين».

وقد كان لها كذلك تأثير كبير فى موقف الخديو، إذ أخذ يذعن للأمر الواقع، ويتودد إلى الاحتلال، وكان أول مظهر لهذه السياسة الجديدة زيارته للندن سنة ١٩٠٠، وفى ذلك يقول مصطفى كامل فى رسالته إلى مدام جولييت آدم فى ٢ يونيه سنة ١٩٠٠ : «أبعث إليك مع هذا بمقالة تفصح لك عن شعورى والشعور الأهلى نحو سياحة الخديو فى لندن، تلك السياحة التى آلمتنا كثيراً، وما ذلك واأسفاه إلا نتيجة فاشودة».

والواقع أن حادثة فاشودة كانت فوزاً كبيراً للاحتلال وصنائعه فى مصر، وبعثت اليأس فى نفوس الوطنيين، واعتقدوا أن لا منجاة لمصر من الاحتلال بعد أن أذعنت فرنسا للسياسة الإنجليزية فى تلك الحادثة، وخمدت جذوة الوطنية فى النفوس، ولكنها لم تخمد فى نفس مصطفى كامل، بل ضاعف جهاده وكفاحه، بمقدار ما ازدادت العقبات والمصاعب فى طريقه، وأخذ يفكر من ذلك الحين فى إنشاء صحيفة يومية تغذى النفوس والعقول بمبادىء الوطنية والكرامة والأمل والجهاد.

وقد كان يتألم إذ يرى كبار المصريين وذوى الشخصيات البارزة منصرفين عن الجهاد، ويرى نفسه يكاد يكون وحيداً فى الميدان، لكنه مع ذلك ظل يثابر فى جهاده بالرغم من العوامل المثبطة التى تكتنفه.

أرسل فى هذا الصدد إلى صديقه وزميله فى الجهاد محمد بك فريد كتاباً من باريس بتاريخ ١٩ أغسطس سنة ١٨٩٨ (نشرنا صورته بالزنكجراف ص ١٣٤) جاء فيه :

«وصلنى خطابك الكريم المؤرخ ١٢ الجارى، وإنه لا يسعنى إلا أن أشكر ودك الصادق النادر المثال فى مصر، فهو تعزيتى عن هموم بلادى، وتسليتى على قعود بنى وطنى عن إجابة ندائى والاجتماع حول راية الوطن لإنقاذه وإسعاده.

«وإنك لمصيب فى رأيك بشأن دعوة رجال القلم فى برلين، وإنه ليحزننى حقاً أن أرى

الفرص مناسبة لخدمة الوطن، ولا أجد غيرك فى المصريين نصيراً يساعدنى على ذلك، فتجدنى إن تكلمت أو دعوت أتكلم كئيباً أسيفاً، وأدعو وأنا عارف بأنه ليس فى مصر من يساعدنى على القيام بالواجب وإكرام الضيف إن وافى. فقل لى بالله ما قيمتنا ونحن لا نضحى شيئاً لخدمة الوطن إذا قورن بيننا وبين الذين يضحون أنفسهم وأرواحهم لخدمة أوطانهم؟

«أخىْ. سأسافر إلى برلين بالرغم من شدة كدرى من عدم وجود إرادة مشتركة بين من يريدون أو من يدّعون خدمة الوطن وعدم وجود خطة ثابتة يجرى الكل عليها، وسأعمل كل ما فى جهدى لخدمة البلاد، وما على إلا الإمتثال لإرادة الخالق جلّ شأنه الذى كأنه أراد أن أكون الوحيد فى خطتى، الفرد المطالب بالاستقلال».

وأرسل إليه من برلين فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٩٨ كتاباً (صورته بالزنكجراف ص ١٣٦) يقول فيه:

«وعلى أى حال فالمستقبل بيد الله يدبره كيف يشاء، وما علينا إلا العمل والمثابرة على المطالبة بحقوق بلادنا، فما ضاع حق لمطالب، وإنى كلما زرت عواصم أوروبا ازددت اعتقاداً بأن الأمر بيدنا، وأنه لو اتحد مائة منا لاهتزت الأرض قاطبة لصوتهم، فما بالك لو اتحدت كلمة الأمة المصرية كلها وأنى لأحس بكآبة.

(خطاب الفقيد إلى فريد بك فى ١٩ أغسطس سنة ١٨٩٨).

باريس فى ١٩ أغسطس ١٨٩٨

أخى العزيز فريد بك حفظه الله

بعد التحية وتقبيل وجنتيك . وصلنى خطابك الكريم المؤرخ ١٢
بالسرور الجارى وانى لا يسعنى إلا أنى أشكر ودك الصادق الودادى
الشئ فى مصر فهو تعزيتى مع همومى ببلادى وتسليتى على قعود

بين وطني عن إجابة ندائي والاجتماع حول راية الوطن لإنقاذه
وإسعاده

وإنك لمصيب في رأيك بشأن دعوة رجال القلم في برلين. وإن
ليحزنني حقاً أن أرى الفرص مناسبة لخدمة الوطن ولا أجد غيرك
من المصريين نصيراً مساعداً على ذلك. فتجدني إن تكلمت أو دعوت
أتكلم كمنياً آسفاً وأدعو وأنا عارف بأن ليس في مصر من يساعد
على القيام بالواجب وإكرام الضيف إلا واني. حق لي بالله عليكم
ما قيمتنا ونحن لا نقضي شيئاً لخدمة الوطن إذا قورنا بالنشء وبين
الذين يضحون أنفسهم وأرواحهم لخدمة أوطانهم.

أخي مأساة في برلين بالرغم عن شعبة كبرى من عدم وجود
إرادة مشتركة بين من يريدون أو من يدعون خدمة الوطن وعدم
وجود خطة ثابتة يجري الكل عليها ويأمل كل ما في جهده
لخدمة البلاد . وما علينا إلا الاشتراك
بالإرادة الخالصة من شأن الذي كان أراد أن أكون الوحيد في
قطعة الورد المطالب بالاستقلال.
وغاية رجائي منكم - إن لم يسمع نداءنا ويخلص أوطاننا أن يحفظ
لي ودك الصادق وحبك الطاهر
ما بال شيخي أبي النصر؟ لم يرسل لي حرفاً واحداً مع أن كتبت
إليه

بلغ سلامي وتقبل أنت ألف ألف سلام من صميم
صدري لك ومن أخيك الشاكر العارف للجميل
كامل

(خطاب الفقيد إلى فريد بك فى ٤ سبتمبر سنة ١٨٩٨)

برلين في ٤ سبتمبر سنة ١٨٩٨

أخي الأعز فريد بك

بعد التحية والتسليم والعتاب عن سكوتك كما تعلم عظيم وصلني خطابك الأخير
بباريس وأنا على جناح السفر إلى برلين ففضلت تأجيل الرد إلى وصولي هذه
العاصمة العظمى ....

وعلى أي حال فالمستقبل بيد الله يدبره كيف يشاء وما علينا إلا العمل والمثابرة
على المطالبة بحقوق بلادنا فما ضاع حق وراءه مطالب

وإني كلما زرت عواصم أوروبا ازددت اعتقاداً بأن الأمر بيدينا وأنه لو اتحد
مائة منا لاهتزت الأرض قاطبة لصوتهم فما بالك لو اتحدت كلمة الأمة
المصرية كلها. وإني لأحس بكآبة وحزن عظيمين لوجودي في هذه البلاد
وحدي وتعود الأفكار على مقابلتي دون غيري فعسى الله أن يعيننا بمساعدة
واحد من بني الوطن أنصاراً يجاهرون معي علناً بأفكارهم وآمالهم ومآربهم
[illegible]

أسافر بعد برلين لفيينا ومنها لبودابست وأبارح بودابست يوم السبت
القادم قاصداً الآستانة العلية ماراً [illegible] يوم ١٢ سبتمبر
وأملي أني أكون هناك يوم ٢٥ سبتمبر

ورد لي خطاب من (ديوليس ليفي) الذي تعرفت به يقول لي فيه
أنه مسافر قريباً إلى مصر ففرحت بهذا الخبر لأن هذا الرجل كتبه
لنا ولابد أنه سيكتب صفحات جديدة بأحوال مصر وحقيقة الأمور الجارية فيها
أقبلك ألفاً وأهدي أخانا الفاضل ألف سلام ودمت
لأصدقه أخوتك مصطفى كامل

وحزن عظيمين لوجودى فى هذه البلاد وحدى وتعوّد القوم هنـا على مقـابلتى دون غيرى فعسى الله أن يمدنى بمساعدتـه، وأجد من بنى الـوطن أنصاراً يجـاهرون معى علنـاً بأفكارهم وآمالهم، وما ذلك على الله بعزيز».

خطبته بالقاهرة
(٢٣ ديسمبر سنة ١٨٩٨)

كان ختام جهاده عام ١٨٩٨ أن القى يوم ٢٣ ديسمبر خطبة وطنية بالتياترو الطليانى بالأزبكية، موضوعها (واجبات المصريين نحو وطنهم العزيز) وكان الإقبال على سماعها عظيماً، والزحام شديداً، وظل يخطب نحو ساعة ونصف، وجاءت الخطبة بعد حادثة فاشودة، فحمل على اليأس حملة صادقة، واستثار فى النفوس روح الأمل والواجب، وفى هذه الخطبة قال كلمته المأثورة: «لا معنى لحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة»، ويتبين لك من عباراته فيها مبلغ ألمه من روح النفعية والتردد والهزيمة التى كانت فاشية فى المجتمع، وفى ذلك يقول:

«يجب علينا أن نجتمع كثيراً، ونتدبر فى الأمر طويلاً، فقد توالت الحوادث الجسام، وتعاقبت البلايا العظام، وأنذرت الأيام مصر بسوء العاقبة وظلمة المستقبل إذا دام المصريون رائدهم الشقاق والفراق، ومنتهى آمالهم قضاء الحياة على أى حال تعيسة كانت أو سعيدة» إلى أن قال:

«تنزلوا أيها المصريون إلى أعماق قلوبكم، واسألوا سرائركم، هل أنتم فى شقاء أم

هناء؟ وهل بالاستسلام وتسليم الأوطان تقابلون نعمة الله عليكم بمصر وهى جنة الأرض وأبدع البلدان؟ وهل يليق بكم وأنتم سلالة أشرف الأمم، أن ترضوا بهذا الهوان وتقبلوا هذه المذلة وأنتم صاغرون؟»

«تمر الحادثات المزعجات علينا، وتنفطر لها قلوبنا، وتحزن منها أشد الحزن أفئدتنا، ثم لا نجد لساناً ينطق بما يختلج به الجنان، بل نرى سكوتاً فى سكوت واستسلاماً فى استسلام، فيزداد البلاء ويتضاعف الشقاء».

«ثم تكلم عن استسلام الوزراء والحكام والكبراء للاحتلال، وسكوتهم عن رفع العلم البريطانى فى السودان بعد استرداده، قال:

«لقد بالغنا فى الاستسلام وأبدعنا فيه كل إبداع، وما جنينا إلا الخيبة والفضيحة والعار فهذه بلاد السودان قد فتحتها مصر بأموالها وبدماء أبنائها الأعزاء، أىّ راية تخفق اليوم عليها؟ وأى شرع يقام اليوم فيها؟ وأى حق يُعترف به للمصريين فى نواحيها؟ ألم تقض سياسة الاستسلام بأن تجاهد جنود مصر الأبطال أجمل وأشرف جهاد وتبذل حياتها رخيصة فى سبيل استرداد السودان ثم تسلم إلى الدولة المحتلة هذه البلاد الزاهرة وهى من مصر الروح والفؤاد؟ فأى فضيحة بعد هذه الفضيحة وأى عار بعد هذا العار؟ أقام الانجليز الأرض وأقعدوها بسبب غردون وثأر غردون ونسفوا قبر المهدى نسفاً وأخرجوا رأسه بأشنع صفة وأقبح مثال وعقدوا المجامع وألقوا الخطب تحية وسلاماً على روح هذا الفقيد، ورفعوا رايات الفرح والنصر للأخذ بثأره، والمصريون ينظرون إلى هذه المناظر ويتساءلون: أليس لدماء من مات منا ثمن؟ أليس لرجالنا قيمة؟ أليس المصرى فى شريعة الله إنساناً ككل إنسان؟ أتموت منا الجنود والأبطال قبل استرداد السودان فى سبيل استرداده ولا يذكرون بشىء بل يقوم منا من يهنىء الانجليز بأخذ ثأر غردون؟ أيكون دم فرد من الإنجليز غالى الثمن رفيع القدر، ودماء الآلاف من المصريين لا ثمن لها ولا تقابل بغير النسيان؟ لقد تعاظم الخطب وأصبحت الحياة مرة، وبات الوطن فى أشد الأخطار، وكل منا يهمل واجباته وينتحل لنفسه عذراً، فمنا من يطمع فى الثروة والترقى، ومنا من يخاف الذل والفقر، ومنا من لا يشعر بالمسئولية، ومنا من استولى على قلبه اليأس والقنوط».

إلى أن قال:

«إذا ألقى الخطيب النصيحة على قومه ظن كل إنسان أن النصيحة موجهة لغيره لاله، فيقول: (لقد أصاب الخطيب ولكن الأمة ميتة)، فمن هى الأمة؟ ألستم من أعضائها وأهم أعضائها، أوليست الأمة الفرد متكررا، فاذا قام كل واحد بواجباته وأصلح المعوج من أموره صلحت أحوال المجموع، وردُت على الأمة حريتها وسعادتها، ولبس الوطن ثياب الحياة والقوة».

ثم دعا فى خطبته إلى قيام كل مصرى بواجباته الوطنية، وإلى نشر التعليم القومى وتربية النشئ تربية دينية، وفى الجملة كانت هذه الخطبة من أقوى خطبه، ودلت على مبلغ ما كان يعانيه من المتاعب والآلام فى بعث الحركة الوطنية فى جو مشبع بروح التخاذل والاستسلام وإيثار المصالح الشخصية على المصلحة القومية.

* * *

الفصل الثامن

جهاده سنة ١٨٩٩

إتفاقية السودان

صدمت الحركة الوطنية فى مستهلّ سنة ١٨٩٩ صدمة جديدة بتوقيع اتفاقية السودان فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩، تلك الاتفاقية المشهورة التى خولت انجلترا رسمياً حق الاشتراك فى إدارة شئون الحكم فى السودان ورفع العلم الإنجليزى إلى جانب العلم المصرى فى أرجائه كافة، وتعيين حاكم عام للسودان بناء على طلب الحكومة البريطانية، ونتيجة ذلك ولاريب هو سلخ السودان فعلا عن مصر، واستئثار الحكومة الانجليزية بحكمه وإدارته، وقد جاءت هذه الاتفاقية منافية للحجج التى كانت انجلترا تتذرع بها فى حادثة فاشودة، فإن حجتها الظاهرة فى تلك الحادثة أنه لا يحق لفرنسا احتلال فاشودة لأنها أرض مصرية، وهكذا أعلنت الحكومة الانجليزية بين أرجاء العالم أن السودان جزء لا يتجزأ من مصر، وصرح اللورد سالسبرى فى هذا الصدد: «إن وادى النيل كان ولا يزال ملكا ثابتاً لمصر، وان حجج الحكومة المصرية فى ملكية مجرى النيل وأن أخفاها نجاح المهدى إلا أنها ليست محلا للنزاع منذ انتصار الجنود المصرية على الدراويش»، وهكذا كانت انجلترا تنادى باحترامها لحقوق مصر، وتعلن أن السودان أرض مصرية وتنكر على فرنسا احتلالها فاشودة باعتبارها بقعة مصرية، ولكنها مالبثت أن تنكرت لهذه الحقوق بعد انسحاب فرنسا من أعالى النيل، فكان أول اعتداء منها على هذه الحقوق إكراهها الحكومة المصرية على توقيع اتفاقية السودان فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩، قبل أن تمضى أشهر معدودة على انسحاب الكابتن مارشان من فاشودة، وليس يخفى أن هذه الاتفاقية فيها الاعتداء الصارخ على وحدة مصر والسودان، وفيها فصم لعرى الارتباط الوثيق بين جزئين لا يتجزءان من أرض الوطن الواحد[١] ولكن استسلام وزارة مصطفى

(١) أراد الإنجليز كذلك أن يمحو من الأذهان ذكرى فاسودة، فإن هذا الإسم أصبح بعد تلك الحادثة التاريخية التى اهتز لها العالم علما على إمتلاك مصر لوادى النيل، فما زالوا به حتى غيروه ومحوه من =

فهمى باشا جعلها تقَبل كل ما أراده الانجليز.

فوجئت الأمة بإمضاء هذه الاتفاقية، بعد أن وقع عليها بطرس باسا غالى بالنيابة عن الحكومة المصرية، باعتباره وزير خارجيتها. واللورد كرومر بالنيابة عن الحكومة الانجليزية، ولم يذع أمرها إلا عقب إمضائها، وكانت الصحف تجهل أمرها، ولم تنشر شيئاً عن مقدماتها ولا المفاوضات بشأنها، بل لم تحصل مفاوضات ما فى صددها، وإنما هى إرادة اللورد كرومر أملاها على وزارة مصطفى فهمى باشا، فقبلتها بلا مناقشة ولاشعور بالواجب، ,كل ماحصل من المفاوضة بشأنها أن اللورد كرومر سلم بطرس باشا غالى مشروع الاتفاقية كما وضعته وزارة خارجية انجلترا. فأخبر بطرس باشا الوزراء بالأمر، فقبلوا المشروع دون أن يطلع أكثرهم عليه، فكان عملهم أفظع تسليم فى حقوق البلاد، بعد تسليم وزارة نوبار فى إخلاء السودان، وكان موقف وزارة مصطفى باشا مما ساعد الإنجليز على الافتيات والاعتداء على حقوق مصر وكرامتها، فقد كانت مهمتها تنفيذ أوامر الإنجليز بلا مناقشة ولا ضمير.

وقد سئل أحد أعضائها يوماً من صديق له: كيف تسكت الوزارة عن هذه الاعتداءات المتكررة فأجابه الوزير: وهل تريد منا أن نفعل فى نهاية المسألة السودانية ما فعلته الوزارة الشريفية فى بدايتها؟ وهبْ رئيسنا الآن أصبح شريفاً تانياً، أولم يبق فى الأمة نوبار آخر؟»، فتأمل فى روح الخضوع والاستسلام وانعدام الشعور بالواجب فى هذا القول المخزى.

= خرائطهم، وأطلقوا على (فاشودة) اسم (كودوك)، وغيروا أيضا اسم (مديرية فاشودة) فجعلوها مديرية (النيل الأعلى)، ومما يؤسف له أن الأطالس التى تطبعها الحكومة المصرية تحتوى على هذا المحو والتغيير.

نص اتفاقية السودان

ننشر هنا نص اتفاقية السودان لارتباطها بسياق الحديث

وفاق بين
حكومة جلالة ملكة الإنجليز
وحكومة الجناب العالى خديو مصر
بشأن إدارة السودان فى المستقبل

«حيث أن بعض أقاليم السودان التى خرجت عن طاعة الحضرة الفخيمة الخديوية قد سار افتتاحها بالوسائل الحربية والمالية التى بذلتها بالاتحاد حكومتا جلالة ملكة الإنجليز والجناب العالى الخديوى.

«وحيث قد أصبح من الضرورى وضع نظام مخصوص لأجل إدارة الأقاليم المفتتحة المذكورة وسن القوانين اللازمة لها بمراعاة ماهو عليه الجانب العظيم من تلك الأقاليم من التأخر وعدم الاستقرار على حال إلى الآن، وماتستلزمه حالة كل جهة من الاحتياجات المتنوعة.

«وحيث أنه من المقتضى التصريح بمطالب حكومة جلالة الملكة المترتبة على مالها من حق الفتح وذلك بأن تشترك فى وضع النظام الإدارى والقانونى الآنف ذكره وفى إجراء تنفيذ مفعوله وتوسيع نطاقه فى المستقبل.

«وحيث أنه تراءى من جملة وجوه أصوبية إلحاق وادى حلفا وسواكن إداريا بالأقاليم المفتتحة المجاورة لها.

«فلذلك قد صار الاتفاق والإقرار فيما بين الموقعين على هذا بما لهما من التفويض اللازم بهذا الشأن على ما يأتى وهو:

المادة الأولى

تطلق لفظة السودان فى هذا الوفاق على جميع الأراضى الكائنة إلى جنوبى الدرجة

الثانية والعشرين من خطوط العرض وهى:

أولا: الأراضى التى لم تخلها قط الجنود المصرية منذ سنة ١٨٨٢، أو

ثانيا: الأراضى التى كانت تحت إدارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الأخيرة وفقدت منها وقتياً ثم افتتحتها الآن حكومة جلالة الملكة والحكومة المصرية بالاتحاد، أو.

ثالثاً: الأراضى التى قد تفتتحها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الآن فصاعداً.

المادة الثانية

يستعمل العلم البريطانى والعلم المصرى معا فى البر والبحر بجميع أنحاء السودان، ماعدا مدينة سواكن فلا يستعمل فيها إلا العلم المصرى فقط.

المادة الثالثة

تفوض الرئاسة العسكرية والمدنية فى السودان إلى موظف واحد يلقب (حاكم عموم السودان) ويكون تعيينه بأمر عال خديوى بناء على طلب حكومة جلالة الملكة، ولا يفصل عن وظيفته إلا بأمر عال خديوى يصدر برضاء الحكومة البريطانية.

المادة الرابعة

القانون وكافة الأوامر واللوائح التى يكون لها قوة القانون المعمول به والتى من شأنها تحسين إدارة حكومة السودان أو تقرير حقوق الملكية فيه بجميع أنواعها وكيفية أيلولتها والتصرف فيها يجوز سنها أو تحويرها أو نسخها من وقت إلى آخر بمنشور من الحاكم العام، وهذه القوانين والأوامر واللوائح يجوز أن يسرى مفعولها على جميع أنحاء السودان أو على جزء معلوم منه، ويجوز أن يترتب عليها صراحة أو ضمنا تحوير أو نسخ أى قانون أو أية لائحة من القوانين أو اللوائح الموجودة، وعلى الحاكم العام أن يبلغ على الفور جميع المنشورات التى يصدرها من هذا القبيل إلى وكيل وقنصل وجنرال الحكومة البريطانية بالقاهرة، وإلى رئيس مجلس نظار الجناب العالى الخديوى.

المادة الخامسة

لا يسرى على السودان أو على جزء منه شئ ما من القوانين أو الأوامر العالية أو القرارات الوزارية المصرية التى تصدر من الآن فصاعداً إلا ما يصدر بإجرائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السالف بيانها.

المادة السادسة

المنشور الذى يصدر من حاكم السودان ببيان الشروط التى بموجبها يصرح للأوروبيين من أية جنسية كانت بحرية المتاجرة أو السكنى بالسودان أو تملك ملك كائن ضمن حدوده لا يشمل امتيازات خصوصية لرعايا أية دولة أو دول.

المادة السابعة

لا تدفع رسوم الواردات على البضائع الآتية من الأراضى المصرية حين دخولها إلى السودان، ولكنه يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة على البضائع القادمة من غير الأراضى المصرية، إلا أنه فى حالة ما إذا كانت تلك البضائع آتية إلى السودان عن طريق سواكن أو أية ميناء أخرى من موانئ ساحل البحر الأحمر لا يجوز أن تزيد الرسوم التى تحصل عليها عن القيمة الجارى تحصيلها حينئذ على مثلها من البضائع الواردة إلى البلاد المصرية من الخارج، ويجوز أن تقرر عوائد على البضائع التى تخرج من السودان بحسب ما يقدره الحاكم العام من وقت إلى آخر بالمنشورات التى يصدرها بهذا الشأن.

المادة الثامنة

فيما عدا مدينة سواكن لا تمتد سلطة المحاكم المختلطة على أية جهة من جهات السودان ولا يُعترف بها فيه بوجه من الوجوه.

المادة التاسعة

يعتبر السودان بأجمعه ما عدا مدينة سواكن تحت الأحكام العرفية ويبقى كذلك إلى أن يتقرر خلاف بمنشور من الحاكم العام.

المادة العاشرة

لا يجوز تعيين قناصل أو وكلاء قناصل أو مأمورى قنصليات بالسودان ولا يصرح لهم بالإقامة به قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية.

المادة الحادية عشرة

ممنوع منعاً مطلقاً إدخال الرقيق إلى السودان أو تصديره منه وسيصدر منشور بالإجراءات اللازم اتخاذها للتنفيذ بهذا الشأن.

المادة الثانية عشرة

قد حصل الاتفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظة منهما على تنفيذ مفعول معاهدة بروكسل المبرمة بتاريخ ٢ يوليه سنة ١٨٩٠ فيما يتعلق بإدخال الأسلحة النارية والذخائر الحربية والأشربة المقطرة أو الروحية وبيعها أو تشغيلها.

تحريراً بالقاهرة فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩

الإمضاءات

كرومر ـ بطرس غالى

وقد احتج الفقيد على هذه الاتفاقية احتجاجاً شديدا، وأسمع العالم الأوروبى صوته المدّوى كعادته فى الدفاع عن القضية الوطنية.

نشرت جريدة (الجولوا) الفرنسية خطابا للمترجم بالعدد الصادر فى ٦ فبراير سنة ١٨٩٩ هذا تعريبه:

«جناب المدير المحترم

«إن اتفاقية السودان المزعومة بين مصر وانجلترا قد جاءت برهاناً جديداً على عدم مراعاة انجلترا للعهود والمؤتمرات، الشيء الذى يعتبره المصريون جميعاً باطلا لأنه مخالف للنظامات الأوروبية والقوانين الدولية، فإنه أولا ليس لحكومة مصر أى حق فى عقد

اتفاقية كهذه الاتفاقية، لأنها تخالف نصوص الفرمانات السلطانية الصادرة إلى خديو مصر، وإذا قال قائل إن السودان سلخ من مصر بقرار وزارى أو بأمر عال فى سنة ١٨٨٤ وأصبح السودان خارجا عن أملاك مصر ولا يصح أن تطبق عليه نصوص الفرمانات السلطانية، فإننا وكل رجال القانون نعتبر هذا السلخ غير قانونى لأن نصوص الفرمانات صريحة فى أن ليس لمصر الحق فى التنزل أو استبعاد أى جزء من أجزائها عنها بإرادتها، إذاً فالسلخ غير جائز، وعقد الشركة عمل باطل، وفيه اعتداء صريح من انجلترا المحتلة للبلاد.

«ثم ألم يصرح ميثاق «ترابيا»(٢) الذى كانت انجلترا فى مقدمة الدول الست التى وقعت عليه بأنهن يتكاتفن فى المحافظة على أملاك مصر وألا يكون لإحداهن ميزة على الأخرى، وأنه لا يجوز لأية واحدة منهن أن تبيح لنفسها امتلاك شبر من الأراضى المصرية.

«عارضت الحكومة الفرنسية فى قرض تجريدة السودان، وقد كان حكم المحاكم المختلطة وهى الممثلة لجميع الدول موافقاً لرأيها، فجاءت انجلترا وأقرضت مصر ما احتاجت إليه من المال، ثم ماذا جرى بعد ذلك؟ أدخل الانجليز أنفسهم ببعض جنود ليسوا فى العير ولا فى النفير ليسوغوا هذه النتيجة السيئة التى ليست فى نظرنا إلا اغتيالا للحقوق القومية فى رائعة النهار وسرقة على مشهد من الأمم جمعاء.

«إن الجنود الإنجليزية اشتركت اسما فى حملة دنقلة ليسوغ الانجليز هذا العمل بعد أن صرح سواسهم أمام العالم كله بأنهم لا يقصدون بإرسال جنودهم إلى السودان صحبة الجنود المصرية إلا ليردوه إلى مصر تنفيذاً للخطة التى رسموها من احتلالهم مصر وإجابة لصوت شرفهم، ألم يقل اللورد سالسبرى بأعلى صوته: «إننا نعمل لرد السودان إلى مصر».

«انتظرنا وانتظر العالم كله نتيجة هذا الاسترداد، فكانت فظاعة انجليزية متناهية، إذ

---

(٢) هو العهد المعروف بميثاق النزاهة، وقد وقع عليه أعضاء مؤتمر الاستانة فى ترابيا على شاطىء البوسفور فى إبان الحوادث العربية وبمقتضاه تعهدت الدول الست بأنها فى كل اتفاق يحصل بشأن تسوية المسألة المصرية لا تبحث عن احتلال أى جزء من أراضى مصر ولا الحصول على امتياز خاص بها (راجع فى تفصيل ذلك كتابنا عن الثورة العرابية ص ٣٢٤ وما بعدها طبعة سابقة).

نبشوا القبور وبعثروا الجثث وأهانوا الموتى وخالفوا فى ذلك تاريخ المتقدمين والمتاخرين من المتحضرين، ثم قامت معضلة فاشودة بين كتشنر ومارشان أو بعبارة أخرى بين الحكومتين الإنجليزية والفرنسية، وانتهت بتقهقر فرنسا، فطمع الإنجليز طمعاً كبيراً ورفعوا رايتهم على الخرطوم بجوار الراية المصرية، وقد رفعوها سوداء ليوهموا أنها حداد على غردون وبذلك يكونون آمنين شر هياج الجنود المصرية! أخذوا بعدئذ يوزعون الجنود المصرية هنا وهناك، حتى إذا خلالهم الجو ونضج الطعام بين كراسى الوزراء المصريين أكلوا أكلتهم وبدلوا الراية السوداء براية هذه الشركة المشئومة.

«هذا ماجرى، وإنا ننتظر أن تعضد أوروبا الحكومة العثمانية التى لا بد أن تحتج احتجاجاً شديداً على هذا العمل المخالف للعهود والمعاهدات والشرف كل المخالفة، نعم إن أوروبا إذا لم تعمل ما تحتمه عليها واجباتها استهانت انجلترا بأمرها وأتت من المنكرات فى وادى النيل ما لا يكون السودان بجانبه شيئا مذكورا، فإن المسألة لم تكن مسألة السودان فقط بل هى مسألة مصر نفسها، بل مسألة إفريقية أيضا، فإن مصر لا تكون بلداً غنياً قادراً على القيام بدفع ديونه إلا إذا كان ما لكا لينابيع النيل التى هى فى صميم السودان، وإن مشاركة انجلترا لمصر فى تملكه، وهى الشرهة الطامعة التى لا يكفيها نصيب أو نصيبان، لما يهدد المصالح الأوروبية ويجعل المستقبل مظلماً، وتصبح الدول التى تظن بها اليوم خيراً فى مقدمة الساخطين على جشعها.

«كذلك فإن لكثير من الدول الأوروبية أملاكا فى إفريقية، وهذه الأملاك تصبح لا محالة تحت رحمة الدولة الانجليزية التى لا تريد إلا أن تضع يدها على كل إفريقية ليكون لها منها هند ثانية، وإن الحملات العديدة التى حملتها بواسطة رجالها السياسيين على حكومة الترنسفال والأورنج ليست إلا دليلا قويا على حقيقة مطامعها الإفريقية.

«أما فرنسا فإنها بسبب هذه السياسة قد أساءت إلى نفسها كثيراً، فبعد أن كان المصريون يعتمدون بعض الاعتماد عليها وكان الخديو يجدها الدولة الثانية بعد الدولة العثمانية للمدافعة عن حقوقه وحقوق أمته، أصبحوا اليوم وهى أمامهم من حيث التأثير فى المسألة المصرية أقل من أضعف دولة أوروبية، نعم إنى أصرح بذلك جهاراً لأن السياسة القائمة على الجبن والخوف ليست إلا سياسة مضيعة للحقوق مبددة للنفوذ، مزرية بكل كرامة، وإنى لا أقصد بذلك أنه كان يجب على فرنسا أن تحارب انجلترا بشأن

فاشودة، كلا، ولكننى كنت أرى من الحكمة أن تقبل ترك فاشودة بشرط أن يعود كل شىء إلى مصر، حتى إذا حانت ساعة الخلاص عادت مصر إلى قوتها وفى يدها كل أملاكها، ولكن الحال كانت على الضد من ذلك، إذ تظاهرت فرنسا بالرغبة فى الدفاع عن عمل رجلها الكبير مارشان وشرف رايتها، ثم فى لحظة واحدة تنزلت عن هذا الدفاع بلا ثمن، فأخجلتنا بالحط من كرامتها وبعثت اليأس من جهتها إلى قلوب كثيرة كانت تراها من قبل دولة الهمة والكرامة، أما من جهتى فإنى لا أيأس أبدا من مستقبل بلادى، بل بالعكس أجد التمسك بالدفاع عنها فى شدتها أوجب علىّ منه فى رخائها، وأنه إذا كانت انجلترا تلعب بمصالح الدول فإنها لا تستطيع أن تلعب بقلوبنا التى تنمى فيها بعملها الجائر الحنق عليها كل يوم، وإننا إذا كنا نحمل لها اليوم شيئا كثيراً من الكره والحنق، فإننا فى مقتبل الأيام سنكون ألد أعدائها العاملين على نكالها إذا هى بقيت مصرة فإننا فى مقتبل الأيام سنكون ألد أعدائها العاملين على نكالها إذا هى بقيت مصرة على مخالفة وعودها وعهودها معنا، ومضيّها فى هذه الشركة الباطلة.

«وليعلم الفرنسيون الذين نجلهم ونحترمهم ونحفظ لهم جميلهم السابق أن عمل ساستهم لا يمحو حسناتهم معنا، ولكن، وهو ما نأسف له، لم يبق فى قلوبنا ذرة من الاعتماد عليهم بعد أن أعلنت الأيام خيبة سياستهم فى وادى النيل».

مصطفى كامل

دعوته إلى نشر التعليم القومى

اتجهت عزيمة المترجم منذ سنة ١٨٩٩ إلى حث الأمة على نشر التعليم القومى فى أرجاء البلاد لكى تقوى الروح الوطنية فى نفوس الجيل الجديد ويستعد الشباب للاضطلاع بأعباء الجهاد، وكان المرحوم حسين بك القرشولى أحد سراة الأعيان بالقاهرة أول من لبى دعوته وأسس مدرسة على نفقته بالحلمية، وأقام لافتتاحها احتفالا فخما فى سراى الحلمية يوم ٨ يناير سنة ١٨٩٩ عيد الجلوس الخديوى، وقد أمّه جمع كبير من العظماء والكبراء وأساتذة المدارس والموظفين والأعيان، وكان المترجم خطيب هذا الاحتفال، وقد شكر صاحب المدرسة الحاضرين على تلبيتهم دعوته إلى حضور الحفلة، ثم

دعا المترجم إلى الخطابة، فوقف وألقى خطبة نفيسه فى الحث على نشر التعليم القومى، بدأها بشكر صاحب المدرسة على أريحيته، قال: «ولئن قصرنا فى مديحه والثناء عليه، فلسوف يذكره التاريخ بالحمد الجزيل مادام هذا العمل المبارك قائما يبعث النور إلى العقول وغذاء التربية السليمة إلى النفوس»، ونوه بالمعاهد والمدارس التى تأسست فى مصر على عهد محمد على وكان لها الفضل فى نهضة مصر العلمية، ثم استحث أعيان البلاد وأغنياءها على البذل فى سبيل إقامة صرح العلوم والمعارف فى البلاد.

إنشاء مدرسة مصطفى كامل
(مارس سنة ١٨٩٩)

وكان من أثر دعوته إلى نشر التعليم القومى أن هزت الأريحية اثنين من الشبان وهما محمد أفندى سعيد التومى وأحمد أفندى صادق، فأسسا فى جهة باب الشعرية مدرسة أهلية بسراى العزبى، وطلبا من الفقيد أن يقبل تسميتها باسمه، فقبل منها طلبهما بكل ارتياح وأعلنا عن ذلك فى الصحف فى يناير سنة ١٨٩٩[٣].

سارت المدرسة بإدارة مؤسسيها نحو ثلاثة أشهر، ثم رأيا أن تكون ملكا للفقيد يتولى زمامها ويقوم بأعبائها ونفقاتها وإدارتها، وأعلنا عن ذلك فى مارس سنة ١٨٩٩، فقبل الفقيد هذا العبء إلى جانب أعبائه السياسية والوطنية، لأنه رأى فى إنشاء هذه المدرسة وإدارتها توجيها للنشء الجديد إلى التربية القومية التى تغرس فى نفوسهم الفضائل الوطنية والدينية، ونشر بهذه المناسبة البيان الآتى:

«حضرة مدير جريدة المؤيد

«علم قراء جريدتكم الغراء أن المدرسة المسماة باسمى بباب الشعرية قد آل أمرها إلىّ وأصبح شقيقى هو المدير لها

«وإنى أعلم أن حمل المدرسة ثقيل وأتعابها كثيرة ونفقاتها طائلة، ولكنى قبلتها بكل ارتياح أملا منى فى خدمة أبناء الوطن العزيز وترقية مدارك الناشئين، وإنى أتشرف اليوم

---

(٣) المؤيد عدد أول يناير سنة ١٨٩٩.

بإعلان الجمهور أن التعليم فى هذه المدرسة مقرون بالتربية، لأنى أعتقد أن التعليم بلا تربية عديم الفائدة، بل ربما كان كثير الأضرار، وأقصد بالتربية التربية الإسلامية المحضة لأن أساس التربية الدين، وكل أمة يتربى أبناؤها على غير قواعد الدين تكون عرضة للدمار والانحطاط.

«وقد رأيت بنفسى فى أغلب مدارس أوروبا اهتماما فائقاً بتعليم الدين المسيحى للناشئين، لذلك عولت على جعل الغرض الأول من المدرسة ترقية الملكة الإسلامية عند التلاميذ، وتمكين مبادىء محبة الوطن والاتحاد والائتلاف من نفوسهم، وتقديم اللغة العربية على كل لغة، مع ترك الحرية لآبائهم فى الاختيار لهم بين اللغة الفرنسية واللغة الإنجليزية، ورغبة منى فى نفع أبناء الفقراء قررت قبول ثلاثين فى المائة منهم مجانا.

«وإنى أسأل الحقّ سبحانه وتعالى أن يوفقنى وجميع المصريين لخدمة الوطن العزيز الذى أرى السعادة الكبرى فى التفانى لأجل سعادته، هذا وأرجو منكم أن تتفضلوا بنشر هذه الكلمات فى محليات جريدتكم وأن تقبلوا الخ.

مصر فى ٢٨ مارس سنة ١٨٩٩

المخلص

مصطفى كامل

وقد انتقلت المدرسة فى يناير سنة ١٩٠٠ من سراى العزبى إلى سراى السلحدار بشارع أمير الجيوش البرانى، وعنى الفقيد بأمر هذه المدرسة ووضع لها برنامجا صالحاً يجمع بين التعليم وتهذيب الأخلاق، وكان يقيم فى ختام كل عام دراسى احتفالا سنوياً لتوزيع الجوائز على النابغين فى المدرسة تشجيعاً لهم على الاستزادة من العلم، وكانت هذه الاحتفالات تجمع أكابر القوم، وكان المترجم يلقى فيها خطباً جامعة تزيد من روعتها وتعلى من قدرها.

سفره إلى أوروبا
(ابريل سنة ١٨٩٩)

برح مصطفى كامل ثغر الإسكندرية يوم ٤ أبريل سنة ١٨٩٩ قاصداً أوروبا ليستأنف جهاده فى محافلها وأنديتها وصحافتها، فذهب إلى ڤيينا ثم إلى باريس فبرلين فبودابست

وفى كل عاصمة كان يرفع صوت مصر على صفحات الجرائد الكبرى، ثم ذهب إلى الاستانة وحادث مراسلى الصحف الأوروبية والأمريكية عن المسألة المصرية.

الإنعام عليه برتبة المتمايز

وفى يونيه سنة ١٨٩٩ أنعم عليه السلطان برتبة المتمايز فصار (مصطفى بك كامل)، وما ذاع نبأ الإنعام عليه فى مصر حتى ارتاحت له نفوس أصدقائه وأنصاره، ونفوس الوطنيين عامة، وعدوه تكريماً للحركة الوطنية فى شخصه، وتلقى التهانى من الجهات كافة.

وعاد إلى باريس فى يونيه سنة ١٨٩٩، وألقى فى قصر مدام جولييت آدم يوم ١٨ يونيه خطاباً سياسياً دفاعاً عن مصر ومطالبها، سمعه الكثيرون من الكتاب والسياسيين الذين كانوا يؤمون دار هذه السيدة العظيمة.

عودته إلى مصر

وعاد إلى مصر معرجاً على الاستانة فأنعم عليه فى أغسطس بالرتبة الأولى من الصنف الثانى، ثم بالوسام المجيدى الثانى.

خطبته بالقاهرة
(١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٩)

وألقى يوم ١٨ ديسمبر سنة ١٨٩٩ خطبة رائعة بالتياترو الطليانى كان لها دوىّ كبير فى جميع المحافل والدوائر، افتتحها بالكلام عن مصر فى عهد الاحتلال قائلا: «إنه كلما تقادم هذا العهد تضاعفت واجباتنا نحو الوطن العزيز، فقد ظهر للعالم أجمع أن انجلترا تعمل للاستيلاء على مصر ووادى النيل، وترمى إلى نزع كل سلطة من أيدى المصريين، وتحقق للعامة والخاصة أن المدنية الإنجليزية لا تعرف فى سياستها مع الأمم الضعيفة معنى للوعود والعهود، ولا ترعى حرمة للعدل والإنصاف»

وطعن فى سياسة أوروبا عامة قائلاً:

«كنا نود من صميم أفئدتنا أن يقوم الإنحلز بوفاء وعودهم واحترام شرف عهودهم، وأن يبرهنوا للعالمين أن المدنية الصحيحة هى المدنيه القائمة على الفضائل الحقيقة، المنافية لاغتيال حقوق الأمم، ولكن من سوء حظ النوع البشرى أن المدنية الحاضرة أبطلت الرق فى الأفراد وأعلنته فى الشعوب، واستهجنت مخالفة الذمة والشرف فى المعاملات الشخصية وسمحت بها فى المعاملات الدولية».

ثم انتقل إلى الكلام عن حالة الأمة المصرية وما هى عليه من التأخر قائلاً: «إن المسألة المصرية الحقيقية ليست هى مسألة الاحتلال، ولكنها مسألة تأخر الأمة المصرية، واستحكام الشقاق بين أفرادها، وما مسألة الاحتلال الإنجليزى إلا مسألة فرعية بالنسبة لها، فإن بقاء الأمة متأخرة منحلة الأعضاء يعرضها إلى كافة الأخطار فى سائر الأزمان، وتقدمها فى طريق العرفان واتفاق بينها على خدمتها وتعاضدهم على إسعادها يحميها من الطوارىء والنوازل ويقيها شر الأعداء».

ودعا إلى تعميم التربية والتعليم وجعل الدين أساس التربية الصالحة.

* * *

الفصل التاسع

ظهور اللواء - والجهاد الأكبر

(يناير سنة ١٩٠٠)

بدأ مصطفى كامل حياته الصحفية وهو بعد فى مدرسة الحقوق، إذ أصدر مجلة (المدرسة) فى فبراير سنة ١٨٩٣، كما تقدم بينه فى الفصل الثانى (ص ٤٧)، ثم أخذ يرسل مقالاته إلى الصحف من مصرية أوروبية كما أسلفنا، وكانت (الأهرام) أكثر الصحف ترحيباً بمقالاته، يليها (المؤيد)، وقد رأى الفقيد أن لابد له من جريدة يومية يتصل بالرأى العام بواسطتها باستمرار، ويغذى بها عقول القراء ونفوسهم، ثم تكون علماً للحركة الوطنية التى بعثها واقتاد زمامها، وقد اختار لهذه الجريدة اسم (اللواء)، فكان اختياراً موفقاً، إذ كان اللواء هو الراية التى التف حولها الوطنيون سنين عديدة طول حياته، وبعد وفاته، وكان ظهور اللواء من أبرز أعمال الفقيد وأكبرها أثراً فى الشعب وفى الحركة الوطنية، حتى صار أكبر تعريف له بين معاصريه أنه (صاحب اللواء)، وعلت منزلة (اللواء) فى نفوس الشعب، وصار اسمه محبباً للنفوس، حتى سمى باسمه كثير من محلات التجارة والمقاهى والمعاهد، وإلى الآن لا يزال اسم (بار اللواء) علماً للمقهى المعروف بهذا الاسم أمام دار الأهرام، واسم (أجزاخانة اللواء) علماً على الصيدلية الموجودة بباب اللوق.. الخ.

أعد المترجم معدات (اللواء) عام ١٨٩٩، وصدر العدد الأول منه يوم الثلاثاء ٢ يناير سنة ١٩٠٠ (غرة رمضان سنة ١٣١٧ هـ)، وكانت داره الأولى بالمنزل رقم ١٣ بشارع فهمى بجوار محطة باب اللوق، ثم انتقل بعد حوالى عامين إلى المنزل الفخم رقم ٢٩ بشارع الدواوين[١] (نوبار باشا الآن)، أمام وزارة العدل، وهو المنزل الذى عرف بدار اللواء، وتوفى فيه الفقيد، وقد علا شأن الجريدة فى عالم الصحافة من أول ظهورها،

---

(١) الآن رقم ٣١ مكان مدرسة عابدين الابتدائية الأميرية.

وأخذت مكانتها فى نفوس الشعب، ولا غرو فإن شخصية صاحبها قد حببتها إلى القلوب، وأضفت عليها روعة ومكانة سامية، وكان المترجم لطول خبرته بالصحافة واتصاله المستمر بها سواء فى مصر أو فى أوروبا قد اكتمل نضجه الصحفى، فضلا عن كفايته وذكائه ومقدرته الفطرية فى التحرير والإدارة، فظهر الفن الصحفى فى اللواء كاملاً، مما كان له أثره فى انتشاره وعلو مكانته، وكان يصدر يومياً باستمرار حتى فى يوم الجمعة، ولا يحتجب عن القراء إلا فى اليوم الأول من عيد الفطر وعيد الأضحى، ثم أخذ يحتجب يوم الجمعة ابتداءاً من شهر مايو سنة ١٩٠١، وكان يصدر فى أربع صفحات، ثم فى ثمانى صفحات باستمرار منذ أواخر سنة ١٩٠٦، بعد أن أحضر له آلة طباعة كبرى تطبع فى الساعة الواحدة ١٢٠٠٠ نسخة.

وكان الفقيد يكتب افتتاحية اللواء فى أكثر الأيام ويوقع عليها بإمضائه وممن كانوا يكتبون فيه المغفور له محمد بك فريد، وأحمد شوقى أمير الشعراء، وإسماعيل باشا صبرى، وخليل بك مطران، ومصطفى بك نجيب مؤلف كتاب (حماة الإسلام) وإسماعيل بك شيمى، والأستاذ ويصا واصف، والأستاذ محمد فريد وجدى، ومحمد بك لبيب البتانونى، ومحمود بك سالم، وفؤاد بك سليم (باشا)، ومحمود بك أنيس، ومحمود أفندى سلامة، وأحمد أفندى حلمى، والأستاذ عبد القادر حمزة، والأستاذ محمد لطفى جمعة، ثم عثمان أفندى صبرى، وسيد على، وأمين عمر (أبو حفص)، ومحمد صادق عنبر، ومحمد علام، وغيرهم. ثم أخذ تلاميذه يكتبون فيه منذ سنة ١٩٠٦، وصار اللواء شبه مدرسة تعلم المصريين حقوقهم وواجباتهم، وتبث فيهم روح الوطنية والأخلاق، وتبصرهم بحقائق بلادهم ومساوىء الاحتلال وصنائعه، وتستحثهم على الجهاد فى سبيل الاستقلال، وكان الفقيد لا يفتأ يذكرهم على صفحاته بعبر التاريخ، ويحيى ذكريات الحوادث الماضية من مفاخر وهزائم، كذكرى تنصيب محمد على بإرادة الشعب، وهزيمة الإنجليز فى معركة رشيد سنة ١٨٠٧ ثم ذكريات ضرب الإسكندرية سنة ١٨٨٢، واحتلال الإنجليز العاصمة، وكان أيضاً يفسح صحائف اللواء لبيان جهاد الأمم فى سبيل حريتها، ويضرب الأمثال للأمة بما يجب أن يكون عليه الجهاد والعمل، فضلاً عن البحوث العلمية والاقتصادية، والاجتماعية والأدبية، فغذى بذلك عقول المصريين ونفوسهم بروح الوطنية.

وأصدر مجلة أسماها (مجلة اللواء)، وهى مجلة شهرية تشتمل على أهم المقالات التى

تنشر فى جريدة اللواء اليومية، وصدر العدد الأول منها فى فبراير سنة ١٩٠٠، وفى ١٩٠٥ أصدر جريدة أسبوعية باسم (العالم الإسلامى) كان ينشر فيها المقالات والأنباء التى تهم الأمم والدول الإسلامية، وبخاصة تعريب ما تكتبه الصحف والمجلات الأوروبية عن العالم الإسلامى.

ولقد كنتُ حينما ظهر اللواء سنة ١٩٠٠ لا أزال تلميذاً بالقسم الابتدائى بمدرسة رأس التين بالإسكندرية، حيث كان والدى يتولى منصب الإفتاء بمحكمتها الشرعية ولم أكن قد فطنت بعد لقراءة الصحف، وقضيت معظم القسم الثانوى أيضاً غير ملتفت إليها، وبدأت خلال سنة ١٩٠٤ أذهب إلى قهوة بلدية أنيقة بشارع رأس التين، تجاه سراى محسن باشا، فى كل أسبوع مرة، وكان صاحبها «الحاج أحمد» يقدم لنا شراب الليمون (الليمونادة) وكان يتقنه كل الإتقان، حتى صار علماً على قهوته، ويطلعنا على بعض الصحف، ومنها اللواء، ولكن لم أتبين بعد منهجه، ولا منهج الصحف الأخرى، ولم تكن فى ذهنى أى صورة عن مصطفى كامل، إذ لم أكن رأيته بعد أو سمعته، وكنت وقتئذ فى الخامسة عشرة من عمرى، ولما ذهبت إلى القاهرة ودخلت مدرسة الحقوق (أكتوبر سنة ١٩٠٤) لفت نظرى اسم قهوة بجوار المدرسة تسمى (قهو الحقوق) بشارع عابدين، لصاحبها الخواجة (أندريا)، فأعجب طلبة الحقوق وأنا منهم بهذا الاسم، واحترناها لنقضى أوقات الفراغ والسمر بها وبدأت هناك أقرأ اللواء قراءة فهم وإدراك، فتعجبنى روحه ومقالاته، م ثم صار بمثابة المدرسة التى تلقيت عنها مبادىء الوطنية، كما أنه كان مدرسة للجيل كله.

خطبة الفقيد بالإسكندرية
(يونيه سنة ١٩٠٠)

لم تصرف الفقيد أعماله فى الصحافة عن توجيه الرأى العام بخطبه الوطنية التى كان لها من الوقع والأثر فى النفوس أضعاف ما كان القلم والكتابة، فألقى مساء ٢ يونيه سنة ١٩٠٠ خطبة سياسية بتياترو زيزنيا بالإسكندرية، فى جمع كبير من الوطنيين، وحضرها كثير من الأجانب، وكان موضوعها شرح الحالة السياسية فى ذلك الحين، وشحذ العزائم

لمتابعة الجهاد والإشادة بالوطنية، ثم الرد على حملات الصحف الأوروبية فى ذلك الحين على الإسلام، بدأ الخطبة بقوله:

«سادتى وأبناء وطنى الأعزاء.

«كلما جئت الإسكندرية، ورأيت هذه الحياة الحقيقية التى جعلت لكم مقاماً محموداً بين بنى مصر، أعود شاعراً بأن لى فى هذه المدينة الزاهرة أساتذة فى الوطنية عنهم تؤخذ دروس محبة الأوطان، ومنهم تعرف الأمة حقوقها وواجباتها، وهذا ما أخرنى فى السنين الأخيرة عن الوقوف أمامكم هذا الموقف، ومناجاتكم فى شئون الوطن العزيز، ولكنى أشعر بأن تبادل الميول، وانتقال العواطف الطاهرة من فؤاد إلى فؤاد، واجتماع القلوب فى وقت واحد حول آمال واحدة، وسريان روح مشتركة فى هذا المجموع العظيم، مما يزيدنا اعتقاداً على اعتقاد، وحباً للديار على حب، ويخفف عن الوطن المقدس آلام مصائبه العظام».

وقال عن إيمانه بالمستقبل:

«إنى أشد الناس أملا فى مستقبل أمتى وبلادى، وأرى الشعب الذى أنا منه جديراً بالرفعة والسمو، حقيقاً بالمجد والحرية والاستقلال، ولولا هذا الأمل وهذا الاعتقاد لكنت فارقت الحياة وتركت الدنيا غير آسف على أحد، وكيف لا أكون ذا أمل وهذه أمتى أجد فيها روحاً جديدة وحياة صادقة ووطنية ناشئة قوية، ومن منكم لا يرى ما أرى؟ هل ينكر أحد شعور الأمة بحالتها وانتباهها من رقدتها وقيامها من وهدتها وعملها لخيرها وسعادتها».

ومما قاله فى الرد على حملات الصحف الأوروبية على الإسلام لمناسبة مقالات المسيو هانوتو:

«قد يظن بعض الناس أن الدين ينافى الوطنية، أو أن الدعوة إلى الدين ليست من الوطنية فى شىء ولكنى أرى أن الدين والوطنية توأمان متلازمان، وأن الرجل الذى يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حباً صادقاً، ويفديه بروحه وما تملك يداه، ولست فيما أقول معتمداً على أقوال السالفين الذين ربما اتهمهم أبناء العصر الحديث بالتعصب والجهالة، ولكنى استشهد على صحة هذا المبدأ بكلمة بسمارك أكبر ساسة هذا العصر وهو

خير رجل خدم بلاده ورفع شأنها، فقد قال هذا الرجل العظيم بأعلى صوته: «لو نزعتم العقيدة من فؤادى لنزعتم محبة الوطن معها».

وقال عن ارتباط المسلمين والأقباط:

«كيف يستطيع رجل وطنى أن يدعو للشقاق والبغضاء، وهذه الدعوة مناقضة للوطنية الصحيحة، **فالأقباط إخوة لنا فى الوطن تجمعنا بهم أشرف رابطة، وقد عشنا معهم القرون الطوال، على أتم وفاق وأكمل اتفاق**».

وكانت الخطبة من أبدع وأبلغ خطبه فى الوطنية.

سفره إلى أوروبا
(يونيه سنة ١٩٠٠)

سافر الفقيد إلى أوروبا عن طريق الإسكندرية يوم ١٦ يونيه سنة ١٩٠٠ كعادته السنوية، وعهد بإدارة اللواء فى غيبته إلى شقيقه على بك فهمى كامل.

وكان لا يفتأ يرسل مقالاته الوطنية إلى اللواء فى سياحته، يناجى بها الوطن ويسدى إلى المصريين نصائحه السامية، فمن ذلك مقالته (صورة الوطن العزيز) كتبها على ظهر الباخرة سميراميس التى أقلته من الإسكندرية ونشرت فى لواء ٢٨ يونيه ١٩٠٠، ومقالة (وطن كوشوت) أرسلها من بودابست فى ٣٠ يونيه سنة ١٩٠٠ عن جهاد كوشوت بطل المجر، ومقالته (مظاهر المدنية الحقة) من فيينا فى ٣١ يوليه سنة ١٩٠٠ عما يجب أن يفيده السائح المصرى فى أوروبا، قال فيها: «لا يدرك الشرقى منا أسرار المدنية الغربية وأسباب قوة ممالكها إلا إذا زار المدارس والمعامل، هنا وهناك، ووقف على نظامات الحكومات، وقرأ دستورها، وأدرك أن كل جنس منها غيور على عاداته وأخلاقه، حريص على دينه ولغته، وأن الفرد يمثل فى نفسه الأمة بأسرها. ويسير فى كل حركاته وسكناته على ناموس ثابت ودستور لا يتغير».

وعاد إلى مصر فى أغسطس سنة ١٩٠٠، واستأنف جهاده الصحفى فى اللواء، وكتب فى عدد ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٠ مقالة مهمة عن ذكرى احتلال الانجليز العاصمة.

دعوة الأمة إلى الاعتماد على نفسها

وأقام يوم أول أكتوبر سنة ١٩٠٠ احتفالا فخما فى مدرسته لتوزيع الجوائز على النابغين من تلاميذها، وقد أمّه جمع كبير من صفوة القوم دل على ما ناله فى نفوس المصريين من محبة واحترام وتقدير لجهاده فى سبيل الوطن، وكان فى مقدمة الحاضرين إسماعيل باشا محمد رئيس مجلس شورى القوانين فى ذلك العهد، وألقى على بك فهمى كامل خطبة شكر فيها الحاضرين وأفاض فى بيان أعمال المدرسة، ثم وقف الفقيد وألقى خطبة نوّه فيها بفضل العلم، وجعل موضوعها وجوب اعتماد الأمة على نفسها فى نهضتها، قال فى هذا الصدد:

«لست الآن واقفاً أمامكم موقف المتباهى بعمله المعجب بصنعه، ولكنى واقف موقف الخادم لأمته، المفدى نفعها براحته، فقد أسست هذه المدرسة غير مفكر فى صعوبة العمل وخطورة الأمر، غير ملتفت إلى أقوال المثبطين للهمم، المميتين للعزائم، ونهضت بها مدفوعاً باعتقاد تملك فؤادى وهو **أن كل فرد فى هذه الأمة مطالب بخدمتها مهما قصر الآخرون وأهمل المهملون**؛ وسرت فى طريقى هذا معتمدا على فاطر الأرض والسماء، نصير العاملين، وعون المجتهدين».

إلى أن قال:

«إن كل فرد مهما كان صغيراً مطالب بواجب يؤديه لبلاده ووطنه وأمته، ولو ترك كل مصرى لأبنائه من بعده حب العمل وعدم الاعتماد على الغير إرثا، لأصبحنا وفينا حياة طيبة تحيى الآمال، وتبعث العزائم عند الرجال، وإنى لست أرى لبلادى آفة تهددها بالفناء مثل اعتقاد أبنائها أن الحكومة هى كل شىء، وبيدها كل أمر وعليها كل واجب، وأنهم لا يسألون عن هذا الوطن أبداً، وعلى حين أن التاريخ ينطق بأفصح بيان أن الأمة التى تعتمد فى كل شئونها على حكومتها أمة منزلتها من الحكومة منزلة العبيد من سيده، أما الأمة التى تظهر فى ميدان الحياة بنشاطها وجهادها وأعمالها، متحدة مع الحكومة تارة، عاملة وحدها تارة أخرى، هى الأمة التى منزلة الحكومة منها منزلة العبد من سيده، وها هى ذى الأمم الغربية تجدها تسبق حكوماتها فى فتح المدارس وإنشاء المكاتب

وتأسيس المستشفيات والقيام بكل عمل خطير، مع أن حكوماتها من الثروة وقوة السلطان بمكان».

دعوته إلى إحياء الصناعة

ودعا فى اللواء إلى إحياء الصناعة فى مصر ونشر التعليم الصناعى فى عدد ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٠٠، قال فى هذا الصدد:

«فإيجاد روح الصناعة فى البلاد هو بلا مراء أسمى خدمة تقدم إليها وأكبر سعادة تجهز لرجال الغد، وقد أدرك الكثير من فضلاء مصر هذه الحقيقة وهذا الواجب، فتبادلوا الحديث فى أمر تأسيس مدرسة صناعية، ولكنهم لم يتعدوا ذلك إلى العمل، وأشد المصريين إهتماما بهذا المشروع الجليل هم أعضاء جمعية العروة الوثقى الذين برهنوا بأعمالهم المشهورة على أنهم رجال عمل يعرفون لمصر حقوقها عليهم ولا يقصرون فى تأدية هذه الحقوق، فوضع لهم صاحب الهمة الحديدية «حسبو بك محمد» مشروع تأسيس مدرسة صناعية لا يكلفهم من المال كثيراً ولكنه يعود على البلاد وأبنائها بالخير الجزيل».

إحياء ذكرى الرجال العاملين

كان الفقيد لا يفتأ يدعو الأمة إلى إحياء ذكرى العظماء والأفذاذ الذين خدموها فى نهضتها، ويرى فى ذلك دليلا على حياة الأمة، وقد كتب فى عدد ١٠ مارس سنة ١٩٠١ يؤنب الأمة على إهمالها تخليد ذكرى فقيد المعارف على باشا مبارك، قال:

– «لا شىء يرفع جال مقام الوطنية فى بلاد مثل إحياء ذكرى الرجال الذين أخلصوا فى خدمتها، وقضوا أعمارهم فى العمل لإعلاء شأنها وتحقيق آمالها، ولا شىء يميت الوطن والوطنية مثل تمكن داء النسيان فى أمة وجهلها لتاريخها، وعدم تقديرها للرجال المخلصين فى خدمتها، وقد بليت هذه الأمة المصرية العزيزة بذلك الداء العضال، فتراها لا تذكر الرجال إلا إذا كانوا القابضين على أزمة أمورها، أو المحركين لحركة الرأى العام فيها، ولا تهتم بالحوادث إلا عند حدوثها فليس للمصائب فى نفوس أبنائها

أثر يبقى، وليس كذلك للعظمة الماضية بقية باقية فى الأفئدة والضمائر، فلا غرابة إذا كان ذلك للعظمة الماضية بقية فى الأفئدة والضمائر، فلا غرابة إذا كان ذلك سبباً من أسباب تأخرها وعلة من علل انحطاطها» إلى أن قال:

«نهض المصريون عند وفاة المرحوم على باشا مبارك نهضة النار فى الرياح ونادى كبير منهم بوجوب عمل اكتتاب عام لإقامة أثر يخلد ذكرى هذا الشيخ الجليل الذى خدم العلم والأدب والوطن خدمة لا تنسى، ولا يصح لأمة تريد أن تحيا أن تنساها، فجمع شىء من المال، ومضت الأيام والأعوام، وهذا المشروع دفين لا يريد القوم أن يظهروه للملأ مرة ثانية، أو يحدثوا الناس عند حديثاً جديداً، فماذا تم فيه؟ وماذا قررت اللجنة المكلفة بإخراجه إلى الوجود؟ هل ذهبت من النفوس محبة فقيد المعارف؟ أم محت الأيام فضله وقضت على عمله حتى نسى ونسيت آثاره؟ اللهم إن مصر لا تنال من السعادة نصيبها، ولا تبلغ من الاستقلال مطلبها إلا إذا جعل أساس تربية أبنائها تخليد ذكرى النافعين من رجالها وبث فى نفوس الناشئين الاقتداء بهم ومحبة الديار محبة العارف بجمالها المحيط بأسرار تاريخها الخبير بعلل تأخرها وأدواء انحطاطها، وإلا فمحال أن يبنى على غير هذا الأساس مجد صحيح وعز دائم».

هذا ما كتبه مصطفى كامل عن إهمال الأمة تخليد ذكرى على باشا مبارك، فليت شعرى ماذا هو قائل عن إهمال الأمة تخليد ذكراه هو! لقد أفنى عمره فى بعث الحركة الوطنية، وضحى بحياته فى سبيل مصر، وذوت زهرة شبابه فى فبراير سنة ١٩٠٨، وصنع له تمثال لتخليد ذكراه، فبقى التمثال أربعة وعشرين عاماً سجيناً، تضن عليه الحكومة بإقامته فى أحد الميادين العامة والأمة غافلة عن شأنه.

* * *

ثم أفرج بعد لأى عن تمثال الفقيد، واتفق على إقامته فى أحد الميادين الكبيرة العامة، فقرر مجلس الوزراء بجلسة أول سبتمبر سنة ١٩٣٨ إقامته فى ميدان العتبة الخضراء ثم أقيم التمثال فى ميدان (مصطفى كامل) كما تراه مفصلا فى الفصل الخامس عشر.

خطبته فى افتتاح مدرسة الشوربجى ببريم
(أبريل سنة ١٩٠١)

كان مصطفى كامل مشغوفا بنشر التعليم القومى فى البلاد، داعياً إلى هذا الغرض عاملا على تحقيقه. اعتبرْ ذلك فى تشجيعه حسين بك القرشولى على إنشاء مدرسته. وخطبته فى افتتاحها، ثم إنشائه مدرسة (مصطفى كامل)، وقد أسس أحد خيار الأعيان بمديرية البحيرة وهو المرحوم مصطفى بك الشوربجى سنة١٩٠١ مدرسة مجانية فى بلدته (بريم) – قائمة حتى اليوم – وأقام احتفالا فخما بافتتاحها يوم ١٥ أبريل من تلك السنة حضره مدير البحيرة فى ذلك الحين (أحمد فائق باشا) وكان من خاصة أنصار الفقيد والمعجبين بجهاده وحضرها جمع كبير من الأعيان والكبراء وقد دعى مصطفى كامل إلى حضور الاحتفال فلبى الدعوة، وكان موضع الإجلال والاحترام من الحاضرين، وألقى خطبة من خطبه العظيمة عن فضل العلم وأثنى على منشىء المدرسة، ونوه بحضور الناس أفواجاً إلى هذا الاحتفال إجلالا للعلم وإظهاراً لما فى صدورهم من حب للوطن والميل لخيره، وتكلم عن واجبات الأمة أفراداً وجماعات نحو الوطن. ودعا فى خلال الخطبة دعوته الوطنية، وبرهن على أن فى الأمة حياة حقيقية وإستعداداً عظيما للتقدم إذا وجد من يستحثها على العمل، قال:

«سادتى الأعزاء

«إنى بكل ارتياح حضرت إلى هذا البلد الأمين، وانتقلت من عاصمة الديار إلى هذه الجهة المباركة لمشاركة القوم فى فرحهم واحتفالهم بما يصح أن نسميه «عيد العلم والتربية».

إلى أن قال:

«ليس فى تشييد المدارس وإقامة المستشفيات والتنافس فى الخيرات النافعة شىء يسر الوطن ويشرح صدره مثل نفى تهمة الموت الأدبى عن المصريين، قال للقائلون وردد المرددون: «إن المصريين اتفقوا على ألا يتفقوا»، وسرت هذه الكلمة فى الأمة وتناقلها الصغير عن الكبير، وشرحها فلاسفة السوء واعتقد الكثيرون صحتها، حتى أخذ القوم

يتساءلون عن مبلغ هذه الأمة من القوة والحياة، يتساءلون هل هى إلى المجد والارتقاء سائرة؛ أم إلى الموت والحياة والفناء هاوية.

«فأجبهم يا من رفعت للعلم والوطن مناراً عالياً، أجبهم بأن المصريين إتفقوا على أن يتفقوا، وأن جمعية العروة الوثقى فى الإسكندرية، وجمعية المساعى المشكورة فى المنوفية، والجمعية الخيرية الإسلامية فى أنحاء القطر، تنادى بأن فى الأمة رجالا أحياء ذوى همم عالية، وعزائم صادقة، أجبهم بأن هذه المدارس الأهلية التى أنشئت فى الديار بهمم الأفراد هى الحجج الدامغة على حياة الأمة ووجود من يهتم لأمر تقدمها ونهضتها.

«لا داء أضرّ بالأمة وأشد وبالا عليها مثل داء إعتقادها السوء فى نفسها، ويأسها من مستقبلها، فجاهدوا ضد هذا الداء ما استطعتم، وأعلنوا عليه حربا عوانا، وبثوا فى أبناء الأمة مبادىء الثقة بالنفس والاعتماد على المجموع، وربوا البنين والبنات على محبة الوطن».

«الوطن! الوطن! كلمة ترددها الألسنة وتكتبها الصحف، وينطق بها الناس على إختلاف مراتبهم، ويصيح بها كل إنسان، فماذا للفرد الواحد فى هذه الكلمة، بل ماذا له فى الوطن نفسه؟، له كل شىء، ونصيبه من فخاره عظيم. كما أن مسئوليته فى مصائبه كبرى.

«ألا يشعر الواحد بعظمة حقيقية وسمو كبير إذا قال (بلادى) وكانت بلاده عالية المقدار رفيعة الشأن والاعتبار؟ ألا يجد فى كلمة (بلادى) التصاقا بالوطن واشتراكا فى أفراحه وأحزانه بنصيب كبير؟ ألا تدل هذه الكلمة وحدها على أن كل واحد منا مطالب بنصرة الوطن وإسعاده، مسئول أمام الله وأمام الناس عما يناله من سوء وضر؟

«ألا يكون المصرى موضع الإكرام والإجلال بين شعوب الورى إذا قال (مصر بلادى) وكانت مصر مصدر العلم والنور، ومقر التمدن والتقدم، ومثال القوة والعظمة فى الحرية والاستقلال؟

«أجل. للصغير كما للكبير من المصريين نصيب فى رفعة الوطن أو انحطاطه، فلا يدّعينّ أحد منكم أن غيره المسئول دونه عن القيام بخدمة البلاد وإعلاء شأنها «كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته».

فى باريس

سافر مصطفى كامل إلى باريس فى صيف سنة ١٩٠١، وانتهز الفرصة لرفع صوت مصر فى الصحافة الأوروبية، وكانت حادثة فاشودة وما انتهت إليه من تراجع فرنسا وانصرافها عن فتح باب المسألة المصرية قد أوجدت جواً من اليأس من نجاح مصر فى جهادها، فرفع الفقيد صوتها من جديد ليعلن عن أمانى قومه ومثابرته على الجهاد.

نشرت جريدة (الإكلير) الباريسية فى عدد ٢٩ يوليه سنة ١٩٠١ مقالة فى هذا الصدد قالت فيها:

«حضر أخيراً إلى باريس وطنى مصرى له فى بلاده نفوذ عظيم، ألا وهو مصطفى كامل بك صاحب جريدة (اللواء) التى تظهر فى القاهرة، وهو مشهور فى أوروبا، ويعرف اسمه معرفة أكيدة كل المشتغلين بمسائل مصر، وهو خطيب فصيح اللسان قوي الجنان، طالما جمع صوته الصفوف وارتاح لسماع أقواله الكثيرون من أبناء وطنه وغيرهم، وقد اهتم الإنجليز بالقضاء على هذا الاحتجاج الحقّ ضد احتلالهم مصر، وحاولوا محو تلك الدعوة للاستقلال، ولكنهم لم يفلحوا، ولا مراء فى أن هذا الشاب المصرى هو من أهم أعلام العالم الإسلامى الذين يهمنا موقفهم، فهو جذاب يستميل محدثيه بسهولة، وآدابه عالية، ويتكلم الفرنسية ببلاغة تامة ورقة سليمة».

وقد سأله محرر الجريدة عن شئون مصر فأجابه بصراحة عن كل ما سأله، وكان أهم سؤال وجهه إليه المحرر: «هل المصريون يائسون الآن من مستقبل بلادهم بعد حادثة فاشودة؟»

فأجابه - «كلا إننا لم نيأس، ولن نيأس أبداً من مستقبل الوطن العزيز، فإننا نعلم علم اليقين أن مصر مقبرة للأمم الطاغية، ونعرف أن خط انجلترا فيها سيكون كحظ الدول المتقدمة عليها، ولكننا إذا كنا غير يائسين من مستقبل بلادنا فإننا بائسون كل اليأس من أى تعضيد يأتينا من أوروبا، وأصبحنا نوجه همتنا ونشاطنا لتعليم الأمة وتربيتها بإنشاء المدارس فى أنحائها حيث ينشأ الشباب على أشرف مبادىء الوطنية

والشهامة ويتعلمون من الصغر تاريخ العظمة السالفة ويربون على الثقة بالمستقبل والإيمان بأن لبلادهم فى الأيام الآتية مستقبلا باهراً ومقاماً عالياً».

احتفال مدرسة مصطفى كامل
برئاسة الأمير محمد إبراهيم
(٢٧ فبراير سنة ١٩٠٢)

علت منزلة المترجم فى نفوس المصريين لثباته فى مجاهدة الاحتلال، وازداد إقبال القراء على اللواء، وبدت هذه المنزلة فى الاحتفال الذى أقامه لتوزيع الجوائز على النابغين من مدرسته يوم الخميس ٢٧ فبراير سنة ١٩٠٢، فقد حضر الاحتفال نحو أربعة آلاف مدعو، حتى ضاقت بهم ساحة المدرسة، واجتذبت وطنيته إلى ميدان العمل أميراً من أمراء الأسرة العلوية، وهو الأمير محمد إبراهيم ليرأس الاحتفال، فكان أول أمير رأس حفلة عملية أقامها زعيم الوطنية، وهذا يدلك على قوة التأثير المعنوى للفقيد، وهذا التأثير من خصائص الزعيم الوطنى.

وقد حضر الاحتفال جمع من الشخصيات الكبيرة فى المجتمع، نذكر منهم يحيى أفندى قاضى قضاة مصر، الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية، الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر، الشيخ محمد بخيت، حسن باشا عاصم، اسماعيل باشا محمد رئيس مجلس شورى القوانين، اسماعيل باشا صبرى الشاعر المشهور (وكيل وزارة الحقانية)، محمود شكرى باشا، فيضى باشا، عبد الحميد صادق باشا عبد السلام باشا المويلحى، وغيرهم، وكانت لجنة الشرف التى تولت توزيع الجوائز مؤلفة من الأمير محمد إبراهيم رئيسها، وحسن باشا عاصم ومحمود شكرى باشا عضويها.

وقد خطب فى الاحتفال على بك فهمى كامل شقيق الفقيد ومدير المدرسة عن اطراد سير التعليم فيها ونجاحها ونوه بالقسم المجانى فيها.

وألقى المترجم خطبة فياضة شكر فيها الأمير محمد إبراهيم والمدعوين على حضور الاحتفال بعبارة بليغة، ثم عرج على دعوته الوطنية يبثها فى النفوس، وأشاد بنهضة مصر العلمية منذ أوائل القرن التاسع عشر.

محاربة اليأس والثقة فى الأمة

ثم دعا إلى التضامن وتوحيد الكلمة والثقة فى الأمة قائـلا : «عجباً وألف مـرة عجباً ! كيف تسيء الظن بنفسها أمة تغلبت على الأيـام والحوادث، وقـاتلت الليالى ومـا ولدت، وقاومت تيارات الزمان أجيـالا طوالا، وأفقتهـا وهى فى منتهى قوتهـا، وكيف يقول بعض أبنـاء هذه الأمـة عنها إنها مـاتت وزالت آثارهـا وأصبحت نسياً منسيـا، وهى التى اهـتز لمجدها الشرق والغرب، وسارت الركبـان بأحـاديث مفاخـرها ؟ كيف يقضى اليـائسون عليها وقد كانت قبل عهد محمد على أكثر أدواء وأقـل أملا فى الشفـاء من الآن ثم عادت لها الحياة والقوة والجاه والعز ورفعة الشأن».

الثقافة الوطنية

«ليست حاجة مصر إلى شىء فى هذا الزمان مثل حاجتها إلى تخريج رجال متحدى الكلمة، مثقفى الرأى، عارفين بتاريخها، معتبرين بعبر حوادثها، ناهضين بها مجدين فى سبيل إسعادها، وليس لنا بإنشاء هذه المدرسة غاية غيره هذه، فإنما نحن لا نرمى إلى تربية موظفين أو إعداد طلاب للشهادات، وإن كان يسرنا على الدوام فوز التلاميذ بين أقرانهم المتعلمين فى المدارس الأخرى فى الامتحانات العامة، ولكننا نرمى إلى تخريج رجال خلائقهم محبة الوطن والتمسك بالفضيلة والارتباط بعضهم ببعض والتفانى فى خدمة هذه البلاد، نرمى إلى تكوين نفوس عالية تأبى الضيم والذل وتهوى الشرف والمجد، وترى الحياة بغير عز الأوطان وسعدها حياة شقاء وبلاء».

ثم دعا إلى إحياء اللغة العربية لنشر الثقافة وإحياء الآداب وتقدم الأفكار، وضرب الأمثلة بنهضة اللغة القومية فى بلاد المجر إذ كانت أداة للنهضة الوطنية فيها وكانت خطبته تقاطع فى معظم عباراتها بتصفيق الاستحسان.



الأمير محمد إبراهيم

خطبة الأمير محمد إبراهيم

ونهض الأمير محمد إبراهيم، وألقى بلغة عربية فصيحة خطبة قيمة موجزة كان لها تأثير كبير فى الحاضرين، قال فيها:

«أيها السادة الكرام:

«يسرنى أن أراكم مجتمعين فى هذا النادى، نادى العلم والأدب، فرحين بنجاح أبنائكم نجاحاً يبشر بحسن مستقبلهم وفوز النابغين منهم بالجوائز التى أعدتها لهم المدرسة، وقد زرت هذه المدرسة منذ عامين، وقضيت فيها زمناً تأكدت فيه أن القائمين بأمرها والمدرسين

لتلاميذها يقومون بواجباتهم حق قيام، ولذلك تعلقت بها وبمن فيها، وما سمعت بهذا الاحتفال إلا وأتيت إليه مسروراً مرتاحاً.

«وإنكم تعلمون جميعاً أن مصر كانت شمساً تضيء العالمين، ومنبعاً غزيراً للعلوم والمعارف، ومنبتاً للفضائل ومكارم الأخلاق، ثم قضى الجهل على ذلك كله حتى تولى ملك مصر مولانا العباس الثانى، وعمت روح العلوم أنحاء البلاد وأخذ الجهل يتقلص عن هذه الديار العزيزة.

«وإنى مسرور جداً بحضور هذا الاحتفال واشتراكى معكم فى هذا العمل الجليل، وآمل أن هذه المدرسة تكون قدوة لكل راغب فى بلوغ المراقى السامية وأشكر سعادة مصطفى كامل بك لكونه دعانى لرئاسة هذا المحفل، وأسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى ما فيه الفائدة تحت رعاية أكبر نصير للعلوم والمعارف مولانا ولىّ النعم الأفخم الخديو المعظم».

وقد كانت هذه الحفلة وماحفها من المهابةوالجلال، ورياسة أمير من الأسرة العلويه لها، وخطبته، وخطبة الفقيد فيها، وحضور جمع كبير من أعلام مصر وأقطابها، كل أولئك كان مظهراً واضحا بارزاً للمكانة العالية التى بلغها مصطفى كامل بين الطبقة الممتازة من المجتمع، وهذه المكانة كانت فوزاً له وفوزاً للحركة الوطنية التى صارت مرادفة لاسمه.

الاحتفال بالعيد المئينى لمحمد على
(٢١ مايو سنة ١٩٠٢)

اقترح المترجم على صفحات اللواء إقامة احتفال قومى كبير يوم ١٣ صفر سنة ١٣٢٠ هـ (٢١ مايو سنة ١٩٠٢) تذكارا لمرور مائة عام هجرى على اختيار زعماء الشعب محمد على واليًّا على مصر، قال فى هذا الصدد تحت عنوان (العيد المئينى لمؤسس العائلة الخديوية):

«خير الأعياد عند الأمم عيد يذكرها بانتقالها من الظلمات إلى النور، وخروجها من الجهالة إلى العلم والحضارة، وارتقائها فى سبيل الحياة العالية، وارتباطها بعائلة مالكة أجلستها على العرش بإرادتها وصافحتها للنهوض إلى ذرى العلياء ونوال المنن والنعماء،

واعتمدت عليها فى إرشادها إلى واجباتها وحقوقها والمقاصد السامية التى يجب أن ترمى إليها».

وبعد أن أشاد بتاريخ محمد على وما قام به من جلائل الأعمال فى سبيل إنهاض مصر، دعا إلى الاحتفال بالعيد المئينى لولايته قائلا: وهذا التذكار السامى يوافق ميعاده يوم ١٣ صفر سنة ١٣٢٠، أى لم يبق على حلوله إلا خمسة عشر شهراً[٢]، فليفكر المفكرون فيما يجب على هذه الأمة عمله اعترافا بفصل محييها. وإجلالا للوطن نفسه، الذى نهض فى عهده نهضته الكبرى، ووثب بين الأوطان وثبة الأسد القاهر، فخير ما يحيى الوطنية فى النفوس ويجمع جموع هذا الشعب العظيم الأسيف ذكرى العظمة الأهلية والمجد الوطنى، ولمثل هذا فليعمل العاملون ويتنافس المتنافسون».

وفى الحق إن ابتكار الفقيد هذه الفكرة يدل على وطنية عالية ونظر صادق وفكر ناضج، لأن خير مايحفز الأمم إلى الجهاد فى سبيل استقلالها المسلوب هو الاحتفال بذكريات مجدها وعظمتها ففى تلك الذكريات تقارن بين ماضيها وحاضرها وتدرك الفرق بينهما، فتضاعف عزيمتها فى الجهاد للتخلص من حاضرها المهين، واستعادة مجدها التليد، فلا غرو أن قوبل الاقتراح بالارتياح من الوطنيين، كما قابله صنائع الأحتلال بالحقد والسخط لأن هذا الاحتفال هو فى حقيقته مظاهرة تاريخية قومية ضد الاحتلال، وقد تردد صدى الاقتراح فى الصحف الأوروبية المحلية فكتبت عنه (الريفورم) مقالا جاء فيه:

«لقد اقترح رصيفنا وصديقنا مصطفى كامل بك فى جريدته (اللواء) اقتراحا نوافقه عليه كل الموافقة، وهو إقامة احتفال عظيم بتذكار مرور مائة عام على انتخاب أعيان المصريين للرجل العظيم والياً على مصر، وأن محمد على هو مؤسس العائلة الحاكمة فى مصر، ومنشئ مصر الحديثة نفسها، وقد أظهر مصطفى كامل فى مقالته الجميلة العمل الكبير الذى قام به هذا الرجل العظيم وكيف أنه أنقذ هذه البلاد من الفوضى التى كانت تمزقها وأقام فيها نظاما محكما حتى صارت مصر فى عهده من القوة والعظمة بمكان».

وقد نجحت الفكرة نجاحاً رائعاً، وألقى مصطفى كامل بمسرح زيزنيا بالإسكندرية خطبة كبرى يوم ٢١ مايو سنة ١٩٠٢ (١٣ صفر سنة ١٣٢٠) وهو يوم التذكار المئينى

---

(٢) كتبت المقالة فى عدد ١٣ شوال سنة ١٣١٨ – ٣ فبراير سنة ١٩٠١.

لولاية محمد على، موضوعها (عمل محمد على وواجبات المصريين نحو وطنهم)، ضمّنها ما عمله محمد على لإحياء مصر، وقارن بين مجدها فى عهده، وما صارت إليه من الذل والمهانة فى عهد الاحتلال، وناشد المصريين أن يهبّوا لإحياء مجد مصر واستقلالها ودستورها، وقد كان الإقبال على سماع الخطيب عظيما، إذ حضر الاجتماع ثلاثة آلاف ونيف من وجوه البلاد وأعيانها وفضلائها وموظفيها وشبابها وهرع إليه كثيرون من مختلف الأقاليم حتى من أسوان، وقوبلت الخطبة فى معظم مواضعها بالتصفيق والاستحسان، وبخاصة عندما ذكر الخطيب ضرورة إنشاء مجلس نيابى لمراقبة أعمال الحكومة وتقييد أعمالها، فكانت دعوة الفقيد إلى مجلس النيابى فى هذا الاحتفال الكبير أكبر دعاية للدستور، والخطبة طويلة ممتعة لا سبيل إلى إيرادها أو تلخيصها هنا[٣]، وهى خلاصة تاريخية جليلة لأعمال محمد على، تتخللها استثارة النخوة الوطنية فى النفوس، وإنا نكتفى ببعض فقرات منها كنموذج لروح الخطابة وغرض الخطيب قال:

«من ذا الذى يذكر منا مجد مصر فى عهد ذلك الأمير، ولا يذكر أنه مسئول عن زواله مطالب باسترداده».

وقال فى موطن آخر:

«بأى قلب أم بأى ضمير أم بأى لسان أحدثكم اليوم معاشر المصريين عن حماية آبائنا للوطن ودفاعهم عنه ونضالهم عن حوزته أيام (محمد على الكبير). وقد حاولت انجلترا أن تقضى على هذا الملك الجديد. وهذه الدولة الناشئة، وتزيل من سماء المجد والإقبال هذه الشمس المشرقة، فأراها يومئذ بنو مصر أى أمة هم. وأراهم محمد على أى أمير هو. فتركت الثغور والبلاد. آسفة على فشلها، معجبة بهذا المجد الباهر والعزم القاهر والوطنية الحقة والهمة الحديدية».

وقال أيضاً مشيراً إلى حالة اليابان حين نهضت مصر فى عهد محمد على:

«أين كانت اليابان يومئذ؟ أين كانت هذه المملكة الناشئة ؟ كانت فى دياجى الظلمات وغياهب الجهل. تعد إذا ذكرت فى عداد الأموات، فقف أيها المصرى فوق أطلال التاريخ وارقب الحوادث، وانظر إلى أى حال صارت اليابان، وإلى أى حال صرنا،

---

(٣) نشرنا معظمها فى الفصل الثانى والعشرين.

وماذا كنا نبلغ من الشأن والشأو لو سلكنا ذلك السبيل الذى وجهنا إليه محمد على الكبير».

وصف الخطبة وتأثيرها

كانت هذه الخطبة من أعظم خطب مصطفى كامل، لجلال موضوعها وقد أحدثت فى النفوس تأثيراً كبيراً تردد صداه فى أرجاء البلاد وفى الدوائر الأوروبية، وكانت من أعظم دروس الوطنية التى ألقاها الفقيد فى خطبه الكبرى، ويبدو عظم تأثيرها مما كتبته الصحف فى وصفها وما احتوى الوصف من إجلال للخطبة والخطيب.

كتب الشاعر الكبير خليل بك مطران ان يصف الاحتفال فى «الأهرام»[٤] بقوله:

«أكتب إليكم هذه السطور من موضع مشرف على البحر، مجاور له، أسمع منه مناداة حبابه، ومناجاة نسماته، وأرى من حركته الدائمة المستمرة ما يخيل لى أن على ظهر كل موجة مهدا، يهز صعدا وخببا، وأن فى المهد أمرأ طفلا، سيكون بعد حين أمرأ كهلا، فهل ذلك الأمر الذى تهزه الأمواج، وتغذيه الشمس وتنميه الليالى، سيكون أمنية مرجوة لمصر تتحقق؟ وهل المناداة والمناجاة اللتان أسمعهما أول أصوات البشرى التى ستعلو بعد حين؟ ذلك ما أو همتنى إياه خطبة مصطفى بك كامل التى سمعتها البارحة بين جمهور لا يقل عن ثلاثة آلاف نفس مختلفى الجنس والدين، وأكثرهم من المصريين، وغير قليل منهم الذين حضروا من القاهرة والريف.

«وقف يتكلم فى الساعة التاسعة، وقد ضاق النادى على اتساعه بالناس عشرات عشرات فى اللوجات، جلوساً ووقوفا على الكراسى، وفيما بينها، صامتين تشوقا إلى ما سيسمعون، منتظمين انتظاما طبيعياً، ليس من عمل شرطى ولا ترتيب بواب، بل من هيبة الموقف ورجاء ما يتوقع».

وبعد أن أتى على ملخص الخطبة ختم رسالته بقوله:

«ولما فرغ الخطيب من التكلم صفق الناس حتى كلت الأيدى، وخرجوا معجبين

---

(٤) عدد ٢٤ مايو سنة ١٩٠٢.

باقتداره وسعة صدره وشدة إخلاصه، معتبرين بماسمعوه من مؤثر العظات أعظم الاعتبار، وأحاط بالخطيب جمهور من الأصدقاء فهنأوه أحسن تهنئة، ولا غرو فإنه مصر الحى ولسان ضميرها المجاهر».

وقالت جريدة (البصير):

«كان أمس موعد الخطابة التى ألقاها فى تياترو زيزنيا حضرة الخطيب المفوه رصيفنا الفاضل سعادة مصطفى بك كامل صاحب اللواء الأغر، فكان الملعب غاصا بالحضور؛ وما ساءنا انشغال المكان المعد لنا بقدر ما سرنا ما رأيناه من الزحام الدال على إعجاب المصريين بالخطيب وتشوقهم إلى سماع خطبته الوطنية، فكان يندفع اندفاع السيل بما عرف به من طلاقة اللسان، ويذكر من أعمال مؤسس البيت الخديوى الكريم وواجبات المصريين نحو وطنهم مايثير الهمم فى النفوس الخامدة، ويبعث روح الحياة إلى المشاعر الميتة، مذكرا المصريين أن كل أمة لا تعتمد على نفسها ولا تثق بمجموعها فلا نجاء لها ولا تبلغ ما تبلغه الأمم المتمدنة فى سبيل الحضارة والعمران، ثم أشار إلى الفرق بين مصر اليوم وبينها فى عهد محمد على، فأحاط بجميع أطراف هذا الموضوع بكلام كان غاية فى البلاغة ورشاقة التعبير، حتى دوت جوانب المرسح بالتصفيق، وتساقطت على الخطب طاقات الزهر بالعشرات، وفى الجملة فإن لخطاب كان بديعاً من أكثر وجوهه. لو لم يرد فيه من التحامل على المحتلين وكبار رجال الحكومة مانشارك فى الانتقاد عليه فريقاً ممن كان حاضراً من العقلاء، لاسيما وأن الموقف لم يكن يحتمل مثل هذه الأبحاث، وفى كل حال فإننا نثنى على حضرة الخطيب، وعلى ما رأينا من علائم الوطنية الصادقة التى كانت تبدو بين ثنايا الحضور».

وتردد صدى الخطبة فى الصحف الأوروبية، ووصفت الخطبة ونوهت بالمنزلة السامية التى نالها الفقيد فى اقتياد الحركة الوطنية.

قالت جريدة (الفارد الكسندرى) تحت عنوان (مصر للمصريين) مايأتى.

«لخصنا فى عدد أمس الخطبة التى ألقاها أول البارحة بكل اقتدار ونجاح حضرة رصيفنا الفاضل مصطفى بك كامل، وقد أبنا النجاح الذى نالة الخطيب الذى لم يكن ليشك فيه أحد، لأن صاحب (اللواء) الوطن الشاب اعتاد مثل هذا النجاح الخطابى الباهر، ولكن

ما منعنا ضيق الصحيفة عن ذكره البارحة والذى يجب علينا أن نقوله اليوم هو أن الجمهور العديد الذى حضر خطبة مصطفى بك كامل أظهر من العواطف والميول مايعد استثنائيا بالنسبة لجمهورى مصرى.

«فإن الناس كانوا يعتقدون قبلا أن السواد الأعظم من المصريين لايعرفون لكلمة (الوطنية) معنى، وأن هذا الاعتقاد الذى كان أصحابه غير مخطئين فيه صار لامحل له الآن، لأنه كان يكفى للانسان أن يرى أول البارحة تيار الوطنية الشديد الذى كان يخترق القاعة ويمر بين كل الصفوف ويشاهد التأثير القوى البادى على الوجوه كلما كان الخطيب يلقى عبارة وطنية ليعتقد أن المصريين يعرفون معنى الوطن والوطنية، فأبناء مصر يظهرون الآن بمظهر الرجال العارفين لحقوقهم وواجباتهم وإخلاصهم نحو الوطن، ولسنا بمبالغين إذا قلنا أن للخطيب الشاب الذى صفق له الجمهور أى تصفيق يداً قوية فى تغيير الميول المصرية وترقية العاطفة الوطنية،، فان مصطفى بك كامل قام يجاهد بالرغم عن شبابه الغض نحو عشر سنوات لمصلحة وطنه، واستخدم القلم واللسان والتعليم لهذا الغرض الشريف، فهو يربى العاطفة الوطنية فى جريدته، ويلقى الخطب عن الوطن وحقوقه، ويعلم فى المدرسة التى أنشأها منذ ثلاث سنوات ٢٧٠ تلميذاً، فهو يعمل بهذه الأسلحة الثلاثة لإحياء الروح المصرية».

وكتبت بهذه المعنى جريدة (الريفورم)

ووصفت جريدة (الكوريرى اجبسيانى) الإيطالية الخطبة بقولها:

«ازدحم الناس ازدحاماً غريباً على تياترو (زيزنيا) حتى لم يبق مكان لجالس ولامحل لواقف، وما خرج مصطفى بك كامل إلى منبر الخطابة حتى حياه هذا الجمهور الاستثنائى العدد بالتصفيق المستمر، وقد ألقى الخطيب خطبته بقوة جنان وثبات واقتدار، وكانت الوطنية بادية فى كل أقواله وإشاراته، والحمية ظاهرة على وجهه، وتأثير خطابته واصل إلى أعماق القلوب، وإن النجاح الذى ناله عظيم، ولامراء فى أنه يستحقه».

ولم يفت جريدة (الاجبشيان جازيت) الانجليزية التى تعبر عن الاحتلال أن تنوه بجلال الاحتفال مع التحفظ فى الوصف، إذ قالت.

«ألقى مصطفى بك كامل خطبته البارحة على عمل محمد على فى تياترو زيزنيا، فازدحم المصريون لسماعها، وبعد أن أثنى الخطيب على الباشا الكبير تكلم فى الاحتلال البريطانى وذكر الموافقة بين تاريخى جلاء الإنجليز عن الإسكندرية فى ١٤ سبتمبر عام ١٨٠٧ ودخولهم مصر فى ١٤ سبتمبر عام ١٨٨٢، وطلب من الحاضرين مساعدته على إخراجهم بالثانى».

دعوته إلى الدستور

كان مصطفى مع دعوته إلى الجلاء لايفتأ يدعو إلى الدستور ليكون أداة الحكم الصالح فى مصر، كتب فى عدد ٥ أكتوبر سنة ١٩٠٠ من (اللواء) مقالة بعنوان (الحكومة والأمة فى مصر) ذكر فيها وعد اللورد دفرين باسم حكومته أن يؤسس فى مصر مجلس نيابى وإخلاف الحكومة البريطانية هذا الوعد كإخلافها وعودها فى الجلاء، ثم قال.

«لعمرى إذا كان الإنجليز يودون حقيقة أن يعيشوا مع هذا الشعب المصرى فى وفاق واتفاق ويسيروا به فى طريق السعادة كما يدعون، فأول واجب نطالبهم به هو أن يحققوا وعد اللورد دفرين ويجعلوا للحرية والعدالة أساسات قوية متينة لاتستطيع يد بشرية، انجليزية أو مصرية، أن تمسها بسوء».

وقد دعا إلى الدستور فى خطبته فى العيد المئينى لمحمد على يوم (٢١ مايو سنة ١٩٠٢) كما تقدم بيانه، وكان على صفحات اللواء يدعو إلى المجلس النيابى كأداة لإصلاح عيوب الحكم، كتب فى عدد ١٦ نوفمبر سنة ١٩٠٢ مقالة تحت عنوان (إفلاس الاحتلال) أظهر فيها فساد الأداة الحكومية فى المعارف والداخلية وختمها بقوله:

«وعندى أن هذه الأدوار المختلفة والأدواء المتنوعة دالة كلها على شدة حاجة هذه البلاد إلى مجلس نيابى تكون له السلطة التشريعة الكبرى، فلايسن قانون بغير إرادته، ولاتحور مادة إلا بمشيئته ولايزعزع نظام بغير أمره، ولاتعلو كلمة على كلمته، وإلا فإن بقاء السلطة المطلقة فى يد رجل واحد سواء كان مصرياً أو أجنبياً يضر بالبلاد كثيراً ويجر عليها الوبال».

وكتب تحت عنوان (إنشاء مجلس نيابى) فى عدد ٩ مارس سنة ١٩٠٤ من اللواء ما يأتى:

«لعل قراء اللواء وغيرهم من أفراد الأمة المصرية يذكرون ماقلناه من فوق المنابر وكتبناه فى هذه الجريدة وغيرها عن وجوب إنشاء مجلس نيابى منذ عشر سنوات كاملات، ويسرهم كما سرنا أن هذا المطلب العزيز صار على ألسنة الكثيرين من أهل القطر، لأنه الأنشودة التى يجب أن يترنم بها المصريون بعد طلب الاستقلال،وسواء كان سابقا أو لاحقا لتخلص البلاد من رق الاحتلال، فإنه الضمانة الوحيدة والكفالة الصحيحة لسلامة القوانين والحرية الخاصة والعامة، إلى أن قال:

«ليس للاحتلال مصلحة فى إيجاد مجلس نيابى لهذه البلاد، ولكن صوت الأمة يعلو على صوته إذا تمسكت به ودعت إليه وطالبت وجاهدت بقوة الرأى والفكر والثبات التى هى أكبر القوى الفعالة فى حياة الأمم، **فلتفعل فإنما هى تخطو بالوصول إليه أكبر خطوة فى طريق الاستقلال»**.

مجىء مدام آدم إلى مصر
(يناير سنة ١٩٠٤)

رغب مصطفى كامل إلى مدام جوليت آدم المجىء إلى مصر ليوطد علاقة الود والحب بينها وبين الوطن المصرى، فلبت الدعوة وجاءت فى يناير سنة ١٩٠٤، واستقبلها استقبالا حافلا، وقد استضافها عمر بك سلطان (باشا) بالمنيا، وصحبها الفقيد فى هذه الرحلة ومعه الأمير حيدر فاضل لمشاهدة آثار بنى حسن، وذهبوا إلى أسيوط حيث استقبلهم حسين بك فهمى المحامى وأحمد بك خشبه والسيد كامل بك خشبه، وذهبوا إلى البلينا، حيث تناولوا الشاى بمنزل عبد اللطيف بك أبو ستيت ثم إلى الأقصر حيث استقبلهم بالحفاوة عبد الكريم بك العمارى ويسى بك اندراوس، وشاهدوا الآثار المصرية، وذهبوا إلى إسنا، فتناولوا الشاى بمنزل متولى بك حزين ومدنى أفندى حزين، ووصلوا فى رحلتهم إلى أسوان، فكانوا يقابلون فى كل مكان بالحفاوة والإكرام.

وقد حضرت احتفال توزيع الجوائز فى مدرسة مصطفى كامل يوم ١٩ فبراير سنة

١٩٠٤، وكان احتفالا فخما حضره من شخصيات مصر البارزة يحى أفندى قاضى القضاة. والشيخ محمد بخيت، والسيد عمر مكرم. وحسين باشا واصف، واللواء بليغ باشا. ودانينوس باشا، وحضرت مدام آدم تصحبها مدام يونج زميلتها فى السفر وبعض كبار الأوروبيين، وألقى مصطفى كامل فى هذا الاحتفال خطبة من خطبه الرنانة ضمنها وجوب تعليم النشء تاريخ بلاده والعناية بالتربية والأخلاق فى المدارس.

وقصدت الفيوم فى أواخر فبراير، يصحبها مصطفى كامل ومحمد فريد ومدام يونج والكونتس دى كولتور ودانينوس باشا ونزلوا ضيوفا على خالد باشا لطفى، وقد رحب بها الفقيد ترحيباً عظيما، وكتب عنها مقالة بعنوان (ضيفة مصر) بعدد ٢٤ فبراير سنة ١٩٠٤، نوه فيها بشخصيتها الكبيرة، قال:

«زارت مصر فى هذه الأيام أميرة من أكبر أميرات الرأى والقلم والسياسة، ألا وهى مدام جولييت آدم الكاتبة الفرنسية الطائرة الصيت، زارت مصر وقد عشقتها من قديم، وشغفت بها من عهد شبابها، ودافعت عنها بقلمها السيال السنوات الطوال، فلذلك حق لمصر أن ترحب بها، وللمصريين أن يقابلوها بالشكر والإعظام، أتمت ضيفتنا العزيزة فى شهر أكتوبر الماضى (١٩٠٣) السنة السابعة والستين من عمرها، ومضى عليها خمسون عاماً وهى الكوكب الساطع فى سماء الأدب الرائع، ونشرت إلى اليوم اثنين وعشرين مؤلفا من أرقى المؤلفات وأسماها وقد نفدت كلها لكثرة الراغبين فى مطالعتها والمعجبين بها».

إلى أن قال:

«منحها الخالق كل مايرجوه الإنسان فى حياته، من مال وجلال وعلم وأدب، وسمعة طائرة، ونفوذ كبير، وقد استخدمت كل هذه المواهب فى خدمة وطنها، فهو قبلتها، وفى سبيله تضحى كل مرتخص وغال، لم أر فى رحلاتى العديدة ومقابلاتى الكثيرة شخصاً أحب وطنه بهذا المقدار، ولم أجد ثباتاً فى الحب كثباتها فى حب بلادها، وتفانيا فى الخدمة كتفانيها، وأملا قويا فى المستقبل كأملها، ملأ اليأس قلوب الكثيرين من الفرنسيين من رجوع الألزاس واللورين لفرنسا، وبقيت هى قوية الآمال، لا تعرف اليأس ولا اليأس يعرفها، وهكذا الوطنية الحقة تجعل الفؤاد راسخاً لا يتزعزع، والعقيدة أقوى من الأطواد، كان لضيفتنا الكريمة الشأن الأعلى والدور المهم فى تأسيس الجمهورية الفرنسية والتحالف

الفرنسى الروسى، وكم تقررت أمور خطيرة فى دارها، لأن كبار الجمهورية وفى مقدمتهم «جمبتا» كانوا يسترشدون بأفكارها، ويعترفون بأنها صائبة الرأى، لا تخطىء المرمى، وذلك فضلا عما كان لزوجها المأسوف عليه، «إدمون آدم» من المقام العالى والكلمة المسموعة والخدمات الباهرة، ولولا ثروته الواسعة لما أفلح الحزب الجمهورى فى ظروف كثيرة، أحبت مدام آدم بلادها، فأحبت كل محب لبلاده، وعرفت الوطنية الراقية، فأجلّتها عند كل وطنى. ولذلك تجد اسمها محبوبا عند الأمم الناشئة المحتاجة إلى المرشد والمعضد، تجد دارها فى باريس مزدحمة بالقصاد من أنحاء العالم. كلهم يطلبون منها الإرشاد، ويقدمون لها فرائض الشكر والإعجاب، اعتقدت أن الحق قاهر مهما قُهر فى بادىء الأمر، وأنه ذو الكلمة الأخيرة فى كل قضية، فأبعدت القنوط عن نفسها وعمن حولها. وكم سمعتُها تبث الآمال فى قلوب محبيها الكثيرين بأقوالها الصادقة وعباراتها المؤثرة، فمثل هذه الضيفة العزيزة من تكرم الدنيا ويعز بنو الإنسان، وإذا كان أكبر صفات المصريين إكرام الضيف وعدم نسيان المعروف، فلا بدع إذا رأيناهم يتسابقون لإكرامها وإعلان شكرهم لها على حبها لبلادهم ودفاعها عنهم، فإنما هم يتبتون بهذه المظاهرات الودية أنها لم تخطىء فى قولها واعتقادها أن المصريين أحياء وأنهم سيبهرون العالم بحياتهم ومستقبلهم فى القريب العاجل».

وقد أولم الخديو عباس الثانى لمدام آدم وليمة عشاء فاخرة فى قصر القبة مساء ٢٤ فبراير سنة ١٩٠٤، حضرها ستة عشر مدعوا من الأمراء والكبراء، وتناول معا الخديو هو وضيوفه طعام العشاء تكريما للضيفة العظيمة.

وذهبت صحبة مدام يونج والمترجم وحسين باشا واصف إلى بورسعيد، فأتيمت لهم حفلة فخمة فى المدرسة الواصفية، خطب فيها الفقيد خطبة شيقة، وكان المجتمعون يبلغون عدة آلاف جاءوا تكريماً لضيفة مصطفى كامل.

وغادرت مصر يوم ٤ مارس سنة ١٩٠٤، بعد أن أقامت فى مصر ستة أسابيع رأت فيها من الفقيد ومن أنصاره ومن الأمة المصرية غاية الحفاوة والإكرام، وشاهدت مظاهر الحركة الوطنية التى بعثها مصطفى كامل، وقد تأثرت مما لقيته فى مصر من الحفاوة، وما شاهدته من عظمة آثارها القديمة، وكتبت فى جريدة (الجولوا) الفرنسية مقالة عن الأثر الأول لمشاهداتها، قالت فيها:

«إن أرض مصر تضم كل المدنيات السابقة، وسماء مصر هى أول سماء مزقت فيها السحب حيث سمح بذلك للانسان أن يشعر بوجود الخالق، ولم يعهد التاريخ أمة بلغت من القوة والعظمة ما بلغته الأمة المصرية حتى صبغت العناصر الأخرى بصبغتها، وبقيت فى آن واحد فى حالة الفطرة الأولى، مالكة نفسها على مر الزمان، ولم يتحكم الأجنبى فى أمة كما تحكم فيها، ولم تتخلص أمة من الأجنبى بصورة مستمرة كما تخلصت هى، وإن استرداد مصر لنفسها أمر تكرر إلى حد أنه صار قانونا فى تاريخها، وإنه ليمكن للإنسان أن يؤكد أن مصر ستبقى إلى الأبد مصر».

الإنعام على الفقيد بالباشوية

أنعم السلطان على الفقيد برتبة الباشوية فى مارس سنة ١٩٠٤، فصار يعرف بمصطفى كامل باشا، وقد كان لهذا الإنعام رنة فرح كبيرة فى الأوساط الوطنية وزادت مكانته رفعة وعلوّا لما للقب الباشوية من التأثير فى نفوس العامة والخاصة فى بلادنا.

* * *

الفصل العاشر

الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا

(٨ إبريل سنة ١٩٠٤)

وقع فى سنة ١٩٠٤ حادث سياسى خطير كان له أسوأ الأثر فى اتجاه المسألة المصرية، وكان بمثابة صدمة شديدة للحركة الوطنية، ونعنى به العهد المعروف «بالاتفاق الودى» المبرم بين فرنسا وانجلترا فى ٨ ابريل سنة ١٩٠٤.

كانت العلاقات بين الدولتين تزداد جفاء على أثر انسحاب فرنسا من فاشودة، فرأى بعض رجال السياسة فى كلتا الدولتين أن يسعوا فى إزالة أوجه الخلاف بينهما، لكى تقاوما نفوذ ألمانيا الآخذ فى الازدياد فى أوروبا والعالم، والذى كان يهدد مصالح الدولتين، وكان للملك ادوارد السابع الذى تولى عرش انجلترا سنة ١٩٠١ دخل كبير فى توجيه هذه السياسة، لما كان يشعر به من الميول نحو فرنسا، واعتبرت زيارته لباريس سنة ١٩٠٣ فاتحة عهد الاتفاق بين الدولتين، وأخذت الحكومتان فى تسوية المسائل المختلف عليها بينهما، وأسفرت مفاوضاتهما عن إبرام «الاتفاق الودى» بينهما فى ٨ ابريل سنة ١٩٠٤، وصار هذا الاتفاق عاملا مهما فى اتجاه السياسة الدولية، إذ كان تكملة للمحالفة بين فرنسا والروسيا لمقاومة التحالف الثلاثى بين ألمانيا والنمسا وإيطاليا.

وكان الجزء الخاص بمصر هو أهم نصوص هذا الاتفاق. فقد أعلنت انجلترا فى المادة الأولى منه بأنه «ليس فى نيتها تغيير الحالة السياسية لمصر» وتعهدت الحكومة الفرنسية من جانبها «بأن لا تعرقل عمل انجلترا فى هذه البلاد لا بطلب تحديد أجل للاحتلال البريطانى ولا بأى صورة أخرى». وهذا الالتزام من جانب الحكومة الفرنسية مقابل التزام الحكومة البريطانية أن لا تعرقل عمل فرنسا فى مراكش، وتعهدت الحكومة الفرنسية بأن توافق على مشروع الدكريتو الخديوى المرافق للاتفاق والمحتوى على الضمانات التى رؤيت ضرورية لصيانة مصالح حملة أسهم الدين المصرى. وأهم هذه

الضمانات تخصيص ضرائب الأطيان لخدمة الدين العام بدلا من الإيرادات المختلفة التى كانت مخصصة لها من قبل وهى السكك الحديدية والتلغرافات وميناء الإسكندرية والجمارك وأربع مديريات، وتعهدت الحكومة المصرية بعدم تخفيض ضرائب الأطيان إلى مادون أربعة ملايين جنيه فى السنة إلا بعد موافقة الدول. وفى مقابل ذلك ترك للحكومة المصرية المال الاحتياطى المتوفر فى صندوق الدين وقدره خمسة ملايين جنيه ونصف تتصرف فيه كما تشاء، واتفقت الدولتان على بقاء إدارة الآثار المصرية مسندة إلى عالم فرنسى، وتتمتع المدارس الفرنسية فى مصر بنفس الحرية التى تمتعت بها فى الماضى، وصرحت الحكومة البريطانية فى الاتفاق بأنها تستعمل نفوذها لكى لا تكون حالة الموظفين الفرنسيين الموجودين فى خدمة الحكومة المصرية دون حالة الموظفين الانجليز بها ومعنى هذا الاتفاق إقرار فرنسا للاحتلال البريطانى فى مصر، وعدو لها عن مطالبتها بالجلاء، وتبدو من ثنايا نصوصه وعباراته روح الحماية التى انتحلتها انجلترا على مصر، لأنها تعاقدت عنها وعن شئونها المهمة دون دخل لها، واتفقت عليها دون رضاها أو علمها، وهذا من أخص امتيازات الدولة الحامية.

تأثير الاتفاق فى مصر

كان هذا الاتفاق من المؤامرات الاستعمارية التى اتفقت عليها الدول الأوروبية لسلب الأمم واغتصاب استقلالها وحقوقها، وكان من نتائجه أن قوى مركز انجلترا فى مصر، وظهر تقرير اللورد كرومر فى أبريل سنة ١٩٠٤ فبدت فيه روح السيطرة، وتكلم فيه بلسان الحاكم المطلق التصرف، وطعن فى المصريين بأن رماهم بعدم الكفاية للحكم الذاتى، وكان من نتائجه المعنوية أن رجح فى نفوس الخاصة كفة اليأس، فتفشت فيهم نزعة الضعف والتخاذل والنفعية، والانصراف عن متابعة الحركة الوطنية، إذ رأوها تتعثر فى طريقها ولا تصادف نجاحا، ورأى أكثرهم أن الخير لهم فى الانضواء تحت لواء الاحتلال، فجنحوا لسياسة الخضوع والاستسلام وتمليق الانجليز، وابتغاء الزلفى لديهم، وسرت هذه الروح الهادمة للحركة الوطنية من صفوف الخاصة إلى طبقات العامة.

أثر للاتفاق فى نفس المترجم

أما مصطفى كامل فلم يتراجع أمام الاتفاق، ولم يتزعزع يقينه فى الجهاد، لأنه كان قد نفض يده عن مساعدة فرنسا منذ حادثة فاشودة سنة ١٨٩٨، تلك الحادثة التى أدت إلى انسحاب فرنسا فعلاً أمام انجلترا وتركها تفعل ما تشاء فى وادى النيل، وما كان اتفاق سنة ١٩٠٤ إلا توكيداً رسمياً لما سارت عليه فرنسا فعلا بعد حادثة فاشودة، فلا غرو أن قابل الفقيد هذاالاتفاق بالثبات والجلد، ومضى جهاده لا يلوى على شىء، وقد كان الحادث السياسى امتحاناً جديداً لعقيدته وثباته، فبرهن على أن وطنيته راسخة كالطود، ثابتة كالجبال، وبلغ بذلك قمة الوطنية الصادقة، واستثار فى النفوس من جديد روح الأمل والجهاد.

كتب فى هذا الصدد[١] يقول مخاطباً المصرى:

«انظر إلى الشعوب التى قد أصابها ما أصاب شعبك، تجد البولونى وقد مزق وطنه وعلت فيه كلمة دول ثلاث، يجد ويعمل مفكراً كل يوم بل كل لحظة فى بولونيا، يذكر تاريخها ويبكى أيامها الخالية، ويربى ابنه على حبها والتمسك بحقوقها، والفنلندى وقد لبس هو وبقية أفراد أمته ثياب الحداد يوم قررت الروسيا ضم جيش فنلندا لجيشها ومحو بقية استقلال هذه الأمة، والأيرلندى وقد عارض انجلترا فى ضغطها على بلاده، وسلبها لحقوقه؛ واستمر يعارض ويجاهد حتى حملها على تجريد اللوردات من أملاكهم بثمن بخس ورد الأراضى الأيرلندية إلى أصحابها الأصليين، وانظر إلى غيرهم وغيرهم، لتعلم أن الأمم كبيرة كانت أو صغيرة، حاكمة أو محكومة، لا تسمو فيها الأخلاق والصفات ولا ينشأ بينها رجال الفكر العالى والعمل الكبير إلا بالشعور الوطنى، فكل عامل على إطفاء نوره محارب لأمته وقومه وذويه، وكل داع إليه مجدّ فى سبيل الحياة القومية الصحيحة والرقى الخالد».

---

(١) اللواء عدد ١٨ أبريل سنة ١٩٠٤.

خطبة رياض باشا
فى احتفال مدرسة محمد على الصناعية

قلنا عن نتائج الاتفاق الإنجليزى الفرنسى إن طبقة الخاصة من الأمة قد ازداد فيها الضعف والتخاذل، والانصراف إلى المنافع الشخصية، وكان أول مظهر لبروز هذه الروح الهدامة للحركة الوطنية، خطبة رياض باشا رئيس الوزراء الأسبق فى الاحتفال بإنشاء مدرسة محمد على الصناعية، ذلك أن جمعية (العروة الوثقى) بالإسكندرية أقامت احتفالاً كبيراً يوم ٢٣ مايو سنة ١٩٠٤ لوضع الحجر الأساسى لهذه المدرسة، وقد رأس الخديو عباس هذا الاحتفال، فعظم شأنه، وصارت له صبغة رسمية، واتجهت أنظار الناس إلى ما يجرى فيه، وألقى رياض باشا أمام الخديو خطبة امتدح فيها اللورد كرومر، لغير مناسبة، وقد كان معتذراً لعدم حضور الاحتفال، كما امتدح الاحتلال، مما كان له وقع أليم فى النفوس، إذ قال ضمن خطبته بين يدى الخديو ما يأتى:

«جناب المحتشم اللورد كرومر اعتذر اليوم عن الحضور فى هذا المحفل لتغيبه عن مصر، كلٌ يعلم ما له من المقام الأرفع والنفوذ الشامل فى هذه البلاد، وبالأخص ما له من اليد الطولى فى كل ما له مساس بالمصالح والمنافع العمومية، فهذه اليد الفعالة قد شملتنا، وهى التى كانت لنا معواناً، بل متمماً ومكملاً لهذا المشروع، فحق علينا أن نعرف له هذه المبرة ونقدم لجنابه واجب الشكر ونثنى عليه أطيب الثناء، ولا نبرح أن نترجاه بألا يترك هذا المولود وهو فى المهد صبياً، بل يراعيه بعين عنايته ويواسيه ويواليه، إلى أن يتربى ويبلغ أشده ويصير رجلاً قوياً يقوم بأود نفسه.

«مولاى! اسمح لى أن أتكلم بما يخالج ضميرى بحرية، إذا نظرنا وتأملنا الآن إلى مجريات الأحوال وطبقنا ماضيها على حاضرها نجد أن الأحوال والأفكار قد تغيرت تغيراً كلياً، واتخذت لها مجرى جديد نحو التقدم والترقى وبث العلوم والمعارف وانتشارها فى كل بقعة من بقاع البلاد، وكل ما نراه أمام أعيننا من هذه المشروعات العلمية الأدبية والمؤسسات الخيرية الأهلية تتلو بعضها بعضاً لا نشك ولا نرتاب فى أنها أثر من آثار هذا الانقلاب، فلا حاجة بنا إلى أن ندخل فى موضوع الشرح والتأويل، ولا البحث

والتدقيق فى علل الأمور ومسبباتها، بل نكتفى الآن بأن ننظر بعين البصيرة والاعتبار إلى ما كنا عليه بالأمس، وما نحن عليه اليوم، ونهنىء أنفسنا ونتهلل بشراً ونسجد لله شكراً على ما وصلنا إليه من التقدم الباهر مستبشرين بما تدلنا عليه قرائن الأحوال بمستقبل زاهر».

قوبلت هذه الخطبة بالدهشة، إذ دلت على روح الخضوع والزلفى والاستكانة التى تفشت بين طبقة الوزراء والكبراء فى ذلك العصر، وهى الروح التى ضربت الذلة والمسكنة على البلاد سنين عديدة، وكانت أقوى سلاح استخدمه الاحتلال لرسوخ قدمه فى البلاد، هذه الروح التى كان يناهضها مصطفى كامل بكل قواه منذ قام يدعو إلى مقاومة الاحتلال، فلا غرو إذ ثارت نفسه لخطبة رياض باشا التى كانت إهانة كبرى للشرف القومى والحركة الوطنية، وما كان يُمكن لمصطفى كامل وهو حامل لـواء الوطنيـة أن يدع هذه الروح تنتشر فى النفوس فتميت فيها الشعور الوطنى وروح الجهـاد، فحمل على الخطبة حملة صادقة أيده فيها الرأى العام تأييداً قلبياً. وكتب عنها أول ما كتب مقالة تفيض وطنية واتزاناً واعتدالاً فى لهجتها قال فيها:

«يعرف قراء اللواء من أول نشأته أننا ضحينا فى كل الحوادث بميولنا الشخصية خدمة للمنافع العمومية، وأثنينا على أشخاص لا نميل إلى بعضهم، واستحكم النفور بيننا وبين البعض الآخر، وأطريناهم لأنهم قاموا للبلاد بخدمات مشكورة لاعتقادنا أننا نخدم الوطن لا أنفسنا ونعمل لرفعة شأنه وإعلاء قدره لا للتشفى والانتقام. وإن الواجب الأول على كل قائم بعمل عام وكل كاتب يجرى قلمه لصالح الوطن أن يكون منصفاً عادلاً، لا يبخس أحداً حقه، لما فى ذلك من التشجيع على الفضائل والأعمال النافعة والتنفير من الرذائل والنقائص.

«ويعرف أصدقاؤنا رأينا بشأن سياسة رياض باشا وأدواره وأطواره فى حكومة البلاد، وأننا تناسينا ذلك لما رأيناه يساعد جمعية العروة الوثقى ويشترك معها فى مساعيها الجليلة التى قوبلت بالارتياح العام والشكر التام من كافة المصريين، ولكن لم يكن يدور فى خلدنا أن دولته يتذرع بالعروة الوثقى ومساعيها الحسان ليتلمق الاحتلال والمحتلين ويشهر السلاح ليقتل به العواطف العالية، لا ليستخدمه لصالح البلاد كما شاء فضلاؤها الذين سلموه إياه.

«إن دولة رياض باشا قال ما لم يقله مصرى منذ اثنين وعشرين عاماً، وطعن الأمة طعنة قتالة، وسخر من أبناء وطنه جهاراً، وانتهز فرصة هذا العيد الوطنى المصرى ليرينا ويشهد العالم كله كيف يتقلب رجال السياسة وكيف يكون التناهى فى تمجيد المحكومين للحكام وعبادة الذين فقدوا استقلالهم لمضيِّعه وسالبيه.

«إذا كان دولة رياض باشا يريد أن يشرح الصفات الشخصية لجناب اللورد كرومر التى يعرفها محبوه وأعداؤه على السواء، فاحتفال أول أمس لم يكن ميداناً لشرح صفات الرجال السياسيين وأعمالهم، ولو كان يبتغى شكره على مائة الجنيه التى تبرع بها لمدرسة محمد على الصناعية، فنحن أول من يعترف بالجميل ويعلنه، ولكن ليست هذه الأقوال مما يقال للشكر والثناء، وكم من الناس تبرعوا بمثل هذا المبلغ، فلم يُذكروا مثل جنابه؟ وإذا كان المتبرع بمائة جنيه يستحق بهذا الثناء الهائل، فكيف نسى دولته من تبرع بمائة فدان (المنشاوى باشا) ولم يشر إلى عمله العظيم بكلمة واحدة؟ أليس هو الذى أحيا الجمعية حياة طيبة وسهل لها سبيل النجاح؟ لذلك لم يرتب أحد من الحاضرين والسامعين فى أن رياض باشا تعمد انتهاز هذه الفرصة للتقرب من المحتلين والتملق لهم وإعلان السياسة التى طالما أنكرها وتبرأ منها، وأجمع مريدوه قبل مبغضيه على أن حضوره فى حفلة وداع السير إلدون جورست أولا، وأقواله عن عميد الاحتلال فى حفلة مدرسة محمد على ثانياً، وتجنبه ذكر المنشاوى باشا لكراهة جناب اللورد له ثالثاً، دلائل كافية على ما يريده من التحبب إلى الإنجليز لتعود الوزارة إليه».

وقد ثار الرأى العام على رياض باشا لخطبته، وانهالت رسائل الاحتجاج ضده فى الصحف من مختلف الجهات، من الإسكندرية حتى أسوان، ودلت هذه الحركة على يقظة الروح الوطنية فى النفوس واستنكارها سياسة التملق للاحتلال وتمجيده.

خطبة الفقيد بالإسكندرية
(٧ يونيه سنة ١٩٠٤)

كان الموقف السياسى يستدعى خطبة من خطب الفقيد يحيى فيها العزائم ويحفز النفوس إلى الجهاد، رغم الاتفاق الإنجليزى الفرنسى الذى فتّ فى عضد الكثيرين

وبخاصة بعد خطبة رياض باشا التى أعلن فيها سياسة التملق للاحتلال.

فألقى خطبة وطنية كبرى فى الإسكندرية بمسرح (زيزنيا) مساء الثلاثاء ٧ يونيه سنة ١٩٠٤، جعل موضوعها (الموقف السياسى لمصر، وواجبات المصريين) بدأها بقوله:

«سادتى وأبناء وطنى الأعزاء:

«لقد وقفت بينكم هذا الموقف مراراً، وعرضت عليكم آرائى فى شئون الوطن ومصالحه تكراراً، ولكنى لا أظن أن الحوادث دعت المصريين فى وقت من الأوقات للنظر فى حاضرهم ومستقبلهم واستحثتهم لتبادل الأفكار فيما هم عليه وما يصيرون إليه كما دعتهم فى هذا الوقت الذى خاب فيه بعض الآمال، وتساءل الناس هل قضى علينا أم لا يزال لنا مخرج من هاتيك الظلمات، وطريق النجاة من ذلك الحكم الأجنبى، وتلك السيطرة الإنجليزية» ثم تكلم عن «الاتفاق الودى» وإئتمار انجلترا وفرنسا بمصر ومراكش، وحمل على السياسة الاستعمارية الإنجليزية والفرنسية، ثم عرج على سياسة الاستسلام التى يسلكها وزراء مصر وكبراؤها، وقال إن هذه السياسة كان لها دخل فى التحريض على هذا الاتفاق، لأنه لا يوجد فى العالم إنسان يخدم من لا يخدم نفسه ويدافع عن حق من تنازل عن حقه، وقد استسلمت حكومتنا للاحتلال استسلاماً أبعد عنها كل محب لها ميال لمساعدتها[٢]، فإذا لمنا الغير مرة على إغفاله حقوق الماضى وروابطه، وجب علينا أن نلوم أنفسنا ألف مرة، لأنه مهما كان ذلك الغير مقصراً فى واجباته الأدبية ومخالفاً لتقاليده التاريخية فإنه دون رجالنا تقصيراً ومخالفة».

واتخذ من عقد الاتفاق الودى دليلاً ساقته الحوادث على دحض مزاعم من كانوا يدعون أن القائمين بالحركة الوطنية محرضون من حزب الاستعمار الفرنسى، فقد بطلت هذه الدعوى، بعد أن أصبحت فرنسا صديقة لإنجلترا، ونحن نحن على حالنا ندافع عن المبادىء التى أعلناها للملأ كله من أول عهدنا بالسياسة إلى اليوم»

---

(٢) كانت وزارة مصطفى باشا فهمى تتولى الحكم فى ذلك العهد منذ نوفمبر سنة ١٨٩٥.

التضحية والثبات

ثم دعا إلى التضحية والثبات قائلاً:

«إن الذى يسمع صوت ضميره منادياً فى كل لحظة وآن بوجوب خدمة الوطن وإعلاء شأنه يشعر بأن دم آبائه الذى يجرى فى عروقه يطالبه بتضحية النفس لتلك الأرض الطاهرة التى لا شرف له إلا بها ولا حياة بغيرها، ولا رفعة بدون رفعتها، ولا مجد إذ زال مجدها، إن الذى يسمع ذلك الصوت ويشعر بهذا الشعور لا يخاف العقبات والموانع، ولا يخشى السباب والمطاعن، بل يسير فى طريقه ناظراً إلى الغاية التى طلبها والبغية التى تعلق بها، واجداً من سهام الأعداء ما يجده الجندى فى جراح الحرب من شرف وفخار».

الوطنية لا تنثنى أمام العقبات

«سخر أعداؤنا من الوطنية التى ننادى بها وندعو الأمة إليها، وقالوا ما شاء الحقد والعداء، ومن تخلى فؤاده عنها وجهل حقيقتها جازله أن يقول فيها ما قال مالك فى الخمر، ولكننا نرى أن محبة الأوطان ليست مما تميل النفس إليه ساعة ثم تنفر منه ساعة، أو وسيلة للكسب تنقضى بانقضائه، إنما الوطنية شعور ينمو فى النفس ويزداد لهيبه فى القلب ويرسخ فى الفؤاد كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه واشتدت كربته، فإذا كنا افتخرنا بهذا الإحساس العالى وتباهينا به ورمينا كل من جهله أو تجاهله أو خالفه بالخيانة أيام كنا نؤمل الخلاص القريب والجلاء العاجل، فخليق بنا أن نتعلق به اليوم أضعاف تعلقنا به بالأمس، ونقول لهذا الوطن الأسيف: «كلما تمكن العدو منك تمكن حبك من القلوب وتعددت واجباتنا نحوك واشتد تمسكنا بحقوقك».

«أجل أيها السادة! لا حياة لأمة من الأمم بغير الوطنية الحقة، ولا معنى للعيش بدونها، ولا تتجدد الآمال وتقوم الأعمال إلا بها، لقد كانت أمم أخرى أتعس منا حالاً، ودوننا رقياً وتقدماً، يحكمها الأجنبى بيد من حديد، ولا تجد من أفرادها عالماً يرشدها أو كاتباً ينصحها أو مربياً يقودها، ثم ناداها منادى الوطنية وظهر فيها من ينبهها إلى هذه

القوة الكامنة وذلك الكنز المدفون، فقامت بعد الرقاد الطويل ونهضت بعد السكون المديد، وعملت بعد الكسل والخمول وتخلصت من قيود الاستبداد والاستعباد بعد أن ذاقت مرارة الظلم والاضطهاد الأعوام والقرون».

الاستقلال والاحتلال

«يسألنا أنصار الاحتلال فى الصباح والمساء، ماذا عملتم بوطنيتكم، وأى فائدة عادت على القطر منها؟ وهل رددتم إليه حقاً أو استرجعتم منصباً، أو أوقفتم الاحتلال فى طريقه وحولتم تياره الجارف؟.

«يسألنا الاحتلاليون ذلك تغريراً بالأفهام، وهم يعلمون أننا لم نكن وزراء للبلاد بأيدينا الحل والعقد، أو ساسة فى المناصب نناقش الاحتلال فى مصالح الوطن ومطالبه، بل نحن قوم أحرار نخاطب الأمة ونوجه مساعينا إليها، نقول لها على مسمع من العالم كله أنها لا تكون حائزة لصفات الأمم الراقية والشعوب القادرة، إلا إذا كان الشعور الوطنى متمكناً من نفوس صغارها وكبارها، لأنه أقوى الروابط وجامعة الجوامع، نقول لها ونكرر القول إن مصدر المصائب التى حاقت بوادى النيل كان جهل أمته لحقوقها وواجباتها، وانحلال أجزائها بموت الشعور الوطنى فيها، نقول لها ونقيم البراهين على صحة دعوانا أن الاستقلال وحده هو الذى يحمى البلاد والممالك من كل بلاء، ويدفع عنها اعتداء الغير ويرقى ملكة الأفراد ويهب الشعوب الحرية والحكومة الدستورية والسيادة الداخلية والخارجية، نقول لها إن الاحتلال عار على الأمة وشنار على كل واحد من أبنائها، وإنه حجة إلى عدم كفاءتها ودليل على نقص مداركها وعدم استعدادها، وإن الإنجليز لا يعملون لصالحها مهما ادعى المدعون، لأننا لم نسمع ولم يرو التاريخ، أن أمة قامت بخدمة أمة أخرى وأن مغتصباً لملك سعى لرده إلى صاحبه».

ثم تكلم الخطيب عن ثمار الشعور الوطنى الذى دب فى الأمة، وما ظهر من نتائجه فى رقى الأمة وأخذها بأسباب النهوض واتساع حركة التعليم القومى وبذل الأفراد والجماعات أموالهم للمنشئات العامة وظهور قوة الرأى العام فى اتجاهه إلى التعلق بالاستقلال والسخط على الاحتلال.

سياسة الاحتلال

وتكلم عن سياسة الاحتلال وما ترمى إليه من قتل الروح الاستقلالية فى الأمة، قال:

«إنما تتقدم الأمم وترقى بالتربية والتعليم وبوجود الرجال العقلاء الكبراء ذوى الأفكار الرشيدة الذين يقودونها ويدلونها على منافعها وطرق الارتقاء، فماذا عمل المحتلون لذلك؟ هل يستطيعون أن يدعوا أنهم رقوا البلاد وأخرجوا لها رجالا قادرين على قيادة أمورها وإرشادها؟

«أليسوا يحاربون فضلاءها وكل ذى استقلال فيها ويمسخون التعليم فى مدارسها مسخاً، ويمحون تربية النفس محواً، ويقتلون لغة البلاد قتلاً، ويضطهدونها فى شعورها ووجدانها؟ فماذا ينفع المال إذا بقيت الأمة متأخرة جاهلة قاصرة المدارك؟

الوطنية والجهاد والدعوة إلى الاتحاد

وختم خطبته بالدعوة إلى الاتحاد وبث روح الوطنية فى النفوس، والجهاد فى سبيل الاستقلال قال:

«أيها السادة. إن ازدياد الثروة المصرية، وانتشار التربية والتعليم، وارتقاء الصحافة وغير ذلك من الأمور الحيوية التى ينشرح لها الخاطر وتنبسط لها النفس، لا ترفع للأمة مقاماً ولا تعلى لها شأناً إذا لم تكن الوطنية نبراس الأفراد والجماهير، وغذاء الأرواح والنفوس، فليجعل كبيركم وصغيركم نصب عينيه الاستقلال، لأن الحياة بغيره عناء وعذاب، وإنكم مهما بلغتم من سعة العيش ووفرة المال وارتقاء فى المراتب لا ترى فيكم الأمم الرشيدة إلا أنها قاصرة إذا دام الاحتلال فاعملوا للاستقلال واجعلوه أنشودتكم التى تترنمون بها على الدوام، وتركوا محبته كأثمن وأقدس ميراث، ولا تعدوا السنين عليه، لأن ما تجدونه طويلاً فى حياة الفرد منا يعد يوما أو بعض يوم فى حياة الشعوب، ونقوا بأننا بالغوه، لأن الله الذى يعاقب الشعوب المنقسمة على نفسها بسلبه، يكافئها برده متى اتحدت واتبعت إرادته وعلمت أنه خير ما وهب الرحمن للإنسان».

وقد قوبلت الخطبة بالتصفيق والإعجاب والحماسة والهتاف العالى من الحاضرين الذين كان يبلغ عددهم أربعة آلاف، فتأثر الخطيب من هذه المظاهرة الرائعة، وشكرهم شكراً مكرراً قائلاً لهم: «إنى أعد التفاتكم إلىّ وتعضيدكم لى ديناً علىّ، ربما أعجز عن الوفاء به، ولكنى أقابلكم على هذا الالتفات وهذه العناية بأن أكون فى المستقبل كما كنت فى الماضى: خادم الوطن الأمين».

وكان الاجتماع نجاحاً باهراً للفقيد، كما كان لخطبته دوىٌّ كبير فى المحافل والدوائر الوطنية والأوروبية لأنه كان أول صوت جهير لمصر ارتفع بعد الاتفاق الودى الإنجليزى الفرنسى.

وقد وصفت جريدة (البصير) التى تصدر بالثغر الاجتماع والخطبة بقولها: «كانت ليلة أمس من الليالى المشهودة فى مدينة الإسكندرية، وذلك للخطبة الغراء التى ألقاها سعادة رصيفنا الفاضل مصطفى باشا كامل، ولقد كان حضورها عديدين جداً، حتى لا موطىء لقدم، ولكن النظام كان شاملاً والسكوت تاماً، وقد تكفل جمال الخطبة وحسن انتساقها بحفظ ذلك النظام، ولعل هذا الوصف خير ما يقال فيها» ثم جاءت على مشتملات الخطبة، وختمت الكلام بقولها: «وعلى الجملة فإن الخطبة بمعناها كانت من خير ما يقال فى هذا العهد، وهى جديرة بأن تقابل بمثلها من جهة الفعل، فنرى فى بلادنا أكثر من منشاوى باشا وأكثر من جمعية العروة الوثقى وأكثر من صاحب اللواء يقوم خطيباً، وعند ذلك يتم كل مأمول بإذن الله وبشريعة التدريج».

وتردد صدى الخطبة فى الخارج، نشرت جريدة (الفيجارو) الفرنسية تلغرافاً من مراسلها بالإسكندرية جاء فيه:

الإسكندرية فى ٨ يونيه سنة ١٩٠٤

«ألقى مساء أمس مصطفى كامل باشا الخطيب المصرى وصاحب (اللواء) خطبة سياسية كبرى فى الإسكندرية أمام جمهور من المصريين يزيد على ثلاثة آلاف شخص، وقد قوبلت هذه الخطبة بالتصفيق الشديد، وأكد الخطيب أن المصريين متعلقون الآن بالاستقلال الأهلى أكثر من ذى قبل. وقال: «إن مصر بالغة مكانتها فى العالم عاجلاً أو آجلاً بفضل التعليم والتقدم الفكرى». وقد صفق الحاضرون تصفيقاً حاداً لمصطفى كامل باشا الذى يعتبره أبناء وطنه حامل لواء الوطنية المصرية».

ظهور كتابه عن اليابان (الشمس المشرقة)

وفى يونيه سنة ١٩٠٤ ظهر كتابه (الشمس المشرقة) عن اليابان، وضعه لمناسبة الحرب الروسية اليابانية، وما ظهر فيها من عظمة اليابان التى بهرت العالم بتقدمها ووطنيتها، وقصد الفقيد من تأليف هذا الكتاب أن ينظر المصريون بعين الاعتبار إلى الأمة اليابانية التى لم تكن شيئاً مذكوراً أيام كانوا أصحاب الحول والطول، ثم صارت بفضل اتحادها ووطنيتها موضع إعجاب العالم، ووثبت إلى الصف الأول من الأمم القوية العالية المقام، وأراد أن يبين للشعب كيف ترقى الأمم المتمسكة بأهداب الوطنية.

الاحتفال بعرض الجيش الإنجليزى فى ميدان عابدين

كان من عادة الإنجليز أن يحتفلوا بعيد مولد الملكة فيكتوريا ثم عيد الملك إدوارد السابع بعرض الجيش البريطانى بميدان عابدين برياسة اللورد كرومر، ولم يكن الخديو عباس يحضر هذا الاحتفال. ولكنه بدأ يحضره لأول مرة فى عيد ميلاد الملك إدوارد السابع يوم ٩ نوفمبر سنة ١٩٠٤، إذ جاء الميدان مرتدياً بدلة التشريفة الكبرى، يحيط به ياورانه، ووقف تحت العلم البريطانى بجوار اللورد كرومر، وشهد العرض حتى نهايته، فكان لحضوره هذا الاحتفال الذى يمثل الاحتلال الأجنبى تمثياً مهيناً للكرامة القومية أثر أليم فى النفوس، وكان موضع انتقاد الوطنيين فى مجالسهم وأحاديثهم، مما اضطر (المعية)[٣] إلى إصدار بلاغ رسمى تنسب فيه حضوره إلى مصادفة وجوده بسراى عابدين يوم العرض، قالت فيه:

«لما كان من المقرر أن يشرف الجناب العالى الخديوى فى صبيحة أمس سراى عابدين العامرة حيث ينعقد مجلس النظار برياسة سموه ويتناول حضرات العلماء الأعلام طعام الإفطار على المائدة ثم يتلو ذلك استقبال المهنئين بالمقدم السعيد وبحلول شهر رمضان المعظم. وكان هذا اليوم مصادفة هو عيد ميلاد جلالة ملك الإنجليز رأى الجناب العالى

(٣) كانت كلمة المعية تطلق وقتئذ على حاشية الخديو.

حفظه الله أن يحضر الاحتفال المعتاد إجراؤه سنويا فى رحبة السراى لمناسبة هذا العيد، كما كان ذلك من عادة المغفور له الخديو السابق، وما وصلت هذه النية إلى علم جناب اللورد كرومر حتى بادر فدعا الجناب الخديوى ليستعرض الجنود الإنجليزية فتلقى سموه هذه الدعوة بالقبول والارتياح.. الخ»

والأمر الطريف فى اعتذار المعية أنها نسبت حضور الخديو الاحتفال إلى (المصادفة)، كأنه لم يكن معلوماً من قبل أن هذا اليوم هو عيد ميلاد الملك إدوارد السابع، وأن حفلة العرض ستحصل فيه، وأضعف من ذلك فى الاعتذار أن البلاغ الرسمى يلمح إلى أن الخديو توفيق باشا كان يحضر العرض، وهو عذر غير مقبول، لأن الخديو عباس لم يتبع سياسة أبيه منذ ولايته العرش، ولم يفكر فى اتباع عادته فى حضور العرض البريطانى إلا فى سنة ١٩٠٤، وهذا يدل على تغيير جوهرى فى سياسته عقب الاتفاق الإنجليزى الفرنسى، وجنوحه إلى الخضوع للاحتلال، تلك السياسة التى بدأ يتبعها منذ وقعت حادثة فاشودة سنة ١٨٩٨، ثم ظهرت بمظهرها العلنى فى حضوره استعراض جيش الاحتلال، فكأنه أراد أن يعلن بحضوره ولاءه للاحتلال وسياسته.

ومما يدل على أن الاعتذار بالمصادفة فى بلاغ المعية لا صحة له، أن الخديو قد حضر العرض البريطانى للمرة الثانية فى نوفمبر ١٩٠٥، ووقف تحت العلم الإنجليزى، بين قائد جيش الاحتلال واللورد كرومر، وشهد العرض حتى نهايته.

قال (اللواء) فى هذا الصدد:

«وهذه هى المرة الثانية التى وقف فيها سمو الخديو هذا الموقف بصفة رسمية، ولما جرى ذلك فى العام الماضى وشعرت «المية» بدهشة الناس من هذه الحركة الجديدة فى سياسة مصر نشرت فى الصحف بلاغا (وأتت على نصه)، إلى أن قال:

هذا بلاغ السنة الماضية، وإذا كان من الصعب تحميل «المصادفة» مسئولية هذا الحادث مرتين، فمن المرجح أن المعية لا تنشر بلاغاً فى هذا العام وتفضل السكوت على الكلام...».

ثم وقعت حادثة دنشواى فى يونيه سنة ١٩٠٦، وأعقبها فوز الحركة الوطنية واشتداداً السخط على سياسة الاحتلال بفضل حملات مصطفى كامل، فكان من نتائج ذلك عدول

الخديو عن حضور العرض فى نوفمبر سنة ١٩٠٦، ونوفبر سنة ١٩٠٧، وقد علقت الصحف الأوروبية على هذا العدول وفسرته بأنه وقع بتأثير الحركة الوطنية، قالت جريدة (الامبرسيالى) الإيطالية فى هذا الصدد: «ولعل سمو الخديو أراد بإطالة إقامته فى الإسكندرية العدول عن الخطة التى اتبعها فى عام ١٩٠٤ بعد أن لبث على عرش مصر إثنى عشر عاماً، فهل فازت الصحافة الوطنية بنصائحها واحتجاجاتها».

زيارات اللورد كرومر للأقاليم

وكان من نتائج الاتفاق الانجليزى الفرنسى أن أخذ اللورد كرومر يظهر بمظهر صاحب السيطرة والحكم النافذ فى البلاد، بعد أن كان يكتفى بتحريك الأداة الحكومية والسيطرة على البلاد من ورائها.

ومن علامات هذا المظهر الجديد زياراته لعواصم المديريات، فكان يقابل من المديرين وبعض كبار الأعيان بالحفاوة والإكرام، مما يقابل به الملوك ورؤساء الدول.

زار الفيوم فى فبراير سنة ١٩٠٥، فقابله المدير محمد بك محب والأعيان والعمد، وخطب فيهم، متكلما عن مشروعات الحكومة وأعمالها باعتباره صاحب النفوذ الفعلى فيها، فتكلم عما تبذله الحكومة فى مكافحة الجراد وإبادة دودة القطن، وإنشاء صناديق التوفير وما إلى ذلك من المسائل الداخلية الحكومية وشكره أحد الأعيان بالنيابة عن المديرية على زيارة الفيوم وعلى النصائح التى ألقاها عليهم، وزار دور الحكومة كالمستشفى الأميرى، والمدرسة الأميرية، ثم زار المركز والسجن والمجلس البلدى؛ وكان فى إنتظاره أعيان المدينة؛ ثم المحكمة الأهلية حيث استقبله القضاة وأعضاء النيابة، ثم شرب الشاى فى دار المدير، وكان الموظفون وكبار الأعيان فى ركابه.

وكان الأعيان الموالون للاحتلال يترددون من قبل فى إظهار ولائهم له، فلما أبرم الاتفاق الودى سفروا فى ولائهم وتسابقوا فى إبتغاء الزلفى لديه.

وقد كان ظهور اللورد كرومر بهذا المظهر من الحوادث المؤلمة المهينة للكرامة الوطنية، المعرقلة للحركة القومية، كتب اللواء فى هذا الصدد بقول[٤] «ظهر جناب اللورد كرومر

---

(٤) عدد ٦ فبراير سنة ١٩٠٥

أول الأمس بمظهر جديد لم يره فيه المصريون من أول عهد الاحتلال إلى اليوم. حيث ترك تسيير السفينة المصرية من وراء الوزارة المصرية، وتقدم بنفسه إلى الجماهير يخاطبهم فى الشئون العامة ويلقى عليهم النصائح والأوامر، ويجمع العمد والأعيان بين يديه ليسمعهم ما يريد، فجناب اللورد كرومر أراد أن يفهم المصريين الآن أن "سياسة التستر والانكماش والعمل وراء ستار قد انقضى عهدها ومضى زمانها، وأن المحتلين يقدرون المسئولية ويتحملونها جهاراً».

وكتب مصطفى كامل فى لواء ٧ فبراير سنة ١٩٠٥ ينعى هذه الحالة بقوله:

«لا يسع المصرى المحب لبلاده إلا أن يحزن أشد الحزن على المركز التعيس الذى وصلت إليه البلاد، ويندب استقلالا مزقته يد الزمان، وإنى لا أدرى بأى آذان سمع القوم أقوال اللورد كرومر، وماذا كان يختلج ضمائرهم إذ ذاك؟ وهل شعروا بأنه بحركته هذه أعلن موت السلطة المصرية؟ اللهم إنى لو كنت بين تلك الجموع التى أصغت لأقواله لذبت أسى وكمداً وقلت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً، لأن وقفته هذه ليست إلا إعلانا قطعياً بأنه صار صاحب الحل والعقد والأمر والنهى الذى لا يعارَض فى شىء».

واستمر اللورد كرومر فى رحلته الاحتلالية، فزار المنيا فأسيوط فأبوتيج فنجع حمادى، حيث كان يستقبله المديرون والأعيان بالحفاوة البالغة.

تقارير اللورد كرومر

ولقد كان من نتائج «الاتفاق الودى» أن تقارير اللورد كرومر السنوية التى كان يرفعها إلى الحكومة البريطانية عن شئون مصر والسودان أخذت تزداد منزلة ومكانة بحيث صارت من أهم الوثائق عن أحوال مصر السياسية والاجتماعية والإدارية وصار لها من الشأن ما لتقارير حكام المستعمرات الانجليزية، وكان يخوض فيها فى كل ما له مساس بشئون الحكومة المصرية والبلاد، مما لا يصدر إلا عن صاحب السيطرة والنفوذ الفعال فى الحكومة، وكتب فى تقريره الذى ظهر فى مارس سنة ١٩٠٥ أن وعد بريطانيا بالجلاء عن مصر كان قبل أن تعلم الحالة فى مصر تماما، فلما عرفتها علمت أن وعدها كان فى غير محله وأن تنفيذه يفضى إلى أضرار جسيمة!!

تعيين ياور إنجليزى للخديو

وبلغ من تدخل الانجليز فى المعية الخديوية وإستسلام الخديو عباس لسياسة الاحتلال أن عين فى تلك السنة (سنة ١٩٠٥) ياور إنجليزى للخديو وهو الكولونيل وطسن باشا.

ظهور كتاب (المصريون والانجليز)

Egyptiens et Anglais

جمع الفقيد فى صيف سنة ١٩٠٥ خطبه التى ألقاها عن المسألة المصرية، والرسائل التى تبودلت بينه وبين كبار الساسة، وترجمها إلى الفرنسية، وطبعها بباريس كتابا ظهر فى ديسمبر سنة ١٩٠٥ بعنوان (المصريون والانجليز) فى ثلثمائة وعشرين صفحة، ثم وزعه فى كل جهات العالم، ليعرّف الأمم كافة بالحركة الوطنية المصرية، وميول المصريين، وحقيقة مقاصد الحزب الوطنى، فكان خير دعاية عالمية للمسألة المصرية، وقد وضعت مدام جولييت آدم مقدمة هذا الكتاب، ومما قالته عن الفقيد:

«إنه يجاهد بكل الصور والأشكال ضد «اليأس والقنوط» و «عدم الاكتراث بشئون البلاد» و «قلة الوطنية»، تلك الآفات الثلاث التى تهدد مصر كما تتهدد فرنسا نفسها، والتى هى أشد خطراً على الأمم من المغيرين».

وقالت فى موضع آخر عن الحركة الوطنية:

«إنى أنا التى رأيت مصر وأدركت أسرارها وأحببتها وأعجبت بها، أعتقد بخصوبتها العقلية الأهلية الأبدية الخالدة كآثارها الفخمة، تلك الخصوبة المستعدة لأن تنتج أكبر النتائج بفضل معارف الوطنيين من أبنائها، كما يرى الإنسان خصوبة أرضها ظاهرة ومحصولاتها ناضجة فى أسابيع معدودة بفضل فلاحيها».

وكتبت الصحف الأوروبية نبذاً كثيرة عن الكتاب ومناحيه، ومن أبلغ ما نشر فى هذا الصدد مقالة طويلة بليغة بالفرنسية فى جريدة (الجورنال دى كير) بدأها كاتبها بشعار الفقيد (أحرار فى بلادنا، كرماء لضيوفنا)، ومما قال فيها:

«لا أريد أن ألخص الكتاب أو أنتقده اليوم، وليست هذه مهمتى، فانى سائح أجوب هذه البلاد، ولكن مصر ليست الديار التى يجوبها الإنسان دون أن يتعلق بها، ولقد أكد لى البعض أن من يرى مصر مرة لابد أن يعود إليها، فهل سأكون أنا إستثناء لهذه القاعدة؟» إلى أن قال:

«قرأت هذه الخطب التى ألقيت الأولى منها عام ١٨٩٥، والأخيرة عام ١٩٠٤ فهى عشر سنوات من حياة الخطيب، جمعت واختصرت فى هذه الصحائف، وإن عشر سنوات قضيت فى العمل والسعى والجهاد بلا ملل ولا خور فى العزيمة لجديرة بأن يقف الإنسان أمامها، ولقد وقفت بإزائها واختبرتها وقلبتها، وما رأيت فيها وما إستطعت أن أرى إلا الإعراب عن أشرف وأطهر وطنية، إن فيها قوة وحدّة، وروح الشباب والأمل تملأ هذه الصحائف وتهزها، وتشعر اليد بارتعاش عند تقليبها، وإن القارىء عندما يطالع هذه الخطب لا يقرأها فى الحقيقة، بل يسمعها، لأنها بالغة الغاية فى الحياة، ورغما عن هذه الحرارة وتلك النار المشتعلة؛ ورغما من الحدّة التى تلازم كل حب شديد، قد إستطاع هذا الخطيب الشاب أن يحافظ دائماً على الاعتدال، ويقف عند الحد الواجب، فهو حادّ اللهجة، وفى عباراته حركة شديدة أحيانا، بحيث يشعر بأنها تجرى وتعدو وتدّوى كالسيل الجارف وقت ذوبان الثلوج، فيخيل إلى الإنسان أنها ستأخذ فى طريقها كل شىء، ولكن السد الذى أقامته نفس شريفة وفكر عال موجود، فعبارات الخطيب تغلى كالماء ثم تجرى واضحة رائقة تطرب القلوب، وتنزل برفق ويتسع مجراها، وتروى وتلطف ما تمر عليه، وهناك أمر آخر يستوجب دهشتى، وهو أن هذه الحياة واحدة منسجمة متصلة، فهى خط مستقيم لا انقطاع فيه، فترى من أول خطبة إلى آخر خطبة ضميراً واحداً، وروحاً واحدة، ليس فيها تناقض ولا خطوة واحدة فى غير موضعها، وإلى مثل هذا ينتهى التعقل والصراحة الطهارة، وهو مثال يكاد يكون وحيداً، وسيكون لهذا الكتاب فى أوروبا رنة طويلة دائمة، لأن كل ذى عاطفة وطنية يشعر بها ويقدرها هناك، قد يختلف البعض مع الخطيب فى أفكاره ويحكمون على هذه المسألة أو تلك حكما مخالفاً لحكمه، ولكن إذا كان هذا الرجل وطنياً يقول وينادى بكل قوته بحبه لبلاده، ويعلم الجميع أنه يهبها شبابه وحياته[٥] فلا جدال فى أن القوم فى أوروبا يطأطئون له الرؤوس احتراماً له، ولو كانوا

---

(٥) نشرت هذه المقالة فى يناير سنة ١٩٠٦ وتوفى الفقيد فى فبراير سنة ١٩٠٨.

صوماً له أو أعداء»، إلى أن قال:

«إن الوطنى المصرى إذا أفلح لا يفلح بغير تعريض نفسه للخطر، فهو معرض له كثر من الأوروبى لضعفه وقلة الشعور الوطنى فى بلاد لم تتعود حكم نفسها بنفسها، نعم و معرض للخطر أكثر من الأوروبى، وإن عمله أتعب وأصعب، فهو لا يجب عليه فقط ن يتكلم أمام الجماهير كما يفعل الخطيب الأوروبى بل هو مضطر لتربية هذه الجماهير تعليمها، وتدريبها على الفكر والاحساس، وهو مطالب أكثر من غيره باحتراس وحذر حو بنى وطنه ونحو الأجانب، وإنى أتوجع لعنائه بقدر إعجابى به، ومهمته لا تعود عليه لآن بالفائدة، فلابد من نفس كبيرة امتلأت بحب الوطن، وأخلاق قوية متينة، ليستطيع شاب أن يكرس حياته كلها لبلاده غير طالب شيئا آخر سوى عظمتها وسعادتها إستقلالها!»



الفصل الحادى عشر

نادى المدارس العليا وتطور الأفكار

(سنة ١٩٠٥ و١٩٠٦)

تفتحت فى قلوب الشباب زهرة الوطنية التى أنبتتها دعوة مصطفى كامل، وأخذ
تجيش بالشعور الوطنى وتتحرك نحو أغراضه وأهدافه، وبدأت علائم اليقظة والحيا
تظهر فيهم بشكل عملى سنة ١٩٠٥، وكان أول مظهر لهذه الحياة الجديدة أن فكر طائفة
منهم فى إنشاء ناد للمدارس العليا، يجمع بين طلبة هذه المدارس ومتخرجيها.

كان هذا النادى من أعظم مظاهر الحركة الوطنية فى ذلك العصر، وصار بمثابة معه
وطنى علمى أخلاقى تكوّن فيه جيل من خيرة الشباب المصرى، وفيه ظهرت حرك
فكرية قومية أنتجت على توالى السنين عدة مشروعات جليلة كان لها فضل كبير عل
النهضة الوطنية، فقد ظهرت فيه قوة التسبيبة ووحدتها، وإمتزج الطلبة بالمتخرجين
فاكتسبوا بهذا الاتصال النضج الفكرى والمعنوى، وفيه ألقى أعلام الفكر والعل
المحاضرات القيمة فى مختلف العلوم والفنون، وفيه تأسست جمعية رعاية الأطفال وف
قاعاته إجتمعت وقتا ما لجنة إنشاء الجامعة المصرية، وفيه تأسست مدارس الشعب
فأنشئت عدة مدارس لتعليم العامة، وقام أعضاء النادى بالتدريس فيها، وفيه نش
مشروع النقابات الزراعية على يد المرحوم عمر بك لطفى، وفيه أخذ الطلبة يروضو
أنفسهم على الأخلاق والفضائل والتضامن، وكان فوق ذلك معهداً قومياً لنشر المبادى
الوطنية الصادقة وبثها فى نفوس الجيل.

التفكير فى إنشاء النادى

(سنة ١٩٠٥)

بدأ التفكير فى إنشاء النادى سنة ١٩٠٥، وتألفت لجنة لتأسيسه فى أكتوبر من تلك

السنة برياسة الدكتور عبد العزيز نظمى بك، فأخذت تجمع الاكتتابات لتكوين رأس ماله، وعضدها (اللواء) فى مهمتها، وحث الفقيد الأغنياء على المساهمة فى الاكتتاب فيه، قال فى عدد ١٩ أكتوبر سنة ١٩٠٥:

«نرى من أوجب الواجبات إعانة هذا النادى ممن يقدرون العلم وذويه، ولذلك نود أن يقتفى الكبراء والعظماء والوجهاء أثر الذين جادت نفوسهم بما تبرعوا به لهذه الغاية الشريفة حتى الآن، وبقدر ما يتبرع الواحد لهذا النادى المحرومة منه هذه البلاد تعلم قيمة العلم عنده كثرة وقلة، فنستنهض همم السراة لمدّ يد المعونة إلى هذا النادى الذى سيكون محط رحال أبنائهم».

وقد بلغ ما جمع لتأسيسه مع ربح ليلة تمثيلية أقامتها اللجنة بدار التمثيل العربى ٢٨١ جنيها، وذلك إلى آخر نوفمبر سنة ١٩٠٥.

أول جمعية عمومية للنادى

واجتمعت أول جمعية عمومية للنادى بهيئة جمعية تأسيسية يوم الجمعة ٨ ديسمبر سنة ١٩٠٥ بإحدى قاعات مدرسة الطب لانتخاب مجلس إدارة النادى، وبلغ عدد الحاضرين من الطلبة مائتى طالب، من مختلف المدارس العليا، وكذلك حضره لفيف من المتخرجين، وقد اشتركتُ فى هذا الاجتماع إذ كنتُ طالباً بمدرسة الحقوق ومن المشتركين فى تأسيس النادى، وأسفرت عملية الانتخاب عن اختيار المرحوم عمر بك لطفى رئيسا للنادى، وكان من خاصة أصدقاء الفقيد، وموضع الاحترام بين مواطنيه، فأسبغت رياسته على النادى مهابة واحتراما، وانتخب هو وعبد الخالق بك ثروت (باشا) عضوين بالمجلس عن متخرجى مدرسة الحقوق، وأمين سامى بك (باشا) وأحمد عزى بك عن متخرجى مدرسة المهندسخانة، والدكتور عبد العزيز بك نظمى والدكتور عبد المجيد محمود عن متخرجى الطب، ومحمد على دلاور بك وعلى حسنى المصرى عن متخرجى مدرسة المعلمين والألسن، واسماعيل افندى زهدى (بك) وأحمد أفندى أمين (بك) عن طلبة الحقوق، وحافظ افندى عفيفى (باشا) وفؤاد أفندى صدقى عن طلبة الطب، وسامى أفندى عصمت (بك) ونجيب أفندى مرتضى عن طلبة المهندسخانة، وأخذ مجلس الإدارة



حفلة افتتاح نادى المدارس العليا – ٥ ابريل سنة ١٩٠٦ (انظر ص ١٩٧)

وترى فى الصدر: المرحوم عمر بك لطفى رئيس النادى وعن يمينه المرحوم عبد الخالق ثروت باشا وعن يساره المرحوم حسن بك رضا. والمرحوم على بك حسنى المصرى. المرحوم اسماعيل بك زهدى. المرحوم أحمد بك أمين المستشار. سامى بك عصمت. ومن الجالسين فى الصف الأول الدكتور عبدالعزيز نظمى بك. محمد بك على دلاور. ومن الجالسين فى الصف الثانى المرحوم هارون سليم باشا المرحوم الدكتور محمود فتحى المحامى – الأستاذ السيد حسين. ومن الجالسين الصف الثالث عبد الرحمن بك الرافعى. مصطفى بك الشوربجى المستشار. الدكتور أحمد بك سعيد. الدكتور سيد بك شكرى. هاشم بك مهنا. وهيب بك دوس. نبيه بك سلام... إلخ

بوالى جمع الاكتتابات من الطلبة والمتخرجين ويعد معدات افتتاحه حتى اكتملت هذه المعدات فى مارس سنة ١٩٠٦.

افتتاحه

واتخذ النادى داراً له بالمنزل رقم ٤ بشارع قصر النيل بالقرب من (سافواى أوتيل) القديمة، وافتتح يوم الخيمس ٥ أبريل سنة ١٩٠٦ وكان الاحتفال بافتتاحه يوماً مشهوداً، إذ حضره الأعضاء المشتركون فيه من الطلبة والمتخرجين، وكان الطلبة هم قوام النادى، وحضر الاحتفال من رجال الحكومة حسين فخرى باشا وزير المعارف وقتئذ ويعقوب ارتين باشا وكيلها «والمستر دنلوب مستنسارها، والمستر متشل انيس وكيل وزارة المالية. ومحمود صدقى باشا محافظ العاصمة ونظار المدارس العليا ووكلاؤها، وخطب فى الاحتفال عمر بك لطفى رئيس النادى معلنا افتتاحه، ثم أعقبه فخرى باشا وزير المعارف فألقى خطبة ترحيب بتأسيسه، ولما أتم خطبته صدحت الموسيقى العسكرية وطاف المدعوون بغرف النادى وأبهاءه فأعجبوا بحسن تنسيقه ونظامه، وكان بناء فخما، تحيط به حديقة غناء، وبه غرف واسعة. بعضها للجلوس، وبعضها لتلاوة الصحف والمجلات، وبعضها للبليارد والألعاب المباحة، وفيه غرفة فسيحة للمكتبة جمعت عددا كبيراً من الكتب العلمية النفيسة، وكان من مبادئه منع الميسر والخمر منعا مطلقاً.

واطرد الإقبال على النادى، فكان عدد أعضائه حبن تأسيسه ٢٤٠ عضواً بين طلبة وخريجين، فلم يأت آخر ديسمبر سنة ١٩٠٦ حتى بلغوا ٤٧١، وبلغوا ٥٤٩ فى آخر ديسمبر سنة ١٩٠٧، و ٦٨٥ فى آخر ديسمبر سنة ١٩٠٨، و ٧٧٣ فى آخر ديسمبر سنة ١٩٠٩، أى زادوا على ثلاثة أمثال عددهم الأول.

وقد بعث تأسيس هذا النادى روحاً جديدة من التضامن والود بين الطلبة بقيت تجمع بينهم على مرّ السنين، وكان ينظم رحلات رياضية يشترك فيها الطلبة وبعض المتخرجين، فقويت روابط الألفة بينهم باجتماعاتهم اليومية فى النادى، ورحلاتهم الرياضية التى كانوا يقومون بها مجتمعين، وظل النادى قائماً يؤدى مهمته خير الأداء، حتى أقفل بأمر السلطة العسكرية البريطانية فى أوائل الحرب العامة الأولى سنة ١٩١٤.



افتتاح نادى المدارس العليا – ٥ ابريل سنة ١٩٠٦ (صورة أخرى للحفلة) انظر ص ١٩٩

وترى من الجالسين فى الصف الأول المرحوم عمر بك لطفى (فى الصدر). سامى بك عصمت. توفيق باشا رفعت. على بك حسنى المصرى. محمد بك على دلاور، الدكتور عبد العزيز بك نظمى. الدكتور وجيه راشد، الدكتور على بك حلمى، الدكتور حافظ عفيفى باشا، الأستاذ صالح جودت، الأستاذ بديع قربه، ومن الجالسين فى الصف الثانى: الدكتور سالم هنداوى بك، الدكتور كامل سامى، فؤاد بك أنور المستشار هارون سليم باشا، الدكتور الأستاذ محمود فتحى، الدكتور توفيق بك عمر، ومن الواقفين فيالصف الثالث: أمين بك الرافعى، الصادق بك حسين، محمد بك فايز، الأستاذ حاتم يوسف العسكرى، نبيه بك سلام، أحمد بك عبد القادر، الأستاذ عبد المقصود متولى، إبراهيم بك راتب، سعيد باشا العزبى، محمد بك شركس، حسن بك زكى المستشار، وفى الصف الرابع الدكتور سيد كامل... إلخ

إضراب طلبة الحقوق
(فبراير سنة ١٩٠٦)

كان طلبة الحقوق أول من تشبعوا بالروح الوطنية التى بثها الفقيد فى الشباب، وظهرت هذه الروح فى تبرمهم بالنظام الذى وضعته وزارة المعارف فى يناير سنة ١٩٠٦، وكان الغرض منه استفزاز شعورهم والتضييق عليهم ومعاملتهم بنظام المدارس الابتدائية والثانوية، فأضربوا عن الدراسة فى فبراير سنة ١٩٠٦ احتجاجا على هذا النظام، وقد ساهمتُ فى هذا الإضراب واشتركتُ فيه، إذ كنتُ من طلبة الحقوق المتذمرين، وكانت طلباتنا العدول عن النظام الذى وضعته الوزارة، والرجوع إلى النظام القديم، وكنا على حق فى تذمرنا ومطالبنا، وليس أدل على ذلك مما كتبه الأستاذ إدوار لامبير ناظر مدرسة الحقوق(١) فى مقالته التى نشرها عقب استقالته سنة ١٩٠٧، وسيأتى بيانها بالفصل الثالث عشر، إذ قال: «إن المستر دنلوب وضع لهؤلاء الطلبة الذين بلغوا سن الرجال نظاما من النظامات الموضوعة لصغار تلاميذ المدارس الابتدائية وأخذ يعاملهم بقسوة متناهية، ويستعمل معهم سياسة وخز الإبر، سياسة اضطهاد دنئ؛ فكانت نتيجة ذلك أن انضم إلى الحزب المعارض للإنجليز فئة متعلمة راقية، وأن يسود أفئدة الشبيبة الحقد والبغض للإدارة الإنجليزية وأن تتحول مدرسة الحقوق معقلا للوطنية المصرية بحيث لا تكاد ترى بين الأربعمائة التلميذ الموجودين بها الآن عشرة لا يؤمنون كل الإيمان بمبادئ مصطفى كامل باشا».

كان هذا الإضراب هو الأول من نوعه، لأنه شمل مدرسة عالية بأسرها، وكان موجهاً ضد سياسة التعليم التى وضعها الاحتلال، وقد أجمع الطلبة جميعاً على الانقطاع عن الدراسة وألفوا لجنة تمثل جميع فرق المدرسة لتنظيم حركة الإضراب، وعقدوا اجتماعا فى حديقة الأزبكية يوم ٢٦ فبراير سنة ١٩٠٦ ألقيت فيه الخطب، وتعاهدنا فيه على التضامن واستمرار الإضراب حتى تجاب مطالبنا، فكان لهذا الإضراب ضجة فى البلاد،

---

(١) عين ناظراً لمدرسة الحقوق الخديوية فى أكتوبر سنة ١٩٠٦ خلفا للأستاذ جرانمولان الذى وقع الإضراب فى عهده.

وتدخل اللورد كرومر فى شأنه، وأمر وزارة المعارف بأن تأخذ الطلبة بالشدة، فأعلنت الوزارة تعطيل الدروس فى المدرسة من يوم ٢٦ فبراير سنة ١٩٠٦ حتى يوم السبت ٣ مارس، وأنذرت الطلبة بأن من يتأخر عن الحضور فى ذلك اليوم يفصل من سلك التلاميذ، وانتقد اللواء هذا القرار وقال : إنه قرار يوجب أشد الانتقاد لأنه يؤدى إلى إبطال تعليم الحقوق فى مصر إذا أصر الطلبة على الإضراب.

واتخذ الطلبة جريدة اللواء لسان حالهم فى نشر ظلامتهم من معاملة الوزراة إياهم، فكان هذا الإضراب هو المرحلة الأولى العملية لاتصال طلبة المدارس العالية بالحركة الوطنية، وتشبعهم بالمبادئ الاستقلالية، وتبعهم فى هذا الاتصال طلبة المدارس العالية الأخرى، لما أبدوه من العطف على طلبة الحقوق وتأييدهم، وقد أخذ الإضراب من هذه الناحية صيغة عامة، إذ كان دليلا عملياً على فساد نظام التعليم أدى إلى سخط الطلبة وضيق صدورهم من سوء معاملة الوزارة إياهم، وكان بمثابة احتجاج على هذه المعاملة، وقد قابلته الحكومة بالشدة لكى تقمع الروح الجديدة التى ظهرت فى صفوف الطلبة، وفى ذلك كتب الفقيد تحت عنوان (مسألة الطلبة) مقالة جاء فيها :

« قضت البلاد أسبوعا كاملا وهى شديدة الاهتمام بمسألة الطلبة، وقد دل هذا الاهتمام العظيم على أن أمر التعليم أصبح عند الأمة المصرية فى مقدمة أمورها الحيوية، وان لناشئتها المحل الأول من عنايتها، وأن رجال الغد هم موضع الآمال كلها، لقد أظهر إضراب الطلبة أموراً جمّة وأنتج نتائج عدة، أظهر خلل نظارة المعارف وفسادسياستها وسوء إدارتها وعدم كفاءة المديرين لها، أظهر أن الطلبة كلهم ولدوا فى عهد الاحتلال وتربوا بمقتضى النظامات التى وضعها ليسوا كما شاء أعداء مصر والمصريين جبناء أذلاء، بل إنهم ذوو إباء وشمم وعواطف راقية وأرادة حقيقة، أظهر أن رجال الغد متضامنون متكاتفون عارفون لمعنى الاتحاد الاتفاق، غيورون على حقوقهم، محبون للعدالة، متشربون بروح الاستقلال ».

وقد انتهى الإضراب برجوع الطلبة إلى المدرسة يوم السبت ٣ مارس سنة ١٩٠٦ بناء على وعد المستشار القضائى بالنظر فى طلباتهم، وأراد الاحتلال تثبيت مركز المستر دنلوب، وكان إلى ذلك الحين سكرتيراً عاماً لوزارة المعارف، وعليه تقع مسئولية إخلال

نظام التعليم الذى أدى إلى إضراب طلبة الحقوق، فرقى مستشاراً للوزارة فى مارس سنة ١٩٠٦ مكافأة له على أخذ الطلبة بالشدة.

حادثة العقبة
(مايو سنة ١٩٠٦)

ظهرت فى سنة ١٩٠٦ حادثة سياسية مهمة هزّت أعصاب الأمة ووضعت من جديد مسألة الاحتلال والجلاء على بساط البحث والمناقشة، ونعنى بها حادثة العقبة وتسمى أيضا حادثة (طابة)، وبيانها أن تركيا اعتزمت فى تلك السنة مد سكة حديدية من معان إلى العقبة، وهذه السكة تجعل لتركيا قوة جديدة على حدود مصر، وتهدد مركز الاحتلال الانجليزى، فاهتم الانجليز لهذا الحادث، وأرسلوا ضابطا كبيراً عهدوا إليه وضع نقط عسكرية على طول الخط من العريش إلى العقبة، باعتبار أنها من أملاك مصر، إذ هى جزء من طور سيناء المعهودة إدارتها إلى مصر، ولكن الجنود التركية احتلت موقع (طابة) على بعد ثمانية أميال غربى العقبة، وقام لذلك خلاف شديد بين تركيا وانجلترا، ظهرت فيه بمظهر الدولة الحامية لمصر، إذ طالبت تركيا باسم مصر أن تجلو عن طابة، وتهددت وتوعدت كما لو كانت مصر جزءاً من أملاكها، فكان هذا المظهر من علامات الحماية، مما أثار سخط الفقيد، فاستنكر موقف انجلترا من هذه الحادثة ودعا الانجليز إلى الجلاء عن مصر بدلا من أن يتظاهروا بالدفاع عن حقوقها، وكانت تركيا ترمى بعملها هذا إلى فتح باب المسألة المصرية من جديد لإجبار انجلترا على الوفاء بعهودها فى الجلاء، ومن هنا جاء عطف الأمة المصرية على موقفها فى هذه الحادثة، إذ كان شبيها من بعض الوجوه بموقف فرنسا فى حادثة فاشودة، وقد كانت تركيا تتوقع أن تؤيدها بعض الدول الأوروبية فى فتح باب المسألة المصرية، ولكن فرنسا كانت بحكم «الاتفاق الودى» مؤيدة لانجلترا، وطلب سفيرها فى الآستانة من الحكومة التركية الإذعان لمطالب انجلترا، ووقفت روسيا موقفا يشبه موقف فرنسا، ولزمت ألمانيا الجمود حيال هذا الخلاف، مما جعل تركيا تجنح للتراجع، وانتهت الحادثة بانسحاب الترك من طابة فى مايو سنة ١٩٠٦، وتأليف لجنة مصرية تركية لتسوية مسألة الحدود على قاعدة معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ وتلغراف ٨ ابريل سنة ١٨٩٢ المرسل إلى الخديو عباس التانى والذى خول مصر إدارة

شبه جزيرة طورسينا[٢]، وانتهت اللجنة من عملها فى أول كتاب أكتوبر سنة ١٩٠٦، إذ تم الاتفاق على الحدود الشرقية على أن تكون خطا ممتداً من (رفح) على البحر الأبيض المتوسط إلى نقطة واقعة غربى العقبة بثلاثة أميال، وبقيت طابة ضمن أملاك مصر والعقبة من أملاك تركيا.

وقد جاءت حادثة العقبة دليلا ساطعا على كراهة الأمة للاحتلال وللحماية المقنعة التى انتحلتها انجلترا على مصر، وبرهانا جليا على انتشار التعاليم الوطنية التى بثها الفقيد فى النفوس.

زيادة جيش الاحتلال

كان من نتائج شعور الكراهية الذى بدا من المصريين حيال الاحتلال فى حادثة العقبة أن قررت الحكومة البريطانية زيادة عدد جيش الاحتلال، فزاد من ٢٩٠٦ جنديا إلى ٤٧٥٨، وزادت النفقات التى تتحملها مصر فى هذا الصدد من ٩٧٥٠٠ جنيه إلى ١٤١٣٧٥ جنيها، وجاءت هذه الزيادة دليلا على اتساع الهوة بين الأمة والاحتلال وتفنيداً لمزاعم أنصاره الذين كانوا يرجفون بأن الأمة راضية عنه موالية لحكمه.

* * *

(٢) فصلنا الكلام عن هذا التلغراف وعن أزمة فرمان سنة ١٨٩٢ فى الفصل السادس عشر.

الفصل الثانى عشر

حادثة دنشواى

(١٣ يونيه ١٩٠٦)

لأمراء فى أن حادثة دنشواى هى من حوادث مصر التاريخية التى لا تنسى على مر السنين، لما كان لها من الأثر البليغ فى تطور الحركة الوطنية، وفى مركز الاحتلال الانجليزى، فهى نهاية عهد كان الاحتلال يتمتع فيه بالاستقرار والطمأنينة، وبداية مرحلة جديدة من مراحل الجهاد القومى عمّ فيها الشعور الوطنى بعد أن كان الظن أن سواد الأمة راض عن الاحتلال.

تفاصيل الحادثة

ترجع هذه الحادثة إلى أن بعض الضباط من جيش الاحتلال وبعض الموظفين البريطانيين كانت لهم عادة أن يتجولوا فى بعض القرى والبلاد ليصطادوا الطيور ببنادقهم، ففى يوم الاثنين ١١ يونيه سنة ١٩٠٦ غادرت كتيبة من نحو ١٥٠ جندياً بريطانيا القاهرة متجهة بطريق البر إلى الاسكندرية، وبعد مسيرة يومين وصلت يوم الأربعاء ١٣ يونيه إلى منوف، فأبلغ خمسة من ضباطها مأمور المركز أنهم يرغبون الصيد فى بلدة (دنشواى)، وهى بلدة صغيرة تابعة لنقطة بوليس الشهداء بمركز شبين الكوم، ومشهورة بكثرة حمامها، وهؤلاء الضباط هم: الميجر بين كوفن قومندان الكتيبة، والكبتن بول، والملازمان بورثر وسميث ويك، والطبيب البيطرى بوستك، فطلب المأمور من عبدالمجيد بك سلطان أحد أعيان بلدة (الواط) أن يعد لهم مركبات عند السكة الزراعية الموصلة لبلدة (دنشواى) ففعل، فلما وصلوا إلى (كمشوش)، وقفوا هنيهة وعسكروا بها مع بقية الجند، ثم ركب الخمسة الضباط المركبات التى أعدها عبدالمجيد بك سلطان مبتدئين من معدية الباجورية مارين على الناحية سرسنا، ومنها إلى (دنشواى) وكان

يرافقهم أومباشى من بوليس نقطة الشهداء وترجمان مصرى، وذهب الأومباشى إلى العمدة ليبلغه خبر قدوم الضباط لكى يتخذ التحوطات التى تكفل عدم احتكاكهم بالأهلين، ولكنه ألفى العمدة غائباً، ولم ينتظر الضباط حضوره، ولا رجوع الأومباشى، وانقسموا فريقين، فريق وقف على السكة الزراعية لصيد الحمام من خلال الأشجار الملتفة هناك، وهؤلاء لم يصبهم أحد بسوء، والفريق الآخر جاس خلال أجران القمح فى دنشواى ليصطادوا مابها من الحمام، فاتفق أن حمامتين كانتا واقفتين على جرن مملوك



خريطة مديرية المنوفية ـ وفيها موقع دنشواى الخالدة

لمحمد عبدالنبى مؤذن القرية، وكان يشتغل به أخوه شحاته عبد النبى، فجاء أحد الضباط الانجليز وصوب بندقيته على الحمام، فصاح به شيخ طاعن فى السن يبلغ الخامسة

والسبعين من العمر اسمه حسن على محفوظ (وهو أول من حكمت عليهم المحكمة المخصوصة بالإعدام) طالباً منه أن يكفّ عن إطلاق البندقية، وإلا احترق الجرن، وكذلك صاح به شحاته عبدالنبى، فلم يعبأ الضابط، وأطلق العيار، قاصداً إصابة الحمام، فأخطأ المرمى، وأصاب امرأة تدعى أم محمد زوجة محمد عبدالنبى المؤذن، كما أصاب الجرن شحاتة فسقطت المرأة جريحة تتخبط فى دمها، واشتعلت النار فى الجرن، فأخذ يصيح ويستغيث، وهجم على الضابط وتجاذب وإياه بندقيته، وأقبل الرجال والنسوة والأطفال هائجين صائحين: «الخواجه قتل المرأة ! وحرق الجرن! الخواجة قتل المرأة وحرق الجرن !» وأحاطوا بالضباط، وجاء بقية الضباط الانجليز لإنقاذ زميلهم، فتكاثرت جموع الأهلين، ووصل فى الوقت نفسه شيخ الخفر ومعه الخفراء لتفريق الجموع، وإنقاذ الضابط، فتوهم هؤلاء أنهم جاءوا يريدون بهم شراً، فأطلقوا عليهم العيارات النارية، فأصاب واحد منها شيخ الخفر فى فخذه فسقط على الأرض وأصاب عيار آخر اثنين أحدهما من الخفراء، فصاح الجميع: «شيخ الخفر قتل ! شيخ الخفر قتل !»، وحملوا على الضابط بالطوب والعصى الغليظة وأثخنوا من لحقوا بهم ضرباً، فأصيب الماجور بين كوفين قومندان الكتيبة بكسر فى ذراعه، وجرح الملازمان سميث ويك وبورثر جروحا خفيفة، وأحاط بهم الخفراء مع زميل رابع لهم وأخذوا منهم أسلحتهم وحجزوهم حتى جاء ملاحظ بوليس النقطة وأوصلهم إلى المعسكر.

أما الكبتن بول والطبيب البيطرى الانجليزى فتركا مكان الواقعة، وكان الأول منهما قد أصيب إصابة شديدة فى رأسه، وأخذا يعدوان حتى قطعاً نحو ثمانية كيلو مترات فى حرارة القيظ، إذ كانت الواقعة فى صميم الصيف، فلم يكد الكبتن بول يصل إلى باب سوق (سرسنا) حتى سقط من الإعياء، ومات بعد ذلك متأثراً من ضربة الشمس، ولما سقط تركه زميله الطبيب البيطرى وأخذ يعدو حتى وصل معسكر الكتيبة بناحية كمشوش على ضفة الترعة الباجورية.

وما كاد نبأ الحادثة يصل إلى بقية جنود الكتيبة الانجليزية فى كمشوش حتى سارع الجنود الراكبة إلى مكان الواقعة، ولم يكادوا يقطعون بضعة كيلو مترات حتى بلغوا (سرسنا)، وظنوا أنها دنشواى، وهناك وجدوا ضابطهم ملقى على الثرى، ورأوا فلاحاً مصرياً هو (سيد أحمد سعيد) يقدن إليه قدحا من الماء، فظنوه من الضاربين، فأنحوا عليه

ببنادقهم طعناً ووخزاً حتى هشموا رأسه، ومات بين أيديهم، وذهب دمه هدراً، ولم يحاكم أحد من قتلته، وقد عرف هذا القتيل بشهيد سرسنا.

وصل نبأ هذه الحادثة يوم وقوعها إلى ولاة الأمور فى المنوفية والقاهرة، وما أن علم بها رجال الاحتلال وعرفوا أن الكبتن (بول) قد مات عقب الحادثة، وأصيب الضباط الآخرون؛ حتى تولاهم الغضب، وعولوا على الانتقام من أهل القرية التى وقعت فيها الحادثة انتقاماً ذريعاً شنيعاً.

المحاكمة

ثارت ثائرة الاحتلال من وقوع الحادثة، على أنها فى الواقع راجعة أولا إلى اقتحام الضباط البريطانيين بدون حق غيطان الأهالى وأجرانهم لاصطياد الحمام المملوك لهم وذهب المستر متشل مستشار وزارة الداخلية إلى مكان الحادثة يوم وقوعها، وجرى التحقيق فيها بمنتهى السرعة، وأخذ ولاة الأمور يقبضون على الأهلين جزافا، ونشرت صحيفة (المقطم) الموالية للاحتلال يوم ١٨ يونيه قبل أن ينتهى التحقيق أن الأوامر صدرت بإعداد المشانق وإرسالها إلى مكان الواقعة، فدهش الجمهور لهذا النبأ، وتوقع أن أحكاما صارمة بالإعدام ستصدرها المحكمة المخصوصة، وأن المحاكمة إنما هى مهزلة صورية لا ظل فيها للعدل، ولا حرمة للقانون.

وكان الأمر العالى الصادر فى ٢٥ فبراير سنة ١٨٩٥ بتأليف المحكمة المخصوصة التى تحكم فيما يقع من الأهالى من الجنايات والجنح على عساكر أو ضباط جيش الاحتلال لا يزال قائماً (راجع ص٥٨)، ففى ٢٠ يونيه سنة ١٩٠٦ أى قبل انقضاء سبعة أيام على وقوع الحادثة، أصدر بطرس باشا غالى وزير الحقانية بالنيابة قراراً بتشكيل المحكمة المخصوصة لمحاكمة المتهمين فيها برياسة بطرس باشا غالى ذاته، وعضوية كل من المستر هيتر نائب المستشار القضائى، والمستر بوند وكيل محكمة الاستئناف الأهلية، والقائمقام لادلو القائم بأعمال المحاماة والقضاء بجيش الاحتلال، وأحمد فتحى بك زغلول (باشا) رئيس محكمة مصر الابتدائية، وأن يكون انعقادها فى شبين الكوم يوم الأحد ٢٤ يونيه، وعين عثمان بك مرتضى رئيس أقلام وزارة الحقانية سكرتيراً للمحكمة، وبلغ عدد من

قدمتهم الإدارة لمحاكمتهم فى هذه الحادثة اثنين وخمسين متهماً، قدموا جميعاً مقبوضاً عليهم، وسبعة من الغائبين.

وقد انعقدت المحكمة المخصوصة بهيئتها السالف ذكرها يوم الأحد ٢٤ يونيه بسراى المديرية بشبين الكوم الساعة العاشرة صباحاً، وكان يحيط بها جو من الرهبة يملأ النفوس فزعاً، والقلوب جزعاً، والجنود الإنجليزية والمصرية ترابط حولها وعلى مقربة منها، وأخذت فى سماع أقوال الشهود، وقد ثبت من شهادة الدكتور نولن الطبيب الشرعى أمام المحكمة، وكان إنجليزيا، أن وفاة الكبتن بول راجعة مباشرة إلى ضربة الشمس، وأنه لو لم يصب بها لما حدثت الوفاة من إصابة الرأس التى أصابته فى الحادثة.

وكان تحامل المحكمة على المتهمين بادياً أثناء سماع الشهود، حتى أنه حين كان أحد الشهود واسمه عبد العال صقر يروى الحادثة بما يدل على تحذيره الضباط الإنجليز من الصيد داخل القرية، قال له المستر بوند: «ألا تعرف أن هذه المحكمة تعاقب الشهود الزور؟» قال (نعم)، فقال المستر بوند: «أنا أعرف المصريين أمثالك كيف تكون شهادتهم» واستمرت المحكمة فى سماع الشهود والدفاع ثلاثة أيام حتى يوم ٢٦ يونيه.

الحكم

وانعقدت المحكمة فى صباح اليوم الرابع (الأربعاء ٢٧ يونيه) وتلا سكرتير الجلسة الحكم، وهو يقضى على كل من:

أولا: حسن على محفوظ، ويوسف حسن سليم، والسيد عيسى سالم، ومحمد درويش زهران، بالإعدام شنقاً فى قرية دنشواى.

ثانياً: محمد عبد النبى مؤذن القرية. وأحمد عبد العال محفوظ، بالأشغال الشاقة المؤبدة.

ثالثاً: أحمد محمد السيسى بالأشغال الشاقة خمس عشرة سنة.

رابعاً: محمد على أبو سمك. وعبده البقلى. وعلى على شعلان. ومحمد مصطفى محفوظ. ورسلان السيد على. والعيسوى محمد محفوظ. بالأشغال الشاقة سبع سنين.

خامساً: حسن اسماعيل السيسى. وابراهيم حسنين السيسى. ومحمد الغباشى السيد على. بالحبس مع التشغيل سنة واحدة. ويجلد كل واحد منهم خمسين جلدة، وأن ينفذ الجلد أولاً بقرية دنشواى.

سادساً: السيد العوفى. وعزب عمر محفوظ. والسيد سليمان خير الله. وعبد الهادى حسن شاهين. ومحمد أحمد السيسى. يجلد كل واحد خمسين جلدة بقرية دنشواى، مع تكليف مدير المنوفية بتنفيذ الحكم فوراً.

فيكون مجموع من حكم عليهم واحداً وعشرين متهماً، حكم بالإعدام على أربعة منهم، وبالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين، وبها لمدة خمس عشرة سنة على واحد وبالسجن سبع سنوات على ستة، وبالحبس مع التشغيل مدة سنة مع الجلد خمسين جلدة على ثلاثة، وبالجلد خمسين جلدة على خمسة.

كيف قوبل الحكم

قوبل هذا الحكم بالدهشة لصرامته، ولأنه فاق كل ما كان يتوقعه المتشائمون وخلا من كل إنصاف وعدل، إذ كانت الحادثة راجعة أصلاً إلى عدوان الضباط البريطانيين، ولم يقع اعتداء من الأهليين إلا بعد أن أصيبت إحدى نسائهم وحرق جرن لهم، ولم يمت من الضباط الإنجليز سوى ضابط واحد ثبت من تقرير الطبيب الشرعى الإنجليزى أن السبب المباشر لوفاته هو ضربة الشمس التى أصابته من شدة الحر، وقد دل هذا الحكم على أن العدل الإنجليزى لا يؤمن جانبه إذا كانت الخصومة تمس صالحاً إنجليزاً.

تنفيذ الحكم
(٢٨ يونيه سنة ١٩٠٦)

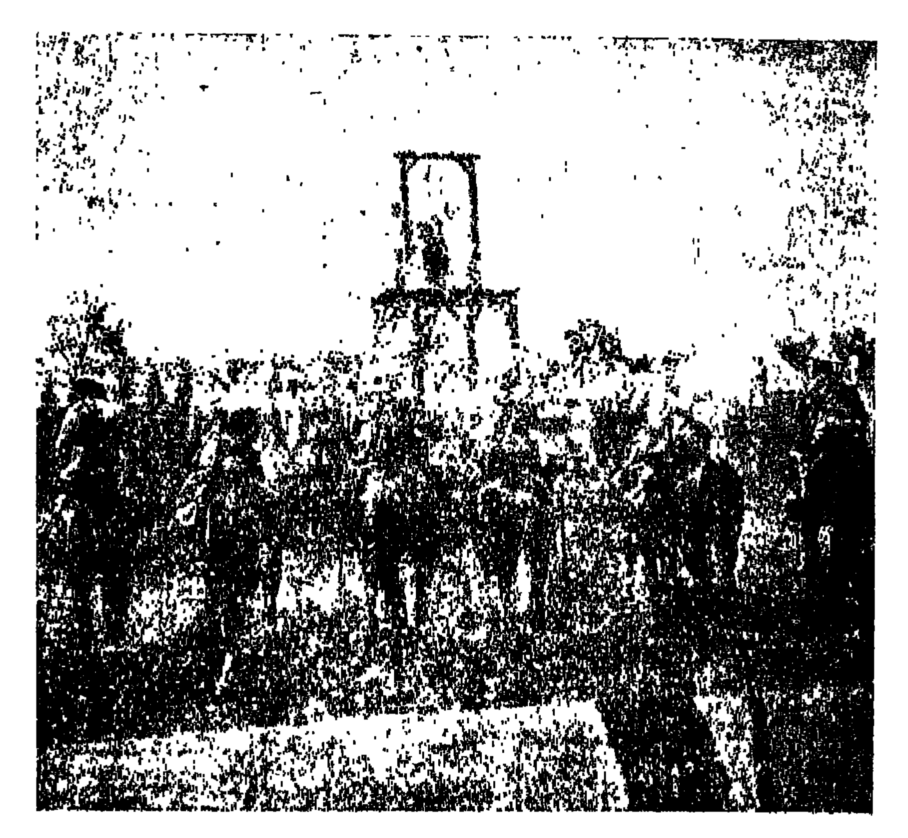
كان تنفيذ الحكم بطريقة وحشية زادت فظاعة المحاكمة، وفاقت كل ما يتصوره العقل، من وسائل الانتقام والتعذيب، وكان التنفيذ فى اليوم التالى لصدور الحكم فى المكان الذى مات فيه الكابتن بول، وفى مثل الساعة التى وقعت فيها الحادثة، ففى الساعة

الرابعة بعد منتصف الليل سيق المحكوم عليهم بالإعدام والمحكوم عليهم بالجلد إلى نقطة الشهداء، على مسافة نحو عشرين كيلومتراً من شبين الكوم وأربعة كيلومترات من قرية دنشواى، وأنزلوا بها بحراسة الجنود البريطانية والمصرية، حتى إذا اقتربت الساعة الأولى بعد الظهر جيء بهم إلى دنشواى، وهناك نصبت المشنقة وآلة الجلد، ونفذ الحكم بقسوة وفظاعة، فبدأ التنفيذ فى منتصف الساعة الثانية بعد الظهر، ونفذ الحكم فى المشنوق الأول علناً، على مرأى ومسمع من أهله وذويه، وبين صياح النساء ونواحهن، وبقى معلقاً بينما نفذ حكم الجلد فى اثنين، ثم شنق الثانى الطريقة، يليه جلد اثنين آخرين، وهكذا تمت المجزرة فى منتصف الساعة الثانية مساءً، قال المرحوم الأستاذ أحمد حلمى المحرر وقتئذ باللواء فى ختام وصفه لمأساة التنفيذ:

«كاد دمى يجمد فى عروقى بعد تلك المناظر الفظيعة، فلم أستطع الوقوف بعد الذى شاهدته، فقفلت راجعاً وركبت عربتى، وبينما كان السائق يلهب خيولها بسوطه كنت أسمع صياح ذلك الرجل يلهب الجلاد جسمه بسوطه، هذا ورجائى من القراء أن يقبلوا معذرتى فى عدم وصف ما فى البلدة من مأتم عامة. وكآبة مادة رواقها على كل بيت، وحزن باسط ذراعيه حول الأهالى، حتى أن أجران أغلالهم كان يدوسها الذين حضروا لمشاهدة هذه المجزرة البشرية، وتأكل فيها الأنعام والدواب بلا معارض ولا ممانع، كأن لا أصحاب لها ومعذرتى واضحة، لأنى لم أتمالك نفسى وشعورى أمام البلاء الواقع الذى ليس له من دافع إلا بهذا المقدار من الوصف والإيضاح».

* * *

ولقد كُنت حينما وقعت الحادثة طالباً بالسنة التانية من مدرسة الحقوق، وكنت أطالع نبأها فى اللواء، فأدهشُ لمخالفة منهج التحقيق والمحاكمة فيها لما كنا نتلقاه من أصول المحاكمات الجنائية التى تقضى بها القوانين، وتساءلتُ ما فائدة ما نتلقاه من الدروس والقواعد القانونية إذا كانت لا تطبق على الناس كافة، ولما تلوتُ وصف التنفيذ فى اللواء بقلم أحمد أفندى حلمى اقشعر بدنى من هول ما قرأتُ، وأدركتُ مبلغ هوان المصرى فى نظر الاحتلال، وتحققت أن لا كرامة لأمة ولا لأى فرد من أبنائها بغير الاستقلال.

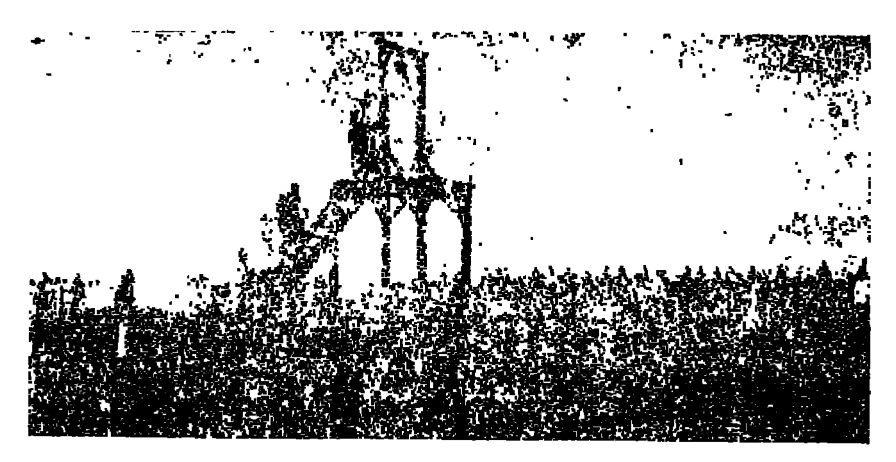


ساحة الإعدام فى دنشواى – ٢٨ يونيه سنة ١٩٠٦
إعدام أول المشنوقين الأربعة
وترى عساكر الدراجون الإنجليز يحيطون بساحة الإعدام

مصطفى كامل وحادثة دنشواى

كان الفقيد فى أوروبا حين صدر حكم المحكمة المخصوصة فى قضية دنشواى وقد بلغته أنباء المحاكمة والتنفيذ وهو فى باريس، وكانت النفوس فى مصر واجمة يحز فيها الألم وهى ساكتة، كانت تتألم، ولكن ألم اليائس المستضعف، أمام جبروت الاحتلال وبطشه.

وصف المرحوم (قاسم أمين) هذه الحالة النفسية يوم تنفيذ حكم دنشواى بقوله: «رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلباً مجروحاً وزوراً مخنوقاً، ودهشة عصبية بادية فى



المشنوق الرابع فى دنشواى وهو يصعد إلى المشنقة (٢٨ يونيه سنة ١٩٠٦)

الأيدى وفى الأصوات، كان الحزن على جميع الوجوه، حزن ساكن مستسلم للقوة، مختلط بشىء من الدهشة والذهول، ترى الناس يتكلمون بصوت خافت، وعبارات متقطعة، وهيئة بائسة، منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين فى دار ميت، كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف فى كل مكان من المدينة، ولكن هذا الاتحاد فى الشعور بقى مكتوماً فى النفوس لم يجد سبيلاً يخرج منه فلم يبرز بروزاً واضحاً حتى يراه كل إنسان».

فهذا اليأس، وهذا السكوت، وهذا الاستسلام والوجوم الذى استولى على النفوس بعد حادثة دنشواى، وهذا الشعور الذى بقى مكتوماً، على حد تعبير قاسم أمين، لم يكن لينهض بالأمة، ولا ليوقظ فيها روح الكرامة والإباء، بل كان من شأنه لو دام أن يزيدها يأساً وهواناً واستسلاماً، ولكن عبقرية مصطفى كامل هى التى أبدلت من هذا اليأس قوة، ومن هذا السكون حياة وثورة.

لقد كان لابد من صوت عال يهز قلب الإنسانية، ويشهد العالم على تلك الفظائع ويستثير الرأى العام فى مصر وأوروبا ضد الاحتلال عامة، وكان ذلك هو صوت الفقيد، ورغم أنه ذهب إلى أوروبا للاستشفاء ونصح له الأطباء أن يلزم الراحة والهدوء، فإنه لم يكد تصله أنباء المحاكمة حتى ثارت نفسه وتحرك قلبه الكبير إلى العمل والجهاد، ونهض بكل قوته لكى يسمع العالم صوت مصر، ويعلن حرباً شعواء على الاحتلال وسياسته،

فكتب فى جريدة (الفيجارو) الفرنسية الشهيرة[١] مقالة كبرى نشرت فى الجريدة بعنوان (إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن)، عرض فيها حادثة دنشواى على الضمير الإنسانى فى العالم، فكانت من أقوى وأبلغ ما كتب الفقيد بلسان مصر، وقد استطرد فيها إلى جهاد المصريين فى سبيل الاستقلال وأبان أن حادثة دنشواى قد قضت على مزاعم اللورد كرومر فيما كان يذيعه من أن الفلاحين المصريين محبون للاحتلال الإنجليزى، وأسمع العالم صوت مصر، إذ قال فيها:

«إن مقصدنا الذى نرمى إليه هو استقلال وطننا، ومحال أن يوجد شىء ينسينا ذلك المقصد».

ولما كانت هذه المقالة هى فى ذاتها من أهم حوادث الحركة الوطنية، وكان من نتائجها إقالة اللورد كرومر من منصبه، فإنا ننشر ترجمتها هنا كاملة، قال رحمه الله:

إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن

«لقد حدثت حادثة مؤلمة فى قرية من قرى الدلتا بمصر تدعى «دنشواى» تحركت بسببها عواطف الإنسانية فى العالم كله، وقام رجال أحرار الفكر مستقلو الأخلاق والأطوار فى انجلترا رافعين أصواتهم سائلين عما إذا كان يوافق كرامة الدولة البريطانية وشرفها ومصلحتها أن تسمح بأن يرتكب باسمها أمر ظالم قاس؟

« وإنه لمن الواجب على الذين يشغفون حقيقة بالإنسانية والعدل، أن يدرسوا هذه المسألة ويصدروا فيها حكمهم العادل، وهى المسألة الشاغلة لأمة بأسرها!

«فقد ترك ضباط من الإنجليز فى يوم ١٣ يونيه الماضى معسكرهم بالقرب من دنشواى بمديرية المنوفية، وقصدوا صيد الحمام فى الأملاك الخصوصية للأهالى، فأنذر شيخ فلاح المترجم المرافق لهم بأن الأهالى قد استاءوا فى العام الماضى من صيد الضباط الإنجليز لحمامهم، وأنهم ربما زادروا من غضبهم وسخطهم لو عادوا إلى الصيد فى هذا اليوم!

---

(١) عدد ١١ يوليه سنة ١٩٠٦.

«ورغماً من هذا الإنذار فإن الضباط أخذوا يصطادون، وأطلقت العيارات النارية، وجرحت امرأة، وحرق جرن، فاجتمع الفلاحون من كل مكان، ووقعت مشاجرة بينهم وبين الإنجليز جرح هؤلاء فيها ثلاثة من المصريين وجرح المصريون ثلاثة من الضباط الإنجليز، وقد تخلص أحد المجروحين، وهو الكابتن «بول» من المعركة، وقطع بكل سرعة مسافة خمسة كيلومترات، حيث كانت حرارة الشمس بالغة ٤٢ درجة، وسقط بعد ذلك ميتاً بضربة الشمس وما علم العساكر الإنجليز بما وقع لضباطهم حتى هجموا على قرية سرسنا المجاورة لدنشواى، وقتلوا فلاحاً بدق رأسه!»

«هذه هى الوقائع، وما علمها أصحاب الأمر من الإنجليز حتى فقدوا الرشد، وثاروا من قيام المصريين بالمدافعة عن أنفسهم وعن أملاكهم! وبدلا من أن ينظروا إلى الحادثة بسكون جأش ككل المشاجرات والمعارك، بالغوا فيها وجسموها، وأعلنت الصحف المخلصة للاحتلال قبل المحاكمة بأن العقوبات والعبرة التى ستضرب للناس ستكون هائلة! فلم يكن العدل هو المنشود فى المسألة، بل الانتقام الفظيع!

«ونشرت نظارة الداخلية بأمر المستر متشل المستشار الإنجليزى، قبل المحاكمة بأسبوع بلاغاً رسمياً أثقلت فيه كواهل المتهمين بالتهم، وقصدت صراحة التأثير فى المحكمة والرأى العام! وبلغ من احتقار إحدى الصحف القائمة بخدمة الاحتلال للعدالة أنها نشرت خبر إرسال المشانق إلى دنشواى قبل المحاكمة، وقد راع الشعب كل ذلك، فأخذ يتساءل عن الحكم الذى ينتظر صدوره بعد مظاهرة كهذه المظاهرة.

«وقد اجتمعت المحكمة فى يوم ٢٤ يونيه، وأى محكمة؟ محكمة استثنائية لا دستور يقيدها ولا قانون يربطها! لقضاتها أن يحكموا بكل العقوبات التى تخطر على البال! محكمة أغلبيتها للإنجليز، ولا تستأنف أحكامها، ولا تقبل العفو! وأن المرسوم الذى صدر بتشكيلها فى عام ١٨٩٥ – بناءً على ضغط اللورد كرومر – ذلك الضغط الذى لا يسمح للحكومة الخديوية مطلقاً بإظهار أى مقاومة – يحمل قارئه على الظن بأن الجيش الإنجليزى الذى ألقت إليه انجلترا أمر تأييد الأمن فى مصر، فى خطر مستمر، جعله فى حاجة إلى محكمة كهذه المحكمة أو لآلة إرهاب».

«قضت هذه المحكمة ثلاثة أيام فى نظر القضية، وتبين أن الضباط الإنجليز هم الذى

هاجموا الفلاحين بصيدهم فى ممتلكاتهم، ويجرحهم إحدى نسائهم، وأن الفلاحين هجموا على الإنجليز بوصف أنهم صيادون يختلسون الصيد، لا ضباط بريطانيون! واعترف أمام المحكمة أطباء انجليز بينهم الدكتور نولن الطبيب الشرعى للمحاكم بأن الكابتن «بول» مات بضربة الشمس، وأن جراحه لم تكن كافية وحدها لإحداث الوفاة!

«ولم تترك المحكمة إلا ثلاثين دقيقة لأكثر من خمسين متهماً ليقولوا ما عندهم، وأبت سماع أقوال أحد رجال البوليس، حيث أكد أن الضباط الإنجليز أطلقوا العيارات النارية على الأهالى، وبنت حكمها على تأكيدات الضباط الذين كانوا السبب فى المعركة، والذين يعتبرهم العدل فى كل بلد خصوماً للمتهمين!

«وفى يوم ٢٧ يونيه صدر الحكم بشنق أربعة من المصريين، وبالأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين، وبالأشغال الشاقة لمدة خمس عشرة عام على واحد، وبها لمدة سبع سنوات على ستة، وبالحبس مدة عام مع الجلد على ثلاثة، وبالجلد على خمسة، وقد جلد كل واحد من هؤلاء خمسين جلدة بكرباج له خمسة ذيول!!

«وقررت المحكمة فى حكمها تنفيذ الحكم فى اليوم التالى! بحيث لم يمض إلا خمسة عشر يوما بين الواقعة وتنفيذ الحكم.

«ففى الساعة الرابعة بعد نصف الليل من يوم الأربعاء ٢٧ يونية جىء بالأربعة المحكوم عليهم بالشنق، والثمانية المحكوم عليهم بالجلد (عفت المحكمة عن واحد من المحكوم عليهم بالجلد لأن الطبيب قرر ضعف بنيته وعدم استطاعته تحمله) من شبين مقر مديرية المنوفية إلى قرية (الشهداء) التى تبعد أربعة كيلو مترات عن دنشواى، ولبثوا هناك تسع ساعات ينتظرون الانتقام المروع! وفى الساعة الأولى بعد ظهر يوم الخميس ٢٧ يونيه جىء بهم إلى دنشواى، وكان أصحاب الأمر من الإنجليز قد أصروا على تنفيذ الحكم فى محل الواقعة وفى الساعة التى وقعت فيها!

«نُصبت المشانق، ووضعت آلات الجلد والتعذيب فى وسط دائرة مساحتها ٢١٠٠ متر، وأحاطت عساكر «الدراجون» الإنجليزية بالمحكوم عليهم، والتفت الخيالة المصرية حول الإنجليز، وتولى المستر متشل مستشار الداخلية ومعه مدير المنوفية أمر التنفيذ! وقد تقدم إليهما ابن أول المحكوم عليهم بالشنق سائلا مقابلة والده ليتلقى وصاياه الأخيرة، فرفضا

ول هذا الرجاء الذى هو أعز ما يرجوه الإنسان ويحتمه الشرع والعدل!

«وفى منتصف الساعة الثانية امتطت الجنود الانجليزية خيولها وشهرت سيوفها بدىء بعد ذلك بدقيقة فى الشنق!

«فشنق رجل، ولبث أفراد عائلته وأقاربه وكل أهالى القرية وهم عن بعد يملأون لفضاء بصراخهم الممزق للقلوب، وجلد اثنان أمام الجثة!

«وتكرر هذا المنظر ثلاث مرات، واستمر ساعة من الزمن! منظر وحشى مهيج لمعواطف، بكى منه بعض الحاضرين الأوروبيين بدموع الحنان، وأبدوا النفور الشديد مما أوا وذهب كل واحد يكرر كلمة أحد المشنوقين:

«لعنة الله على الظالمين! لعنة الله على الظالمين!

«إن يوم ٢٨ يونيه من عام ١٩٠٦، سيبقى ذكره فى التاريخ شؤما ونحساً! وهو خليق بأن يذكر فى عداد أيام التناهى فى الهمجية والوحشية!

«عمت مصر كلها عواطف الانفعال والسخط عندما استفاضت أنباء تنفيذ الحكم فى دنشواى، ولقد كان من المستحيل على أعداء انجلترا أن يصلوا إلى النتيجة الحالية بعد جهاد خمسين عاما! ولكن من العجيب أن يكون الموجدون لها هم رجال من الانجليز! وقد أنشأ الشعراء المصريون عن حكم دنشواى أشعاراً تخلد ذكرى المناظر الوحشية التى أهينت فيها المدينة والانسانية والعدل بأقسى الصور المهيجة للضمائر والنفوس!

«وإنى جئت اليوم أسأل الأمة الانجليزية نفسها والعالم المتمدن، إذا كان يصح التسامح فى إغفال مبادىء العدل وشرائع الإنسانية إلى هذا الحد؟

«جئت أسأل الإنجليز الغيورين على سمعة بلادهم وكرامتها أن يقولوا لنا إذا كانوا يرون بسط النفوذ الأدبى والمادى لا نجلترا على مصر بالظلم والعسف وصنوف الهمجية؟

«جئت أسأل الذين يجاهرون فى كل آن ذاكرين الإنسانية، مالئين الدنيا بعبارات الانفعال والسخط إذا حدثت فظائع فى بلاد أخرى دون فظيعة دنشواى ألف مرة أن يثبتوا صدقهم وإخلاصهم بالاحتجاج بكل قوة وشدة على عمل فظيع يكفى وحده لأن يسقط إلى الأبد تلك المدنية الأوروبية فى أعين العالم كافة!

«جئت أسأل الأمة الإنجليزية إذا كان يليق بها أن تترك الممثلين لها فى مصر يلجأون بعد احتلال دام أربعة وعشرين عاما إلى قوانين استثنائية ووسائل همجية بل وأكثر من همجية، ليحكموا مصر ويعلموا المصريين ماهية كرامة الإنسان؟

«إنى معجب بكل إخلاص وشكر واعتراف بالجميل بالنواب والكتاب الإنجليز الذين نادوا بأعلى صوت معلنين مزيد غضبهم من هذه الرواية المحزنة الشنيعة التى مثلت فى مصر ! ولكن لما رأى السير إدوارد جراى[٢] أن الرأى العام انقاد لهم وأنه قضى على سياسة اللورد كرومر، وقف فى مجلس العموم وتكلم عن التعصب الإسلامى المزعوم فى مصر، وسأل النواب بكل رجاء وإلحاح ألا يشتغلوا بمسائل مصر، حتى لا يضعفوا سلطة الحكومة المصرية، أو بعبارة أخرى سلطة اللورد كرومر الحاكم المطلق فى مصر، أمام خطر أصرح أنا علناً بأنه موهوم !!

«إن هذا الخطر الموهوم ليس فى أيدى أصحاب الأمر من الإنجليز إلا وسيلة لتسويغ هذه الفظيعة المستنكرة، وفظائع أخرى تقع فى المستقبل !!

«إنه لا وجود لهذا الخطر وما الغرض من هذه الفظائع إلا إحداثه !

«وإنى أؤكد بحق أقدس شىء فى الدنيا أنه لا وجود للتعصب الدينى فى مصر، نعم إن الإسلام سائد فيها لأنه دين الأغلبية العظمى، ولكن الإسلام شىء والتعصب شىء آخر، لقد انخدع السير إدوارد جراى فى هذه المسألة ! وإنى أرجوه أن يفكر لحظة فيما يأتى : هل لو كان فى مصر تعصب حقيقة أكانت تستطيع أنجلترا أن تحاكم ٥٢ مسلماً أمام محكمة استثنائية مؤلفة من أربعة قضاة مسيحيين وواحد مسلم؟

«هل تنفيذ الحكم فى دنشواى بتلك الصورة الهمجية لم يكن كافيا وحده لإشعال نار التعصب المدمرة الصاعقة لو كان له وجود؟

«ألم تكن كل هذه التحريضات كافية لإخراج الشعب المصرى عن أطواره وانفجار ذلك التعصب المزعوم لو كان هناك تعصب حقيقة؟

«ولماذا لم يثر ذلك التعصب الذى تكلم عنه السير إدوارد جراى معارك كمعركة

---

(٢) وزير خارجية انجلترا وقتئذ.

دنشواى أثناء مسألة طابة، حيث كانت الأغلبية الكبرى من المصريين فى جانب تركيا، مع أن الجنود الإنجليزية كانت تمر دائما فى كل جهة بكل أمان واطمئنان؟

«لقد أثبتت المرافعات فى قضية دنشواى بكل إفاضة وبيان أنه لا دخل للإسلام فيها، وأن الضباط الإنجليز وجدوا عند بعض الفلاحين المسلمين مساعدة وتعضيداً!

«إنه يحق للمصريين أن يطلبوا تحقيقاً دقيقاً كاملا فى المسألة، وإن مصر على بعد يومين من أوروبا، فليأت إليها الإنجليز المحبون للعدل الراغبون فى عدم ثلم الشرف البريطانى، وليذهبوا إلى المدائن والقرى وليروا بأعينهم كيف يعيش المسيحيون من كل جنس مع الفلاحين والمصريين كافة، وليقتنعوا بأنفسهم بأن الشعب المصرى ليس متعصبا أبداً ولكنه شعب كريم أبىّ، ينشد العدل والمساواة، ويطلب أن يعامل كشعب حر لا كقطيع من الأغنام وأنه يعمل بكل عزيز لديه لتحقيق هذا المطلب الأسمى، مطلب الحرية والاستقلال!

«أجل، إن الشعب المصرى شاعر الآن بكرامته، وذلك أمر لا يمكن إنكاره بأى حال، إنه يطلب معاملة أبنائه أسوة بالأجانب، وهو طلب عدل وغير مبالغ فيه أبداً!

«لقد تكلم السير إدوارد جراى فى موضوع حماية الأوروبيين ضد المصريين! ولك هل له أن يبين لنا الخطر المهدد للأوروبيين القاطنين مصر؟ ألا يعيشون فى أتم صفاء مع المصريين؟ ألا تحميهم الامتيازات الأجنبية؟ ولكن من يحمى المصريين؟ ألا نرى فى بعض الأحيان مجرمين من الأجانب – يحتج النزلاء جميعا على جرائمهم – يعتدون على المصريين ويقتلونهم ثم يفلتون من عقاب المحاكم المصرية؟ وأى عقاب ستعاقب به الجنود الإنجليزية التى قتلت الفلاح على مقربة من دنشواى وكذلك الضباط الذين جرحوا امرأة وثلاثة رجال؟

«إن اللورد كرومر دافع عن نفسه فى تقريره الأخير ضد الذين يطعنون على السلطة المطلقة التى يتصرف بها فى أمور مصر قائلا: إن البرلمان والرأى العام فى انجلترا يراقبان أعماله كما أن الصحافة المصرية تراقبها أيضا.

«ولكنها مراقبة باطلة لأنه ما كاد البرلمان البريطانى يعترض ويحتج على أعمال وحشية كهذه، حتى قال الورد كرومر للسير إدوارد جراى بأن التعصب مخيف على

شواطىء نهر النيل، وأنه يجب على البرلمان ملازمة الصمت! وبذلك لا يوجد مانع يمنع اللورد كرومر من حكم مصر بأشد القوانين مخالفة للعدل والإنصاف!!

«لذلك يقضى شرف الأمة الإنجليزية عليها بأن توازن بين الأقوال الرسمية وأقوالنا، وتقوم بإجراء تحقيق دقيق ودراسة القضية المطروحة أمامها الآن بكل استقلال!

«لقد قضى اللورد كرومر الأعوام الطوال وهو يؤكد بأن الأمراء والكبراء فى مصر هم وحدهم المبغضون للاحتلال، لأنه سلبهم سلطتهم، أما الفلاحون فانهم يحبونه حبا جما ويدعون بدوام العصر الحاضر!!

«وبناء على ذلك فإنه لم يكن اعتداء فلاحى دنشواى على الضباط الإنجليز إلا لأنهم رأوا إحدى نسائهم مجروحة، فالحكم والتنفيذ يكونان قد بلغا أقصى درجات البشاعة، وبحق العالم كله أن يقابلهما بمزيد السخط! وإذا كان الأمر على العكس وأتى الفلاحون ذلك طوعا لعاطفة حقد دينى أو وطنى فيتحتم على اللورد كرومر أن يعترف بأنهم يمقتون الاحتلال وأن إدارته أدت إلى إخفاق ليس له مثيل ويحق عندئذ للمستر «ديلون» أن يقول مؤكداً: «إن خطبة السير إدوارد جراى هى أتعس شرح لمركز انجلترا وسياستها فى مصر .

«على أن الذين يقطنون مصر كافة ويحبون الصدق والحقيقة، يعترفون بأن حادثة دنشواى لم تكن مطلقا نتيجة حركة عدائية ضد الأوروبيين، وأن المصريين هم أكثر أمم الأرض اعتدالا وتسامحا!

«إن الخطة الوطنية التى يجرى عليها أصحاب النفوذ والتأثير فى الرأى العام المصرى واضحة جلية، فنحن نريد بفضل التعليم ونور التقدم إنهاض شعبنا وتعريفه حقوقه وواجباته، وإرشاده إلى المقام اللائق به فى العالم، وأننا أدركنا من أكثر من قرن أنه لا يمكن للأمم أن تعيش عيشه كرامة إذا لم تسلك طريق المدنية الغربية وأننا أول شعب شرقى صافح أوروبا وأننا مستمرون على السير فى الطريق الذى سلكناه وإننا بالتعليم والتقدم والاعتدال والفكر الحر الراقى ننال احترام العالم وحرية مصر، ومقصدنا الذى نرمى إليه هو استقلال وطننا، ومحال أن يوجد شىء ينسينا ذلك المقصد الأسمى!

«إن عطفنا على الشعوب الإسلامية لأمر طبيعى ولا تعصب فيه، وإنه لا يوجد مسلم

مستنير واحد يظن لحظة واحدة أنه من الممكن اجتماع الشعوب الإسلامية فى عصبة واحدة ضد أوروبا، والذين يقولون ذلك إما جاهلون أو راغبون فى إيجاد هاوية بين العالم الأوروبى والمسلمين!

«إنه لا سبيل لنهضة الشعوب الإسلامية بغير حياة إسلامية جديدة تستمد قوتها من العلم والفكر الواسع الراقى!

«وإن لمصر مكانا خاصا بها فى الشرق، فهى التى وهبت العالم قناة السويس، وفتحت السودان للمدنية، وفيها طبقة راقية الفكر، وتقدم الأمة بالأمة يمشى فيها سراعا، ومن المستحيل أن تُحكم مصر وهذا حالها كما تحكم بلاد بعيدة مختبئة فى أعماق أفريقية وليس بينها وبين أوروبا اتصال! ألم ير الناس الإنجليز ينفعلون ويهيجون ضد ما يجرى فى جهات الكونجو وغيرها من البلاد؟ فكيف يسمحون إذن بحدوث أفظع الجرائم فى مصر؟

«إنه من الواجب على أوروبا كلها أن تهتم بمصر فأن صوالحها فيها جسيمة والكثيرون من رعاياها جمعوا ثروات كبيرة فيها، وإن القوانين الاستثنائية والاعتساف لا يؤديان إلا إلى هياج الشعب المصرى وخلق عواطف عنده مخالفة بالمرة لعواطفة الحالية.

«إننا نطالب بالعدل والمساواة والحرية، نطلب دستوراً ينقذنا من السلطة المطلقة، ولا شك أنه لا يمكن للعالم المتمدن وللرجال المحبين للحرية والعدل فى انجلترا إلا يكون معنا ويطلبوا مثلنا ألا تكون مصر - تلك التى وهبت للعالم أجمل وأرقى مدنية - أرضا تمرح الهمجية فيها، بل بلادا تستطيع المدنية والعدالة أن يبلغا فيها من الخصوبة والنمو مبلغ خصوبة أرضها المباركة».

مصطفى كامل

دوّت المقالة فى أوروبا دويا عظيما، وتناقلتها الصحف فى مختلف البلدان، وكان لبلاغتها وعباراتها المؤثرة، وصدورها من زعيم الحركة الوطنية، والتعليق عليها فى معظم الصحف الأوروبية والبريطانية، صدى بعيد فى الرأى العام الأوروبى والإنجليزى، وتزلزل من بعدها مركز اللورد كرومر فى مصر وانجلترا.

ونصحت جريدة (التريبون) الإنجليزية بوجوب منح مصر حكومة مستقلة وكتبت مجلة المجلات الإنجليزية بقلم الكاتب الإنجليزى الشهير المستر ستيد مقالة ذكر الإنجليز فيها بوعودهم لمصر منذ بدء الاحتلال، وأخذت الصحف العالمية الأخرى تنشر الفصول المسهبة عن مصر والمسالة المصرية.

وكان للمقالة ولحملة الفقيد عامة صدى فى البرلمان البريطانى، فانبرى بعض النواب الأحرار يلقون على اللورد كرومر تبعة الحادثة، ويستنكرون المحاكمة والتنفيذ وتغير الموقف حيال الحادثة، فقد كان السير إدوارد جراى وزير خارجية انجلترا قد أسكت البرلمان بتصريح له يوم ٥ يوليه سنة ١٩٠٧، إذ طلب بلهجة شديدة عدو البحث فى مسألة دنشواى بحجة أن التعصب الدينى ضارب أطنابه فى مصر وأنه لولاه لما وقع الاعتداء على الضباط الانجليز، ومرت فترة جمود بعد هذا التصريح ولكن لم يكد صوت مصطفى كامل يدوّى فى أوروبا استنكاراً لفظائع الاحتلال فى الحادثة حتى أعلن بعض النواب الأحرار أنهم لا يقيدون أنفسهم بالسكوت فى مسألة تهم الإنسانية والعدالة وشرف انجلترا، وقد ساعدهم على الخروج من صمتهم أن مصطفى كامل قد نفى بحجج بيلغة تهمة التعصب الدينى عن المصريين.

مصطفى كامل فى لندن

بعد أن نشر الفقيد مقالته عن حادثة دنشواى فى جريدة الفيجارو، قصد لندن ليسنمر فى نضاله، وليرفع صوت مصر فى عاصمة الدولة المحتلة، فوصلها يوم ١٤ يوليه، وكان يقصد مقابلة رجال السياسة وحملة الأفلام، لتفهيمهم الحقائق عن مصر ودحض المفتريات التى كان يذيعها دعاة السوء عن الأمة المصرية من رميها بالتعصب الدينى وأخذها بالشدة.

كتب فى هذا الصدد تحت عنوان (أرفعوا أصواتكم)[٣] قال: «لقد لثبت الأمة الإنجليز عدة سنوات تعتقد فيما تنشره الصحف عنها ويقوله السياسيون لها أن الأمة المصرية فرحة بالاحتلال، حتى حدثت حادثة دنشواى واهتزت لها المملكة البريطانية كلها

(٣) اللواء عدد ٢٦ يوليه سنة ١٩٠٦.

وتساءل القوم فى كل ناد «إذاً الأمة المصرية غير فرحة بالاحتلال»، نعم إن الأمة المصرية نافرة من الاحتلال، ومن واجبات المصريين أن يعلنوا أسباب ذلك النفور ويقولوا بأعلى أصواتهم إن أكبرها وأهمها ضياع استقلالنا، ذلك الاستقلال الذى أخذته انجلترا وأقسمت أن ترده البيناقويا مصانا لا يستطيع أحد أن يمسه بسوء، ليقل المصريون للأمة الإنجليزية إنه إذا كان ساستها قد نسوا أو تناسوا عهودهم ووعودهم فاننا معشر المصريين لم ننسها، ليقولوا بحرية وصراحة واستقلال كل ما يعتقدون وما به يشعرون، حتى تعلم الأمم كلها أنهم أحياء يناضلون عن حقوقهم، ولا يقبلون المذلة والعار».

وصل مصطفى كامل إلى لندن، وقابل الكثيرين من رجال السياسة وأعضاء البرلمان البريطانى والصحفيين، وحادثهم فى حادثة دنشواى وحوادث مصر وسياسة انجلترا فيها، ومطالب المصريين، ونفى عنهم تهمة التعصب الدينى التى كان يروجها ضدهم، دعاة السوء، وانتهز فرصة هذه الحادثة ليرفع صوت مصر عالياً مطالباً باستقلالها فهو لم يحصر دعايته فى الحادثة بذاتها، بل وسع نطاق الجهاد واتخذها سبيلا للمناداة بحقوق مصر واستقلالها، وترجم مقالته (إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن) إلى الانجليزية، ووزعها على جميع الوزراء وأعضاء البرلمان ورجال الصحافة.

حديثه فى جريدة الديلى كرونكل

ونشرت جريدة (الديلى كرونكل) حديثاً له فى عددها الصادر يوم ٢٠ يوليه سنة ١٩٠٦ وقدمت له بمقدمة قالت فيها:

«وفد مصطفى باشا كامل رئيس الحزب الوطنى فى مصر إلى لندن أخيراً بقصد عرض مقاصد وسياسة مواطنيه المحبين لبلادهم على الأمة الإنجليزية وهو شاب مصرى متعلم تعليما أوروبيا عاليا بحيث يصعب تمييز الفرنسى المتعلم تعليما عاليا والمتربى تربية سامية عنه، سواء فى المعرفة والعلم واللغة أو الأفكار بوجه عام، وهو صاحب ومحرر جريدة عربية تصدر فى القاهرة تسمى (اللواء)، وهى أهم الصحف العربية وفى مقدمة الصحف التى تعد لسان حال السواد الأعظم من المصريين الذين مبدؤهم «مصر للمصريين».

ثم نشرت الحديث، وهو يدور حول دحض تهمة التعصب الدينى التى أراد خصوم

الحركة الوطنية أن يصفوها به، وبرهن على تسامح المصريين الديني، وعرج على حادثة دنشواى وفظاعة المحاكمة والتنفيذ فيها، ثم سأله محرر الجريدة عن برنامج الحزب الوطني، فأجاب: «بأن أول غرض يرمى إليه هو طبعاً العمل لاستقلال مصر، وقد وعدت الحكومة الإنجليزية المرة بعد المرة وعداً مقدساً سواء فى البرلمان أو فى المكاتبات الرسمية بأت ترد مصر للمصريين، وبقطع النظر عن هذه الوعود فإن المصريين عامة متحدون فى طلب الاستقلال، وهل تظنون أن أى إنجليزى يستطيع أن يتحمل ضياع حريته وفقدانها كما نتحمل نحن ذلك الآن؟ لا شك أنه لا يوجد إنجليزى يحتمل ذلك، وختم حديثه بقوله:

«إننا نطلب استقلالاً أهلياً ودستوراً حراً، ولقد نالت مصر فى عهد الخديو توفيق باشا برلماناً، وهذا البرلمان قد انحل لما دخل الإنجليز بلادنا، ولكن اللورد دفرين وعد عام ١٨٨٣ بتشكيل برلمان جديد، ولم يتم شيء من هذا الوعد إلى الآن! بل أن اللورد كرومر تمكن من جمع سلطات الحكومة كلها فى قبضة يده وأخذ يحكمنا كملك مطلق التصرف بمعناه الحقيقي، ولا ريب فى أن مطالبنا يعلمها الإنجليز الذين يحبون الحرية».

احتفال الشرقيين بالفقيد فى لندن

أعجب الشرقيون عامة بدفاع الفقيد عن قضية مصر واستقلالها وكرامتها، وأكبروا فيه البطولة والإقدام، إذ رأوه يجوب العواصم ويرفع صوت مصر جهيراً عالياً فى أوروبا وانجلترا، ورأوا فى جهاده مفخرة لكل شرقي، فلما جاء لندن أقامت جمعية الوحدة الإسلامية الهندية حفلة كبرى لتكريمه يوم ٢٤ يوليه سنة ١٩٠٦ بفندق (كربتريون)، حضرها لفيف من عظماء الشرقيين والإنجليز، نذكر منهم السيد عبد الله المأمون السهروردى رئيس الجمعية، وعبد الحق حامد بك أشهر شعراء الترك، والمستر بيلس من أعضاء مجلس العموم، والسير (بهاونجرى) من كبار الهندوكيين ونائب الهنود فى لندن، والمستر (سوينى) رئيس الجمعية الوطنية، والمستر (بانديت كرشنا فرما) رئيس جمعية استقلال الهند، والمستر (كارل بلند) الكاتب الشهير، وغيرهم، وحضرها كثير من صفوة الشبيبة المصرية والشرقية، وبلغ عدد الحاضرين نحو ٢٥٠ مدعوا من علية القوم، فكانت من أفخم الحفلات، واستقبل فيها الفقيد بأعظم مظاهرة الحفاوة والإجلال.

ولما اكتمل الجمع وقف صاحب الدعوة السيد السهروردى، وألقى بالعربية خطبة حيا فيها صاحب الترجمة قال:

«إن أفئدتنا لم تبتهج فرحاً لزيارة أمير أو وال من ولاة الإسلام بمقدار ابتهاجنا بزيارة سعادتكم لهذه البلاد، لأنكم أمير أمراء الوطنية، وأسد غابة الحرية، وبطل المدافعين عن حقوق الإنسانية، ولقد أحسنتم فى قدومكم إلى هنا بقصد إيقاف الأمة الإنجليزية على حقيقة الشئون المصرية وأغراض وآمال، مطالب المسلمين، وإنى أؤمل بل وأثق بإصغاء الإنجليز لنداء المسلمين وأن لا يجعلوا للتعصب الدينى والتحامل سلطانا على شعورهم دون العدالة والاستقامة، وإذا فرض ولم تصلوا إلى بغيتكم هذه فإن ذلك لا يثبط من همتكم ولا يفت فى عضدكم، فإن زيارتكم لإنجلترا لا تخلو من فائدة قط، لأن صوتكم لا يصل من عاصمة هذه الدولة إلى إخوانكم فى الدين فى أقصى أنحاء المعمورة فقط، بل سيجد له صدى فى قلوب محبى الأوطان فى الممالك الأخرى الذين هم شركاؤكم فى الآلام والمصائب، ودولة الوطنية أوسع من دولة الإسلام، فلتعد إلى بلادك المحبوبة ولتستمر فى جهادك فى سبيل الحرية، واذكر فى ساعة اليأس والقنوط والضيق أنك لست منفرداً وحدك بل إن أسمى آمال القاطنين على ضفاف نهر الرين والطونه (الدانوب) والجانج والفرات والبوسفور وقرن الذهب، تشارك ابن وادى النيل فى مساعيه، وإن أعينهم لمتجهة نحو أفق مصر، منتظرة بزوغ فجر الحرية وصدور الإشارة من أرض الفراعنة الأولين، بإنقاذ أبناء إسماعيل(٤) ودخول المصريين فى الحرية التى وعُدوا بها .

«ولقد تغلب لسانى على جنانى، فألقيت عليكم أيها السادة باللغة العربية مع العلم بأن السكوت فى حضرة ديموستين(٥) مصر هو أفضل بلاغة وأحسن بيان».

خطبة صاحب الترجمة

فوقف صاحب الترجمة وألقى باللغة العربية كلمة شكر قال فيها:

«أيتها السيدات، أيها السادة

(٤) العرب.
(٥) أحد كبار خطباء البرلمان.

«اسمحوا لى أن أشكركم من صميم فؤادى شكراً لا يوفيه اللسان ولا يؤديه البيان على تفضلكم بالاجتماع هنا للتسليم على ومقابلة أعمالى الصغيرة بعنايتكم ورعايتكم وانعطافكم، وإنى شعرت فى كل وقت بعدم استحقاقى لشىء من ذلك كله، لأن القيام ببعض الواجب – وما أنا قائم به كله – جزء من فرض مقدس لا يشكر الإنسان عليه، ولكنكم أردتم أن تحيوا فى شخصى المصريين المحبين لبلادهم العاملين لرفعتها المتشوقين لاستقلالها المغرمين بالدستور والحرية، ولذلك أستقبل مظاهرتكم السامية بجزيل الشكران، وأسألكم باسمهم أن تعتقدوا أننا لا ننسى أبد الدهر هذه العواطف التى أبديتموها بحضوركم إلى هذا النادى، وازدحامكم إلى هذا الحد الذى لم يكن يخطر لى على بال، وإنى أشكر بنوع خـاص حضرة السيـد عبد الله المـأمون السهـروردى الذي رأيت فيه من الحمية والغيرة ما ملأ قلبى سروراً، وزاد فى قوة آمالى، وأرجـوه أن يعذرنى فى عدم توفيته حق الشكر على ما قاله، لأن العجز عن الشكر أبلغ شكر.

«إنى عندما حضرت إلى لندن لم أكن أحلم بحضور اجتماع كهذا، أرى فيه أمم الإسلام والعرب ممثلة فى آن واحد، وأخاطب فيه الإنسانية، فى أبنائها الراقين النابغين، فترونى أعد هذه الليلة وحيدة فى العمر، جديرة بالذكر أبد الدهر».

ثم تكلم طويلاً عن الأمم الإسلامية والشرقية، ونوّه بواجب المتعلمين فى إنهاضها والأخذ بيدها فى سبيل التقدم والحرية، وعرج على نهضة مصر وأمله فى فوزها، ثم قال: «وإنى واثق بفوزها القريب العاجل، وظهورها بين أمم الأرض بأرقى مظهر، كما أنى على يقين من أن محبى الإنسانية والمدنية الصادقين فى حبها يميلون بكل جوارحهم إلى هذا الفوز ويساعدون على الوصول إليه غير ناظرين إلى الاعتبارات الصغيرة الدنيئة التى يقيمها ذو الغايات فى طريق الأمم الناهضة».

وكرر فى ختام خطبته شكره على الحفاوة البالغة التى قوبـل بها، ولم يكـد يتم خطبتـه حتى دوت القاعة بتصفيق الإعجاب من كل جـانب، ووقف السيد عبـد الله السهروردى فترجم خطابة إلى الإنجليزية.

ثم وقف الدكتور بولن من كبار المستشرقين وألقى خطبة أعرب فيها عن مزيد إعجابه بخطبة صاحب الترجمة: وقال: «إنه وإن كان الكثيرون من الحاضرين لم

يستطيعوا تتبع معانى كلمات الخطيب كلمة كلمة إلا أنهم جميعاً شعروا بأنهم إنما كانوا منصتين لخطيب نادر المثال والقوة والكفاءة، وأنهم تأثروا من حسن اقتداره الواضح وشدة إخلاصه ورنات لهجة اللسان الجليل الذى كان يخطب به، لسان النبى إسماعيل».

وأفاض فى ذكر محامد الإسلام وفضائل النبى محمد عليه الصلاة والسلام، ثم وقف المستر (بندت كرشنافارما) أحد علماء الهنود، وزعيم جمعية استقلال الهند ومحرر صحيفة (انديان سوسيولوجست) وأثنى على صاحب الترجمة ثناءً كبيراً، وأعقبه الماجور السيد حسين بلجرامى وألقى كلمة شكره فيها على جهاده.

وبعد أن انتهى الخطباء من خطبهم وقف المترجم وألقى باللغة الفرنسية كلمة شكر ثانية قال فيها:

«أيتها السيدات، أيها السادة

«إنى أكرر لكم جزيل شكرى على هذه الرعاية البالغة والإكرام العظيم، وإنى رغماً عن كل ما قاله الخطباء العظماء لا أعتبر هذه الحفاوة موجهة إلى شخصى بل اعتبرها موجهة إلى أبناء جنسى وإلى الشعور الوطنى الذى يدفعنا على الدوام لخدمة مصر بما فى الوسع والإمكان .

«وإن الوطنية لشعور تنحنى أمامه الأمم كلها والأجناس على اختلافها، لأنه الشعور بقيمة الإنسان وكرامته، الشعور بنعمة الله وعنايته، الشعور بمعنى الوجود نفسه، وسواء كان الرجل يابانياً أو صينياً أو هندياً أو جاوياً أو مصرياً أو إنجليزياً أو فرنسياً أو ألمانياً، أو من أى جنس كان، فأنه يقابل بالإعظام متى كان ممثلاً للشعور الوطنى، لأنه حامل لأطهر وأشرف شعور رفع الإنسان إلى أعلى مكان، وإنى لست إلا حاملاً للواء الوطنية، وقد تفضلتم هذه الليلة بتكريم هذا اللواء وتشريفه، فأشكركم باسمه شكراً وافراً، وأسأل الله أن يوفقنا إلى تحقيق آمالنا العزيزة وإسعاد أوطاننا المحبوبة».

وكانت هذه الحفلة من أعظم ما لقيه الفقيد تكريماً لجهاده فى سبيل مصر.

وليمة (كارلتون) وخطبة المترجم

وأقام المترجم وليمة فاخرة بلندن فى فندق كارلتون يوم الخميس ٢٦ يوليه سنة ١٩٠٦، دعا إليها بعض الشخصيات ذات النفوذ فى المحيط السياسى البريطانى، من أعضاء مجلس اللوردات ومجلس العموم والصحفيين، وبعد أن تناولوا الطعام وقف خطيباً، وألقى بالفرنسية خطبة جامعة، بدأها بقوله:

«أيها السادة: اسمحوا لى أن أشكركم على الشرف الذى أوليتمونى إياه بقبولكم دعوتى، وإنى لسعيد حقاً بانتهاز هذه الفرصة لأحدثكم فى شئون مصر وإعلان الحقيقة عن عواطف المصريين وأفكارهم، وإن ذوى الأغراض ينشرون على الدوام فى أوروبا عامة وفى انجلترا خاصة الأغلاط والأكاذيب بشأن أحوال مصر، وإحساسات المصريين؛ ولكننا واثقون من أن الحقيقة القادرة القاهرة تتغلب فى النهاية دائماً وتفوز وتهدم هذه الأبنية، أبنية الاختلافات والتهم الكاذبة».

الاستقلال والمال

وبعد أن نفى عن المصريين تهمة التعصب الدينى تكلم عن الاستقلال فقال: «إن الحركة الموجودة فى مصر حقيقة هى حركة وطنية أهلية لا نزاع فيها، فإن الشعب المصرى متمسك باستقلال بلاده أشد التمسك، وإذا كان بعض الساسة الإنجليز يتظاهرون الآن بنسيان الوعود والعهود التى قطعها رجالكم السياسيون علناً ونادوا فيها بردّ مصر إلى المصريين، فإننا لم ننسها نحن أبداً، بل لا يزال كل مصرى يكررها وسيكررها على الدوام، عالماً بأنه لا تسقط العهود المعطاة وكلمة الشرف «بمضى المدة» قائلاً مع اللورد فرين: «إن الاستقلال لا ثمن له».

«ولو فرضنا ولم تكن هذه الوعود والعهود قدمت فعلًا من رجال سياستكم فأى مطلب وأى غرض يرمى المصرى إليه؟ أليس استقلال بلاده، لقد ألقت الحالة المالية فى مصر على عيون الكثيرون من الناس هنا غشاوة، فتراهم مندهشين من أن المصريين غير

سعداء فى عهد الاحتلال، وإن السامع لأقوالهم ليحسب مصر «سوقاً» لا وطناً، فأرجوهم أن ينظروا إلى الأشياء بإمعان، ويدرسوا الحالة الأدبية لمصر ويدركوا على الخصوص أنه لا توجد ثروة فى العالم ولا رخاء ينسى الإنسان كرامته».

السودان

ثم تكلم عن السودان فقال:

«وإنه لكى يدرك الإنسان أسباب تألم المصريين من الاحتلال الإنجليزى يجب عليه أن يتذكر أولاً أن السياسة البريطانية نزعت منا السودان ظلماً، وهو روح وطننا، وكم ضحينا فيه من الأموال، والرجال فليس لمصر الآن فيه إلا مهمة واحدة وهى إعطاؤه جيشاً لتسكينه وتنظيمه، والمال اللازم لإدارته، وإن فؤاد كل مصرى ليمتلىء حزنا وأسى عندما يفكر فى هذا الجزء من وادى النيل المحكوم على حدة، المسلوب من مصر، السائدة فيه انجلترا».

ثم تكلم عن محو الحكومة الأهلية فى مصر، وردّ على اللورد كرومر وطعن فى سياسة الاحتلال عامة فى مصر، وتكلم عن حادثة دنشواى وفظاعة المحاكمة والتنفيذ فيها، واحتج على وجود المحكمة المخصوصة، وطلب إعادة النظر فى القضية.

الامتيازات الأجنبية

وتكلم عن الامتيازات الأجنبية فقال:

«إن من المسائل المرتبطة بالعدالة مسألة محاكمة المجرمين الأجانب فى مصر، فإن المصريين ينفعلون ويسخطون كلما أفلت مجرم أجنبى من يد القانون المصرى بفضل الامتيازات الأجنبية، وقد اقتراح اللور كرومر محوها وإنشاء مجلس دولى يعطى سلطة التشريع بحيث تمنح أوروبا الدولة البريطانية وكالة عنها فى مصر وهذا الاقتراح لا يقبل من أوروبا، ولكن هناك حلا عملياً للمسألة، وهو إعطاء المحاكم المختلطة حق النظر فى

الجنايات والجنح التى يرتكبها الأجانب، وإن هذه المحاكم حائزة لثقة العموم، وإننى أعتقد أن أوروبا لا تتردد فى إجابة هذا الطلب العادل إذا عرض عليها :

الدستور وحقوق المصريين

«لم ينس أحد من الناس أن مصر طلبت الدستور فى خلال ثورة سنة ١٨٨٢ ونالته، ولكن انجلترا أبطلته ووعدت بلسان اللورد دفرين بإعادته لمصر متى حانت الفرصة، وقد مضى أربعة وعشرون عاماً ونحن فى انتظار هذا الدستور، ويلاحظ بأشد الألم والحزن أن السلطة المطلقة لمعتمد بريطانيا فى مصر تمتد كل يوم وتنمو، وأنه لا يوجد شىء يضمن للمصريين السكينة والسلام والعدالة والسير الحسن لكافة الأعمال سوى دستور قوى متين يعطى الشعب حق مراقبة الحكومة فى أعمالها وتصرفاتها، وإن مصر لأوفر تقدماً ومدنية من بعض إمارات البلقان التى منحتها الدول الأوروبية وانجلترا على رأسها الحرية، وإن كل ثروات العالم لا تنسينا أبداً كرامتنا وحقوقنا، ولقد كان من مصلحة انجلترا تقدم مصر ماليا لتنال ثقة حملة أسهم الدين المصرى، ولتستطيع فتح السودان وتعميره بأموال مصر، ولكنها لم تنفذ التعهدات التى أخذتها على نفسها بشأن التقدم المعنوى للمصريين.

«فمعارضة الوطنيين المصريين للاحتلال طبيعية ولا غرابة فيها، وإذا كان القوم المتمدنون يجدون من الأمور العادية الطبيعية وجود حزب معارضة فى انجلترا وفى بقية البلاد المتمدنة، فأى عجب فى وجوده فى مصر ؟ وإذا كان أنصار التوسع فى سلطة انجلترا ومد نفوذها فى الآفاق يريدون جعل سيادتها عامة فى كل مكان، فكيف يجد البعض من الأمور الخارقة للعادة مطالبتنا باستقلال وطننا ؟

«إن انجلترا لم تفتح مصر ولم تغزها، بل دخلتها كدولة محبة لتوطيد عرش الخديوية ومساعدة الشعب المصرى على أن يعيش عيشة الأمم المتمدنة، فهى عقدت بإرادتها ومحض رغبتها ديناً على نفسها نحو مصر ونحو الإنسانية، فمصر لا تسأل إحسانا بمطالبتها بحريتها، بل تطلب حقاً معترفا به ولا نزاع فيه، تطلب حقها فى الحياة والوجود، وإنى على يقين من أنكم لو كنتم محلنا لشعرتم بنفس شعورنا، ولسلكتم مسلكنا، لأنه

لا يوجد إلا مطلب واحد خليق بأن يشغل حياة الإنسان، ألا وهو «استقلال الوطن وعظمته».

وما انتهى الخطيب من خطبته حتى دوى التصفيق فى القاعة كلها، وقام المستر جون روبرتسن النائب الحر بمجلس العموم الإنجليزى، وردّ على خطبته بكلمة هى مزيج من تأييد الخطيب والدفاع عن وجهة النظر الإنجليزية، قال:

«ياحضرة الباشا

إنى أتكلم باسم زملائى وأبناء وطنى لأؤكد لكم أننا سمعنا خطبتكم باهتمام ممزوج بالعطف، وأننا نبحث قبل كل شىء عن معرفة حقيقة الأحوال فى بلادكم ولذلك نريد أن نسمع صوت الجهتين (أى المصريين والإنجليز)، وإننا نؤمل أن أبناء وطنكم يخاطبوننا دائما بصراحة ويعرفوننا أفكارهم وشكاويهم، لأن مقصدنا وغرضنا هو خير مصر ليس إلا بمراقبة الإدارة العمومية مادام لنا نفوذ فيها، وما دمنا محتلين البلاد، ومن رأينا أن المراقبة الانجليزية أفادت المالية المصرية كثيراً، وإنا نريد أن نفعل مثل ذلك فى الحياة الاجتماعية والتربية والإدارة والعدالة، إذ يجب أن لا تبقى انجلترا هناك لمصلحتها نفسها.

«أما مسألة دنشواى فإنكم ياحضرة الباشا تعرفون جيداً مقدار القلق الذى قوبلت به أخبارها، وإننا لا يمكننا أن نتكلم فى هذا الصدد مادمنا لم نر التقارير الرسمية، ولكن يمكننى أن أؤكد لكم وجود الانعطاف الفعلى الخالص من قبل العدد الأكبر والأعظم من الشعب البريطانى، وإننا نقدر آمالكم ومطالبكم حق قدرها، ونؤمل على الدوام أن نرى يوما بفضل التبصر والتدبر تحقيق بغية الإنجليز والمصريين وأتمنى لها «الاستقلال المضمون لمصر»

وقد كان لهذه الوليمة وخطبة الفقيد فيها دوىّ هائل فى مصر، ونالت إعجاب الرأى العام، إذ أكبرت الأمة من زعيمها المجاهرة بحقوق مصر فى العاصمة البريطانية، وبين جمع من كبار الانجليز، ونفدت نسخ اللواء الذى نشرت فيه الخطبة، وانهالت الطلبات على إدارته بطبعها فى كراسة على حدة، وتوزيعها على الجمهور، كما تلقى اللواء تلغرافات ورسائل عديدة بتأييد موقف الفقيد والإعجاب بجهاده، وزادهم إعجابا به أنه قام يناضل بمفرده عن حقوق بلاده، ويرفع صوت مصر فى عواصم أوروبا، ويقوم بعمل كان يجب على رجالات الأمة أن يشاركوه فيه ويحتملوا معه عبئه.

مغادرته لندن، وسفره إلى فيشى

أجهد الفقيد صحته فى نضاله صيف سنة ١٩٠٦، فغادر لندن وقصد إلى فيشى للاستشفاء، وهناك استقبله المصريون المصطافون بها بالحفاوة البالغة والحماسة، وهنأوه على فوزه فى جهاده، وكان فى حاجة إلى الراحة بعد العناء، على أنه لم يترك الكتابة والدفاع عن قضية مصر، فما أن رأى فى جريدة (الديلى جرافيك) الانجليزية مقالة عن المسألة المصرية زعمت فيها أن المصريين يعملون على تغيير النير الإنجليزى بالنير التركى، حتى انبرى للرد عليها بمقالة عنوانها (مصر للمصريين) نشرت فى عدد ١٥ أغسطس سنة ١٩٠٦، فند فيها هذه المزاعم، وصرح «بأننا نريد أن تكون «مصر للمصريين» ونرفض قطعيا كل نير أجنبى وكل سيادة أجنبية وإن الذين يظنون أن الشعب المصرى يمقت انجلترا لأنها دولة مسيحية ليسوا إلا مخطئين خطئا جسيما، فإن الشعب المصرى يمقت المحتل الذى قوض دعائم استقلال وطنه، وإذا كانت مصر محتلة بأى دولة أخرى لكان شعور المصريين هو ذاته، لأن ضياع الاستقلال لا يمكن احتماله بأى حال من الأحوال».

وقد كتب هذه المقالة وهو فى حاجة إلى العلاج والاستشفاء فى فيشى، ولكنه لم يكن يعرف لنفسه راحة وهوادة إلى جانب أداء الواجب نحو الوطن.

عودته إلى مصر

أكبرت الأمة جهاد المترجم أثناء مقامه فى أوروبا صيف سنة ١٩٠٦، فسرت فى النفوس فكرة الاحتفال به عند عودته تكريماً له، إذ رفع صوت مصر عالياً ورفع رأس الأمة فى أوروبا والعالم، وتألفت لجنة فى أغسطس سنة ١٩٠٦ بدعوة من المغفور له محمد بك فريد لجمع اكتتاب عام لهذا الغرض ودعوته إلى وليمة كبرى عند رجوعه وإهدائه هدية فاخرة إعرابا له عن تكريمه، وبدأت اللجنة بجمع الاكتتابات، فلما علم الفقيد بنبأ هذا المشروع أرسل من باريس خطابا بتاريخ ٢٤ سبتمبر إلى فريد بك يعتذر فيه من

عدم قبول هذا التكريم، وبطلب أن تقوم اللجنة بدعوة الأمة إلى إنشاء كلية (جامعة) أهلية، وأن تتحد الجهود لتنفيذ هذا المشروع، وهذا الخطاب آية فى الوطنية والشعور الشريف (وقد نشرناه بالرنكجراف ص ٢٣٦)، قال فيه:

«عزيزى فريد بك

«تحية وسلاما واحتراما وإعظاما، وبعد فقد طالعت اليوم فى اللواء بعد عودتى من «هنداى» أنه تأسست لجنة فى مصر بقصد عمل اكتتاب عام لدعوتى إلى وليمة وإهدائى هدية إعلانا لارتياح المصريين من قيامى بخدمة بلادى العزيزة وأنك تفضلت فقبلت أن تكون أمينا لصندوق هذه اللجنة.

«فاسمح لى أن أرجو منك أن تتنازل بتبليغ أعضاء هذه اللجنة ومن تكرموا بتلبية دعوتها أنى أشكرهم من صميم فؤادى على جميل انعطافهم نحو أضعف خدمة الوطن، وجزيل رعايتهم نحو رجل لا يرى فيها عمل إلا جزءا من واجب عظيم جسيم يطالب كل مصرى بتأديته.

«وإنى ما شعرت لحظة واحدة فى حياتى بأنى مستحق لشىء من الالتفات أو الشكر على دفاعى عن حقوق مصر ومطالبتى باستقلالها ومناداتى بوطنية أبنائها لأنى إنما أقوم بفرض مقدس، وما خطوت إلى اليوم الخطوة الأولى فى سبيل إسعاد مصرنا العزيزة التى امتلأت رحابها بعظام الآباء والأجداد.

«وأى فضل لمثلى وأصغر جندى فى الجيوش يلقى علينا جميعاً أكبر درس وأسمى عظمة لأنه الحامل لراية الوطن المدافع عن شرفه ومجده واستقلاله. المفدى لحياته صيانة لحياة الملايين من الشيوخ والنساء والأطفال.

«فإذا كان هذا شأن كل فرد من أفراد الجيوش ووظيفة كل جندى من جنودها فكم تكون واجباتنا نحو الوطن عديدة وعظيمة نحن الذين استفدنا من نعم الوطن أكثر من غيرنا وامتزنا بالعلم والعرفان وقدرنا حقوق الديار ورأينا نور الحقيقة ساطعًا أمامنا وشاهدنا عظمة الشعوب الراقية وقارنا بين حالهم وحالنا وتقدمهم وتأخرنا.

«شكراً لكم وألف مرة شكراً، ولكنى لا أستطيع أن أقبل ثناء لا أستحقه وإكراما لم

أفعل شيئاً لنيله. ولا يمكننى أن أرضى بأن يكون الشعور الوطنى مما يكافأ الرجل عليه، وهو لايكون رجلا إلا به.

«نعم إنى أعلم أنكم تحيون فى شخصى الضعيف الفكرة الوطنية الشريفة، وتريدون أن تعلوا شأنها، وترفعوا لواءها، كما أن أعدائى والطاعنين علىّ إنما يحاربون فى الحقيقة هذه الفكرة وذلك الشعور، لأنى لست شيئاً، على حين أن الوطنية هى فى حياة الأمة كل شىء.

«ولكن ماتبتغون كائن لا ريب فيه، فقد ارتفع لواء الوطنية المصرية رغما عن كل معاند ومعارض، وعلم العالم كله أن المصريين أحياء يشعرون ويرغبون المجد من السبل الصالحة المؤدية إليه، واقتنعت الأمم أننا نطلب الحياة والدستور والحرية بالعقل والروية ونسعى إلى إسعاد وطننا بالعلم والجهاد القانونى، وهى نتيجة ماكان ليصدق أعداء مصر والمصريين أنها تكون بعد أن ظن الجاهلون بأسرار حياة الأمم وارتقائها أن مسألة استقلال مصر قد قبرت واستراح ساسة الإنجليز منها.

«فخير هدية اقترح عليكم تقديمها للوطن العزيز والأمة المصرية المحبوبة هى أن تقوم اللجنة التى شكلت بدعوة الأمة كلها وطرق باب كل مصرى لتأسيس كلية أهلية تجمع أبناء الفقراء والأغنياء على السواء، وتهب الأمة الرجال الأشداء الذين يكثرون فى عداد خدامها المخلصين ممن لا يخافون فى الحق لو ما ولا عتابا، ويعملون لمداواة أدوائها وجمع أمرها وبث روح الوطنية العالية فى كافة أبنائها، لأن كل مليم يزيد على حاجة المصرى ولا ينفق فى سبيل التعليم هو ضائع سدى، والأمة محرومة منه بغير حق.

«هذه هى الهدية الوحيدة التى يليق بالوطنيين الصادقين إهداؤها لمصر والمصريين، هذه هى الهدية الفريدة التى تملأ الفؤاد فرحا وانشراحا وفيها أرقى مظاهر الحياة والشعور.

«فلتنس الأحزاب انقساماتها، ولينس الصحافيون خصوماتهم، ولتلق الأحقاد (ولو يوما واحداً) فى هوة لا يسمع منها لغو ولا دوى، ولتجتمع الأمة لإتمام هذا العمل الفخم، وتحقيق ذلك المشروع الذى كله خير ونفع عميم.

«وليذكر الذاكرون أن بين أبناء الفقراء الذين سد الاحتلال فى وجوههم أبواب العلم والنور رؤوسا لو تحلت بالعرفان لكانت فخار مصر إلى أبد الزمان، ليذكر ذوو الإحساس

والوجدان أن فى مصر كنوزاً لم تستخرج للآن، وأنها لو أخرجت للناس لملأت الأرض نوراً، وأن هذه الكنوز مدفونة بين مساكن الفقراء، إن الكلية - الجامعة - هى البناء الذى أدعو المصريين جميعاً إلى تشييده وما أكبر سعدى وأعظم هنائى لو ساعدتنى الأيام على وضع حجر فيه مع العملة الأبرار الذين يعملون لخير البلاد ليس إلا، ولا يسألون أحداً (جزاء ولا شكورا) هذا وأرجوك أيها الصديق أن تتفضل بقبول أصدق سلام وأوفى احترام من محبك وأخيك»

باريس فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦

مصطفى كامل

(خطاب الفقيد إلى فريد بك ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦)

باريس فى ٢٤ سبتمبر ١٩٠٦

اخي الاعز فريد بك

لك التحية والسلام. اما بعد فقد تسلمت خطابك

وقرأت البيان فشكرا لك وسررت جدا [illegible]. والله ان ودك

الصادق واخلاصك الطاهر ووطنيتك العالية لما يكفيني

في الحياة نعمة وغنيا وسعادة وسرورا. فالف شكر

ولك [illegible] الذي [illegible] حالا [illegible]

كافة [illegible] انك [illegible] المخلص [illegible]

وان شعوري [illegible] يزداد كل يوم ولا احتاج الى

تقوية او تشجيع والحمد لله [illegible]

تقبل التحية من اخيك المخلص

مصطفى كامل

عزيزي فريد بك

تحية وسلاما . واحتراما واعظاما . وبعد فقد طالعت [illegible]
اليوم في الأهرام بعد عودتي من "هنداي" انه تألفت لجنة في
مصر بقصد عمل اكتتاب عام لدعوتي الى دولتهم واهدائي هدية
ابطالنا لأرشياء المصريين من قيامي بخدمة بلادي العزيزة . وانك
تفضلت فقبلت أن تكون أمين صندوق هذه اللجنة

فاسمح لي أن أرجوك أن تتنازل بتبليغ أعضاء هذه
اللجنة - ومن تكرموا بتلبية دعوتها أني أشكرهم من صميم فؤادي
على جميل انعطافهم نحو أضعف خدمة الوطن العزيز وجزيل
رعايتهم نحو جليل لأدري فيما عمل الأجزاء من واجب عظيم
جسيم يطالب كل مصري شيبا وشبانا
واني ما شعرت لحظة واحدة في حياتي باني مستحق لشيء
من الالتفات أو الشكر على وفائي نحو حقوق مصر ومطالبتي
باستقلالها وحقوقها الوطنية [illegible] . لأني انما أقوم بفرض
مقدس . وما خطوت الى اليوم الخطوة الأولى في سبيل اسعاد
مصرنا العزيزة التي امتلأت بها حياة الآباء والأجداد !
وأني فضلت المثال وأصغر جندي في الجيش يلقي علينا جميعا
أكبر درس وأسمى عظة . لأنه الحامل لراية الوطن المدافع عن
شرفه [illegible] استقلاله المفدى بحياته صيانة لحياة الملايين
من الشيوخ والنساء والأطفال

فاذا كان هذا شأن كل فرد من أفراد الجيوش ووطنية
كل جندي من جنودها، فكم تكون واجباتنا نحو الوطن عديدة
وقطعية؟ نحن الذين استفدنا من نعم الوطن أكثر من غيرنا
وامتزنا بالعلم والعرفان وقدرنا حقوق الديار ورأينا نور
الحقيقة ساطعاً أمامنا وشاهدنا عظمة الشعوب الراقية
وقارنا بين حالهم وحالنا وتقدمهم وتأخرنا

شكراً لكم وألف شكراً! ولكني لا أستطيع أن
أقبل ثناءً لا استحقه وإكراما لم افعل شيئا لنيله، ولو
يمكنني أن أرضى بأن يكون الشعور الوطني مما يكافأ الرجل
عليه وهو لا يكون رجلاً الا به

نعم إني أعلم أنكم تحيون في شخصي الضعيف الفكرة
الوطنية الشريفة وتريدون أن تقولوا شيئاً تظهروا وترفعوا لواءها
كما ان أعدائي والطاعنين علي انما يحاربون في الحقيقة هذه
الفكرة وذلك الشعور. لاني لست شيئا على حين ان
الوطنية هي في حياة الأمة كل شيء

ولكن ما تبتغون كائن لا ريب فيه. فقد ارتفع لواء الوطنية
المصرية رغما عن كل معاند ومعارض وعلم العالم كله ان المصريين
أحياء يشعرون ويرغبون المجد من السبل الصالحة المؤدية إليه
واكتشفت الأمم أننا نطلب الحياة والدستور والحرية
بالعقل والروية ونسعى الى اسعاد وطننا بالعلم واجراء
القانون. وهي نتيجة ما كان يصدقه أعداء مصر والمصريين

اللذين تكون منذ أن ظن الجاهلون بأسرار حياة الأمم
وإيقاظها أن مسألة استقلال مصر قد قبرت واستراح
ساسة الإنكليز منها

فخير هدية أقترح عليكم تقديمها للوطن العزيز والأمة
المصرية المحبوبة هي أن تقوم اللجنة التي شكلت بدعوة
الأمة كلها وطرق باب كل مصري لتأسيس كلية أهلية
تجمع أبناء الفقراء ومتوسطي الأغنياء على السواء وتهب للحكومة
الرجال الأشداء الذين [illegible] يكونون بدلا من عدد عظيم من
الموظفين ممن لا يخشون في الحق لوما ولا عقابا وللعلوم مدارس
أرواحها وجمع أمرها وبث روح الوطنية العالية في كافة
أبنائها. ولو كان مليم يزيد عن حاجة المصري ولا ينفق
في سبيل التعليم فهو ضائع [illegible] الأمة محرومة [illegible]

حيث هي الهدية الوحيدة التي يليق بالوطنية الصادقة
إهداؤها للبلاد المصرية. هذه هي الهدية العزيزة التي تملأ
الفؤاد فرحا وانشراحا [illegible] وترى مظاهر الحياة والسعادة

فلتنس الأحزاب انقساماتها ولينس الصحافيون خصوماتهم
ولتنقلب الأحقاد ولاء ولنكن يدا واحدا في هذا [illegible]
ولا [illegible]، ولتجتمع الأمة لإتمام هذا العمل الفخم... وتحقيق
ذلك المشروع الذي كله خير ونفع عميم

وليذكر المذاكرون أن بين أبناء الفقراء الذين سد الاحتلال
في وجوههم أبواب العلم والنور رؤوسا لو تحلت بالعرفان

لكانت فخراً لمصر إلى أبد الزمان. ولنذكر ذوو الإحساس
والوجدان أن في مصر كنوزاً لم تستخرج بعد. ولو أخرجت
للناس لملأت الأرض نوراً. وإن هذه الكنوز مدفونة
بين مساكن الفقراء!

إن الكلية هي البناء الذي أوجد المصريين جميعاً لتشييده
فما أكبر سعدي وأعظم هنائي يوم تساعدني الأيام على وضع
حجر فيه مع العملة الأبرار الذين يعملون لخير البلاد ليس
إلا ولا يبتغون من أحد "جزاء أو شكورا"؟

هذا وأرجوكم أيها الكرام أن تتفضلوا بقبول أصدق سلام
وأوفى احترام من محبكم وأخيكم

مصطفى كامل

باريس في ٢٤ سبتمبر ١٩٠٦

وقد قوبل الخطاب بالارتياح والإعجاب، وتحول المشروع إلى المساهمة فى جمع الاكتتابات لتأسيس الجامعة المصرية.

ووصل الفقيد إلى الإسكندرية صباح يوم الاثنين ١٥ أكتوبر سنة ١٩٠٦ وقدم توا إلى العاصمة بقطار الساعة التاسعة صباحا، فاهتزت مصر لمقدمه، وأخذت الوفود والجماعات والأفراد تؤم دار اللواء لتحية الزعيم والإعراب له عن شكر الأمة وإعجابها بجهاده.

نتائج حادثة دنشواى

أسلفنا القول بأن حادثة دنشواى من الحوادث التاريخية التى لا تنسى على مر السنين، لما كان لها من الأثر البليغ فى تطور الحركة الوطنية، ونريد هنا أن ننتقل من الإجمال إلى التفصيل، فنذكر ما هو ذلك الأثر البليغ، أو بعبارة أخرى ما هى نتائج حادثة دنشواى، وإذا تكلمنا عن نتائج حادثة دنشواى فكأننا نتكلم عن نتائج (جهاد

مصطفى كامل فى حادثة دنشواى)، لأن من الحق أن يقال إنه لولا هذا الجهاد لما كان للحادثة من نتيجة سوى تغلغل روح الخضوع والرهبة فى نفوس المصريين، وقد كان هذا ما يقصده الاحتلال إذ أراد أن يضرب الحركة الوطنية بانتقام فظيع يلقى الرعب فى النفوس ويجعل الأمة تستشعر بسوء المصير لكل من تحدثه نفسه بمقاومة الاحتلال، ولكن جهاد مصطفى كامل فوّت على الإنجليز قصدهم، فكان للحادثة من النتائج غير ما ظنوا وتوقعوا.

١ - إشتداد ساعد الحركة الوطنية

فأولى هذه النتائج أن الحركة الوطنية اشتد ساعدها بإنضمام جمهرة المصريين إليها، إذ شعروا بأن مصطفى كامل كان على حق فى جهاده للاستقلال، وأن المصرى لا كرامة له حقا بإزاء الاحتلال الأجنبى، ولا مراء فى أن سريان هذا الشعور هو فوز كبير للحركة الوطنية.

لقد كان الاحتلال قبل هذه الحادثة مطمئنا إلى ثقة السواد الأعظم من المزارعين والأعيان فى عدله وإنصافه، حتى أن اللورد كرومر كان يعتز بأنه مؤيد من أصحاب «الجلابيب الزرقاء» - يقصد الفلاحين - ولكن حادثة دنشواى كشفت عن حقيقة نيات الاحتلال وهى أنه لا يرضيه من المصرى سوى الخضوع والاستسلام ولا يرضى منه أن يشعر يوما بالعزة والكرامة، وإذا تحرك فيه هذا الشعور كان جزاؤه الظلم والتنكيل، فالحادثة إذن قد حببت الاستقلال إلى نفوس المصريين، وجعلتهم يعتقدون أن لا كرامة للأمة ولا لأى فرد منها إلا فى ظل الاستقلال، وهذا فوز وتأييد للفكرة الوطنية وإخفاق لأنصار الاحتلال وصنائعه.

٢ - إهتمام الصحف العالمية بالمسألة المصرية

وثمة نتيجة ثانية، وهى إهتمام الصحف الأوروبية والإنجليزية بالمسألة المصرية فقد بدأت تكتب المقالات والرسائل والبحوث المستفيضة عن شئون مصر ومطالبها.

كان الرأى العام فى أوروبا قبل أن يرفع مصطفى كامل صوت مصر يعتقد أن مصر من البلاد المتأخرة التى لا تفقه معنى الوطنية والاستقلال، وأنها لا تختلف عن بقية المستعمرات التى أعدت لأن تحكمها الدول الأوروبية، وكان الظن أن الاحتلال قد إستقر فى مصر، وأن نظام الحكم الذى وضعه اللورد كرومر قد نجح أيما نجاح ولكن حادثة دنشواى قد نبهت الأفكار إلى فساد هذا النظام وإلى أن مصر ساخطة عليه، وأنها تطالب بحريتها وإستقلالها، فعظم بذلك شأن مصر فى نظر العالم، وازداد المصرى إحتراما فى نظر الأوروبيين، لأن أوروبا لا تحترم إلا الشعوب التى تحرص على حريتها وإستقلالها.

٣ – تغيير سياسة الاحتلال

وأدركت الحكومة البريطانية أن سياستها فى مصر تحتاج إلى تبديل وتعديل واعتزمت إنفاذ هذا التعديل، ولكنها أخذت الأمور بسنة التدريج، كما هى عادتها كلما أرادت تغيير سياستها، وقوام هذا التغيير أن بقاء اللورد كرومر فى منصبه أصبح أمراً غير مرغوب فيه، وأن الاعتماد على خضوع وزارة مصطفى فهمى باشا للسيطرة الإنجليزية لا يفيد الاحتلال فى كل الأحوال، وأنه لابد من إسناد بعض المناصب الرئيسية إلى المصريين وإطلاق يدهم فى شئونها، فلعل ثورة الخواطر تهدأ، ويخف الضغط البريطانى على الأداة الحكومية، فيؤدى ذلك إلى تخفيف السخط على الاحتلال.

٤ – تأسيس الجامعة المصرية

نعتقد اعتقادا جازما أن تأسيس الجامعة المصرية كان إحدى نتائج حادثة دنشواى، فقد تنبهت الأفكار عقب الحادثة إلى وجوب المساهمة فى كل ما ينهض بالأمة ويرقى بها إلى مصاف الأمم الراقية، لكى تتحرر من العبودية التى وصلت إليها، فظهر فى أكتوبر سنة ١٩٠٦، أى عقب حادثة دنشواى بنحو ثلاثة أشهر، جماعة على رأسهم سعد زغلول وقاسم أمين، وكانا مستشارين بمحكمة الاستئناف، فى تأسيس جامعة مصرية، فإذا لاحظتَ ما كتبه قاسم أمين عن شعوره نحو تنفيذ الحكم فى قضية دنشواى (ص ٢١٢) أمكنك أن تدرك أن نفسه قد اتجهت حين عظم وقع الحادثة إلى المساهمة فى عمل عام ينفع

الأمة فى جهادها فاختار العمل لإحياء مشروع الجامعة المصرية.

ويلزمنا تقريراً للحقائق وإنصافا للعاملين أن نقول إن أول من دعا إلى هذا المشروع ومهد له الأفكار هو مصطفى كامل، فقد إقترح فى عدد ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٠٤ من اللواء إنشاء جامعة مصرية بأموال الأمة، قال فى هذا الصدد ما يأتى:

«مما لا يرتاب فيه إنسان أن الأمة المصرية أدركت فى هذا الزمان حقيقة المركز الذى يجب أن يكون لها بين الأمم، وأبلغ الأدلة على ذلك نهضتها فى مسألة التعليم وقيام عظمائها وكبرائها وأغنيائها بفتح المدارس وتأسيس دور للعلم بأموالهم ومجهوداتهم، ولكن قد آن لهم أن يفكروا فى الوقت الحاضر فى عمل جديد، الأمة فى أشد الحاجة إليه، ألا وهو إنشاء جامعة للأمة بأموال الأمة».

وأخذ يبين ضرورة إنفاذ هذا المشروع الجليل، ودعا المفكرين وأصحاب الرأى إلى موافاته بآرائهم فيه، وطرق الوصول إلى تحقيقه.

وفى يناير سنة ١٩٠٥ عاود الدعوة إلى المشروع(٦)، واقترح أن تسمى الجامعة (كلية محمد على) لمناسبة مرور مائة سنة ميلادية على ولاية محمد على عرش مصر (١٣ مايو سنة ١٨٠٥) وكتب عدة مقالات شرحاً وتأييداً للمشروع، قال فريد بك فى هذا الصدد فى خطبته يوم ١٧ أبريل سنة ١٩٠٨: «تعلمون أن المرحوم مصطفى كامل باشا هو صاحب مشروع الجامعة المصرية وقال به من عهد أن شرع فى الاحتفال بمرور مائة سنة على تولية محمد على باشا على مصر».

وقد أيد الأمير (حيدر فاضل) دعوة مصطفى كامل، فكتب غير مرة سنة ١٩٠٥ فى تحبيذ المشروع، واستنهض همم الأمراء والأغنياء إلى الاكتتاب له، وجمعت له فعلا فى سنة ١٩٠٥ الاكتتابات لهذا الغرض من بعض الأمراء والسراة بلغت نحو ثمانية آلاف جنيه، ثم وقف المشروع لعدم تعضيد الخديو إياه.

وفى سبتمبر سنة ١٩٠٦ حين دعا فريد بك إلى تأليف لجنة للاحتفال بعودة الفقيد إلى مصر عقب جهاده فى حادثة دنشواى كتب إليه من باريس الخطاب السالف الذكر بتاريخ

(٦) اللواء عدد ٨ يناير سنة ١٩٠٥.

٢٤ سبتمبر يعتذر فيه من عدم قبول هذا الاحتفال ويقترح فتح اكتتاب عام لتأسيس الجامعة المصرية.

تجددت الفكرة كما أسلفنا عقب حادثة دنشواى، وكان أول من تبرع للمشروع مصطفى بك كامل الغمراوى أحد سراة بنى سويف، إذ تبرع من تلقاء نفسه بخمسمائة جنيه، ودعا سراة البلاد وأعيانها إلى أن يجود كل منهم بمثل هذا المبلغ ثم تألفت لجنة تأسيس الجامعة واجتمعت لأول مرة بمنزل المغفور له سعد بك زغلول (وكان لايزال مستشاراً بمحكمة الاستئناف) يوم الجمعة ١٢ اكتوبر سنة ١٩٠٦، واختير سعد بك زغلول (باشا) وكيلا للرئيس، وقاسم بك أمين سكرتيراً للجنة وتركت الرئاسة ليتولاها أحد الأمراء، ونشرت الدعوة إلى الاكتتاب وبدأت به فعلا فى أول جلسة، وكان هذا الاجتماع نواة تنفيذ المشروع.

٥ – تعيين سعد زغلول باشا وزيراً للمعارف

مما لاشك فيه أن تعيين سعد بك زغلول وزيراً للمعارف كان من النتائج المباشرة لحادثة دنشواى، فقد أرادت الحكومة البريطانية تعديل سياستها فى مصر، وكانت تعلم أن من أسباب سخط الأمة على هذه السياسة حصر السلطة فى يد المعتمد البريطانى والمستشارين الإنجليز، فأرادت أن تسند بعض المناصب الكبيرة إلى الأكفاء من المصريين، وتترك لهم جانباً من السلطة، لعلها بذلك تخفف من سخط الأمة على الاحتلال وتجتذب فى الوقت نفسه إلى صفها بعض رجالات مصر، ومن المحقق أن اللورد كرومر هو المقترح تعيين سعد زغلول بك وزيراً للمعارف وهذه واقعة مسلم بها من الجميع، وقد صدر الأمر العالى بتعيينه فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٠٦، فملابسات تعيينه تدل على أنه نتيجة من نتائج حادثة دنشواى لأن سعد بك زغلول كان مستشاراً بمحكمة الاستئناف منذ سنة ١٨٩٢، واللورد كرومر كان معتمداً لانجلترا فى مصر منذ سنة ١٨٨٣، ومع ذلك لم يفكر فى إسناد الوزارة إلى سعد بك زغلول المستشار الذى كان منقطعاً إلى قضائه فى محكمة الاستئناف، فالتفكير فى تعيينه بعد وقوع حادثة دنشواى بنحو أربعة أشهر دليل على أنه أثر من آثارها، وهو جزء من التغيير الذى انتوت الحكومة البريطانية إدخاله فى سياستها بمصر عقب الحادثة، ومن هنا يمكنك أن تدرك مالمصطفى كامل من الفضل فى هذا التعيين.

٦ - استقاله اللورد كرومر
(ابريل سنة ١٩٠٧)

كان لحملات الفقيد على سياسة الاحتلال فى حادثة دنشواى وفى شئون مصر عامة صدى كبير فى الرأى العام الأوروبى والبريطانى، وألقت حادثة دنشواى على شخصية اللورد كرومر عبئاً كبيراً من التبعات الجسام، لامن الوجهة السياسية فحسب، بل من الوجهة الإنسانية، فرأت الحكومة البريطانية إقصاءه عن منصبه إنقاذاً لسمعتها أمام العالم المتمدن، وتخفيفاً لهياج الشعورالوطنى فى مصر، وقد استقر رأى الوزارة البريطانية (وكان يرأسها وقتئذ السير هنرى كامبل بانرمان زعيم الأحرار) على هذه النية عقب استفاضة الأنباء عن فظائع التنفيذ، ولكنها أرجأت تنفيذ نيتها حتى يعود اللورد كرومر إلى مصر استبقاء لكرامة رجالها وقد عاد إلى مصر مزوداً بتعليمات جديدة تبعاًلتغيير سياسة الاحتلال كما أسلفنا، ثم قدم استقالته فى ابريل سنة ١٩٠٧ عقب تقديمه آخر تقرير له عن شئون مصر سنة ١٩٠٦.

كان استعفاء اللورد كرومر انتصاراً كبيراً للحركة الوطنية فقد تولى منصبه فى مصر منذ سنة ١٨٨٣، وبقى فيه إلى سنة ١٩٠٧، أى أنه ظل يشغل هذا المركز مدة أربع وعشرين سنة كان فى خلالها الحاكم المطلق لمصر، فلاشك أن إقصاءه عن هذه السلطة بعد هذه المدة الطويلة هو اعتراف بقوة الحركة الوطنية. وكتب الفقيد فى عدد ١٢ ابريل سنة ١٩٠٧ من اللواء تحت عنوان (استعفاء اللورد كرومر) مقالة افتتحها بقوله:

«ماحدثت حادثة دنشواى ودوّى دويها فى العالم كله وقامت لها قيامةالأحرار فى انجلترا وعرف المتمدنون فى أنحاء الأرض مقدار بشاعتها وفظاعتها وشدة انفعال المصريين من الحكم والتنفيذ فيها حتى ذاع وشاع أن مدة إقامة اللورد كرومر فى مصر محدودة وأنه لا يلبث أن يترك وظيفته لما أصاب سياسته من الخيبة والفشل».

وقال ذاكراً خلاصة تاريخ اللورد كرومر فى مصر:

«ماذا نذكر من سياسة اللورد كرومر وخطته فى مصر؟ نذكر أنه الضارب لعرش

الخديوية بيد من حديد، نذكر أنه الذى فتح السودان برجالنا وأموالنا ثم جردنا من كل حق وسلطة فيه، نذكر أنه الذى سلب الحكومة المصرية والوزارة الأهلية كل وجود ونفوذ وحياة، نذكر أنه الذى حرم الفقراء من التعليم فى مدارس الحكومة، وحارب اللغة العربية، نذكر أنه الذى قرب الذين يضحون بأشرف العواطف لخدمة المطامع الذاتية، نذكر أنه الذى رمى المصريين بكل جهل وتقصير، وأعلن للملأ وجوب سيادة الإنجليزى على المصرى ولو كان هذا رئيس ذاك، نذكر أنه الطاعن على الدين الإسلامى فى تقريره الأخير ذلك الطعن الذى هاجت له عواطف المسيحيين مثل المسلمين، نذكر أنه الذى عمل بما فى وسعه لمقاومة المطالب الوطنية، وإنكار كفاءة الأمة واستعدادها لنيل الحقوق النيابية، نذكر أنه الذى سعى لقتل العواطف الوطنية بالمال وظن أن الثروة وحدها كافية لإرضاء أمة وشراء ضمائر شعب، نذكر بنوع خاص أنه الذى أراد الانتقام من شعور الناشئة المصرية فى حادثة إضراب الطلبة، فرقى دنلوب مستشاراً للمعارف، وأراد الانتقام من عواطف الأمة كلها، فكان ما كان فى دنشواى مما يذكره الخاص والعام، نذكر أنه لم يكتف بذلك كله بل تعمد أمام هذه الأمة، وهى حزينة كئيبة على منكوبى دنشواى، مكافأة من سلكوا فى هذه الحادثة المشئومة المسلك الذى يحبه جنابه وتنفر منه الأمة كلها».

وقد كان الفقيد منصفاً فى مقاله، إذ ذكر للورد كرومر ماله بعد أن ذكر ما عليه، قال:

«هذا مانذكره للورد كرومر ويذكره كافة المصرين، ولكننا نذكر له بكل إنصاف أنه لبث طول حياته مثالا للنزاهة، حتى يصح أن تضرب به الأمثال من هذه الوجهة لكافة الحكام وذوى السلطة، ولو شاء جنابه لكان أغنى أغنياء الأرض بما فى قبضته من جاه ونفوذ، ولكنه فضل الشرف الذاتى على المال، وخيراً فعل».

ثم قال: «ونذكر له أيضا أنه عمل ماعمل فى مصر ليجعلها مستعمرة انجليزية لم يكن اسما ففعلا، فهو كان على خلاف تام مع أحرار الانجليز الذين يرون فى مصافاة المصريين نفعاً لانجلترا أكبر وأسمى من معاداتهم سلب حقوقهم».

الاتحاد

وختم الفقيد مقالته بقوله:

«مهما كانت الخطة التى تنوى الدولة الانجليزية اتباعها فى مصر فاننا لانرى لبلادنا سلامة ونجاحا إلا فى اتفاق المصريين واتحادهم وتضامنهم فى المطالبة بحقوقهم والمناداة عيوبهم بكل همة وصراحة وبلا خوف ولاحياء، لأن الأمة لا تبلغ مأربها إلا إذا كانت قادرة على نيله، وليس فى مظاهر القوة مظهر أرقى وأسمى من المجاهرة بالحق والدفاع عن مصالح الأوطان بكل قلم ولسان».

وخلف اللورد كرومر فى منصبه السير إلدون جورست، وقد افتتح عهده بالنصح بالإفراج عن مسجونى دنشواى.

* * *

الفصل الثالث عشر

جهاد الفقيد عام ١٩٠٧

خطت الحركة الوطنية سنة ١٩٠٧ خطوات موفقة، وحفلت بالجهود الجبارة التى بذلها الفقيد فى بث روح الوطنية فى النفوس والدفاع عن حقوق مصر، وكانت هذه السنة فوزاً كبيراً ونصراً مبيناً للحركة الوطنية.

ففيها عظم اهتمام الرأى العام فى أوروبا وانجلترا بالمسألة المصرية، على أثر دعاية الفقيد العظيمة، وظهر تيار من الاستنكار العام لسياسة الاحتلال فى مصر، بفضل ما نشره عن فظائع دنشواى، واشتد تأييد الأمة لدعوته، وازداد إقبال القراء على اللواء، إذ رأوا فيه صوت الوطنية الحقة وعلمها الخفاق، وتضاعفت منزلة الفقيد فى نفوس الأمة مما ظهر فى الحفاوة البالغة التى قوبل بها عند عودته من أوروبا فى أكتوبر من تلك السنة.

وفيها أصدر الفقيد جريدتى (ليتندار اجبسيان) و(ذى اجبشيان ستاندرد) بعد أن أسس لهما شركة كانت أكبر شركة صحفية تألفت حتى ذلك الحين فى مصر والشرق.

ظهور ليتندار اجبسيان
وذى اجبشيان ستاندرد

اعتزم مصطفى كامل بعد حادثة دنشواى إصدار صحيفتين يوميتين: إحداهما بالفرنسية والأخرى بالإنجليزية للدفاع عن حقوق مصر واطلاع الرأى العام الأوروبى على حقائق الشئون المصرية ورد المفتريات عن مصر، وقد تولدت عنده هذه الفكرة عقب زيارته للندن فى يوليه سنة ١٩٠٦، فكاشف بها صديقه وزميله فى الجهاد محمد بك فريد فى (فبشى) صيف هذا العام، فحبذ المشروع وشجعه على تنفيذه، وهو مشروع ضخم يستدعى همة كبيرة وكفاية عالية ومقدرة فى الإدارة والتحرير، وقوة فى المال، وقد اضطلع

الفقيد بهذا العمل الكبير إلى جانب إصداره اللواء وقيادته للحركة الوطنية ومراسلته لأهم الصحف الأوروبية العالمية.

وقد أسس من أجل ذلك فى نوفمبر سنة ١٩٠٦ شركة مساهمة لإصدار الجريدتين، تألف رأس مالها من عشرين ألف جنيه، اكتتب بها المساهمون فيها، وكلهم من صفوة المصريين. وقد حنق اللورد كرومر من هذا المشروع فزعم بلسان الصحافة الإنجليزية أن الخديو عباس الثانى هو الذى بذل المال لمصطفى كامل لإنشاء الجريدتين، فدحض الفقيد هذه المزاعم الباطلة، ونشر أسماء المساهمين ومقدار ما اكتتبوا به وهم: مصطفى كامل باشا. محمد بك فريد. عمر سلطان باشا. محمود بك أنيس. على بك فهمى كامل. محمد بك أحمد الشريف. إسماعيل بك صادق. إبراهيم بك حليم. أحمد فائق باشا. حسن حارس باشا. سيف الله يسرى باشا. محمود بك أبو النصر. محمد بك سعاد. مصطفى بك رشيد. يوسف بك حافظ. محمد بك عبد اللطيف الصيدلى. إسماعيل أفندى كامل. أحمد بك حجازى. حسن محسن باشا. محمد بك خورشيد. عثمان بك أبو شنب. فؤاد بك المنشاوى. إسماعيل أفندى حافظ. خالد بك سعيد. عبد الحميد بك عمار. إبراهيم أفندى نيازى. حسن بك جمجوم . يوسف بك ذهنى. قلينى باشا فهمى. جلال الدين بك عارف. توفيق بك حموده. حافظ أفندى مصطفى.

واختار لتحرير الصحيفتين محررين من خيرة الكتاب الأوروبيين، وذهب خصيصاً إلى أوروبا يصحبه المغفور له محمد بك فريد فى ديسمبر سنة ١٩٠٦ لاستقدام المحررين واستحضار معدات الصحيفتين، وبدأ ظهورهما فى مارس سنة ١٩٠٧، فكانت ليتندار اجبسيان تصدر فى المساء وذى اجبشيان ستاندرد فى الصباح.

ظهرت ليتندار يوم ٢ مارس سنة ١٩٠٧، وذى اجبشيان ستاندرد صباح اليوم التالى، وفى صدرهما مقالة للفقيد ختمها بقوله:

«ليس فى جهادنا لحرية وطننا ما يخيف أحداً من الناس، فإن التسامح والكرم من الصفات التى تفتخر بها مصر على الدوام، وإن المكان هنا لمتسع لكل العاملين ولكافة الرجال المستقيمين النزيهين، وسيرى جميع الذين يعيشون فوق أرض مصر البديعة مقدار تمسكنا فى الحال والاستقبال بمبدئنا الذى تضمنته هذه الكلمة: «أحرار فى بلادنا. كرماء لضيوفنا!»

خطبتان لصاحب اللواء

وأقام المترجم بفندق الكونتننتال يوم ٢ مارس احتفالا لمناسبة ظهور الجريدتين جمع صفوة القوم من مصريين وأجانب، وألقى فيه خطبة بالفرنسية قال فيها:

«إن قصدنا من تأسيس هاتين الجريدتين هو إحاطة العالم المتمدن وكافة الذين يهتمون بشئون مصر علماً بخطتنا الوطنية التى غير خصومها شكلها وقلبوا حقيقتها، فقد مثلونا فى أغلب الأحيان كأننا أعداء لأوروبا نريد جمع كافة قوى الإسلام ضدها، وإحداث انقلاب عام؛ وأظهرونا لمن يجهلون لغتنا كأننا ننادى بالبغضاء والتعصب الدينى، فنحن جئنا اليوم نكذب بصورة قطعية هذه التهم الدنيئة، ونثبتْ للعالم كله أن مطلبنا الوحيد بل مطلبنا العالى السامى هو أن نردّ لمصر مكانة فى العالم تليق بتاريخها ومركزها، وأن كل مجهوداتنا موجه لهذه الغاية».

«إلى أن قال:

«إننا لسنا بثوار ولا أعداء للأوروبيين، بل إن كل ما نريده هو أن تنال مصر حريتها واستقلالها، مصر مهد المدنية والنور، ومصدر كل تقدم إنسانى، إننا الوارثون لمدنيتين كبيرتين بديعتين: المدنية الفرعونية والمدنية العربية، فمن حقوقنا ومن واجباتنا أن نجلس بين الأمم المتمدنة ونطالب بحقنا فى هذه المدنية».

وختم خطبته بقوله:

«إن العمل الذى نعمل له ويرمى إلى جعل مصر بلاداً كبيرة حرة كريمة، وإن الاتفاق بين المصريين والأوروبيين هو من أهم مبادئنا الأساسية، فاسمحوا لى إذن أيها السادة أن أدعوكم لأن تحيوا معى ذلك اليوم الذى لابد من مجيئه والذى يرى فيه العالم طرا شروق شمس الحرية والاستقلال فى مصر».

وخطب بعده المسيو سانت أوجان أحد محررى ليتندار، والمستر شارل رودى المحرر بجريدة ذى اجبشيان ستاندرد.

ثم وقف الفقيد وخطب للمرة الثانية باللغة العربية خطبة قال فيها:

«إن إصدار جريدتين بلغتين أجنبيتين فى وادى النيل يعد عملاً صغيراً أو كبيراً فى آن واحد، إنه أيها السادة صغير فى جانب اهتمامكم به، ولكنه عظيم لأنه من الأعمال التى تقوم بها هذه الأمة فى سبيل الخدمة الوطنية، وهو صغير فى جانب آمالنا العظيمة وأمانينا الكبرى وهى المطالبة بالاستقلال! (تصفيق طويل).

«أيها السادة! اسمحوا لى أن أقول لكم إنكم تخجلوننى بهذا التصفيق الطويل لأننى أرانى أقدم شخصياً لهذه البلاد خدمة وطنية بهذا الاهتمام، وإنى أرى نفسى فى (ألف باء) من خدمة تلك الأمة العزيزة، وأرجوكم أن تطلبوا منى المزيد لا أن تصفقوا لى، فلربما عاقنى هذا الاستحسان عن الاستمرار فى تلك الخدمة الشريفة».

الأمـــل

ثم قال:

«إن البلاد إذا أصابتها مصيبة انقسم أهلها إلى فريقين، فريق الأمل وفريق اليأس، فكونوا أيها السادة من الفريق الأول، واعلموا أننى لا أسألكم سوى أن تكونوا من هذا الفريق، أسألكم أيها السادة أن يكون لكم أمل، أسألكم أن تقولوا، إن لنا أملاً وقوة ثقة بالله، ويقينا بالمستقبل».

الاتحـــاد

إلى أن قال:

«أيها السادة، لم يتطلع العالم المتمدن لأحوال هذه البلاد لم يتنبه لشئونها مثل تطلعه وتنبهه فى هذه الأيام فقد ظهرت آثار هذا الاهتمام فى سائر المظاهر ولم تخف على أحد، فاعلموا أن أول واجب عليكم نحو هذا الوطن العزيز هو واجب الاتحاد، لأن الاتحاد قوة ليس وراءها قوة، ليترك كل وطنى الحزازات والضغائن الصغيرة، لأن هناك شعوراً أقوى وأشرف من تلك الأمور، ألا وهو إنقاذ الوطن المصرى، اعلموا أيها المصريون الأعزاء أنكم إذا أردتم أن تنالوا غايتكم وتصلوا إلى غرضكم فليس لكم إلا الاتحاد، وهو الغرس

الذى ينبت ثمره قبل أن تفرغوا من زرعه، إن الله سبحانه وتعالى خلقكم لتكونوا أحراراً سعداء، لا أرقاء تعساء، فإذا عملتم بأوامره تعالى نلتم هذه الأمنية الكبرى وفزتم بالنجاح، فكونوا كلكم أملًا، واعملوا لهذا الغرض الشريف وتلك الغاية السامية، وأنا الكفيل لكم بالوصول إلى الاستقلال المنشود لا محالة إن شاء الله».

وقد قوطعت كلمات الفقيد بالتصفيق الشديد، وبعد أن أتم خطبته دعا الحاضرين ألى تناول الشاى ولبثوا يتحادثون إلى منتصف الساعة السابعة مساءً، وانتهت الحفلة فى أبهى رونق من الجمال والجلال.

حفلة تكريم اللورد كرومر وخطبته
(مايو سنة ١٩٠٧)

استقال اللورد كرومر كما أسلفنا فى أبريل سنة ١٩٠٧، وقد قوبل نبأ استقالته من الأمة بالابتهاج العام، فجهدت الحكومة نفسها فى مقابلة هذه الحركة الطبيعية بحركة معارضة لها، بإقامة حفلة تكريم له، فتألفت من أجل ذلك لجنة حكومية لإقامة هذه الحفلة، أعضاؤها وزراء الحكومة وقتئذ وهم: مصطفى فهمى باشا رئيس الوزارة، وحسين فخرى باشا، وسعد زغلول باشا، وأحمد مظلوم باشا، وإبراهيم فؤاد باشا، ومحمد العبانى باشا، وبعض كبار الشخصيات البريطانية، ولفيف من كبار الأعيان المصريين الموالين للاحتلال، مثل رياض باشا رئيس الوزراء الأسبق، ومحمد شواربى باشا، ومحمود سليمان باشا، والشيخ عبد الرحيم الدمرداش.

وقد أقيمت الحفلة بالأوبرا مساء ٤ مايو ١٩٠٧، وخطب فيها الكونت دى سريون مدير شركة قناة السويس، ثم مصطفى فهمى باشا رئيس مجلس الوزراء وقد شكر اللورد فى خطبته «على خدماته لمصر»، وقال: «إن عملكم المجيد سيخلد اسمكم الكريم ويدعو مصر اليوم كما يدعوها فى مستقبل الأيام إلى الاعتراف لكم بهذا الجميل». وختم كلمته بقوله: «لا غرو إذا اغتنمنا هذه الفرصة لنعرب لكم فيها عن شدة تعلقنا بكم ولنقول إننا لا نزال نعتبركم كواحد منا».

وخطب اللورد كرومر فى هذه الحفلة خطبة طويلة جارحة للكرامة الوطنية، مؤلمة

للنفوس الأبية، امتدح فيها الخديو توفيق باشا ونوبار باشا ورياض باشا، ثم مصطفى باشا، وقال عنه: «إنه خدم بلاده بطريقته المعهودة من السكينة والهدوء، والابتعاد عن التعريض لغيره والدخول فيما لا يعنيه» (يريد بذلك استسلامه المطلق لسياسة الاحتلال)، وامتدح بطرس باشا غالى، ثم سعد باشا زغلول، ورمى المصريين عموماً بنكران الجميل لأنهم لا يعترفون بفضل الاحتلال وقال فى هذا الصدد: «إن أولاد العميان يولدون عادة مبصرين»، مؤملا أن الجيل المقبل يعترف بفضل الاحتلال، وعرج على ما سماه (حقائق الحالة المصرية)، فقال إن أولاها هى أن الاحتلال البريطانى يدوم إلى ما شاء الله، وثانيتها أنه مادام الاحتلال باقيًّا فالحكومة البريطانية تكون مسئولة عن الخطة التى تجرى عليها الإدارة المصرية.

وقد قوبلت الخطبة من المصريين بالاستياء الشديد والسخط والاستنكار.

تعيين المستر هيل
ناظراً لمدرسة الحقوق
(يوليه سنة ١٩٠٧)

وقع فى تاريخ التعليم فى مصر حادث هام صيف سنة ١٩٠٧ آلم نفوس المصريين، ذلك أن الأستاذ إدوارد لامبير العالم القانونى الفرنسى كان يتولى نظارة مدرسة الحقوق الخديوية، وكان من خيرة النظار الذين تولوا إدارة المدرسة، ونال من أجل ذلك محبة الطلبة واحترام المدرسين، وبذل جهده لينهض بالمدرسة إلى المستوى اللائق بها، فوقع خلف بينه وبين المستر دنلوب مستشار وزارة المعارف، إذ وقف له بالمرصاد، وأحرجه وأساء معاملته، مما أدى إلى استقالته من منصبه، وكان الظن أن يسند هذا المنصب إلى عالم مصرى، ولكن المستر دنلوب أملى إرادته فى تعيين خلف للمسيو لامبير، فوقع اختيار وزارة المعارف على المستر هيل أحد أساتذة مدرسة الحقوق، وكانت هذه أول مرة يتقلد فيها إنجليزى هذا المنصب الكبير.

قابل الرأى العام وطلبة الحقوق هذا التبديل باستياء شديد، وكتب الطلبة المقالات العديدة احتجاجا عليه، ذلك أن مستر هيل لم يكن على كفاية تسمح بتقليده هذا المنصب

الكبير، لا سيما وقد كان حديث العهد بالحصول على شهادة الحقوق، فتعيينه لهذا المنصب الذى كان يوجد من علماء القانون الوطنيين من هو أجدر منه به، كان ضربة مصوبة إلى التعليم والكرامة الوطنية، وقد أحدث هذا التغيير ضجة كبيرة فى مصر وفى فرنسا، وكتب الأستاذ لامبير مقاله عنه فى جريدة (الطان) الباريسية الكبرى، كانت بمثابة صحيفة اتهام لسياسة الاحتلال فى التعليم ولتصرفات المستر دنلوب، وقد أذاع فيها من الفضائح مالم يسبق لعالم أجنبى كبير أن ينشره على الملأ بلسان قومه، وإنا ناشرون هنا هذه المقالة لأهميتها قال:

«تركت هذه الوظيفة والأسف يكاد يمزق فؤادى، لأن البقاء لم يعد فى وسع رجل مثلى جعل حياته وقفا على العلم، ولأنى ماكنت بقادر على حفظ هذا المنصب ذى الراتب الضخم مالم أرض بأن أكون آلة صماء لسياسة غير قويمة ومكدرة لصفاء العلاقات بين المصريين والأوروبيين.

«إن الموظف الإنجليزى القابض فعلا على الإدارة الحقيقية لوزارة المعارف وهو المستر دوجلاس دنلوب كان قبل قدومى إلى مصر بعام قد حارب ناظر مدرسة الحقوق السابق (الأستاذ جرانمولان) بثبات نادر، فغلبه على أمره وسلب منه سلطته، ثم اغتنم تلك الفرصة التى آلت فيها هذه السلطة إلى العدم، فأخذ يهيج عواطف الطلبة ويستفزها بإصداره لهم أوامر متناهية فى القسوة والغلظة ولا مسوغ لها، حتى جرهم إلى الإضراب، ثم اتخذ إضرابهم ذريعة للتشفى من سلفى الذى كان حاقداً عليه، ولم يكن حظى من المعاملة بأسعد من حظ هذا السلف، إذ كثيراً ماوضعنى المستشار الإنجليزى بسوء تصرفاته، ولا أدرى إن كانت مقصودة منه أو غير مقصودة، فى مراكز حرجة عجزت عن الخروج منها وعن توقى نتائجها، إذ كنت مقيداً كل التقييد بلوائح تنزع من يدى كل سلطان حتى فى المسائل الفنية الصرف التى أدخلت أيضاً فى اختصاص أقلام الوزارة، وقد حارب المستر دنلوب تقدم التعليم الفرنسى فى مدرسة الحقوق بلا تبصر، على حين أن تعليم الحقوق فى هذه المدرسة لا يزال ويجب أن يبقى تعليما فرنسياً، مادامت قوانين البلاد لم تغير تغييراً كلياً، لأنها عبارة عن ملخص لقوانيننا، ولأنه لا توجد لها شروح ومؤلفات بالعربية إلا فى النادر، وقد مثل (أى المستر دنلوب) رواية مضحكة للتعليم العالى فى مدرسة الحقوق، فوقف تعيين مايحتاج إليه القسم الفرنسى من الموظفين تتميما لما ينقص

من عددهم المحدد قانونا، وحجته فى ذلك أن مصير هذا القسم إلى الزوال فى القريب العاجل، واكتسح من القسم الأكبر وهو الذى تدرس فيه الحقوق الفرنسية باللغة الإنكليزية الأساتذة الأكفاء الذين قاموا بأمره فى مبدأ تأسيسه، وهم من القضاة الذين أفادتهم إقامتهم الطويلة فى الديار المصرية خبرة بأسرار قوانيننا، واستبدل بهم شبانا من الإنكليز يعينون بمجرد تخرجهم من الكلية الإنجليزية فيقدمون إلى مصر، وهم والطلبة المكلفون بتعليمهم سواء فى الجهل بالقوانين المصرية، بل إن فريقاً من هؤلاء المعلمين لم يبلغ إلى الآن فى معرفة لغتنا حداً يستطيعون مع ترجمة المؤلفات الفرنسية التى يستعان بها على التدريس ترجمة غير مقبولة، ولقد بذلت كل جهد فى سبيل ترقية شئون المعلمين إما بتخصيصهم لتدريس فرع واحد أو بتقليل عدد الدروس التى يكلفون بها حتى لا يصعب عليهم تحضيرها، أو توسيع مجال المباراة بينهم بترقية النجباء منهم أو بمنع الأسباب التى تدفع المعلمين الإنجليز إلى ترك المدرسة بمجرد استفادتهم شيئا من المبادىء القانونية يتمكنون بها من الدخول قسرا فى المحاكم الأهلية، بذلت كل سعى فى هذا السبيل، فذهبت مساعى كلها أدراج الرياح بإزاء عناد مستر دنلوب وتعنته.

«كان هذا الرجوع بالعلم إلى الوراء يقتضى التبصر والحكمة ومعاملة الطلبة بالحسنى خشية أن تهيج غضبهم حالتهم السيئة وانحطاط التعليم فيهم، خصوصا وفى مصر الآن حركة فكرية ترمى إلى طلب العلوم والعرفان، ولكن مستر دنلوب وضع لهؤلاء الطلبة الذين بلغوا سن الرجال نظاما من النظامات الموضوعة لصغار تلاميذ المدارس الابتدائية. وأخذ يعاملهم بقسوة متناهية ويستعمل معهم سياسة وخز الإبر، سياسة اضطهاد دنىء، فكانت نتيجة ذلك أن انضم إلى الحزب المعارض للانجليز فئة متعلمة راقية وأن يسود على أفئدة الشبيبة الحقد والبغض للإدارة الانجليزية، وأن تتحول مدرسة الحقوق معقلا للوطنية المصرية بحيث لا تكاد ترى بين الأربعمائة التلميذ الموجودين بها الآن عشرة لا يؤمنون كل الإيمان بمبادىء مصطفى كامل باشا.

«حاولتُ مراراً أن ألفت نظر المستشار الانجليزى إلى الأخطار التى تنشأ عن اتباع خطته فى نظام التعليم، فلم أنل منه شيئاً اللهم إلا بعض تجاوز وقتى عن بعض مسائل، ولكنه لم يخلص مطلقاً فى التنازل نهائياً عن خطة كلها إيلام وإرغام ولذلك كنت أتوقع دائما وراء عمل مستر دنلوب واستفزازه للخواطر من هذا القبيل أن تعصف فى مدرستى

عواصف جديدة أشد خطراً من العاصفة التى عصفت بها فى سنة ١٩٠٦ وكانت تلقى على مسئولية ذلك أمام الرأى العام المصرى.

«انتهى مستر دنلوب أخيراً بالتعرض لكرامتى تعرضاً مؤلماً، وذلك أنه أراد أن يجعلنى بالرغم عنى شريكا له فى الدسائس التى يدبرها ضد وزير وطنى هو سعادة سعد زغلول باشا، ذلك الذى اختارته الوكالة الانجليزية بفعل تأثير الرأى العام عليها والذى لم يشأ أن يكون آلة لا إرادة لها. فلكى ينزع من هذا الوزير كل سلطة ويغلبه على كل أمر، أكره رؤساء الموظفين فى الوزارة على أن يتألبوا حزباً واحداً لعرقلة كل عمل لرئيسهم الرسمى، ولم يكن حظى من هذا الإكراه أقل من حظ زملائى، فكنت أتلقى أوامره قبل تحرير تقاريرى الرسمية، ثم كان يجبرنى على تقديمها له قبل إرسالها للوزير لينقح فيها ما يشاء، بل لقد حدث لى أحيانا أنى بعد أن حررت أوراقى وبعد أن خرجت من مكتبى وسجلت فى الوزارة عدت فغيرت ونقحت منها ما يشاء المستشار، كل ذلك مما لا طاقة لى على احتماله، لم يكتف مستر دنلوب بذلك، بل كان يريد منى أنى مادمت راغبا فى البقاء طويلا بجانبه يجب أن أتدنى إلى حد تضحية ضميرى وتعريض نفسى فى كل حين للظهور بمظهر الخائن الأثيم أمام الوزير، نتج عن هذه الأسباب التى بينتها أن علائقى مع مستر دنلوب كانت دائماً مشوبة بأكدار. على أنها توترت فجأة إثر خلاف حدث بسبب مسألة تعيين بعض المعلمين، فقد ترك ثلاثة من المعلمين وظائفهم ووضعت لائحة جديدة للتدريس تزيد بها عدد الحصص، فاضطررت والحالة هذه أن أطلب للسنة الدراسية ١٩٠٧-١٩٠٨ معلمين اثنين على الأقل، فبعد أن وعدنى مستر دنلوب وعداً صريحاً بإجابة طلبى عاد فنكث وعده قائلا إن الظروف السياسية لا تسمح باستخدام معلمين أوروبيين زيادة على الموجودين، ثم هو لا يقبل بحال من الأحوال استخدام الوطنيين للتدريس فى مدرسة الحقوق، إلا أنى لم أذعن لهذه النتيجة وتمكنت بفضل مساعدة أحد كبار الموظفين الانجليز من حمل مستر دنلوب على تعيين معلمين من أصل مصرى فى مدرسة الحقوق، ولكن بعد أن اضطررت أن أتساهل معه فى مسائل كثيرة أخصها تعهدى له بإساءة الشهادة فى كل مصرى ينتظر أن يتقدم للتدريس بمدرسة الحقوق إجابة للدعوة التى أعلنها وزير المعارف فى الجريدة الرسمية، شدد مسر دنلوب حملته علىّ كما شددها على سلفى، فبعد أن استنفدت كل وسائل الدفاع وأيقنت أنى أصبحت عاجزاً عن حماية موظفى مدرسة الحقوق وتلاميذها من مظالم مستر دنلوب استخرت الله فى السفر إلى

وطنى، ثم حدثت بعد ذلك حادثة يستنكرها الذوق السليم، وقد أبلغها إلى الجرائد بصورة لو احتملتها لضيعت كل كرامة لى عند زملائى وتلاميذى فلذلك أصررت على تنفيذ رغبتى فى الاستقالة وقدمتها فعلا، فقبلت بمزيد الارتياح، وفى اليوم التالى عين بدلا عنى مدرس انكليزى لاأجد جملة تصدق عليه خيراً من هذه الجملة التى نسبت بحق أو بغير حق إلى السير الدون جورست وهى.

«إن مستر هل جاهل وإنه خير لنا أن يكون كذلك ليكون أسهل قيادا»

«ولقد عتب علىّ نفر من أبناء وطنى فى القاهرة وأخذوا على تضحية مصالح فرنسا المهمة فى سبيل عواطفى الذاتية، وقالوا إنى تركت وظيفة من أسمى وظائف التعليم فى مصر كانت للأن محفوظة للفرنسيين رغبة فى الخلاص من مهمة لم ترق لى، ولست أرى رأيهم هذا فى تقدير المصالح الفرنسية، فإنه كما كان من اللازم لنشر نفوذ أمتنا فى الشرق أن يتولى مدرسة الحقوق الخديوية رجال أمثال فيدال باشا وتستو فى وقت كانت أيديهم فيه مطلقة حرة يعملون ما يشاءون لنشر علومنا القضائية، كذلك لا يليق بشرف فرنسا ولا يوافق تأييد نفوذها فى مصر أن يرضى علماؤها بأن يقتل مستر دنلوب روح الأخلاق ويهدم صروح العلم تحت ظلالهم».

ولقد كان لهذه المقالة المهمة، وصدورها من ذلك العالم الفرنسى الكبير، ونشرها فى كبرى الجرائد الفرنسية، وتعريبها فى اللواء، أثر كبير فى فضح سياسة التعليم التى كان يجرى عليها الاحتلال، وكان للفقيد اليد الطولى فى نشر المقالة فى (الطان) لنفوذه الأدبى لدى مديرها، وهو الذى قدم إليه الأستاذ لامبير. وبوساطته نشرتها الطان فى مكان بارز من صحائفها.

كتاب المترجم إلى السير هنرى كامبل بانرمان

فى خريف سنة ١٩٠٧ أرسل الفقيد كتاباً مفتوحا إلى السير هنرى كامبل بانرمان رئيس الوزارة البريطانية بتاريخ ١٤ سبتمبر، لمناسبة ذكرى احتلال الانجليز القاهرة سنة ١٨٨٢، جاهر فيه بالاحتجاج على استمرار الاحتلال، وطالب الحكومة البريطانية بلغة رصينة متزنة بتحقيق وعودها فى الجلاء، ولما كان هذا الكتاب من الوثائق المهمة فى

تاريخ الحركة الوطنية فإنا ننشر تعريبه قال:

«ياحضرة الرئيس

«إن هذا اليوم ١٤ سبتمبر هو يوم مخلد الذكر فى التاريخ سواء بالنسبة لمصر أو لانجلترا.

«فاسمحوا لى أن أذكركم بأنه فى آن واحد تذكار مرور مائة عام على جلاء الجنود البريطانية عن مصر، ذلك الحادث الذى وقع يوم ١٤ سبتمبر عام ١٨٠٧، والتذكار الخامس والعشرون لدخولها مدينة القاهرة الذى حصل يوم ١٤ سبتمبر عام ١٨٨٢، فلهذا التذكار شأنان، وإذا كان يذكّر المصريين بمجد آبائهم الذين عرفوا كيف يدافعون عن الوطن ويجبرون انجلترا على العدول عن غزو مصر من قرن مضى، فإنه يحملهم أيضا على التفكير فى التصريحات الرسمية التى صدرت عند حصول الاحتلال الحالى لبلادهم، وفى كلمة الشرف والتعهدات التى أخذتها على نفسها بريطانيا العظمى.

«إن لانجلترا ياحضرة الرئيس فى تذكار ١٤ سبتمبر هذا من الفخار أقل مما لمصر، فإن الشعب المصرى لم يجد فى انجلترا فاتحاً غزا بلاده بقوة السلاح، بل دولة صديقة أرادت مساعدة الخديو على توطيد الأمن والنظام ووعدت علناً بمغادرة البلاد متى توطدت أركان الأمن، ولقد مضت خمس وعشرون سنة ولم ينفذ هذا الوعد، وإن القليل من الانجليز ليفكرون الآن فى الأقسام التى فاهت بها الملكة فيكتوريا والخطب التى ألقاها وزراؤها وأكدوا فيها أن استمرار الاحتلال الانجليزى فى مصر يكون «عاراً على التاج والشرف البريطانى».

«ولكننا نحن معاشر المصريين نفكر فى هذه الأقسام وتلك الخطب. نفكر فى ذلك العهد الذى يسمو على كل المعاهدات وهذا العقد الذى يعلو كل العقود ورغما عمن يقولون إن السياسة ليست إلا «كذبا واحتيالا وخداعا» فإننا نظن أنه لا يمكن لأمة متمدنة كبيرة أن تفكر فى تشويه تاريخها باختلاس لا مثيل له، ولا يمكن تعريفه لجسامته، وهاهو التاريخ يقول بأعلى صوت ويبين الخطر الذى تلحقه مصر بالدول الطامعة اللواتى حاولن امتلاكها ولم تفلح واحدة منهن فى استعبادها بصفة نهائية، ولكن لعل دروس التاريخ لا تكفى فى نظر أنصار التوسع فى الاستعمار من الانجليز لأن تثبت أنه لا يمكن

أن يملك مصر أحد سوى المصريين إلا أن يقظة الأمة المصرية من شأنها أن تظهر لهم من الآن مستقبلها القائم على الحرية والاستقلال، وأن مصر تحافظ على آمالها أكثر مما كان ذلك فى أى زمان وترقب المستقبل بثقة لا يزعزعها شىء، وذلك رغما عن المصائب كافة، وعن جميع التدابير السياسية والمناورات الدولية، بل أؤكد أن المصائب قد قوت الروح الوطنية المصرية، وكل العارفين بأحوال مصر يعترفون بأن «دنشواى» أفادت فى تقدم «الوطنية» أكثر من المجهودات الكبرى التى بذلها الوطنيون.

«وإن المسألة المطروحة اليوم أمامكم ياحضرة الرئيس وأمام الأمة الانكليزية هى معرفة ما إذا كانت انجلترا تريد أن تجعل مصر صديقة أو عدوة لها، هى معرفة ما إذا كانت انجلترا تدرك مصالحها العالية وتقدر الفوائد التى تكتسبها من الاتفاق مع أمة تزداد كل يوم عدداً وثروة وقوة فتوفى بوعدها وتحترم شرفها أو إذا كانت تصرّ على العناد وتحارب كرامتها، وتجاهد ضد أمة تفيض حياة ومصرة على نيل حريتها.

«وإنه إذا كانت انجلترا قد اعتبرت الجلاء ممكنا فى عام ١٨٩٠ وحددت هذا الميعاد فى اتفاقية «درو مندوولف» لانسحاب الجنود البريطانية فكيف يمكنها أن تدعى أن وقوع هذا الأمر الموافق للشرف ولحقوق الشعب المصرى غير ممكن الآن؟ أى انجليزى حر يستطيع أن يزعم بجد أن ساعة الجلاء عن مصر لم تأذن بعد، فى حين أن المستر جلادستون قد اعترف فى خطابيه اللذين كتبهما لى فى عام ١٨٩٦ أن ساعة الجلاء «آذنت من عدة أعوام».

«يقول السير إدوارد جراى إنه لو تركت انجلترا مصر للمصريين لسادت الفوضى والرشوة فى البلاد، وهذا التأكيد لا يفسر إلا بشئ فاضح، وهو عدم اقتدار انجلترا بعد احتلال دام خمسة وعشرين عاما على القيام بمهمتها فى مصر، أو القضاء على الأمة المصرية بأنها ليست أمة قادرة على حكم نفسها بنفسها وخليقة بأن تنال مكانتها بين الشعوب المتمدنة، ومن المحال أن يقبل رجل عادل مستقل الفكر هذه النظرية التى هى مسبة مزدوجة لانجلترا ولمصر، وفضلا عن ذلك فإنه لايجهل أحد من الناس **أننا نطلب لمصر حكومة دستورية حرة وأننا لا نقبل حكم الأهواء والاستبداد أبداً وأن الإرادة الوحيدة التى نريد أن نخضع لها إرادة الأمة**، وأن العقل لا يقبل مطلقاً أن السلطة المطلقة المتقلبة حسب الأغراض والاهواء التى يتصرف بها المعتمد البريطانى، تكون

أفضل وأنفع من دستور أهلى مؤسس على المبادىء الحرة، إذ القول بذلك يعادل القول بأن حكومة الصين خير من حكومة انجلترا، وإنكم قلتم ياحضرة الرئيس فى إحدى خطبكم إنه لا يمكن أبداً أن تعوض حكومة حسنة حكومة أهلية وأقول أنا أيضا أنه لا يوجد شىء فى العالم ينسى الاستقلال لشعب عارف بحقوقه، وإن حكومة الأجنبى ولوكانت مثال اللطف والرقة، بخلاف ماهى فى مصر، مبغوضة وممقوتة على الدوام، لأن سلاسل الاستعباد هى سلاسل على كل حال، سواء كانت من ذهب أو من حديد ولا أظننى مبالغا إذا أكدت ياحضرة الرئيس أن أفضل صديق لانجلترا هو الذى ينصحها باحترام شرفها ووعودها، ويقول لها بكل إخلاص إن كل ما تستطيع عمله ضد مصر لا يوقف بلادنا فى طريق التقدم والحرية الذى سلكته بكل عزم، وإن أمة كأمتنا، جمعت مدة قرون عدة، قوى من الصبر والهمة والإرادة لاتعرف اليأس ولا تقف أمام أى عائق لاسترداد استقلالها، وإن لانجلترا الحرة أن تقرر إذا كان هذا الاستقلال سيتم بإرادتها أو ضدها، ولقد رأيت من الضرورى ياحضرة الرئيس أن أذكركم فى هذا اليوم المخلد الذكر بالنسبة لكم وبالنسبة لنا بوعد الحكومة البريطانية، وبما تنتظره مصر الوطنية من المستقبل.

«وإننا تألمنا كثيراً من «كذب السياسة» فلا نلجأ للمهارة والاحتيال والكذب، وإن كرامتنا وشرف قضيتنا ليحتمان علينا الصراحة والصدق والاستقامة.

«وتفضلوا ياحضرة الرئيس بقبول عظيم احترامى»

باريس فى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٧

مصطفى كامل

نشرت جريدة (الفيجارو) هذا الكتاب فى صدر عددها المؤرخ ١٤ سبتمبر سنة ١٩٠٧، فكان بمثابة بعث جديد للمسألة المصرية، لأن شخصية الفقيد، وحججه الدامغة، استرعت الأنظار إلى قوة الكتاب وصاحبه، وقد تناقلته الصحف الأوروبية، فنشرت خلاصته الصحف الفرنسية الكبرى كالطان والديباو والإكلير والايكودى باريس وغيرها وعلقت عليه باستحسان عام، ونقلت كبريات الصحف الإنجليزية كالتيمس والستاندرد والمورننج بوست والديلى نيوز خلاصته ضمن الرسائل التلغرافية الواردة إليها من

مراسليها بباريس، وعلقت الديلى نيوز، عليه تعليقا مشوبا بروح الود والتأييد، وعارضته التيمس فى مقال لها، وتردد صداه فى الصحف الألمانية والنمسوية والايطالية، وكان له دوىّ كبير فى مصر إذ جاء على أثر نجاح الفقيد فى بعث قضية دنشواى فى العالم، فكان حديث الناس فى المجالس والصحف ووجه الحركة الوطنية وجهة الجلاء أى فى الطريق الذى رسمة الفقيد من قبل.

عظم منزلة الفقيد
استقباله عند عودته إلى مصر
(أكتوبر سنة ١٩٠٧)

أكبرت الأمة جهاد مصطفى كامل فى أوروبا سنة ١٩٠٧، بعد جهاده عقب حادثة دنشواى سنة ١٩٠٦، فلم يكد يعلم الجمهور بحضوره إلى الاسكندرية ومجيئه إلى القاهرة حتى ذهبت جماهير الوطنين جماعات ووحدانا إلى محطة العاصمة قبيل وصوله إليها يوم ٧ أكتوبر سنة ١٩٠٧، دون دعوة أو سابق اتفاق لاستقبال الزعيم، وأخذ إقبال جماعات المستقبلين يشتد ويتعاظم قبل قدوم القطار، حتى صار كل من شاهد هذه الجموع الزاخرة يدهش لكثرة الزحام، وكأن كلا منهم كان على موعد مع الآخرين مع أنه لم يكن ثمة موعد ولا اتفاق، وهال موظفى المحطة ذلك الزحام الذى لم يسبق له نظير، ووجد عمال صرف تذاكر المقابلة حيرة كبيرة فى تلبية رغبات طالبى التذاكر، وقبيل قدوم القطار بلغ الزحام أشده على أرصفة المحطة، وبلغ عدد المستقبلين نيفا وثلاثة آلاف بحيث كان هذا الجمع الزاخر يستوقف النظر لكثرة عدد المجتمعين، وحضورهم جميعاً مسوقين بشعور تكريم صاحب اللواء، دون أن يدعوهم إلى ذلك داع من لجنة أو جماعة أو أفراد، وكان معظمهم من علية القوم وصفوة الشباب، يتقدمهم المغفور له محمد بك فريد، وما كاد القطار يصل إلى إفريز المحطة حتى دهش الفقيد لكثرة هذه الجموع التى جاءت لتحيته، وإغرورقت عيناه بالدموع من التأثر، ولم يكد يقف القطار حتى ضج الجمع بالهتاف: « ليحيى صاحب اللواء،ليحيى الرئيس، ليحيى الباشا»، وكرروا هذا الهتاف قبل وقوف القطار وبعد وقوفه، ولما تقدم أصدقاء الزعيم وأخصاؤه لتحيته تعذر الوصول إليه لأنه



مصطفى كامل
(سنة ١٩٠٧)

كان محوطا بسور من الجماهير المتلاحمة المتزاحمة، إلى حد جعل الجباه تتصبب عرقا، ومازالت الجماهير تحيط به إلى أن وصل خارج المحطة وهناك وقف قائلا:

«إنى أشكركم من صميم فؤادى على مظاهرتكم السامية، وأدعوكم لأن تقولوا «لتحيى مصر»، إنكم تعرفون جميعاً أنى لست إلا أضعف خادم لهذه البلاد العزيزة، وأنى إنما أقوم ببعض الواجب لها، فكل تحية منكم هى موجهة لها بالذات، ولايمكننى أن أقبلها إلا بهذه الصفة، فاسمحوا لى أن أشكركم باسم مصر شكراً جزيلا، وأسأل الله أن يحقق آمالى وآمالكم وأدعوكم لأن تقولوا معى: «لتحيى مصر، ليحيى الاستقلال»، فرددت الجموع هذا الهتاف عاليا، وقد وقفت حركة المحطة نحو نصف ساعة. لم يستطع فيها أحد من ركاب القطار على مافيه من الكبراء والعظماء أن يبرح مكانه، حتى انصرفت تلك الجموع، وكان هذا الاستقبال هو الأول من نوعه فى الاستقبالات الوطنية الرائعة، إذ لم يسبق أن قوبل زعيم فى عهد الاحتلال بمثل هذه المظاهرة الكبرى، وبخاصة لأنها حصلت من غير سابق اتفاق أو دعوة أو دعاية أو توريط، بل كانت وحى الشعور الوطنى الصادق الذى أنطبع فى نفوس المصريين، تقديراً لجهاد الفقيد وتشبعاً بروحه الوطنية.

* * *

الفصل الرابع عشر

تأسيس الحزب الوطنى

(حزب الجلاء)

كان اسم (الحزب الوطنى) يطلق منذ بداية ظهور مصطفى كامل على جماعة الوطنيين الذين ينادون بالاستقلال والجلاء، وكان الفقيد يعتبره موجوداً منذ الساعة الأولى، والصحف الأوروبية تعبر عن أنصاره بالحزب الوطنى على أنه لم يكن ثمة حزب منظم له رئيس وأعضاء ومجلس إدارة، ولكنه كان موجوداً بالفعل كفكرة تضم حولها الأنصار والمجاهدين، قال مصطفى كامل فى هذا الصدد فى لواء ١٠ أكتوبر سنة ١٩٠٧: «إن الحزب الوطنى المصرى الذى جعل أول مراميه وأسمى غاياته استقلال مصر ورد حقوقها إليها موجود فيها فعلا من ثلاثة عشر عاما مضت، فهو وإن لم يظهر بتشكل نظامى وبلائحة ولجنة إدارة قد ظهر بأعمال اتفق أعضاؤه على خدمة البلاد بكل قوة، قاوم الاحتلال فى أوروبا ومصر مقاومة شهدها كل المصريين والغربيين، وارتبط بروابط أكيدة مع جملة من سواس أوروبا، ولما حدثت حادثة (فاشودة) ضعفت همم بعض رجال الحزب، كما انفصل عنه بعض أفراد لتمكن اليأس من قلوبهم، وثبت فى موقفه من أعتقد أن فى نهضة الأمه بنفسها سلامتها وبلوغها كل مأربها».

وقال فريد بك فى هذا الصدد: «قضى رحمه الله خمس عشرة سنة من حياته أى منذ كانت سنة تسعة عشر عاما فى تكوين الحزب الوطنى، فابتدأ بأن جمع حوله بعض إخوانه المخلصين وكون منهم جماعة مخلصة له ولعمله».

ثم فكر سنة ١٩٠٠ فى جعل الحزب حزبا منظما على غرار الأحزاب الأخرى الأوروبية، وكتب فى عدد ٢ يوليه سنة ١٩٠٠ من اللواء مقالا بعنوان (حزب وطنى حر فى مصر) أعرب فيه عن أمنيته فى تأسيس هذا الحزب، كتب مقاله هذا من (بودابست)، حيث أعجبه مارآه من وطنية الشعب المجرى، قال فى هذا الصدد:

«إن تاريخ هذا الوطن المجرى هو أكبر مدرسة لرجل مثلى وهب حياته لخدمة وطنه وإعلاء شأنه»، وختم مقاله بقوله: «هل يسمح لى الزمان بأن أرى فى مصر هذا الحزب الوطنى الحر الشريف المبادىء، المتحد الأعضاء الناهض بالأمة إلى مراقى النجاح والفلاح؟ إنى أعرف أن اليائسين سيقولون إن (تأسيس حزب كهذا أمر محال) ولكنى إذا كنت لا أيأس من خلاص بلادى فمحال على أن أيأس من تحقيق هذا الأمر الجليل».

وفى سنة ١٩٠٧ إعتزام تنفيذ فكرته بوضع نظام للحزب الوطنى، وفى ذلك يقول فى لواء ١٠ أكتوبر سنة ١٩٠٧: «ولما كان لكل عمل وقت فقد جاء الوقت لأن يوضع للحزب الوطنى نظام تام بجمع كافة رجاله وأنصاره ومحبيه الذين مضوا السنوات وهم مشاركون لنا فى العمل بكل أنواع المشاركة، وإنى من ساعة وصولى الإسكندرية (٧ أكتوبر سنة ١٩٠٧) إلى هذه الساعة وكل واحد من رجال هذا الحزب وأبطاله الكرام يطالبنى بوضع هذا النظام بصورة نهائية حتى يتم التعاون بين جميع المخلصين لبلادهم المحبين لأمتهم المتشربين مبادىء الشهامة والإرادة والصدق والإقدام فتكون الخدمة أجل وأكبر، والعمل أفيد وأعظم».

خطبته الكبرى بالاسكندرية
(٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧)

وقد اعتزم عقب عودته من أوروبا إلقاء خطبة كبرى بالاسكندرية جعلها بمثابة دعوة عامة إلى الانضمام إلى الحزب الوطنى، واتخذ (الجلاء) مبدأ للحزب حتى صار أصحّ تعريف له أنه (حزب الجلاء).

كانت هذه الخطبة أكبر خطبة سياسية وطنية ألقاها فى حياته، وأحدثت من التأثير ما لم تحدثه أية خطبة أخرى، وهى لا تزال ماثلة فى الأذهان أكثر من أية خطابة أو كتابة للفقيد، وقد حدد لإلقائها مساء الثلاثاء ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ بمسرح زيزينيا. وما ان أعلن اللواء عن موعد إلقائها حتى إنهالت الطلبات من الراغبين فى سماعها، وفى مساء ذلك اليوم ازدحم المسرح على سعته بالحاضرين الذين جاءوا من كل صوب لسماع تلك الخطبة، وجلهم من عليه القوم وفضلائهم وذوى المكانة الأدبية، والشباب المثقف، وكل

ذى وطنية صادقة، حتى زخر المكان بهم، ولم يتسع لهم، فوقف الكثيرون منهم فى حديقة المسرح وفى الشوارع المجاورة له، وبلغ عدد الحاضرين نحو سبعة آلاف، وهو أكبر عدد إجتمع لسماع الخطيب وما أن ظهر عل منصة الخطابة فى منتصف الساعة التاسعة مساء حتى ضج المكان بالتهليل والتصفيق الشديد، وهتفوا جميعاً: «لتحيى مصر، ليحيى خدام الوطن، لتحيى الوطنية».

ثم أخذ الفقيد يلقى خطبته، ولم يكن يقف عند موضع يحسن الوقوف عنده إلا دوى المكان بالتصفيق وإظهار علامات الرضا والاستحسان، ولما تكرر التصفيق إضطر الفقيد أن يتقدم إلى السامعين بالرجاء ألا يصفقوا ففعلوا، ثم عادوا إلى التصفيق، وإستغرق إلقاء الخطبة نحو ساعة ونصف.

والخطبة هى أقوى خطب الفقيد وأعظمها شأنا، بل كانت أعظم خطبة ألقيت فى مصر والشرق منذ أقدم العصور، بدأها بشكر الحاضرين، ثم تكلم عن حياة مصر الوطنية بعد الاتفاق الودى الفرنسى الإنجليزى، ونوه بالخطوات الواسعة التى خطتها الحركة الوطنية برغم هذا الاتفاق، بعد أن كان الإنجليز يظنون أنه سيقضى على أمل الأمة، وأبان أن اعتماد الأمة على نفسها هو سبيلها إلى الاستقلال.

قال فى هذا الصدد:

«إن العزلة التى صرنا إليها بعثت فينا روحا جديدة وأرشدتنا إلى الحقيقة التى لا قوام لشعب بدونها ولا حياة لأمة بغيرها ولا وجود لنفر من الناس إذا لم يتبعوها وهى أن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها إلا بمجهوداتها، وأن الشعب كالفرد لا يكون آمنا على نفسه إلا إذا كان قويا بنفسه مستجمعا لكل عدد الدفاع وآلات الذبّ عن الشرف والمال والحياة».

ودعا الأمة فى خطبته إلى الانضمام إلى الحزب الوطنى.

وقد تضمنت الخطبة كلمات رائعة للفقيد لا تزال وستظل مضرب الأمثال فى قوة الوطنية والثبات فى الجهاد، وسنوردها فى الفصل الحادى والعشرين تحت عنوان (كلماته الخالدة).

وصف الاجتماع وتأثير الخطبة

كان للخطبة تأثير بالغ فى النفوس وفى الأندية السياسية والدوائر الأوروبية قالت جريدة «الريفورم» فى وصفها ما يأتى:

«لا يتاح للمرء فى كل يوم أن يحضر خطبة سياسية فى مصر، والحق يقال أن مصطفى كامل باشا هو الوحيد الذى اتبع طريقة الخطابة، وهو وحده الذى يسمعنا الخطب السياسية فى مصر، فكما رأيناه منذ عشر سنوات فى تياترو زيزينيا يخطب رأيناه مساء أمس فى التياتر ونفسه خطيباً سياسياً، وبديهى أن الصحفى لا يدع فرصة تفوته من هذا القبيل، بل إن أقل المخبرين والصحفيين مهارة يرى نفسه مضطراً إلى الكتابة عن خطبة رجل تمكن من جمع أكثر من ستة آلاف إنسان فى مظاهرة وطنية، أضف إلى حتشد هذا العدد العظيم جمع عدد من رجال الشرطة، فالصحفى الذى لا يخبر قراءه بمثل هذا الاجتماع هو صحفى مقصر فى واجبات وظيفته.

«وعلى هذا نقول لقرائنا إنه ما وافت الساعة النامنة مساء حتى تقاطرت جماهير لوطنين إلى تياتر وزيزينيا فملأوا الألواج والكراسى وإزدحم الملعب بهم أى مزدحم حتى لم يبق موطىء لقدم، بل لقد غصت المماشى والحديقة بالناس يأتون أفواجاً حتى امتلأ بهم الشارع، وقد كان الحاضرون بين باشوات وبكوات عقلاء وأفندية متحمسين، قادمين من جميع جهات الوجه البحرى لسماع خطبة «الرئيس» كما يلقبونه بذلك، وكان فى الحضور صفوة المحامين والأطباء الوطنيين فى الدلتا والقاهرة، وكانت نظرات الذكاء تلمع من خلف نظاراتهم الذهبية، وفيهم كل الشبيبة المصرية من جميع المدارس، أولئك الطلبة الذين ابتدأوا يشعرون بالحياة وتنطبع فى قلوبهم العواطف الصادقة، والعقائد السليمة.

«كان المنظر فخما جليلا، منظر هذه الطرابيش الحمراء التى ملأت الملعب جميعه وبينها هنا وهناك بعض العمائم البيضاء، كان المنظر جامعاً بين زهور مختلفة من أزهار الإنسانية، كان داعياً إلى الدرس الفلسفى والاجتماعى، وما أجدر منه بذلك وهو يمثل الألوف من العقول البشرية، وما أجدر منه بالتأمل والتفكير وهو يجمع فى جملته طلبة المدارس

المصرية هؤلاء الطلبة الذين سيكونون غداً رجال مصر وقوتها، هم الذين كانوا أشد استحساناً وتصفيقاً لخطبة مصطفى كامل، وأكثر تحية وإجلالا له، إن أذن الأوروبى المتعودة سماع الفصاحة الغربية قد لا تألف الفصاحة الشرقية ولا تتأثر كثيرا بنبرات صوت الخطيب الشرقى وتنقله بين إرتفاع وإنحدار وغير ذلك مما يناسب مقام التأثير على السامعين، ولكن هذا الشأن لا يصدق علينا نحن الذين عشنا فى مصر عشرات من السنين وألفنا سماع الفصاحة الشرقية وما فيها من قوة التأثير وحسن الإنشاء والتوقيع وجزالة اللفظ ورقة المعنى، ولقد كان الخطيب جامعاً لكل ذلك وتأثيره شديداً فى الحاضرين يمكن اتباع أثره على وجوههم من دقيقة إلى أخرى، كان تأثيره بحيث لم تكفّ الأيدى عن التصفيق له تصفيقاً صادراً من أعماق القلوب خالياً من كل تملق.

«إن لهذا الرجل قوة حقيقية على جمهور الوطنيين، ومن ينكر ذلك فهو ينكر الحقيقة الساطعة، إن كلامه مؤثر فى النفوس تأثيراً عظيما، على أننا نرى حقا علينا مدحه، لأنه لم يلعب بهذه العقول التى ملكها، ولم يستخدم تأثيره فى الحاضرين لطبع أثر سىء فى النفوس، بل كان كلامه غاية فى الاعتدال؛ لم يستعمل عبارة حادّة ولا استخدم ألفاظاً جارحة، وقد دامت خطبة رصيفنا إلى الساعة العاشرة، أى أنه ظل يخطب أكثر من ساعة ونصف دون أن يتولاه أقل تعب، ولما انتهى خطابه صفق له الحاضرون تصفيقاً حاداً، وارتفعت الأصوات قائلة: ليحيى مصطفى كامل ليحيى الحزب الوطنى. ويقدر عدد الذين حضروا هذه الخطبة بنحو سبعة آلاف إنسان، وقد إنصرفوا بهدوء لم تعد معه فائدة للقوة التى حشدها البوليس».

وكان للخطبة صدى كبير فى أوروبا، وخصصت لها جريدة (الطان) الفرنسية مقالها الافتتاحى، واقتبست فقرات منها، وأفاضت بنوع خاص فيما ورد فى الخطبة عن علاقة الإسلام بالمدنية، وكذلك فعلت جريدة (الفيجارو)، ووصفت (الإكلير) الاجتماع وأشارت إلى المظاهرة الكبرى التى قوبل بها الفقيد وإقتبست فقرات من الخطبة، ونشرت جريدة الديلى نيوز الإنجليزية مقالة إفتتاحية بحثت فيها حركة الإصلاح التى ظهرت فى العالم الإسلامى، وعدت مصطفى كامل باشا الرئيس السياسى للنهضة الإسلامية، وقالت إنه أقوى صحافى فى العالم الإسلامى، وقالت عن الخطبة إنها غاية فى الفصاحة، وإستطردت

من ذلك إلى إنتقاد السياسة التى ترمى إلى صبغ مصر بالصبغة الإنجليزية، وطلبت العفو عن مسجونى دنشواى وتعليم العلوم فى المدارس المصرية باللغة العربية.

أول جمعية عمومية للحزب الوطنى
(٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧)

وما أن دعا الفقيد الأمة إلى الانضمام للحزب الوطنى حتى انهالت طلبات الانضمام إليه من كل جانب، وعقدت أول جمعية للحزب بمصر يوم الجمعة ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ بدار اللواء، وكان اجتماعا حافلا تمثلت فيه طبقات الأمة من أعيان ومزارعين وسراة ومحامين وتجار وأطباء ومهندسين وأرباب أعمال وصناع وما إلى ذلك، وأحصيت تذاكر الدعوة التى قدمها المجتمعون فكان عددها ١٠١٩ تذكرة، وبلغ عدد الاعتذارات البرقية والبريدية (٨٤٦) اعتذاراً، وافتتح مصطفى كامل الجمعية العمومية بخطبة نوه فيها بوجود الحزب الوطنى من قديم، ثم أشار إلى ضرورة تنظيمه، وقال عن أغراض الحزب: «إننا لسنا حزبا سياسياً فقط بل نحن قبل كل شىء حزب حياة للأمة وإنهاض لها، فلا نغفل التعليم بين سائر الطبقات لحظة واحدة، وهو يرمى إلى الاستقلال أس كل سعادة، ويعمل لنشر التعليم حتى لا يبقى مصرى جاهلا تحت سماء مصر، ويسعى للوفاق بين الأمة وتقريب المسافة بينها وبين الشعوب الأخرى، وهو يرمى قبل كل شىء إلى أن يكون المصرى إنسانا بأسمى معانى الكلمة، وأقصد بالمصرى ليس فقط ذلك الذى نراه فى المدائن يجدّ ويعمل، بل أقصد بنوع خاص ذلك الفلّاح الذى قضى القرون من السنين وهو يعتقد أنه ملك للحاكم ومتاع لا إرادة له، فأسمى عمل نقوم به هو إنهاض ذلك الفلاح العزيز وإعلاء مكانته، فهو ممثل النشاط المصرى، ومصدر كل خير ونعيم؛ فليحيى عصر ينطق فيه التاريخ بأن الفلاح ألقى أثقال القرون الماضية وصار رجلا حراً بفضل أبناء وطنه المتعلمين المجاهدين فى سبيل حريته وسعادته».

ثم قال:

«إننا إذا دعونا الناس للدخول فى هذا الحزب لا ندعوهم باسم سلطة عالية أو حاكم نافذ الكلمة، بل ندعوهم باسم وطنيتهم، باسم شرفهم، باسم حقوق وطنهم، باسم كرامة

الإنسان، باسم ذكريات آبائهم وأجدادهم، باسم مصالح أبنائهم وأحفادهم».

ثم نفى تهمة الثورة التى ينسبها بعض خصومه إليه وتشبيهه بحزب العرابيين، وحمل على سياسة الاستسلام للاحتلال، واستنكر الحكم المطلق، ودعا إلى التمسك بالنظام الدستورى، وحث على الثبات والاتحاد، وقد قوبلت الخطبة بالتصفيق الشديد والاستحسان المتواصل.

ثم ألقى محمود بك أنيس كلمة مجّد فيها أعمال الفقيد وجهاده فى سبيل مصر، وانتخب الحاضرون بالإجماع مصطفى كامل رئيساً للحزب الوطنى مدى الحياة، فوقف الفقيد وارتجل فيهم الكلمة الآتية:

«أيها الإخوان:

«إنكم حملتمونى طول حياتى حملا ثقيلا على كاهلى، فأنا قبل كل شىء، أشكر لكم ثقتكم بى، هذه الثقة التى كانت عونا لى فى كل أعمالى، وأقول لكم إنكم أنتم قوتى وساعدى بصفتكم من خير أمة أوقفت لخدمتها حياتى وقواى وعقلى وقلبى وقلمى ولسانى وصحتى، وكم من صديق قال لى أشفق على صحتك التى لا تدخر وسعاً فى بذلها، ولكن الواجبَ لبلادى ووطنى ينسينى هذه النصائح الثمينة، فأنا الآن إذا قبلت إختياركم لى رئيسا فإنما هو لثقتى بأن كل واحد منكم أصبح حياتى وشعورى وإعتمادى، بل صار كل منكم فى الشعور الوطنى أكبر من «مصطفى كامل»

ثم وقف فؤاد بك سليم (باشا) وأخذ يتلو لائحة الحزب مادة فمادة والحاضرون يبدون رأيهم فيها، وبعد المناقشة صدقوا على نصها النهائى، وأهم ما جاء فيها أن رئيس الحزب هو مصطفى كامل مدى الحياة وأن الجمعية العمومية للحزب تجتمع مرة فى كل سنة فى شهر ديسمبر باسم (المؤتمر الوطنى)، واختصاصاتها انتخاب اللجنة الإدارية والتصديق على ميزانية الحزب وأعماله والنظر فى اقتراحات الأعضاء وتقرير كل أمر نافع للبلاد، وتناقش الجمعية فى كل إجتماع المسائل الحيوية كافة للقطر المصرى، ويبدى الأعضاء آراءهم فى كل أمر مهم، وتؤلف من أبحاثهم وأقوالهم مجموعة سنوية باسم (تقرير الحزب الوطنى)، وتؤلف اللجنة الإدارية من ثلاثين عضواً عدا الرئيس، وتنتخب لمدة ثلاث سنوات، وتجتمع مرة فى كل شهر على الأقل، وتنتخب وكيلين للحزب وسكرتيراً وأمين

الصندوق لتنفيذ قرارات اللجنة الإدارية وتجتمع مرة فى كل أسبوع على الأقل، وينشأ ناد للحزب وفروع له فى الأقاليم.

وبعد التصديق على اللائحة انتخب الحاضرون الأعضاء الثلاثين للجنة الإدارية الأولى وهم: محمد بك فريد. أحمد فائق باشا. حسن حارس باشا. سيد باشا شكرى. على باشا آصف. عمر بك سلطان (باشا). محمود بك أنيس. فؤاد بك سليم الحجازى (باشا). الأستاذ ويصا واصف (رئيس مجلس النواب سابقاً). الدكتور حسين يسرى بك. محمود بك محرم رستم. يوسف بك ذهنى. على بك فهمى كامل. على بك حشمت. محمود بك حسيب. عبد الحميد بك عمار. محمد بك حافظ رمضان(باشا). شمس الدين بك حمودة. إسماعيل بك لبيب. محمد بك خلوصى. محمد بك رشوان. عبد الرؤوف بك السيوفى. يوسف بك حافظ. إبراهيم بك حفظى. عبد الله بك طلعت. على بك هيطة. إسماعيل بك الملوانى. محمد بك عبد اللطيف. محمود بك فهمى حسين. الدكتور أحمد فهمى الجهينى. وانتهى الاجتماع فى الساعة السادسة مساءً، وانتخبت اللجنة الإدارية محمد بك فريد وأحمد فائق باشا وكيلين للحزب، وفؤاد بك سليم (باشا) سكرتيراً. وعمر بك سلطان (باشا) أميناً للصندوق.

وفى ٤ فبراير سنة ١٩٠٨ استقال عمر بك سلطان (باشا) من أمانة الصندوق مع بقائه عضواً باللجنة الإدارية، وانتخب على بك المنزلاوى ومصطفى بك الخادم المحامى عضوين فى اللجنة الإدارية بدلا من سيد باشا شكرى وعبد الرؤوف بك السيوفى المستقيلين من عضوية اللجنة.

الإفراج عن مسجونى دنشواى

ما فتئ الفقيد يطالب بالعفو عن مسجونى دنشواى، لكى يمحى أثر من آثار الظلم الذى وقع بالأبرياء من شهداء هذه الحادثة، ودعا المصريين إلى تقديم العرائض إلى الخديو بهذا الطلب، وقد لبت الأمة دعوته وأقبل المصريون على رفع العرائض الإجماعية إلى الخديو فى هذا الصدد وبلغت عدتها ١٤٨ عريضة وقع عليها ١٢٦٧٠ من المصريين، وتردد صدى هذه الحركة فى أوروبا وانجلترا، إذ طالب بعض النواب الأحرار فى البرلمان

البريطانى بالإفراج عن مسجونى هذه الحادثة، وكان من نتائج هذه الحركة المزدوجة أن تقرر فى شهر ديسمبر سنة ١٩٠٧ العفو عنهم، على أن ينفذ العفو فى يوم عيد الجلوس الخديوى (٨ يناير سنة ١٩٠٨)، وكان اللواء أول من زفّ إلى الأمة هذه البشرى، ولما اجتمعت الجمعية العمومية للحزب الوطنى فى يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ بدار اللواء كان من قراراتها إرسال كتاب شكر إلى الخديو على هذا العفو، وإرسال تلغرافات شكر إلى السير هنرى كامبل بانرمان رئيس الوزارة الإنجليزية والمستر نورمن النائب بالبرلمان الإنجليزى وإلى مدير جريدة (الديلى نيوز) على سعيهم فى استصدار هذا العفو.

وقد أفرج عن المسجونين الباقين يوم ٧ يناير لا يوم ٨، لكى لا تحدث مظاهرات فى اليوم المحدد للإفراج عنهم، وكان عددهم تسعة، منهم ثلاثة كانوا فى سجن الدلتا وهم محمد عبد النبى، وأحمد عبد العال محفوظ، وكان محكوماً عليهما بالأشغال الشاقة المؤبدة، ومحمد مصطفى محفوظ، وكان محكوماً عليه بالسجن سبع سنوات، وواحد كان فى سجن أبى زعبل وهو العيسوى محمد محفوظ، وكان محكوماً عليه بسبع سنوات وخمسة كانوا بليمان طره منهم واحد كان محكوماً عليه بالأشغال الشاقة خمس عشرة سنة وهو أحمد محمد السيسى والباقون كان محكوماً على كل منهم بالسجن سبع سنوات، وهم عبده البقلى ورسلان السيد على وعلى سمك وعلى على شعلان.

وقد قوبل نبأ الإفراج عنهم بالاستحسان والابتهاج العام فى البلاد، وهرع الذين خرجوا من السجن إلى القاهرة قاصدين دار (اللواء) ليقابلوا الفقيد ويقدموا له شكرهم على دفاعه المجيد عنهم، ويعربوا له عن اعترافهم بجميله إذ كان صاحب الفضل فى إطلاق سراحهم، ولكن الزعيم كان طريح الفراش فى مرضه الأخير، فلم يستطيعوا مقابلته وأعربوا للواء عن شعورهم نحو منقذهم العظيم.

* * *

الفصل الخامس عشر

القضاء المحتوم

(١٠ فبراير سنة ١٩٠٨)

كانت صحة الفقيد يعتريها التعب والاعتلال من الجهد الذى حملها إياه، وتدل رسائله الخاصة على أن صحته كانت فى حاجة إلى الراحة والعلاج قبل الوفاة بعدة سنوات، ولكنه كان ماضياً فى سبيله، لا يبالى أن يحملها ما لا تطيق من التعب والعناء.

كتب إلى مدام جولييت آدم من فيشى فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٩٠٣ يقول:

«يجب أن أقضى معظم هذا الشهر فى (التيرول) مع صديقى فريد بك الذى تشرفت بتعريفه إليك منذ سنتين، لأن الأطباء قد رأوا أنه من الواجب أن أمضى فى الجبل بعض الزمن، إذ أخذ التعب يستولى على أعصابى، ولهم الحق فى ذلك فإنى لم أشفق على نفسى».

وكتب إليها فى ٢٥ يونيه سنة ١٩٠٥ كتاباً قال فيه:

«إن العمل قد أضنانى إلى حد أشعر معه بسرعة الحاجة إلى ترك الوسط الذى أعيش فيه، وكأن الطبيعة قد خالفت سنتها، إذ جعلت قوة روحى أكبر من قوة جسمى».

وقد سافر فى يوليه من تلك السنة إلى أوروبا وقصد إلى لوزان وعرض نفسه على الدكتور بورجيه ليعالجه من مرض فى أمعائه كان يشتد به أحياناً فيؤلمه كثيراً وفى صيف سنة ١٩٠٦ ذهب إلى أوروبا للاستشفاء والعلاج، وكان فى حاجة قصوى إلى الراحة، ولكن حادثة دنشواى جعلته يقطع على نفسه سبيل الراحة والعلاج، فنهض نهضة الأسد، وبذل تلك الجهود الهائلة التى لا تصدر إلا عن أقوى الناس صحة وجسماً، ولما سافر إلى باريس ولندن فى شتاء سنة ١٩٠٦ يصحبه محمد بك فريد لاختيار محررى جريدتى ليتندار اجبسيان وذى اجبشيان ستندارد عاوده المرض فى أثناء الرحلة، ولزم الفراش بباريس عدة أيام عاد بعدها إلى الجهاد والكفاح.

وفى صيف سنة ١٩٠٧ ذهب إلى فرنسا كعادته كل عام للاستشفاء والجهاد، وكانت هذه آخر رحلة له بأوروبا، وكان يشعر بدبيب المرض يعتريه أحياناً، اذكر المسيو أدولف ادرير (مراسل الاتيندار فى باريس) أنه قابله وقتئذ بباريس فكان يقول له: «إنى أشعر أن المرض قد دبّ إلىّ، ترى هل أعيش حتى أرى أول نجاح لجهودى؟ ليحصد الآخرون نتائج جهودى، ولكن ليكن لى وقت كاف للغرس والزرع، وكان هذا القول نذيراً بخطورة مرضه، وقد قابله فى شهر أغسطس فى إفيان على بحيرة جنيف حيث قصدها للعلاج، وكان يلزمه أن يمكث بها واحداً وعشرين يوماً للاستشفاء بحماماتها، ولكنه لم يمكث بها غير عشرة أيام لشعوره بضعف قواه، فسافر إلى أعالى جبال سويسرا، ولم يلبث بها غير بضعة أيام، لأنه لم يكن يستريح أينما توجه، قال المسيو ادرير: «وجاء شهر سبتمبر فعدت وإياه إلى باريس ولم أتركه حتى ساعة سفره، وكان دائماً متوعك الصحة، فكنت أرى هذا الوجه الذى ترتسم عليه الشجاعة، والذكاء والإقدام ممتقعاً شاحباً، وقد سافر منهوكاً إلى حيث لا يعود إلينا أبداً».

وقد عاد الفقيد إلى مصر فى أكتوبر ١٩٠٧، فقابله الشعب بأعظم مظاهرة قوبل بها فى حياته، وأخذ يبذل الجهود الجبارة لتنظيم الحزب الوطنى حتى إذا لم يكن فى عمره متسع، لا يخشى عليه من الإنحلال، وألقى خطبته الشهيرة بالإسكندرية يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧، وعلامات الضعف بادية على محياه، وقد لمحها أصدقاؤه الأقربون.

واشتدت به العلة قبل وفاته بثلاثة أشهر، ولكنه كان يغالب المرض ويجاهد جهاد الأبطال، ولما حان موعد اجتماع الجمعية التأسيسية للحزب الوطنى يوم ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧، ترك سرير مرضه ونزل إلى سياحة دار اللواء حيث اجتمعت الجمعية العمومية، وألقى خطبته كأقدر وأقوى خطيب، حتى دهش السامعون لبلاغته وبراعة إلقائه وقوة جنانه، مع ما كان بادياً عليه من الضعف، وكانت هذه آخر خطبة ألقاها رحمه الله، ثم اشتد به المرض عقب الاجتماع وعاد إلى غرفته مريضاً ولم يغادرها، وقد بلغه فى صباح اليوم التالى للاجتماع نبأ وفاة صديقه ونصيره الكبير لطيف باشا سليم أحد مؤسسى الحزب الوطنى وأحد أعلام الحركة الوطنية فجزع لوفاته جزعاً شديداً، وازداد ما به من المرض حزناً على صديقه العظيم.

وكان وهو على سرير المرض لا يدع العمل والتفكير، فقد أرسل وهو طريح الفراش

قبل وفاته بخمسة أيام احتجاجاً برقياً قوياً ضد تصريحات فاه بها السير إدوارد جراى فى مجلس العموم البريطانى اتهم فيها المصريين بعدم الكفاية للحكم الذاتى، فرد عليه بأن مصر تماثل فى الاستعداد للحكم الذاتى كثيراً من الأمم الأوروبية، وأن مصر ستظل تجاهد فى سبيل حريتها واستقلالها حتى تنالها.

الوفاة

وأخذ المرض يشتد ويلح عليه أعيى الطب والأطباء، إلى أن حُمّ القضاء، وأسلم الفقيد الروح فى الساعة الرابعة من عصر يوم الاثنين ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ (٨ محرم سنة ١٣٢٦ هـ)، فانتشر نعيه بسرعة البرق فى العاصمة والأقاليم، وطيرت الأسلاك البرقية خبره إلى الخارج، وملأ النبأ الفاجع جنبات وادى النيل، ويالها من لحظة رهيبة حين فوجئنا بالنعى ونحن فى مدرسة الحقوق، فقابلناه بالذهول والوجوم، وفاضت دموعنا حزناً وأسى على الفقيد الذى كان لنا إماماً وطنياً، وأبا روحياً، وما كاد يذيع نعيه حتى عم الحزن أرجاء مصر، فكان له فى كل نفس مناحة وفى كل قلب مأتم.

جنازة الزعيم

كان الاحتفال بتشييع جنازة مصطفى كامل يوماً مشهوداً فى تاريخ الحركة الوطنية، كان مظهراً رائعاً لشعور الوطن نحو الزعيم، انبعث من القلوب المكلومة والأفئدة الحزينة لفقده، أرادت الأمة أن تشيعه إلى مقره الأخير، وأن تظهر وفاءها لباعث نهضتها الوطنية، وموقظها من رقدتها، وأدرك الناس كافة حتى الذين كانوا لا يؤمنون برسالة مصطفى كامل أن بطلها وزعيمها الشاب جدير حقاً بتقدير الوطن، ولم يكن هذا الشعور مقصوراً على طبقة دون أخرى، بل تناول طبقات الأمة كافة، شمل المتعلمين وغير المتعلمين، وتناول الكبار والصغار، والرجال والنساء.

لم يكد يذاع خبر الوفاة بين طلبة المدارس حتى قرروا بمحض شعورهم اعتبار يوم تشييع الجنازة يوم حداد عام، عطلت فيه المدارس كلها حزنا على الزعيم، وقرروا جميعاً الاشتراك فى الجنازة التى حدد لها عصر يوم الثلاثاء ١١ فبراير، فسرنا فيها جميعاً

مدفوعين بشعور واحد، شعور الحزن للفجيعة، والوداع للراحل العظيم.

ومع عظم منزلة الفقيد، لم يكن متوقعاً أن تكون الجنازة بالضخامة والروعة والعظمة التى تجلت فيها، وكان مقرراً أن تسير من طريق سراى عابدين ومنها إلى باب الخلق فمدافن الإمام الشافعى، واختير هذا الطريق بدلاً من طريق السيدة زينب، التماساً لاتساع الشوارع وطولها منعاً للزحام، ولكن بوادر الحال دلت على أن هذه الشوارع مهما اتسعت فإنها لا تكفى للجموع الزاخرة والألوف المؤلفة التى قدمت من نواحى العاصمة كافة، ومن الضواحى والثغور والأقاليم، واكتظت بها الشوارع المحيطة بدار اللواء قبل الموعد المحدد لتشييع الجنازة بأربع ساعات، فرؤى إلغاء القرار السابق واختيار أطول طريق للجنازة بين دار اللواء ومدافن الإمام، ليتسنى للجموع الحاشدة الاشتراك فيها وهو طريق شارع الدواوين (نوبار باشا الآن) حيث كانت دار اللواء[1]، فشارع المدابغ فشارع المناخ فميدان الأوبرا فشارع البوستة فميدان العتبة الخضراء فشارع محمد على (القلعة الآن) فميدان المنشية (صلاح الدين الآن) ومنه إلى مدافن الإمام، وهذه المسافة لا تقل عن اثنى عشر كيلومتراً، وخصصت حكمدارية بوليس العاصمة أكبر قوة من العساكر المشاة والفرسان وأضافت إليها عدداً كبيراً من جنود الاحتياطى وقلم المرور، لتنظيم سير الجنازة، وأوقفت عدداً آخر من البوليس فى منافذ الطرق على طول الخط للمحافظة على النظام، ولكن كل تقدير لعظم الموكب كان أقل من الواقع.

وأخذ العظماء والكبراء والمثقفون وطبقات الأمة كافة يفدون إلى دار اللواء حتى غصت بهم على سعتها، وفاض جمعهم المتدفق إلى شارع الدواوين فملأه، ثم ضاق بجموعهم الزاخرة، فامتلأت بهم الشوارع المجاورة، وتعطل المرور من جميع الشوارع التى تتصل بطريق الجنازة، وأوقفت مركبات الترام فى جميع خطوط العاصمة، وما حانت الساعة الثالثة بعد الظهر وهو الوقت المحدد للبدء بسير الجنازة حتى لم يبق موضع لقدم، وبدأت الجنازة فى المسير، فتقدم المشهد الجنود الفرسان فتلاميذ مدرسة «مصطفى كامل»، فالمدارس الابتدائية الأميرية والأهلية، فطلبة مدرسة دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى، فالمدارس الثانوية وهى التوفيقية والخديوية والسعيدية وكثير من طلبة مدرسة رأس التين

---

(١) مكان مدرسة عابدين الابتدائية الآن.

بالإسكندرية ومدرسة عبد العزيز والمدرسة الإلهامية، ومدارس الأقباط الكبرى، وفيكتوريا والفرير، ثم المدارس العليا وهى الحقوق والطب والمهندسخانة والزراعة والصنائع، ثم عساكر البوليس وتلاميذ مدرسة البوليس، ثم نعش الزعيم مغطى بالراية المصرية، محمولاً على أعناق طلبة مدرسة الحقوق، مندوبين لذلك من قبل جميع طلبة المدارس العليا، وكانت كل مدرسة تحمل علماً مجللاً بالسواد وفيه شارة تدل عليها، وقد صنعت هذه الرايات خصيصاً للاشتراك فى الجنازة، كما أن مدرسة الزراعة رفعت أمامها شجرة مجللة بالسواد، ثم سار المشيعون خلف النعش، يتقدمهم المرحوم محمد بك فريد، وكان عددهم فى بدء الجنازة يزيد على عشرات الألوف، إلا أن ذلك الجمع الهائل لم يكن إلا قطرة من بحر ممن انضم إلى الجنازة أثناء مسيرها، حتى زخرت الشوارع بالمشيعين، ولما تعذر سيرهم فى موكب الجنازة وقف معظمهم على جانبى الشوارع من دار اللواء إلى مدفن الفقيد، وبلغ عدد المشيعين نحو ٢٥٠,٠٠٠ (ربع مليون) نفس، عدا الألوف الذين كانوا على جانبى الطريق، وفى نوافذ المنازل والفنادق وشرفاتها، وفوق أسطحها، وفى المنعطفات المترامية الأطراف، وجملة القول أن الشوارع الواقعة بين دار اللواء وقبر الفقيد كانت العين لا تقع فيها إلا على أجسام متراصة من المشيعين، أو كتعبير المسيو ريمون كولرا مدير جريدة (إيجيبت) فى وصف الجنازة: «إن شوارع القاهرة فيما بين دار الفقيد وقبره كانت مفروشة ببساط أحمر، إشارة إلى الطرابيش الحمراء، ومع اشتداد هذا الزحام الذى لم يسبق له نظير، كان النظام مستتباً، والسكون شاملاً رهيباً، ولم يكن يسمع أثناء سير الجنازة سوى بكاء الباكين والباكيات وزفراتهم، ونواحهم الصادر من أعماق قلوبهم، وكلهم يبكى شباب الزعيم ووطنيته، فكان هذا الاحتفال الرهيب أعظم وأروع جنازة فى تاريخ مصر الحديث، وصفها المرحوم قاسم أمين بقوله: «١١ فبراير سنة ١٩٠٨ ! يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل، هى المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق، المرة الأولى كان يوم تنفيذ حكم دنشواى، أما فى يوم الاحتفال بجنازة صاحب «اللواء» فقد ظهر ذلك الشعور ساطعاً فى قوة جماله، وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ووصل صدى دويها إلى جميع أنحاء القطر، هذا الإحساس الجديد، هذا المولود الحديث الذى خرج من أحشاء الأمة، من دمها وأعصابها، هو الأمل الذى يبتسم فى وجوهنا البائسة، هو الشعاع الذى يرسل حرارته إلى قلوبنا الجامدة الباردة. هو المستقبل».

سارت الجنازة حتى جامع «قيسون» بشارع محمد على حيث أقيمت الصلاة على الفقيد. ثم تابعت سيرها فى بحر زاخر من الجموع والدموع حتى مدفن الزعيم بقرافة الإمام الشافعى، واستمر سيرها أربع ساعات، ولما وصلت ساحة المدفن كانت على رحبتها غاصة بفريق من المشيعين ممن سبقوا الموكب تفادياً من الزحام وتعذر دخول الجموع الحاشدة إلى رحبة المدفن، وأبى طلبة المدارس إلا أن يدخلوا ولما لم يكن ذلك ميسوراً لاشتداد الزحام، انتدبت كل مدرسة وفداً ينوب عنها، وكان حملة النعش منهم قد كثر عددهم، وأبو إلا أن يظلوا حامليه داخل المدفن حتى حافة الضريح الطاهر، فأجيبوا إلى طلبهم بعد تذليل الصعاب فى إجابته، إذ كان الزحام الهائل داخل رحبة المدفن يحول دون ذلك.

وعندما اجتاز النعش ساحة المدفن وأدخل مكان الضريح ووضع على حافته ضجّ المكان بالبكاء والنحيب، وفى هذا الوقت وقف الشاعر الكبير إسماعيل صبرى باشا وكان صديقاً حميماً للزعيم ليلقى كلمة الوداع، فألقى البيت الأول منها وهو:

أداعى الأسى فى مصر ويحك داعيا   هددت القوى إذ قمت بالأمس ناعيا

ولم يكد يلقيه حتى ظهر عليه التأثر الشديد والإعياء، ولم يتم رثاءه.

قصيدة حافظ إبراهيم

ثم قام شاعر النيل حافظ إبراهيم وألقى قصيدته الرائعة فى رثاء الفقيد، قال:

أيا قبرُ هذا الضيفُ آمال أمة   فكبرْ وهلل والقَ ضيفكَ جاثيا

عزيزٌ علينا أن نرى فيك مصطفى   شهيد العلا فى زهرة العمر ذاويا

أيا قبر لو أنا فقدناه وحده   لكان التأسى من جوى الحزن شافيا[٢]

ولكن فقدنا كلّ شىء بفقده   وهيهات- أن يأتى به الدهر ثانيا

فيا سائلى أين المروءة والوفا   وأين الحَجا والرأى؟ ويحك ها هيا

---

(٢) التأسى بمعنى الصبر على المصيبة.

هنيئاً لهم[٣] فليأمنوا كل صائح فقد أُسكت الصوتُ الذى كان عاليا
ومات الذى أحيا الشعور وساقه إلى المجد فاستحيا النفوس البواليا[٤]

* * *

مدحتكَ لما كنت حياً فلم أُجِدْ وإنى أجيدُ اليومَ فيك المراثيا
عليك[٥]، وإلا ما لذا الحزن شاملا وفيك، وإلا ما لذا الشعب باكيا
يموت المداوى للنفوس ولا يرىَ لما فيه من داء النفوس مداويا
وكنا نياما حينها كنت ساهدا[٦] فأسهدتنا حزناً وأمسيتَ غافيا[٧]

* * *

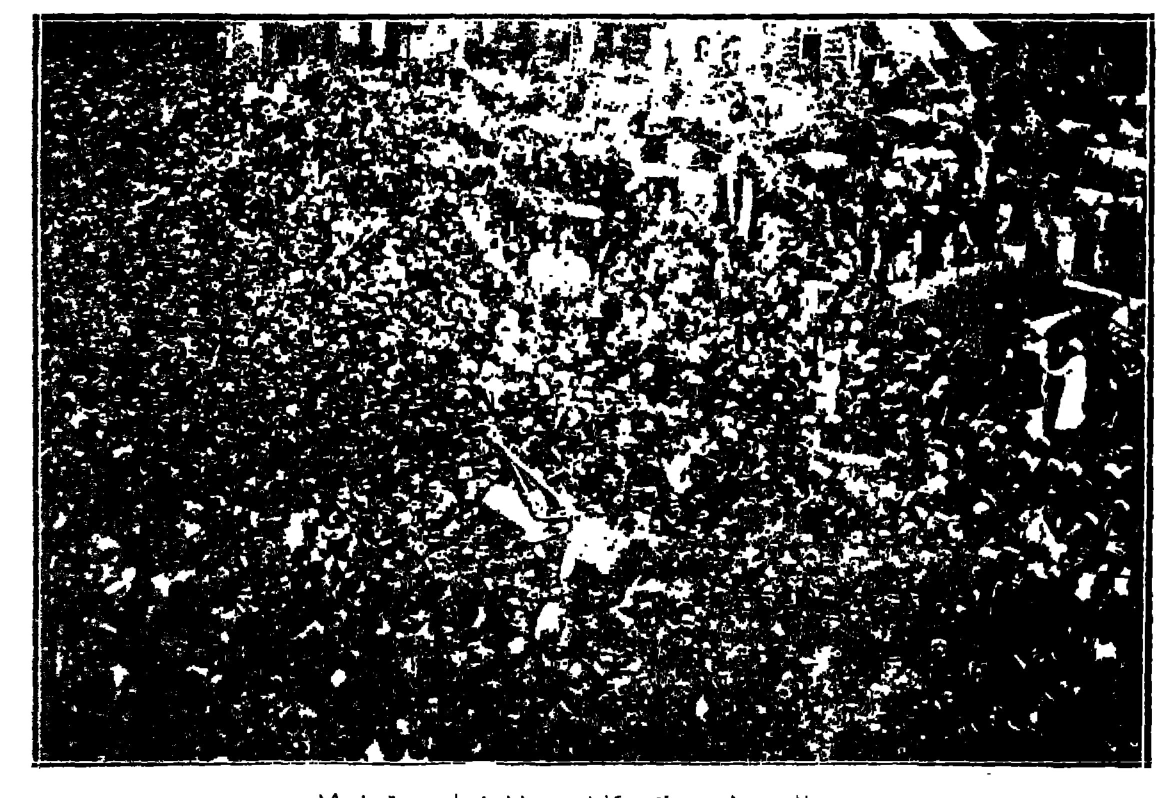
شهيد العلا، لا زال صوتك بيننا يرنُّ كما قد كان بالأمس داويا
يهيبُ بنا: هذا بناءٌ أقمته فلا تهدموا بالله ما كنتُ بانيا
يصيح بنا: لا تشعروا الناس أننى قضيتُ وأن الحىّ قد بات خاليا
يناشدُنا بالله ألاّ تفرّقوا وكونوا رجالاً لا تسروا الأعاديا
فروحىَ من هذا المقام مطلة تشارفكم[٨] عنى وإن كنتُ باليا
فلا تحزنوها بالخلاف فإننى أخاف عليكم فى الخلاف الدواهيا

* * *

أجلْ أيها الداعى إلى الخير إننا على العهد ما دمنا فنم أنت هانيا
بناؤك محفوظٌ وطيفك ماثلٌ وصوتك مسموع وإن كنت نائيا
عهدناك لا تبكى وتنكر أن يُرىَ أخو البأس فى بعض المواطن باكيا
فَرَخّص لنا اليومَ البكاءَ وفى غد ترانا كما تهوى جبالاً رواسيا
فيانيلُ إن لم تجْرِ بعد وفاته دماً أحمراً لا كنتَ يا نيلُ جاريا

---

(٣) يريد الإنجليز.
(٤) استحيا: أى أحيا.
(٥) عليك: أى عليك الحزن.
(٦) ساهداً: ساهراً.
(٧) غافيا: أى نائماً.
(٨) تشارفه أى تنظر إليه من علو.



جنازة المغفور له مصطفى كامل - ١١ فبراير سنة ١٩٠٨
(هذه الصورة وصورتا الاحتفال بافتتاح نادى المدارس العليا أهداها إلينا الأستاذ عبد المقصود متولى عضو
اللجنة الإدارية للحزب الوطنى ومن خيرة تلاميذ الفقيد)

ويا (مصر) إن لم تحفظى ذكر عهده إلى الحشر لا زال انحلالك باقيا
ويا أهل (مصر) إن جهلتم مصابكم ثقوا أن نجم السعد قد غار هاويا
ثلاثون عاماً[٩] بل ثلاثون ذرّة بجيد الليالى ساطعات زواهيا
ستشهد فى التاريخ أنك لم تكن فتى مفرداً بل كنت جيشاً مغازيا

ثم وقف المرحوم أحمد أفندى حلمى أحد محررى اللواء ومن خاصة تلاميذ الزعيم، وألقى كلمة مؤثرة فى وداعه، ثم أنزل جثمان الفقيد إلى مثواه الأخير بين الضجيج والنحيب، ووضع المشيعون الأزهار والرياحين على قبره، وعادت الجموع تبكى زعيم الحركة الوطنية ولبست العاصمة فى ذلك اليوم الرهيب ثوب الحداد العام.

رثاء الزعيم وحفلات التآبين

اهتزت البلاد وروعت لوفاة الزعيم فجادت قرائح الشعراء والأدباء والكتاب بالمراثى الصادرة من أعماق القلوب، وممن رثاه من أعلام الأدب شوقى بك أمير الشعراء وكان من أصدق أصدقائه وأكثرهم إعجاباً به، وقد حزن عليه حزناً شديداً، وترجم عن شعوره بقصيدة تجلت فيها حكمة الشعر وروعة البلاغة، نشرت يوم ٢٣ فبراير سنة ١٩٠٨ عقب وفاة الزعيم بثلاثة عشر يوماً، فأثرت فى النفوس تأثيراً عميقاً، وجددت أحزان الأمة، ننشرها هنا لأنها قطعة من تاريخ الزعيم، وصورة حية بريشة أمير الشعراء.

رثاء شوقى لمصطفى كامل
(الحياة فى الموت)

المشرقان عليك ينتحبان قاصيهما فى مأتم والدانى
ياخادمَ الإسلام أجر مجاهد فى الله من خلد ومن رضوان
لما نعيتَ إلى الحجاز مشى الأسى فى الزائرين ورُوِّع الحرمان

---

(٩) إشارة إلى عمر الفقيد وهو رقم تقريبى لأنه توفى فى الرابعة والثلاثين من عمره.

السكة الكبرى[١٠] حيال رباهما ... منكوسة الأعلام والقضبان
لم تألها عندْ الشدائد خدمة ... فى الله والمختار والسلطان
ياليت مكة والمدينة فازتا ... فى المحفلين بصوتك الرنان
ليرى الأواخر ذاك ويسمعوا ... ماغاب من قس ومن سحبان[١١]

* * *

جارَ التراب وأنت أكرم راحل ... ماذا لقيتَ من الوجود الفانى
أبكي صباك ولا أعاتب من جنى ... هذا عليه كرامة للجانى[١٢]
يتساءلون أبالسلال قضيت أم ... بالقلب أم هل مت بالسرطان
الله يشهد أن موتك بالحجا ... والجد والإقدام والعرفان

* * *

إن كان للأخلاق ركن قائم ... فى هذه الدنيا فأنت البانى
بالله فتِّش عن فؤادك فى الثرى ... هل فيه آمالٌ وفيه أمانى
وجدانكَ الحىّ المقيم على المدى ... ولربَّ حىٍ ميّتِ الوجدان

* * *

الناسُ جارٍ فى الحياة لغاية ... ومضلَّلٌ يجرى لغير عنان
والخلدُ فى الدنيا وليس بهيّنٍ ... عليا المراتب لم تتح لجبان
فلو أن رسلَ الله قد جبنوا لما ... ماتوا على دين ولا إيمان
المجد والشرف الرفيع صحيفة ... جُعلت لها الأخلاق كالعنوان
وأحبُّ من طول الحياة بذلة ... قِصرٌ يريك تقاصر الأقران
دقاتُ قلب المرء قائلة له ... إن الحياة دقائق وثوان
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها ... فالذكر للإنسان عمرٌ ثانى
للمرء فى الدنيا وجم شؤونها ... ماشاء من ربح ومن خسران

---

(١٠) يريد سكة حديد الحجاز.
(١١) قس وسحبان خطيبان من أبلغ خطباء العرب.
(١٢) الجانى إشارة إلى الفقيد، أى أنه ضحى بحياته وشبابه فى سبيل مصر.

فهى القضاء لراغب متطلع وهى المضيق لمؤثر السلوان

* * *

الناس غاد فى الشقاوة رائحٌ يشقى له الرحماء وهو الهانى
ومنعَّم لم يلق إلا لذة فى طيها شَجنٌ من الأشجان
فاصبر على نُعمى الحياة وبؤسها نعمى الحياة وبؤسها سيان

* * *

ياطاهرَ الغدوات والروحات والخطرات والإسرارِ والإعلان
هل قام قبلك فى المدائن فاتح غاز بغير مهنّد وسنان
يدعو إلى العلم الشريف وعنده أن العلوم دعائم العمران
لفُّوك فى علم البلاد منكسا جزَع الهلالُ على فتى الفتيان
ما احمرّ من خجل ولا من ريبة لكنما يبكى بدمع قانى[13]
يُزْجُون نعشك فى السناء وفى السنا فكأنما فى نعشك القمران
وكأنه نعش (الحسين «بكربلا» يختال بين بكى وبين حنَان
فى ذمة الله الكريم وبره ماضم من عرف ومن إحسان

* * *

ومشى جلال الموت وهو حقيقة وجلالك المصدوق يلتقيان
شقّت لمنظرك الجيوبَ عقائلٌ وبكتكَ بالدمع الهتون غوانى
والخلقُ حولك خاشعون كعهدهم إذ ينصتون لخطبة وبيان
يتساءلون بأى قلب ترتقى بعدُ المنابر أم بأى لسان
فلو أن أوطانا تُصَوِّر هيكلا دفنوك بين جوانح الأوطان
أو كان يُحمل فى الجوارح ميت حملوك فى الأسماع والأجفان
أو صيغ من غرّ الفضائل والعلى كفن لبست أحاسن الأكفان
أو كان للذكر الحكيم بقية لم تأت بعدُ رثيت فى القرآن

* * *

(١٣) قانى أحمر.

ولقد نظرتك والردى بك محدق ... والداء ملء معالم الجثمان
يبغى ويطغى والطبيب مضلل ... قَنِطٌ وساعات الرحيل دوانى
ونواظرُ العوَّاد عنك أمالها ... دمعٌ تعالج كتمه وتعانى
تملى وتكتب والمشاغل جمة ... ويداك فى القرطاس ترتجفان
فهشتَ لى حتى كأنك عائدى ... وأنا الذى هدّ السقام كيانى
ورأيت كيف تموت آساد الشرى ... وعرفت كيف مصارع الشجعان
ووجدتُ فى ذاك الخيال عزائماً ... ما للمنون بدكهن يدان

* * *

وجعلتَ تسألنى الرثاء فهاكه ... من أدمعى وسرائرى وجنانى
لولا مغالبةُ الشجون لخاطرى ... لنظمتُ فيك يتيمة الأزمان
وأنا الذى أرثى الشموس إذا هوت ... فتعود سيرتها من الدوران

* * *

قد كنت تَهتف فى الورى بقصائدى ... وتجلُّ فوق النيرات مكانى
ماذا دهانى يوم بِنْتَ فعقنى ... فيك القريض وخاننى إمكانى
هَوِّنْ عليكَ فلا شمات بميت ... إن المنية غاية الإنسان
من للحسود بميتة بُلِّغتها ... عزت على كسرى أنو شروان
عوفيتَ من حَرَب الحياة وحرْبها ... فهل استرحت أم استراح الشانى

* * *

ياصَبَّ مصر ويا شهيدَ غرامها ... هذا ثرى مصر فنم بأمان
إخلع على مصر شبابك غالياً ... والبس شباب الحور والولدان
فلعل مصراً من شبابك ترتدى ... مجداً يتيه به على البلدان
فلو إن بالهرمين من عزَماته ... بعضَ المضاء تحرّك الهرمان
عَلّمتَ شبان المدائن والقرى ... كيف الحياة تكون فى الشبان
مصر الأسيفة ريفها وصعيدها ... قَبرٌ أبرُّ على عِظامِك حانى
أقسمت أنك فى التراب طهارةٌ ... مَلك يهاب سؤاله الملَكان

حفلة التأبين الكبرى - يوم الأربعين

أقام الحزب الوطنى حفلة تأبين كبرى للفقيد يوم الأربعاء لوفاته (الجمعة ٢٠ مارس سنة ١٩٠٨)، وألف لجنة لتنظيمها برآسة المرحوم محمد بك فريد، وقد تجدد الحداد على الفقيد فى ذلك اليوم، فكنت ترى معظم المحال التجارية مغلقة وعليها علامات الحداد، والأعلام منكسة تجللها شارات السواد، وعربات الركوب موقدة المصابيح مجللة بأشرطة سوداء، والشباب من فتيان وفتيات لابسين شارات الحداد، وكان محدداً لحفلة التأبين الساعة الثالثة عصر ذلك اليوم بالساحة الواسعة التى تحيط بضريح الزعيم بمدافن الإمام الشافعى، وكان البرنامج أن يتألف موكب الأربعين ويسير بنظام من دار اللواء بشارع الدواوين (نوبار باشا الآن) إلى مدفن الزعيم، وهناك ينتظره المدعوون للحفلة، فمنذ أخذت وفود الطلبة وجموع الوطنيين يحتشدون فى الشوارع المجاورة لدار اللواء، ثم انتظم منهم موكب رهيب يشبه فى عظمته وعدده موكب تشييع الجنازة، وسار فى نفس طريقها إلى مدافن الإمام، وتقدمه طلبة المدارس الابتدائية ثم الثانوية ثم الخصوصية ثم العالية ثم الأزهر، ولكل مدرسة علمها، ثم جمعيات الشبيبة وجماعات الصناع وجمعيات الأقاليم وجمعية النهضة الوطنية ببولاق، تتلوها عربة الفقيد مجللة بالسواد لا يركبها أحد علامة على فقد صاحبها العظيم، ثم الوفود من أحياء العاصمة والأقاليم، وبدأ سير الموكب فى الساعة الأولى بعد الظهر تماماً، وسار بنظام رهيب حتى وصل إلى المدفن فى الساعة الثالثة والدقيقة ٤٥، فكانت مظاهرة حداد قومية لم يسبق لها مثيل، وقد أعد الحزب الوطنى مكان الاحتفال بعد أن أزال البناء الذى فى تلك الساحة لكى يتسع لعشرة آلاف من المدعوين، وعند الساعة الثالثة بدأ الاحتفال قبل مجىء الموكب، فافتتح بتلاوة ماتيسر من القرآن الكريم.

خطبة محمد بك فريد

وكان أول الخطباء المغفور له محمد بك فريد رئيس الحزب الوطنى، فألقى الخطبة الآتية:

«إخوانى الأعزاء:

«إن اجتماعكم هذا لأكبر دليل وأسطع برهان على أن رئيسنا المرحوم مصطفى كامل باشا لم يمت، نعم لم تمت من جمعت كلمته هذه الألوف المؤلفة من الناس، بل هذه الملايين العديدة من الخلائق، بعد أن كنت لا ترى اثنين يتفقان على عمل ما، حتى ضرب بتخاذلنا المثل وقالوا إن المصريين اتفقوا على أن لا يتفقوا، ولكن الفقيد بث هذه الروح الجديدة بين جميع طبقات الأمة المصرية بثباته وعدم تزعزع عزيمته أمام ما صادفه من العقبات ولاقاه من الصعوبات التى أنا أعلم بها من غيرى.

«وضع مصطفى كامل نصف عينيه خدمة مصر وإيقاظها من سباتها منذ كان بمدرسة الحقوق الخديوية بل منذ كان بالمدارس الثانوية، وسار فى طريقه الشريف طريق التفانى فى خدمة البلاد، لا يلوى يمنة أو يسرة، حتى توج الله أعماله بالنجاح ورأى غرسه يانعا قبل أن يترك هذا العالم الفانى، نعم إن مصطفى كامل لم يمت بل روحه ترفرف علينا وتنظر إلينا من الملكوت الأعلى تشجعنا على السير فى الطريق المستقيم الذى رسمه لنا، ولن نترك هذا الغراس الشريف، غراس الوطنية الحقة يزول أو يعوقه أى عائق عن النمو، ولو فعلنا ذلك لارتكبنا خيانة نحو الوطن المحبوب.

«إن هذه الفكرة السامية، فكرة خدمة الوطن حتى الممات، كانت تملأ جنانه ووجدانه منذ بدأ فى عمله، فقد كتب لى جواباً فى ٢١ أكتوبر سنة ١٨٩٦ من فيينا قال فى آخره: «إنى مستمر إلى يوم الوفاة على خدمة بلادى، وإن غيرتى على حقوقها تزداد يوماً بعد يوم، ولا يقلل من عزمى تهاون بقية المصريين أبدا بل إنى سائر إلى الأمام حتى أنزل القبر، وبعد موتى يكون على روحى واجب الاستمرار وواجب دعوة الأحياء إلى العمل، أو إن شئت قل واجب إحياء من هم أموات فى قالب أحياء».

«لقد نجح مصطفى كامل فى عمله، فقد أصبح القوم كلهم أحياء، أصبح القوم كلهم متفقين على التعاون والتضافر على خدمة هذه البلاد العزيزة، فاستمروا ياإخوانى فى هذا الطريق السوى، ولا يقعدنكم عن العمل تثبيط بعض ضعفاء العزيمة أو انتقاد بعض الجاهلين والمتجاهلين لمقاصدنا الشريفة، فإن سرنا بعزيمة واتحاد لا يلبث أهل القطر أجمعهم أن يصبحوا كالبنيان المرصوص يشد بعضنا بعضا وننلنا ماكان يسعى إليه فقيدنا.

«وكتب إلىّ فى جواب آخر من بودابست فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦ رداً على من كانوا ينكرون عليه فائدة عمله قائلا: «ولكنهم جهلوا أن لى روحاً هى من نور الحرية الساطعة لا تستطيع الحياة فى ظلمات الظلم والاستبداد، جهلوا أن روحى تنادى إلى يوم الممات ما شاكلها من الأرواح الشريفة لتتحد معها على القيام بهذا العمل الشرعى الحق، وماذا أقول لك وأنت تحس بما لا يستطيع القلم كتابته وأنت إذا تلوت هذه الأسطر سالت الدموع من عينيك، ماذا أكتب وأنا كلما شاهدت هذه البلاد وشاهدت فيها علم الوطنية عالياً مرفوعا ازداد لهيب فؤادى وتفتت منى الكبد»

«هذه أقواله من نحو اثنى عشر عاما، فحق لمصر أن تبكيه بدل الدموع دما، ووجب عليها أن تقيم له التماثيل فى كل المدن الكبرى، ووجب على كل مصرى أن يضع صورته أمامه ليقتبس نور الحرية من خدماته التى كانت أشعتها تخترق الحجب فتصل إلى أعماق القلوب، ووجب علينا أن نستنير بما كتبه من المواعظ والحكم الوطنية، نعم إن صورته لن تغيب عنا، بل هى منقوشة على صفحات قلوبنا، كما أن أقواله مكتوبة بأحرف من نور على أفئدتنا، ولكن فائدة التماثيل هى لمن يأتى بعدنا ولم ير بعينه ذلك الذكاء ولا هاتيك الشهامة التى كانت تنبعث من محياه فتحرك القلوب الجامدة، لقد شهد له ألد أعدائه بقوة التأثير بخلابة منطقة وقوة حجته ونفوذ روحه إلى نفس المتكلم فيخرج من لدنه مقتنعا معترفا بفضله إن لم يكن جهراً فسراً.

«إخوانى الأعزاء

«لقد اجتمعتم هنا لتأبين المرحوم مصطفى كامل وذكر فضائله نظما ونثراً، ولكن أنى للشعراء والأدباء أن يوفوه حقه من الثناء والمديح وهو من النوابغ الذين يبعثهم الله كل حقبة من الزمان لإحياء موات الأمم والقيام بواجب إحياء من هم أموات فى قالب أحياء.

«إن أحسن تأبين لفقيدنا المرحوم هو أن نسير فى الطريق السوى الذى رسمه ومهده لنا، وأن نضم صفوفنا حتى لا يدخل بينها منافق أو مخاتل، ونسير كرجل واحد إلى فتح قلعة الحرية وامتلاك أبراجها، وتحصينها بالنظام النيابى الدستورى حتى لا يمكن إخراجنا منها ثانيًا، إن أحسن تأبين لفقيدنا العزيز ترتاح إليها روحه الشريفة الطاهرة هو أن نبرهن للعالم أجمع أن مصطفى كامل لم يمت وأن روحه اتحدت بروح كل فرد منا فأصبحنا

كلنا مصطفى كامل ونكون بذلك قد حققنا ما كتبه لى بالجواب السابق ذكره (وبعد موتى يكون على روحى واجب الاستمرار وواجب دعوة الأحياء إلى العمل).

«فيا أيها الفقيد المحبوب ويا أيتها الروح الطاهرة، قد تحقق ما كنت تؤمله وما قضيت زهرة شبابك للوصول إليه، وأصبحت الأمة بعناصرها الثلاثة مسلمين ومسيحيين وإسرائيليين كلها مجتمعة كرجل واحد متحدة الأفكار والقلوب، لا يمنعها من الحصول على رغائبها مانع، ولا تقف فى وجهها قوة، فقوة الأمة فوق كل قوة، وأمتنا المصرية قد شعرت بقوتها وتركت اليأس ظهريا اتباعا لقوله رحمه الله (لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة)

«إخوانى

«قال تعالى فى محكم التنزيل: (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) وقال تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا).

قصيدة إسماعيل باشا صبرى

«وبعد أن انتهى فريد بك من خطبته تلاه الشاعر الكبير اسماعيل صبرى وطلب إلى حافظ ابراهيم أن يتلو قصيدته، فتلاها بصوته الجهورى قال:

أجــلْ أنـا من أرضــاكَ مــوافي ... ويرضيك فى الباكين لو كنتَ واعيا
وقلبى ذاك المـوردُ العذب لم يـزلْ ... كما ذقتَ منه الحبَ والـود صافيـا
سِـوى أنـه يعتـادُه الحـزن كلما ... رآك عن الحـوض المهـدّد نـائيـا
ويـعــثر فى بـعض الخـطوب إذا ... إلى بعض مـا يهوَى فيرجع داميـا
وإن رامَـه سربُ المسرات لم يجد ... محـلا بـه من لاعـج الهم خـاليـا
ألاعّللانى بــالتعــازى وأقنـعــا ... فؤادىَ أن يــرضى بهنّ تعـازيـا
وإلا أعينـانى على النـوح والبكـا ... فشـأنكـما شـأنى ومـا بكــما بيـا
ومـا نـافعى أن تبكيـا غـير أننى ... أحبّ دمـوعَ الـبر والمــرء وافيـا

* * *

أيـا (مصطفى) تـالله نومُـك رابنا — أمثلك يـرضى أن ينـام الليـاليـا
تكلّم فـإن القوم حـولَك أطـرقوا — وقلْ ياخـطيبَ الحى رأيكَ عـاليا
لقد أوشكت من طول صمت وهجرة — تخـالـك أعـواد المنـابـر فـانيـا
وتبكيـك لـولا أن فيهـاً بقيـة — تعللهـا من ذلـك الصـوت داويـا
فهل ألفت ما بين جفينك والكرى — محـالفـة أم قـد أمنت الأعـاديـا

* * *

فقـدناكِ فقـدان الكميّ سـلاحـه — وسارى الدياجى كوكب القطب هاديا
وبتنا وقد باتت رفاقـك فى الثرى — سقاها الحيا[١٤] تستبطئ الدمع هاميا
ولـولا تراثٌ من أمـانيك عنـدنـا — كـريمٌ بكينـا إذا بكينـا الأمـانيـا
طواك الرّدى طيّ الكتاب تضمنت — صحـائفُـه من كـل فخـر معانيا
مطاءٌ إذا البيض انتمت لأصولها — غضبنـا إذا سمّـاك قـومٌ يمـانيـا
ورأىٌ يجلى اليأس واليأس ضارب — على الأفق ليلا فاحم اللون راجيا
إذا مـا تقـاضينـا ولم تـك بيننـا — ذكرناهما[١٥] حتى تجيد التقـاضيا
فليتك إذ أعييتَ كل مساجل — قنعت فلم تعى الـطبيب المـداويـا
وليتك إذ ناضلت عن مصر لم تفضْ — مـع الحـبر قلبـاً يعلم الله غـاليـا

* * *

لقد ضاع إخلاص الطبيب وحذقه — سـدى فبكى الـذى كـان راجيـا
ولم تنتهـز تلك العقاقـير فـرصـة — ترى الناس فيها فصل (بقراط) باديا
يحييك سيفا بات فى التراب مغمدا — تقّلده فيـها مصى الحقُّ مـاضيـا

---

(١٤) المطر.
(١٥) أى ذكرنا المضاء والرأى.

قصيدة حافظ إبراهيم

ثم ألقى شاعر النيل حافظ ابراهيم قصيدته، قال:

نثروا عليك نوادى الأزهار[١٦] ... وأتيت أنشر بينهم أشعارى

زيَن الشباب وزين طلّاب العلا ... هل أنت بالمهج الحزينة دارى

غادرتنا والحادثات بمرصد ... والعيش عيش مذلة وإسار

ما كان أحوجنا إليك إذا عدا ... عاد وصاح الصائحون: بدار

أين الخطيب وأين خلاب النهى؟ ... طالَ انتظار السّمع والأبصار

بالله مالك لا تجيب مناديا ... ماذا أصابك يا أبا المغوار؟

قمْ وامح ما خطّت يمين (كرومر) ... جهْلا بدين الواحد القهار

قد كنت تغضب للكنانة كلما ... همتْ وهمّ رجاؤها بعثار

غضب التقّى لربه وكتابه ... أو غضْبة (الفاروق[١٧]) للمختار)

* * *

قد ضاق جسمك عن مداك فلم يطقْ ... صبراً عليك وأنت شعلة نار

أودى به ذاك الجهاد وهدّه ... عزمٌ يهد جلائل الأخطار

لعبتْ يمينك باليراع فأعجزت ... لعب القوارس بالقنا الخطار[١٨]

وجريْت للعلياء تبغى شأوها ... فجرى القضاء وأنت فى المضمار

أوكلما هزّ الرجاء مهنداً ... بدرت إليه غوائل الأقدار

* * *

عزّ القرار علىّ ليلة نعيه ... وشهدت موكبه فقرّ قرارى[١٩]

وتسابقت فيه النعاة فطائر ... بالكهرباء، وطائر ببخار

---

(١٦) نوادى الأزهار أى الرطبة المبللة بالندى.

(١٧) الفاروق عمر بن الخطاب، والمختار النبى عليه الصلاة والسلام.

(١٨) القنا: الرماح.

(١٩) أى استقرت نفسه بعد أن شهد وفاء الأمة للفقيد فى موكب الجنازة.

شاهدت يوم الحشر يوم وفاته ... وعلمت منه مراتب الأقدار
ورأيت كيف تفي الشعوب رجالها ... حــقّ الولاء وواجب الإكبار
تسعون ألفاً حول نعشك خشعٌ ... يمشون تحت (لوائك) السّيار
خطُّوا بأدمعهم على وجه الثرى ... للحزن أسطاراً على أسطار
آناً يوالون الضجيج كأنهم ... ركب الحجيج بكعبة الزُّوار
وتخالهم آناً لفرط خشوعهم ... عند المصلى ينصتون لقارى
غلب الخشوع عليهم فدموعهم ... تجرى بلا كلح[٢٠] ولا استنثار
قد كنتُ تحت دموعهم وزفيرهم ... ما بين سيل دافق وشَرار
أسعى فيأخذني اللهيب فأنثني ... فيصــدني متــدفق التيــار
لو لم أَلُذْ بالنعش أو بظلاله ... لقضيتُ بين مراجِل وبخار

* * *

كم ذات خدرٍ يوم طاف بكَ الردى ... هتكتْ عليك حرائرَ الأستار
سَفرتْ تودع أمّــةً محمولــةً ... فى النعش لاخَبراً من الأخبار
أمِنتْ عيونَ الناظرين فمزّقتْ ... وجهَ الخَمار فلم تَلُذْ بخمار[٢١]
قد قام ما بين العيون وبينها ... سِترٌ من الأحزان والأكـدار

* * *

أدْرجتَ فى العَلم الذى أصْفَيْتَه ... منك الودادَ فكان خيرَ شعار
عَلمان[٢٢] من فوق الرؤوس كلاهما ... فى طيِّه سرٌّ من الأسـرار
ناداهما داعى الفراق فأمْسيا ... يتعانقان على شفيـر هارى
تالله ما جزع المخبُّ ولا بكى ... لِنـوىً مُرَوعــةٍ وبعـد مـزار
جزع (الهلال) عليك يوم تركتَه ... ما بين حَرِّ أسًى وحَرِّ أوار[٢٣]
متلفتــا متحيِّــراً متخيّــرا ... رجلا يناضل عنه يوم فخار

---

(٢٠) الكلح العبوس أى تجرى الدموع بطبيعتها بلا عبوس.
(٢١) الخمار أى الحجاب.
(٢٢) يريد بالعلمين الفقيد فهو علم الوطنية والثانى علم مصر.
(٢٣) الأسى الحزن والأوار الظمأ والتعطش أى التعطش إلى الفقيد.

إن الثلاثين التى بك فاخرت ... باتتْ تُقاس بأطول الأعمار

ضَمتْ إلى التاريخ بضعَ صحائف ... بيضاء مثل صحائف الأبرار

شَّبهتْهن بنقْـطةٍ عِـطريـة ... وسعتْ مُحصل روضةٍ مِعطار[٢٤]

خَلفتهاَ كالمشْق يحذو حَذْوها ... راجى الوصول ومقتفى الآثار

ماذا على السارى – وهُنَّ[٢٥] منائر – ... لو سار بين مجاهل وقفار

* * *

مازلتَ تختارُ المواقفِ وغْرة ... حتى وقفت لذلك الجبّار[٢٦]

وهدمت سوراً قد أجاد بناءَه ... فرعون[٢٧] ذو الأوتاد والأنهار

ووصلت بين شكاتنا ومشايخ ... فى (البرلمان) أجلةً أخيار

كشفوا العطاء عن العيون فأبصروا ... ما فى الكنانة من أذى وضِرار

نبذوا كلام (اللورد) حين تبينوا ... حَنَقَ المغيظ ولهجة الثرثار

ورماهُمُ بمجلدين[٢٨] رَموْهُما ... فى رُتبة الأصفار لا الأسفار

* * *

واهاً على تلك المواقف إنها ... كانت مواقف ليث غابٍ ضارى

لم يَلْوه عنها[٢٩] الوعيدُ ولاثَنى ... من عزمه قولُ المريب: حذار

فاهنأ بمنزلكَ الجديد ونَمْ به ... فى غبطةٍ وانعم بخير جوار

واستقبل الأجرَ الكبير جزاء ما ... ضَحّيتَ للأوطان من أوطار؛

نعْم الجـزاء مـا بُلِّغتَـه ... فى منزلَيك[٣٠] ونعم عُقبى الدار

ثم وقف المسيو كولرا رئيس تحرير جريدة الإيجبت وألقى كلمة تأبين بالفرنسية

---

(٢٤) الروضة المعطار هى الكثيرة الأزهار والرياحين.

(٢٥) هن إشارة إلى الثلاثين عاما أى ماذا على السارى فى المجاهل والقفار إذا اهتدى بنور هذه الأعلام.

(٢٦) يريد بالجبار اللورد كرومر الذى كان حكمه مطلقا فى مصر

(٢٧) شبه اللورد كرومر بفرعون

(٢٨) يريد بالمجلدين كتاب مصر الحديثة للورد كرومر

(٢٩) أى لم يصرفه عن مواقفه الوعيد والتهديد

(٣٠) أى الدنيا والآخرة

بالنيابة عن الصحافة الأوروبية، وهنا أقبلت طلائع الموكب، فاشتد الزحام وعظم التلاحم، وامتلأت المنافذ بالقادمين، ولما ضاق المكان وعظم تدافع الجماهير قررت لجنة التأبين اختتام الاحتفال خوفا من وقوع حادث من شدة الزحام، إذ اختلطت جموع الموكب بالحاضرين، ونشرت اللجنة خطب المؤبنين وقصائدهم بحسب ترتيب ورودهم فى البرنامج: محمد فريد بك، إسماعيل باشا صبرى، أحمد لطفى السيد بك، المسيو كولرا مندوب الصحافة الأوروبية، محمود بك أبو النصر، قصيدة شاعر النيل حافظ إبراهيم، كلمة الأستاذ أخنوخ فانوس، قصيدة محمد بك أبو شادى، كلمة مندوب طلبة المدارس (الأستاذ محمود خيرت)، كلمة الشيخ مصطفى القاياتى عن الأزهر، كلمة الأستاذ مرقس بك حنا (باشا)، قصيدة الدكتور السيد بك رفعت، قصيدة شاعر القطرين خليل بك مطران (وقد نشرناها فيما يلى) قصيدة حسن بك حمدى، قصيدة الشيخ سليمان على مطيريد شيخ قبيلة عربان الضعفاء ببنى سويف، كلمة محمد افندى لمعى المهندس، قصيدة السيدة زينب فواز عن السيدات، كلمة إبراهيم افندى فهمى عبد الهادى التلميذ بمدرسة مصطفى كامل، كلمة على بك فهمى كامل شقيق الفقيد.

هذا وقد أقيمت للفقيد حفلات تأبين عدة فى مختلف الأحياء والعواصم والاقاليم.

قصيدة خليل مطران
(حق الوطن وحق الإخاء)

أعلى مكانتكَ الإلهُ وشَرَّفا — فانعم بطيب جواره يا (مصطفى)
اليومَ فُزتَ بأجر ما أسلفتَهُ — خيراً وكلٌّ واجدٌ ما أسلفا
وجُزيتَ من فانى الوجود بخالد — ومن الأسى الماضى بمقتَبل الصَّفا

* * *

أعظِمْ بيومك فى الزمان ومن له — بك واصفاً ذاك الجلال فيوصَفا
حيث الوفود من الملائك أقبلوا — حافّين حولك فى السرير وعُكَّفا
وتحملوك على الأشعّة وارتقوا — سِرباً يجوز بك الدرارى موجفا

فـوردتَ ورْدك فى الخلود منعَّـما   والأرض مـائـدةٌ عليـك تـأسّفـا

لم تُلْف قبلك أمّـةً فى مشهـد   يـذْرو الرجـالُ به المدامع ذُرّفـا

يمشون من حول الجنـازة ضائقاً   بهم الرحيبُ من المسالك مصرفـا

متثـاقـلين من الـوقـار وإنمـا   سـاروا بطيفٍ نـاحـلٍ أو أنحفـا

بحـرٌ من الأحياء نعشُـك فوقَـه   فُـلْكٌ يـظلله اللواء مـرفـرفـا

يبكـون فى آثاره العَلَم الـذى   آثـارُهُ مـن رفعـةٍ لا تُـقـتـفـى

سعَت الخـوادرُ حاسـراتٍ والأسى   مُلْقٍ عـلى الأبصار سـتـراً أغدفـا

ولئن سفـرنَ ولم يَخْلن فـإنـه   خـطْبٌ ألان بروعـه صُمَّ الصفـا

فزع الشباب إلى الشيوخ بثأرهم   من دمعهم إن خـانهم متكفكفـا

ومن الغضاضة أن دعا داعى العلا   بعـد الفقيـد فتىً بهم فتـوقفـا

جـزع النصـارى واليهـود لمسلم   هو خير من والى وأوفى من وفى

بكَوا المرجَّى فى خـلافٍ عارضٍ   ليـزيـل ذاك العـارضَ المتكشِّفـا

واشتـد رُزْءُ المسلمـين وحـزنهم   لمـا مضيتَ ولست فيهم مخلفـا

مَن بَعـد كـاتبهم وبَعدَ خـطيبهم   يُعـلِى لهم صوتـاً وينشـرُ مصحفـا

* * *

من يبرىء الإسلامَ من تهم العدى   ويـردُّ نقـد النـاقـدين مـزيفـا

يبـدى لأعـين جـاهليـه فضلهُ   ويـزيلُ مـا يلدُ التناكـرُ من جفا

ويثير من غضب الغضاب لمجدِه   همـاً تعيـد لـه المقام الأشـرفـا

لكنّ من أقـلام جنـدِك حـولـه   سُمـراً تهزُّ لكـل خطبٍ معـطفـا

ولعـل حراً لا يـدينُ بـه انبـرى   ليـذودَ عنـه خصمـهُ المتعسفـا

قِفْ أيهـا النـاعى عليـه جـودهُ   فـلقـد تجـاوزت الهـدى متـفـلسـفـا

إن يَعترِ الشمس الكسوفُ هنيهةً   أيكـون منقصـةً لهـا أن تُكسفـا

وهل الكِسوف سوى تَعرض حائل   يثنى أشعتـهـا إلى أن يكـشفـا

لم تـنـزل الأديـان إلا هـاديـا   لـلعـامـلين ورادعـاً ومـشـقِّـفـا

بشعارِ حىٍّ على الفـلاح وما بهـا   أن قصـر الأقوامُ عنه فـأخلفـا

وبكـل أمـر مـوجبٍ اصلاحهم   أن خالفوه فـما استحال ولا انتفى

قـد كان لـلإسلام عهـدٌ بـاهـرٌ نلنـا بـه هـذا الـرقيَّ مسلفـا
مـلأ الـبـلاد إنـارةً وحـضـارةً ومُنَى السمـاحـةِ عـودُهُ مستـأنفـا
فـالخـيرُ كـل الخـير فيـه مقبـلاً والشـرُّ كـل الشـر أن يتخلفـا
يدعو البقاء إلى التكافؤ بـالقوى بـين العنـاصـر أو يهـينَ ويضعفـا
والخـلقُ جسـمٌ إن ألمَّ ببعـضـه سَـقَمٌ ولم يُـتَـلافَ عَمّ وأتـلفـا
بشـرى البريـةِ بعد مُـزْمِنِ دائها بسلامة الإسـلام وهى لها شفـا
إن أغضبت تلك السلامة جـائراً أرضت خبيـراً بـالحيـاةِ ومنصفـا
يـا من نهضتَ بنصـرِهِ وأبَـنْتَـه حقَّ الإبـانة هـل تبالى مـرجِفـا
ما زلتَ فى مصـر قـديمُ منـارَة حتى أنـارَ الكـونَ منهـا مُشْرِفـا

* * *

مصر العزيزةُ قد ذكرتُ لك اسمَها وأرى ترابَكَ من حنين قد هفـا
وكـأننى بـالقـبر أصبـح مِنبـراً وكـأننى بـك مُـوشِكٌ أن تهتفـا
مصـرُ التى لم تحظ من نجبائهـا بـأعـزَّ منـك ولم تعـزَّ بـأحصفـا
مصـرُ التى لم تبـغ إلا نفـعَهـا فى الحـالتـين مـلاينـاً ومعنفـا
مصرُ التى غسلت يداك جـراحَها بصبيب دمعـك جـاريـاً مستنـزفـا
مصـرُ التى كافحتَ لـدَّ عُـداتها متصـدراً لـرمـاتهـا مستهـدفـا
مصـرُ التى سُقْتَ الجيوش منـاقبا ومُنًى لتكفيهـا المُغـير المحـحفـا
مصـرُ التى أحببتها الحبَّ الـذى بلغ الفـداءَ نـزاهـةً وتـعفـفـا
حتى مضيتَ كـما ابتغيتَ مؤلفـا من شملها من ما لم يكن ليؤلَّفا
أمـنيّـة أعيـتْ خـلالـك دونها لـو لم يُضـافـرْهـا رداك فيُسعفـا
وهى التى لـو أقسمت لنـا بهـا شعبُ يعـزّ بنفسـه مستـنصفـا

* * *

من كان أجرأ منـك يوم كـريهة بـالحق لا شكسـاً ولا متـصلفـا
من كان أقدرَ منـك تصريفـاً لما يعنى الحكيمَ مـدبـراً ومصـرّفـا
من كان أطهرَ منك خلقاً جامعا فيـه مهيبَ الـطبـع والمستـظرَفـا
من كان أزهد منك إلا فى الذى يجـدى البـلادَ فتبتغيـه مُلْحفـا

من كان أسمعَ منكَ منَّاعاً لما ... تَهوى ومِعطاءً لغيرك مُسرفا
من كان أصدق منكَ لا متنصلاً ... مما تقولُ ولا تعاهدُ مخلفا

* * *

لهفى على فخر الصبى هادى النهى ... عالى اللواء حمى المروءة والوفا
يا من نعى تلك الفضائلَ والعلى ... أغدت معالمهنّ قاعاً صفصفاً
لا لا وحقك يا شهيد وفائه ... ورجائه كذِبَ النعيُّ وأرجفا
ما أنتَ بالرجل الذى يمسى وقد ... ملىء الوجودُ به ويصبح قد عفا
إنى أراك ولا تزال كعهدنا ... بك فى جهادك أو أشد وأشعفا
ثابرْ على تلك العزائم ذائداً ... عن مصر تضربُ فى البلاد مطوّفا
أصدر صحائفك التى تحيى بها ... نِضْوَ الطريق وتدفع المتخلفا
تجرى بها الأنهارُ وهى دوافقَ ... هِمياً وتوشك أن تَطُمَّ فتجرفا
وتكاد أسطُرها تهبُّ نواطقا ... ويكاد يعزفُ كلُّ حرف معزفا
فإذا حنوتَ على الحمى متحبباً ... فهو النسيم وقد ذكا وتلطفا
وكأنما الألفاظ مما خففت ... نقَش المدادُ رسومها وتحففا
تُستام من أثوابها أرواحُها ... وتعاف تحلية لئلّا تكشفا
قم للخطابة فى المجامع وامتلك ... تلك النفوس مروّعاً ومشنفا
أعد القديمَ من الممالك والقرى ... ذكرى وعرّفنا الحياة لنعرفا
شدِّدْ عزائمنا وقاتلْ ضعفنا ... حتى نبيتَ ولا نرى متخوِّفا
ما هذه الآياتُ يَرْمى لفظُها ... شرراً وتهوى الشهبُ فيها أحرفا
ما ذلك الترصيعُ ليس مرصَّعاً ... ما ذاك التفويفُ ليس مفوّفا
وحيٌ بأهجيةٍ إذ ما أطْلَقتْ ... هبطت رواسب عنه والمعزى طفا
تُحيى حرارتُها ويهدى نورُها ... متماهلَ الإشراق أو متخطفا
تالله ما أنت الخطيبُ وإنما ... وقَفَ القضاءُ من المنصة موقِفا
عن نطقه تقعُ الصروفُ مواعظاً ... وكأمره أمرُ الزمان مصرّفا
يا حبذا لو كلُّ ذلك لم يَزلْ ... لكنه حُلمٌ مضى مستطرفا
والآن نحن لدى ثراك نحجه ... متلهبين تشوقا وتشوفا

نثنى وهل يوفى ثناؤك حقه وبأى ألفاظ المحامد يُكتفى
ماذا يعيضك من شبابك نظمُنا فيكَ الرثاءً منسقاً ومصففا
ويعُيض منك وكنت جوهرة الحمى صوغُ الكلام مرصَّعاً ومزخرفا
يا أخلص الخلصاء أبكى بُعدَه كبكاء مصر تحرُّقا وتلهفا
هذا مثال لاح يرعانا وقد كشف الجوى عنه الحجاب فأشرفا
جاد الهلال برسمه تاجاً له وكستهُ ناسجةُ الطهارة مطُرفا
كهواك للأوطان فليكن الهوى لا مفترى فيه ولا متكلّفا
يجرى على قَدر المطالب ناميا ويجلُّ فى مجراهُ عن أن يصدفا
أنشأتَ من مصر الشتات بفضله مصرَ الفتاةَ حمى يعُز ومألفا
أحدثت فيها أمة أندى يداً للصالحات وبالعظائم أكلفا
عرَّفتَ أهليها حقيقةَ قدرِهم وكفاهمُ من قدرهم أن يُعرفَا
نفحاتُ روحك خامرت أرواحهَم فهم مرامُك ساءَ دهرٌ أو صفا.
حصنٌ أشمُّ تساندت أجزاؤه عِلْماً وأمنَّهُ النُّهى أن ينسفا
فارقدْ رُقادَك إن ربَّك قد محا بك ذنبَ مصر كما رجوتَ وقد عفا

تمثال مصطفى كامل

اتجهت الأفكار منذ وفاة مصطفى كامل إلى إقامة تمثال له تقديراً لجهاد مؤسس الحركة الوطنية، وبدأ الكثيرون بالاكتتاب للتمثال قبل أن تتألف لجنة لإقامته، وقد قدرت الأمة على اختلاف أحزابها فضل الزعيم، فاتجهت الفكرة إلى جعل المشروع قومياً لا يختص به حزب من الأحزاب، لأن مصطفى كامل كان زعيم حركة قومية لا زعيم حزب فحسب.

فتألفت لجنة لإقامة تمثاله وإجتمعت فى ١٦ فبراير سنة ١٩٠٨ برآسة إسماعيل باشا صبرى الشاعر الكبير، ومن أعضائها محمد بك فريد، والدكتور محمد علوى باشا، وحسن بك عبد الرازق (باشا) ومحمود بك أبو النصر، وعلى بك فهمى كامل، ومرقس



تمثال مصطفى كامل - بميدان مصطفى كامل

حنا بك (باشا) والأستاذ ويصا واصف، وأحمد بك لطفى السيد (باشا)، ويوسف صديق بك (باشا) والياس بك عوض (باشا) وفؤاد بك سليم (باشا)، وعبد العزيز فهمى بك (باشا)، وعمر بك سلطان (باشا) وأحمد بك عبد اللطيف المحامى الشهير، وأخذت فى جميع الاكتتابات للتمثال

وعهد فريد بك نيابة عن اللجنة إلى المسيو ساقين المثال الفرنسى الشهير بباريس صنع التمثال من البرونز، فأتمه فى أبريل سنة ١٩١٠، وعرضه فى معرض الفنون الجميلة بباريس، فحاز الاستحسان العام، وهو يمثل الفقيد واقفاً يخطب مشيراً بيده اليمنى ومرتكزاً باليسرى إلى تمثال لأبى الهول كأنه يوقظه، وعلى القاعدة صورة من البرونز تمثل مصر منصتة إلى الخطيب تشير بيدها اليمنى كأنها تطلب من العالم أن ينصت إليه مثلها، والصورة والتمثال آية فى الفن والجمال

ويبلغ إرتفاع التمثال دون قاعدته مترين وثمانين سنتيمتراً، ويبلغ مع القاعدة ستة أمتار وستين سنتيمتراً، وقد بلغت تكاليف صنعه ونقله ٢١٢٠ جنيهاً (عشرين ومائة وألفى جنيه)

وجاء التمثال إلى القاهرة فى يناير ١٩١٤، على عهد وزارة محمد سعيد باشا، وطلبت اللجنة من الحكومة تخصيص ميدان من الميادين العامة لإقامة التمثال، ولكن الحكومة صمّت آذانها عن تلبية نداء اللجنة، وظل التمثال سجينا فى مدرسة مصطفى كامل مدة أربع وعشرين سنة، حتى اقتضت إرادة الله عز وجل وتحت ضغط جماهير الشعب الإفراج عن التمثال وإقامته فى ميدان عام من ميادين العاصمة، فقرر مجلس الوزارة بجلسة أول سبتمبر سنة ١٩٣٨ إقامة التمثال فى ميدان العتبة الخضراء، وكان لهذا القرار رنة استحسان عام فى أرجاء البلاد، وعدل مجلس الوزارة مكان التمثال فقرر بجلسة ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣٨ إقامته فى ميدان (سوارس) مع تغيير إسم الميدان وتسميته ميدان (مصطفى كامل).

حفلة إزاحة الستار عن تمثال مصطفى كامل
(١٤ مايو ١٩٤٠)

وقد بنت الحكومة قاعدة التمثال فى ميدان (مصطفى كامل) ونقشت على صدر القاعدة «مصطفى كامل باشا ١٨٧٤ - ١٩٠٨»، وعلى الجانب الأيمن منها هذه العبارة المأثورة من كلمات الزعيم «لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة» وعلى الجانب الأيسر منها قوله «إن من يتسامح فى حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان»، وعلى الجانب الخلفى هذه العبارة «اكتتبت الأمة بجميع طبقاتها فى صنع هذا التمثال سنة ١٩١٠ وفى سنة ١٩٣٨ قررت الحكومة إقامته فى هذا الميدان تمجيداً للذكرى».

وأقامت الحكومة التمثال على هذه القاعدة، واحتفلت برفع الستار عنه، على عهد وزارة على ماهر باشا، يوم الثلاثاء ١٤ مايو سنة ١٩٤٠، فى حفلة فخمة، وألقى على ماهر باشا رئيس الوزراء الخطبة الآتية:

«جئنا لنحيى تمثال مصطفى، فلنقف هنيهة خاشعين أمام الذكرى.

«كلما ذكر مصطفى، ظهر إسمه فى هالة من المجد، وانتشر ذلك النور الساحر الذى يملأ النفوس رهبة وإجلالا.

«فى هذه الساعة يطيب لنا أن نجتمع فى ظل المبادىء التى أفنى نفسه وجسمه فى سبيلها، فى ظل الإخلاص الذى مات عليه فأحيا الأمة ودفع شبابها إلى ميادين الكفاح والعلا.

«نجتمع أمام ذلك التمثال الذى يحرك النفس وهو صامت، لأن جلال التاريخ وجلال الذكرى فى شخصه يلتقيان.

«كان مصطفى أول من حمل لواء الحرية بعد أن طوى زماناً، وكان أول من صاح تلك الصيحة فى طول البلاد وعرضها، صيحة التضحية، صيحة الحرية، صيحة الحب صيحة الحياة: «بلادى بلادى لك حبى وفؤادى، لك حياتى ووجودى، لك دمى ونفسى، لك عقلى

ولسانى، لك حبى وجنانى، أنت، أنت الحياة ولا حياة إلا بك يا مصر».

«نقرأ اليوم خطب مصطفى، فلا نرى فيها أثر البلاغة والتنميق، ذلك أن بلاغته كانت روحانية بلا جسم، ليست بحاجة إلى صلة أو سبب مادى لتصل إلى النفوس وجوّها.

«ذلك أن حياة مصطفى قصيرة، لم تكن كحياة غيره من الزعماء والقادة، سلسلة أعمال توصف وتحلل، وإنما كانت هذه الحياة كلها، التى تعلو على كل حصر وتحليل، صوتاً يخيل إلى سامعيه أنه يهبط من السماء، صوتاً كصوت الماضى، رن فى الوادى فانتبه، ولا تزال أصداؤه تتجاوب وتمتد بعد الموت.

«وقد كان مصطفى يجمع بين إقدام الشباب، واتزان الكهول فى الفكر.

«وهذه المبادىء التى استمدها من وحى الوطن واتخذها شعاراً لجهاده قد دلت التجارب والمحن على أن راسمها كان بعيد النظر سليم التفكير.

«كان مصطفى مقداماً، يخلق الحماسة ويتعهدها لأنه يعلم أن الحماسة فى حياة الأمم تنزل منها منزلة الروح من البدن وأن الشعب إذا غابت عنه الحماسة غابت عنه الحياة، فكان يعمل ليله نهاره كاتباً وخطيباً على تغذية العاطفة الوطنية وإيقاظ الجماهير التى كان يجذبها بشخصه وإيمانه وشجاعته.

«كان مصطفى يحمل فى قلبه صورة الوطن الحى أنى سار أو أقام، فكان قلبه مقتدراً على جمع القلوب، تخفق كلما خفق، وتشاطره حمل السراء والضراء وكان الشباب - شباب الوادى وعدته - جنوده المجندة تأتلف وتلتف حول لوائه، وكان هو قائدها وهاديها.

«كان مصطفى شعلة ذكاء وحماسة، وكان خير محام عن خير قضية، وكان فى دفاعه يهبّ لنصرة الحق والعدل، وكان جلداً على الكفاح، لا يبرح يناضل حتى يصرع الباطل ويرمى السهم فى مقاتله.

«وقد صبر وجاهد واحتمل الأذى فى سبيل مصر، فى سبيل النيل وواديه، فى سبيل تلك القرى والمدائن الجاثمة فى حضن الوادى، فى سبيل ذلك الأفق الضاحك بين جنات



على قاعدة تمثال مصطفى كامل
يوم إزاحة الستار عنه – ١٤ مايو سنة ١٩٤٠

وترى فى الصورة: الدكتور اسماعيل صدقى بك. عبد الرحمن الرافعى بك. محمود خيرى باشا محمود جلال بك. الأستاذ عبد المقصود متولى. الأستاذ حسن حسنى كامل. عبد الملك حمزة بك. انطون الجميل بك (باشا). الأستاذ محمود العمرى. الأستاذ حسن شافعى الجيزاوى. اسماعيل العسيلى. على على بسيونى. شعبان الكاتب. على فهمى خليل. حسين رمزى. الدكتور يحيى الدرديرى. الدكتور منصور القاضى. الدكتور نصر فريد بك. محمد على المهندس.. الخ

النخيل والأعناب، بين هزج السواقى وأغانى الفلاح.

«وقد تغلغل حب مصر فى فؤاد مصر مصطفى، لأن حبه كان صادراً عن عاطفة وعقل وعلم، وكان ذلك الحب لا تشوبه شائبة من مطمع فى مادة أو جاه.

«كان مصطفى مصرياً صميياً يحب مصر وفلّاح مصر حافظ كيانها.

«ذلك الفلّاح الذى هو نحن وأنتم، الذى هو مصر من طيبة إلى الفسطاط والقاهرة والذى طبع البلاد بطابعه، وانضمت كتلته على الغزاة، فأفنت شخصيتهم فى ثناياها.

«وقد كان المصريون فى أدوار تاريخهم سلسى القيادة لكل زعيم يخرج من صفوفهم، ويعرف كيف يسوسهم، ويتخذ لنفسه نقطة ارتكاز فى قلوبهم وفى صميم إحساساتهم وعواطفهم، وفى شجاعتهم وإيمانهم، وفى أرضهم ولغتهم، وقد ولد مصطفى فى مصر، وحك جلده بأرضها الغراء طفلاً، ونشأ حراً، وعاش حراً.

«وها نحن أولاء نقف أمام تمثاله ويخيل إلينا أن الحياة تدب وتتوثب فى كل ذرة ساكنة منه، وأن وراء هذه المادة قوة خفية تدفع الشعب إلى غاياته الكبرى.

«فى هذا اليوم الذى تتطاحن فيه الأمم ذوداً عن كرامتها، وتدعيماً لشخصيتها وحرياتها، نقف أمام تمثال مصطفى متعاونين متساندين فى سبيل إعلاء كلمة الحق.

«مات مصطفى، فكان موته أول شاهد على تغلغل الروح الوطنية فى مختلف الطبقات، وأول دليل على أن فى هذه الأمة قوة بل قوى حيوية كامنة، إذا وجدت من يحركها ويتعهدها، أتت بالمعجزات.

«فلنذكر مصطفى، ولنلطف بتمثاله، ولنأخذ من موته معنى للحياة والحرية والأمل.

«أنه وإن لم تتحقق أمانى مصطفى كلها إلى اليوم، فإننا لا نشك لحظة فى أن هذه الأمانى ستتحقق على أيديكم، فقد أعلن الاستقلال وستكمل بإذن الله دعائم هذا الاستقلال وتتوطد» وقد قوبلت هذه الخطبة بالتصفيق فى شتى مواضعها، وعلى أثر إلقائها جُذب شريط متصل بالستار فانشق عن تمثال الزعيم العظيم، ودوى التصفيق فى جنبات سرادق الاحتفال، فرددته الجماهير المحتشدة التى تجمعت خارج السرادق.

مقتطفات من أقوال الشعراء والكتاب

لمناسبة حفلة إزاحة الستار

قصيدة خليل مطران

تحية الشعر

أمنوا بموتك صولة الرِّئبَالِ — ماذا خشوا من فَتْنَةِ التمثال؟
حبسوه عن مُقَلٍ إليه مشوقَةٍ — فاضت أسًى ودموعهن غوال
حتى أرادت مصر غيرَ مُرَادهم — وجلاء من أوفى بنيها جال
أتهييء استقلال قومك جاهداً — وتُذَادُ عنهم يوم الاستقلال
أنصفْتَ بعض الشيء بل هى توبة — فى بدئها ولكل بدءٍ تال
فلقد تؤوب وَجَدٌّ غيرك عاثرٌ — فيم ادعى صلفاً وجدكَ عال
يا حُسْنَ عودكَ والكنانة حرةٌ — تلقاكَ بالإكرَام والإجلال
أيروعُكَ الحشد الذى بك يحتفى — من غرٍّ فتيان وصيد رجال
ماذا بثثت من الحياة جديدة — فى هذه الآساد والأشبال
بَعْثٌ لموطنكَ العزيز رَجَوْتَهُ — وسواكَ يحسبه رجاء مُحَال
خاطرت فيه بالشباب وبذله — سَرَفٌ لمطلوب بعيد منال

* * *

أى مصطفى وَلّتْ سُنُون وما اشتقى — شوقى إليكَ فهن جدّ طوال
عجب بقائى بعد أكرم رفقة — زالوا ولم يشأ القضاء زوالى
هم صفوة الدنيا وكانوا صفوها — فأحق حىّ بالأسى أمثالى
حزن بعيد الغور فى قلبى فإن — وجب الرثاء فإنما يُرْثى لى
ماذا أقول وهذه أسماؤهم — وَشُخُوصهم ملء الزَّمان حيالى
تعتادنى فى مَسْمعى أو نَاظِرى — وإلى يمينى تارة وشمالى
إنى لأحفظ عهدهم وأصونه — فى كلِّ حَادِثَةٍ ولَسْت بال
وكأن جِسِّى حسهم فرحاً بما — يقضى الْحِمَى من حقهم ويُوَالى

كم فى مغارسهم جنى ألفيته — متجدداً يتعاقب الأحوال
سلوى أتاحتها مآثرهم، وقد — يغدو الفراق بها شبيه وصال
وكذاك مجد العبقرية والفدى — لا ينقضى بتحول الأحوال

* * *

أى مصطفى ما كنت كاملاً — لو كان يتصف امرؤ بكمال
ماذا لقيت من الصبا ونعيمه — غير المكاره فيه والأهوال
إنى شهدت شهادة العينين ما — عانيت فى الغدوات والآصال
متطوعاً تسخو بما يفنى القوى — من جهد أيام وسهد ليالى
إذ قمت بالأمر الجسام ولم يكن — فيمن أهبت بهم مجيب سؤال
حال التورع دون إغراء المنى — زمنا نما من مسعد وموال
والقوم فى ظمأ ووعدك مطمع — لكن يرون له رفيق الآل
تسعى ويعترض السبيل قنوطهم — فى كل حل منك أو ترحال
فتظل تضرب فى جوانبه وما — تلقى إلى نظر الحبوط ببال
لك دون ما تبغى مضاء مصمم — لا ينثنى، وبلاء غير مبال
حتى إذا وضح اليقين وصدقت — دعواك آية ربك المتعالى
فتويت أظهر ما تكون على عدى — مصر بعقبى دائك المنتال

* * *

هزت منيتك البلاد ولم تكن — بأشد منها هزة الزلزال
فالقوم من جزع عليك كأنهم — آل وقد رزئوا عزيز الآل
كشف الأسى لهم الحجاب فأيقنوا — أن الحياة مطالب ومعال
وتبينوا أن الخنوع مهانة — لا يستطال بها مدى الآجال
لله حسن بلائهم لما أبوا — متضافرين دوام تلك الحال
وتوثبوا بعزيمة مصدوقة — برئت من الأحقاد والأوجال
يردون حوضا والمنايا دونه — مستبسلين ضروب الاستبسال
حتى أتيح الفتح يجلو حسنه — فى يومه إحسان يوم خال
فتح بدا اسمك وهو فى عنوانه — متخضبا بدم الشاب الغالى

أيهـا شهيـد الحب للبـلد الـذ ... لا أنت سـاليه ولا هـو سـال
أبهـج بـأوبتـك السنية طـالعـا ... فى أفقـه كـالكـوكب المتـلالى
الـذكـر آفـاق سحيقـات المـدى ... ولـزهـرهـا المتـألقـات مجـال
فـإذا دنت منـا فتلك عـوالم ... وإذا نـأت عنـا فتـلك لآلى
تـطوى من الأدهار مـا لا ينقضى ... وتجـول فى الأفكـار كـل مجـال
أبـوار وجهك طـالعتنا اليـوم من ... بـرج حللت بـه لغـير زيـال
قـد أتبتتهـا مصـر بين عيـونها ... فـالحـال متصـل بـالاستقبـال
نهم التواب لذى مآثر فى الفدى ... فـرضت محبتـه عـلى الأجيـال

* * *

فتيان مصر وعهدها غـير الذى ... عـانتـه فى الأصفـاد والأغـلال
حيـوا مديـل حياتهـا من يأسهـا ... ومـذلـل الآلام لـلآمـال
حيـوا زعيم اليقـظة الأولى بهـا ... وخـطيب ثـورتهـا فى الاستهـلال
هـدى مـواكبهـا وتلك وفـودهـا ... فى مـلتـقـى ذى روعـة وجمـال
حفلت بـرمـز نهوضهـا ومثـالـه ... مـا لا تـدانى صنعـه المثـال
لكنهـا مهـج بنتـه ولم تكـن ... إلا ذرائـعـهـا فـضـول المـال
وكَفَـاهُ فخـرا أن ذاك المـال لم ... يك مُكُسُ جَابٍ أو تـطوّل وال
رسم يَلُوحُ وفيـه معنى أصله ... فيـروع بـين حقيقـة وخيـال
لاَنَ الحـديـد لـه فصـاغ لعينـه ... أثـراً عـلى الأيـام ليس بِبَـال
كم فى بليـغ سُكُوتـه من عبـرة ... أو فى وأكفى من فصيح مقـال
هـو خالـدٌ ويـظل مـدره قـومـه ... فى كـل نـازلـة وكـل نضـال
عطف المليك وقـد أماط حجـابه ... رفـع المقـام إلى مقـام جـلال
أعـلى الملوك مكـانـةً أرعـاهم ... لمـكـانـة الـعـلماء والأبـطال

كلمة الأستاذ محمود العمرى
رسالة مصطفى كامل

اليوم، إذ يحتفل المصريون برفع الستار عن تمثال مصطفى كامل، إنما يحتفلون بصفحة من أمجد صفحات تاريخ مصر الحديث.

اليوم يسجل المصريون صفحة مصطفى فى تاريخهم الرسمى بعد موته بما يقرب من ثلث قرن، وهى مرحلة من الزمن، إذا أصدر الشعب حكمه، كان صادقاً غير متأثر بدعوة من الدعوات، وإذا حكم التاريخ بعدها لإنسان فإنما يكون ذلك لأنه صعد بعقيدته إلى مستوى الحقائق الأبدية التى لا يحدها زمان ولا مكان.

ولو كان مصطفى كامل رجلًا كسائر الرجال لنسيناه كما ينسى المرء أعزاءه، ولو كان رجل جيل معين أو مرحلة معينة لعصفت به رياح الزمن، ولكنه رجل أمة، والأمة وحدة تاريخية تشمل الأمس واليوم والمستقبل الذى لا نهاية له، بل هو رجل جميع الأمم، إذ لا يصح فى إحداها ما لا يصح فى غيرها من شبيهاتها ما دامت جديرة بأن تسمى أمة.

وكيف يسمع المصرى قول «سمجلى ريدز» قبيل الحرب مخاطباً هلتر: «إذا كان عليك واجب نحو وطنك فلتعلم أن علىّ أيضاً واجباً نحو وطنى»، ثم لا يشعر وكأنه يسمع قول مصطفى كامل إذ يقول: «إن كان أنصار التوسع فى سلطة انجلترا ومد نفوذها فى الآفاق يريدون جعل سيادتها عامة فكيف يجد البعض من الأمور الخارقة للعادة مطالبتنا باستقلال وطننا؟»

ثم كيف يشاهد بطولة الفنلندى والبولندى ووطنيتهما ولا يشعر بالفخار لقول مصطفى كامل فى «اللواء» سنة ١٩٠٤ حاثاً على حب الوطن: «انظر تجد البولندى وقد مزق وطنه وعلت فيه كلمة دول ثلاث، يجدّ ويعمل مفكراً كل يوم بل كل لحظة فى بولندا، يذكر تاريخها ويبكى أيامها الخالية، ويربى ابنه على حبها والتمسك بحقوقها، والفنلندى وقد لبس ثوب الحداد هو وبقية ذويه يوم قررت الروسيا ضم جيش فنلندا لجيشها ومحو بقية استقلال هذه الأمة».

لم يجد مصطفى كامل مبلغ حب الوطن بمقدار ما فى الإمكان عمله فى خدمته إذ أن الوطن صورة روحية، ولا سبيل للقوى المادية إلى النيل من الوطنية الصحيحة، فإذا عجزت الأمة الرشيدة عن الوصول إلى حقها لم تقل عن المرحلة التى لا تتخطاها جهودها فى وقت معين أنها محط آمالها وغاية الوطنية، على حد قول القائل «إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون».

ولم يقف بحق بلاده عندما يمليه عليه إدراك معاصريه، بل عمل على رفع مستوى هذا الإدراك إلى مستوى رسالته، وكان مؤمناً بمنطق الوطنية الذى يجعل حق الوطن كحق الفرد لا ينتهى إلا عندما يكون فيه حد لحقوق وطن آخر.

نشرت «النيويورك هرالد» للمسيو سيمون فى سنة ١٨٩٧ مقالاً عن مصطفى كامل جاء فيه: «إن الوطن بيننا نحن الأوروبيين الراقين عظيم جليل محترم، مفضل على الحياة والمال والولد، فما بالنا نحتقره عند غيرنا ولا نود إلا أن نحتكر العواطف الشريفة لأنفسنا؟»

وقد علقت الجريدة على هذه الرسالة بكلمة جاء فيها: «ومن عرف أن مصطفى كامل ليس بغنى كبير ولا وزير حكومة ذات سلطان، قال معنا إنه نابغة ككل عظماء الرجال الذين يهبهم التاريخ من حين إلى حين، إلى الأمم المضطهدة المظلومة ليهدوها طريق السداد، وإنه إذا كان المصريون إلى اليوم فى نظر الساسة لا يستحقون ما يبتغونه فإننا نؤكد من جديد أن مصطفى كامل الذى حادثه مراسلنا فى الأستانة فى العام الماضى، لا يقل علماً عن أعظم سياسى فى أمريكا وأوروبا، ولكن لسوء حظ مصر أنه جاء فى الزمن الذ بلغ فيه حب الحياة المادية مبلغا عظيماً.

لقد تصدى مصطفى كامل لما لم يتصد له الذين وقفوا موقفه من الأمم الأخرى، إذ كان عليه أن يدعو إلى تشييد كل شىء فى صرح الوطنية، لذا كانت دعوته شاملة قام فيها بكل مقومات الحركات الوطنية مما يضطلع به فى تلك الأمم رجال عديدون فى مختلف نواحى نهضتها، فبعضهم ينهض بالتعليم الوطنى، وبعضهم الآخر ينهض بالأدب الوطنى وفريق ينهض بالفنون، وآخرون ينهضون بالإصلاح الدينى أو الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى، ثم تلتقى هذه الجهود جميعها عند غاية واحدة هى النهضة الوطنية العامة.

نعم كان على مصطفى كامل أن يقوم بما تقوم به أجيال فى مختلف النواحى، فهو شاعر مصر الوطنى، يتغنى بجمال منظرها واعتدال جوها، ويزداد هيامه بها كلما اشتدت عليها المحن، وكأنه قرأ ما قاله الشاعر الانجليزى العظيم: «أحبك يا انجلترا على كل ما فيك من عيوب» فكان يقول: «هل الوطنية فضيلة هناك ورذيلة هنا؟ هل انجلترا أحق بحب بنيها من مصر».

وهو المشبه لمصر بالأم المريضة وحولها أبناؤها تقول لهم: ألا فاسعفونى، وبالدار شبّت فيها النيران تنادى بلسان الحال أربابها أن اتحدوا فى إطفاء اللهب.

وهو مربيها الوطنى بلسانه وقلمه، وبالدعوة إلى توجيه التعليم إلى المثل العليا التى لا يكون بدونها تعليما؛ وإلى إنشاء الجامعة والحث على الإكثار من المدارس لتعليم الشعب، قائلا: «إن بين أبناء الفقراء الذين سدّ الاحتلال فى وجوههم أبواب العلم والنور، رؤوسا لو تحلت بالعرفان لكانت فخر مصر إلى أبد الزمان، وليذكر ذوو الإحساس والوجدان أن فى مصر كنوز لم تستخرج للآن، وأنها لو أخرجت للناس لملأت الأرض نورا، وأن هذه الكنوز مدفونة فى بيوت الفقراء»، وهو مؤرخ مصر الوطنى يذكر أبناءها كل آن بمجدها السالف وبتراث الآباء والأجداد.

وقد حصل مصطفى كامل على نصيب وافر من الثقافة الغربية، أتاح له وهو شاب أن يخطب ساعات باللغة الفرنسية ويكتب الافتتاحيات فى أمهات صحف فرنسا، فلم يدفع به إلمامه بمدنية الغرب إلى حب الفناء فى دولة من دوله. بل كان مما قاله: «لاجرم أن أنفع درس يحتاج إليه المصرى من أوروبا هو الوقوف على قوة الإحساس الوطنى فى البلاد على اختلافها، فأهل تلك البلاد على تفرق مشاربهم وأهوائهم يحبون بلادهم حبا شديدا، ويستقبل الفرد منهم الموت فى سبيل خدمة بلاده راضيا مسرورا»، وهكذا لم يقل فى قرارة نفسه: هذه بلاد عظيمة فيجب أن أكون عبدا لها، بل قال بلسان الحال والمقال: هذه بلاد عظيمة فلأ بلغن بوطنى ما بلغت من رفعة وعلو شأن.

ولهذا كان أكبر المناضلين عن الإسلام بقوة بيانه، وكان فخورا بمصريته وبأنه «ابن ضابط شهم من أبناء الفلاحين»، ومما قاله فى اعتزازه بقومه: «يرى السفهاء والطائشون أن الانتساب لشعب مستبعد كالشعب المصرى مما لا يليق، بإنسان، ولكن أى شرف

يطمع الحر فيه أكبر من العمل لإحياء أمة سبقت كافة الأمم؟»، وقال أيضا إن الوطنية تظهر فيما يعانيه الوطن من الشدائد لا فى الرخاء.

كان مصطفى كامل يملك نفسه فى مواقف الشدة. فأقام على من يتهمونه بالتطرف أقوى الحجج، على أن هذا التطرف لم يكن إلا التمسك بحقوق الوطن وأنهم لم يقصدوا بكلمة الاعتدال إلا التساهل فى هذه الحقوق.

كان يهيب بالقوم إلى خدمة بلادهم خدمة إيجابية ويبث فيهم أنه لا يكفى فى شرعة الوطنية أن لا يؤذى الإنسان وطنه، بل إن المرء لا يكون بريئا من ذنب تأخر بلاده إلا إذا عمل على رفعتها، وأن كل مصرى مسئول عن مصر، وأنه لا يليق بأى إنسان أن يقول إن هذا النصح صحيح ولكنه موجه إلى غيرى، إذ الوطن موجود فى ضمير كل شخص.

قال ردا على بعض من خشوا ألا تكون رسالته قد نفذت إلى قلوبهم لأنها رسالة عقيدة: «يقول البعض إن المناداة بالوطنية كلام فى كلام، ونسى ذلك القائل أن أهم الأعمال البشرية وأرقى الجهود الإنسانية تنحصر فى إدخال عقائد جديدة فى النفوس، لأن العقيدة تحرك الجبال، ومن قال ضد ذلك فقد أنكر الديانات وتأثيرها، والتاريخ وأحكامه، والعوامل الفعالة فى الشعوب كلها».

ولقد أصبحنا اليوم نذكر بذكر مصطفى كامل جميع الحقائق التى لمسناها فى شئوننا، فإذا نظرنا فى أحوالنا الاقتصادية، رأينا المصلحة الوطنية ماثلة أمام أعيننا، وإذا تصدينا لشئون التعليم وجدناها لا تستقيم فى غير الوضع الوطنى، وإن الفرد، إذا أراد فى أية ناحية من نواحى الحياة، أن يرفع من شأن نفسه لم يجد لذلك سبيلا إلا برفع شأن الوطن.

محمود العمرى

قصيدة أحمد محرم

هذا الذى شرع الجهاد لقومه

هتف البشير به، وحان الحينُ   فأضاء وجه، واستنار جبينُ

وبدت مواكبه حسانا طلقة   فشدا اللهيب، وغرّد المحزون

ويحى، أأنت انشق قبرك فانقضى | عبث الخطوب، ورأيها المأفون
إنْ غِبْتَ عن نظر العيون هنيهة | فقلوبنا الحرَّى عليكَ عيون
ماذا تظنُّ بكَ البلاد وأهلها | تلكَ القيامة، لو يكون يقين
مَنْ أطلَقَ الأفكار من أوهامها | أيظلُّ طول الدهر وهو سجين
أَوَلَمْ يقولوا: نَكْبَة نزلت بنا | هيهاتَ يكشفها فتى مفتون
أله جُنودٌ حوله محشودَةٌ | وبَوَارِجٌ مبثوثةٌ وسَفِين

* * *

هذا الذى بعثَ الشعور، وبَثَّهُ | مِلْءِ «الكنانة» والشعُورُ دفين
نَادَى: بلادِى، فاستجابت أمة | ليست بغير هَوَى البلاد تَدِينُ
تبغى الحياة عزيزة، ويغيظُهَا | أن يُسْتَبَاحَ من الليُوثِ عَرِين
أَبَتِ القعُود مع الخَوَالف بعدما | أَخَذَ «اللوَاء» القائِدُ المأمون
ومضى، يذودِ اليأس عن آمِالها | ويُعَلِّم الأحداثَ كيفَ تلين
هذا الذى شَرَعَ الجهاد لقَوْمه | فَهَدَى الكتائب نَهْجه المسنُون
إن المضلل فى الحياة لَمَنْ يَرَى | أن الحياة وساوسٌ وظُنُون
هى ما رأيت، فكلُّ شيء دونها | إن كنت تكره أن تُضَامَ يَهُوَن

* * *

إنا وفينا للبلاد، فلم نحن | والدهر يَظْلُم والخُطُوب تخُون
نسخو بأنفسنا، نريد حياتها | إن صَدَّ هيابٌ، وكفَّ ضنين

جوائز مصطفى كامل

١ – المباراة الأدبية

لمناسبة حفلة إزاحة الستار عن تمثال (مصطفى كامل) تبرع الوطنى الكريم الأستاذ محمد محمود جلال بمبلغ خمسين جنيها تعطى مكافأة لمن يحوزون قصب السبق فى مباراة أدبية موضوعها (جهود مصطفى كامل فى نواحى النشاط الإنشائى القومى وبخاصة فى التعليم والاقتصاد والاجتماع، وعلاقة ذلك بدعوته الوطنية) وكانت شروط المباراة:

١ – أن يكون المشترك فيها شابا مصريا لا تزيد سنة عن ثلاثين سنة

٢ – أن لاتزيد الكتابة فى موضوع المباراة عن عشر صحائف من القطع الكبير

٣ – أن تقدم المواضيع إلى لجنة المباراة التى ألفت من: أنطون الجميل بك. عبد الرحمن الرافعى بك. فكرى أباظة بك. الأستاذ محمود العمرى فى مدة ثلاث أشهر من تاريخ الإعلان عن المباراة. وقد وزعت الجوائز فى حفلة فخمة أقيمت يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٤١، وهو يوم الذكرى الثالثة والثلاثين لوفاة الزعيم، وفاز فى المباراة كل من الأستاذ نجيب تاوفيلس الموظف بمصلحة السكك الحديدية. على منصور الطالب بكلية الحقوق. الأستاذ لبيب السعيد الموظف بتفتيش مراقبة القطن بالدقهلية. الأديب محمد الخالد ببنى مزار.

٢ – جائزة كلية الحقوق

وتبرع حفظه الله بجائزة أخرى (سنوية) قيمتها عشرة جنيهات سميت (جائزة مصطفى كامل) تمنح كل عام لأول ناجحى الليسانس فى الدور الأول لكلية الحقوق وهى الكلية التى بدأ بها الفقيد دراسته العليا، وأرسل إلى عميد الكلية خطابا بذلك وأرفق به صورة الاعتماد الذى خصصه ببنك مصر عن قيمة الجائزة، وبموجبه يصرف المبلغ فى شهر مايو عن كل عام، فورد إليه خطاب رقيق من حضرة العميد مع قبول هذه الجائزة الكريمة.

٣ – جائزة كلية تولوز

وتبرع أيضاً بمبلغ ألفى فرنك لأول الفائزين فى سنة ١٩٤٠ بكلية الحقوق بتولوز، وهى الكلية التى أتم فيها الفقيد دراسته ونال منها شهادة الليسانس سنة ١٨٩٤، وكتب بذلك خطابا إلى وزير فرنسا المفوض فى مصر وأرفق به قيمة الجائزة فتلقى خطابا من الوزير المفوض بقبول الجائزة وشكره على هذه المبرة

كلمة الأستاذ محمد محمود جلال فى حفلة المباراة

وإنا ناشرون هنا كلمة الأستاذ محمد محمود جلال التى ألقاها فى حفلة المباراة الأدبية قال:

سادتى الأجلاء: أيها المتسابقون النجباء.

حفظنا عن أستاذنا وزعيم الوطنية مصطفى كامل «أن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ولا تسترد أستقلالها إلا بجهودها وأن الروح الوطنية إذا تمكنت من كل مصرى فتحت المدارس العلمية وظهرت آثار النخوة والهمة والتضامن فى كل جهة وناحية، وأتحدت الأمة فى الغايات والمقاصد وازدادت نروتها فى المال والعلم والوطنية والوئام».

وإذا استجبنا بتوفيق الله إلى هذه الدعوة وهديت لها قلوبنا، وصبغت عليها أرواحنا، فإنما إليها يرد الإطراء الذى شرفنى به زملائى وأصدقائى، لأن ما فكرت فيه وما قمت به نتيجة لاستيعاب هذه التعاليم التى مكنتها تضحيات فريد وأخلاق فريد، فرحمة الله فى كل مناسبة على البطل الخالد الذكر «مصطفى كامل».

لقد استخرت الله قاصداً من هذه المباراة إلى تسابق الشباب من هذا الجيل إلى كدح أذهانهم وتوجيه أبحاثهم فى سبيل المثل العليا واضحة الصورة فى مصطفى كامل وهى الوطنية الشاملة التى طبع الله عليها روحه.

جاءت هذه الكلمات على لسان مصطفى كامل لآخر عهده بخطاب جامع، فكانت وصية لها قيمتها وخلودها. كشف لنا كيف كانت الوطنية التى دعا لها وطنية عامة شاملة غير مقصورة على ما يسمى بالنشاط السياسى، ولو قصرت عليه لكانت سطحية غير منتجة، ولكان تحديد الدعوة به تضييقاً على الطبيعة ومجافاة لحقائق الوطنية وتضييعها لثمراتها.

أذكر لأحد كبار كتاب الغرب قوله: إن ما فى الإنسان من قوة ليس ناتجاً عن اليد وحدها، وإنما هو فعل قوة البنية جميعاً ممثلة فى اليد، فإذا استطعت أن تحمل ثقلا عظيما فى يدك فإنما تتأتى لك القوة لأن القلب يقوم بوظيفته والمعدة تؤدى عملها وكذا سائر أعضاء

بدنك ،تتآزر فى سبيل القوة التى كانت يدك مظهرها وأداة تنفيذها.

من أجل ذلك تطرقت الوطنية الممثلة فى مصطفى كامل إلى ميادين العلم والتاريخ والاقتصاد وأوضاع المجتمع تحييها وتقومها على الغزار الوطنى، ترأب أصداع القائم منها، وتقديم الجديد على الأساس القويم، محافظة عليها مما تتنوع به محاولات الخصم فى هذه الميادين، فينشىء بالتعليم جيلا يسيغ حكمه وبتزييف التاريخ يهدم من ثقة الشعب بنفسه ويهون عليه الوضع المراد كما يوغل فى شئون الاقتصاد يوطئها لغير المصلحة الوطنية ويوجهها إلى نفعه بحيث تعد فى الإنتاج والاستيراد مرتبطة به بفعل الزمن من حيث لاتدرى، ثم يعمد إلى مصطلحات الاجتماع يبهظ كاهلها بتقاليد جديدة منحرفة وإذاعات وصياغات جديدة تجر بضعاف النفوس إلى ناحيته، وبكل هذه الوسائل مجتمعة يصل إلى خلق الوهم فى الشعب، ثم إلى أن يكون أداة السيطرة عليه، حتى إذا رجع القوم إلى حال اطمأنوا إليها زمناً ظنوا فى حضانتها أنهم غير جديرين بغيرها وظنها البعض منهم نعمة وطويت الثقة بالنفس.

ولنستمع هنا مرة أخرى لوصية (مصطفى كامل) فى هذه النتيجة التى كانت أخشى ما خشى على بلاده: إن كل قول أو عمل يؤدى إلى إضعاف الروح المعنوية وهدم جزء أو كل من ثقة الأمة بنفسها وبمستقبلها هو أكبر أذى يلحق البلاد».

فمصطفى كامل حريص لدعوته ولنجاحها على المثل الأعلى للفرد ولشعب وادى النيل، وهو لذلك يضفى على كل ناحية من مسالك الدعوة ماينفى عنها الأشواك الغريبة والهنات التى تسيء إلى المستوى المرتقب لأمته فالاستقلال عنده إذن غاية تكرس لها الجهود ويعنى بها الفكر وتثمر الظروف بقدر ماهو وسيلة لابد منها للنهوض بالنواحى المختلفة وتمكين الأمة على الأسس الصحيحة من كل مرافق الحياة على الوضع الذى يلائمها هى دون تعلق بغيرها. على أن مصطفى لم يعلق مطالبته بالاستقلال على بلوغ الغاية فى تلك النواحى كما هو الحال فى الأمم المستقلة، لأنه لا يرتب الحق الطبيعى فى الحرية على مستوى معين تكون الأمة ملزمة بإثباته أمام الغير متى كان ذلك الغير هو المتحكم فى وسائل نهوضها، وإن لجهاد مصطفى فى جميع هذه النواحى معنى لا يسمو عليه أى معنى من المعانى التى يعيش الأبطال لتحقيقها وتمثيلها، إذ كان دليلا على فنائه فى المثل الأعلى فناء تاما مع تشعب جهوده فى جميع نواحى الوطنية على ترامى أطرافها ونفوذ

إشعاعها جيلا بعد جيل أقول إن هذا المعنى المتجلى فى ذلك الرجل أو ذلك المثل الأعلى الممثل فى رجل دليل على أنه لم يعش عيشة الرجال المحدودة بأشخاصهم وأعمارهم.

سادتى: ترون اليوم بينكم هذا الرهط الكريم من الشباب الذى تنبأ به مصطفى كامل وعمل له، يكد ويتعب ليضع يده على كنوز الفقيد فى جهاده المدخر لأمته وينفقون من وقتهم منبثين فى نواحى البلاد فى زمن عز فيه الميل إلى البحث، ألا إن المرء إذا عظمت قوة روحه فترامت نواحيها وانبعثت أضواؤها فى المدى، تناولت جميع الأرجاء وامتدت فى الزمان فشملت آثارها ومراميها مستقبل الأيام.

إن رجلا كهذا ليس برجل عادى ولكنه تيار من تيارات التاريخ، وقوة من قوى البشرية الخالدة. هذا هو مصطفى كامل الذى نحتفل اليوم بذكراه.

ضريح مصطفى وفريد

أقيم ضريح مصطفى كامل القديم فى المدفن الذى شيده الزعيم لوالدته بشارع المغافر بمدافن الإمام الشافعى، وقد شيعها إلى مرقدها الأخير سنة ١٩٠٧، ودفن إلى جوارها سنة ١٩٠٨، ومن يومئذ لم تعمل يد فى إصلاح هذا المدفن أو تجديده، حتى أخذ التصدع يظهر فى سقفه وجدرانه سنة ١٩٣٩. وصار يخشى على الضريح الطاهر أن يستهدف للأمطار والأعراض الجوية فى شتاء ذلك العام، ففكرتُ مع لفيف من إخوانى فى تدارك هذا التصدع، وألّفنا فى أواخر سنة ١٩٣٩ لجنة لإصلاح الضريح، وتم لها جمع مبلغ يسر اكتتب به بعض تلاميذ الفقيد وأنصاره والمعجبين به، فرممنا ضريحه ترميما جزئيا، ولم يعد مع ذلك فى حالة تليق بمكانة الزعيم، فاقترحت فى مجلس الشيوخ بجلسة ١٠ مايو سنة ١٩٤٤ لمناسبة نظر ميزانية وزارة الأشغال اعتماد مبلغ خمسين ألف جنيه لتشييد مدفن جديد يضم رفات الزعيم، وقلتُ فى هذا الصدد ما يأتى (نقلا عن مضبطة الجلسة):

«أرجو أن تسمحوا لى من وقتكم بخمس دقائق لأعرض اقتراحا بمناسبة نظر ميزانية وزارة الأشغال العمومية، وأريد أن أشرح هذا الاقتراح أولا كى أمهد الطريق إلى عرضه.

وضعت الحكومة سنّة حميدة فى السنوات الأخيرة وهى تخليد ذكرى عظماء الرجال،

ولذلك أقرت فيما يتعلق بتخليد ذكرى المغفور له سعد زغلول باشا عدة مشروعات منها تشييد ضريح له وإقامة تمثالين أحدهما بالقاهرة والآخر بالإسكندرية وأنفقت الحكومة على توالى السنين مبالغ كبيرة لتخليد ذكراة وعلى ما أذكر أن الضريح قد تكلف لغاية الآن حوالى ٢٠٠,٠٠٠ ج، وهذا بالطبع تنفيذاً للسنة الحميدة التى اتبعتها الحكومة، وأمس فقط عرضت علينا مشروع قانون بفتح اعتماد إضافى بمبلغ ٢٧٠٠٠ج فى ميزانية هذا العام لشراء منزل المغفور له سعد باشا فى مصر «بيت الأمة»، والمنزل الذى ولد فيه الفقيد بإبيانه وضمهما للمنافع العامة، كل هذا عمل حميد تشكر عليه الحكومة، وهذا ما شجعنى على أن أتقدم لحضراتكم باقتراح تخصيص مبلغ ٥٠٠٠٠ج فى ميزانية وزارة الأشغال لتشييد ضريح للمغفور له مصطفى كامل باشا، لأنه ضريحه لا يزال على حالته كما بناه لوالدته سنة ١٩٠٧ إذ توفيت فى السنة المذكورة، فبنى هذا الضريح لها، ثم عاجلته المنية فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ فدفن إلى جوار والدته فى القبر الذى بناه لها، ومن يومئذ لم تفكر حكومة من الحكومات المتعاقبة فى أن تشيد الضريح الذى يليق بالزعيم الأول الذى بعث الحركة الوطنية من مرقدها، ولعل القدر قد باعد بين الحكومات المتعاقبة وبين القيام بهذا الراجب، فاتباعا للسنة التى جرت عليها الحكومة فى تخليد ذكرى سعد أتقدم باقتراح إضافة مبلغ ٥٠٠٠٠ ج فى ميزانية وزارة الأشغال لتقيم ضريحا للمغفور له مصطفى كامل، ذلك أن تقدير عظماء الرجال هو فعلا واجب محتم ومقدس ولكن أجمل من هذا الواجب أن يكون تقدير هؤلاء العظماء عاما وشاملا، أساسه العدل والإنصاف. فإذا كانت الحكومة قد أدت واجبها نحو سعد زغلول فأرجو أن تؤدى واجبها نحو مصطفى كامل، إن ضريح مصطفى كامل ياحضرات الزملاء الأعزاء قد آل إلى حالة لا تتفق ومكانة الزعيم الأول للحركة الوطنية ولا تتفق مع حسن تقدير البلاد لعظمائها الراحلين، وأرجو إذا كان من حضراتكم من يريد أن يستوثق من هذا الحال أن يتفضل بزيارة هذا الضريح، ولعل الوقت قد آن لكى تعمل الحكومة عملا ولنعمل نحن أيضا عملا يمكن أن نسد به هذا النقص الكبير، ولا أريد أن أطيل فى التدليل والبيان فى هذا المقام، ولكنى استسمح حضراتكم فى أن أتلو على مسامعكم كلمتين للمغفور له سعد زغلول فى تقدير المغفور له مصطفى كامل.

«رئيس المجلس (على زكى العرابى باشا) - لا ينازع أحد فى ذلك.

«عبد الرحمن الرافعى بك – قال سعد زغلول رحمه الله فى خطبته بالسرادق يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣:

«لست خالق هذه النهضة كما قال بعض خطبائكم، لا أقول ذلك ولا أدعيه، بل لا أتصوره، إنما نهضتكم قديمة تبتدىء من عهد مؤسس الأسرة المالكة محمد على، وللحركة العرابية فضل عظيم فيها، وكذلك للسيد جمال الدين الأفغانى وأتباعه وتلاميذه أثر كبير، وللمرحوم مصطفى كامل باشا فضل غزير فيها وكذلك المرحوم فريد بك»

وقال فى خطبته بفندق شبرد يوم ٢٠ ابريل سنة ١٩٢١:

«إنى أعلم أن البلاد تصبو إلى الاستقلال، وأن حركتها الاستقلالية بدت من زمن طويل خصوصا من يوم أن ظهر فيها مصطفى كامل وتلاه المرحوم فريد بك، هؤلاء أسسوا وأيدوا ما أسسوا فى النهضة الحاضرة».

«فواجب تقدير الزعماء ياحضرات الزملاء الأعزاء يقتضينا أن نقدرهم جميعا، وأن يكون تقديرنا مبناه العدل والإنصاف، فإذا كانت قد مضت هذه السنوات الطويلة ولم تفكر حكومة من الحكومات فى إصلاح هذا الضريح أو تشييده أو تعميره فأظن أن الوقت الحالى هو أنسب الأوقات لكى نتلافى مافات الحكومات السابقة. لذلك أتقدم بهذا الاقتراح، وأرجو من حضراتكم الموافقة عليه.

وزير الأشغال العمومية (عثمان محرم باشا) – يسرنى أن أقرر لحضرة الشيخ المحترم عبدالرحمن الرافعى بك أننى أول من يحترم ذكرى المرحوم مصطفى كامل باشا، وقد كانت تجمعنى به صلات شخصية وأقرر أن حكومة الوفد تسير على سياسة المغفور له سعد زغلول باشا تعرف فضل مصطفى كامل باشا، وأقول إنه لا داعى لإضافة المبلغ الذى يطلبه حضرة الشيخ المحترم عبدالرحمن الرافعى بك لتشييد ضريح المغفور له مصطفى كامل باشا إلى ميزانية وزارة الأشغال لأن فى الميزانية الحالية مبالغ تسمح بتنفيذ ما يطلبه حضرة الشيخ المحترم، وأعد لحضرته بتنفيذ اقتراحه فى ميزانية السنة الحالية فورا (تصفيق عام).

وقد وضعت الحكومة من يومئذ تصميم المدفن الجديد، وأقيم فى ميدان صلاح الدين بجوار القلعة، وتم تشييده فى أواخر سنة ١٩٤٩ (انظر صورته ص ٣١٩)

أما ضريح محمد فريد القديم فهو فى مدفن العائلة بجوار مقام السيدة نفيسة رضى الله عنها، وقد أقيم القبر على عجل، وبقى طوال السنين عرضة للعراء والأمطار فى حالة لا تتفق ومنزلة الزعيم الشهيد الذى ضحى فى سبيل مصر بماله وصحته ونفسه وحياته، وقد اقترحتُ أن ينقل إلى جوار مصطفى كامل فقرر مجلس الوزراء فى ١٨ سبتمبر سنة ١٩٤٩ نقل رفات المرحوم محمد بك فريد إلى جوار مصطفى كامل بالمدفن الجديد، وهكذا يتاح للزعيمين العظيمين والصديقين الوفيين أن يلتقيا بعد طول النوى، ويضمهما قبر واحد، بعد أن فرق الزمن بينهما نيفا وأربعين سنة، وأصبح الضريح الجديد «ضريح مصطفى وفريد»[1].

الاحتفال بنقل رفات مصطفى كامل
إلى الضريح الجديد
(١٠ فبراير سنة ١٩٥٣)

وقررت حكومة الثورة (ثورة ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢) تقديراً للزعيم مصطفى كامل الاحتفال بنقل رفاته من مدفنه الأول بحى الإمام الشافعى إلى ضريحه الجديد، وحددت لهذا الاحتفال يوم ١١ فبراير سنة ١٩٥٣.

و ١١ فبراير هو يوم ذكرى تشييع جنازة الزعيم لأول مرة سنة ١٩٠٨، ففى مساء ١٠ فبراير سنة ١٩٥٣ نقل رفاته من مدفنه إلى دار اللواء بشارع الدواوين (مدرسة مصطفى كامل الأميرية الآن) ووضع الجثمان الطاهر فى الغرفة التى لقى فيها ربه.

وفى عصر اليوم التالى - ١١ فبراير سنة ١٩٥٣ - شيعت الأمة جنازة الزعيم للمرة الثانية من دار اللواء إلى مدفنه الجديد فى احتفال مهيب اشتركت فيه الحكومة والشعب، وكان يوما مشهوداً، فقد مضت خمس وأربعون سنة على انتقاله إلى الرفيق الأعلى حتى

---

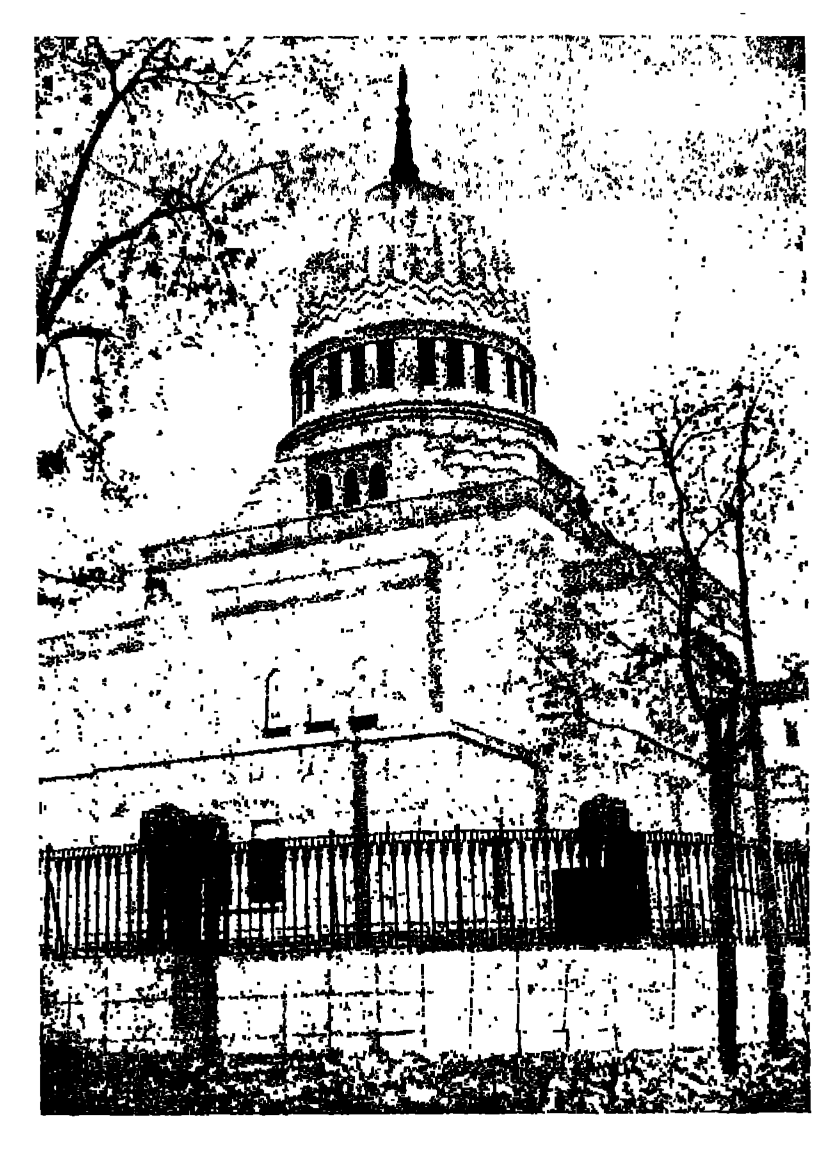
(١) ضم الضريح رفات المؤلف «عبد الرحمن الرافعى» حيث دفن جثمانه به يوم ٤ ديسمبر سنة ١٩٦٦ غداة يوم وفاته.

سنة ١٩٥٣، لقد تعاقبت السنون والأيام على وفاته وزادت مبادئه رسوخا، وذكراه خلودا، وكذلك شأن المبادىء الصالحة والأفكار السامية التى تنهض بالأمم والإنسانية تزداد على مر الزمان ذيوعا وثباتاً واستقراراً.

الاحتفال بنقل رفات محمد فريد إلى جوار مصطفى كامل (١٥ نوفمبر سنة ١٩٥٣)

وقررت حكومة الثورة أيضا الاحتفال يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٩٥٣ بنقل رفات الزعيم محمد فريد إلى جوار زميله فى الجهاد مصطفى كامل: فى هذا اليوم احتفلت مصر فى موكب رائع بنقل جثمانه من مدفنه الأول بحى السيدة نفيسه إلى جوار الزعيم الأول، لقد فرق الموت بينهما طوال السنين، منذ وفاة مصطفى كامل سنة ١٩٠٨، وبقى محمد فريد يحمل الراية من بعده ويواصل الجهاد الذى بدأه مصطفى كامل، حتى أضناه الجهاد وانتقل إلى الرفيق الأعلى فى ١٥ نوفمبر ١٩١٩، وظل الزعيمان الوفيان بعد وفاتهما تفصل بين جثمانيهما الأيام والأعوام، حتى اجتمعا فى مقام واحد، يضمهما قبر واحد، التقيا بعد طول النوى، فعليهما وعلى الشهداء السلام!

* * *



الضريح الجديد، لمصطفى وفريد – بميدان صلاح الدين، بجوار القلعة
نقل إليه رفات مصطفى كامل فى فبراير ١٩٥٣، ونقل إليه رفات محمد فريد فى نوفمبر ١٩٥٣ وبجوارهما ضم جثمان المؤلف «عبد الرحمن الرافعى» فى ٤ ديسمبر سنة ١٩٦٦.

الفصل السادس عشر

الخديو عباس الثانى

إن تاريخ مصر السياسى فى عهد الخديو عباس حلمى الثانى له ارتباط وثيق بتاريخها الوطنى فى عهد مصطفى كامل، لذلك كان لزاماً علينا أن نفرد فصلاً للخديو عباس يكون بمثابة صفحة من تاريخ مصر السياسى فى ذلك العهد حتى سنة ١٩٠٨، حيث ينتهى هذا الكتاب(١).

نشأة الخديو عباس الثانى

هو ابن الخديو توفيق باشا البكر، ولد فى ١٤ يوليه سنة ١٨٧٤، وكانت ولايته الخديوية يوم ٨ يناير سنة ١٨٩٢، وهو اليوم التالى لوفاة توفيق باشا، فلم يكن قد بلغ الثامنة عشرة الميلادية، حين ولايته الأريكة الخديوية، وكان قد بلغها بالحساب الهجرى.

ارتقاؤه العرش

وقد بلغه نبأ وفاة والده وهو فى (ڤيينا) عاصمة النمسا حيث كان يتلقى العلم فى كلية (الترزيانوم) التى كان يؤمها أبناء الملوك والأمراء، فبادر بالعودة إلى مصر، واتخذت انجلترا من حداثة سنه ذريعة لتسويغ بقاء الاحتلال، كما اتخذت من كل حادثة وكل سبب ذريعة إلى ذلك، فكتبت الديلى تلغراف تقول: «لقد أصبحت سلطتنا أكثر ضرورة فى الوقت الذى يجلس فيه على العرش أمير غير مجرب»، وقالت البول مولت جازيت: «إن ارتقاء الخديو الشاب عرش مصر يجعل بقاء الاحتلال أكثر ضرورة من أى وقت

---

(١) أما الحوادث التى وقعت بعد ذلك فموضوعها فى كتاب (محمد فريد).

مضى فلا يجوز منذ الآن الكلام عن الجلاء»، وقالت الجلوب: «إن وفاة توفيق قد هدمت آخر حجة للجلاء».

وصل الخديو إلى الإسكندرية ثم إلى القاهرة يوم ١٦ يناير سنة ١٨٩٢، وأخذ يضطلع بمهام الأريكة الخديوية، وكان مصطفى فهمى باشا رئيساً للوزاة منذ أواخر عهد توفيق، فقدم استقالة الوزارة اتباعاً للعرف الجارى عند تغيير ولى الأمر، فأقر الخديو بقاءها.

وبدأ الخديو عباس عهده بالاستمساك بحقوق مصر ومعارضة السيطرة البريطانية.

الحوادث المهمة فى عهده
(أزمة فرمان سنة ١٨٩٢)

تأخر ورود الفرمان السلطانى المنبىء بإسناد الخديوية المصرية إلى عباس الثانى، وراجت الإشاعات المختلفة عن أسباب تأخيره، ثم تبين أن تركيا رغبت فى تعديل الحدود بينها وبين مصر من جهة طور سيناء، ودارت المفاوضات بينهما فى هذا الصدد قبل تحرير الفرمان، على أن تتخلى مصر عن العقبة لتركيا، إذ كانت فى الأصل تابعة لولاية الحجاز، وإنما أعارتها تركيا لمصر فى عهد اسماعيل، ورخصت لها بوضع حاميات من الجند فى الوجه) والمويلح وضبا والعقبة وشبه جزيرة طور سينا لتأمين المحمل والحجاج بطريق البر، وقد استعادت تركيا الوجه وضبا والمويلح، ثم أرادت استعادة العقبة، فقبل الخديو ذلك، وأراد بهذا التساهل أن لا يوجد بينه وبين تركيا خلافاً فى بداية عهده، مما قد تستفيد منه الاحتلال، فانفرجت أزمة الفرمان مؤقتاً، وجاءت الأنباء من الأستانة بأن السلطان قد أعد الفرمان وعهد بالمشير أحمد أيوب باشا أن يحضر به إلى مصر.

وصل المندوب السلطانى إلى الإسكندرية، ومنها إلى القاهرة يوم الاثنين ٤ أبريل سنة ١٨٩، أى بعد أكثر من شهرين من ولاية الخديو، ولكن لم يحلّ مجيئه الأزمة، بل تطورت ى شكل أشد. وتأخرت بسببها تلاوة الفرمان، وذلك أن الحكومة البريطانية علمت بأنه ـ وضع فى صيغة تدل على رغبة تركيا فى استرداد شبه جزيرة سيناء كلها، ولم يكن سفير البريطانى فى الآستانة قد اطلع على صيغة الفرمان، فلما علم بها أبرق إلى اللورد السبرى رئيس الوزارة الإنجليزية بفحواها، وأرسل هذا برقية إلى السير إفلن بارنج

(اللورد كرومر) بالمعارضة فى تلاوة الفرمان حتى تصدر إرادة سلطانية بترك إدارة شبه جزيرة سيناء إلى مصر، فوقعت لذلك أزمة خطيرة، وتدخل السير بارنج فى الأمر، وبعث إلى تيجران باشا وزير خارجية مصر فى ذلك الحين بخطاب بتاريخ ١١ أبريل يبلغه فيه صورة الفرمان وينهى إليه أنه يختلف عن الفرمان الصادر إلى توفيق باشا، إذا كان يتضمن إسناد خديوية مصر إليه طبقاً لحدودها القديمة مع ملحقاتها (وهذه الملحقات تشمل شبه جزيرة سيناء)، أما فرمان الخديو عباس فإنه يعين أملاك مصر طبقاً لحدودها القديمة المذكورة فى الفرمان الصادر إلى محمد على باشا والخريطة الملحقة به والأراضى التى ألحقت بها بموجب الفرمان الصادر فى ١٤ ذى الحجة سنة ١٢٨١، أى قبل أن تعهد إلى مصر بإدارة شبه جزيرة سيناء، ولفت اللورد كرومر نظر تيجران باشا إلى هذا التناقض وأنهى إليه أنه مكلف بإبلاغه ذلك تنفيذاً لتعليمات وزارة الخارجية البريطانية، وسأله إذا لم يكن وصل تفسير لذلك من الباب العالى إلى الحكومة المصرية.

ولما بلغ تركيا تشدد انجلترا فى هذا الصدد صدرت إرادة سلطانية بإسناد إدارة شبه جزيرة سيناء إلى الخديو، فانفرجت الأزمة، وأرسل تيجران باشا فى ١٣ ابريل إلى السير بارنج يبلغه أن الحكومة المصرية تلقت من الصدر الأعظم رسالة تلغرافية بتاريخ ٨ ابريل يبلغها فيه الإرادة السلطانية بترك إدارة شبه جزيرة سيناء إلى الخديو كما كانت لأسلافه من قبل، فرد على السير بارنج بأنه قد أحيط علماً بفحوى الإرداة السلطانية، وأنه بناء على ذلك تستمر شبه جزيرة سيناء كما يحدها الخط الممتد من شرقى العريش إلى رأس خليج العقبة تحت إدارة مصر، على أن تكون طابية العقبة الواقعة شرقى الخط المذكور من ملحقات ولاية الحجاز، وأن حكومة جلالة الملكة قد بلغت الباب العالى قبولها ذلك؛ وبناء عليه يبلغه بقبول التحديد المذكور والإضافة اللذين حصلا بمقتضى تلغرف الصدر الأعظم المؤرخ ٧ ابريل الذى تعتبره الحكومة البريطانية ملحقاً وجزءاً من الفرمان، وأنه ليس لديه معارضة فى إعلانه رسمياً بإضافة التلغراف المذكور إليه، وعلى ذلك تلى الفرمان مع الإرادة السلطانية المصححة له يوم الخميس ١٤ أبريل بسراى عابدين، وبهذا انتهت أزمة فرمان سنة ١٨٩٢.

أزمة إقالة الوزارة الفهمية
(يناير سنة ١٨٩٣)

كان مصطفى فهمى باشا يتولى رآسة الوزارة كما أسلفنا حين ولى عباس الثانى الحكم، وهى وزارة موالية وخاضعة للنفوذ الإنجليزى خضوعاً تاماً، فلم يكن مصطفى فهمى يصدر فى أى شأن من شئون الحكومة إلا عن إرادة اللورد كرومر، كما أن الموظفين البريطانيين كانوا أصحاب الحول والطول فى الوزارات، وقد ظهر ولاء مصطفى فهمى للإنجليز فى محاولته إقصاء الخديو الجديد عن كل سلطة، فكأن الخديو الحقيقى هو المعتمد البريطانى.

ساءت هذه السياسة الخديو عباس، ووجد من ميول مصطفى فهمى الإنجليزية ما يجعل تعاونه مستحيلاً، واحتمل بقاءه على رأس الوزارة سنة، ثم لم يطق عليه صبراً، واعتزم إقصاءه عن منصبه، فأوفد إليه يوم ١٥ يناير سنة ١٨٩٣ محمود شكرى باشا رئيس الديوان التركى، وأبلغه رغبته فى أن يستقيل مراعاة لصحته (وقد كان مريضاً حقاً ولكن فى دور النقاهة)، فأجاب الرسول أنه سيفكر فى الأمر، وأن الأوفق لسموه أن يستشير فى ذلك اللورد كرومر[٢]، فلم يكن من الخديو إلا أن أرسل إليه على الفور كتاباً بإقالته لاعتلال صحته، وعهد فى اليوم نفسه إلى حسين فخرى باشا ناظر الحقانية الأسبق تأليف الوزارة الجديدة، فألفها فى اليوم ذاته على النحو الآتى:

حسين فخرى باشا للرآسة والداخلية، أحمد مظلوم باشا سر تشريفاتى الخديو للحقانية. بطرس باشا غالى للمالية. وبقى تيجران باشا للخارجية. ومحمد زكى باسا للأشغال والمعارف. ويوسف شهدى باسا للحربية، كما كانوا فى الوزارة الفهمية وهى أول وزارة تألفت فى عهد الخديو عباس، لأن وزارة مصطفى فهمى باشا كانت مؤلفة فى أواخر عهد الخديو توفيق ثم أقرها عباس عند ولايته الحكم.

كان لهذا التبديل دوىٌّ كبير فى مصر، وفى الدوائر الأجنبية، وبخاصة الإنجليزية، لأنه

---

(٢) حديث محمود سكرى باسا فى المؤيد - عدد ٢ أبريل سنه ١٨٩٣.

تم من غير استشارة اللورد كرومر واطلاعه، واكتفى الخديو بابلاغه نبأ تأليف الوزارة بعد أن تم تعيينها فعلاً، وقد قوبل هذا الانقلاب من المصريين بابتهاج كبير، إذ كان مصطفى فهمى باشا بغيضاً إلى الأمة لممالأته الاحتلال، وأثار ثائرة اللورد كرومر، لأنه كان يعتمد على خضوع مصطفى فهمى وإخلاصه للاحتلال، فى حين أنه لم يكن يظن فى حسين فخرى باشا هذه الميول، وقد رأى من ناحية أخرى أنه لم يؤخذ رأيه فى هذا التبديل، وأن هذا يعد خروجاً على الحماية المقنعة التى ضربتها انجلترا على مصر، وعلى التقاليد المتبعة فى عهد الخديو توفيق فقابل الخديو، واعترض على هذا التبديل، وأبرق إلى اللورد روزبرى وزير خارجية انجلترا بما وقع، وطلب تعليماته فى هذا الصدد، وفى انتظار هذه التعليمات أمر الموظفين البريطانيين فى الحكومة بعدم الاعتراف بالوزارة الجديدة، وعدم التعاون معها.

ولما تلقى اللورد كرومر تعليمات حكومته توجه يوم ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ إلى سراى عابدين وقابل الخديو وأبلغه صورة برقية وردت إليه من وزير الخارجية بأن الحكومة البريطانية تعارض فى تعيين فخرى باشا وتطالب بحقها فى الرقابة على اختيار الوزراء المصريين طبقاً لتلغراف اللورد جرانفيل المؤرخ فى ٤ يناير سنة ١٨٨٤، وبأنه فى حال امتناع الخديو عن العمل بنصائحكم «فعليه أن يحتمل أخطر العواقب».

فأجاب الخديو بأنه يستعمل حقه فى اختيار وزرائه، ولا يحق لأحد أن ينازعه فى هذا الحق الذى يستعمله لمصلحة البلاد. فأجابه اللورد كرومر متوعداً وحذره عواقب مقاومة انجلترا وأنه فى هذه الحالة يجازف بسلطته وبشخصه، وانصرف بعد أن حدد للخديو مدة أربع وعشرين ساعة ليتدبر الامر.

وقد بدأ التناقض واضحاً جلياً فى موقف الاحتلال بإزاء الخديو، إذ أن انجلترا كانت تسوغ احتلالها بدعوى المحافظة على حقوقه، ثم ها هى تفتات على أساس سلطته، أى على حقه فى اختيار وزرائه، وتفرض عليه الوزراء الذين تريدهم، وكان هذا الموقف تحدياً صريحاً لحقوق الخديو واعتداءً صارخاً على استقلال مصر وعلى المعاهدات التى كانت تحدد مركزها الدولى، وبدت خطورة الأزمة حينما استفاضت الأنباء عن مقابلة اللورد كرومر للخديو وعن البرقية التى أبلغه إياها، فاستدعى الخديو رياض باشا ثم نوبار باشا وقابلهما على انفراد، وكذلك قابل بعض معتمدى الدول الأجنبية، وذهب تيجران باشا

وبطرس باشا غالى إلى الوكالة البريطانية وقابلا اللورد كرومر للوصول إلى حل للأزمة.

وقد طلب اللورد كرومر فى بداية الأمر إقالة وزارة فخرى باشا وإرجاع مصطفى فهمى باشا، فرفض الخديو هذا الشرط، وانتهت الأزمة بحل وسط اتفق عليه الطرفان إذ استقال فخرى باشا، وقبل الخديو استقالته، على أن يعهد إلى رياض باشا تأليف الوزارة الجديدة، وأن يقدم الخديو بلاغاً إلى اللورد كرومر وضع هذا صيغته، يبدى فيه رغبته فى أن يوجه عنايته لإيجاد أصدق العلاقات الودية مع الحكومة البريطانية، وأن يتبع فى المستقبل نصائحها فى المسائل المهمة وقد بقى أمر هذا البلاغ مكتوماً إلى أن انفرجت الأزمة.

تأليف وزارة رياض باشا

وعلى ذلك تألفت وزارة رياض باشا فى ١٩ يناير على النحو الآتى: رياض باشا للرياسة والداخلية. محمد زكى باشا للأشغال والمعارف. يوسف شهدى باشا للحربية. تيجران باشا للخارجية. بطرس باشا غالى للمالية. أحمد مظلوم باشا للحقانية.

شعور الأمة إزاء هذه الأزمة

كان موقف الخديو فى الأزمة موقفاً مشرفاً. إذ لم يقبل بقاء وزارة عُرفت بالخضوع والولاء لإرادة الاحتلال وتنفيذ سياسته. فأقالها واستعمل حقه الشرعى فى تعيين وزارة يرى فيها الاستقلال عن النفوذ البريطانى، فلا غرو أن أثار موقفه حماسة الشعب وتأييده والتفافه حوله، وقد بدا هذا الشعور أثناء اشتداد الأزمة حين ذهب الخديو من سراى القبة إلى سراى عابدين فى صبيحة يوم الأربعاء ١٨ يناير سنة ١٨٩٣ فأقبلت وفود الأمة من الأمراء والعلماء والأشراف وأعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية وقضاة محكمة الاستئناف والمحاكم الابتدائية وكبار الموظفين والأعيان والتجار من العاصمة والأقاليم، جاءوا مدفوعين بشعورهم لتأييد الخديو فى موقفه، وقد غصت بهم السراى، واستقبلهم الخديو طائفة بعد طائفة، فكان يسمع منهم عبارات التأييد ويشكرهم على عواطفهم، ومما قاله لرجال القضاء إنه يدافع عن الحقوق الشرعية للبلاد

لا لشخصه وإنه لم يعمل غير الواجب عليه، واستمرت المقابلات منذ الصباح حتى الساعة الثانية بعد الظهر[٣]، فكانت مظاهرة رائعة من الأمة، وتلقى الخديو المئات من برقيات التأييد والتهنئة من مختلف أرجاء القطر.

وفى يوم الجمعة ٢٠ يناير - وكانت الأمة قد انتهت بتاليف وزارة رياض باشا - أدى الخديو فريضة الجمعة فى مسجد الحسين رضى الله عنه، فاستقبله الشعب بالحماسة والتهليل، واجتمعت الألوف فى المسجد وعلى جانبى الطريق من السكة الجديدة إلى الموسكى إلى الأزبكية وهتفوا له الهتافات العالية فى المسجد وعلى طول الطريق، وألف طلبة المدارس العالية مظاهرة[٤] هتفوا فيها له وأيدوه فى موقفه، ثم هاجموا إدارة جريدة (المقطم) لنزعتها الاحتلالية وانحيازها إلى اللورد كرومر فى الأزمة.

وفى مساء السبت ٢١ يناير حضر الخديو تمثيل رواية (عايدة) فى الأوبرا، فكانت أيضاً مظاهرة رائعة له، اشترك فيها الوطنيون والأجانب من النظارة إذ وقف الجميع حين دخل اللوج الخديوى وصدحت الموسيقى بالسلام وهتفوا له هتافاً عالياً ودوى المكان بالتصفيق المتواصل، فأجابتهم الموسيقى بالسلام الخديوى مثنى وثلاث ورباع، وكلما عزفت زاد الهتاف والتصفيق طالبين إعادة السلام الخديوى حتى أشار الخديو إليهم بالجلوس، وظلت وفود الأعيان والمهنئين ترد إلى سراى عابدين لتهنئة الخديو وتأييده[٥]

موقف الدول

ذاعت أنباء الأزمة فى أوروبا، ولكن الدول الأوروبية قابلتها بالجمود وعدم الاكتراث، واحتجت تركيا على هذا التدخل، فأجابت الحكومة الإنجليزية بأن اللورد كرومر لا يقصد التعدى على حقوق الخديو وأن إسناد رآسة الوزارة إلى رياض باشا يعتبر حلاً نهائياً للأزمة، واستفسرت الحكومة الفرنسية من الحكومة الإنجليزية عن موقف اللورد كرومر تجاه التغيير الوزارى، فأجابتها بأنه من الواجب مراعاة رأيها فى تعيين رئيس

(٣) المؤيد عدد ١٨ يناير سنة ١٨٩٣.
(٤) هى المظاهرة التى أسلفنا الكلام عنها بالفصل الثانى ص (٤٧)
(٥) المؤيد عدد ٢١ يناير سنة ١٨٩٣.

الوزارة، على أن الصحف الفرنسية قد ناصرت مصر فى هذه الأزمة وحملت على الحكومة الإنجليزية.

أما الصحف الإنجليزية فكانت تحمل على الخديو حملات شديدة لإقالته وزارة مصطفى فهمى، ووصفت هذا العمل بأنه إهانة لممثل انجلترا فى مصر، وقد زادت انجلترا بعد هذه الحادثة عدد جيش الاحتلال فى مصر إجابة لطلب اللورد كرومر وتأييداً لموقفه.

أزمة الحدود سنة ١٨٩٤

لم تكد تنتهى أزمة إقالة الوزارة الفهمية حتى ظهرت أزمة أخرى أبلغ فى الدلالة على الضغط الإنجليزى، ونعنى بها أزمة الحدود، وبيانها أن الخديو كان منذ تولى العرش شديد العناية بأمر الجيش، وكان كثيراً ما يرتدى الشوار العسكرى كأحد ضباط الفرق ويمر على وحدات الجيش وقت التعليم وفى المناورات، ويعنى بحالة الجنود والضباط ونظامهم وتعليمهم ومعيشتهم ويوجه عنايته إلى تدريب الجنود وتلاميذ المدرسة الحربية، فتعلقت به قلوبهم فنقم الضباط الإنجليز من الخديو، هذه الخطة، وتألفت منهم لجنة برآسة السردار (اللورد كتشنر) وعرضوا شكواهم على اللورد كرومر المعتمد البريطانى، فأضمروا انتهاز أقرب فرصة لإذلال الخديو والنيل من مهابته أمام الجيش، لكى تعود لهم السيطرة الكاملة عليه، وقدروا فى حادثة الحدود الفرصة المرتقبة لتنفيذ وعيدهم ذلك أن الخديو اعتزم السياحة بطريق النيل فى الوجه القبلى فى شتاء سنة ١٨٩٣ - ١٨٩٤ وبدأ الرحلة يوم ٩ يناير سنة ١٨٩٤، فكان يقابل أينما توجه بحماسة الشعب وابتهاجه، ووصل فى سياحته إلى (وادى حلفا) يوم ١٨ يناير ١٨٩٤، وهناك عرض فرقة من الجيش المصرى كان يتولى قيادتها ضابط بريطانى، ولاحظ نقصاً فى نظام الجنود وتدريبهم، فأبدى ملاحظته فى هذا الصدد إلى وكيل وزارة الحربية (محمد ماهر باشا، وكان يرافقه فى سياحته) وندد بالجيش ونظامه، وذاعت هذه الملاحظة، فثارت ثائرة اللورد كتشنر وعدها إهانة له، وجعل منها أزمة تتعلق بالكرامة الإنجليزية، فبادر بتقديم استقالته من منصبه، وأبلغ الأمر إلى اللورد كرومر، فاستشاط هذا غضباً من مسلك الخديو، وأرسل إلى حكومته يستطلع رأيها فيما يجب عمله، فكان جوابها أن يطلب من الخديو إصدار أمره بشكر السردار وامتداح الضباط الإنجليز، وإبعاد ماهر باشا من منصبه، ومعنى ذلك اعتذار الخديو عن ملاحظاته،

وقد اتخذت الصحف البريطانية لهجة التهديد والوعيد حيال هذه الحادثة واعتبرتها أزمة خطيرة لا يحلها إلا الاعتذار، وكان رياض باشا رئيساً للوزارة فبادر إلى نصح الخديو بالاعتذار والإذعان لمطالب الاحتلال وانتهت الحادثة بالتسليم، وأصدر الخديو من مدينة الفيوم أمراً بمثابة خطاب إلى السردار كتب باللغة الفرنسية ثم عرب ونشر فى الجريدة الرسمية، هذا نصه:

«مدينة الفيوم فى ٢٦ يناير سنة ١٨٩٤.

«قبل أن أترك الوجه القبلى للعودة إلى مصر أريد أن أكرر ما أظهرته من العناية وحسن الالتفات للجيش عند زيارتى الحدود وأؤيد حسن رضائى الذى أبديته لكم من جهة حسن حالة الجيش ونظامه وإنى لمسرور من أن أهنىء الضباط الذين يرأسونه مصريون كانوا أو انجليز، وإنى لمرتاح أيضاً بأن أقدر الخدمات التى أدتها الضباط الإنجليز لجيشنا حق قدرها وأملنا أيها السردار أن تعلنوا أمرنا هذا للضباط والعساكر».

عباس حلمى

وبعد مدة وجيزة أبعد ماهر باشا عن وكالة الحربية وعين محافظاً للقنال، فتم بذلك إذعان الخديو لمطالب الانجليز فى هذه الأزمة، وأصيب نفوذه بضربة شديدة من جراء تسليمه، وفقد هيبته فى نفوس الجيش، وأدرك الضباط والجند أن سلطة أى ضابط بريطانى أكبر من سلطة الخديو، فكان لهذه الحادثة أثر سىء فى حالة الجيش المعنوية، إذ شعر الضباط المصريون أن خضوعهم للسيطرة الإنجليزية هو السبيل إل الترقى والاطمئنان على مراكزهم، وتصدعت هيبة الخديو، فلم يعد يرى فى الطوابير والمناورات إلا قليلاً.

استقالة وزارة رياض باشا
وتأليف وزارة نوبار

اشتد الجفاء بين الخديو ورياض على أثر موقفه من أزمة الحدود، واعتقد أنه لو وقف موقف الحزم والإخلاص له لما نصحه بهذا الاعتذار المهين، وانتهى الأمر باستقالة رياض باشا وتأليف وزارة نوبار باشا فى ١٦ أبريل ١٨٩٤ على النحو الآتى: نوبار باشا للرياسة والداخلية. مصطفى فهمى للحربية والبحرية . حسين فخرى باشا للأشغال والمعارف.

بطرس غالى باشا للخارجية. أحمد مظلوم باشا للمالية. إبراهيم فؤاد باشا للحقانية.

كانت هذه الوزارة ذات ميول إنجليزية، فكان أول عمل لها تعيين أول مستشار بريطانى لوزارة الداخلية. إذ أنشىء هذا المنصب بموجب المرسوم الصادر فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٤، وأسند إلى السير إلدون جورست (الذى صار سنة ١٩٠٧ قنصل بريطانيا العام فى مصر بعد استقالة اللورد كرومر)، وصار المستشار البريطانى صاحب الحول والسلطة فى الوزارة، وعين مفتشون إنجليز بوزارة الداخلية تضاءلت بجانبهم سلطة المديرين.

وفى عهد هذه الوزارة صدر المرسوم الخديوى فى ٢٥ فبراير سنة ١٨٩٥ بإنشاء المحكمة المخصوصة لمحاكمة من يتهم بالتعدى على ضباط جيش الاحتلال وجنوده، وهى المحكمة التى كان لها الشأن الكبير فى حادثة دنشواى كما تقدم بيانه (ص ٢٠٥).

وزارة مصطفى فهمى باشا

الوزارة الطويلة: نوفمبر سنة ١٨٩٥ - نوفمبر سنة ١٩٠٨

ثم وقع الجفاء بين الخديو ونوبار على أثر موقف الأخير من مسألة رجوع اسماعيل باشا الخديو الأسبق إلى مصر، فقد ساءت حالته الصحية فى أوائل سنة ١٨٩٥ وأرسل إلى حفيده الخديو عباس لكى يأذن له بالعودة إلى مصر مراعاة لصحته وشيخوخته، وكان عباس يميل إلى تحقيق هذه الرغبة، ولكن وزارة نوبار وجدت أن رجوع اسماعيل من منفاه غير مرغوب فيه من جانب الاحتلال، فرفضت الموافقة على عودته بحجة أنها تخلق لمصر عقبات من جانب الدول التى اشتركت فى خلعه، فأسرّها عباس فى نفسه، وأخذ المرض يلح على اسماعيل حتى توفى يوم ٢ مارس ١٨٩٥، وقد رغب عباس فى أن يتخلص من وزارة نوبار فى تلك السنة ولكن نوبار كان مؤيداً من الاحتلال، فلم يفكر فى الاستقالة، فأسرّها عباس فى نفسه مرة أخرى، وأخيراً توصل إلى تنفيذ أمنيته فى إقصاء نوبار، بأن أعرب للورد كرومر عن رغبته فى إعادة مصطفى فهمى باشا المشهور بولائه للاحتلال إلى رآسة الوزارة، وكان الخديو قد أخذ من ذلك الحين يجنح لمسالمة الاحتلال ويختم عهد المقاومة والأزمات، فلقيت الفكرة ارتياحاً فى نفس اللورد كرومر الذى كان

لا يفتأ يترقب الفرص لعودة مصطفى فهمى إلى رآسة الوزارة، لأن الإنجليز لا ينسون صنائعهم، فلما أحس نوبار بهذا الموقف قدم استقالته يوم ١١ نوفمبر سنة ١٨٩٥، وألف مصطفى فهمى الوزارة الجديدة فى اليوم التالى، واحتفظ ببقية الوزراء الذين كانوا مع نوبار، وأضاف إليهم محمد العبانى باشا وزيراً للحربية، فصارت مؤلفة كما يأتى: مصطفى فهمى باشا للرآسة والداخلية. حسين فخرى باشا للأشغال والمعارف. بطرس غالى باشا للخارجية. أحمد مظلوم باشا للمالية. إبراهيم فؤاد باشا للحقانية. محمد العبانى باشا للحربية والبحرية، وهى وزارة الاستسلام والولاء المطلق للإنجليز، وقد بقيت فى الحكم حتى نوفمبر سنة ١٩٠٨، أى أنها دامت ثلاثة عشر عاماً، كانت خضوعاً وتسليماً للاحتلال البريطانى، وقد سميناها «الوزارة الطويلة» إذ كانت أطول الوزارات عمراً.

أهم الحوادث فى عهدها

هى حلقات متصلة مترابطة من التسليم فى حقوق البلاد ومرافقها.

ففى سنة ١٨٩٧ طلب اللورد كرومر تعيين إنجليزى نائباً عمومياً بدلا من حمد الله بك أمين، فأذعن مجلس الوزراء للأمر، وعين المستر كوربت فى هذا المنصب الخطير وصارت سلطة النيابة وهيئتها تحت تصرف النائب العمومى الإنجليزى كما كانت وزارة الحقانية تحت سيطرة المستر سكوت المستشار القضائى البريطانى.

إنشاء البنك الأهلى

وفى سنة ١٨٩٨ صدر المرسوم بتأسيس البنك الأهلى وأعطته الحكومة إمتياز إصدار أوراق النقد المصرى، فصار بمثابة بنك الحكومة، وهو بنك أهلى شكلا وأجنبى فعلا، ومؤسسوه وحملة أسهمه الأولى هم السير ارنست كاسل المالى الإنجليزى الشهير والمسيو سلفاجو وشركاؤه والخواجة روفائيل سوارس وإخوته.

بيع البواخر الخديوية

وفى تلك السنة ذاتها (سنة ١٨٩٨) عقدت الحكومة صفقة كانت وبالا وخسرانا على

مصر، ونعنى بها بيع البواخر الخديوية بأبخس الأثمان إلى شركة (ألن وألدرسن) الإنجليزية.

وبيان ذلك أنه كان للحكومة بواخر تعرف ببواخر البوستة الخديوية، عددها إحدى عشرة باخرة كبيرة، منها ثلاث بواخر اشترتها الحكومة حديثا من مصانع إنجلترا وهذه البواخر هى: الشرقية. الفيوم. المحلة. الرحمانية. شبين. توفيق ربانى. البرنس عباس. القاهرة. مصر. النجيلة، وهذه البواخر كانت قوام الأسطول التجارى لمصر فى البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، والبقية الباقية للبحرية المصرية، وكانت تنقل المسافرين والمتاجرين بين مصر وثغور هذين البحرين، حاملة العلم المصرى، مؤدية مهمتها فى بعث النشاط الاقتصادى التجارى وبسط نفوذ مصر التجارى والبحرى فى هذين البحرين، ويتبع هذه البواخر حوض الاسكندرية الكبير، وحوض الاسكندرية الصغير، وحوض السويس وهذه الأحواض معدة لإصلاح البواخر، ويتبعها أيضاً مستودعات المصلحة ومخازنها ومعاملها ومحلات الإدارة والزوارق البخارية واللنشات، وقد قدرت قيمة البواخر وهذه الملحقات جميعها بثلاثة ملايين جنيه، فباعت الحكومة جميع هذه المنشآت إلى شركة (ألن والدرسن) بثمن بخس ١٥٠,٠٠٠ جنيه، فكانت صفقة خاسرة من جميع الوجوه لأنها أضاعت على البلاد ثروة قومية ضخمة ليس من السهل أن تستردها، وقضت على أسطولها التجارى الذى بذلت هذه الملايين فى سبيل إنشائه وتكوينه، وانطوت بذلك صفحة البحرية المصرية إلى وقت طويل، وقد تم ا بيع دون مزايدة أو إشهار، بل حصلت المخابرة بشأنه فى الخفاء بين السير إلوين بالمر المستشار المالى البريطانى للحكومة المصرية وشركة (ألن وألدرسن) الإنجليزية، وأقر مجلس الوزراء هذه الصفقة الخاسرة، دون بحث أو تحقيق، واكتفى بالبيانات التى أفضى بها المستشار المالى، ووقع على العقد أحمد مظلوم باشا وزير المالية، ومما يجدر ملاحظته لتقدير مبلغ الغبن الذى أصاب الحكومة من هذه الصفقة أن ثلاث بواخر من الإحدى عشرة باخرة المبيعة اشترتها الحكومة من مصانع إنجلترا بـ ٢٠٠,٠٠٠ جنيه، أى أن ثمن الصفقة كله أقل من ثمن هذه البواخر الثلاث، وكانت علة الحكومة الظاهرة فى بيع هذه البواخر والمنشآت أن مصروفاتها تزيد على إيراداتها، وفضلا عن أن هذا ليس مسوغا لإضاعة ثروة البلاد القومية، فقد ثبت من مراجعة حسابات المصلحة أن صافى إيرادها السنوى بعد جميع المصروفات هو ٢٢,٠٠٠ ج، فإذا لوحظ أن الحكومة تعهدت بأن تعطى الشركة سنويا ستة آلاف جنيه فى

السنة فيكون صافى ربح البواخر ٢٨,٠٠٠ جنيه سنوياً، ويكون البيع قد وقع بقيمة الر
مدة خمس سنوات تقريباً، وهذا أفظع مظهر للغبن الفاحش.

كان فى بيع هذه البواخر القضاء على الأسطول التجارى لمصر، بعد القضاء ع
أسطولها الحربى، وظهر الفرق جلياً بين حالتها فى عهد الاحتلال وحالتها فى عهد مح
على حين زارها الكاتب الإيطالى (بنديتى) سنة ١٨٤٠، فراعه منظر السفن الحر
مصفوفة على أتم نظام فى ميناء الاسكندرية، حيث قال فى وصفها:

«لما دخلنا الميناء الكبير مررنا بين قوات بحرية حربية تأخذ باللب وتذهل العقل
وكان ضمن هذه القوات الأسطول العثمانى الذى إستولت عليه مصر، وفى يقيننا أننا
نر ولا نظن أننا نرى فى المستقبل عدداً من السفن الحربية يوازى ما شهدناه ع
إختلاف الأنواع والأحجام، ومنظها بمثل ذلك التنظيم البديع، ومما زاد فى رواء المنظ
وبهجته أن يوم وصولنا إلى ثغر الاسكندرية كان يوافق عيداً من الأعياد الإسلامي
فألفينا تلك السفن كلها التى لا تقع تحت حصر رافعة أعلامها بشكل بديع ومنظر أنيق
تطلق مدافعها فى الفضاء ساعة الغروب، فكأنها تودع الشمس وتحييها، فيجاوبها صد
الأفق بلسانها، وصفوة القول إن المنظر كان من المناظر التى لا مثيل لعظمتها»

بيع أملاك الدائرة السنية

باعت الحكومة فى هذه السنة تفاتيش الدائرة السنية، وكانت أملاكها الزراعية تبلغ نحو
ثلثمائة ألف فدان، يتبعها تسع معامل كبيرة لعصير القصب وصناعة السكر، باعتها إلى
شركة سوارس مقابل ثمن قدره ستة ملايين وأربعمائة ألف جنيه، وهو قيمة الدين الذى
كان على الدائرة فى ذلك الحين، وكانت صفقة خاسرة لما فيها من الغبن الفاحش على
الحكومة والربح الهائل للماليين الأجانب.

الشروع فى بيع سكك حديد السودان

والظاهر أن سنة ١٨٩٨ كانت بمثابة سنة التصفية، ففضلا عن إنشاء البنك الأهلى
وبيع البواخر الخديوية والدائرة السنية، شرع المستشار المالى البريطانى فى بيع سكك

حديد الحكومة فى السودان إلى شركة إنجليزية، بحجة حاجة الحكومة إلى المال لتدبير نفقات الحملة على السودان، فاعترض الخديو على هذا البيع، ولما رأى إصرار اللورد كرومر على عقد الصفقة استنجد بتركيا بحجة أن هذه السكك الحديدية هى من أملاك مصر التى نص فرمان توليته على عدم جواز التصرف فيها أو التنازل عنها، وأبرق إلى سلطان تركيا يعرض عليه الأمر ويطلب منه النجدة فجاءه الرد بشكره وإقراره على موقفه باعتبار أن السكك الحديدية أنشئت للجيش وأن بيعها مخالف للسيادة التركية، فتراجع اللورد كرومر وتقرر عدم البيع.

حوادث السودان

وفى عهد وزارة مصطفى فهمى حصلت التجريدة على السودان لاستعادته، وتم استرداده، ورفعت الراية البريطانية عليه، ثم أبرمت اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩، مما نوجزه فيما يلى:

حملة دنقلة سنة ١٨٩٦

بقيت الحكومة المصرية ملتزمة موقف الجمود حيال السودان، حتى تراءى للحكومة البريطانية سنة ١٨٩٦ استرداده بالاشتراك مع مصر، فقررت الحملة على دنقلة، وأوعزت إلى الحكومة المصرية تجريدها بقيادة اللورد كتشنر سردار الجيش المصرى، ولم تكن الحكومة المصرية إلا منفذة لإرادة الحكومة البريطانية، وقد بلغ بها الخضوع والاستسلام أن رئيس الوزارة لم يعلم شيئا عن أمر هذه الحملة إلا فى اليوم الذى ذهب فى مسائه إلى الخديو وأخبره بأن اللورد كرومر أفضى إليه بأن الحكومة الإنجليزية قررت إرسال حملة إلى السودان، فلم يكن من الحكومة المصرية إلا أن قررت فى اليوم التالى تجريد هذه الحملة.

أقرت الحكومة المصرية فى ١٢ مارس ١٨٩٦ الحملة على دنقلة، وكانت حملة جديدة منظمة، إذ حشدت على الحدود جيشاً مؤلفاً من ١٦٦٨٠ مقاتل منهم سبعمائة ضابط، وهو مجموع الجيش المصرى إذ ذاك، وأمدته بكل وسائل الزحف والتموين والنقل، ولكنها

حصرت الأعمال الرئيسية فى القواد والضباط الإنجليز فكان منهم قائد عموم الحملة (اللورد كتشنر[٦])، ورئيس أركان الحرب، ومدير قلم المخابرات، وحكيمباشى التجريدة، والحكيمباشى البيطرى، ومدير المهمات ومدير حملة النقل، ومدير سكة الحديد، وأركان حرب التلغراف، وقواد الفرسان والطوبجية والهجانة والمشاة، وقواد اللواءات جميعاً.

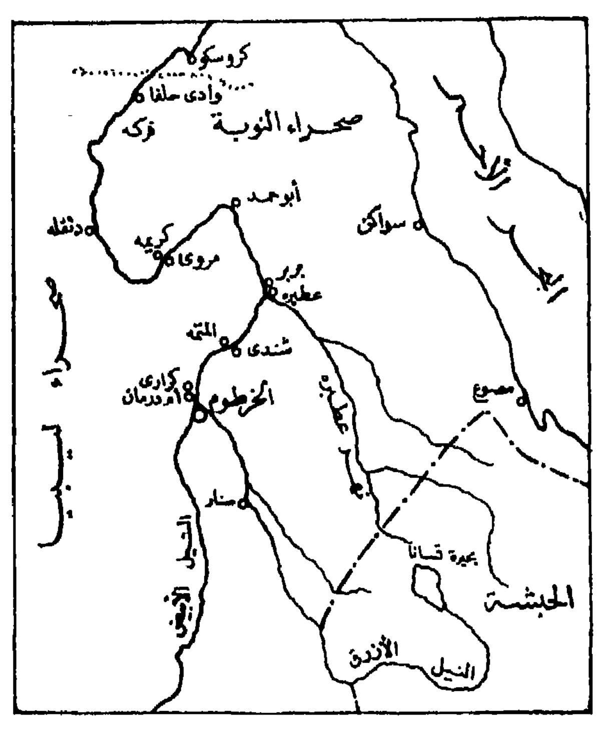
وكان إسناد القيادة العليا والأعمال الرئيسية على النحو المتقدم إلى الإنجليز من الأسباب التى أفقدت الحملة حماسة الشعب، إذ رأوا فيها مظهرا من مظاهر السيطرة البريطانية، فقوبلت الحملة بالفتور، وعدوها حلقة من سلسلة التدابير الإنجليزية، بدأت بالاحتلال العسكرى سنة ١٨٨٢، ثم إلغاء الجيش المصرى سنة ١٨٨٣، وتغلغل الإنجليز فى شئون الحكومة، ثم إجبارها على إخلاء السودان سنة ١٨٨٤، وترك الثورة تستفحل فى نواحيه، ثم إعتزام فتحه سنة ١٨٩٦ لحساب إنجلترا بالاشتراك مع مصر، وكان معروفا أن إنجلترا لم توعز إلى الحكومة المصرية بتجريد الحملة على السودان فى تلك السنة الا لتقاوم مشروع الفرنسيين فى الوصول إلى أعالى النيل.

وقد أبدى الجيش المصرى فى وقائع استعادة السودان من الشجاعة والكفاية والصبر واحتمال المشاق ما جعل تاريخ هذه الوقائع صفحة مشرفة لمصر، وإن كانت ثمرتها قد استأثر بها الاحتلال.

وأول عمل منهك قام به الجنود هو مد السكة الحديدية فى صحراء النوبة (أنظر الخريطة ص ١٣١) ليتسنى للجيش أن يزحف ويحتفظ باتصاله بقواعده العسكرية، وقد عانى الجنود المصريون ضروب المشاق والأهوال فى اشتغالهم بإنشاء السكة الحديدية فى تلك الصحراء المقفرة، إذ كانوا يعملون إبان القيظ الشديد، وكثيرا ما كان يعوزهم الماء فى شدة الحر، فسقط منهم العشرات موتى من وطأة الحر وشدة ما عانوه من التعب والإعياء فى الشمس المحرقة.

---

(٦) كان وقتئذ السر هربرت كتشنر: ونال لقب (لورد) بعد فتح الخرطوم سنة ١٨٩٨ وسمى لورد كتشنر أوف خرطوم.



خريطة إسترجاع السودان

(١٨٩٦ - ١٨٩٨)

واقعة فركه

(٧ يونية سنة ١٨٩٦)

كان أول عمل تمهيدى للحملة مد السكة الحديدية إلى آبار (امبقول) بصحراء النوبة، وقد كانت شراذم الدراويش تصل إلى تلك الآبار وتحاول عرقلة العمل فى مد السكة الحديدية. فاعتزم السردار إقصاءهم عن (فركه) [٧]، فزحف الجيش من (عكاشة) فى ٦ يونيه وهاجم معسكر الدراويش فى (فركه) فجر اليوم التالى (٧ يونيه)، ودار قتال شديد إنتهى باستيلاء الجيش على المعسكر وفر الدراويش جنوبا.

---

(٧) بين وادى حلفا ودنقلة.

وقد لاقى الجيش المصرى فى هذه الحملة عناًء كبيراً من شدة الحر وهبوب الأعاصير فى الصحراء، وقطع المراحل الشاسعة، ثم ظهور الكوليرا والحمى التيفودية فى الجيش.

واقعتا الحفير ودنقله
(سبتمبر سنة ١٨٩٦)

وزحف الجيش براً وبطريق النيل حتى بلغ (الحفير) حيث كان الدراويش ممتنعين، فأجلاهم عنها، وعبر النيل فجر يوم ٢٠ سبتمبر، واحتل دنقله عاصمة المديرية يوم ٢٣ سبتمبر وتقدم الجيش فاحتل (الدبة) ثم (مروى) على النيل، ودانت مديرية دنقلة كلها للجيس المصرى، وكان الأهلون يستقبلونه أينما حل بالترحيب والتهليل، إذ رأوا من مظالم التعايشى وفساد حكومته ما جعلهم يتوقون إلى رجوع الحكم المصرى.

استرجاع (أبى حمد) و (بربر)
(١٨٩٧ - ١٨٩٨)

استقرت الحملة فى دنقله حتى تمد السكة الحديدية ويتم تنظيم الحكم فى مديرية دنقلة، وقد عمل الجند فى الخط الحديدى إلى (الكريمة) بحرى دنقلة ليتفادى الجيش شلالات (المحس) و (سكوت)، ثم مد خطا حديدياً آخر من حلفا إلى أبى حمد رأساً مخترقا صحراء النوبة، وفى غضون ذلك استأنف الزحف، فالتقى بالدراويش فى (المتمة) يوم أول يونيه سنة ١٨٩٧، إذ نشبت المعركة بينهما وانتهت بهزيمة الدراويش، وهزم الدراويش أيضاً فى واقعة (أبى حمد) واحتل المصريون البلدة يوم ٧ أغسطس سنة ١٨٩٧، واسترجع الجيش المصرى (بربر) فى ٦ سبتمبر ثم (شندى) فى ٢٦ مارس سنة ١٨٩٨.

واقعة عطبره
(ابريل سنة ١٨٩٨)

وواصل الجيش المصرى الزحف فالتقى بجموع الدراويش فى (عطبره) قريباً من

ملتقى نهر عطبره بالنيل يوم ٨ أبريل سنة ١٨٩٨، فهزمهم شر هزيمة وأسر قائدهم الأمير محمود، وقتل منهم فى هذه الواقعة نحو ثلاثة آلاف قتيل وأسر منهم ألفان، وكانت هذه المعركة إيذانا بسقوط دولة الدراويش.

واقعة أم درمان واسترجاع الخرطوم
(١ - ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨)

ثم شرع الجيش المصرى بعد واقعة عطبرة يستعد للزحف على الخرطوم، فزاد السردار عمال السكة الحديدية، ومدت من أبى حمد إلى عطبره، وجاءه مدد من الجند زاد به عدد الجيش فبلغ نحو ٢٥ ألف مقاتل ضم إليه نحو ألفى مقاتل من العربان الموالين للحكومة، وبدأ الزحف فى أغسطس سنة ١٨٩٨، وما أن علم التعايشى (خليفة المهدى) بهذا الزحف حتى أخذ يستعد للقتال وحشد الجموع والمقاتلة فى أم درمان وأقام الطوابى للدفاع عنها فضلا عن الطوابى القديمة، وكان عنده من المدافع التى غنمها الثوار من الجيش المصرى فى وقائع الثورة ٦٣ مدفعاً وأمر بصنع الألغام لمقاومة وابورات الجيش فى النيل.

وفى فجر أول سبتمبر سنة ١٨٩٨ زحف الجيش المصرى تصحبه البواخر النيلية على (أم درمان)، فتجاوز جبل (كررى) ظهر ذلك اليوم ووقف بمكان يدعى (العجيجة) على بعد نحو ثمانية أميال من أم درمان، ثم تقدمت البواخر والعربان الموالية للحكومة واستولوا على بعض الطوابى الأمامية للخرطوم. وسارت البواخر حتى وصلت الخرطوم، فاستولت عليها عصر ذلك اليوم، وكان التعايشى ممتنعاً فى (أم درمان)، فأخذت بطاريات المدافع ترميها بالقنابل، وخرج التعايشى بجميع جيوشه من أم درمان لملاقاة المصريين غربى المدينة، وكان معه من المقاتلة ٥١٧٨٩، منهم ٨٦ أميراً (قائداً) و ٥٤٩٥ فارساً و ١٤٣٠٠ راجلا مسلحين ببنادق الرمنتون التى غنموها فى المعارك السابقة، والباقون مسلحون بالسيوف والحراب، زحف بهذه الجموع لملاقاة الجيش المصرى يوم الجمعة ٢ سبتمبر، فوقعت المعركة المعروفة بواقعة (أم درمان)، إذ هجمت جموع التعايشى فى هيئة هلال على معسكر الجيش المصرى على شاطىء النيل، فكانت المدافع تحصدهم حصداً،

وهم لا يهابون الموت، وأنتهت الواقعة بهزيمة التعايشى، فتقدم الجيش المصرى واحتل أم درمان ظهر يوم ٢ سبتمبر وبلغت خسائر الدراويش فى هذه الواقعة عشرة آلاف قتيل، والجرحى والأسرى مثل هذا العدد، أما خسائر الجيش المصرى فبلغت ٤٩٠ قتيلا وجريحا.

وقد فر التعايشى جنوبا بعد الواقعة واستقر فى جبل أبى قدير، فسارت إليه حملة بقيادة السير ونجت باشا وكيل السردار انتهت بقتله بواقعة (جديد) فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٩، وبموته سلّم البقية من أتباعه، وتقلص ظل الفتنة المهدوية من السودان.

رفع الراية البريطانية على السوادن

وفى يوم الأحد ٤ سبتمبر، بعد واقعة أم درمان بيومين، عبر السردار النيل إلى الخرطوم، ورفع الرايتين المصرية والانجليزية على أطلال سراى الحاكم العام، فقوبل رفع الراية الانجليزية على الخرطوم بالدهشة والسخط فى مصر ومن الضباط المصريين فى السودان، إذ كان المفهوم أن السودان أرض مصرية وأن استرداده كان لحساب مصر، وبجنودها وأموالها وجهودها، ولكن ولاء وزارة مصطفى فهمى باشا للاحتلال واستسلامها للغاصب جعل الانجليز يمعنون فى الاعتداء على حقوق مصر، فإن رفع الراية الإنجليزية على الخرطوم كان إيذانا بوضع السودان تحت الحماية البريطانية، ولم تحرك الوزارة ساكناً أمام هذا الحادث الجلل، بل مر كأنه حادث عادى!

اتفاقية ٩ يناير سنة ١٨٩٩

وأعقب رفع الراية البريطانية على الخرطوم توقيع اتفاقية السودان فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩، وقد سبق الكلام عنها فى الفصل الثامن (ص ١٤٠)، وتنفيذاً للاتفاقية عين اللورد كتشنر حاكما عاما للسودان، مع بقائه سرداراً للجيش المصرى، ثم تخلى عن منصبه سنة ١٨٩٩ حين اختارته الحكومة لقيادة الجيش البريطانى فى حرب البوير، فصدر الأمر العالى بتعيين السير ريجنلد ونجت باشا سرداراً للجيش المصرى وحاكما عاما للسودان.

تعديل الحدود بين مصر والسودان

وتنفيذاً لا تفاقية السودان أصدرت الحكومة المصرية قراراً فى ٢٦ مارس سنة ١٨٩٩ بتوقيع وزير الداخلية (مصطفى فهمى) جعل نهاية الحدود بين مصر والسودان خطا يمتد غربى النيل على مسافة ٢٠٠ متر شمالى البربة الكائنة بناحية (فرص) وشرقى النيل إلى البربة الكائنة بناحية (ادندان)، ووضعت هناك علامتان مكتوب على وجهة كل منهما الشمالية (مصر) والجنوبية (السودان).

تمرد فى الجيش المصرى

وفى يناير سنة ١٩٠٠ حصل تمرد فى فرقتين بالجيش المصرى فى السودان على أثر صدور أمر نائب الحاكم العام بتجريد الجيش من سلاحه وذخيرته، فأبت الفرقتان إطاعة هذا الأمر لما فيه من الامتهان لكرامتهما وعدم الثقة فى الجيش وقد سجن الضباط المتهمون بالتحريض على التمرد وأحيلوا إلى مجلس تحقيق لمحاكمتهم وانتهت المحاكمة بطرد سبعة من الضباط من خدمة الجيش، وهم اليوزباشى محمود افندى مختار. واليوزباشى حسن افندى لبيب. والملازمون الأول مصطفى لطفى. وصالح زكى. ومحمد افندى توفيق يوسف. والملازمان الثانيان عبد الحميد شكرى. وإدريس افندى عبد الله وإحالة اليوزباشى محمود افندى حلمى إلى المعاش. والملازم الثانى أحمد أفندى شاكر (بك) إلى الاستيداع. وتوبيخ الملازمين التانيين عثمان افندى عارف (بك) ومصطفى افندى محمود الشامى[8].

وقد استحضرهم الخديو وعنفهم على ما وقع منهم، وأبدى تأييده للسردار ونجت باشا.

(٨) تلقينا هذا البيان من المرحوم الأميرالاى محمود بك حلمى اسماعيل. فله منى جزيل الشكر.

زيارة الخديو للسودان

وفى أواخر سنة ١٩٠١ زار الخديو السودان، فوصل الخرطوم فى ٣ ديسمبر واستقبل استقبالا رسميا حافلا، وأقيمت له حفلة ترحيب أمام سراى الحاكم العام حضرها كبار الضباط والموظفين ونخبه علماء البلاد وأعيانها، وألقى السير ريجنلد ونجت باشا سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام خطبة ترحيب بمقدم الخديو، فرد عليه بالخطبة الآتية :

«إنى أشكر لكم الخطاب الذى حييتمونى به وأؤكد لكم بأنى أعد من أعظم مسراتى رؤيتى إياكم فى هذه البلاد الشاسعة التى قربتها مناسكة الحديد العجيبة التى ملأتنى ارتياحا وابتهاجا.

«الآن وقد رأيت هذه البلاد عرفت الصعوبات والمشقات التى لا قاها من كانت لهم يد فى الحملات التى كانت نتيجتها محو سلطة عبد الله التعايشى وإعاد العدل والراحة والسكون فى جميع أنحاء السودان.

«العَلمان الإنجليزى والمصرى اللذان يخفقان الواحد بجانب الآخر هما إشارة إلى الحكومة المشتركة التىَ أخذت على عاتقها حماية الأهالى من الوقوع فى شرك أهل الظلم والفساد، وابتداء عصر هدوء وسعادة فى هذه الديار، ولقد سرنى أيضاً ما أشاهده من تقدم مدينة الخرطوم فى العمران، وأعتقدوا أنى سأحفظ لكم أحسن ذكرى لاحتفائكم بى فى هذه الزيارة الأولى، وإنى ليشملنى السرور كلما سمعت بتحسين أحوالكم وتقدمكم فى الرفاهية التى أرى شواهدها بدت فى كل الأرجاء،هذا وإنى أنعم الآن بكل ارتياح ببعض النياشين على بعض كبار علماء الدين وسأنعم بها فيما بعد على الضباط والموظفين والأهالى الذين يعرض لى عنهم سعادة السردار والحاكم العام بناء على التقارير السنوية التى ترد له من المديريات، ثم أكرر شكرى لا حتفائكم بى احتفاء صادراً عن حسن نية وخلوص طوية».

وتعد الخطبة فى مجموعها إقراراً لا تفاقية السودان ولنظام الحكم المشترك الذى قضت

به، وصعد الخديو فى النيل الأبيض ثم النيل الأزرق، وعاد إلى الخرطوم وبرحها إلى مصر فى يوم ٧ ديسمبر سنة ١٩٠١.

افتتاح سكة حديد بور سودان
(يناير ١٩٠٦)

بورسودان هو ثغر قائم على شاطىء البحر الأحمر على مقربة من سواكن، وقد عمل الإنجليز على إنشائه لكى يكون ميناء السودان، ويعرف قبلا باسم (الشيخ برغوث) وكان مرفأ صغيراً لا يصلح لإيواء سفن الملاحة، ثم زاره المستر ويليم جارستن مستشار وزارة الأشغال واقترح جعله ثغر السودان بدلا من سواكن، فأقرت الحكومة الإنجليزية رأية، وأخذت حكومة السودان، (بأموال مصر) تصلحه، وشيدت فيه المبانى والمنشآت، وأسمته (بوسودان) واحتفلت يوم ٢٧ يناير سنة ١٩٠٦ بافتتاح السكة الحديدية التى تصله بالنيل، وكان الاحتفال برآسة اللورد كرومر معتمد انجلترا فى مصر، ولم يحضره أحد عن الحكومة المصرية، وقد ناب اللورد كرومر عن الخديو فى هذا الاحتفال.. فكانت الحفلة انجليزية محضة تجلت فيها السيطرة الإنجليزية فى السودان، واستبعدت فيها مصر وحكومتها بشكل مهين.

* * *

الفصل السابع عشر

مصطفى كامل والخديو عباس الثانى

بدأت نشأة مصطفى كامل الوطنية عام ١٨٩٠ كما أسلفنا، وتقع هذه السنة فى أواخر عهد الخديو توفيق. قبل وفاته بعامين، فتاريخ هذه النشأة يدل على أنها غرس إلهام الفقيد وعبقريته، إذ لم يكن فى ذلك الحين عوامل أخرى تساعد على ظهورها، ثم تولى عباس الثانى مسند الخديوية فى يناير سنة ١٨٩٢ وهو فى الثامنة عشرة من عمره، وقلبه مملوء آمالا كباراً فى أن تسترد مصر استقلالها فى عهده، وساءه أن رأى الإنجليز قد وضعوا أيديهم على وزارات الحكومة ومصالحها، فاعتزم وضع حد لهذا التدخل غير المشروع، ورسم لنفسه فى أول عهده بالحكم سياسة مقاومة التدخل البريطانى، وفى الحق أنها سياسة قومية ممدوحة تدل على ميول وطنية طيبة وشجاعة نادرة جعلته وقتاً ما يغامر بعرشه.

وجد الخديو عباس فى مصطفى كامل الزعيم الوطنى الشاب الذى استطاع على حداثة سنة أن يحمل علم الجهاد، فأعجب بهذه الشخصية الفذة، إذ وافقت ميوله وآماله فى بداية حكمه، فأمدها بالمال والتأييد وقتاً ما، ومن هنا توثقت روابط الود والتعاون بين مصطفى كامل والخديو عباس، فى السنوات الأولى من حكمه ومن واجب المؤرخ المنصف أن يذكر هذه الحقيقة، ويعدها مأثرة لعباس الثانى، فإنه قام من هذه الناحية بقسط محمود فى تأكيد الحركة الوطنية، والملوك والأمراء فى كثير من المواطن لهم فضل على النهضات القومية فى مختلف نواحيها الوطنية والسياسية والاقتصادية، أو العلمية والاجتماعية، أو الأدبية والفنية.

ساهم إذن الخديو عباس فى الحركة الوطنية وقتا ما بماله ونفوذه الأدبى، على أن العلاقة بينه وبين مصطفى كامل قد اعتراها الفتور بعد ذلك، ثم التقاطع، بسبب عدم ثبات الخديو على خطة واحدة، واستماعه إلى الوشايات والدسائس، وكانت ميزة الفقيد أنه احتفظ باستقلاله وعلو نفسه تجاه الخديو، ورأى فى استقلال الحركة الوطنية عنه ما يزيدها قوة

وروعة، كتب فى هذا الصدد إلى صديقه وزميله فى الجهاد محمد بك فريد ضمن كتاب له بتاريخ ٥ أغسطس سنة ١٨٩٨ يقول:

«باريس فى ٥ أغسطس سنة ١٨٩٨

«أخى الأمجد الفريد أعزه الله

«أقبلك ألف قبلة، وأهديك أطيب تحية، وصلنى بالأمس خطابك الكريم كما وصلنى يوم الجمعة الماضية ماطلبته منك، فلك الشكر مزدوجاً، شرّف العزيز وسافر، وتشرفت بمقابلته مرات - هذا الخبر لك وحدك - وعلمت منه أموراً جمة سرتنى للغاية، وشرحت صدرى، وحققت لى أن الأمل ملء فؤاده، وأن ليس لليأس عليه سلطان، وسأقابله مرة أخرى فى الشهر الآتى، وقد قابل هنا وهناك كل ذى شأن وكل عظيم، واستمال من لا يستمال، فله منا الود والإخلاص والحب الحقيقى، وإنه لجدير بأن نتفانى فى محبته، ولم أكلفه مدة وجوده ولم أطلب منه شيئاً، ولو أن سفرى لألمانيا سيكلفنى كثيرا، وذلك لأنى لا أود أن أجعله يرتاب فى إخلاصى الخالص له، وسأبذل جهدى بعد عودتى للوطن المحبوب فى أن أكون مستقلا غاية الاستقلال لنزداد عنده مكانة ونفوذا».

وهذا الخطاب (الذى نشرنا صورته بالزنكجراف ص ٣٤٤) يلقى شيئا من الضوء على علاقة مصطفى كامل بالخديو، ويدل على إخلاص الفقيد وإبائه وعلو نفسه، وليس يخفى أن الخديو قد فترت صلته بالحركة الوطنية، وتزعزعت ثقته فيها بعد حادثة فاشودة، وضعف أمله فى الجلاء، فأخذ فى التحبب إلى الاحتلال والنزول على إرادته، وبعدت الشقة تبعاً لذلك بينه وبين الفقيد، على أن مصطفى كامل كان يرى بثاقب نظره ألا يقع الانقسام بين الأمة والخديو فيستفيد الاحتلال من هذا الانقسام، كما استفاد من الخلاف الذى شجر بين توفيق والعرابيين، لذلك كان يعمل دائما على إيجاد جو من التفاهم بين الخديو والأمة، ويدعو إلى تعلق الأمة بالعرش، على الرغم من اختلاف وجهتى نظرهما.

(كتاب الفقيد إلى فريد بك فى ٥ أغسطس سنة ١٨٩٨) .

باريس في ٥ أغسطس سنة ١٨٩٨

أخي الأمجد العزيز أعزه الله

أشكرك الشكر الجزيل وأهديك أطيب تحية . وصلني جوابك
الكريم كما وصلني يوم الجمعة [illegible] [illegible] فلك مني الشكر مزدوجا
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] سفري لألمانيا [illegible]
[illegible]
[illegible]

أخبرني عن أحوال المكتب وبلغ [illegible] سلامي لصديقك المحبوب [illegible]
بك [illegible]

أرجوك زيارة المنزل كل يوم [illegible]
تقبل [illegible] ولا تقصر [illegible] أخبار [illegible]

دم [illegible] المخلص وأخيك [illegible]

قطع علاقته بالخديو
خطاب ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٠٤

ثم جاء الاتفاق الودى بين انجلترا وفرنسا فى ابريل سنة ١٩٠٤، وظهر انحياز الخديو بشكل واضح إلى الاحتلال فرأى أن يقطع علاقته به وأعلن فى اللواء[1] أنه اعتزم الابتعاد عنه حتى لا يظن أحد أن عليه شيئاً من المسئولية فى جهاده السياسى. قال فى هذا الصدد: «إن المخلص فى عمله يجب أن يؤدى الواجب عليه ولو ضحى فى سبيله مصلحته الذاتية وأعز ماتميل إليه نفساً» وقال:

«وإنى لا أشك فى أن كل قارىء بل كل مصرى عرف خطتى وخبر مبادئى يدرك حقيقة مسعاى ومقصدى، ويعلم أنى لم أطلب بذلك إلا خدمة البلاد وعرش الخديوية بالثبات الذى لا تتغلب عليه الأيام، والعقيدة الراسخة التى قد تتحول الجبال وهى لا تتحول».

وقال فى حديث له فى جريدة (البول مول جازيت) الإنجليزية فى ديسمبر سنة ١٩٠٦: «لما رأيت رغبة سموه فى توطيد الصلات الحسنة بينه وبين ملك الإنجليز وحكومته، وجدت من واجباتى أن أكون بعيداً عن سموه»[2]

وقد أرسل عقب عودته من أوروبا سنة ١٩٠٤ الكتاب الآتى إلى الخديو، يصارحه فيه بموقفه حياله. قال:

«مولاى

«تشرفت فى ديفون بالمثول بين يدى سموكم يوم ٢٧ أغسطس الماضى (سنة ١٩٠٤) ورفعت إلى مقامكم السامى أن الحالة السياسية الحاضرة تقضى علىّ بأن أكون بعيداً عن فخامتكم، وأن أتحمل وحدى مسئولية الخطة التى أتبعها نحو الاحتلال والمحتلين، منعا لتكدير خاطركم الشريف، ودفعاً لما عساه يقع من الخلاف والنزاع.

---

(١) عدد ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٠٤.
(٢) اللواء عدد ٢٦ ديسمبر ١٩٠٦.

«وقد رأيت يامولاى بعد التفكير أنه صار من المحتم علىّ القيام بهذا الواجب وأنه أول عمل يلزمنى تأديته عقب عودتى إلى الوطن العزيز، لأن الإنجليز أظهروا فى خلال السنوات الأخيرة من التضييق على جنابكم العالى ما يجعل وجود رجل ينتقد سياستهم فى الصباح والمساء بجانب سموكم داعياً لاعتدائهم على حقوق ذاتكم السنية وحجة لتدخل جديد غير محمود.

«وإنى بعد أن رأيت احتجاجهم على جنابكم الرفيع بمناسبة المقابلة التى تفضلت جلالة ملكة البرتغال بمنحى إياها، ومعارضتهم العنيفة لفخامتكم بسبب الاستقبال الودى الذى نالته مدام جولييت آدم من لدنكم، وتصريحهم بأن انجلترا الا تسمح لجنابكم العالى بإكرام من يعّاديها، وإدعاءهم بأن كل ما يكتب أو يقال ضدهم موعز به من سموكم، أعد نفسى مقصراً تقصيراً حقيقياً فى تأدية الواجب نحو مقامكم الرفيع إذا أبقيت صلتى بسموكم على حالها وفضلت نعمة التقرب منكم على القيام بواجب تدعو إليه الوطنية والسياسة.

«وإنى أرجو أن يعتقد مولاى، حفظه الله، أنى لم أقصد إلا محض خدمته بما قلته لسموه بشأن أولئك المفسدين الذين يلتصقون بالمعية ويضرون بها أكثر من أعدائها الظاهرين، ويدخلون اسمكم الكريم فى كل حادث، غير حاسبين للرأى العام حسابا، وغير ذاكرين أن عرش الخديوية هو البقية العزيزة لاستقلال البلاد، وأنه يجب أن يكون على الدوام محاطا بالاحترام التام والإجلال العام، ليقاوم القوتين المحاربتين له ألا وهما الاحتلال والزمان.

«وإنه ليحلو لى أن أبقى إلى آخر لحظة من حياتى خادماً لتلك المبادىء الوطنية العالية التى كنتم سموكم أول الداعين إليها والمنادين بها، وأن تزداد كل يوم اتساعاً الهوة التى بينى وبين الذين ادعوا خدمة الوطن ليخدموا مصالحهم ثم انقلبوا عليه بلا خجل ولا حياء.

«وإنى أتشرف يامولاى بأن أرفع إلى سدتكم العلية واجبات الشكران على جليل التفاتكم وسامى رعايتكم، وأقدم إلى المقام الرفيع أسمى مايليق من التجلة والإعظام».

مصر فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٠٤

مصطفى كامل

وهذا الكتاب يدل على إخلاص الفقيد فى جهاده، وهو لعمرى صفحة مشرفة من الشجاعة الأدبية، لأن مجاهرة الخديو وهو وقتئذ رئيس البلاد الشرعى بقطع علاقته به، ومقاومة الاحتلال وهو فى أوج سلطانه، كل أولئك عمل يقتضى حظا كبيراً من الجرأة والاستقلال، ولا يقدم عليه إلا من تغلبت فيه الشجاعة والوطنية، على كل اعتبار للمصلحة الشخصية.

وفى الحق إنه لم يكن ممكنا أن يستمر مصطفى كامل على اتصاله بالخديو، لأن عباس الثانى قد عرف عنه عدم الاستقرار فى الميول والخطط والآراء، وقد تغيرت نفسيته كثيراً من يوم أن تراجعت فرنسا فى حادثة فاشودة وبخاصة حين عقدت وانجلترا ذلك الاتفاق الودى الذى تعهدت فيه بأن لا تضع العقبات أمام انجلترا فى مصر، فهذه الصدمات السياسية التى لم تنل من مصطفى كامل قد كان لها تأثيرا عكسى فى نفس الخديو، وألقت اليأس فى قلبه من نجاح سياسة مقاومة الاحتلال، فانصرف إلى حياة المال والمتاع، والمال كثيراً مايفسد النفوس ويغير من الطباع.

وقد ظهر استقلال مصطفى عن الخديو فى استهجانه إحالة حسن باشا عاصم رئيس الديوان الخديوى إلى المعاش، إذ أظهر أسفه على حرمان هذا المنصب السامى من رجل اشتهر بالنزاهة والكفاية، وقد كانت إحالته إلى المعاش بأمر الخديو بسبب موقفه الشريف فى الحادثة المعروفة بحادثة مشتهر وخلاصتها أن أحد الماليين اليونانيين الذين لهم صلة بالخديو (هو المسيو زرفوداكى) عرض على ديوان الأوقاف أخذ أطيان له بالجيزة مقابل تفتيش مشتهر التابع للأوقاف والذى كان اتفق مع الخاصة الخديوية على شرائه، وعرضت صفقة البدل على مجلس الأوقاف الأعلى، وكان حسن باشا عاصم من أعضائه، فرفض إقرار الصفقة برغم أنها كانت تهم الخديو، فكان موقفه وهو رئيس الديوان دليلا على استقلاله ونزاهته[٣]، وكان انتقاد الفقيد إحالته إلى المعاش تحديا للخديو ومعالنة له بالعداء.

وانتقد أيضا وقوفه تحت العلم البريطانى فى حفلة استعراض الجيش الإنجليزى بميدان عابدين فى نوفمبر سنة ١٩٠٤، ولم يكن يحضرها من قبل، حتى اضطرت المعية إلى إصدار

---

(٣) اللواء عدد ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٠٤.

بلاغ رسمى تنسب فيه حضور الخديو هذه الحفلة إلى المصادفة (أنظر ص ١[illegible]٠)، وانتقد انصرافه إلى مصالحه الخاصة فى مقالة له بعدد ١٠ أبريل سنة ١٩٠٤ من اللواء، لمناسبة اعتراضه على طلب المجلس النيابى من الإنجليز ووجوب طلبه من الخديو، إذ قال:

«إن سمو الأمير هو المطالب وحده بإعطاء مصر مجلساً نيابيـاً، ويرفـع صوتـه فى هذا الشأن، والجهاد فى سبيله حتى تناله الأمة، أما الـذين يعلنون بـأعمالهم وأقـوالهم أن سمو الأمير أصبح عديم الحول والقوة وأن لا ملجأ للمصريين إلا انجلترا والإنجليز وأنه يجب عليهم ألا ينتظروا من أميرهم شيئاً، ويشيرون عـلى سموه بـإهمال أمتـه وصرف أوقـاته وكل مجهوداته لمصالحه الخاصة دون المصالـح العامـة، فهم ألد أعـداء البلاد، وهم الـذين يمكنون المحتل فعلاً ويهددون عرش الخديو حقيقة».

ومن يوم ٢٧ أغسطس سنة ١٩٠٤، وهى آخر مقابلة له بالخديو، انقطعت علاقته به، وكان انقطاعه عنه مما زاده منزلة ورفعة، إذ ظهر استقلال الحركة الوطنية عن الخديو أكثر من ذى قبل، ولما أصدر الفقيد جريدتى ليتندار اجبسيان الفرنسية وذى اجبشيان استاندرد الإنجليزية فى أوائل سنة ١٩٠٧ حنقت الصحف الإنجليزية من ظهورهما واتهمت الخديو بالمساهمة فى رأس مالها فنشر الفقيد رداً على هذه المفتريات أسماء المساهمين فى رأس مال الجريدتين ومقدار ما اكتتبوا به، فكان هذا الإعلان قاطعاً فى إثبات أن لا علاقة للخديو بظهور الجريدتين، ولا صلة له بهما.

ولما استقال اللورد كرومر فى أبريل سنة ١٩٠٧ وخلفه السير إلدون جورست اشتد انحياز الخديو عباس إلى السياسة البريطانية، وظهر هذا التحول فى حديثه مع المستر ديسى الذى نشرته جريدة الديلى تلغراف فى مايو سنة ١٩٠٧، إذ نفى عن نفسه تهمة العمل ضد الاحتلال، وذكر اللورد كرومر بالخير، وصرح بأن المعتمد البريطانى لا يستطيع حكم مصر وحده، وأنه مستعد للتعاون معه، وأنه لا فائدة للمصريين من استبدال احتلال باحتلال، وأن الاحتلال البريطانى أفضل من أى احتلال آخر.

ومعنى هذا الحديث فى مجموعه أن الخديو يصرح بأنه يرغب مشاركة المعتمد البريطانى فى حكم البلاد حكماً مطلقاً، فلم يحجم الفقيد عن انتقاد هذا الحديث انتقاداً حازماً، برغم صدوره من الرئيس الأعلى للدولة، قال فى هذا الصدد:

«مما يجب علينا إعلانه والجهر به أمام الملأ كله أن تصريحات الجناب العالى لا تقيدنا بأى حال من الأحوال، لأن مركز سموه غير مركزنا، على أن كل مصرى صادق الوطنية لا يقبل مطلقاً أن يكون حكم مصر بيد سمو الخديو بمفرده أو بيد المعتمد البريطانى، أو بيد الاثنين معاً، بل يطلب أن يكون حكم هذا الوطن العزيز بيد النابغين والصادقين من أبنائه، وأن تكون نظامات الحكومة دستورية ونيابية[٤]».

وقال فى موطن آخر:

«قد قلنا مراراً إن سمو الأمير بعيد عن الحركة الوطنية، وأن المجاهدين ضد الاحتلال مستقلون عن سموه كل الاستقلال، فهو إن قال كلمة فى صالح الحركة الوطنية خدم نفسه وعرشه، واستمال أمته إليه، وإن عمل ضدها أضر بنفسه وبعرشه، ونفر أمته منه، ولكنه فى الحالتين لا يستطيع الإضرار بهذه النهضة، لأنها نهضة المطالبين بالحياة والوجود، ومثل هذه النهضة لا يضرها إنسان مهما كان قوياً عظيماً[٥]».

وقال: «إن مصلحة الشعب المصرى تقضى بأن تكون الحركة الوطنية بعيدة عن الجناب العالى، حتى يعلم العالم كله أن المصريين يطلبون بأنفسهم وطوعاً لعواطفهم وشعورهم، إصلاح حالة بلادهم وترقية شؤونهم ومنحهم الدستور، وأن هذه المطالب ليست صادرة بإيعاز من كبير أو أمير».

وقال فى مقال آخر:

«لقد اتهموا الحزب الوطنى تارة أنه موحى إليه من الدولة العلية، وطوراً من ألمانيا، وتارة أخرى من سمو الخديو، وقد سقطت التهمتان الأوليان من قبل، وهذه الثالثة قد سقطت الآن معها، فحان الأوان أن نهنىء أنفسنا».

وكتب من (نيوهوزن) فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٠٧ إلى المغفور له محمد بك فريد (نشرناه بالزنكجوغراف فى الصفحة التالية) يدل على مبلغ استيائه من خطة الخديو، وتحبيذه الابتعاد عنه، قال:

---

(٤) اللواء ٢٦ مايو سنة ١٩٠٧.
(٥) اللواء ٢٧ مايو سنة ١٩٠٧.

(خطاب الفقيد إلى فريد بك فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٠٧)

[illegible] فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٠٧

أخى الأعز حرسه الله

ألف قبلة وألف سلام. وبعد فقد حظيت باستلام
خطابك العزيز المؤرخ ١٥ الشهر الجارى وسأقرأ
مقالتك فى القطار بإمعان

لأنى مسافر الآن مع عثمان بك غالب إلى باريس
أرجوك عدم تفخيم الخديو فى كتاباتك فقد علمت
عنه ما لا يسر. ولابد أن تضره السياسة ذات الوجهين
ضرراً كبيراً. وكلما كان عمل الوطنيين بعيداً عنه كان
الفلاح محققاً

ودمت لأخيك المخلص
مصطفى كامل

«أخى الأعز حرسه الله.

«ألف قبلة وألف سلام، وبعد فقد حظيت باستلام خطابك العزيز المؤرخ ١٥ الشهر الجارى، وسأقرأ مقالتك فى القطار بإمعان لأنى مسافر الآن إلى باريس.

«أرجوك عدم تفخيم الخديو فى كتاباتك، فقد علمت عنه ما لا يسر، ولابد أن تضره السياسة ذات الوجهين ضرراً كبيراً، وكلما كان عمل الوطنيين بعيداً عنه كان الفلاح محققاً».

فهذه الأقوال التى كتبها فى الصحف أو رسائله الخاصة تدل على عقيدة راسخة فى الواجب الوطنى الذى اضطلع به، وترسم لنا صورة رائعة لتلك النفس الكبيرة التى سمت بالحركة الوطنية، وجعلتها قوية بذاتها، مستقلة بمبادئها، محتفظة بكرامتها، قوامها الإخلاص لمصر والنهوض بها إلى الاستقلال والحرية.

فى مذكرات الخديو عباس الثانى
عن مصطفى كامل

توفى الخديو عباس الثانى سنة ١٩٤٤ بجنيف، وقد دون مذكرات مطولة قبل وفاته عن حياته وسنى حكمه، نشرت صحيفة المصرى فصولاً منها سنة ١٩٥١، وقد تناول فيها الحديث عن مصطفى كامل وعلاقته به، وأثره فى بعث الحركة الوطنية، ويطيب لى أن أورد هنا ما دوّنه عن الفقيد فى هذه المذكرات الهامة.

قال تحت عنوان «مصطفى كامل»:

«كان مصطفى كامل هو الذى بدأ نشر الفكرة الوطنية فى شباب مصر، وهو الذى هز الروح المصرية فأيقظها من غفوتها.

«كان محيى الوطنية المصرية، ورسول تلك الفكرة التى كانت قد خُنقت فى مهدها، ولكنها ظلت تسعى إلى الأمام، وقد كسب لعقيدته ولحزبه أغلبية الموظفين، وأعياناً ومثقفين، وإجماع الطلبة والعمال. كان فتى خلع عليه الشباب كل نعمة، بما فيها نعمة الوهم المقدس، وكان قد آثر الحياة الروحية على الحياة المادية، وكان حديث العهد بذلك البلد القديم الذى لم تكن هالات المجد ترفع فيه إلا على القبور، ولا يعرف شيئاً عن الوضاعة والمساومات السياسية.

«كان بسيطاً ومستقيماً، وتحت مظهره اللطيف كانت تختبىء روح متفتحة لكل الأحاسيس، وقلب حساس لكل ألوان الرقة والحنان، وزانه الله بالحجى، وكانت بلاغته واضحة وحارة، وكان أسلوبه الرشيق، العامر بالصور، يتنقل من البساطة الإنجيلية إلى بلاغة الخطيب المصقع العظيم، وقد أوتى موهبة الإقناع وسحر الإشعاع الذى يؤتاه

الحواريون والأنبياء، وكان الحب الذى يكنه لوطنه ينبع من حماسة لا تفقده سيطرته على عقله.

«وليس من شأنى أن أسجل حياة ذلك الحوارى الرفيع الذى كانت براءته الطاهرة – بقدر ثقافته وجدارته – قد فتنت به الجماهير، ولكنى لا يسعنى أن أرد نفسى عن توجيه تحية الإجلال إلى ذكرى وطنى أدين له بساعات فائقة الجمال، ومن المؤكد أنه كان فى بعض الأحيان يضايقنى، فإننا على اتفاقنا الدائم فى الهدف، لم نكن دائماً متفقين على الوسائل.

«وكان شباب الزعيم الوطنى يسمح له بأن يسترد خطاه ويتطور فى لطف حول الأخطاء التى يحفل بها الشباب، وقد أوشك مصطفى كامل أن يغدو ذات لحظة ضحية الزهو الذى يتربص بكل أولئك الذين يقودون الجماهير ببلاغتهم ويحسون أنها معلقة بأفكارهم، وقد كان مصطفى كامل، فيما عدا موهبته الفذة كخطيب وكاتب، وطموحه المشروع، على خصال وطيدة كانت تكفل التقدير حيثما ذهب، كانت له موهبة الملاحظة التى نماها اختلاطه برجال السياسة فى مصر وفى الخارج، وكان يفهم، وقد درس وعاش فى أوربا، إن بلداً طامحاً إلى الازدهار يجب أن يسهر بعناية على علاقاته مع البلاد الأجنبية، ولم يهمل مطلقاً ذلك الرأى، فكان صوته بذلك يذهب بعيداً، وكان يسمع فيما وراء النيل، وكان قد عرف كيف يهيىء لنفسه فى أوربا، وفى فرنسا خاصة، صداقات فعلية، وفى أخريات حياته كان صوته قد بدأ يسمع فى انجلترا.

«كان نافعاً لوطنه، وكنت أقدره حتى عندما كان يستحيل علىّ أن أتبعه، إن مهمة الحكم ليست دائماً بالسهلة، ففى الوقت الذى يشاء الحاكم أن يطيع صوت قلبه، يجد نفسه مضطراً إلى الاذعان لحق الدولة، ولقد كان مصطفى كامل حراً وكنت أمنحه تأييدى المطلق، كان يقول بدلاً منى ما يجب قوله، وما لم يكن فى الوسع قوله باسمى.

«وإذا كان قد حدث فى بعض الأحيان أن اتجاها غير صائب قد عكر صفو عطفى الذى كان فى أغلب الأحيان يذهب إلى حد التعاون معه، فإن سوء التفاهم كان دائماً يزول سريعاً، إذ يطرد سحائبه الولاء المتصاعد من قوله ومن عمله، إن فضل مصطفى كامل العظيم هو أنه قد حدد المثل الأعلى للأمة، وشجع الجماهير على السعى إلى ذلك المثل الأعلى، ولكن وطنيته كانت تبلغ أحياناً حد التصلب، وأكبر ما كنت آخذه عليه أنه ظلل

مبتعداً بنفسه، وبإرادته عن جميع أولئك الذين كانوا يكافحون حول الراية نفسها ولنفس القضية، وكنت قد حلمت بتقرب بين الشيخ على يوسف ومصطفى كامل، ولكنى لم أستطيع مطلقاً أن أحقق هذا الأمل إذ كان يفرق بين هذين الرجلين نوع من الكبرياء، المبالغ فيها، ولقد كان يسعهما أن يتفاهما دون أن يتحابا، وكان لهما من المزايا والفضائل ما يكفى لكى يظفر كل منهما من صاحبه بالتقدير.

«لقد كان مع مصطفى كامل الشباب، والطلبة، والمستقبل، على حين كان الشيخ على يوسف يتمتع بالنفوذ على أصحاب المراكز الاجتماعية الهامة، لو أنهما تضامنا ! أى شيء كنا نعجز عن تحقيقه، لو أننا وضعنا حماسة أحدهما فى خدمة تجربة الآخر !

«وإذا كان مصطفى كامل قد تجلى فى أغلب الأحيان فى صورة الحوارىّ، فليس فى هذه الدنيا، مع الأسف، سياسة بلا أخطاء، وما كان مصطفى كامل إلا بشراً، ومع ذلك فلقد ترك عند موته نموذج حياة كرسها صاحبها كلها لتحرير مصر، وإن جدارة زميله على يوسف - لو أنه كان قد عرفه - ما كانت لتقلل من شأنه، وما يجدر أن يتشجر الناس على المجد، عندما يخشى أن يكون الوطن نفسه فدية المعركة.

«وكان هذا المتضرم هوى ببلاده، الذى قدر له أن يموت فى زهرة العمر قبل أن يتاح له الوقت لكبح جماح حماسته بقليل من التجربة، قد حصل على معظم ما يتمنى من رضاء ذلك النجاح العجيب لرسالته الوطنية، وما من ريب فى أنه قد ثمل بعض الثمول بنجاحه، ولو أن ذلك الثمول كان قد اتحد بحكمة الشيخ على يوسف الشرقية، لكان ذلك قد خدم قضية البلاد فوق ما خدماها متفرقين.

«كان مصطفى كامل، كلما وسمه العمر بطابعه، يغدو أكثر قلقاً وأكثر إحساساً بشخصيته، وكانت مبادئه السياسية - بعد أن عانت بضعة تعديلات - قد غدت مصرية دقيقة فى مصريتها، وإذا كان قد تكلم أحيانا عن تركيا أو وجه إلى أوربا نداءاته المجلجلة فما كان ذلك إلا ليخفى ثورة لو أن تلاميذه لمحوا منها شيئاً لكان فى ذلك ما أفقده سلطته.

«ولعل التعهدات المتتابعة التى طبعت نشاطه كانت قد نسقت، ولم يكن يريد أن يقطع صلته بالماضى دون فترة انتقال، وكان يخشى أن يعرض النتائج التى حصل عليها للخطر،

إذ هو بدا فى صورة المجدد المبالغ فى تجديده.

«وأيا ما كان الأمر، فإن أساس تعليمه لم يكن فى الحقيقة عصريا مفرطا فى عصريته، بل لعل أفكاره كانت أقرب إلى التقليد الشرقى مما يعتقد أكثرّ الناس.

«كان قد جرد وطنيته من كل رداء دينى، ولكنه ظل متدينا ومتعلقاً بروح القرآن، أما أعلى يوسف، فإنه برغم ثقافته الدينية البحت، قد عرف كيف يتلخص من الطابع الإسلامى، الذى بقى عند مصطفى كامل، ومع أنه تربى فى أوربا، فلقد كان يستخدم النظريات الغربية كوسيلة، ولكنه لا يعتبرها غاية فى ذاتها.

«ومات الزعيم الشاب للاستقلال المصرى دون أن يحقق خطته، وربما دون أن يكون قد حدد خطوطها الأخيرة، لقد كان على الأخص محيى الروح الوطنية.

«وكانت جنازته رائعة، ومرت مصر عن بكرة أبيها أمام جثمانه، وأقبل من القرى النائية ألوف وألوف من تلاميذه ليشيعوا النعش الذى حمل زعيمهم إلى مثواه، أولئك الأنصار الذين غدوا، وقد مات الزعيم، الخلفاء على تراثه الوطنى.

«كانت روح مصطفى كامل تلهم شعبا، وقد صار هذا الشعب وراث مثله الأعلى».

وقال الخديو عباس فى موضع آخر:

«لقد قيل، فى أيام كفاح مصطفى كامل العنيفة، أنى كُنت خصمه، وقيل أيضاً أنه كان صنيعتى، وليس هناك ما هو أشد بعداً عن الحقيقة من هذا الذى قيل، إن مصطفى كامل لا ينتمى إلا إلى نفسه، ولقد كان رجلا من الصفوة، عاش بإيمانه، ومات بإيمانه؛ أما أنا، عباس حلمى، فانى ما كنت أبدا خصمه، وما كنت أبداً وحيه، ولم يكن صنيعتى، بل رائداً وجنديا يحارب تحت راية مثله الأعلى الذى كان العجائز يرونه زندقة وإلحادا ويتبعه الشباب فى حماس فائر، وإن قلمه البليغ، و (لواءه) المناضل، قد صارا إحدى مفاخر عهدى

«ومع أن كل شروع فى عمل بالمعنى الذى حلم به مصطفى كامل كان يعترضه دائما وجود الوكلاء البريطانيين وإرادتهم، فإن عهد حكمى كله قد تأثر بجهوده الوطنى، وأذكر على سبيل المثال إنشاء الجامعة المصرية الجديدة التى وضعتها تحت رياسة عمى الأمير

أحمد فؤاد، لمنحها استقلالا حقيقيا، فهى الدليل الذى لا ينقض على ذلك، لأنها كانت من وحيه، فإن أول من فكر فى الجامعة هو مصطفى كامل».

وقال فى موضع آخر:

«إن الروح الوطنية قد تحددت بوجه خاص فى عهدى، وقد ظفرت تلك الروح فى إخلاص أكثر زعمائه جلداً وبلاغة - مصطفى كامل - وفى موهبته بما آتاه برنامجاً محدداً.

«يومذاك كنت أمسك بيدى محركات عنصرى الوطنية المتفرقين المتنافرين الحزب المحافظ، حزب أعيان البلاد الذى يأتمر بأمر الشيخ على يوسف، وحزب الشباب المتطرف بزعامة مصطفى كامل، وكان معنى الوطن عند كل من هاتين الجماعتين مختلفاً عن الآخر، فهما لا تستطيعان تحقيقه فى صورة موحدة، ولا فى لحظة واحدة.

«وقد أدركت بعد قليل استحالة ضم الفريقين، وصار لزاماً علىّ أن أسعى عند كل منهما سعياً خاصاً به، وكان هذا ما جعل البعض يقول: إنى كنت أقوم بلعبة مزدوجة.

«ولكنى على العكس من ذلك، كنت أبغى أن أتجنب - ما وسعنى ذلك - ترك هاتين القوتين المتنافستين إحداهما إزاء الأخرى، وأن أحد من الانشقاقات فى كل منهما، مستدركاً ما عساه أن يحدث من اختلال.

«وكنت أحرص قبل كل شىء على ألا تبدر منى بادرة تفضيل قد تثير غيرة تجعل أحد الحزبين ينهض لعداء الآخر، وكان تفضيلى مع المعتدلين ولكنى كنت أفهم المتطرفين، ولم استخدم لنفسى لا هؤلاء، ولا هؤلاء، ولكن هؤلاء وهؤلاء كانوا يرفضون مبدأ الاحتلال.

«وقد كان موقفى سبباً فى أن يقال إنى لم أكن مخلصاً لا للوطنيين ولا للانجليز، ولكن تقلباتى الظاهرية لم يكن لها غير دافع واحد، وهو دافع شخصى على كل حال، لم أكن رفيقاً بالحزب الوطنى عندما كان يندفع إلى شىء من العدوان، ولكنى لم أكن رفيقاً أبداً ببريطانيا العظمى التى كانت تنشب مخالبها بإطراد كل يوم فى الأرض المصرية، وهذا الدافع الوحيد كان حبى لبلادى».

وقال عن حادثة (دنشواى):

«لست أبغى أن أنشر هنا من جديد فصول تلك المأساة، فإن من المعروف أن الضباط

الإنجليز المشتركين فى المناورات كانوا ينتهزون فرصة أوقات فراغهم كى يخرجوا للصيد، فيقتلوا فى القرى الحمام الأليف، ويحملوه ملء الحقائب، وأن الأهالى قد قاوموا، وتبادل الفريقان الضربات فلاذ أحد الضباط بالفرار خلال المزروعات، ومات متأثراً بضربة الشمس، وعاد بعض الجنود إلى القرية ليقتلوا المزارعين الوادعين، قبل أن يحملوا النبأ إلى رئيسهم.

«ولم يكن فى الأمر، إلى ذلك الحد، غير حادث يؤسف له حقاً، ولكنه ما كان لينتهى بتلك المذبحة الفظيعة التى تلت المحاكمة التى قامت بها المحكمة الخاصة لو أنه عولج فى إتزان، ولم تخن الجميع أعصابهم، وكان كبار الموظفين الانجليز فى أجازة، كما كان الجنرال قائد القوات غائباً، وأكبر الظن أن ذلك الذى كان يقوم مقامه كان متحمساً ومتطرفا، فقد أضفى على الحادث ثوب المأساة، كما أن ممثل اللورد كرومر لم يحسن فهم المسئوليات التى أخذها على عاتقه.

«إنى ليستثير ألمى أن أفصل القول فى هذا الحادث الذى حمل إلىّ البرق نبأه أثناء إستشفائى فى فيينا، فلقد هز نفسى أعنف هزة، سواء من جهة الوقائع التى رفعت إلىّ، أو من جهة موقف الحكومة المصرية.

«لقد كان الواجب أن يقابل سوء تصرف الإنجليز ووحشيتهم فى الكفة الأخرى بوطنية المصريين وحرصهم على كرامتهم.

«وليس مما يغتفر للانجليز، بلا ريب، أنهم شكلوا محكمة إستثنائية، كى يحاكموا فلاحين وادعين لم يرتكبوا جرما إلا الدفاع عن حقوقهم وممتلكاتهم ولكن جرمهم فى ذلك لا يقاس بجرم أولئك المصريين الذين قبلوا بغير اعتراض الاشتراك فى تلك المحكمة، وأباحوا للدولة المحتلة تلك الترضيات التى ما كانت لتجرؤ على المطالبة بها لو أنها أحست من جانبهم مقاومة بسيطة.

«إن الوزراء المصريين لم تبدو منهم بادرة للتخلص من ذلك الشرف المحزن، شرف محاكمة مواطنيهم، ولم تند عن شفاههم كلمة طيبة واحدة.

«لقد ضحوا للأجنبى، دون احتجاج، ودون تردد، بأولئك التعساء الذين عهدوا إليهم بمصيرهم، والذين كان عليهم أن يستمعوا إليهم قبل الحكم عليهم، ولم يشر أحد إلى

الظروف المخففة لعمل كان أكثر الجرائم استحقاقا للعفو، وكان فوق ذلك، قد تم من قبل الانتقام له.

«ولا يفوتنى أن أسجل أن المقال الذى نشره مصطفى كامل فى جريدة «الفيجارو» الباريسية فى ١١ يوليه سنة ١٩٠٦ قد أحدث دويا عظيما، وأثار ضمير العالم.

«لقد كان ألمى لذلك الأمر كبيراً وفادحا، وكم عكر صفوى ليال طويلة، ولم يكن الاندفاع الإنجليزى وضعف الحكومة المصرية قد سمحا لى بفرصة التدخل إلى وقت القضية.

«ولقد فعلت المستحيل لتعويض ضحايا حادث دنشواى الذين لم يشنقوا، ولكن اللورد كرومر أبى قائلا إن فى ذلك مساسا بشرف الجيش البريطانى، وكان علىّ أن أنتظر السير إلدون غورست كى أصلح من أثر ذلك الشر.

«وكانت لندن، بعد حادث دنشواى المحزن، قد إنتهى بها الرأى إلى استدعاء اللورد كرومر.

«كان الإنجليز قد أدركوا آخر الأمر، كلما جرت الأحداث، ولما أثارته الدعاية الوطنية عند الشعب من حركة لا تقاوم، أن يوما سيأتى فيغدو جيشهم الذى يحتل مصر غير كاف للمحافظة على الأمن فى البلاد، أو لحماية نفسه من هجوم خارجى.

«فلنطو هذه الصفحة، ويكفى أن الصحافة الإنجليزية والتاريخ قد فضحا منذ ذلك الحين - سفاحى دنشواى، أولئك الذين سلموا المتهمين المساكين للجلادين، خارج القانون، وخارج الإنصاف والعدالة، ولشتى صنوف التنكيل».

وهذا الذى كتبه الخديو عباس الثانى فى مذكراته عن مصطفى كامل لصفحة فخار للزعيم العظيم.

* * *

الفصل الثامن عشر

مصطفى كامل وتركيا

أساء بعض الكتاب تصوير خطة مصطفى كامل نحو تركيا، فزعموا أنه كان من أنصار السيادة العثمانية، لذلك نرى لزاما علينا أن نضع الأمور فى نصابها ونبين حقيقة خطته فى هذه المسألة المهمة.

إن مركز مصر الشرعى لغاية الحرب العالمية الأولى كانت تحدده معاهدة لندن المبرمة سنة ١٨٤٠، والتى تعتبر صكاً دولياً إلتزمت الدول باحترامه، وأهم أحكام هذه المعاهدة الاعتراف باستقلال مصر المكفول من الدول، وضمان عرش مصر فى أسرة محمد على، وبقاء السيادة العثمانية عليها، وفى سنة ١٨٨٢ وقع الاحتلال البريطانى، فعصف بالاستقلال المعترف به لمصر فى تلك المعاهدة، ونزل بها إلى مرتبة المستعمرات التى للحاكم العام البريطانى فيها مطلق التصرف فى شئونها، فلما قام مصطفى كامل يدعو دعوته الوطنية كان واجباً عليه أن يحصر جهاده ضد الاحتلال البريطانى، لأنه رأى بحق أن الجلاء هو الرمز الحقيقى للاستقلال، أما السيادة العثمانية فإن التخلص منها من أيسر الأمور بعد التخلص من الاحتلال، وبخاصة لأن هذه السيادة قد تراخت مع الزمن وكانت سائرة من نفسها نحو الفناء، إذ لم يكن بقى من مظاهرها سوى الجزية التى كانت مرهونة للبيوت المالية الأجنبية من دائنى تركيا وتحولت إلى هذه البيوت لغاية سنة ١٩٥٥.

من أجل ذلك لم يجد مصطفى كامل من الحكمة أن ينادى فى وقت واحد بجلاء الاحتلال البريطانى وبإلغاء السيادة العثمانية معا، لأن معاداة تركيا فى ذلك الوقت من أجل مسألة شكلية ستحل من نفسها، كانت تؤدى حتما إلى إنضمام تركيا إلى جانب انجلترا، وتنازلها لها عن سيادتها، وهذا ما كانت تبغيه انجلترا، فإنها ما فتئت تسعى لدى تركيا لتتفق وإياها على أن تتنازل عن سيادتها على مصر، فلا تبقى أمام انجلترا عقبة دولية تمنعها من إعلان حمايتها عليها، ولقد سعى اللورد دفرين المندوب السامى البريطانى

الذى أوفدته انجلترا إلى مصر عقب الاحتلال مباشرة فى أن تشترى الحكومة البريطانية من تركيا الجزية التى كانت تدفعها إليها مصر، لتحل انجلترا محلها فى سيادتها القديمة، فاعترضه شريف باشا الوزير الكبير، كما رفضت تركيا هذا الحل، وفى الواقع إن سيادة تركيا الإسمية هى التى حالت دون إعلان إنجلترا حمايتها على مصر من سنة ١٨٨٢ حتى سنة ١٩١٤، ولذلك لم تعلن انجلترا هذه الحماية إلا فى ديسمبر سنة ١٩١٤ بعد دخول تركيا فى الحرب العالمية الأولى وسقوط السيادة العتمانية على مصر، ويبدو هذا المعنى جلياً فى تبليغ الحكومة البريطانية إلى المغفور له السلطان حسين كامل فى ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٤، على أثر إعلان الحماية، فإنها قد صارحته بأن حقوق السيادة العتمانية قد آلت إليها بعد سقوطها، قالت فى هذا الصدد ما يأتى:

«وبذلك تكون الحقوق التى كانت لسلطان تركيا وللخديو السابق على بلاد مصر قد سقطت عنها وآلت إلى جلالة ملك بريطانيا العظمى، ولما كان قد سبق لحكومة جلالته أنها أعلنت بلسان قائد جيوش جلالته فى بلاد مصر أنها أخذت على عاتقها وحدها مسئولية الدفاع عن القطر المصرى فى الحرب الحاضرة، فقد أصبح من الضرورى الآن وضع شكل للحكومة التى ستحكم البلاد بعد تحريرها كما ذكر من حقوق السيادة وجميع الحقوق الأخرى التى كانت تدعيها الحكومة العثمانية فحكومة جلالة الملك تعتبر وديعة تحت يدها لسكان القطر المصرى جميع الحقوق التى آلت إليها بالصفة المذكورة»[١].

ومدلول هذا التبليغ أن زوال السيادة العثمانية، والاحتلال البريطانى قائم، معناه أيلولة هذه السيادة إلى الدولة المحتلة ومن ثم ازدياد مالها من القوة والسلطان فى مصر.

فهذه النتيجة التى وقعت سنة ١٩١٤، هى التى كان يتفاداها مصطفى كامل منذ قام يجاهد فى سبيل الاستقلال، كان يتجنب اتفاق تركيا وانجلترا على تنازل الأولى للثانية عن سيادتها، لأن هذا الاتفاق كان ولا ريب يجعل له من النتائج أسوأ مما كان للاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا سنة ١٩٠٤، ولو هو سعى ونجح فى إلغاء السيادة العثمانية والاحتلال قائم، لكان ذلك ربحاً حقيقياً لانجلترا، إذ بذلك كان يتسنى لها إعلان حمايتها

---

(١) التبليغ الوارد إلى المغفور له السلطان حسين كامل من قبل الحكومة البريطانية، الوقائع المصرية، عدد ١٩ ديسمبر سنة ١٩١٤.

على مصر، فتزداد حالة البلاد سوءاً، ويصبح مركز الاحتلال أقوى مما كان، ففكرة عدم التعرض للسيادة العثمانية وقتئذ كانت هى الخطة الحكيمة لمن يريد أن يجاهد الاحتلال، ويعمل للجلاء، أى يعمل للاستقلال الحقيقى، لأن التخلص من هذه السيادة كان أمراً هيناً بعد التخلص من الاحتلال، وقد سقطت هذه السيادة من تلقاء نفسها خلال الحرب العالمية الأولى، أما أنصار الاحتلال الذين كانوا فى خاصة أنفسهم لا يريدون الجلاء، فهم الذين استشكلوا على الفقيد أنه أقر السيادة العثمانية، يضاف إلى ذلك أن أقوى حجة لمصطفى كامل على الاحتلال أنه نقضٌ لمعاهدة دولية أبرمتها انجلترا والدول جميعاً، وهى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠، فكان بذلك يلزم الإنجليز الحجة استناداً إلى هذه المعاهدة، ويطالبهم باحترام شروطها وأحكامها، وقد اتخذ منها وسيلة شرعية ودولية لإقامة الحجة على الاحتلال، والمناداة بعدم مشروعيته، وكانت هذه الحجة أقوى الحجج التى أكسبت قضية مصر الأنصار والأعوان فى مصر والخارج، فلم يكن منطقياً ولا معقولاً أن يحاجج الاحتلال بمعاهدة لندن، ويطلب فى الوقت نفسه نقضها فيما يتعلق بالسيادة العثمانية، لأن انجلترا كانت تغتبط بهذا الطلب، إذ أنه يفتح لها الباب للتخلص من أحكام هذه المعاهدة جميعها.

فموقف مصطفى كامل من السيادة العثمانية كان موقفاً قومياً حكيماً، وهو يشبه موقفه تجاه الامتيازات الأجنبية، فلم يكن ينادى بإلغائها، بل كان يقول باحترامها، لكى لا يستعدى الدول والجاليات الأجنبية فى الوقت الذى يجاهد فيه الاحتلال وهو بذاته موقف «الوفد المصرى» تجاه الامتيازات الأجنبية فيما بعد.

فقد تألف الوفد المصرى فى نهاية سنة ١٩١٨ بعد إلغاء السيادة العثمانية فعلا، فلم يكن إذاً هناكَ من معنى للمطالبة بإلغائها، ومع ذلك فقد تمسك الوفد بهذه السيادة للاحتجاج على اتفاقية السودان، إذ اعتبرها باطلة لأن مصر تملك إبرامها بحكم السيادة العثمانية، ثم إنه فيما يتعلق بالامتيازات الأجنبية (وهى أشد وطأة من السيادة العثمانية) قد صرح فى مطالبه ومذكرته إلى مؤتمر السلام أن مصر «تعتبر أن واجبها يحتم عليها أن تضمن للأجانب التمتع بامتيازاتهم بكل دقة».

وأعلن فى مطالبه «أن مصر تعلن أن امتيازات الأجانب فيها ستحترم بكل دقة، وإذا كان العمل أظهر أين بعضها يدعو إلى تحوير أليق بمقتضيات الأحوال فأنها تعرض

ما يعن لها من وجوه التعديل التى من شأنها المساعدة على تقدم البلاد مع صيانة المصالح المنظور فيها، وتكون فيما تعرضه من ذلك واسعة الصدر، غاية فى الإخلاص والمجاملة، وتتعهد بالبحث فى وضع طريقة للمراقبة المالية لا تقل فى أهميتها بالنسبة للبلاد الأجنبية ذوات المصلحة عما كان متبعاً قبل اتفاقية سنة ١٩٠٤، ويكون أهم قائم بها هو صندوق الدين العمومى».

ولم ينتقد أحد على الوفد المصرى هذا الموقف الذى اتخذه بإزاء الامتيازات الأجنبية، بل سوّغه الجميع بحق، إذ كان المنطق السياسى يقتضى ذلك، وهو ذات المنطق فيما يلومون على مصطفى كامل من عدم الجهر بإلغاء السيادة العثمانية والاحتلال قائم، فإنه ما كان ليستطيع الوصول إلى إلغاء السيادة العثمانية وإلى الجلاء فى وقت واحد، بل كل ما كان يصل إليه لو جمع بين الأمرين أن يجعل تركيا وانجلترا صفاً واحداً فى مقاومة الأمة المصرية، ولو تحقق الجلاء فإن إلغاء السيادة العثمانية ليس بالمطلب العسير على السياسة المصرية.

فالمنطق فى الحالتين واحد، مع هذا الفارق الظاهر بين السيادة العثمانية، والامتيازات الأجنبية، فإن الأولى كانت عقبة شكلية، وكانت سائرة إلى الفناء من تلقاء نفسها، بينما الامتيازات الأجنبية تنشىء حكومات أجنبية مستقلة داخل الحكومة الأهلية تغل يدها فى التشريع وفرض الضرائب وإدارة الأمن العام؛ وتقضى بذلك على سلطاتها وعلى سيادتها القومية فى الداخل والخارج.

يخلص من ذلك أن الدعوة الصادقة إلى الجلاء كانت تقتضى محاسنه تركيا وعدم مطالبتها وقتئذ بإلغاء سيادتها على مصر، وإرجاء هذا المطلب حتى تنجو البلاد من العقبة الكئود التى تحول دون استقلالها وهى الاحتلال، كانت محاسنة تركيا هى إذن السياسة القومية الرشيدة لمن يريد مقاومة الاحتلال، وبخاصة لأن تركيا منذ وقع الاحتلال كانت لا تفتأ تطالب انجلترا بالجلاء، وكانت هى الدولة الوحيدة التى انفردت بمطالبة انجلترا باحترام عهودها فى المسألة المصرية، وكان لها مندوب فى مصر، وهو أحمد مختار باشا الغازى، جاء سنة ١٨٨٥ ليفاوض الإنجليز فى جلائهم عن البلاد وقد قدم تقريراً سنة ١٨٨٦ اقترح فيه تنظيم الجيش المصرى والاستغناء عن الضباط الإنجليز والسردار الإنجليزى، وجهر بضرورة استرداد السودان، ولما أخفقت مفاوضاته فى الجلاء بقى فى

مصر، وكان شعاره «أنه احتجاج حقّ على الاحتلال» فتركيا كانت تؤيد مصر فى الجلاء، فكان طبيعياً أن يعطف عليها المصريون الراغبون حقاً فى الجلاء.

والآن نورد هنا ما قاله مصطفى كامل فى أحاديثه أو خطبه ومقالاته توضيحاً لخطته نحو تركيا، فلقد عرض لهذه المسألة فى حديث له مع مراسل جريدة (نيويورك هرالد) فى خريف سنة ١٨٩٦، وهو الحديث الذى اقتطفنا بعض فقراته فى الفصل الخامس (ص ٩٦) إذ سأله المكاتب عن علاقة مصر بتركيا وخطتها حيالها، فأجابه المترجم فى صراحة وجلاء بما يأتى:

«إن سياسة مصر نحو الدولة العثمانية وهى السياسة التى يجرى عليها الوطنيون الصادقون هى سياسة حسن التقرب منها، وتوطيد العلاقات الحسنة معها، والتاريخ يعلمنا ألا نتُبع حيالها غير هذه السياسة، لأنه إذا كان الإنجليز قد احتلوا مصر فالسبب فى ذلك ولا شك هو النفور والخصام اللذان كانا مستحكمين قبل الاحتلال بين السلطان والخديو السابق توفيق باشا وقد نجح الإنجليز فى التفريق بينهما باتباع سياسة ذات وجهين، فأفهموا السلطان وقتئذ أن خديو مصر عدو له يعمل لإسقاطه عن عرش الخلافة ليجلس هو عليه، كما سعى لذلك من قبل جده الأكبر (محمد على) وأفهموا المرحوم توفيق باشا من جهة أخرى أن السلطان يعمل ضده ويسعى لخلعه عن كرسى الخديوية ليعيد مصر ولاية عثمانية كما كانت قبل الأسرة الخديوية، فلما قامت الحركة العرابية رأى الإنجليز من تمام المهارة وتوسيعاً لهوة الشقاق أن يبرهنوا للخديو على كراهية السلطان له، فسعوا عند السلطان سعى الصديق حتى حملوه على تقليد عرابى الوسام العثمانى الأول، وعرابى هو الذى كان يدعى يومئذ بأنه المدافع عن حقوق السلطان فى مصر، وقد أوغر هذا الأمر صدر توفيق باشا، وألقاه فى أحضان الإنجليز، وها هم الإنجليز الآن يعملون جهد استطاعتهم للتفريق بين الخديو والسلطان، ولكن ما نعهد فى أميرنا الحالى (عباس الثانى) من التبصر والحكمة والوطنية يحقق لنا أنه يعمل دائماً لتأييد سياسة المحاسنة والتقرب من الدولة العثمانية، وهى السياسة التى فى اتباعها سلامة الكرسى الخديوى والوطن المصرى».

وأبان الفقيد أيضاً هذه الخطة فى خطبته التى ألقاها بالإسكندرية فى يونيه سنة ١٨٩٧ لمناسبة الحرب اليونانية التركية واقتطفنا بعض محتوياتها (ص ١٠٧) ودافع فيها عن

موقف مصر حيال هذه الحرب وما أبدته من العطف على تركيا.

وكتب إلى مدام جولييت آدم من الإسكندرية يلخص آراءه فى هذه الخطبة وقال فى كتابه إليها: «إنك تعلمين خطتى نحو تركيا وما أراه واجباً نحوها، فقد أفصحت عن ذلك فى خطبتى، واعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأن من السياسة القومية لمصر أن تكون حسنة العلاقة مع تركيا ما دام الإنجليز محتلين وطننا العزيز»، وقد أقرته مدام آدم على هذه الخطة بالرغم من أنها لم تكن تعطف على الأتراك لحبها لليونان.

ووصف شعور المصريين فى حديثه بجريدة (برلينر تاجبلاط) فى أبريل سنة ١٨٩٧ بقوله: «إنه وإن كان المصرى لا يعرف إلا وطناً واحداً وهو مصر فمن الأمور الطبيعية المحضة أن يساعد المصريون جيش دولة الخلافة ويظهروا بذلك امتنانهم لها لأنها لم ترد أن تكون آلة فى يد الإنجليز».

وأثيرت المناقشة حول هذه الخطة سنة ١٩٠٦، لمناسبة الخلاف الذى قام بين انجلترا وتركيا فى حادثة طابة (انظر ص٢٠٣) فقد أيد الفقيد فيها موقف تركيا واتهمه أنصار الاحتلال بأنه يبغى نقل مصر من حكم الاحتلال إلى الحكم العثمانى، فرد عليهم فى عدد ٢ مايو سنة ١٩٠٦ من اللواء بمقالة قال فيها مخاطباً إياهم:

«أما دعواكم أن الوطنيين المصريين يريدون لانتقال من استبداد إلى استعباد وأنهم إنما يطلبون خروج الإنجليز من مصر ليدخلوا تحت حكم جديد، فهى دعوى لا يقبلها ذو لب ولا يسلم بها أحد من العقلاء، فإننا نطلب استقلال وطننا وحرية ديارنا ونتمسك بهذا المطلب إلى آخر لحظة من حيتنا».

«إلا أن هذا الاعتقاد الذى خدمناه ونخدمه لا يمنعنا من النظر إلى وجهة أخرى للمسألة المصرية، وهى الوجهة الدولية فإن كل إنسان له إلمام بسيط بالسياسة والتاريخ يعلم أن مسألة مصر كانت دائماً (دولية) لأن مركز مصر يقضى على الدول كلها بالاهتمام بها، وما على الكتاب الطاعنين علينا إلا أن يراجعوا كتاب المسيو (فريسينيه) السياسى الفرنسى الشهير وغيره من أكابر السياسيين ليعرفوا أنهم يطالبون ألمانيا بتغيير خطتها فى المسألة المصرية[٢] ويذكرونها بأهمية قنال السويس وما يكون للدولة التى تصنع يدها

---

(٢) كانت خطتها الجمود وعدم الاهتمام بها.

عليه من القوة والنفوذ، ليتذكر هؤلاء الكتاب بأن أوروبا لم تعمل شيئاً فى مصر إلا بالاتفاق مع السلطان، وأنه لو كان عارض فى عزل الخديو إسماعيل باشا لبقى أميراً على مصر إلى آخر لحظة من عمره، رغماً عن كل الدول المبغضة له، وإن انجلترا تود من صميم فؤادها الاتفاق مع جلالته على مسألة مصر لتقبرها، ولكنها تعلم أن ذلك هو المحال، فاهتمام المصريين بالوجهة الدولية للمسألة المصرية أمر طبيعى وواجب، ولو كانت أرقى الأمم شأناً وأعلاها مكاناً فى موضعنا لفعلت فعلنا واتبعت خطتنا وسلكت مسلكنا، وقال عنها المنصفون إنها مدركة لمعنى الوطنية الحقة»

وكتب فى جريدة الطان بالعدد الصادر يوم ٨ سبتمبر سنة ١٩٠٦ عقب حادثة دنشواى مقالة جاء فيها إيضاحاً لخطته نحو تركيا ما يأتى:

«إن اتفاقنا مع تركيا كان دائماً أساساً من أسس سياستنا، وأن الخلاف الذى كان مستحكما بين قصر يلديز وسراى عابدين إبان الحركة العرابية كان السبب فى مصابنا وفى الاحتلال البريطانى، ولما كانت تركيا هى الدولة صاحبة السيادة على مصر فإن عملها وشأنها فى المسألة المصرية هما بلا نزاع كبيران، وإنى أسأل الذين ينكرون هذه الحقيقة أن يفكروا لحظة فيما يؤول إليه حال مصر لو عقدت تركيا فى يوم من الأيام اتفاقاً مع انجلترا مشابهاً للاتفاق الودى الفرنسى الإنجليزى؟ ألا تفقد بلادنا عندئذ البقية الباقية من استقلالها؟ فكيف مع هذا يندهش البعض من الروابط التى تربط مصر بتركيا، أو ليس هذا الارتباط فى ذاته أحسن احتجاج على استمرار الاحتلال بغير حق؟ إنى أسأل الذين لا يكتفون بانتقاد سياستنا بل يتحاملون علينا أن يجيبونى: لماذا يجدون من الأمور المعقولة الطبيعية تحالف فرنسا مع الروسيا واتفاقها مع انجلترا، ويعتبرون من الجنايات ومخالفة الوطنية الحقة اتفاقنا مع تركيا؟».

وقال فى خطبة ألقاها يوم ٢٧ يناير سنة ١٩٠٧ لمناسبة عيد تأسيس الدولة العثمانية:

«يستحيل علينا أن يطلب واحد منا مالكا أجنبياً عنا، فنحن لا نود إلا أن نكون قوة محالفة للدولة العلية، ننصرها وتنصرنا ونعتز بها وتعتز بنا».

وقال فى لواء ٦ أكتوبر سنة ١٩٠٧ رداً على جريدة (لاند بندنس بلج): «إن المحرر أخطأ كثيراً بقوله إننا نريد حرية مصر لإعادتها إلى حكم الأتراك، فقد صرحنا ألوف

المرات بأننا نريد مصر للمصريين[٣] وبأن انعطافنا أو نفورنا من دولة لا يؤثر شيئاً على هذا المبدأ الرئيسى لحياتنا وأفعالنا. ولست أجد لإفحام خصومى إلا طرح هذا السؤال البسيط عليهم: ماذا يكون مصير البلاد المصرية لو تنازلت تركيا عن حقوقها لانجلترا أو تعاهدت معها على ذلك بمعاهدة شبيهة بالمعاهدة الفرنسية الإنجليزية؟ ألا تصير ولاية انجليزية؟ إذن فلماذا يندهش الكاتب من كوننا نجعل علائقنا مع تركيا حسنة ونسعى لنيل الوسائل التى قد تفيدنا وتنفعنا؟ وإذا كانت الدول العظمى قد اتبعت الآن سياسة التحالف فمن ينكر على مصر المظلومة المهضومة اتباعها هذه الخطة؟»

وقال فى خطبته الكبرى بالإسكندرية يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧: «فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى صوتنا، وعلى مسمع من أمم الأرض كلها، وأننا إذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة فإنما نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون وإذا كانت انجلترا تسعى الآن للتقرب من الدولة العلية وتغير سياستها نحوها تغييراً محسوساً فمن الذى يلوم المصريين على أن يكونوا أقرب الناس من تركيا قولا وفعلا وأن يحافظوا على هذه الصلة ما استطاعوا».

فهذه الأقوال والبيانات صريحة الدلالة على أن خطة الفقيد نحو تركيا هى الخطة القويمة التى قضت بها الوطنية الحقة واقتضاها الجهاد الصحيح للاستقلال التام

هذا، ولقد زالت السيادة التركية على مصر من تلقاء نفسها بقبول تركيا مبادىء الرئيس ويلسن سنة ١٩١٨ وبادر الحزب الوطنى إلى إعلان مبادئه الأساسية وهى:

أولا: استقلال مصر مع سودانها وملحقاتها استقلالا تاما غير مشوب بأية حماية أو وصاية أو سيادة أجنبية أو أى قيد يقيد هذا الاستقلال.

ثانيا: إيجاد حكومة دستورية فى البلاد بحيث تكون السيادة للأمة وتكون الهيئة الحاكمة مسئولة أمام مجلس نيابى تام السلطة.

ثالثا: احترام المعاهدات الدولية والاتفاقات المالية التى ارتبطت بها الحكومة المصرية

---

(٣) مصطفى كامل صاحب مبدأ مصر للمصريين.

لسداد الديون احتراما لا يمس سيادة البلاد.

رابعا: تعهد الشعور الوطني وتنميته والمحافظة على تضامن الأمة واتحاد عناصرها.

خامسا: السعي في تحسين الأحوال الصحية والعمل على ترقية الأحوال الاجتماعية.

سادسا: العمل على نشر التعليم في جميع البلاد على أساس وطني صحيح بحيث ينال الفقراء منه نصيبهم، والحث على تأسيس معاهد العلم وإرسال الرسالات العلمية وفتح المدارس الليلية للصناع والعمال.

سابعا: ترقية الزراعة والصناعة والتجارة وكل مرافق الحياة.

ثامنا: نقد الأعمال الضارة بكل صراحة والاعتراف بالأعمال النافعة والتشجيع عليها وإرشاد الحكومة إلى خير الأمة ورغباتها والاصلاحات اللازمة لها.

تاسعا: المحافظة على روابط المحبة والصفاء بين الوطنيين والأجانب.

عاشراً: إحكام العلاقات الودية وتبادل الثقة بين مصر وجميع الدول الأخرى.

* * *

الفصل التاسع عشر

مجلس شورى القوانين

من الواجب أن نقول كلمة عن المجلس الذى كان بمثابة الهيئة التشريعية الممثلة للبلاد فى ذلك العهد؛ وهو مجلس شورى القوانين، ويجدر بنا أن نبادر بالقول إن هذا المجلس لم يكن يمثل الأمة تمثيلا نيابيا صحيحا، فقد كان مؤلفا من ثلاثين عضوا منهم أربعة عشر عضوا تعينهم الحكومة، وفيهم الرئيس وأحد الوكيلين، وأعضاء منتخبون وعددهم ستة عشر، ومنهم أحد الوكيلين، وكان انتخابهم على ثلاث درجات، إذ كان مجلس المديرية هو الذى يتولى انتخاب عضو مجلس شورى القوانين عن المديرية ذاتها، ولم يكن لهذا المجلس سلطة قطعية فيما يعرض على من الشئون، ولكنه مهما يكن نظامه وسلطانه فإن له صفة رسمية جعلت له شأنا يرتبط بحالة البلاد السياسية، والكلام عنه يكمل تصوير العصر الذى نكتب عنه

ويمكننا أن نلخص تاريخه فى ثلاثة أدوار تعاقبت عليه.

الدور الأول

هو دور الخضوع والاستسلام، ويبتدئ منذ إنشائه سنة ١٨٨٣، ثم يستمر حتى سنة ١٨٩٢، وقد بقى موقفه طول هذه السنوات سلبيا محضا، ولم تبد منه ظواهر تدل على الحياة والوجود، ولم يكن له أى أثر فى تطور الحوادث، بل لم يسمع له صوت ما فى الأحداث الجسام التى تعاقبت على البلاد فى ذلك الحين.

الدور الثانى

ثم تغير موقفه منذ سنة ١٨٩٢ بتأثير تطور الأفكار وتنبهها، فأخذت تدبّ فيه بعض ظواهر الحياة، ووقف من الاحتلال غير مرة موقف المعارضة، ففى جلسة ٢٠ ديسمبر سنة

١٨٩٢ رفض مناقشة ميزانية سنة ١٨٩٣ التى أعدها السير إلوين بالمر المستشار المالى البريطانى، بحجة أنها لم تعرض عليه قبل الموعد المحدد لصدورها بوقت كاف يسمح بفحصها، ومع أن القرار لم يمنع الحكومة من إصدار الميزانية طبقاً للقانون النظامى القديم، إلا أن فيه معنى الاحتجاج على الحكومة، ولم يكن هذا مألوفا من قبل فى هيئة المجلس.

وفى ديسمبر سنة ١٨٩٣ ظهرت فى المجلس حركة استياء من اتصال المعتمد البريطانى ببعض أعضائه، ورفض اعتماد نفقات جيش الاحتلال فى ميزانية سنة ١٨٩٤، ومقدارها ٨٥,٠٠٠ جنيه، فكان هذا القرار بمثابة احتجاج على بقاء جيش الاحتلال، وقد ساء هذا القرار الصحف الإنجليزية وصنائع الاحتلال فى مصر، فردت الحكومة على ملاحظات المجلس ردا كان بمثابة انتصار لوجهة نظره، إذ أنها أعربت عن مشاركتها إياه فى إحساساته الوطنية، وأبانت أن المبلغ الذى كانت تؤديه الخزانة المصرية لجيش الاحتلال إلى سنة ١٨٨٥ وهو ٢٠٠,٠٠٠ جنيه فى السنة خفض بالتدريج إلى ٨٥,٠٠٠ جنيه، وأن الحكومة تؤمل أن هذا المبلغ يخفف تدريجياً حتى يمحى بالكلية اعتماداً على عهود ووعود دولة بريطانيا العظمى القاضية بالجلاء عن القطر المصرى[١].

ودلّ تقرير المجلس عن ميزانية سنة ١٨٩٤ على ظهور روح جديدة من الحياة والشعور بالواجب، إذ تعرض لحالة البلاد الاقتصادية، وألمع إلى ما يثقل كاهل الأهلين من أعباء الديون، فكان تقريره أبلغ رد على أنصار المحتلين فيما أدعوه من أن الاحتلال قد جاء للأهلين باليسر والرخاء.

وفى ديسمبر سنة ١٨٩٤ اعترض على بعض ماقررته الحكومة فى ميزانية سنة ١٨٩٥، ورفض اعتماد مصاريف جيش الاحتلال وانتقد سياسة الحكومة فى التعليم، وفى ديسمبر من السنة التالية وقف بالنسبة لمصاريف جيش الاحتلال موقفه فى السنوات الماضية.

وفى أبريل سنة ١٨٩٦ قرر الاحتجاج على الحكومة لعدم أخذها رأى المجلس أو الجمعية العمومية فى تقريرها مبلغ خمسمائة ألف جنيه لإنفاقها على حملة دنقلة التى قررتها فى تلك السنة.

---

(١) تقرير الحكومة الذى تلاه رياض باشا فى مجلس شورى القوانين بجلسة ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٩٣.

وفى ديسمبر سنة ١٨٩٦ كان موقفه بالنسبة لمصاريف جيش الاحتلال أصرح من موقفه فى السنوات الماضية، إذ ورد عنها فى تقرير اللجنة المالية الذى أقره عن ميزانية سنة ١٨٩٧ ما يأتى:

«مقدر لمصاريف جيش الاحتلال مبلغ ٨٤٨٢٥ جنيها، واللجنة لاترتاب مطلقاً فى أن الحكومة عظيم الثقة بأمانة جيشها وكفاءته، وباستعداده الذى برهن عليه فى كل المواقع التى دُعى إليها، وباستتباب الأمن فى داخلية البلاد وأطرافها مما لا يدعو للاستعانة بجيش أجنبى، ولذا فهى ترى عدم المصادقة على المبلغ المقرر لهذه المصاريف» فكان هذا القرار بمثابة احتجاج من الهيئة البرلمانية القائمة فى البلاد ضد الاحتلال، واستمر موقفه من مصاريف جيش الاحتلال على هذا النحو فى السنوات التالية.

وفى ديسمبر سنة ١٨٩٩ نظر فى ميزانية سنة ١٩٠٠ وفيها مبلغ ٤١٧ ألف جنيه نفقات عجز إيرادات السودان عن مصروفاته، فقرر التصديق على هذه النفقات «باعتبار أن بلاد السودان جزء متمم لمصر غير منفصل عنها بحال من الأحوال، فكان هذا القرار بمثابة توكيد لاتصال السودان بمصر وعدم الاعتراف باتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩.

وكان يتولى رياسة المجلس منذ نوفمبر سنة ١٨٩٩ اسماعيل باشا محمد [٢]، وهو من خاصة أصدقاء مصطفى كامل وأنصاره، وكانت تربطهما روابط الود الأكيد، يدل على ذلك حضوره حفلة مدرسة مصطفى كامل فى فبراير سنة ١٩٠٢ كما تقدم بيانه (ص ١٦٤)، فكانت رئاسته حافزة روح المعارضة فى المجلس، وبدت هذه الروح فيما طلبه من الحكومة فى ديسمبر سنة ١٩٠٠ لمناسبة عرض مشروع الميزانية، وتتلخص هذه المطالب فيما يأتى:

أولا: زيادة المبلغ المخصص لوزارة المعارف، وقد لفت المجلس نظر الحكومة إلى ما وصل إليه فساد البرامج وسد أبواب المدارس فى وجوه المتعلمين والبحث فى الأسباب التى دعت لاستعفاء الكثيرين من المدرسين.

ثانيا: زيادة ما خصص للمحاكم الشرعية.

---

(٢) بقى يتولى رياسة المجلس إلى أن توفى فى ٧ أبريل سنة ١٩٠٢ وخلفه عبد الحميد باشا صادق الذى شغل هذا المنصب حتى استقال فى ٣٠ يناير سنة ١٩٠٩.

ثالثاً: طلب المجلس من الحكومة أن تدرج فى ميزانية السنة المقبلة إيرادات ومصروفات السودان.

رابعاً: طلب ألا تنقص المصروفات والمرتبات المتعلقة بالكسوة والمحمل إن لم يمكنها زيادتها.

وقد طلب أيضاً من ناحية أخرى مراعاة حرية الحجاج الشخصية فى ذهابهم إلى الأقطار الحجازية وإيابهم منها، وإلغاء إحتكار المؤن التى تباع عليهم فى المحاجر الصحية.

وفى سنة ١٩٠١ اختلفت الحكومة فى أمر الدكريتو الصادر فى أبريل سنة ١٩٠١ بربط رسوم على الخيوط والمنسوجات والأقمشة القطنية المصنوعة بالقطر المصرى، واحتج على إصدار هذا الدكريتو دون مباحثة الجمعية العمومية وإقرارها، مستنداً فى ذلك إلى المادة ٣٤ من القانون النظامى التى توجب تصديق الجمعية العمومية على كل ضريبة أو أموال أو رسوم على عقارات أو أشخاص، وقد أجابت الحكومة على هذا الاحتجاج بأن المادة المذكورة لا تنطبق على هذه الرسوم، وأنها تنصرف إلى الضرائب على العقارات فقط، واستشهدت بنصها الفرنسى، وطلبت فى الوقت نفسه أن يستبدل بالمادة ٣٤ من القانون النظامى النص التفسيرى الوارد فى ردها، ورد المجلس على هذا الجواب رداً سديداً ختمه بقوله: «يرى المجلس أنه ليس من إختصاصه النظر فى هذا المشروع ويتجنب الدخول فى موضوع تبديل أو تغيير المادة ٣٤ وكل مادة فى القانون النظامى لأن ذلك من حقوق الجمعية العمومية».

وقد اعتبر (اللواء) هذا الموقف حسنة فى تاريخ مجلس شورى القوانين.

الدور الثالث: دور التراجع

ولكن المجلس قد تراجع تحت تأثير حملات اليأس التى كانت تنشرها الصحف الموالية للاحتلال، وإبرام الاتفاق الانجليزى الفرنسى فى أبريل سنة ١٩٠٤، فأخذ يجنح للخضوع والاستسلام للاحتلال، وابتغاء الزلفى لديه، فمن ذلك أنه صدق على ميزانية سن ١٩٠٥ فى صيغة شكر للحكومة، فانتقده مصطفى كامل فى لواء ١٣، ١٤ ديسمبر سنة ١٩٠٤، إذ قال: «إن أعضاء المجلس لم يُسمعوا الأمة والعالم كله ذلك الصوت

المحبوب صوت المطالبة بأعز ما تريد البلاد ألا وهو الاستقلال، ثم قال: «إنكم يا حضرات الأعضاء طلبتم هذا الطلب الغالى مرتين وحسبتم أن الإشارة تكفى، وكأنكم نسيتم أن الإلحاح فى الحق ليس بعيب، وأن الإشارة مع المتعمد النسيان هى دون القليل، فهل فاتكم أن مطالبتكم بالجلاء مما يقوى العقيدة الوطنية فى نفوس الخاصة والعامة والناشئة بنوع خاص، وأنكم إذا لم تبلغوا إلا هذه الغاية لكفاكم شرفا وأجراً»، ثم ضرب الأمثال بما كان من المجالس الشورية فى البلاد الصغيرة من التمسك بحقوق شعوبها فى وجه السلطة الغاشمة.

وانقضت سنة ١٩٠٥ والفتور مخيم على المجلس، وبخاصة إذا كان المقام متعلقاً بأمر تود الحكومة تنفيذه.

ولما وقعت دنشواى فى يونية سنة ١٩٠٦، طالب الفقيد المجلس بأن يرفع صوته بالاحتجاج على الفظائع التى ارتكبتها الحكومة فى هذه الحادثة، ولكن ذهب نداؤه عبثاً، فكان هذا الموقف مظهراً لروح الاستكانة التى شاعت بين جوانب المجلس.

* * *

الفصل العشرون

مصطفى كامل ومعاصروه

إن روابط الإنسان بمعاصريه وعلاقته بهم هى قطعة من حياته، وجزء من شخصيته، ولا مراء فى أن التحدث عنها يلقى جانبا من الضوء على تاريخه، لذلك رأيتُ أن أخصص هذا الفصل بالكلام عن مصطفى كامل ومعاصريه، سواء كانوا من أصدقائه وأنصاره، أو مخالفيه، أو من تلاميذه وحوارييه

أصدقاؤه الأقربون

محمد فريد

إذا ذكر أصدقاء الفقيد وأنصاره الأقربون كان فى طليعتهم المغفور له محمد بك فريد، فهو زميله المخلص، وصديقه الوفى، وعضده الأكبر فى بعث الحركة الوطنية، لازمه وأيده فى جهاده، وبذل له ما بذل من العون الأدبى والمادى، وأمدّه بماله، وظل وفياً له طول حياته، ثم حمل الراية بعد وفاته، فكان خير خلف، لأعظم سلف.

رسائل مصطفى كامل إلى محمد فريد

تدل رسائل مصطفى كامل إلى فريد بك على ما بينهما من الود الصادق والحب الخالص الثابت على مر السنين، فكلاهما كان يؤثر صاحبه على نفسه، ويضحى بنفسه من أجله، وتلك دلائل الإخلاص الحقيقى، وتطالعنا هذه الرسائل بما كان يعمر قلبيهما الكبيرين من الوطنية الصادقة، والعواطف النبيلة السامية، وهى وإن لم تنشر من قبل، ولم تكن معدة للنشر، لكنها صارت قطعة من تاريخ الزعيمين العظيمين، لذلك رأيتُ أن أنشر بعض نماذج منها مع طبع بعضها بالزنكجراف فى أول كتاب عثرت عليه أرسله إليه من



محمد فريد
رمز الإخلاص والتضحية
(١٨٦٧ - ١٩١٩)

فيينا بتاريخ ٢١ أكتوبر سنة ١٨٩٦، وهو يدل على الود القديم بينهما، وفيه أفضى إليه بما بذل فى ألمانيا والنمسا من الجهود لتعريف الرأى العام الأوروبى بالقضية الوطنية، وقد أشار إليه المغفور له محمد بك فريد فى خطبته فى تأبين الفقيد، واقتبس بعض فقرات منه (أنظر ص ٢٨٥).

والكتاب الثانى أرسله إليه من بودابست فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦ قال فيه:

«أخى الفريد حفظه الله

«بعد التحية والتسليم، والإعراب عن شوق عظيم، لابد أنك استلمت كل ما أرسلت إليك وطالعت صدى ما علمت، وعلمت بكل ما جرى وكان، ولابد أنك سررت وفرحت، وأن روحك الطاهرة الشريفة الممتلئة حبا لمصر التعيسة وإخلاصاً رضيت عن روح لا تقل عنها حباً للوطن وإخلاصاً، وإخالك تفكر كثيراً فىّ، وتود لو تكون معى تطوف البلدان مناديا بنصرة المظلوم رافعاً صوتك ضد عدو الوطن الأسيف».

وقد أشار فريد بك إلى هذا الخطاب أيضاً فى خطبته سالفة الذكر، واقتبس منه فقرات أخرى (ص ٢٨٦).

وكتب إليه ضمن خطاب له من الأستانة (استانبول) فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٩٦ يقول:

«كنت أحس بواجب مراسلتك، ويسهل شوقى إليك قيامى بهذا الواجب نحوك، وأتلذذ حقاً لمكاتبة صديق مثلك أساس مودته محبة الوطن العزيز، أى أشرف وأجل إحساس عند الإنسان».

وكتب إليه من باريس فى ١٩ يوليه ١٨٩٨ كتابا قال فيه (نشرنا صورته ص ٣٧٨).

«أخى الأعز حرسه الله

«بعد تقبيل وجنتيك وإهدائك أعطر السلام، وصلنى هذا الصباح كتابك الكريم فتقبلته بالترحاب والتكريم، وكنت فى شغف شديد لاستلامه، لغياب أخبارك عنى ثلاثة أيام، وليس ذلك بالزمن القليل.

«لقد أدهشنى فى كتابك شكرك لى على مبادرتى بإجابة طلبك، إن هذا التشكر من غيرك جميل وواجب، ولكنه منك غريب وعجيب، فما بيننا من الود والإخاء يجعل مالك

مالى، ومالى مالك، وحياتى حياتك، وحياتك حياتى، هذا ما أعتقده وما تعتقده أنت، فروحى تناجى روحك بالود والإخلاص فى كل لحظة وفى كل آن، دمت لى أخا وفياً صادقا، ودمت معى خادمين صادقين للوطن المحبوب».

وختم الخطاب بقوله:

«أكتب لى باكر من فيشى وأطل كتابك، واذهب يوم الخميس إلى كوك قبل الظهر تجد منى كتابا أكتبه إليك باكر ليكون فيه وداعك، وبعض أمور أريد منك عملها فى مصر، تقبل ألف قبلة من صديقك الأول وأخيك الثانى».

مصطفى كامل

وكتب إليه من باريس فى ٢٢ يوليه سنة ١٨٩٨ كتابا قال فيه (نشرنا صورته ص ٣٧٩):

أخى الأعز حرسه الله

«أقبل وجنتيك ألفا، وأهديك سلاماً عاطراً، وأسأل لك الصحة الدائمة والسرور الكامل، وأدعو الله أن يسرك بشفاء حرمك المصون وسلامة نجلك الأمين[1]، إنه سميع مجيب»

إلى أن قال:

«أرجوك أن ترسل لى عدد المؤيد المؤرخ ٩ يناير من هذه السنة وهو المشتمل على الخطبة التى ألقيتها على شبيبة المدارس يوم احتفالها بعيد جلوس الخديو لأنى فى حاجة إلى ترجمتها ووضعها مع المجموعة.

«سأكتب لك كل أسبوع مرة على الأقل، ولا تنس العائلة، أرسل سلامى لكل أفرادها، دمت ألف مرة لأخيك المخلص».

مصطفى كامل

---

(١) هو المرحوم عبد الله فريد نجله الأول. وقد توفى وله من العمر سنتان، أما نجله الثانى فهو الشاب النجيب الأستاذ عبد الخالق فريد وكيل النيابة الآن (١٩٥٠) بارك الله فيه وهو الذى تسلمنا منه رسائل مصطفى كامل إلى والده المغفور له محمد بك فريد، كما استودعنا مراسلاته ومذكراته، فله منى جزيل الشكر.

«قبل لى وجنات الشقيق إبراهيم بك[٢]، وسلم لى على الفاضل حسن أفندى عبد الرازق[٣]، واسأله أن يبلغ سلامى العاطر لوالده العزيز[٤].

«وإذا قابلت شوقى بك[٥] قبله مرتين، وقل له أن يرسل لى ما طبع من ديوانه مع صورته، وأعطه عنوانى».

وقال فى ختام خطابا إليه من باريس فى ١٠ أغسطس سنة ١٨٩٨:

«أقبلك فى الختام ألف قبلة، وأرجوك ألا تحرمنى من أخبارك، وأن تعرفنى عند وصول هذا إليك، دمت لمصر العزيزة ولخادمها الضعيف أخيك».

مصطفى كامل

وقال فى خطاب آخر من باريس فى ١٩ أغسطس سنة ١٨٩٨:[٦]

«وغاية رجائى من الله – إن لم يسمع نداءنا ويخلص أوطاننا – أن يحفظ لى ودك الصادق، وحبك الطاهر، تقبل ألف ألف سلام من خير صديق لك ومن أخيك الشاكر العارف للجميل».

مصطفى كامل

وقال ضمن خطاب إليه من باريس فى ٢٦ أغسطس سنة ١٨٩٨:

«لك منى جزيل الشكر وعظيم الامتنان، فحقاً أنت الأخ الصادق الذى يضحى نفسه فى محبة إخوانه، فدم لى يا مثال الوفاء، واعتقد أبد الدهر أن لك فىّ أصدق الناس كافة، وأوفاهم إليك، فحياتى وروحى لك بعد الوطن العزيز».

وختم هذا الخطاب بقوله:

«سلامى العاطر لأخيك العزيز، ودم أنت ألف مرة وألف عام لأخيك المخلص».

مصطفى كامل

---

(٢) المرحوم ابراهيم بك فريد.
(٣) المرحوم حسن باشا عبد الرازق، وكان محامياً بمكتب محمد بك فريد.
(٤) المرحوم حسن باشا عبد الرازق الكبير.
(٥) أمير الشعراء، وكان صديقاً حميماً للفقيد.
(٦) نشرنا صورته ص ١٣٤.

وقال ضمن خطاب له من باريس فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٠٦[٧]:

«أخى الأعز فريد بك.

«ألف قبلة وألف سلام، وبعد فقد استسلمت خطاباتك، وقرأت اليوم مقالاتك وسررت بها للغاية، وأن ودك الصادق، وإخاءك الطاهر، ووطنيتك العالية، لمما يكفينى فى الحياة نعمة ونعيماً وسعادة وسعوداً».

وقال فى خطاب من نابولى فى ٢٩ يونيه سنة ١٩٠٧:

«إنى لو أردت أن أشكرك على صدق إخائك وتفانيك فى خدمة المبدأ الذى وهبنا حياتنا له لما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وحسبى أن أقول إنك خير سلوى لى فى هذه الحياة التى كثرت أتعابى وهمومى فيها فكنت الأخ الممتاز والعون فى الشدائد».

هذه الرسائل التى تفيض إخلاصاً وحناناً ونوراً، قد كتبها الفقيد على تعاقب السنين، وهى تصور لنا مقدار حبه لفريد بك، ومبلغ ما كان يجمع بينهما من الروابط الأخوية والوطنية التى دامت بين الصديقين طوال سنى الجهاد، وجعلت منهما البطلين العظيمين اللذين بعثا فى نفوس الجيل روح الوطنية والإخلاص.

---

(٧) نشرنا صورته بالزنكغراف ص٢٣٥.

(خطاب الفقيد إلى فريد بك في ١٩ يوليه سنة ١٨٩٨)

باريس في ١٩ يوليه ١٨٩٨

سلامي الخصوصي الى الدكتور احمد افندي علي
وارجوكم اعطاءه عنواني الجديد كما انك
تعطيه ايضا الى نجل سعادة حسن باشا محمود ولا تنس
اهداء سلامي لانيس بك

أخي الاعز [illegible]

بعد تقبيل وجنتيك واهدائك اطيب السلام وصلني صدر الصباح كتابك
الكريم متضمنا الترحاب والتكريم وكنت في شغف شديد لاستلامه لطيب
اخبارك عن صحتك ايام رئيسي وليس ذلك بالامر القليل

احمد الله مع رجوعي بالصحة والسلامة واشكره على اني اولا في صحتي سرعة راحة وصحة
فاني متمتع بالصحة وسيما البطن ستنتظم الآن وتجدني مواظبا على الاستحمام بالماء
البارد حسب امركم كل صباح وقد وزنت جسمي بالامس فوجدته قد زاد عما
كان عليه بنحو كيلو ونصف

لقد ادهشني في كتابك شكرك لي على مبادرتي باجابة طلبك ايها الشهم الشريف
جميل وواجب ولكن هذا عجيب بين محبين كما بيننا صدقا ومودة ودهرا يجعل مالك
مالي ومالي مالك وحياتي حياتك وحياتك حياتي هذا ما اعتقده وما تعتقده
انت فروحي تساعد روحك بالود والاخلاص في كل لحظة وفي كل آن دمت
لي اخا وفيا صادقا ودمت مني خادما صادقا للوطن المحبوب

اكتب لي باكر من فضلك وانتظر كتابك - ويوم الخميس [illegible]
قبل الظهر تجد مني كتابا اكتبه اليك باكر [illegible]
[illegible] تقبل الف قبلة من صديقك الاول واخيك الثاني
مصطفى كامل

خطاب الفقيد إلى فريد بك فى ٢٢ يوليه سنة ١٨٩٨)

باريس في ٢٢ يوليو سنة ١٨٩٨

أخي العزيز حرسه الله

أقبل وجنتيك [illegible] و أهديك سلاما عاطرا وأسأل لك
الصحة الدائمة والسرور الكامل وأرجو الله أن يسرك بشفاء حرمكم
المصون وسلامة نجلك الأمين. إنه سميع مجيب
سأعمل بأمرك وأقابل [illegible] أحسن مقابلة [illegible]
أرجوك أن ترسل لي عدد المؤيد المؤرخ ٩ يناير من هذه
السنة وهو المشتمل على خطبة [illegible]
الباريس [illegible] احتفال بعيد جلوس الخديوي لأني محتاج
لترجمتها وشرحها مع الجمعية.
سأكتب لك كل أسبوع حتى تعلم [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
قبل لي وجنات [illegible]
وسلم لي على [illegible]
يبلغ سلامي [illegible]
إذا قابلت [illegible]
[illegible] واعطه عنوان

[illegible] 8, Rue Balzac



لطيف باشا سليم

من أعلام الحركة الوطنية، وهو نجل المرحوم سليم باشا الحجازى أحد قواد الجيش المصرى فى عهد محمد على، تخرج فى مدرسة أركان الحرب، وتثقف ثقافة علمية وحربية عالية، ثم تولى مهمة التدريس فى المدارس الحربية، فكان خير معلم وأستاذ، ثم عين مفتشاً بوزارة المعارف، ثم مديراً للفيوم، ثم رئيساً فخرياً للمحكمة المختلطة، واشتهر بأخلاقه العالية، ووطنيته الصادقة، وشجاعته واستقلاله، كان عالماً واسع الاطلاع، شغوفا بالعلم والأدب، ترك مكتبة حوت نفائس الكتب قديمها وحديثها، وكان من زعماء الضباط الذين ثاروا بوزارة نوبار باشا على عهد الخديو إسماعيل فى فبراير سنة ١٨٧٩، وكان وقتئذ أستاذاً بالمدسة الحربية وقد انتهت هذه الثورة بسقوط وزارة نوبار الأولى[٨]، وكان من أكبر أنصار الفقيد ومعضديه، عرفه منذ كان طالباً بمدرسة الحقوق، وكان واسطة

---

(٨) راجع تفصيل ذلك فى كتابنا (عصر إسماعيل) ج٢ ص٣٠٢ وما بعدها طبعة سابقة.

التعارف بينهما نجله فؤاد سليم، صديق مصطفى الحميم، وقد آنس فيه الاستعداد لبعث الحركة الوطنية، فكان يقول عنه لنجله قبل أن يعظم شأنه: «إنه الشعلة الوطنية المنتظرة»، وقد صحت نبوءته، وحققت الأيام فراسته وصدق نظره، وظل طول حياته معضداً ومؤيداً له فى جهاده، وقد حزن الفقيد لوفاته حزناً عميقاً كان له أثر شديد فى انتكاس صحته أثناء مرضه الأخير».

كتب فى هذا الصدد إلى مدام جولييت آدم بتاريخ ٧ يناير سنة ١٩٠٨ يقول:

«إنى مريض جداً منذ السابع عشر من شهر نوفمبر، وقد بذلت مجهوداً فوق الطاقة لإلقاء خطبتى فى الجمعية العمومية للحزب الوطنى»، إلى أن قال: أما صحتى فهى بين اليأس والرجاء، والأطباء مطمئنون الآن، والسبب فى انتكاسى بعد خطبتى راجع إلى مفاجأة المنون صديقاً لى حميماً كان من أشد وأكبر نصرائى وهو المرحوم لطيف باشا سليم».

وكانت وفاته قبيل فجر يوم ٢٨ سنة ١٩٠٧، ولم يبلغ الخامسة والخمسين، وقد نعاه مصطفى كامل وهو مريض فقال عنه: «آخانا رحمه الله على صغر سننا، فكان أخاً رؤوفاً وصديقاً حميماً، ومواطناً محباً لبلاده حباً لا قدرة لكاتب أن يصفه»، وقد انتقلت صداقته للفقيد إلى نجله فؤاد باشا سليم رحمه الله، فكان حافظاً لوده وعهده على مر السنين.

على بك فخرى

من أوائل علماء القانون فى النهضة الحديثة، انتظم فى سلك المناصب القضائية وتدرج فيها إلى أن عين رئيساً لنيابة الإسكندرية الأهلية، فكان بحكم منصبه عضواً بمجلسها البلدى، وظهرت هنالك مواهبه من الذكاء والقريحة الوقادة والاستقلال فى الرأى والغيرة على شئون الوطن، وقد برزت شخصيته الساطعة فى المجلس البلدى، وكان يساجل الأعضاء الأوروبيين الرأى ويناقشهم مناقشات ظهرت فيها قوة حجته واحتفاظه بكرامته، فمثل العنصر الوطنى فى المجلس خير تمثيل، ونال احترام زملائه الوطنيين والأجانب؛ وارتقى فى المناصب القضائية فعين قاضياً بالمحاكم المختلطة، ثم مستشاراً بها، وكسب احترام القضاة والمستشارين الأجانب، حتى صاروا يرجعون إلى رأيه فى



علی بك فخری

المشكلات القانونية، وكان من أصدق أصدقاء مصطفى كامل ومن أكبر نصرانه، توفى فى شهر يونيه سنة ١٩٠٦ ولم يكن يبلغ الخمسين من عمره، وقد نعاه مصطفى كامل فى اللواء نعياً مؤثراً دل على أنه من أقطاب الحركة الوطنية، سماه (فقيد الوطن والبلاد)، ويعد نعيه صفحة حية من التاريخ الوطنى، ومن أبلغ ما كتب المترجم، قال: «إن الفقيد كان أخاً لنا، نسترشد برأيه، ونعتمد على فكره، ونعتز بوجوده، ونفتخر بعلمه وفضله، وطنيته وحميته، وعواطفه الحية السامية، وإحساساته الراقية فقدنا بموت ذلك الفقيد العظيم واحداً يفدى بآلاف من الرجال، إذا ذكر العلم كان حامل رايته، وإن ذكر الحق كان أكبر ناصر له، وإن ذكر العدل كان أكبر مشيد لأركانه، وإن ذكرت مكارم الأخلاق كان إنسانها، وإن ذكرت الوطنية كان مثالها، وإن ذكرت البلاد وحقوقها كان أشرف وأصدق خادم لها، فكيف لا يكون مأتمه مأتم القطر وبنيه، والأسف على وفاته فى كل قلب والحداد على موته

فى كل دار؟ ارتبطنا بالفقيد من سنوات طوال برابطة الصداقة والإخاء والاتحاد فى الرأى والفكر والشعور، وهى أمتن الروابط وأقواها، فعرفنا فيه مصرياً لا تهزه الحوادث ولا تثبط عزيمته النوائب، ولا تضعف آماله المصائب، يتقد غيره على مصالح وطنه، ويمسى ويصبح وهو مفكر فى استقلاله وعزه ونعيمه، إذا تكلم عنه سمعت الوطنى الحر الذى امتلأ فؤاده حباً لبلاده وحناناً عليها، كان الفقيد البرهان الحى على كفاءة المصرى وسمو مداركه واستعداد هذا الشعب الكريم، لأن يخرج النابغين من الرجال، كان رحمه الله على جانب عظيم من الدعة ورقة الأخلاق، مع ما اشتهر به من الاستقلال التام فى فكره والمجاهرة برأيه مع كل إنسان وأمام كل إنسان، كنا إذا حادثنا الفقيد شعرنا بارتياح هائل لمحادثته، وأسف عظيم على حالة هذا الوطن العزيز، نرتاح لكلام نابغة عالى الفكر سامى الشعور، طاهر القلب شريف الميول، ونأسف على حالة الوطن لأن الفقيد مع ما أراهُ له من الخدمات الجليلة النادرة كان يستطيع خدمته أكثر من ذلك لو كانت مصر مستقلة، وأمرها بيدها، إن الفقيد مؤهلاً بفطرته وعلومه وأخلاقه وآرائه وهمته واقتداره لأن يكون من أكبر قادة الأمم وباعثي روح الحياة والنهوض فيها، فلذلك كان موته مصاباً جسيماً. مصاباً لنا بالذات نعزى فيه، لأننا فقدنا أخاً حقيقياً لا يعوض، ومصاباً لكل مصرى، لأن الوطن فقد بموته واحداً يشرفه ويرفع قدره ويسليه بعلم وعمله على همومه ومصائبه الجسام».

أصدقاؤه وأنصاره

لا سبيل إلى أن نحصر هنا بقية أصدقاء الفقيد وأنصاره جميعهم، وإنما نذكر على سبيل المثال من وعتهم الذاكرة؛ وهم (عدا من ذكرنا): الأمير محمد إبراهيم (انظر ص ١٦٦) الأمير حيدر فاضل . فؤاد بك سليم (باشا). عمر بك سلطان (باشا). على فهمى كامل شقيق الفقيد. إسماعيل بك شيمى. الدكتور محمود بك لبيب محرم. الدكتور صادق رمضان. على بك حسنى المصرى. عمر بك لطفى. محمود بك سالم. عبد المجيد بك رضوان رئيس نيابة مصر (توفى فى يناير سنة ١٩٠٤). الأستاذ ويصا واصف (رئيس مجلس النواب الأسبق). مرقص بك حنا (باشا). رضوان بك شريف. أحمد فائق باشا. حسن باشا حارس. إسماعيل باشا محمد رئيس مجلس شورى القوانين. عبد الحميد صادق باش

رئيس مجلس شورى القوانين. يوسف صديق باشا. الفريق حسن باشا رضوان. الدكتور حسن باشا محمود. محمد بك طلعت بك حرب (باشا). عزت بك شكرى. أحمد بك الصوفانى. عبد اللطيف بك الصوفانى. عبد الحميد بك عمار. عبد الرحيم بك أحمد. أحمد بك يحيى (باشا). أمين بك يحيى (باشا). عبد الفتاح بك يحيى (باشا). حسين بك القرشوللى. مصطفى بك سرى. عثمان بك لبيب. محمود أنيس. مصطفى بك نجيب (مؤلف كتاب حما الإسلام). عبد الخالق بك ثروت (باشا). حسين رشدى باشا. محمد بك سعيد (باشا). حسين بك حسنى العمرى. عبد الباقى بك العمرى. الشيخ عبد العزيز جاويش. الشيخ عبد المجيد اللبان. محمد ماهر باشا. إسماعيل بك صدقى (باشا). سيد باشا شكرى. على باشا آصف. الدكتور محمود بك ناشد. الدكتور حسين يسرى بك. سيف الله باشا يسرى. الدكتور إسماعيل صدقى بك. الدكتور محمود عبد الوهاب بك. حسن باشا عاصم. حسين باشا واصف. الشيخ عبد الوهاب النجار. إسماعيل بك حافظ. الدكتور على بك سلام (الإسكندرية). مصطفى بك عزت. الأستاذ دافيد حزان. الأستاذ محمد بك توفيق. عبد القادر بك الغريانى. محمد بك أسعد. محمد بك حسنى يكن. عثمان باشا ماهر. عبد العزيز بك فريد. الدكتور أحمد على. محمود بك حسيب. شمس الدين بك حموده إسماعيل بك لبيب. محمد بك فهمى حسين. محمود بك أبو النصر. محمد خلوصى بك. عبد الله بك طلعت. إبراهيم أفندى حافظ. يوسف بك ذهنى. على بك حشمت. محمد بك رشوان. الشيخ مصطفى القاياتى. الشيخ محمود أبو العيون. على بك لهيطة. يوسف بك حافظ. إبراهيم بك حفظى. إسماعيل بك الملوانى. محمد عبد اللطيف الصيدلى. الدكتور محمد بك على دويدار. محمود بك فهمى حسين. الدكتور أحمد فهمى الجهينى. الدكتور نصر فريد بك. الحسينى أفندى العسقلانى. على بك المنزلاوى. محمود بك الشيشينى. حسن بك خيرى (باشا). محمد توحيد بك السلحدار. محمد بك أحمد الشريف. مصطفى بك الخادم. محمد بك توفيق زاهر. الدكتور عبد العزيز نظمى بك. الأستاذ محمد بك رمضان. محمد على علوية باشا. إسماعيل أفندى كامل. مصطفى بك رشيد. أحمد بك حجازى. حسن محسن باشا. عثمان بك أبو شنب. حسن بك جمجوم. توفيق بك حموده. حافظ أفندى مصطفى. سعيد بك طليمات. الدكتور السيد بك رفعت. محمد أفندى لمعى المهندس. عبد الخالق مدكور باشا. محمد بك على دولار. حسن بك حمدى. الدكتور محجوب ثابت. الشيخ محمد رفعت. محمد بك حبيب المهندس.

الأستاذ محمود بسيونى (رئيس مجلس الشيوخ الأسبق). حسن بك نبيه المصرى (وكيل مجلس الشيوخ الأسبق). الدكتور أحمد بك السعيد (أسيوط). الأستاذ محمد كامل مرتجى. أمين بك إسماعيل. الأستاذ حسن عبد المعطى. الأميرالاى محمود بك حلمى إسماعيل. الأميرالاى على بك إسماعيل. محمود بك محرم رستم. محمد بك لبيب البتانونى. حسن بك رضا. بشارة باشا تقلا. الأستاذ داود بركات. جبرائيل تقلا بك (باشا). فؤاد بك حسيب. انطون بك الجميل. حافظ بك المنشاوى. محمد بك فؤاد المنشاوى. يوسف بك المنشاوى. السيد رضوان جلال وأخوه عثمان أفندى جلال (رئيس قلم قضايا السكة الحديد). على بك أبو الفتوح (باشا). محمد أبو الفتوح باشا. إسماعيل بك العسيلى. خليل بك محمود الفلكى. إسماعيل بك صادق. مصطفى بك الشوربجى (من أعيان بريم). الشيخ على الغاياتى. محمد كامل بخاتى بك. محمد أفندى الكلزه. محمود أفندى السخاوى. محمود أفندى على منصور. الشيخ حسن خفاجى (الإسكندرية). سينوت بك حنا. عزيز بك خانكى. الياس بك عوض. سليمان بك العبانى. الأستاذ أحمد الصدر. بيومى أفندى محمود. محمود أفندى على ناصر. الشيخ صالح الشهابى. إبراهيم عبد الواحد . الشيخ محمود عبد الغنى. محمد عبد الكريم (سيدى جابر). حسن أفندى سيف. عبد الله بك محمد الصيدلى. شعبان أفندى خليفة. أحمد أفندى إبراهيم القويضى. محمود أفندى كمال. محمد عبد القادر القط. محمد أفندى عبد اللطيف التاجر. عبد الرازق أفندى الحبشى. صالح بك القاضى. السيد أفندى الشنيطى. إبراهيم أفندى أنيس. محمد أفندى بسيونى طنش. على أفندى أبو النظر. محمد أفندى رشدى. السيد أفندى الخطيب. محمد أفندى مرسى النحاس. عبد اللطيف أفندى الصاوى. اليوزباشى محمود لطفى الأزميرلى. شيخ العرب سليمان على مطيريد الخ.

تلاميذه

نقصد بتلاميذه من أدركوه واعتنقوا مبادئه أو اقتبسوا من روحه الوطنية (ولو إلى وقت محدود)، وهم أيضا لا سبيل إلى حصرهم، ولكننا نذكر من تحضرنا أسماؤهم، وسنرتبهم قدر ما استطعنا بحسب طبقاتهم وهم:

أحمد حلمى المحرر باللواء، مصطفى بك النحاس (باشا)[٩]، الأستاذ عبد القادر حمزه (باشا)، محمد بك حافظ رمضان (باشا) على بك الشمسى (باشا) أمين أفندى عمر، سيد أفندى على، الأستاذ محمد صادق عنبر، الأستاذ حسين فهمى بهجت، محمود خيرى باشا، الأستاذ محمد لطفى جمعة، أمين بك الرافعى، الأستاذ أحمد وجدى، عبد الرحمن بك الرافعى، الدكتور عبدالحميد سعيد، الأستاذ أحمد وفيق، الدكتور حافظ عفيفى باشا، مصطفى بك الشوربجى، محمد زكى على باشا، الأستاذ عبدالمقصود متولى، الدكتور عبدالغفار متولى، ابراهيم بك راتب، الدكتور بك سلطان، الدكتور منصور بك فهمى، الأستاذ محمود عزمى، الأستاذ أحمد فايق، الدكتور عبدالحميد أبوهيف بك، عبدالسلام بك ذهنى، محمد بك صادق جلال، إمام واكد، حامد بك العلايلى، الأستاذ حسن حسنى، محمد بك فؤاد حمدى، الدكتور أحمد فؤاد، عبد الملك بك حمزة، اسماعيل بك كامل، اسماعيل بك شيرين، حسين بك شيرين، كمال بك الخشن، الأمير أفندى العطار، أحمد بك فهمى القطان، محمد على المهندس، عوض بك البحراوى. عبد الرحمن عزام باشا. الدكتور سيد سليمان عبدالحميد باشا. أحمد مختار المهندس، الأستاذ ابراهيم عبدالقادر المازنى، الأستاذ على فهمى خليل. الأستاذ حسن شافعى الجيزاوى. الدكتور منصور رفعت . ابراهيم بك دسوقى أباظة. عبدالخالق عطية. الدكتور شفيق منصور. الأستاذ محمود خيرت. الدكتور عبد العزيز عمران. الأستاذ عبد الوهاب البرعى. الدكتور يحى الدرديرى. عمر بك عارف. الدكتور منصور القاضى. الدكتور حسين همت. الدكتور أحمد توفيق. الأستاذ اسماعيل مظهر. الأستاذ محمود العمرى. على بك مراد. هاشم بك مهنا. الأستاذ محمد عرارجى. الأستاذ سليمان حافظ. أحمد أفندى رمضان زيان. محمد أفندى فهمى بشير. الشيخ عبدالباقى نعيم سرور. الأستاذ محمود رمزى نظيم. محمد أفندى عوض جبريل، الأستاذ عبدالوهاب على. عبدالله أفندى حسن عوض. الدكتور منصور القاضى. المرحوم على أفندى صادق (الإسكندرية)... إلخ

---

(٩) كان مصطفى بك النحاس (باشا) وهو قاض بالمحاكم الأهلية، يفخر باعتناق مبادىء الحزب الوطنى، وقد انتخب من أجل ذلك وكيلا لنادى بالمدارس العليا، وفى سنة ١٩٢٨ اختاره الوفد المصرى عضوا فيه باعتباره ممثلا للحزب الوطنى هو والدكتور حافظ بك عفيفى (باشا).

معاصروه من الشعراء والأدباء

كان لظهور الدعوة الوطنية التى بثها مصطفى كامل أثر كبير فى تطور الشعر فى مصر، واتجاهه إلى الناحية الوطنية، التى لم يطرقها الشعراء من قبل، وبدا الاتجاه فى قصائد فحول الشعراء المعاصرين للمترجم، فإن قرائحهم، بتأثير دعوة الفقيد، قد فاضت بالشعر الوطنى، وسارت النهضة الأدبية إلى الأدبية إلى جانب النهضة الوطنية، تغذيها وتؤيدها، وتسجل حوادثها، وتعبر عن آلامها وآمالها، وردد الشعر صدى الحركة السياسية فى الحوادث الهامة.

حافظ إبراهيم

فمن ذلك أن حادثة دنشواى لقيت صداها فى شعر حافظ إبراهيم، فأنشأ فى يوليه سنة ١٩٠٦ قصيدته المشهورة عن الحادثة، ندد فيها بسياسة الاحتلال، وقال فى مطلعها مخاطباً المحتلين:

قصيدة حافظ فى حادثة دنشواى

أيها القائمون بالأمر فينا ... هل نسيتم ولاءنا والودادا
خَفِّضوا جيشكم وناموا هنيئاً ... وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا
وإذا أعوزتُكم ذاتُ طوقٍ[١٠] ... بين تلك الرُّبا فصيدوا العبادا
إنما نحن والحمامُ سواءٌ ... لم تغادر أطواقُنا الأجيادا[١١]
لا تظنوا بنا العقوقَ ولكن ... أرشِدونا إذا ضللنا الرشادا
لا تقيدوا من أمة بقتيلٍ ... صادت الشمس نفسَه حين صادا[١٢]

---

(١٠) ذات طوق: أى الحمامة.
(١١) يريد بالأطواق هنا سلاسل الأسر والاستعباد، والأجياد الأعناق جمع جيد.
(١٢) أى لا تأخذوا الأمة بقتيل ثبت أنه مات بضربة الشمس وهو الكبتن بول (انظر ص ٢٠٧)، وأقاد الحاكم القاتل القتيل أى قتله به قودا.

وقال يصف الحادثة وفظائع المحاكمة والتنفيذ:

جاء جُهّالُنا بأمرٍ وجئتم ضِعفَ ضعفيه قسوةً واشتدادا
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفوٍ أقصاصاً أردتُم أم كيادا
أحسنوا القتل إن ضننتم بعفوٍ أنفوساً أصبتُمُ أم جمادا
ليت شعري أتلك محكمة التفـ ـتيش عادت أم عهد (نيرون) عادا
كيف يحلو من القوى التشفّى من ضعيفٍ ألقى إليه القيادا
إنها مُثلةٌ تَشُفّ عن الغيـ ـظ ولسنا لغيظكم أندادا
أكرمونا بأرضنا حيث كنتم إنما يكرم الجوادُ الجوادا

وقد كان الفقيد شديد الإعجاب بشعر حافظ وأدبه، وعندما ظهر الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠١، قرظه فى اللواء[١٣] تقريظاً يدل على عظم تقديره لشاعر النيل، وأسهب فى الثناء عليه حين عرب كتاب «البؤساء» سنة ١٩٠٣.

قصيدة حافظ فى حفلة مدرسة مصطفى كامل

وكان حافظ معجباً بوطنية مصطفى كامل، رغم صداقته وصلته بخصومه السياسيين، وظهر إعجابه به وتأييده له بكل جوارحه فى قصيدته التى ألقاها يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٠٦ فى احتفال مدرسة مصطفى كامل، تعليقاً على خطبة الفقيد، قال فى مطلعها:

سمِعنا حديثاً[١٤] كقطْر الندى فجدّد فى النفس ما جددا
أضحى لآمالنا منعِشاً وأمسى لآلامنا مُرْقِدا

وقال يستثير فى النفوس روح الأمل والحياة وهى الدعوة المحببة إلى الفقيد:

فديناكَ ياشرقُ لاتجزعنْ إذا اليومُ ولَّى فراقبْ غدا
فكم محنةٍ أعقبتْ محنةً وولّت سِراعاً كرجْعِ الصدى
فلا يُنْسنّك قيلُ العداة وإن كان قيلا كحَزّ المُدى[١٥]

(١٣) عدد ٩ أكتوبر سنة ١٩٠١.
(١٤) يقصد خطبة مصطفى كامل فى الحفلة.
(١٥) المدى بالضم جمع مدية وهى السكين.

أتـودَع فيـك كنـوزُ العـلوم ويمشى لـك الغرب مسترفـدا[١٦]
وتُبعثُ فى أرضـك الأنبيـاءُ ويـأتى لـك الغـرب مسترشـدا
وتقضى عليـكَ قضـاةُ الضـلال طِـوالَ الليـالى بـأن ترقُـدا؟
أتَشْقـى بعهـد سـما بـالعلوم فـأضحى الضعيفُ بها أيِّـدا[١٧]
إذا شـاء بَـزَّ السُّهـا سِـرَّه وأدرك من جَـرْيه المقصِـدا[١٨]
وإن شـاء أدنى إليـه النجـوم فنـاجى المَجَـرَّةَ والفـرقَـدا[١٩]
وإن شـاء زعـزع شُمَّ الجبـال فـخـرت لأقـدامـه سُـجَّـدا
وإن شـاء شـاهـد فى ذَرَّة عـوالم لم تُحْـصَ فيهـا سـدى
زمـانٌ تُسخَّـرُ فيـه الـريـاح ويَغْـدو الجمادُ بـه مُنشِـدا[٢٠]
وتَعْنـو الـطبيعـةُ للعـارفـين بمعنى الـوجـود وسِـرِّ الهُـدى
إذا مـا أهـابـوا أجـابَ الحـديدُ وقـام البخـارُ لـه مُسْعِـدا[٢١]
وطـارتْ إليهم من الكهـربـاء بُروقٌ على السِّلك تَطوِى المَدى

* * *

أيَجْملُ من بعد هـذا وذاك بـأن نَستكين وأن نجْمُـدا؟
وها أمّةُ (الصُّفر) قد مَهدت لنا النهجَ فاستبقوا الموردا[٢٢]

وقال فيها مخاطباً الشباب:

فيـا أيها النـاشئـون اعملوا على خير مصر وكونوا يدا
ستُظهِر فيكم ذواتُ الغيوب[٢٣] رجـالاً تكـون لمصـر الفِـدا
فيَـاليت شعـرىَ من منكُم إذا هى نـادت يلبّى النـدا

---

(١٦) مسترفدا أى يطلب الرفد وهو العطاء.
(١٧) الأيد بتشديد الياء القوى من الأيد بمعنى القوة.
(١٨) بزه سلبه والسها الكوكب المعروف، أى إذا شاء ذو العلم سلب من السهار سره وأظهره للناس.
(١٩) المجرة والفرقد نجوم فى السماء.
(٢٠) يشير إلى الطيران والفونوغراف.
(٢١) مسعدا أى معينا.
(٢٢) أمة الصفر أى اليابان.
(٢٣) ذوات الغيوب أى الأقدار التى فى عالم الغيب.

وقال فى ختامها مخاطباً مصطفى كامل:

لَكَ الله يا (مصطفى) من فتى	كثير الأيادى كثير العدا
إذا ما حمدتُكَ بين الرجال	فأنت الخليقُ بأن تحمدا
سيُحصِى عليه سجلُّ الزمان	ثناءً يخلد ماخُلِّدا
ويهتف باسمك أبناؤنا	إذا آن للزرع أن يُحصدا

والقصيدة من أبلغ شعر حافظ، وتأمل فى البيت الأخير منها تجد حافظاً يقر لمصطفى كامل بأنه الموجد للحركة الوطنية، وأنه الجدير بأن تعرف الأمة له هذا الفضل عندما تجنى ثمار هذه الحركة، وقد ظل على هذا الرأى بعد وفاة الفقيد وبعد ظهور زعامة سعد زغلول للحركة الوطنية سنة ١٩١٨، وجهر به فى رثائه للمغفور له محمد فريد فى ديسمبر ١٩١٩، إذ قال مناجياً روح فريد:

قُلْ (لصَبِّ النيل[٢٤]) إن لاقيتَه	فى جوار الدائم الفرد الصَّمد
إن مصراً لاتِنى عن قصدها	رغم ماتلقى وإن طال الأمدْ
جئت عنها أحمل البشرى إلى	(أول البانين) فى هذا البلدْ
فاسترح واهنأ ونَمْ فى غِبطةٍ	قد بذرتَ الحبَّ والشعبُ حَصَدْ

فحافظ يعترف هنا أيضاً لمصطفى كامل بأنه أول البانين فى صرح الحركة الوطنية، وبأنه بذر الحب وأن الشعب حصد وجنى ثمار مابذر، ورأى حافظ سنة ١٩١٩ هو تأييد وتوكيد لرأيه سنة ١٩٠٦

واقتبس حافظ من روح مصطفى، وأيده فى دعوته الوطنية، وردّد صداها فى شعره، اعتبرْ ذلك فى قصيدته عن حادثة دنشواى (ص ٣٨٧) وقصيدته فى حفلة مدرسة مصطفى كامل (ص ٣٨٨) ثم، قصيدته فى استقبال اللورد كرومر عند عودته إلى مصر فى أكتوبر سنة ١٩٠٦، بعد حادثة دنشواى، قال:

---

(٢٤) يريد مصطفى كامل.

قصيدة حافظ فى استقبال اللورد كرومر

بعد حادثة دنشواى

(قصرَ الدوبارة[٢٥] هل أتاك حديثُنا ... فالشرقُ رِيعَ له وَضجَّ المغربُ

أهلًا بساكنك الكريم ومَرحباً ... بعـد التحيـة إنـنى أتَعتَّب

نقلت لنا الأسلاكُ عنك رسالةً ... بـاتَتْ لهـا أحشـاؤنـا تـتلهّـب

إلى أن قال:

إنْ ضاقَ صدرُ النيل عمّا هاله ... يوم الحَمام[٢٦] فإن صدرك أرحب

أو كلما باح الحزين بـأنّـة ... أمْسَت إلى معنى التعَصّب تُنسب[٢٧]

رفقـاً عميدَ الـدولتـين بـأمة ... ضاق الرجاء بها وضاق المذهب

رفقـاً عميد الـدولتـين بـأمة ... ليست بغـير ولائهـا تتعـذب

إن أرهقـوا صيّـادكم فلعلهم ... للقوت لا للمسلمين تعصبـوا

ولـربمـا .ضنَّ الفقـيرُ بقـوتـه ... وسخا بمهجته على من يَغصب

فى (دنشواى) وأنت عنا غائب ... لَعِب القضاءُ بنا وعزَّ المهرب

حَسِبوا النفوسَ من الحمام بديلةً ... فتسابقوا فى صيدهن وصوَّبوا

نُكبوا وأقفرت المنازل بعدَهم ... لو كنتَ حاضَر أمرهم لم يُنكبوا

خَلَّيتهم والقاسطون[٢٨] بمرصدٍ ... وسِيـاطهم وحبـالهم تتـأهب

جُلدوا ولـو منّيتهم لتعلقـوا ... بحبال من شُنِقوا ولم يتهيَّبوا

شُنِقـوا ولـو منحـوا لأهَّلوا ... بلَظى سياط الجالدين ورحّبوا[٢٩]

يتحاسدون على الممات وكأسه ... بـين الشفاهِ وطعمـه لايعَذُب

مـوتان: هـذا عاجـلٌ متنمِّرٌ ... يـرْنو، وهـذا آجـل يتـرقّب

---

(٢٥) يريد قصر المعتمد البريطانى.

(٢٦) يوم الحمام يوم صيد الحمام فى حادثة دنشواى.

(٢٧) يشير إلى مازعم اللورد كرومر من أن التعصب الدينى هو سبب حادثة دنشواى.

(٢٨) القاسطون الظالمون.

(٢٩) أهلوا ورحبوا أى قالو أهلا ومرحبا.

والمستشـار ـمكـابِـرٌ بـرجـالـه ومعـاجزٌ ومنـاجز ومُحـزب[٣٠]
يختـالُ فى أنحـائهـا متبسـمًا والدمع حـول ركابـه يتصبب
طاحوا بأربعةٍ فأردوا خامسـا هو خير ما يرجو العميد ويطْلب
حبٌّ يحاولُ غرسه فى أنفس يُجنَى بعـرسها الثنـاءُ الطيب
كن كيف شئتَ ولا تكل أرواحنا للمستشار فإن عدلك أخصب
وأفِضْ على (بُندٍ) إذا ولى القضا رفقاً يهشّ له القضاء ويطرَب

وقصيدته فى شكوى مصر من الاحتلال وقد نشرت فى يناير سنة ١٩٠٧ قال:

قصيدة حافظ فى شكوى مصر من الاحتلال

لقد كان فينا الظلْمُ فوضى فهذِّبَتْ حواشيه حتى بات ظلماً منظما
تمنُّ علينا اليوم أن أخصب الثرى وأن أصبح المصرىُّ حُراً منعما
أعِدْ عهد (اسماعيل) جَلْداً وسخرة فإنى رأيتُ المَنَّ أنكى وآلما
عملتم على عِزِّ الجماد وذلّنا فأغليتُم طيناً وأرْخصتُم دما
إذا أخصبتْ أرضٌ وأجدب أهلها فلا أطلعَتْ نبتاً ولا جادَها السَّما
نَهشُ إلى الدينار حتى إذا مشى به ربه للسوق ألفاهُ درهما
فلا تحسبوا فى وَفرة المال - لم تُفدْ متاعاً ولم تعصم من الفقر - مَغنما
فإن كثير المالِ - والخفضُ وارفٌ - قليلٌ إذا حلَّ الغلاءُ وخَيَّما[٣١]

وقصيدته التى قالها عند استقالة اللورد كرومر فى أبريل سنة ١٩٠٧، قال فيها:

قصيدة حافظ فى استقالة اللورد كرومر

فَتى الشعر هذا موطن الصدق والهُدى فلا تكذب التاريخ إن كنت منشدا

---

(٣٠) يريد الكبتن متشل مستشار وزارة الداخلية وكان يشرف على تنفيذ الحكم، ومعاجز من عاجزت الرجل إذا أتيت بما يجعله عاجزا، وحزب أى جمع أعوانه وأحزابه فبعضهم يتولى الشنق والبعض يتولى الجلد.

(٣١) الخفض سعة العيش يريد أن كثرة المال مع غلاء الأسعار لا تغنى شيئا.

لقد حان توديع العميد وإنه — حقيقٌ بتشييع المحبين والعِدا
فودّع لنا الطودَ الذى كان شامخا — وشيِّع لنا البحرَ الذى كان مزبِدا

إلى أن قال:

يناديكَ قد أزريت بالعلم والحجا — ولم تُبقِ للتعليم يا (لورد) مَعهدا
وأنـك أخصبتَ البلادَ تعمُّـدا — وأجدبت فى مصر العقول تعمُّدا
قضيتَ على أمّ اللغات وإنه — قضاءٌ علينا أو سبيلٌ إلى الردى(٣٢)
ووافيتَ والقطران فى ظل رايةٍ — فمازلت (بالسودان) حتى تمردا(٣٣)
فطاح كما طاحت (مصوَّع) بعده — وضاعت مساعينا بأطماعكم سدى
حجَبْتَ ضياء الصحف عن ظُلماته — ولم تستقلحتى حجبْتَ (المؤيدا)(٣٤)
وأودعتَ تقرير الوداع مغامزاً — رأينـا جَفاء الـطبـع فيهـا مُجَّسـدا
غمزتَ بها دينَ النبى وإننا — لنغضبُ إن أغضبتَفى القبر (أحمدا)
يناديك أين النابغون بعهدكم — وأى بناء شامـخ قد تجـددا
فما عهد (اسماعيل) والعيش ضيقٌ — بأجدب من عهد لكم سال عَسْجدا
يُناديكَ ولَّيتَ الوزارة هيئةً(٣٥) — من الصُّمْ لم تَسمع لأصواتنا صدى
فليس بها عند التشاور من فتًى — أبِيّ إذا ما أصدر الأمر أوردا
بربك ماذا صدَّنا ولوى بنـا — عن القصد إن كان السبيل ممهدا؟
أشرت برأى فى كتابك لم يكن — سديداً ولكن كان سهماً مسددا
وحاولت إعطاء الغريبِ مكانةً — تجر علينا الويلَ والذُّلّ سرمدا
فياويل مصر يوم تشقَى بندوةٍ — يبيتُ بها ذاك الغريب مُسَوَّدا(٣٦)
ألم يكفنا أنا سُلِبنا ضياعَنـا — على حين لم نبلغ من الفِطنة المدى
وزاحَمنا فى العيش كل ممارسٍ — خبـير وكنـا جـاهلين ورُقَّـدا
وما الشركاتُ السودُ فى كل بلدة — سوى شركٍ يُلْقى به من تَصَيّدَا

---

(٣٢) أم اللغات أى اللغة العربية ويشير إلى محاربة الاحتلال للغة العربية وجعل دراسة العلوم فى أكثر المدارس باللغة الإنجليزية.

(٣٣) وافيت أى جئت، والقطران أى مصر والسودان.

(٣٤) ظلماته أى ظلمات السودان وحجبت المؤيد أى منعته عن دخول السودان

(٣٥) وزارة مصطفى فهمى.

(٣٦) يشير إلى مشروع اللورد كرومر فى إنشاء مجلس تشريعى مختلط.

ويبدو مبلغ تقدير حافظ للففيد فى قصيدته التى ألقاها على قبره يوم تشييع جنازة الزعيم، وقصيدته فى حفلة الأربعين (وقد نشرناهما ص ٢٨٩ و ٢٩٠).

وله قصيدة ثالثة ألقاها عند قبره يوم ١١ فبراير سنة ١٩٠٩ فى الاحتفال بإحياء ذكراه الأولى، وهى من أبلغ روائع الشعر العربى، فال فيها:

قصيدة حافظ فى الذكرى الأولى للفقيد

طُوفوا بأركان هذا القبر واستلموا[٣٧]	واقضوا هنالك ما تقضى به الذممُ
هُنا جنانٌ تعالى الله بارئه	ضاقت بآماله الأقدارُ والهمم
هنا فمٌ وبنانٌ لاج بينهما	فى النسرق فجرٌ تحيى ضوءه الأمم
هنا فمٌ وبنانٌ طالما نثرا	نثراً نسيرُ به الأمثالُ والحِكَم
هنا الكميُّ[٣٨] الذى شادتْ عزائمهُ	لطالب الحق رُكناً ليس ينهدم
هنا الشهيدُ، هنا ربُّ اللواء، هنا	حامى الذِّمارهنا الشهْمُ الذى علموا

* * *

يا أيها النائم الهانى بمضجَعه	ليَهْنَكَ النومُ لا همٌّ ولا سَقَم
بَاتَتْ تسائلنا فى كلِّ نازله	عَنْكَ المنابرُ والقِرْطَاسُ والقَلَم
تركْتَ فينا فرَاغاً ليسَ يَشْغَلُه	إلا أبىٌّ ذكىُّ القلب مضطَرِم
منفَّر النوم[٣٩] سَبَّاقٌ لغايته	آثاره عَمَمٌ - آمالُه أُمَمُ

* * *

إنى أرَى وفؤادى ليس يكذبنى	رُوحاً يَحُفُّ بها الإكبارُ والعِظَم
أرَى جلالاً، أرَى نوراً، أرَى مَلَكاً،	أرَى مُحيًّا يحيّينا ويبتسم
الله أكبرُ، هذا الوَجْهُ أعْرِفُه	هذا فتى النِّيل، هذا المُفْرد العَلَم

(٣٧) استلم القبر قبله أو لمسة بيده.
(٣٨) الشجاع.
(٣٩) منفر النوم أى مسهد.

غُضّـوا العُيُونَ وحَيُّـوه تحيَّتَه من القُلُوب إذا لم تُسْعِد[٤٠] الكَلِم
وأقسِمُوا أنْ تذودوا عن مبادئه فنحنُ فى موقف يحلو به القسم

* * *

لَبَّيْكَ، نحن الألى حركْتَ أنفسَهم لما سكنْتَ ولما غالك العَدَمُ
جئنا نُؤَدِّى حساباً. عن مواقفنا ونستمدُّ ونستَعْدِى[٤١] ونحتكم
قيل اسكُتوا فسكَتْنَا ثم أنطقنا عسفُ الْجفَاة[٤٢] وأعلى صوتنا الألم
قد اتَّهِمْنَا ولما نَطَّلِبْ جَلَلاً إن الضعيفَ على الحالَين مُتَّهم
قالوا لقد ظَلَمُوا بالْحقِّ أنفُسَهُمْ والله يَعْلَمُ أن الظالمين هُمُ
إذا سَكَتْنَا تَنَاجَوْا: تلك عَادَتَهمْ وإنْ نَطقنا تَنَادَوْا: فِتْنَةٌ عَمَم
قد مَرَّ عَامٌ بِنَا والأمْرُ يَحْزُبُنَا[٤٣] آنـاً، وآونـةً تَنْتَابُنا النِّقَم
فالناسُ فى شِدَّةٍ والدَّهْرُ فى كَلَبٍ[٤٤] والعَيْشُ قد حَارَ فيه الْحَاذِقُ الفهم
وللسياسة فينا كلَّ آونةٍ لَوْنٌ جديدٌ وعَهْدٌ ليس يُحْتَرم
بينا نرَى جَمْرَها تُخشى مَلاَمسه إذا به عند لَمْسِ الْمُصْطَلى فَحَم
تصغى لأصواتنا طوراً لتخدَعنا وتَارَةً يُزْدَهيها الكِبْرُ والصَّمَم
فمن مُلاَيَنَةٍ أسْتَارُها خَدَعٌ إلى مُصَالبةٍ أسْتَارُها وَهَمِ
ماذا يريدون[٤٥]؟ لا قرّت عيونهم إن الكنانة لا يُطْوَى لها عَلَم
كم أمة رغبتْ فيها فما رسخت لها – على حولها[٤٦] – فى أرضها قَدَم
ما كان ربكَ، ربُّ البيت، تاركها وهى التى بحبالٍ منه تَعْتصم
لبيك إنَّا على ما كنت تعهده حتى نَسُود وحتى تشهد الأمم
فيعْلَم النيل أنَّا خيرُ من وَرَدُوا ويستطيل اختيالاً ذلك الهرم

(٤٠) أسعده أعانه.
(٤١) نستمد نطلب المدد، ونستعدى نستنصر.
(٤٢) يريد بالجفاة المحتلين.
(٤٣) حزبه الأمر: اشتد عليه.
(٤٤) الكلب: الشدة.
(٤٥) يريد المحتلين.
(٤٦) الحول: القوة.

إلى أن قال:

يا أيها النشء، سِيرُوا فى طريقته وثابرُوا، رضىَ الأعْـدَاءُ أو نقمُوا

فكلكم (مصطفى) لو سَارَ سيرتَهُ وكلكم (كامل) لو جازه[٤٧] السَّأم

قد كان لا وانياً يوماً ولا وَكِلاً[٤٨] يستقبـل الخـطب بَسَّـامـاً ويقتحم

وأنت يا قبر قد جئنا على ظمأ فجدْ لنا بجواب، جادك الدِّيم[٤٩]

أين الشبابُ الذى أودعتَ نضرته أين الخلال - رعاك الله - والشيم؟

ومـا صنعت بآمـالٍ لنـا طُـوِيت يا قبرُ فيكَ وعفَّى رسمها القِدَم؟

ألا جوابٌ يرَوِّى من جـوانحنا؟ مـا للقُبُـور إذا نُـودِيت تجِمُ[٥٠]

نم أنْتَ، يكفيك ما عانيت من تعب فنحنُ فى يَقـظَةٍ والشمـلُ ملتئم

هـذا (لـواؤك) خَفَّـاقٌ يـظللنـا وذاك شخصك فى الأكباد مُرْتسم[٥١]

شوقى

أما شوقى، أمير الشعراء، فقد كان صديقاً حميماً للفقيد، وكلاهما معجب بصاحبه أيما إعجاب، ولا غرو فهما صنوان، وفرسا رهان، هذا فى ميدان الوطنية والجهاد، وذاك فى دولة الشعر والبيان، وكان الفقيد يصف شوقى بأنه «الغدير الصافى فى ألفاف الغاب، يسقى الأرض ولا يبصره الناظرون»، وكان يخصص لقصائده أسمى مكان فى اللواء، وفى ذلك يقول فى مرثاته الخالدة:

قد كنت تهتف فى الورَى بقصائدى وتجِـلّ فـوقَ النَيِّـرين مكـانى

وزار الفقيد وهو على فراش مرضه الأخير، فطلب إليه أن يرثيه، وفى ذلك يقول:

وجعلْتَ تسـألنى الـرِّثـاء فهـاكـه من أدْمُعى وسَـرَائـرى وجنـانى

---

(٤٧) جازه أى جاوزه.

(٤٨) الوكل العاجز الذى يكل الأمر إلى غيره.

(٤٩) الديم جمع ديمة السحاب.

(٥٠) وجم يجِم سكت عن الكلام.

(٥١) توفى حافظ إبراهيم «شاعر النيل» فى يوليه سنة ١٩٣٢.

وكان لدعوة مصطفى كامل أثرها فى شعر شوقى، فمن ذلك أنه لما دعا الأمة سنة ١٩٠٢ إلى الاحتفال بالعيد المئينى لولاية محمد على (ص ١٦٧)، لبى شوقى نداءه، وأنشأ فى مايو سنة ١٩٠٢ قصيدة من غرر قصائده، تخليداً لهذا العيد[٥٢]، قال فيها مناجياً روح محمد على:

قصيدة شوقى فى الاحتفال بالعيد المئينى لولاية محمد على

عَلَمٌ أنْتَ فى المشارق مُفردْ ... لكَ فى العالمين ذكرٌ مُخَلّدْ
حَبّذا دولةٌ ومُلكٌ كبيرٌ ... أنتَ بَانى ركنيهما يَا محمد
ولِوَاءٌ فى البَرِّ والبحر يُعطى ... مظهر الشمْسِ فى الوُجُود وأزيد
تُدْخِلُ الأرض فيه قُطراً فَقُطراً ... مُدْخَلَ الناس فى شريعة أحمد
تملأ الأرض صافِنَاتٍ وتجْرى ... لك فى البحرِ كلُّ برج مُشَيَّد
هكذا فليَنلْ سماء المعالى ... من سعى فى الورَى لمجد وسؤدد
همةٌ تبتنى الممالك شما ... ءَ ورَأىٌ يسوسهن مُسَدّد
وثباتٌ فى الحادثاتِ وعزمٌ ... مِثْلُ ريب الزَّمان لا يَترَدّد
تضع السيف موضعاً يرْتَضِيه ... ومن البأس ما يذمُّ ويُحْمَد
وتَصُون النوالَ عن حُسْن صُنع ... لكَ يُنسى ونعمةٍ لَكَ تجحد
لا تُبَالى بحاسِد وعَدُو ... آية الفضل أن تُعادى وتحسد
همةُ الفاتحين حكمٌ وقهرٌ ... ولكَ الهمة التى هى أبعد
ليس من يفتح البلاد لتشقى ... مثل من يفتح البلاد لتسعد
علمت مصُر والحجاز وأرض الـ ... نّوب والشام أن عهدك عَسجد
أنت إن أحصى النوابغ فى المـ ... ـلك كريمُ الثنا على الدهر أوحد
أيّدتهم قرابةٌ وقبيلٌ ... وأرى الله وحده لك أيّد
فبتولاك والليالى حُبالى ... وتولّاك والحوادثُ تولد
ورمى عنك والملوكُ رماة ... نصفهم واجدون والنصفُ حُسُّد[٥٣]

---

(٥٢) نشرها اللواء فى عدد ٢٢ مايو سنة ١٩٠٢.
(٥٣) واجدون: غاضبون.

ركن مصرٍ أقمت بعد انقضاض أمةً جُمِّعت وأمر توحد

* * *

يا مُديم الرقاد فى خير مرقد قم فما حلّ قبلك الأرض فرقد
وانظر الشرق كيف أصبح يهوى وأنظر الغرب كيف أصبح يصعد
وتأملْ ممالكاً وبلاداً لمسَ الدهُر عقدها فتبدد
كنتَ تحميه(٥٤) والسيوفُ عوار من له اليوم بالحسام المجرد؟
ينشر النور والحضارة فيه كلما زُوِّد الشعوب تزوّد
وترى الأمر بين قلبٍ ذكيّ فى يديه وبين جفن مُسهد
يا عصام الملوك هل كنت تسلو عن عروش الملوك أو كنت تزهد
صغَّر الجاهلون بالنفس مسعا ك وعذرُ النفوس فيه ممهدٌ
ما سمعنا بفاتحٍ سلَّ سيفاً يأخذ الملكَ حدُّه ثم أغمد
حالةٌ سامها (الأمينَ) أخوه وأمورٌ بها (أمية) يشهد
ثُبت فى فتنة الحجاز إليهم حين أخمدتها ولم تك تخمد
وأتاهم بعذره لك بيت كلما جنّدوا إلى الحرب جند
يحفظ الملك ملك مصر عليهم جوهراً فوق تاجهم يتوقد
زعموا الشرق من فعالك قَلقَاً وأرى الشرق فى يمينك أقعد(٥٥)
جئته بالحياة والنور والتمـ ـدين والرأى والقنا والمهندّ
كان بين الورى بركن فعزّزْ تَ بشانٍ والركنُ بالركنِ يشتد

* * *

شرفاً فى الزمان آلَ علىٍّ جدّكم سيّدُ الملوك المسوَّد
ارجعوا فى العُلا إليه وروموا نهجه، نهجه الذى كان أقْصد
ألبسوه كما كساكم فخارا كلما رثّت الثياب تجدد
واملأوا مسمع الزمان حديثاً كدوىّ الخضمّ أرغى وأزبد

---

(٥٤) أى الشرق.
(٥٥) أقعد أى أمكن وأثبت.

إنما الناس أمة لا يموتو ... ن وأخرى تمر مرّا وتنفد
وأرى جدَّكم على الدهر حيًّا ... خالدَ الذكر والثناء المردَّد

قصيدة شوقى فى وداع اللورد كرومر

وقال سنة ١٩٠٧ ضمن قصيدته المشهورة فى وداع اللورد كرومر:

أيامُكم أم عهد إسماعيلا ... أم أنت فرعون يسوس النيلا
أم حاكمٌ فى أرض مصر بأمره ... لا سائلا أبداً ولا مسئولا
يا مالكا رقّ الرقاب ببأسه ... هلَّا اتخذت إلى القلوب سبيلا
لما رحلتَ عن البلاد تشهدّت ... فكأنك الداءُ العياء رحيلا
أوسَعْتنا يومَ الودَاع إهانةً ... أدبٌ لعمرك لا يصيبُ مثيلا

إلى أن قال:

أنذرتنا رقًّا يدوم وذِلةً ... تبقى وحالا لا ترى تحويلا
أحسبت أن الله دونك قدرةً ... لا يملك التغيير والتبديلا
الله يحكم فى الملوك ولم تكن ... دولٌ تنازعه القوى لتدولا
فرعونُ قبلك كان أعظمَ سطوةً ... وأعز بين العالمين قبيلا
اليومَ أخلفت الوعودَ حكومةٌ ... كنا نظن عهودَها الإنجيلا
دخلت على حكم الوداد وشَرعه ... مصراً فكانت كالسلال دخولا
هدمت معالمها وهدت ركنها ... وأضاعت استقلالها المأمولا

وقال:

قد مدَّ إسماعيل قبلك للورى ... ظلَّ الحضارة فى البلاد ظليلا
إن قيس فى جود وفى سرف إلى ... ما تنفقون اليوم عدَّ بخيلا
أو كان قد صرع المفتشَ مرةً ... فلكم صرعتَ بدنشواى قتيلا
لا تذكر الكرباج فى أيامه ... من بعد ما أنبتّ فيه ذيولا

قصيدته فى ذكرى دنشواى

وقال سنة ١٩٠٧ عن (ذكرى دنشواى) بعد مرور عام على حادثتها فى سبيل طلب العفو عن سجنائها[٥٦]:

يا دنشوایَ على رباكِ سلامُ	ذهبت بأنس ربوعك الأيامُ
شهداء حُكمك[٥٧] فى البلاد تفرّقوا	هيهات للشمل الشتيت نظام
مرّت عليهم فى اللحود أهلّةٌ	ومضى عليهم فى القيود العام
كيف الأراملُ فيكِ بعد رجالها	وبأىٍّ حال أصبح الأيتام
عشرون بيتاً أقفرت وانتابها	بعد البشاشةِ وحشةٌ وظلام
يا ليت شعرى فى البروج حَمَائم	أم فى البروج منيةٌ وحِمام
(نيرونُ) لو أدركتَ عهد كرومرٍ	لعرفتَ كيف تنفذ الأحكام

* * *

نوحى حمائمَ دنشواى وروّعى	شعباً بوادى النيل ليس ينام
إن نامت الأحياء حالتْ بينه	سَحراً وبين فراشه الأحلام
متوجّعٌ يتمثل اليومَ الذى	ضجّتْ لشدة هوله الأقدام

وتدل مرثاة شوقى على مبلغ ما يكنه للفقيد من الإعجاب والإكبار، وتعد قصيدته أعظم مرثاة فى تاريخ الأدب العربى، وكان لا يفتأ يذكره بعد وفاته فى قصائده، فمن ذلك قصيدته التى نظمها بمناسبة ذكراه السابعة بعنوان (شهيد الحق). تناول فيها وصف ما أصاب البلاد فى سنة ١٩٢٤ من انقسام وتشاحن وتناحر، ثم انتقل من ذلك إلى ذكرى الفقيد فوفاه حقه، قال فى مطلعها:

---

(٥٦) اللواء عدد ٢٧ يونيه سنة ١٩٠٧.

(٥٧) أى حكم المحكمة المخصوصة فى قضية دنشواى.

قصيدة شوقى فى ذكرى الفقيد سنة ١٩٢٥

إلامَ الخلْفُ بينكمـو إلامـا؟ وهذى الضجةُ الكبرى علامـا؟
وفيمَ يكيـدُ بعضكمـو لبعضٍ وتُبـدون العـداوة والخصـامـا؟
وأين الفوز؟ لا مصر استقرت على حالٍ ولا السودان داما

إلى أن قال:

ولَينا الأمرَ حـزباً بعـد حزب فلم نـك مصلحين ولا كراما
جعلنـا الحكم تـوليـةً وعـزلا ولم نَعْدُ الجـزاءَ والانتقـامـا
وسُمْنـا الأمر حين خـلا إلينا بـأهواء النفـوس فما استقاما

وقال ذاكراً مناقب الفقيد:

شهيـدَ الحق قم تـرَه يتيمـا بـأرض ضُيّعتْ فيهـا اليتـامى
أقام على الشفاه بهـا غريبـاً ومرّ على القلوب فما أقاما(٥٨)
سقِمتَ فلم تَبِت نفسٌ بخيـر كـأن بمهجة الـوطن السقـامـا
ولم أر مثلَ نعشك إذ تهادى فغـطّى الأرضَ وانتظم الأنـاما
تحّمـل همـةً، وأقَـلَّ دِيْنـاً وضّم مـروءةً وحـوى زمـامـا
وما أنساكَ فى العشـرين لما طلعتَ حيـالهـا قمـراً تمـامـا
يُشارُ إليك فى النادى وتُرمَى بعينى من أحب ومن تعـامى
إذا جئتَ المنابر كنت (قُسًّا) إذا هو فى عكاظَ عَلا السناما
وأنـت ألـذُّ للحـق اهـتـزازاً وألـطف حين تنطقـه ابتسـامـا
وتحمـل من أديم الحق وجهاً صـراحاً ليس يتخـذ اللثـامـا

* * *

أتذكرُ قبل هذا الجيـل جيلاً سهـرنـا عن معلّمهم ونـامـا

---

(٥٨) أى أن الحق تنطق به الأفواه ولا يستقر فى القلوب.

مِهـارُ الحق بغَّضْنـا إليهـم ... شكيمَ القيصرية واللجـاما[٥٩]
لـواؤك كـان يسقيهم بجـامٍ ... وكان الشعر بين يدىًّ جاما[٦٠]
من الـوطنيـة استبقـوا رحيقـاً ... فضَضْنـا عن معتقهـا الختـامـا
غـرسنا كَـرمها فـزكـا أصـولا ... بكـل قـرارة وزكـا مُـدامـا
جمعتهمـو على نبرات صـوت ... كنفخ الصّور حركت الرجاما[٦١]
لكَ الخطبُ التى غص الأعادى ... بسـوْرتها وساغت للنّدامى[٦٢]
فكـانت فى مـرارتهـا زئيـراً ... وكانت فى حلاوتهـا بغامـا[٦٣]
بـكَ الوطنيـة اعتدلت وكـانت ... حـديثاً من خـرافةَ أو منـامـا
بنيتَ قضيـة الأوطـان منهـا ... وصيَّرتَ (الجلاءَ) لها دِعامـا

قصيدة فى ذكرى الفقيد سنة ١٩٢٦

وله قصيدة ألقيت فى الاحتفال بذكرى الفقيد فى فبراير سنة ١٩٢٦ قال:

لم يَمُت من له أثرْ ... وحيـاةٌ من الـسِّيـرْ
أدعُـه غـائبـاً وإن ... بعـدت غايـة السفْـر
آيب الفضـل كلمـا ... آبت الشمس والقمر[٦٤]
رُبَّ نـورٍ مُـتَـمِّـم ... قد أتانـا من الحُفَر
إنما الميْتَ من مشى ... ميِّتَ الخُبْـر والخَبـر
من إذا عاش لم يُفد ... وإذا مـات لم يضـر
ليس فى الجاه والغنى ... منـه ظـلٌّ ولا ثمـر
قَبُحَ العزُّ فى القصـ ... ـور إذا ذَلّت القُصُر

* * *

(٥٩) مهار جمع مهر والمراد بالمهار هنا الشباب، والمراد بشكيم القيصرية ولجامها بطش الاحتلال وجبروته.
(٦٠) الجام الإناء من الفضة.
(٦١) الرجام القبور.
(٦٢) السورة الحدة والشدة، والندامى جمع نديم والمراد بهم الأنصار والأصدقاء.
(٦٣) البغام صوت الظبى.
(٦٤) أى يعود للفقيد فضل ويتجدد له ذكر كلما آبت الشمس وعاد القمر.

أعْـوزَ الْـحق ذائــدٌ   وإلى (مصطفى) افتقر
وتـمـنّـت جِـيـاضـه   هبّـةَ الصارم الـذكـر
الـذى يُنْفـذ المـدى   والذى يركب الخـطر
أيهـا القوم عَـظِّمـوا   واضع الأسّ والحجر
أذكروا الخُطبةَ التى   هى من آيـة الكبـر
لم يرِ الناس قبلهـا   منبـراً تحت محتضـر
لستُ أنـسى لـواءَه   وهو يمشى إلى الظّفر
حَشَـرَ النـاسَ تحتَـه   زُمَـراً إثْـرُهـا زمـر
وتـرى الحقَّ حـولَـه   لا تـرى الـبـيـضَ
كلمـا راح أو غـدا   والسُمر[٦٥] نفخ الروح فى الصور

* * *

يا أخا النّفْس فى الصبا   لذةُ الروح فى الصِّغَر
وخـلـيـلا ذَخَـرتُـه   لم يقَـوَّم بمـدّخـر
حـال بينـى وبينـه   فى فُجـاءاته القـدَر
كيفَ أجْـزى مَـوَدَّةً   لم يَشُبْ صَفْوَها كَدر
غيـرَ دمـع أقـولـه   قَلَّ فى الشأن أو كَثر
وفـؤادٍ مُـعَـلَّلٍ   بـالخيـالات والـذكَـر
لم ينم عنك سَاعَـةً   فى الأحاديث والسَّمر
قم تـرِ القـومَ كتلة   مثـل مَلْمُومـة الصخر
جَـدَّدوا أُلفـةَ الهـوى   والإخـاء الذى شـطر
ليس للخُـلف بينـهـم   أو لأسـبـابـه أثـر
أَلَّـفـتـهـم روائـحٌ   غـاديـاتٌ من الغيـر
وصَحـوا من منـوّم   وأفاقوا من الخدَر[٦٦]
أقبلوا نـحـو حَقِّهُم   مـا لهم غيره وطـر

---

(٦٥) البيض السيوف والسمر الرماح.
(٦٦) الخدر الكسل.

جَـعَـلوه خـليَّـةً شَـرَعُوا دونهـا الإبر
وتَـوَاصَـوْا بـخـطَّةٍ وتَـدَاعَـوْا لمؤتـمـر
وقصـارى أولى النهى يتـلاقَـوْنَ فى الفكـر
آذنـونـا بـمـوقـفٍ من جلال ومن خطر
نسمـع الليثَ عنـده دون آجـامـه زأر
قل لهم فى نديِّهم[٦٧] مصر بالباب تَنْتظر[٦٨]

إسماعيل صبرى

وكان الشاعر الكبير إسماعيل باشا صبرى صديقاً صدوقاً للفقيد، أيده فى جهاده منذ الساعة الأولى، كان محافظاً للاسكندرية سنة ١٨٩٦ - ١٨٩٩، وأراد مصطفى كامل أن يلقى بها خطبة من خطبه الوطنية الكبرى، فأوعزت الحكومة إليه أن يمنع إقامة الاجتماع الذى أعد لإلقاء الخطبة، بحجة المحافظة على الأمن والنظام، فأبى على الحكومة ما أرادت ورخص بإقامة الاجتماع، وصارح الحكومة بأنه مسئول عن الأمن والنظام[٦٩].

ولما عين وكيلا لوزارة الحقانية (نوفمبر سنة ١٨٩٩) ظل على مودته للفقيد، وكان يخرج فى غالب الأيام من الوزارة ويعرج بدار اللواء المقابلة لها ليزور صاحب اللواء، ويقضى معه الوقت الطويل، ولم يمنعه منصبه من المجاهرة بصداقته له فى الوقت الذى كان الكبراء من الموظفين وغيرهم يخشون عواقب الاتصال به، وإلى ذلك يشير شوقى فى رثائه لاسماعيل صبرى[٧٠] إذ يقول:

ويْح الشباب وقـد تخطّر بينهم هـل مُتِّعـوا بتمسُّـح وطـواف
لو عاش قُدوتهم وربُّ (لوائهم) نَكس (اللواء) لثابت وقّاف[٧١]

---

(٦٧) يريد البرلمان.
(٦٨) توفى أحمد شوقى أمير الشعراء فى ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢.
(٦٩) ذكر هذه الواقعة الأستاذ الأديب أحمد الزين فى مقدمته لديوان إسماعيل صبرى باشا ص ٣٢.
(٧٠) توفى إسماعيل باشا صبرى سنة ١٩٢٣.
(٧١) قدوتهم أى قدوة الشباب، ورب اللواء هو الفقيد صاحب اللواء، أى لو عاش مصطفى كامل حتى شهد وفاة إسماعيل صبرى لنكس اللواء حداداً عليه.

فلكم سقاه الودَّ حين ودادُه جَرَبٌ لأهل الحكم والأشراف

وتجد فى شعر إسماعيل صبرى انسجاما مع روح الفقيد، قال فى قصيدة له وجهها إلى الخديو عباس الثانى يوم عيد جلوسه سنة ١٩٠٨، يدعو إلى الدستور:

سدِّد سهام بالشورى يُحط بكَ منه فى ظُلَم الحوادث فيلقُ
واسبقْ به واضربْ به وافتحْ به ما شئت من بابٍ أمامك يغلق

وقال فيها يذكر حادثة دنشواى والعفو عن مسجونيها:

وأَقِلْتَ عثرة قرية حكم الهوى فى أهلها وقضى قضاءٌ أخرقُ
إنْ أنَّ فيها بائسٌ مما به أو رنَّ جاوبه هناك مُطّوقُ(٧٢)
وا رحمتا لُجناتهم ماذا جنوا وقضاتِهم ما عاقهم أن يتقوا(٧٣)
ما زال يُقذى كلَّ عين ما رأوا فيها ويؤذى كلَّ سمع ما لقوا
حتى حكمتَ فجاء حكمك آيةً للناس طَىَّ صحيفة تتألق
نزلتْ ترفرف حول كاتب نصها زمراً ملائكةُ الرضى وتحلّق
شكرتك مصرُ على سلامة بعضها شكراً يغرِّب فى الورى ويشرِّق
ذكرتْ لك الصفح الجميل ولم تزل ترمى إلى أمر أجلّ وترمُق(٧٤)
قانون دنشواى ذاك صحيفةٌ تُتلى فترتاع القلوب وتخفق
هل يُرتجى صفو ويهدأ خاطرٌ والموت حول نصوصها يترقرق
ومضاجع القوم النيام أواهلٌ بمعذَّب يردَى وآخر يرهقُ
لن تبلغ الجرحى شفاءً كاملا ما دام جارحها المهنّد يبرق
فاحكم بغير العنف واكسر سيفه فالحلم أجملُ والمكارم أليقُ

وقال سنة ١٩٠٨ يندد بسياسة مصطفى فهمى باشا حين سقطت وزارته:

عجبتُ لهمْ قالوا «سقطت» ومن يكن مكانك يأمن من سقوط ويسلمِ
فأنت امرءٌ ألصقتَ نفسك بالثرى وحرّمت خوف الذُلِّ ما لم يُحرّم

---

(٧٢) رن الرجل رنينا صاح ورفع صوته بالبكاء، والمطوق السجين.
(٧٣) قضاتهم أى قضاة المحكمة المخصوصة (أنظر ص ٢٠٠).
(٧٤) يريد الدستور

فلو أسقطوا من حيثُ أنت زجاجةً   على الصخر لم تُصدع ولم تتحطَّم[٧٥]

وقد جزع لوفاة الفقيد جزعا شديداً، وشيع جثمانه إلى مرقده الأخير، ووقف على قبره يلقى قصيدته فى وداعه، ولم يكد يلقى البيت الأول منها وهو:

أداعى الأسى فى مصر ويحك داعيا   هددت القوى إذ قمت بالأمس ناعيا

حتى ظهر عليه التأثر الشديد والإعياء، ولم يستطيع أن يتم القصيدة، وتدل قصيدته فى حفلة تأبينه (ص ٢٧٧) على مبلغ حبه وإخلاصه لصداقته، وإعجابه به وشدة حزنه عليه، فجاءت آية فى البلاغة ورقة التعبير، وكأن كل بيت منها دمعة وفاء تذرفها عين الصديق على صديقه الحميم.

خليل مطران

وكان بين الفقيد وشاعر القطرين خليل مطران صداقة وود داما طول العمر، ويبدو ومبلغ إعجابه به وتقديره لعبقريته فى قصيدته فى حفلة الأربعين (ص ٢٩٢)، وقد نشرها فى ديوانه، وصدرها بهذه الكلمة التى تعد فى ذاتها قصيدة من النثر المنظوم، قال: «مصاب الشرق فى رجله المفرد، وبطله الأوحد، مصطفى باشا كامل، أيتها الروح العزيزة: إن فى هذا الديوان الذى اختتمه برثائك، نفحات من نفحاتك، ودعوات من دعائك، فإلى هيكلك المدفون بالتكريم تحية الأخ المخلص للأخ الحميم، وداع المجاهد المتطوِّع للقائد العظيم».

وظل خليل مطران (رحمه الله) على تعاقب السنين، يحفظ عهد صديقه العظيم، ويشيد بذكراه، وله فى سنة ١٩٣٣ قصيدة عصماء ألقاها لمناسبة مرور عام على وفاة حافظ إبراهيم، ضمنها وصفاً رائعاً للنهضة القومية التى كونت حافظاً وجعلته الشاعر المطبوع المترجم عن آمالها وآلامها، وكيف أن هذه النهضة هى غرس مصطفى كامل، وكيف تعهدها بجهاده إلى أن مات، وبموته كانت الآية التى تم بها استقرارها، قال فيها:

---

(٧٥) أى أن مصطفى فهمى باشا كان فى منزلة دانية لا يؤلمه السقوط منها بحيث لو أسقطوا زجاجة من ذلك المكان المنخفض لم تنكسر.

طرأت حالةٌ تيقَّظ فيها ... لدعاة الهدى ضمير السواد[٧٦]

فإذا (حافظ) وقد بثَّ مافى ... نفسه من تجهّم واربداد

وبدا للمنى الجلائلِ فيها ... أفقٌ واسعُ المدى لارتياد

ماتجّلى نبوغُه كتجليه ... وقد هبَّ (مصطفى) للجهاد

يوم نادى الفتى العظيم قلبيّ ... من نَبا[٧٧] قبلَه بصوت المنادى

ووَرَى[٧٨]ذلك الشعور الذى كا ... ن كميناً كالنار تحت الرماد

فتأتّى بعد القنوط الدّجُوجىّ[٧٩] ... رجاء للشاعْر المجواد

مس منه السوادَ فانبجست نا ... رونور من طىِّ ذاك السواد

أكبر الدهرُ وثبةً وثبتها ... مصُر مفتكّة من الأصفاد

وثُغاءً[٨٠]غدا هزيماً[٨١] فألقى ... رُغْبه فى مرابض الآساد

مالذى أخرج الشجاعة من حيث ... طوتها قرونُ الاستبداد

وجَلا غُرة الصلاحِ فلاحت ... تزدهى من غياهب الإفساد

فإذا أمةٌ أبيةٌ ضيم ... مالها غير حقها من عَتاد

نهضت فجأة تنافح فى آ ... نِ عدوين أسرفا فى اللداد

أجنبياً ألقى المراسىَ حتى ... تقلعَ الراسياتُ فى الأطواد

وهواناً كأنما طبع الشعبَ ... عليه تقادمُ الإخلاد

حلبيِة يُعذرُ المقصّر فيها ... والخواتيم رَهن تلك المبادى

ليس تغييرُ ما بقوم يسيراً ... كيف ما عُودوه من آماد

غير أن الإيمان كان حليفاً ... لقلوب الطليعة الأنجاد

فاستعانوا به على ما ابتغوه ... غير باغين من بعيد المراد

إلى أن قال:

بعد وثْبٍ عنيف ... وارتدادٍ فى الشوطِ غبّ ارتداد

(٧٦) يريد الجمهور.
(٧٧) نبا تجافى وتباعد.
(٧٨) ورى الزند خرجت ناره.
(٧٩) المظلم.
(٨٠) الثغاء صوت الشاة والمعز.
(٨١) الهزيم صوت الرعد.

ساور الأمة التردُدُ والتّا ... ث[٨٢] عليها فى السيروجةُ الرشاد

لا تسل يومذاك عن جلد القا ... دة فى مُلتقى الخطوب الشداد

كلما ازدادت أبو إ ... لّا كفاحاً وعزمُهم فى ازدياد

يبذلون القوى وفوق القوى غير ... مبالين أنها لنفاد

و(الزعيمُ الأبرُّ) أطْيبهُم نفساً ... عن النفس فى صراع العوادى

هل ينجى شعباً من اليأس إلا ... حَدَث من خوارق المعتاد

مصطفى مصطفى بحسبك إن يذ ... كرْ فداءٌ أن كنتَ أول فاد

مصطفى مصطفى ليهنئك أن احييت ... قوماً بذاك الاستشهاد

دب فيهم روحٌ جديد له ما ... بعدَه فى القلوب والأخلاد[٨٣]

تنقضى الحادثات بعدك والرُّو ... حٍ مقيمٌ فيهم على الآباد

كادَ يومٌ شيعتَ فيه يريهم ... لمحةً من جلال يوم المعاد

صدروا عنه بالتعارف فيما ... بينهم وهو قوة الأعداد[٨٤]

واستشفوا لبأسهم فيه سرا ... كم تحامى أن يدركوه الأعادى

هذه مصر الفتية هبتْ ... فى صفوفٍ فتيةً للذياد

رجل مات مُخلفاً منه جيلًا ... رابط الجأش غير سهل المقاد

عهد نور من الحفاظ ونار ... بعد طول الخمود والإخماد

تخذت عبقرية الشعر فيه ... سلماً للعروج والإصعاد

أبلغت (حافظاً) من الحظ أوجاً ... زاد منه العلياء كل مراد[٨٥]

* * *

وكان الفقيد يعجب أيضاً بقصائد أحمد محرم ويشيد بها فى اللواء، ويسميه (نابغة البحيرة)، وبقى أحمد محرم على صلته بالفقيد ووفائه له ولذكراه، وكذلك كان معجبا بشعر أحمد الكاشف، ثم بشعر أحمد نسيم.

---

(٨٢) التاث عليه الأمر اختلط والتبس.
(٨٣) العقول.
(٨٤) أى قوة الاتحاد.
(٨٥) توفى خليل مطران «شاعر القطرين» فى يونيه سنة ١٩٤٩.

وقد أدرك فى بداية عهده الشاعر الأديب المشهور الشيخ على الليثى، وأحبه حب الوالد لولده، ولمح فيه النبوغ والعبقرية، وكان يقول له: «إنك أوتيت ذكاء يقرب منك البعيد ويظهر لك الخفى، وحجة بها تسكت من ناقشك وتفحم من جادلك».

ومن تلاميذه من الأدباء والشعراء المرحوم إبراهيم عبد القادر المازنى، كان حين وفاة الزعيم طالباً بمدرسة المعلمين، وقد رفت أسبوعاً من المدرسة جزاء له خطبة وطنية ألقاها تلك السنة فى حفلة الطلبة بدار التمثيل العربى وبدأت كتاباته الوطنية تظهر فى صحف الحزب الوطنى عقب وفاة الزعيم.

أصدقاؤه وانصاره فى الشرق والغرب

أولهم مدام جولييت آدم، فهى التى عرفته بأقطاب السياسة فى فرنسا، وأيدته فى جهاده بما تراه مبسوطا فى فصول هذا الكتاب.

ومن أصدقائه من كتاب الغرب (بييرلوتى) الأديب الفرنسى المشهور، كانت بينهما صلة ود وثيقة ورسائل متبادلة، وكان لوتى يمد الاتيندار اجيسيان بالمقالات الممتعة.

ومن أصدقائه الشعراء شكرى غانم الشاعر اللبنانى الشهير، نبغ فى الشعر الفرنسى ووضع باللغة الفرنسية مسرحية (عنترة) التى مثلث فى فرنسا ومصر وحازت استحسانا كبيراً، وقد خطب الفقيد فى الاحتفال الذى أقيم تكريماً له بالقاهرة فى يناير سنة ١٩٠٦ خطبة بليغة، أثنى فيها على على شعر المحتفل به وأدبه، وصرح شكرى غانم بأنه هو الذى وجهه إلى وضع رواية (عنترة) بالفرنسية لكى تكون فيها دعاية للبطولة العربية فى الأوساط الفرنسية المثقفة.

وكان له فى أوروبا أصدقاء وأنصار عديدون، نذكر منهم الكولونل مارشان بطل حادثة فاشودة وإرنست جوديه وكلاهما من تلاميذ مدام آدم، والمسيو فلورانس وزير خارجية فرنسا السابق، والمسيو بللتان وزير بحريتها السابق، ولهما فى الايتندار اجبسيان مقالات عدة، والمسيو تارديو الذى صار رئيس وزارة فرنسا، والكونت روشفور، وكان معظم مديرى الصحف الفرنسية الكبرى ومحرريها من أصدقاء الفقيد والمعجبين به وبجهاده.

مصطفى كامل وطلعت حرب

كان الفقيد صديقاً لطلعت حرب باشا، وامتدحه فى لواء ١٠ يناير سنة ١٩٠٠ لمناسبة ظهور كتابه فى تربية المرأة. ووصفه بأنه «الكاتب الفاضل محمد أفندى طلعت حرب». ولما ظهرت كفاءته المالية أثنى عليه وكتب عنه فى لواء ١٠ يوليه سنة ١٩٠٥ تحت عنوان (مصرى فاضل) ما يأتى:

«من الأشياء التى تسر كل مصر يحب بلاده وأبناءها العاملين ما يكون منها شاهدا على كفاءة المصرى فى الأعمال الجسيمة وتقدير الأوروبيين له حق قدره فعزتلو حضرة المقدام العامل محمد طلعت بك حرب مدير قلم قضايا الدائرة السنية سابقاً هو أول مصرى نقدمه اليوم للقراء انتخب مديراً لشركتين عظيمتين، هما شركة العقارات المصرية. وشركة كوم امبو، خلفاً لحضرة عاداه بك مديرهما السابق، وإن من يعلم أن أصحاب هاتين الشركيتين ومؤسسيهما هم من كبار الماليين المعدودين كالمسيو أرنست كاسل والمسيو سوارس وشركائه لا يرتاب فى أن الثقة بهذا المصرى الجليل عظيمة، كما لا شك فى أن هاتين الشركتين ستصلان إلى شأو بعيد من الرقى والفلاح بما أوتيه حضرة مديرهما الجديد من سمو الإدراك وسعة الاطلاع فى المسائل المالية، فنهنىء الشركتين به، ونسأل العلى القادر أن يهبنا الكثيرين من أمثاله».

فكأن الفقيد كان يستشف ما وراء الحجب، ويلمح فى الأفق ما كان لطلعت حرب باشا – رحمه الله – من الشأن العظيم فى نهضة مصر الاقتصادية، وأنه سيتولى زعامتها فى ميدان الاقتصاد والمال، فأثنى عليه هذا الثناء المستطاب.

مصطفى كامل ومصطفى فهمى

كان الفقيد شديد الحملة على مصطفى فهمى باشا رئيس الوزارة فى ذلك الحين وعلى الوزراء عموماً، ولا عجب فمصطفى فهمى كانت سياسته تمثل الخضوع التام للاحتلال الأجنبى، ولم يكن من أنصار الاحتلال فحسب، بل كان من المخلصين له، العاملين على



مصطفى كامل بين جمع من أصدقائه فى سفح الأهرام

وترى إلى يساره مدام جوليت آدم. فمحمد بك فريد. فعلى فهمى كامل بك وإلى يمينه مدام يونج. فحسين واصف باشا

تحقيق مآربه، وقد نشر المسيو دجرفيل حديثاً له فى كتابه (مصر الحديثة) سنة ١٩٠٥، تغنى فيه بفضل الاحتلال قال فيه: «إن عمل انجلترا فى مصر لهو عمل مجيد يشهد لها بالفخار، انظر إلى حالة مصر سنة ١٨٨٢ وما صارت إليه الآن سنة ١٩٠٥، لقد كان يسودها الخراب والفوضى والشقاء، والآن يعمها النظام والعدل والرخاء، إن التغيير كان سريعاً واسع المدى لدرجة أنى فى بعض الأحيان أغمض عينى وأتساءل· هل أنا فى منام.. وفى الواقع لا توجد فى العالم حكومة أخرى تسير بانسجام مثل حكومتنا، إنك تسألنى إذا كانت مصر نستطيع يوماً أن تتحرر من انجلترا، هذه مسألة دقيقة متروكة للمستقبل، أما ما يمكننى أن أؤكده الآن فهو أننا لا نستطيع ذلك فى الوقت الحاضر، فإن عملها لم يتم بعد ولا يزال تمامه بعيداً، لقد شيدت دعائمه القوية ولكن لا يزال البناء غير تام يبشر بالآمال الزاهرة، على أنه فيم يحق لنا أن نشكو انجلترا؟ إننا مدينون لها بثروتنا وسعادتنا وهنائنا، انظر إلى هذه الأرض المقامة عليها الفنادق والقصور إنها كانت منذ عشرين سنة

لا تساوى شيئاً والآن بلغت قيمتها ملايين من الجنيهات فماذا تكون قيمتها لو جلت انجلترا عن مصر؟»

فهذه الأقوال تعبر عن روح مصطفى فهمى باشا، وكل أعماله فى الوزارة كانت تصدر عن هذه الفكرة، فكرة تمجيد الاحتلال والولاء له، فكان بديهيا أن يخاصمه زعيم الحركة الوطنية الاستقلالية.

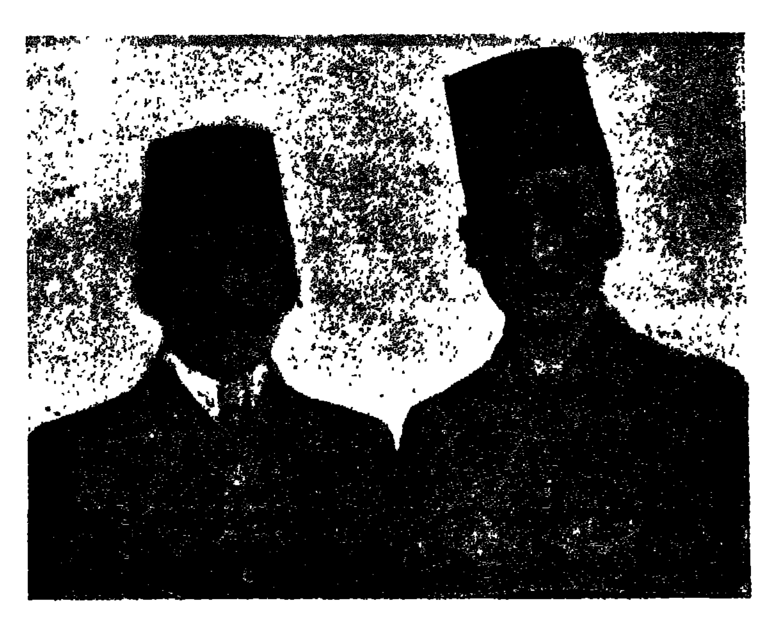
مصطفى كامل وسعد زغلول

حينما بدأ مصطفى كامل حياته الوطنية سنة ١٨٩٠ كان سعد زغلول لا يزال المحامى النابه (سعد أفندى زغلول)، وكان منصرفا إلى أعماله فى المحاماة. ثم عين سنة ١٨٩٢ قاضياً (مستشاراً)، فانقطع إلى قضائه بمحكمة الاستئناف.

وكانت علاقة مصطفى بسعد ودية حتى سنة ١٩٠٦، حدّثنى فؤاد باشا سليم أن سعد بك زغلول كان يتردد على دار والده لطيف باشا سليم، وهناك عرف مصطفى كامل إذ كان طالباً بمدرسة الحقوق، ثم تخلف سعد عن جماعة لطيف باشا، لما ظهر عليها من طابع المعارضة ضد الاحتلال، على أن علاقته بمصطفى كامل ظلت ودية كما أسلفنا، وحين صدر اللواء سنة ١٩٠٠، كان سعد زغلول لا يزال مستشاراً بمحكمة الاستئناف، وشقيقه أحمد فتحى بك زغلول رئيساً لمحكمة مصر الابتدائية، ولما ظهر كتاب (المحاماة) لأحمد فتحى زغلول بك كتب عنه الفقيد فى عدد ١٩ أكتوبر سنة ١٩٠٠ مقالة افتتاحية بتوقيعه أثنى فيها ثناءً كبيراً على الكتاب وصاحبه، وليس بخفى أن مجرد تخصيص المقالة الافتتاحية لتقريظ الكتاب هو دليل فى ذاته على التقدير والود الكبير، قال فى مقالته:

«لست ممن يزفون المدائح زفا أو يبجلون الناس حبا فى مرضاتهم، وطمعاً فى استرضائهم، ولكنى أكون مقصراً أمام الله والناس إذا لم أشكر أمام الملأ كله مؤلف كتاب (المحاماة) صاحب العزة المفضال أحمد بك فتحى زغلول رئيس محكمة مصر الابتدائية الخ».

ويبدو ودّه لسعد مما كتبه اللواء فى عدد ٧ فبراير سنة ١٩٠٦ عن مرضه، قال تحت عنوان (شفاه الله): «انحرفت صحة حضرة الأصولى المفضال سعد بك زغلول المستشار



مصطفى كامل وبيير لوتى (ص ٤٠٩)

بمحكمة الاستئناف الأهلية، وقضت بإجراء عملية جراحية بسيطة له، وقد تمت على غاية ما يرام، وأخذت صحته تتحسن تحسناً عظيماً، مما سر أصدقاءه ومحبيه العديدن الذين يتوافدون كل يوم على منزله لعيادته، نسأل الله له الشفاء التام والصحة والعافية، حتى تنتفع البلاد بعلمه الغزير ومعارفه الواسعة، فهذه الكلمة تدل على تقدير الفقيد لسعد، ونشر اللواء فى ٢٨ فبراير نبأ شفائه فى غبطة وسرور.

على أن علاقة الفقيد بفتحى باشا زغلول قد انقطعت وانقلبت إلى خصومه شديدة بعد أن اشترك فى الحكم على المتهمين فى حادثة دنشواى، إذ كان أحد قضاة المحكمة المخصوصة (انظر ص ٢٠٨) وهو الذى كتب الحكم بقلمه، وازدادت صلته بالوكالة البريطانية، ورقى بعد الحكم وكيلاً لوزارة الحقانية، فحمل عليه مصطفى حملة شديدة، وسماه (قاضى دنشواى) وقال له فى منزل سعد باشا يوم ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٠٦ أن حكمه فى قضية دنشواى «يحول بيننا وبينك إلى آخر لحظة من الحياة».

من ذلك ترى أن صداقة الفقيد وخصومته كانتا خالصتين لوجه الحق والوطن فإذا

مدح، مدح بحق، وإذا انتقد، انتقد بحق، غير متأثر بصلات شخصية، أو مآرب ذاتية، وكانت علاقاته الشخصية تتبع المصلحة القومية.

ولما عين سعد باشا وزيراً للمعارف فى أكتوبر سنة ١٩٠٦ امتدح صفاته، وأمل الخير على يده، وكتب فى لواء ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٠٦ تحت عنوان (سعد بك زغلول وزير المعارف) يقول: «لما قابل جناب اللورد كرومر أول البارحة سمو الخديو المعظم فى سراى التين عرض عليه تعيين سعادة سعد بك زغلول المستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية وزيراً للمعارف المصرية، فارتاح سمة الخديو لهذا الطلب لما يعهده فى سعادة سعد بك من الفضل والعلم والأخلاق القويمة، وإن ما يعرفه الناس فى أخلاق وصفات سعد بك زغلول وهو فى المحاماة أولا، وفى القضاء ثانياً، يحملهم جميعاً على الارتياح لهذا التعيين الذى صادف مصرياً مشهوراً بالكفاءة والدراية والعلم الغزير، وحب الإنصاف والعدل، ولكن لما كانت الوزارة من سنوات مضت إلى اليوم منصباً لا عمل فيه، وكان المستشارون الإنجليز أصحاب السيطرة التامة فى النظارات، حقّ للناس أن يتساءلوا عما يعمله سعادة سعد بك زغلول فى وزارة المعارف، هل يكون كبقية الوزراء – أمره وأمر المعارف بيد المستر دنلوب – أم يكون وزيراً اسماً وعملاً ويحيى سلطة الوزراء المصريين؟ اللهم إننا عرفنا سعد بك زغلول فى ماضيه وحاضره أشد الناس تمسكاً باستقلاله وحقوقه، وأكثرهم انتقاداً على الذين تركوا سلطة مناصبهم لغيرهم، وسمعناه يقرع بلهجة حادة الكسالى والمقصرين كباراً كانوا أو صغاراً، فإذا بقى سعد بك فى وظيفته الجديدة كما هو وكما كان – وهو ما نعتقد – أملنا خيراً كبيراً للمعارف، ورجونا سريان هذه الروح إلى بقية النظار وعودة «الحياة المصرية» إلى الوزارة، على أنه إذا كان جناب اللورد كرومر اختار سعد بك زغلول وزيراً للمعارف تقديراً لعلمه وإعلاناً لتغيير جنابه للسياسة الاحتلالية الماضية، واتباعه لسياسة جديدة قاضية بإعطاء المناصب لمستحقيها وتشريف الكفاءة، فإن السياسة تقضى قبل كل شىء بأن يكون الوزير وزيراً حقيقة، وأن يكون العامل عاملاً مؤدياً لوظيفته، متمتعاً بكل حقوقه، لا أن يكون آلة فى يد الموظف الإنجليزى، ولوجب أن يكون سعد بك زغلول المدير الفعال لدفة المعارف المصرية والمصلح لخللها الكثير، والمحقق لآمال الأمة فى نظارة خابت فيها مع المستر دنلوب كل الآمال، فنحن لا نبتهج اليوم بتعيين سعادة سعد بك زغلول وزيراً للمعارف إلا بأمل أن يكون كما كان على مبارك باشا والفلكى باشا وأمثالها ممن خدموا العلم فى

هذا القطر خدمات خالدة، وكانت لهم فى مناصبهم الكلمة النافذة، والرأى المتبع، ونطالبه قبل مطالبتنا للاحتلال بأن يكون كذلك، وأن يكون فى مستقبله كما هو فى حاضره وكما كان فى ماضيه، الرجل المستقل الذى لا يخدعه منصب ولا مال».

ولكن الفقيد أخذ ينتقد سعد باشا حين انسحب من لجنة مشروع الجامعة المصرية عقب تعيينه وزيراً للمعارف (وكان نائب الرئيس أو الرئيس الفعلى لها) فإنه لم يكد يتولى وزارة المعارف فى ٢٨ أكتوبر حتى وقف اجتماع اللجنة، وكانت تجتمع فى داره، ثم اجتمعت يوم ٣٠ نوفمبر بدار حسن بك جمجوم أحد أعضائها، وحضر سعد باشا الاجتماع فأعلن انسحابه من اللجنة، بدعوى أن كثرة أعماله فى الوزارة لا تسمح له بالاشتراك فى مشروع الجامعة، مع أن تعيينه وزيراً للمعارف كان أدعى لاضطلاعه بعمل هو من أخص واجبات وزارة (التعليم)، وكتب الفقيد فى هذا الصدد (يقول): «كيف يهتم المستشار فى الاستئناف بمشروع علمى ولا يهتم به ناظر المعارف؟» وقال فى مقالة أخرى: «إن تخليه يظهر للملأ الخطر الذى يحيق بالمشروعات العامة إذا كان لرجال الحكومة داخل فيها، واعتقادنا أن أقوى ضمانة لأمثال مشروع الجامعة المصرية أن يكون القائم بها هو الأمة دون سواها».

وتبين أن انسحابه من رياسة اللجنة كان تحقيقاً لرغبة الاحتلال، لكى يحبط المشروع، وقد أصابه الفتور والركود فعلاً بعد انسحابه من اللجنة، وبخاصة لأن الحكومة خلقت فى ذلك الحين «بإيعاز من الاحتلال أيضاً» حركة إنشاء الكتاتيب واستحثت الأعيان فى مختلف الجهات على التبرع لها، معارضة بذلك مشروع الجامعة، وبقى المشروع راكداً حتى دبت فيه الحياة حين تولى رياسة لجنته الأمير أحمد فؤاد (الملك فؤاد) فى سنة ١٩٠٨.

واشتد الفقيد فى نقد سعد باشا حين طلبت الجمعية العمومية من الحكومة فى مارس سنة ١٩٠٧ جعل التعليم فى المدارس الأميرية باللغة العربية، وكان وقتئذ باللغة الإنجليزية، فاعترض سعد باشا وكان وزيراً للمعارف، على هذا الاقتراح، وألقى خطبة طويلة فى هذا الصدد، سوغ فيها جعل التعليم باللغة الإنجليزية، قائلاً: «إن الحكومة لم تقرر التعليم باللغة الأجنبية لمحض رغبتها أو اتباعاً لشهوتها، ولكنها فعلت ذلك مراعاة لمصلحة الأمة»، وقال: «إذا فرضنا أنه يمكننا أن نجعل التعليم من الآن باللغة العربية، وشرعنا فيه فعلا فإننا نكون أسأنا إلى بلادنا وإلى أنفسنا إساءة كبرى، لأنه لا يمكن

للذين يتعلمون على هذا النحو أن يتوظفوا فى الجمارك والبوستة والمحاكم المختلطة والمصالح العديدة المختلفة التابعة للحكومة الخ، على أن الجمعية العمومية رفضت اعتراضات سعد باشا على هذا الاقتراح وأقرته الأغلبية العظمى، وقد كانت خطبته دفاعاً عن سياسة الاحتلال فى التعليم، لأن الاحتلال هو الذى أحل اللغة الإنجليزية محل اللغة العربية فى التدريس بالمدارس الأميرية، فأحدث هذا الموقف ضجة استياء عند الرأى العام.

وكتب مصطفى كامل مقالاً فى الاتيندار اجبسيان عربه اللواء فى عدد ٩ مارس سنة ١٩٠٧ تحت عنوان (فشل وزير)، قال فيه:

«إن الناس قد فهموا الآن بأوضح مما كانوا يفهمون من قبل، لماذا اختار اللورد كرومر لوزارة المعارف العمومية صهر رئيس الوزارة (مصطفى فهمى باشا) الأمين على وحيه، الخادم لسياسته، وفهموا أيضاً لماذا قامت الصحف الإنجليزية والصحف المتحزبة للإنجليز وذرت الرماد فى العيون قائلة إن الوزير الجديد هو من الحزب الوطنى، فى حين أن كل شىء من أحواله وشئونه يدل على شدة ميله إلى السلطة، فسعد باشا زغلول قد فشل فشلاً عظيماً فى الجمعية العمومية ولو كان وزيراً أوروبياً يتكلم أمام برلمان لكان قد استقال فى الحال، ولكنه وزير فى مصر، يعتقد أن ثقة اللورد كرومر به كافية وحدها لحمايته، ألا أن الذين كانوا يحترمون الوزير كقاض ليأسفون على حاضره كل الأسف، وليخافون على مستقبله كل الخوف، ويفضلون ماضيه كل التفضيل، ذلك لان الوزير قائم الآن على منحدر هائل مخيف».

وزاد فى انتقاده إياه امتداح اللورد كرومر له فى خطبة الوداع التى ألقاها قبل رحيله عن مصر، على حين أنه طعن فى المصريين جميعاً ورماهم بنكران الجميل.

وصفوة القول أن موقف مصطفى كامل من سعد زغلول كان ودياً حتى انسحابه من لجنة مشروع الجامعة، ثم تحول إلى موقف انتقاد نزيه وخصومه شريفة، تبعاً لما اقتضاه الدفاع عن المصالح الوطنى العام.

* * *

الفصل الحادى والعشرون

شخصية الزعيم

لا نزاع فى أن مصطفى كامل هو من عظماء الرجال، ومن زعماء الشعوب وقادتها الأبطال فى ميادين الحرية والاستقلال، ولامراء فى أنه باعث الحركة الوطنية التى ظهرت فى مصر عقب الاحتلال البريطانى.

لقد أوضحنا فى الفصل الأول من الكتاب كيف ظهر واضطلع بأعباء الدعوة الوطنية، فى عصر لم يكن مواتياً لها ولامستعدا لمناصرتها، فهذه الشخصية الكبيرة التى حملت عبء الجهاد، ودعت الأمة إلى الانضواء تحت لواء الحرية والاستقلال، فى وقت تحالفت فيه أسباب اليأس والجمود، يجب أن تكون شخصية بالغة منتهى القوة، لكى تستطيع أن تشق لدعوتها طريقاً وسط هذه العوامل المثبطة للعزائم، فما هى العوامل التى تألفت منها هذه الشخصية الفذة؟

إن شخصية مصطفى كامل تتركز فى قوى ثلاث، هى التى ساعدته على النجاح فى عمله العظيم، وهى إيمانه برسالته، وأخلاقه وصفاته، ثم وطنيته الصادقة.

إيمانه برسالته

فإيمانه برسالته، هو أبرز الجوانب فى شخصيته، ويبدو لك هذا الإيمان من ذلك الكتاب الذى بعث به إلى مدام جولييت آدم فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٩٥، وهو بعد فى الحادية والعشرين من عمره، إذ يقول فيه:

«إنى لا أزال صغيراً، ولكن لى آمالا كباراً، فإنى أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة، هم يقولون إن وطنى لا وجود له، وأنا أقول يا سيدتى إنه موجود، وأشعر بوجوده بما آنس له فى نفسى من الحب الشديد الذى سوف يتغلب على كل حب سواه، وسأجود

فى سبيله بجميع قواى، وأفديه،بشبابى، وأجعل حياتى وقفاً عليه».

فهذا الكتاب الوجيز فى عبارته، الرائع فى أسلوبه، يطالعك بقوة الإيمان الذى يملأ قلب صاحبه، فهو مؤمن بحياة الوطن، ولو خالف الناس جميعاً، مؤمن برسالته إيماناً جعله يجود فى سبيلها بشبابه وحياته، وقد لازمه هذا الإيمان طول حياته على تعاقب السنين، وهذا هو سر نجاحه، قال فى سنة ١٩٠٤ :«سأبقى حتى الممات حاملا لواء الاستقلال، إذ أجد حياتى فى هذه العقيدة، وبغير هذه الشعلة الوطنية لا أستطيع الحياة».

وكتب إلى مدام آدم فى ١٣ أغسطس سنة ١٩٠٦ يقول: «غداً تذكار ميلادى إذ أبلغ الثانية والثلاثين، وما عساى أن أعيش أيضاً لأخدم مصرنا العزيزة؟ وعلى كل حال فإنى لا أترك لحظة تمر من حياتى دون أن أغرس حبها فى قلوب مواطنىّ، وأتمم عملى إلى النهاية».

فهذا الإيمان هو قوام شخصيته، ومصدر قوته ولولاه لما تابع الجهاد رغم العوامل المثبطة، وهو الذى يسرله تذليل كل عقبة اعترضته فى جهاده؛ وجعله يضطلع بأعبآء الجهاد المضنى، ويسير بالأمة فى طريق الحرية والاستقلال،قال صديقه الأستاذ داود بركات فى هذا الصدد: «اعتقد فى نفسه القدرة على العمل، فصغر كل كبير فى نظره. وأذكر من أقواله يوماً: إن أغسطس قيصر لم يكن كبيراً لأن أمته كيرته، يل لأنه سار أمامها فعرفت أنه كبير».

صفاته وأخلاقه

كان الفقيد شابا فى مقتبل العمر، قمحى اللون، جميل الطلعة، متوسط القامة، نحيف الجسم، عريض الجبهة، براق العينين، يشع منهما الذكاء وقوة العزيمة.

إن الجانب الأخلاقى هو بلا مراء من أعظم مميزات هذه الشخصية الفذة ولا غرو، فالأخلاق هى سياج الوطنية، وحصنها الحصين، وهى قوامها وغذاؤها الدائم ولقد كان مصطفى كامل زعيما أخلاقيا، وزعيما وطنيا معاً، فلا جرم أن كانت وطنيته ثابتة كالطود، راسخة كالجبال.

وأبرز أخلاقه وصفاته الشجاعة الأدبية، والصدق، والصراحة، والإخلاص، والصبر وقوة العزيمة والثبات، ثم الوفاء وعلو النفس وعلو الهمة، والجود والكرم، هذه الأخلاق هي قوام وطنيته، وبها استطاع أن يقوم على دعوته، ويثابر عليها، ويناضل عنها طول حياته، ولولا قوة أخلاقه لما أمكنه أن يغالب العقبات، ويقاوم المؤثرات والمغريات.

كان شديداً في الحق، يحب الصدق والصراحة، ويكره النفاق والرذيلة، يجاهر بما في ضميره بشجاعة أدبية كبيرة، لا يهاب في الحق كبيراً، وكان مع ذلك وديعاً يخفض جناحه للأصاغر وأواسط الناس، ويعطف عليهم.

كان شديد الذكاء، سريع الخاطر، قوي الذاكرة، بالغ الحجة، عظيم النشاط محبا للعمل، لا يكل منه، ولايعرف الملل والهوادة.

وكان وفيا لأصدقائه، باراً بأهله وذويه، يعطف عليهم ويعد نفسه أباً لهم جميعاً، لم يتزوج في حياته قط، وانحصر حبه العائلي في والدته وأقاربه وذويه ظهر وفاؤه لوالدته حين مرضت، فكان مشغول الفؤاد بمرضها، شديد العناية بأمرها، يكتب عن أنبائها إلى مدام جولييت آدم في رسائله إليها، وقد حزن عليها حزنا شديداً حين أدركتها الوفاه[1]، كتب في هذا الصدد إلى مدام آدم يقول:

«قد رزئت أكبر رزء في الحياة، فإن والدتي العزيزة، مالكة فؤادي، قد فارقت الدنيا يوم الأحد الماضي، إن حزني لشديد، وحياتي كادت تنقضي!»

فهذا التعبير يدلك على مبلغ وفائه لوالدته، وحبه لها، وتعلقه بها، وحزنه عليها، وهذا لعمري أبلغ مظهر لوفاء الإنسان في هذه الدنيا.

ويبدو وفاؤه لأهله وذويه من رسائله إلى صديقه وزميله في الجهاد محمد بك فريد فانه لا يكاد يخلو كتاب منها من سؤاله عنهم، وعنايته بهم، واهتمامه بكل صغيرة وكبيرة من شئونهم، على كثرة مشاغلة ومهامه الجسام.

كان جواداً كريماً يعطف على الفقراء والمعوزين ويحبهم، فكان لهم نصيب وافر في مدرسته، إذ خصص للمجانية قسما كبيراً لتعليم أولادهم، وإليه ينسب فضل كبير في مبدأ

---

(١) توفيت يوم الأحد ١٢ مايو سنة ١٩٠٧.

الإسعاف، فقد عطف على قتيل حادثة الهماميل بالاسكندرية فأسعف أهله بماله ومساعيه، وعنى بتعليم ابنه بفضل ذلك المبدأ الكريم.

وطنيته

أما وطنيته فلا نرانا فى حاجة إلى التحدث عنها، فلقد خصصنا لها هذا الكتاب جميعه، إذ هو سجل لوطنيته الكبرى، فالوطنية تبدو فى كل ظاهرة من ظواهر حياته، وفى كل حركة من حركاته، وكل خاطرة من خطرات نفسه ولاغرو فقد ملكت عليه لبه ومشاعره وتفكيره،فكانت حياته هى الوطنية، واقتبست منها الأمة نهضتها الوطنية، وهو الشعلة التى انبثق نورها فى أرجاء وادى النيل منذ ستين سنة، فأضاءت النفوس، وأحيت فيها الشعور الوطنى، وحفزتها إلى الحياة والكرامة والجهاد القومى، بعد سنوات طويلة من الانحلال الوطنى العام .

كانت وطنيته أسبق وأقوى من الجيل الذى ظهر فيه، وأقوى من الحوادث التى اعترضته، فليس يخفى أن هذه الحوادث كانت فى مجموعها سلسلة هزائم، مثبطة للعزائم، على أنه قد تغلب عليها بقوة الوطنية والأخلاق، وكان يزداد ثباتا فى الكفاح والنضال، كلما أزدادت فى طريقه العقبات، وهنا وجه البطولة فى تاريخه.

وتبدو قوة وطنيته فى مثابرته على الكفاح وفى هذا الحركة الدائمة التى لم ينقطع عنها، والتى بيّنا أدوارها ومراحلها فى فصول هذا الكتاب، فهذه الحركة التى لم يعترها الكلال فترة ما خلال الثمانى عشرة سنة التى قضاها فى الجهاد، هى عنوان وطنيته، وثمة عنوان آخر لها، وهو أن جهاده كان خالصاً لله والوطن، إذ كانت الحركة الوطنية لا ترمى فى ذلك الحين إلى الحكم والمناصب، أو الجاه والمنافع، بل كانت سلسلة متصلة الحلقات، من المتاعب والتضحيات، ومن هنا تتجلى بطولتها، ويسطع نورها وروعتها، فهذه الروح، روح التضحية والإخلاص هى رأس مال الشعوب فى حياتها القومية، لأن الأمم إنما تتميز فى ميادين الرقى والعظمة بمقدار إخلاص أبنائها لأوطانهم، وتفانيهم فى خدمتها، وإيثارهم الصالح العام على منافعهم الشخصية.

سبيله إلى الوطنية

كان الفقيد لايهتم طوال حياته إلا بالوطنية يبثها فى نفوس النشء والجيل وكانت سبيله إلى غرسها فى النفوس الدعوة والخطابة والصحافة والتأليف، والقدوة الصالحة فى الاستمساك بالعروة الوثقى. كان معلما للجيل، أرشد الأمة إلى المثل العليا فى حب الوطن والإخلاص له، ولذلك كان يعنى بالتاريخ الوطنى لجميع الشعوب، يستخلص منه دروس الوطنية الصادقة، ويلقنها لبنى مصر، كتب فى هذا الصدد إلى مدام جولييت آدم فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٩٩ حين اعتزم إصدار اللواء يقول: «أشكرك كثيراً إذا تفضلت بإرشادى إلى المؤلفات الخاصة بالتاريخ القومى والقصص الوطنية عن كل البلاد لكى ألقن الشعب إياها، فإنه يجب أن أنشر المثل العليا فى الوطنية».

وكتب إليها فى ٢٨ ديسمبر من تلك السنة يقول:

«إنى أعمل الأن كثيراً، وأملى أن يصير (اللواء) أول جريدة فى الشرق، فإنى أريد له أن يكون فى وقت واحد عاملا للوطنية المصرية، وواسطة بين العالم الأوروبى والعالم المصرى، ولهذا رجوت منك أن تكتبى لنا بين آن وآخر مواعظ وطنية مما جرى فى عصرك أو فى بطون التاريخ».

وكان فى دعوته وجهاده، فى مقالاته وخطبه وأحاديثه، يسمو بالوطنية، ويوجهها إلى المثل العليا، وينزهها عن الخصومات والأحقاد الشخصية ويربأ بها عن الطعن فى أعراض الناس وشخصياتهم، كان عف القلم عف اللسان، وفى ذلك يقول فى خطبته بالاسكندرية سنة ١٨٩٦ : «أنى أترفع عن أدافع عن بلادى بالطعن والسباب».

وكان يحبب النفوس فى الحرية، ويرغبها فى الاستقلال الشخصى، ليمهد الجيل إلى الاضطلاع بأعباء الاستقلال القومى، ومن هنا جاء استحثاثه الشبان على العمل الحر والاعتماد على النفس، وترغيبهم عن التواكل والتطلع إلى الوظائف، وله فى ذلك خطب ومقالات عدة، أهمها خطبته بالاسكندرية يوم ٨ يونيه سنة ١٨٩٧ إذ قال فيها:

«اتركوا الأنباء معشر الآباء فى الحياة الحرة، اتركوهم يخدموا الوطن ويخدموا أنفسهم فى غير دائرة الوظائف، اتركوهم أحرار غير مقيدين بقيود الرواتب، ابعثوا بهم إلى

الخارج ليدرسوا التجارة والصناعة، ويؤسسوا فى البلاد المصانع والمعامل، تزدادوا بذلك شرفا وفخراً وتزدادوا أمام الله وأمام الوطن متوبة وأجراً».

وكان كثير الحث على الاستقلال الاقتصادى، قال فى هذا الصدد فى خطبته سالفة الذكر: «إذا أهملت تربية الأمة وبقى الكبراء منعكفين على إدارة شؤونهم الخاصة واستمر الآباء يلقون بالأبناء إلى مهاوى التوظف فى الوظائف وبقيت التجارة والصناعة فى كساد، ودامت الأمة فى حاجة إلى استجلاب لوازمها الضرورية من غير بلادها، دام الانحطاط ودام التأخر ودام الخطر».

بعض كلماته الخالدة فى الوطنية

للفقيد كلمات خالدة دلت على تأصل الوطنية فى فؤاده، وسارت سير الحكم والأمثال، وقد مرّ بك بعضها فى فصول الكتاب، وسنجمع هنا أهمها شأنا، وأدلها على شخصيته، مع بيان تاريخ كل كلمة منها:

- «أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا» سنة ١٨٩٥.

- «إن لى روحاهى نور الحرية الساطعة لا تستطيع الحياة فى ظلمات الظلم والاستبداد» من خطاب له إلى فريد بك سنة ١٨٩٦.

- «إنى أترفع عن أدافع عن بلادى بالطعن والسباب» سنة ١٨٩٦.

- «كل احتلال أجنبى هو عار على الوطن وبنيه» من خطبته بالاسكندرية يوم ٨ يونيه سنة ١٨٩٧.

- «فى الرضا بالاحتلال الخيانة والعار، وفى العمل ضد الاحتلال الشرف والفخار» من خطبته المذكورة.

- «قد يكون الرجل صادق الوطنية فقيراً فى المال، ولكنه يعيش ويبقى فى التاريخ من أكبر سراة الوطنية» من خطبته بالقاهرة يوم ٨ يناير سنة ١٨٩٨.

- «إذا لم نقتطف ثمرة عملنا وجهادنا فى حياتنا، فإننا على الأقل نضع الحجر الأول

لمن يأتى بعدنا» من رسالة له سنة ١٨٩٨ إلى أخيه على بك فهمى كامل.

– «لا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة» من خطبته بالقاهرة يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٩٨.

– «الحياة جهاد، والعمر قصير، وخير الناس من جاهد فى سبيل بلاده وعمل لخيرها وناضل عن حقوقها» من خطبته المذكورة.

– «ليست الحرية بعزيزة على قوم يعملون للحصول عليها ويجتهدون فى نوالها، وليس بعزيز على المصريين أن يفكوا قيود بلادهم ويعيدوا إليها استقلالها ومجدها، فالصخرة الضخمة تذوب وتتفتت بسقوط المياه عليها نقطة بعد نقطة» من خطبته المذكورة.

– «الأمل دليل الحياة ورائد الحرية» (اللواء ٨ أبريل سنة ١٩٠٠).

– «إن قيام كل رجل حى الشعور شريف الميول بواجباته نحو هذ البلاد العزيزة يرد إليها حريتها ومجدها وعزها» (اللواء ٢٣ أبريل سنة ١٩٠٠).

– «سأستمر بمشيئة الله طول حياتى ولو بقيت وحيداً أخطب فى الصحراء وأكتب على صفحات الماء. ذلك الذى عرف فيه المصريون الخادم الأمين للوطن العزيز» (اللواء ١٣ أغسطس سنة ١٩٠٣).

– «الوطنية شعور ينمو فى النفس، ويزداد لهيبه فى القلب، ويرسخ فى الفؤاد كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه» من خطبته سنة ١٩٠٤.

– «إن روحى تتغذى من حب الوطن وبغيره لا أستطيع الحياة إذ لا قيمة للحياة بغير هذا الحب الرائع العظيم الذى يفيض على المرء كل سلوى وكل سعادة حتى فى شقائه، وبخاصة فى الشقاء، حيث لا يجد الانسان القوة والأمل إلا فى هذا الحب» سنة ١٩٠٤.

– «مادامت هذه الشعلة والوطنية تغذينى وتؤازرنى فإنى لا أهاب شيئا ولا أحدا فى الوجود» سنة ١٩٠٤.

– «من أشق الأعمال أن يجاهد المرء ضد الزمن والحوادث والناس» سنة ١٩٠٤.

– «سأبقى حتى الممات حاملا لواء الاستقلال، إذ أجد حياتى فى هذه العقيدة، وبغير هذه الشعلة الوطنية لا أستطيع الحياة» سنة ١٩٠٤.

– «لو انتقل فؤادى من الشمال إلى اليمين، أو تحولت الأهرام عن مكانها المكين، لما تغير لى مبدأ ولا تحول لى اعتقاد، بل تبقى الوطنية رائدى ونبراسى ويبقى الوطن كعبتى ومجده غاية آمالى» (اللواء ١٨ مايو سنة ١٩٠٦).

– «إن سلاسل الاستعباد هى سلاسل على كل حال، سواء كانت من ذهب أو من حديد» من كتابه إلى السير هنرى كامبل بانرمان سنة ١٩٠٧.

مختارات من خطبته بالاسكندرية سنة ١٩٠٧

–«إننا لا نعمل لأنفسنا بل نعمل لوطننا، وهو باق ونحن زائلون، وما قيمة السنين والأيام فى حياة مصر وهى التى شهدت مولد الأمم كلها وابتكرت المدينة والحضارة للنوع الإنسانى كله؟ أن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع، ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصرى ونبتهج به وندعو له كأنه حقيقة ثابتة، وسيكون كذلك لا محالة، فمهما تعددت الليالى وتعاقبت الأيام، وأتى بعد الشروق شروق وأعقب الغروب غروب، فإننا لا نمل ولا نقف فى الطريق ولا نقول أبدا: لقد طال الانتظار».

– «إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم فى ماضى الأيام وحاضرها، وأعلى مطلب ترمى إليه فى مستقبلها، فلا الدسائس تخيفنا، ولا التهديدات توقفنا فى طريقنا، ولا الشتائم تؤثر علينا ولا الخيانات تزعجنا، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية نعم لو أخذنا الموت من هذا الدار واحدا بعد واحد لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا: كونوا أسعد حظا منا، وليبارك الله فيكم ويجعل الفوز على أيديكم، ويخرج من الجماهير المئات والألوف بل الآحاد للمطالبة بالحق الوطنى والحرية الأهلية والاستقلال المقدس!».

– «بلادى بلادى! لك حبى وفؤادى. لك حياتى ووجودى، لك دمى ونفسى، لك عقلى ولسانى لك لبى وجنانى، فأنت أنت الحياة، ولا حياة إلا بك يامصر!»

- «إنى لو لم أولد مصريا لوددت أن أكون مصريا».

- «إن أمة دبت فيها روح الوطنية، وطمحت نفسها للاستقلال لا تموت أبداً، وإن صواعق السياسة كلها لا تحول ضميراً لاذ بالوطن عن وجهته».

- «نحن مسلوبون، والإنجليز هم السالبون، ونحن طلاب حق مقدس هم مغتصبوه، فلا سبيل إلا الاتفاق بيننا وبينهم إلا باعترافهم بحقنا ورده إلينا».

- «هل يستطيع مصرى أن يتهور فى حب مصر؟ مهما أحبها فلا يبلغ الدرجة التى يدعو إليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها، ألا أيها اللائمون انظروها وتأملوها وطوفوها، واقرأوا صحف ماضيها، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض، هل خلق الله وطناً أعلى مقاما، وأسمى شأناً، وأجمل طبيعة، وأجل آثاراً، وأغنى تربة، وأصفى سماء، وأعذب ماء، وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز؟ اسألوا العالم كل يجيبكم بصوت واحد إن مصر جنة الدنيا، وإن شعباً يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح فى حقها وسلم أزمتها للأجنبى».

- «قد يرى السفهاء والطائشون أن الانتساب لشعب مستعبد كالشعب المصرى مما لا يليق بإنسان، ولكن أى شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لإحياء الأمة التى سبقت الأمم كافة فى العلم والمدنية والأدب؟ أى رفعة يسعى الشريف إليها أسمى من إنهاض شعب كان أستاذ الشعوب البشرية ومربى العالم كله؟»

- «إن مصر جديرة بأن تحب بكل قوة، بكل عاطفة، بكل جارحة، بكل نفس، بكل حياة».

-«لا قوام لأمة ولا سلامة لبلاد إلا بقوة العقيدة الوطنية».

- «إن من يتسامح فى حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبدا الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان».

- «الدعوة للاستقلال، وبث الروح الوطنية، هما المؤديان إلى تحقيق آمال الأمة المصرية، فليكن معتقد المصريين جميعاً، أن نجاة مصر لا تكون إلا بهمم المصريين، وإن ارتقاءنا موكول إلى عزائمنا، فلنطلب النهوض من أنفسنا، ولنعمل له بالهمة والصدق والاتحاد».

عبقريته ومكانته السياسية

لم يكن مصطفى كامل زعيما وطنياً فحسب، بل كان زعيما سياسياً ناضج الفكر صادق النظر، واسع الاطلاع، ملماً بأسرار السياسة الدولية، وهذه ميزة له على كثير من الزعماء الذين سبقوه (فى الثورة العرابية)، أو تولوا الزعامة من بعده، ويضارعه فى الاطلاع السياسى المغفور له محمد بك فريد، فكلاهما درس القضية المصرية دراسة عميقة قبل أن يضطلع بأعباء الزعامة، ولعلك تلحظ أنه حين عاد إلى مصر عقب حصوله على شهادة الحقوق من فرنسا، جاء ومعه صندوق من الكتب المؤلفة فى القضية المصرية، ليتزود منها بالحقائق والبيانات اللازمة لخدمة هذه القضية.

وظهر بعد نظره السياسى فى المبدأ الذى اتخذه شعاراً لدعوته، وهو الجلاء، إذ رأى بثاقب نظره أنه الرمز الصحيح للاستقلال التام، وأن الاستقلال والاحتلال ضدان لا يجتمعان، قال فى هذه الصدد: «كل احتلال أجنبى هو عار على الوطن وبنيه»، واطرح المبادىء الملتوية والنظريات الخيالية جانباً، وخالف الكثيرين من معاصريه الذين كانوا يرون مصانعة الاحتلال والتقرب إليه، وجعل الجلاء شعارا للحركة الوطنية، فهو أول من علم الأمة أنه صخرة النجاة لمصر، وأن الاحتلال الأجنبى هو مصدر العبث باستقلال مصر وكرامتها القومية، وقد أثبتت الحوادث قديمها وحديثها صحة هذا المبدأ القويم، لأن الاحتلال مهما كانت صفته لا يمكن أن يتفق مع الاستقلال والكرامة القومية[٢].

ويبدو بعد نظره فى تجنبه أخطاء زعماء الثورة العرابية، فقد أدرك من دراسته العميقة للمسألة المصرية أن اصطدام العرابيين والخديو توفيق كان من أسباب إخفاق الثورة، ومن العوامل التى تذرعت بها انجلترا لاحتلال البلاد، فكان يعمل دائما على إيجاد جوّ من التفاهم بين الأمة والخديو عباس الثانى، ويدعو إلى تعلق الأمة بالعرش، ولما وقع الخلف بينهما، بعد أن جنح الخديو للاستسلام والخضوع للاحتلال، اجتنب هو الاصطدام به، حتى

---

(٢) قال مصطفى النحاس باشا فى خطبته التى ألقاها يوم أول يوليه سنة ١٩٣٨: «إن جوهر المسألة المصرية هو الاحتلال والجلاء».

لا يتخذ الاحتلال من هذا الاصطدام وسيلة لإضعاف الحركة الوطنية، أو محاربتها باسم الخديو.

وكذلك رأى من الحكمة السياسية توثيق الروابط الودية بين مصر وتركيا لكى يتخذ من موقف تركيا وسيلة لمقاومة الاحتلال وإقامة الحجة عليه، وأدرك من مطالعاته التاريخية أن انجلترا كانت تعمل دائما على تعكير العلاقات بين الخديو توفيق والسلطان، مما أدى إلى إطلاق يدها فى مصر، وأن جفاء العلاقات بين مصر وتركيا فى عهد اسماعيل، كان من العوامل التى جنحت بتركيا إلى خلعه، إجابة لرغبة انجلترا وفرنسا، فعمل على اكتساب ود تركيا، مادام الاحتلال فى مصر، لكى يضمن ألا تتفق الدولتان على إقرار الاحتلال، كما فعلت فرنسا فى الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤، وقد فصلنا الكلام عن هذه المسألة فى الفصل الثامن عشر.

أما سياسته بإزاء فرنسا، فقد كان إلى ما قبل حادثة فاشودة يتوقع تدخلها لصالح مصر، ولذلك كان يأمل العون من ناحيتها حتى سنة ١٨٩٨، وكل من كان فى موقفه كان محقاً فى هذا الأمل، ولكن بعد أن وقعت حادثة فاشودة سنة ١٨٩٨ وتراجعت فرنسا أمام انجلترا، أدرك أن لا فائدة ترتجى منها، وجعل الاعتماد على قوة الأمة وجهادها أساس الحركة الوطنية، وأخذ يطعن على فرنسا وسياستها منذ تلك الحادثة، كتب فى هذا الصدد يقول فى لواء ١٥ مايو سنة ١٩٠٠: «إننا انتقدنا دائمًا السياسة الفرنسية وقلنا غير مرة إنها لا تليق بحكومة الجمهورية ولولا هذه السياسة العوجاء لما كانت انجلترا فى مصر ولما كنا فيما نحن فيه».

ثم فقد أمله فى عدالة فرنسا خاصة وأوروبا عامة منذ أن رأى جمود أوروبا أمام مأساة (البوير) وتركها إياهم يسحقون أمام القوات الإنجليزية دون أن تأبه بهم، قال فى هذا الصدد فى عدد ٢٨ أغسطس سنة ١٩٠٠ من اللواء: «إن المعتمد على أوروبا واقف على هاوية عميقة القرار، وإن الوطنية تحتاج إلى أسلحة عدة إذا كانت الشهامة والفضيلة والإقدام أهمها وألزمها، فالحذر والدهاء والتبصر ضرورية لها بل وحيوية لكل أمة تطلب الحياة أو تريد الزيادة فى المجد والسؤدد، وإذا كانت أمة بلغت من الشهامة وحب الوطن مبلغ أمة البوير وهذا حالها مع أوروبا فكيف بنا ونحن نحتاج لسنين عديدة وأعمال مجيدة لبلوغ مبلغها والحصول على مالها من المحامد والمزايا».

وكتب إلى مدام جولييت آدم فى رسالة له بتاريخ ٢١ يونيه سنة ١٩٠٠ يقول: «إنى لا أجد كلمات تسع إعرابى لك عن استيائى من أوروبا والمدنية الإنسانية التى قضت بهجر البوير البواسل! أى عار وأى درس لنا نحن الذين طالما كنا نعتمد على أوروبا!».

فمصطفى كامل قد دعا الأمة منذ سنة ١٨٩٨ إلى الاعتماد على النفس فى جهادها، ومن الخطأ ما يظنه بعض الكتاب أنه ظل يتعلق بالآمال من ناحية فرنسا حتى سنة ١٩٠٤، وهى السنة التى أبرم فيها الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا، فإنه على العكس فقد أمله فى فرنسا منذ حادثة فاشودة، ولم يفاجئه الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤، بل زاده قوة على قوته فى الكفاح والجهاد.

على أنه مع فقدانه الأمل فى تدخل فرنسا وأوروبا فى المسألة المصرية، كان يؤمن بقوة الدعاية، وأثرها فى إحراج مركز الاحتلال وشد أزر الحركة الوطنية فكان لا يفتأ يبذل الجهود الجبارة ليكسب لمصر الأنصار والأعوان فى صحافة أوروبا وفى دوائرها السياسية والأدبية، وقد وفق من هذه الناحية توفيقاً عظيما يدل على حظ كبير من المكانة الشخصية والمقدرة السياسية، فليس من السهل على أى إنسان مهما كان كبيراً أن يدرك تلك المكانة التى جعلت الفقيد ينشر مقالاته وأحاديثه فى أهم الصحف الأوروبية.

لقد كانت كبرى الصحف الفرنسية كالفيجارو والإكلير والطان والديبا وغيرها ترحب بمقالاته وأحاديثه، وكان ينشر بعضها أيضا فى الصحف الانجليزية وكان فى صيف كل عام يقصد إلى أوروبا وتنشر له كبريات الصحف الأحاديث والمقالات عن مصر وشئونها، وتخصص لها مكانا بارزا فى أعمدتها، وتتناقلها الصحف الأخرى، وكان لا يحل ببلد إلا وتتجه إليه الأنظار ليدلى إلى الجمهور بآرائه عن الحركة الوطنية المصرية التى كان زعيمها وممثلها فى الداخل والخارج بلا منازع.

ومن دلائل مكانته السياسية أنه لما وقعت حادثة دنشواى استطاع أن ينشر مقالته الشهيرة (إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن) فى صدر جريدة (الفيجارو)، فكانت بمثابة صحيفة اتهام للسياسة الإنجليزية فى جريدة من أكبر الصحف العالمية، وفى وقت كانت السياسة الفرنسية متجهة وجهة الاتفاق الودى مع انجلترا، وهذا يدلك على عظم المنزلة التى نالها الفقيد فى العالم السياسى.

ولما نشرت له (الفيجارو) فى سبتمبر سنة ١٩٠٧ كتابه المفتوح إلى السير هنرى كامبل بانرمان رئيس الوزارة البريطانية الذى احتج فيه على الاحتلال وطالب الحكومة البريطانية بتحقيق وعودها فى الجلاء، تناقلته جرائد الطان والديبا والإكلير والإيكودى باريس والجولوا وغيرها ، وعلقت عليه تعليقات تدل على عظم مكانته وأنشأت الطان فى صدده مقالة افتتاحية قائلة إن العلاقات الأدبية والمادية بين فرنسا ومصر تعادل ماعند فرنسا من الميل والانعطاف نحو المصريين، وتردد صدى الكتاب فى معظم الصحف البريطانية كالتيمس والستاندارد والديلى نيوز والمورننج بوست والمورننج ليدر وغيرها ونشرته ضمن رسائلها التلغرافية الواردة من مكاتبها بباريس، كما رددت صداه شركة روتر فى أرجاء العالم.

وعندما استقال الأستاذ إدوار لامبير من منصب ناظر مدرة الحقوق الخديوية (ص ٢٥٢) التقى بالفقيد بفرنسا، وهو الذى قدمه إلى المسيو تارديو مدير جريدة الطان (والذى صار رئيس وزراء فرنسا فيما بعد) لينشر له مقالته عن أسباب استقالته، وقد نشرت بها فعلا ونشرها الفقيد بأكملها فى الايتندار اجبسيان وذى اجبشيان ستاندرد، ونشر تعريبها كاملا فى اللواء فى اليوم التالى لظهورها فى الطان وقد ذكر العلامة لامبير هذه الحقيقة فى حديث له بجريدة الجهاد عدد ٨ مارس سمو سنة ١٩٣٧ حين حضر إلى مصر لإلقاء محاضراته القانونية تلبية لطلب كلية الحقوق المصرية.

وقبلت جريدة الفيحارو الشهيرة أن تنشر ليتندار اجبسيان كل المقالات التى يكتبها الكاتب الطائر الصيت (بيير لوتى) عن مصر فى يوم واحدا معاً، على حين كانت تنقده المبالغ الطائلة على ذلك.

ولما أوفد الفقيد إلى باريس سيدافندى على أحد محررى اللواء فى بعثة صحفية ليتلقى علوم الصحافة فى مدرسة العلوم السياسية بها، زوّده بكتب توصية إلى أقطاب السياسة والصحافة فى فرنسا، فكان كلما قابل أحدهم وسلمه كتاب التوصية قابله بعناية واحترام، لاحترامهم شخصية الفقيد، وقصد إلى إدارة جريدة (الطان)، وهى كبرى صحف فرنسا ومعه خطابان أحدهما لرئيس تحريرها، والآخر لمحررها الأول، فلما أخبرهما أنه رسول مصطفى كامل قابلاه بالحفاوة البالغة، وأخذ رئيس التحرير يقدمه إلى زملائه مبتسما: قائلا: «هذا مندوب صديقنا الجليل مصطفى كامل». ولما تلا كتابه أقبل عليه وقال: «إنى

أحب الباشا من أعماق قلبى، وأود أن أقوم له بخدمة ولو صغيرة، فاعلم أن أبواب الطان مفتحة أمامك فى كل وقت وساعة، وأن أبواب غرفتى لا تقفل فى وجهك أبدا، وقد كلفنى رئيسك أن ألحقك بمدرستى العلوم السياسية والصحافة، ومن رأيى أن تقتصر على الأولى، لأنك لا تستفيد من الثانية شيئا، فإذا أتممت العلوم السياسية فعد إلى مصر وتعلم الصحافة فى مدرستها الكبرى التى يديرها مصطفى كامل باشا»، فهذه المنزلة التى نالها الفقيد لدى أقطاب السياسة والصحافة فى فرنسا لا يمكن أن ينالها إلا الرجل العظيم الذى رفعته كفايته الممتازة وشخصيته الفذة إلى ذلك المستوى الكبير، ولا غرو فقد كان معروفا فى أوروربا بأنه بطل الاستقلال المصرى، ويدلك على سمو مكانته فى نفوس عظماء الغرب أن الكاتب الفرنسى الشهير بيير لوتى، وكان صديقاً حميما له وضع كتاباً سنة ١٩٠٩ عن مشاهداته فى مصر، وقدم له بكلمة إهداء إلى روح الفقيد قال فيها: «إلى ذكرى صديقى المجيد العزيز مصطفى كامل باشا الذى استشهد يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ فى ميدان الجهاد الشريف عاملا على رفعة شأن مصر والإسلام»، وهى كلمة لا تصدر إلا عن تقدير عظيم، من أديب كبير.

سياسة نحو النزلاء

وكان شديد الحرص على اكتساب ثقة النزلاء الأجانب واطمئنانهم إلى الحركة الوطنية، وفى ذلك قال كلمته المشهورة (أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا)، وقد وفق توفيقاً كبيراً فى كسب ثقة الأجانب واحترامهم، مما كان يبدو أثره فى الصحف الأوروبية المحلية، ولا شك أن ظهور زعيم وطنى شاب مثقف ثقافة أوروبية قد أفاد كثيراً فى الدعاية للحركة الوطنية سواء فى أوروبا أو فى الأوساط الأوروبية المحلية، ولذلك كان له أنصار وأصدقاء ومعجبون كثيرون من أعيان الجاليات الأورورىية، ومن أقطاب الصحافة والسياسية والقضاء والمحاماة، وقد كان أول زعيم مصرى سمعت منه أوروبا صوت مصر الحديثة، وكان له من الصحفيين الأجانب فى مصر أصدقاء شخصيون عديدون، كالمسيو هيكاليس باشا صاحب جريدة الفارد الكسندرى، والمسيو برشيه صاحب الجورنال اجبسيان، والمسيو راوول كانيفيه مدير جريدة الريفورم، والمسيو جورج فيسييه مدير الجورنال دى كير وغيرهم.

سياسته الشرقية والإسلامية

كان مصطفى كامل عَلَما على الوطنية المصرية، وكان فى الوقت نفسهَ رسول الحرية والجهاد للأمم الشرقية، شديد الغيرة على توثيق عرى الروابط والتعاون بينها، وكان قوى العقيدة الدينية، قوى الإيمان، ولقد كانت قوة إيمانه من أسباب رسوخ العقيدة الوطنية فى فؤاده، قال فى هذا الصدد رداً على حملات الصحف الأوروبية على الإسلام لمناسبة مقالات هانوتو:-«قد يظن بعض الناس أن الدين ينافى الوطنية، أو أن الدعوة إلى الدين ليست من الوطنية فى شىء، ولكنى أرى أن الدين والوطنية توأمان متلازمان، وأن الرجل الذى يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حباً صادقا ويفديه بروحه وما تملك يداه» (راجع ص ١٥٦).

ويبدو اتجاهه إلى تقوية الروابط بين الشعوب الإسلامية من إصداره جريدة أسبوعية باسم (العالم الإسلامى) كان ينشر بها كل ما يهم الإسلام من المقالات والأنباء.

وكتب فى جريدة (الطان) الفرنسيُة - عدد ٨ سبتمبر سنة ١٩٠٦ - مقاله ردا على مقالة نشرتها عن الجامعة الإسلامية قال:

«لقد فسرت كلمة الجامعة الاسلامية فى أوروبا تفسيرا لا يتفق ومعناها الحقيقى، وإنى أعيد هنا ما كتبته فى «الفيجارو» و«اللواء» وما قلته فى كل مكان من أنه لا يوجد مسلم متنور يعتقد لحظة واحدة أن الشعوب الإسلامية يمكنها أن تؤلف عصبة ضد أوروبا. وإنى أتساءل من الرجل العاقل السليم الإدراك الذى يصدق إمكان تغلب الشعوب الإسلامية على كافة الدول الأوروبية، إن الحقيقة الساطعة الخالصة من كل شىء هى أن حركة الجامعة الإسلامية بالمعنى المقصود منها فى أوروبا - أى الحرب الدينية - لاوجود لها بالمرة، لأن المسلمين أدركوا من زمان بعيد أنه يستحيل على أية أمة أن تعيش فى معزل عن العالم، وأن الأمة التى تحاول ذلك تقضى على نفسها بالموت، أما الشعور الموجود حقيقة وبلا نزاع عند كافة الشعوب الإسلامية فهو شعور انعطافها وحنانها لبعضها البعض، فكل مسلم يرغب من صميم فؤاده أن يرى أبناء دينه معاملين أحسن من المعاملة الحالية ومعتبرين كجزء حى من الإنسانية ومحترمين فى كل مكان ومن كل إنسان، وأنه لما كان

لتأخر الشعوب الإسلامية أسباب واحدة فإن نهضتهم تكون بوسائل واحدة، وإن هذه النهضة لا تصير حقيقة تشاهد بالعيان بفضل أوهام تأليف عصبة إسلامية ضد المسيحية، بل بالتعليم والنور، وبما أن الإسلام ليس عقيدة دينية فقط بل قانون اجتماعى، فإن إحياء الأفكار ونشر المعارف لا يتمان إلا بإظهاره على حقيقته، وإن ميل كل مسلم لأبناء دينه أمر طبيعى وشرعى، ولا يوجد رجل منصف ينتقد ذلك الميل، أما عن تهمة التعصب الإسلامى المزعوم فى مصر فإنى أؤكد أن بلادا كثيرة فى أوروبا تعرف التعصب العنيف الممقوت، فى حين أن مصر لاتعرفه، فليس عندنا أحزاب ضد اليهود، ولا اشتراكيون ولا فوضويون، ولا شىء من تلك الفرق التى يأكل بعضها بعضا».

مقدرته الخطابية

هو أعظم خطيب أنجبته مصر الحديثة، وأول خطيب سياسى جهر بالاستقلال فى عهد الاحتلال، وأول زعيم اتخذ الخطابة وسيلة لبعث الحركة الوطنية، ولا شك أن الحركة الوطنية مدينة لخطبه الجليلة الرائعة فى ظهورها واتساع مداها، وكانت هذه الخطب من الحوادث الهامة فى تاريخ الحركة القومية، كان خطيبا مفوها يجيد الخطابة باللغتين العربية والفرنسية، والخطابة بعد الوطنية كانت أبرز الجوانب فى شخصيته، كان إذا جلس فى محفل خاص وتكلم مع الحاضرين يدوّى صوته كأنه يلقى على السامعين خطبة من خطبه الرنانة، كان جهورى الصوت، يتكلم من أعماق قلبه المملوء يقينا وإيمانا، وكان له سلطان روحى على من حوله من السامعين أو المخاطبين، وقد بدأت مواهبه الخطابية فى الظهور وهو بعد فى المدرسة الثانوية، إذ كان يخطب فى جمعية الصليبة الأدبية وجمعية الاعتدال بمدرسة الأمريكان (ص ٣٧)، فكان يسترعى الأنظار بفصاحة لسانه وصوته الرنان، وقد اختار مدرسة الحقوق «لأنها مدرسة الكتابة والخطابة» كما يقول فى خطابه إلى شقيقه فى ١٢ يوليه سنة ١٨٩١، مما يدلك على ميوله الخطابية، وهو فى هذه السن المبكرة، وإنك لتلمح مقدرته الخطابية فى بداية حياته الوطنية من قول على مبارك باشا له سنة ١٨٩٠ وهو بعد طالب فى المدرسة الثانوية «إنك امرؤ القيس» ومن وصف الأستاذ محمد مسعود بك إياه سنة ١٨٩٦ (ص ٨٤) بخطيب مصر المصقع، وأنه الذى إذا ارتقى منبر الخطابة ذلل له القول وسخر له الخطاب، وتابعه الكلام متفق القرائن مطرد السياق.

وقد كان فى مواقفه الخطابية الكبـرى يضع خـطبه ويكتبهـا، ولكنه كـان يلقيها عـلى السامعين دون أن يقرأها، وكان له من قـوة ذاكرتـه المدهشـة مايغنيـه عن الرجـوع إلى التلاوة فى خطبه، وكانت مقدرته الخطابية باللغة الفرنسية لا تقل عنها فى خـطبه العـربية، ولذلك نال إعجاب الأوروبيين ممن سمعوه يخطب بالفـرنسية، وكـان هذا الإعجـاب من أسباب علو منزلته السياسية والاجتماعية فى أوروبا وبين النزلاء الأوروبيين فى مصر.

مقدرته الصحفية

هو من عباقرة الصحافة فى مصر والعالم، خلق صحفيا بفطرته، فأسس مجلة المدرسة وهو بعد فى المدرسة الثانوية، فكان أول طالب مصرى مارس الصحافة، كما أنه كان أول طالب خطب فى الوطنية، وقد ولع بمراسلة الصحف فى هذه السن المبكرة، وكتب فى كبريات الصحف، من مصرية أوروبية قبل أن ينشىء اللواء ولما أنشأ سنة ١٩٠٠ بعث فى الصحافة روح التجديد والنشاط، فكان اللواء نموذجا للفن الصحفى، متنوع المقالات والأبحاث والأنباء، وكان أول ماصدر فى أربع صفحات ثم مازال يرقى به حتى جعله فى ثمان بعد إن استحضر له من أوروبا آلة الطباعة الكبرى (روتاتيف). وكان يفيض بالأنباء البرقية الواردة إليه من الخارج على يد مر اسليه، فضلا عما كان ينشر من رسائل كبار الكتاب فى مصر وأوروبا، وصار كما قالت (الأجبشيان جازيت) «أكثر الجرائد العربية انتشارا ليس فى مصر فقط بل فى جميع العالم على الأرجح» ولم يكتف بإصدار اللواء اليومى، بل أصدر إلى جانبه (مجلة اللواء) الشهرية ثم جريدة العالم الإسلامى سنة ١٩٠٥.

وبلغت مقدرته الصحفية أوجها حين أصدر جريدتى ليتندارا جبسيان وذى اجيشيان ستاندرد اليوميتين، فصار يصدر ثلاث صحف يومية كبرى، بثلاث لغات مختلفة، وهى مهمة تنوء بها العصبة أو لو القوة من الرجال والجماعات، وقد كان يشرف بنفسه على تحريرها وإدارتها، وتتمشى روحه فى كل كلمة منها، بحيث لم يؤخذ على أية صحيفة منها أنها نشرت يوما مقالة أو نبذة تخالف روحه ومذهبه

وكان للايتندار اجبسيان وذى اجبشيان ستاندرد محررون اختارهم الفقيد من صفوة الكتاب الفرنسيين والإنجليز، ومراسلون فى باريس ولندن يرسلون إليهما تلغرافياً خلاصة كل ماينشر فى الصحف الأوروبية عن مصر فى حينه. فكانت الألوية تطالع قراءها يوميا بكل ما يهم مصر فى الخارج.

ولما نشرت (الديلى تلغراف) حديثاً للخديو عباس (ص ٣٤٩) فى مايو سنة ١٩٠٧، عقب إستقالة اللورد كرومر، علم به الفقيد تلغرافيا من مراسل ذى اجبشيان ستندرد فى لندن، فطلب إليه أن يوافيه بنصه حرفياً، فجاء نصه بالتلغراف فى ١٤٤٥ كلمة، وكانت هذا أول مرة فى تاريخ الصحافة المصرية والشرقية جاء فيها تلغراف بهذا الطول وهذه الأهمية.

وقد بلغ من تعلق الفقيد بترقية الصحافة ورفع شأنها أن أوفد بعثة صحفيـة إلى أوروبا فى أكتوبر سنة ١٩٠٧ لدراسة فن الصحافة وإتقانه، وبدأ بإرسال سيـد أفندى عـلى أحد محررى اللواء وقتئذ إلى باريس. وإنتظم على نفقة صاحب اللواء فى سلك مدرستى العلوم السياسية والصحافة بباريس لمدة ثلاث سنوات، ولكن لم يطل مكثه هناك لمرض اعتـراه، وقد عرض علىّ الفقيد فى تلك السنة وكنت إذ ذاك طالباً بمدرسـة الحقوق، أن يـوفدنى فى هذه البعثة الصحفية بعد حصولى على شهـادة الحقوق، فقبلت هـذه الثقة شـاكراً، ولكن المنية عاجلته قبل تخرجى من المدرسة.

كان مصطفى كامل يتولى عمله الصحفى المنهك، إلى جانب إشرافه على إدارة مدرسة مصطفى كامل، إلى جانب خطبه الرنانة التى كان يلقيها من آن لآخر، وأحاديثه ومقالاته فى كبريات الصحف الأوروبية، وإطلاعه على الصحف والمؤلفات التى تكتب عن مصر وعن المسائل السياسية الكبرى العالمية، وإلى جانب ذلك يجتمع بأصدقائه وأنصاره وتلاميذه، ويفيض عليهم من أحاديثه وتعاليمه ما يملأ نفوسهم وطنية وإيمانا، وكان إذ خلا إلى راحته يكتب الرسائل الخاصة إلى كبار السياسيين والكتاب فى أوروبا، مما، لو جمع لصار عدة مجلدات، وقد جمع شقيقه على بك فهمى كامل رسائله إلى مدام آدم، فجاءت كتابا قيما ممتعاً، كان الفقيد يضطلع بهذه الأعباء كلها مجتمعة بهمة وكفاية ومقدرة منقطعة النظير.

فضله على الحركة الوطنية

هو رسول الوطنية والحرية لمصر والشرق جميعاً، وإن قيامه ضد أكبر دول الاستعمار وهى فى أوج قوتها لهو مثال خالد للبطولة والإخلاص والتضحية، جدير بأن تحتذيه الأمم الشرقية فى جهادها للحرية والمجد، وقد بينا كيف أنه كان باعث الحركة الوطنية الحديثة وموجدها، فلا نعود إلى هذا البيان، ولقد ظهرت هذه الحقيقة رائعة يوم الاحتفال بجنازته، إذ كانت إجماعا من الأمة على الاعتراف بأن الحركة الوطنية هى غرس جهاده المتواصل طوال سنى حياته، وسندعم هذه الحقيقة هنا بأقوال معاصريه فى مصر وفى الشرق والغرب، فإن هذه الأقوال تستطع منها شخصية الفقيد العظيم.

قال المغفور له الشيخ على يوسف صاحب «المؤيد» فى رثائه:

«كان فى عمله كقائد الجيش يسير به إلى ميدان القتال، للحياة الفاخرة، أو للدار الآخرة، ذلك كان مبدأ صديقى القديم، وهذا شأن رصيفى العظيم، فكان من مبدئه يافعاً، إلى أن صار فى الرابعة والثلاثين رجلا كاملا، مثال الهمة الشماء والذكاء والعزيمة ذات المضاء، والحركة الدائمة التى لا تنى ولا تنثنى، ذاهباً فى طريق الآمال ينشد لوطنه الاستقلال، فإليك أيها الصديق القديم، والرصيف العظيم، تحية محزون يعرف لك أكثر من كل إنسان خدمتك العظيمة التى خدمت بها وطنك فأيقظت من شعور المصريين ما قامت مظاهرات الأمس أكبر برهان على مقدار ما كان لك فيه من حسن الأثر ويد بيضاء، ويقدر جهادك العظيم فى أوروبا فى سبيل الدفاع عن حقوق الأمة المصرية حق قدره، وأنى لمصر أن تجد بعدك صوتاً عالياً إذا قال أسمع أوروبا بأسرها وتردد صداه فى الخافقين، بل أنى لمصر بمن يملك إحساس شبيبتها كما كنت تملك، ويستفز شعورها كما كنت تستفز والأمة فى حاجة كبرى إلى تنمية مثل هذه العواطف الشريفة».

وقال المرحوم مرقس حنا باشا (عضو الوفد المصرى) فى حفلة تأبينه: «إن العظمة والمهابة التى أحاطت بنعش المرحوم مصطفى كامل باشا يوم ١١ فبراير المنصرم ذات دلالة صادقة أكيدة على أنه لم يكن صديقاً لفريق من المصريين، بل كان صديقاً لجميع الوطنيين على السواء، بكاه كل ساكن من سكان هذا البلد لأنه قضى حياته كلها فى بث

روح الوطنية الحقيقية بين أهله وقاطنيه، بكيته أنا شخصياً لأنى عرفته مثالا للرجولة والشهامة والصداقة بكل معانى الكلمة، كان الرجل شفاء لغلتنا، وإرواء لظمئنا، جئت أقول لكم كلمة واحدة هى حياة مصطفى كامل كلها، إن الأمة نمت وسمت وتغارست أغصانها حول جذع واحد هو مصر، هو الوطن العزيز، تلك الحقيقة التى لا ريب فيها، الفخر فى إحيائها راجع إلى مصطفى كامل باشا».

وقال الشيخ مصطفى القاياتى فى مارس سنة١٩٠٨: «هذه الحياة القومية المدهشة والنهضة المصرية الفائقة إنما هما أثر من آثاره، ونتيجة من نتائج أعماله سيتوارثها الأبناء عن الآباء، وتبقى ما بقيت صفحات التاريخ».

وقال سعد باشا زغلول فى خطبته بفندق شبرد يوم ٢٠ أبريل سنة ١٩٢١: «أعلم أن البلاد تصبو إلى الاستقلال وأن حركتها الاستقلالية بدت من زمان طويل، خصوصاً من يوم أن ظهر فيها المرحوم مصطفى كامل وتلاه المرحوم فريد بك، هؤلاء الذين أسسوا وأيدوا ما أسسوا فى النهضة الحاضرة».

وقال فى خطبته بالسرادق يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣: «لست خالق هذه النهضة كما قال بعض خطبائكم، لا أقول ذلك ولا أدعيه، بل لا أتصوره، إنما نهضتكم قديمة تبتدىء من عهد مؤسس الأسرة المالكة محمد على، وللحركة العرابية فضلٌ عظيم فيها، وكذلك للسيد جمال الدين الأفغانى وأتباعه وتلاميذه أثر كبير وللمرحوم مصطفى كامل باشا فضل غزير فيها أيضاً، وكذلك للمرحوم فريد بك»

وقال الأستاذ أحمد لطفى السيد عن مصطفى كامل(٣):

«لا أريد أن أطيل القول فى مصطفى كامل، فحياته معروفة مشهورة، ولكنى أقول موجزاً:

«إن مصطفى كامل كان شعاره الوطنية، ووسيلته الوطنية، وغرضه الوطنية، وكلماته الوطنية، وكتابته الوطنية، وحياته الوطنية، حتى لبسها ولبسته، فصار بينهما التلازم الذهنى والعرفى، فإذا ذكرت مصطفى كامل بخير فإنما تطرى الوطنية، وإذا قلت الوطنية فإن أول

(٣) من كتاب (قصة حياتى) للأستاذ أحمد لطفى السيد - كتاب الهلال - فبراير سنة ١٩٦٢.

ما يتمثل فى خيالك شخص مصطفى كامل، كأنما هو والوطنية شىء واحد.

«ولقد تمثل ذلك يوم وفاته فى هذه المظاهرة التى لم تعرف لها فى ذلك الزمان مثيلا، فقد إشترك جميع أفراد الأمة فى أمر واحد، على رأى واحد، بصورة واحدة مع إختلافهم فيما عداه.

«كل هذا دل على أن الشعور الذى قادهم ليس مذهباً سياسياً، ولا طريقة من طرائق المنازعة السياسية، بل هو أعلى من ذلك، هو التضامن القومى، والجامعة الوطنية.

«إن مصطفى كامل كان تمثال الوطنية، ولقد دعوتُ فى اليوم التالى لوفاته على صفحات الجريدة إلى إقامة تمثال له يشهد بالاعتداد بفضله فى عمله، وتخليداً لذكراه، واعترافا من الأمة لكل عامل يقف نفسه على خدمتها، وتجسد لهذه الروح الطاهرة.

«وقد شاعت هذه الفكرة بين جميع الطبقات، وفتحنا الاكتتاب على صفحات «الجريدة» وتكفلنا بالقيام بهذا العمل، ولو أننا لم نكن من حزبه السياسى، لأن مصطفى كان مصريا لجميع المصريين».

وقال الأستاذ أخنوخ فانوس من خطبته فى حفلة تأبين مصطفى كامل:

«إنه أنهض روحا شريفة عامة بين طبقات وعناصر الأمة المصرية، روحا وطنية شريفة، بل زهرة زاهرة عابقة نمت وعلت فوق هامة الأشراك المذهبية بناموس الرقى، فما مات مصطفى حتى أطلقت عبيرها بين الملأ، فأنعشت كامن الحب القومى الوطنى الطبيعى، وكشفت فى مصر عن حلقة وطنية صحيحة شريفة»

وقالت «الأهرام» فى رثائه - بقلم الأستاذ داود بركات:

«ذهب «فتى مصر»، فكل قلم «مصرى» ككل لسان مصرى، وقف اليوم على تأبينه ورثائه، ومات مصطفى كامل. فالأمة التى كانت أقواله وسياسته وأفكاره شغلها الشاغل، هى الآن رهن الفجيعة به، والمصاب بفقده، بل إن أقلام خصومه الحادة التى كانت تتناوله كل حين بالغمز، وكل آونة بالتجريح واللمز هى اليوم أمام نعشه خاشعة تقطر بالرثاء، بعد أن اتأدت، والداء يفت من جسمه، لا تقلق مضجعه ولا تشوك سريره، بل هى اليوم مثلها بالأمس، تعرف أنها كانت تنازل فى منازلته فكراً يؤلف به الأفكار، لا شخصا فى

عقر الدار، ومذهبا فى السياسة هو صدى آمال أمة عظيمة، لا مذهباً فى العمل ينحصر فى دائرة ضيقة. فلو لم يكن فى مصر قوة ما جردت عليه قوات، إن الطريقة التى كانت عنوان مصطفى كامل هى الحرية فى القول، والمجاهرة بما يضمر، والتذرع بالشجاعة فى العمل، لأنه لا يميت الحقوق فى الأمم مثل الجبن عن المطالبة بها، أو التطوح إلى ما وراء الغاية من الشجاعة، فحسبه مجداً أن يسجل له فى تاريخ أمته تلك الشجاعة وتلك الحرية، بل حسبه أن يكون مثالا للناشئة، فهو أكبر معلم بما عمل».

وقالت مدام جولييت آدم فى مقدمة كتاب رسائل الفقيد إليها:

«إن فى نشر رسائل صديقى وإبنى مصطفى إحياء له بعض الشيء، على أن مواطنيه لذكره لحافظون، هل مات «مصطفى»؟ كلا، لأن أعماله وكتاباته وأقواله حية فى أعماق قلوب أنصاره ومحبيه، وهو يحيا فى تلك الشبيبة المصرية التى أخرجها من الظلمات إلى النور، ووقف نفسه على مستقبلها جسما وروحا، لقد صار من رجال التاريخ، وهو حى فى شخص الكل، والكل حى فى شخصه، وما يجيء من الحوادث لن يغير شيئاً من صورته وعنوان مجده، وإن الفخر فى تحقيق آماله حين تتحقق يعود عليه ويرجع إليه كله، لأنه لا شيء ينقص من فضل أول باعث لفكرة استقلال مصر، لقد قامت عند وفاة «مصطفى كامل» مظاهرات لم يصدر من أمة أخرى أعظم منها، وقد صار عمله كله حيا فى قلب كل مصرى، لأن كل مصرى يفهم أن «مصطفى كامل» قد أحيا مصر، إذ نفخ فيها من روحه، وعندما كان يقول متباهيا بلسان المغرم: أمتى! لم يكن يقولها بلسان الملك عن رعاياه، بل كان يحيى فى نفسه بلاده ووطنه، وكان يحيى معهما، لأنه كان يحب أمته حباً لا يقوى عليه الموت!

«وإن ما إخترته من رسائله لدال على أنه جدير حقا بلقب «الوطنى» الذى أسبغته عليه أمته فى كل شيء: الخطيب الوطنى، ورئيس الحزب الوطنى، ومثل هذا اللقب أعظم فخر يطمع فيه خادم الوطن، لقد كان «مصطفى كامل» يقول إن هذا اللقب يحييني بحياة بلادى كلها وهو جزائى الأعظم، واليوم يبعثه هذا اللقب حياً فى نفس كل وطنى مصرى».

وقالت جريدة (الديبا) الفرنسية الشهيرة فى أبريل سنة ١٩٠٨:

«إن مصطفى كامل لم يوقظ أمته فقط وإنما رباها أيضاً، بل يمكن القول بأنه هو الذى

أنشأ الروح المصرية من العدم، لم تكن مصر قبله إلا قسما من الأقسام الجغرافية، ولم يكن سكانها إلا فرقا منقسمين بعوامل الجنس والدين، متفرقين شيعا على قدر ما فى مصر من الأديان وما كان فيها من إختلاف المذاهب والمشارب والمطامع، لقد تولى محمد على شئون مصر، فبعد بذله الجهد الجهيد نصف قرن من الزمن تمكن من إنشاء جنسية مصرية ممتازة عن الجنسية العثمانية، ولكنه لم ينشىء أمة مصرية، أما مصطفى كامل فقد خرج من بين هذه الجموع المتنافرة المتخاذلة التى لم تعرف معنى للتضامن القومى ولم تتذوق نعمة الوحدة الوطنية، وكان أول من نطق بنداء الوطن، نطق بهذا النداء ولم يكن قد تجاوز عشرين عاما، ثم ما زال يبث هذه الفكرة السامية والروح الشريفة مدة أربعة عشر عاما متتالية، تارة بالصحافة وطوراً بالخطابة، وأخرى بالمدرسة، ظل يبث هذه الفكرة بجهد عظيم أضعف صحته وقرب منيته، لقد أنشأ مصطفى كامل الوطن المصرى. فهو بذلك قد أتم أشرف عمل أدبى يخلد له الذكر الحسن على مر الأجيال، وأضاف إلى هذا العمل الأدبى عملا سياسياً، وهو السعى فى تحرير مصر من رق الاحتلال الانجليزى وجعلها أهلا لهذا التحرير، فعمل مصطفى كامل كان إذن أدبياً وسياسياً معاً».

ووصفه الكاتب الفرنسى (لويس برتران) فى مجلة العالمين، وكان قد زاره وهو فى أوج مجده، قال:

«قصدت شيخ الوطنيين مصطفى كامل باشا وزرته فى داره، وقد كانت مدام جولييت آدم أعطتنى كتاب توصية إليه، فاستقبلنى رئيس الحركة الوطنية ومدير سياسة جريدة اللواء فى غرفته بإدارة الجريدة، فأحسن وفادتى وأكرمنى، دخلت غرفة الرئيس فعرتنى دهشة، لأنى وإن كنت لا أنتظر أن ألاقى شيخاً عربياً ذا لحية بيضاء، ولكن كنت أحسب أنى ملاق رجلاً كبير السن قوى الجسم ساكناً كما هو المعهود فى الطبقة العالية من المسلمين، نعم عرتنى دهشة لأنى وجدت فتى شديد العارضة عظيم النشاط، لا يدل ظاهره على أن عمره يتجاوز الخامسة والعشرين، مع أنه فى الحقيقة قد بلغ الثانية والثلاثين، رأيت رجلاً صغير الجسم، شاحب اللون خفيف اللحم، تدل ملامحه على أنه رجل رقيق عصبى المزاج، لكنه مع هذا الجسم الضئيل كان جهورى الصوت خطيباً فطرياً، فكلمنى عن شىء من تاريخ حياته، ومن عجيب ما لاحظته أنه بالرغم من حبه وبغضه كان يحكم على الناس بفراسة عجيبة من غير أن تخدعه صلة النسب أو رفعة الرتب، ثم إنه فوق ذلك

خبير بدخائل السياسة الأوروبية كل الخبرة، وبالرغم عن أنى كنت وإياه وحدنا فى غرفة، فإنه كان يخاطبنى وكأنما هو يخطب فى جمع عظيم، ومن مزاياه العجيبة أن له تأثيراً فى النفوس يضطرها إلى الإقناع بما يقول حتى إنى لم أتركه إلا وقد انقسم فؤادى بين الميل الغريزى إليه، وما سمعته من قبل من خصومه، على أنى كنت شديد الرغبة فى مقابلته مرة ثانية، قابلته مراراً وتحادثت معه كثيراً، فعرفت فيه السياسى الحكيم الذى يعرف كيف يستخدم الظروف والفرص، وكيف يلين وكيف يقسو، وكان من رأيه ألا يعتمد على أوروبا إلا قليلا، وإن الثورة الحربية جنون، وكل عمله ينحصر فى تقوية روح الوطنية والاتحاد بين مواطنيه، والمقاومة السلمية، وكان يحتقر مدنية لا غاية لها إلا الرقى المادى دون عناية بتحرير النفس أدبياً، فما كان أجمل جهاد ذلك الشاب المخلص الذى نصب نفسه لمحاربة خصم قوى عنيد مع أنه لا سلاح له إلا قلبه ولسانه».

فضله على الوحدة الوطنية

إن الفقيد هو أول من أسس الوحدة الوطنية وجعل لواء الوطنية يضم المسلمين والأقباط على السواء، كثيرون من الكتاب ينسبون هذا الفضل إلى سعد زغلول، وهذا خطأ تاريخى، وإجحاف لا مسوغ له، والحقيقة أن مصطفى كامل هو صاحب الفضل فى تأسيس هذه الوحدة، اعتبر ذلك فى اصطفائه الأستاذ ويصا واصف ومرقص حنا باشا، وهما من خيرة الوطنيين الأقباط وضمهما إلى الحركة الوطنية، فكانا من أكبر أنصاره وأعوانه فى الجهاد، وقد كان فى خطبه ومقالاته يدعو إلى ارتباط المسلمين والأقباط فى الجهاد الوطنى.

قال فى خطبته بالإسكندرية يوم ٨ يونيه سنة ١٨٩٧ : «إن المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش، ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد» (ص ١١٠).

وقال فى خطبته بالإسكندرية يوم ٢ يونيه سنة ١٩٠٠ : «كيف يستطيع رجل وطنى أن يدعو للشقاق والبغضاء وهذه الدعوة مناقضة للوطنية الصحيحة، فالأقباط إخوة لنا فى

الـوطن تجمعنا أشـرف رابطة، وقـد عشنا معهم القـرون الطوال عـلى أتم وفاق وأكمـل اتفاق»(ص ١٥٧).

وتبدو هذه الروح الوطنية فى كل أقواله وأعماله.

وليس أبلغ فى الدلالة عل أنه الموجد للوحدة الوطنية من شهادة المرحوم مرقص حنا باشا فى حفلة تأبينه يوم ٢٠ مارس ١٩٠٨، إذ قال عنه:

«ليس الأبطال قائدى الجيوش والقابضين على دفة الأساطيل، إنما الأبطال هم أولئك المتمسكون بالمبدأ القويم وأهدابه، الدائبون على السير فى سبيله، حتى رفعوا قومهم إلى أوج الرقى والعلا، سار الفقيد فى سبيله هذا ثابت الجأش، شديد المراس، لا يلوى على أحد ولا يقف به أمر، حتى فاز كما نوى، **وأراد فكونّ الوحدة الوطنية، وأرانا طريق الإخاء والحرية**، وهدانا إلى السعادة الحقيقية رسم لنا طريق الوفاق والتآلف، طريق الحرية والاستقلال، وهدانا الجمهور العظيم الذى نراه اليوم التف حول قبره وقد ضم بينه جميع العناصر المصرية يقول لكم بأفصح لسان وأجلى بيان وأقوى حجة وأعظم بلاغة: «إن التآلف بيننا أصبح قاعدة ثابتة»، أن الشبيبة المصرية لا تعرف غير أنها الشبيبة المصرية، وألا واجب عليه سوى خدمة مصر والمصريين بلا تخصيص ولا تقسيم، **هذا بناء مصطفى كامل، هذا عمل مصطفى كامل، وقد بدا لنا جنى ثمره من الآن، لأن الاتحاد هو السلم الأول للوصول إلى الحرية والاستقلال».**

تضحياته

سيظل اسم مصطفى كامل عَلماً للوطنية المنزهة عن الأهواء،ومثالاً للإخلاص والتضحية لا يمحوه الزمان، وتبدو روح التضحية فى تاريخه من الطريق الذى سلكه فى الحياة، لم يسلك الطريق السلطانى الموصل للرخاء والراحة، والأبهة والجاه، ونعنى به طريق المناصب، ولو هو اختاره كما فعل معاصروه لبذهم جميعاً بذكائه وكفاءته ونشاطه، ولضمن لنفسه ولأهله وذويه طبقة بعد طبقة رغد العيش، والثروة الطائلة، والمراكز الممتازة، ولكنه على عكس ذلك، اختار الطريق الشائك، طريق الجهاد ضد الاحتلال وضد الحكومة معاً، ولم يكن هذا الطريق ليجلب لصاحبه نفعاً ولا جاهاً، بل هو طريق

العقبات والمصاعب، والجهد والحرمان، فهذا الاختيار فى ذاته يدلك على مبلغ ما فطرت عليه نفس الفقيد من الإخلاص والتضحية، والعمل لوجه الله والوطن فقط. وفى ذلك يقول فى محاجة خصومه سنة ١٩٠٠: «يمكننى اليوم أن أقول أمام الملأ كله أنه **لا يستطيع إنسان فى العالم أن يدعى أنى خالفت مبدأ من مبادئى لحظة واحدة**، مع تغير الظروف وتقلبات الأحوال، وموت الآمال عند الكثير من الرجال، ولا يوجد من يقول إنى عملت ما عملت طمعاً فى عز أو ثروة، لأن الطامع فيها لا يقف موقفى، ولا يجاهد ضد الاحتلال، تحت سماء مصر، ولا يخطب ضد المحتلين حتى فى الوقت الذى كان أخى فى قبضتهم يعاملونه بالذل والاستبداد ويذيقونه أنواع العذاب وصنوف البلاء ويهددونه بالموت والإعدام فى كل آن».

لقد ضحى إذن بمنافعه وراحته ومصالحه الشخصية فى سبيل حياة الجهاد التى اختارها لنفسه، ولم يتحول عنها طول حياته، كما ضحى بمصالح أقرب الناس إليه وأعزهم عليه.

ذلك أول مظهر للتضحية فى تاريخه، وهناك التضحية الكبرى التى تتضاءل بجانبها كل تضحية، وهو بذله حياته وشبابه فى سبيل مصر.

فلقد رأيت مما بيناه فى الفصل الخامس عشر (ص ٢٧٢) كيف كانت جهوده أقوى مما تحتمل صحته، ذكر المرحوم فريد بك أنه رافقه فى سفره إلى باريس ولندن فى شتاء سنة ١٩٠٦، لاختيار محررى جريدتى ليتندار اجبسيان وذى اجبشيان استندارد، وأن المرض عاوده أثناء تلك الرحلة، ولزم الفراش بباريس عدة أيام عادة فيها الدكتور روبان الطبيب الشهير ونصح له بحضور فريد بك بعدم إجهاد قواه فى العمل، وأن يترفق بصحته فلا يحملها فوق طاقتها من العناء، ويترفق كذلك بأمته فلا يحرمها وجوده حتى يتم مهمته التى وقف حياته عليها، قال فريد بك: ولكن النصيحة أتت بعكس ما كنا ننتظره، فإنه رحمه الله لما أحس بضعف قواه واستعداده للأمراض الفتاكة أسرع الخطى وضاعف الجهود فأتم معدات اللواءين الفرنسى والإنجليزى، حتى ظهر فى مارس سنة ١٩٠٧، واستمر يجاهد ويبذل الجهود الجبارة طيلة سنة ١٩٠٧، كما تراه مفصلاً فى الفصل الثالث عشر والفصلين التاليين.

مضى الفقيد فى جهاده لا يلوى على شىء، ولا يكترث للأخطار التى تهدد حياته،

فكان كالبطل المجاهد فى حومة الوغى، يرى الخطر ماثلاً أمام عينيه، ومع ذلك لا يهاب الموت، ويتقدم الصفوف ويجود بحياته فى سبيل الوطن، وهذا لعمرى أقصى درجات التضحية فى الجهاد، فهو بحق باعث الحركة الوطنية ومحييها، ثم هو شهيدها وأكبر وأعظم ضحية لها، وإنه ليجدر بنا أن ننقش على قبره هذا البيت من قصيدة شوقى فى رثائه:

يا صبّ مصر ويا شهيد غرامها هذا ثرى مصرٍ فنم بأمان

* * *

الفصل الثانى والعشرون

نماذج من خطب الفقيد

رأينا أن نختم الكتاب بنماذج من خطب الفقيد، لتتكون منها صورة بارزة من حياته الخطابية، فى مختلف مراحل جهاده، وقد اخترنا هذه النماذج من أربع من هذه الخطب: الأولى والثانية فى إبان حياته السياسية سنة ١٨٩٦، والثانية سنة ١٩٠٢، فى منتصف سنى جهاده، والثالثة سنة ١٩٠٧ فى أوج مجده الوطنى.

١ - خطبته بالإسكندرية

يوم ٣ مارس سنة ١٨٩٦ (انظر ص ٧٨)

سادتى وأبناء وطنى الأعزاء:

ما اقتربت من مدينتكم الزاهرة حتى شعرت من نفسى بارتياح زائد وانشراح خاص، لأننى عهدتها وأعهدها مدينة الحياة الحقيقية ومهد الرجال المشهورين بالشجاعة والبسالة والإقدام، والمقابلة الودية التى قوبلت بها من كرمائها وساداتها قبل أن أقف بينكم الليلة خطيباً زداتنى حباً لها وميلاً لأهلها، وإنى أحمل كل ذلك الإكرام من أهل الإسكندرية على عظيم رغبتهم فى إعزاز مبدأ الوطنية الشريف لا على إكرام شخصى الضعيف.

ويسرنى أن أحادثكم اليوم فى شئون الوطن العزيز، هذا الوطن الذى تحبونه حباً مفرطاً، وتعملون لخيره وسعادته، وأرانى موفقاً لحصولى على هذه الفرصة النمينة التى أتبادل معكم فيها ما يختلج فى نفوسنا من الآمال والأمانى التى هى معنى الجياة والباعث القوى على العمل بجد ونشاط.

ويلزمنى أن أقول لكم إنى قبل مبارحة القاهرة أخبرت بعض أصدقائى بأمر هذه الخطبة، فأشار علىّ فريق منهم بعدم إلقائها، معللين ذلك بقولهم «إنك إذا ذهبت إلى

الإسكندرية واجتمعت بأهلها وحادثتهم فى مصائب مصر وآلامها ربما نتج عن ذلك شىء من هياج الأفكار، الأمر الذى لا تحمد عقباه لأنهم شديدو الوطنية وأنت شديدها وقد تدعو شدة الشعور بالواجب إلى ما يتجاوز الحدود أحياناً» وزاد بعضهم على ذلك قوله: «ولربما انتهز خصومك وخصوم الوطن العزيز هذه الفرصة لإحداث ما يقلق ويضر لتلقى التبعة عندئذ على أهل الإسكندرية وعليك أيضاً»، فخالفتهم فى الرأى وجئت ثغركم الباسم معتمداً على حكمتكم، اعتمادى على همتكم وشجاعتكم، وإن أفضل صفة اتصف بها أهل الإسكندرية هى ولا غرو معرفة الواجب والشعور الصادق بحقيقة الحوادث، والواجب اليوم على المصريين كافة إنما هو التمسك بالصبر والاعتدال أكثر من ذى قبل.

وقد اتخذتم يا أبناء الإسكندرية فى كل بلاد مصر مثالاً للهمة والحماسة، فلتكونوا كذلك مثالاً صادقاً للدعة والسكون والاعتدال لتصبحوا وتمسوا أساتذة لمصر كلها فى تأدية الواجب نحو الوطن المحبوب.

ولقد أشاع عنكم بعض كثيرى الظنون أن غيرتكم وحميتكم يستعملان أحياناً ضد صالح البلاد، وأنكم تنفذون من حيث لا تشعرون مآرب ذوى الغايات بإحداث القلاقل، وكنت كلما أسمع مثل هذه الإشاعات أستغربها كل الاستغراب، ولى الحق فى ذلك الاستغراب، لأن الغيرة التى تستعمل فى غير موضعها تكون دواماً أضر من البلادة والخمول، فلذا أناديكم – وإن كنتم أعلم منى بالواجب – مناداة محب لبلاده ولمدينتكم بنوع خاص، أن تنفوا باعتدالكم وسكوتكم تهمة من يرمونكم بحب الهياج والاضطراب.

ومثل مصر اليوم وهى على بـاب السعادة المقبلة مثـل مريض قـارب الشفاء ينصحـه الطبيب بزيادة التحفظ وعدم التعرض للهواء لئلا ينتكس بالعلة فتعود عليه بـويل أشـد من ويلهـا الأول، فلنحترس جميعـاً معشر المصـريين من التعـرض إلى مـا وراء تعـرض الوطن نفسه إلى خطر عظيم.

وإن صفتى التسامح والغفران اللتين اشتهرت بهما الأمة المصرية كانتا من أعظم الأسباب التى استمالت قلوب الأوروبيين نحوها، وجعلتهم يعتبرون مصر كقطعة أرض من أوطانهم فهم يقطنونها آمنين مطمئنين، متمتعين براحة البال والبعد عن البلبال، ولذا وجدنا منهم على اختلاف جنسياتهم ومللهم نصراء أشداء للمطالبة بحقوق مصر وتحقيق رغائب أبنائها، ويفرحنى كثيراً أن أرى اليوم من أكابر وأعاظم القوم فيهم قد حضروا هذا

الاحتفال ولبوا الدعوة بلطف وتكرم، وهو ما يدلنا على اشتراكهم معنا فى الإحساسات نحو هذه البلاد العزيزة.

وأول مدينة فى مدائن القطر سكنها الأوروبيون ووجدوا من أهلها بشراً وائتلافا ولا جرم مدينة الاسكندرية، ولكم الحق يا أهلها وأعز أبنائها أن تفتخروا بذلك أعظم الافتخار، فداوموا أيها الوطنيون الأعزاء على إكرام وفادة ضيوفكم ونزلائكم الذين يشتركون معكم فى الإحساسات نحو هذا البلد الأمين، وليكن مبدؤنا دائماً «أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا».

وقد يفهم بعض الناس بالاعتدال الكف عن كل عمل يخدم البلاد ويسبب سعادتها، فتراهم مقصرين كل التقصير عن واجباتهم، وهؤلاء يخطئون الاعتقاد، لأن الاعتدال لا يفيد التهاون والإهمال، وما أجمل الاعتدال مع العمل على خدمة الأوطان.
وإن فى مصر فئة من الناس نسيت أن الأمل داعى العمل، فلبست ثياب اليأس وقضت بظنونها على مستقبل الوطن العزيز، وجعلت مهمتها فى الأمة تثبيط الهمم وإقعاد العزائم، فلا تنادى فى المحافل والأندية إلا بأنه ليس لمصر حظ فى المستقبل من الحرية والسعادة الأجتماعية، وأن شعبها قد مات من زمن طويل وليس لمفكر عاقل أن يؤمل له مستقبلا جديداً، وترى رجال هذه الفئة اليائسة يرمون كل رجل بالدفاع عن حقوق البلاد المقدسة بعدم الخبرة وقصر النظر.

وعندى أن الرجال اليائسين وإن كانوا أقل من القليل يضرون بلادهم أعظم ضرر بما يقولونه ويكررنه، إذ أن قتل العواطف الشريفة وإخماد نار الغيرة الوطنية هما ولا محالة أكبر جناية تجنى على الوطن وأهله، فليكن من واجباتنا أن نترك هؤلاء اليائسين فى سفن يأسهم تصعدهم أمواج الأفكار وتهبطهم حتى تصل بهم إلى شاطىء الخير وبر الرفاهية فنذكرهم عندئذ بفساد مزاعمهم وخطأ آرائهم .

ولاتظنوا أيها الإخوان الأعزاء أن عملكم لخير بلادكم يقابل من الإنجليز بالازدراء والاحتقار، كلا ثم كلا، الانجليزى الذى يحتقر مصريا يحب بلاده ويدافع عنها بصدق وإخلاص يكون محتقراً لنفسه ولقومه، لأنه هو وكل مواطنيه أول العاملين فى الأمم على تقدم بلادهم، ولا يرضيهم أن تبقى سعيدة فى داخلها فقط، بل يبذلون كل ما فى وسعهم لاتساع نطاق مستعمراتها واستدرار الخير من موارده لها وحدها لا لغيرها.

وإذا ولجت موضوع الوطنيين المصريين إزاء الإنجليز فأرانى فى حاجة لأن أستميحكم الإذن فى التكلم عن مسألة الاحتلال وإبداء رأيى فيها بكل صراحة.

وليس من غرضى أن أطعن على الحكومة المحلية أو أنتقد على أعمالها فكلكم تعرفون مواضع الخلل فى الإدارة ومواضع الكمال والانتظام، وبديهى أن نواميس الوجود قاضية بسوء إدارة كل مصلحة وطنية يتداخل فى شئونها تداخلا فعلياً رجال غرباء لا يفقهون لغة البلاد ولا يعرفون شيئاً من عوائد أهلها وأخلاقهم.

وليس غرضى كذلك أن أندد بحكومة جلالة الملكة أو بالأمة الإنكليزية، لأنى أترفع عن أن أدافع عن بلادى بالطعن والسباب، فضلا عما أحس به دائماً من وجوب احترام الشعب الإنكليزى، وإنما الذى أريد ذكره وإيضاحه هو أن الخلاف حقيقة، الخلاف بيننا معشر المصريين وبين بعض الانكليز هو: هل زمن الجلاء عن مصر حان أو لم يحن، فدول أوروبا ذوات المصالح فى مصر تقول معنا إن زمن الجلاء قد حان منذ أعوام، والمستر غلادستون زعيم الأحرار وأكبر سياسى انكلترا يقول ذلك القول بعينه غير خائف لوما أو تعنيفاً وبعض أبناء التاميز يقولون ضد ذلك إن زمن الجلاء لم يحن وإن مصر فى حاجة إلى وصى عليها.

وقد نرى بعض المتحزبين للاحتلال الأبدى - وهم ليسوا من الإنكليز والإنكليز لايستطعيون أن يكونوا على رأيهم - يقابلون مطالبنا الشرعية بالسباب والشتائم، فهل يستطيعون اليوم أن يقولوا عن المستر غلادستون إنه عدو لبلاده كما يتهموننا بنكران الجميل؟!

وبعيد عن ذهنى أنه يوجد على الأرض رجل انجليزى يحب وطنه حباً حقيقياً ويستطيع القول بأن انكلترا تريد وضع يدها على وادى النيل، فإن ذلك الأمر بل هذا الجزم العظيم مناقض كل المناقضة لمصلحة انجلترا نفسها ولشرفها العالى الشأن.

وإلا فهل يرضى أبناء انجلترا أن يستعمل شرفهم آلة دنيئة لامتلاك بلاد حرة واستعباد أمة حرة؟ وهل ترضى الأمة البريطانية الغيورة على مقامها واحترامها أن يقال عنها إنها لا شرف لها ولا احترام لكلمتها العلنية وعهودها الصريحة؟ إنى لا أظن ذلك وأعتقد أنكم كلكم على رأيى.

وهل تسمى المروءة مروءة إذا كان معناها أن أمة أوروبية استغاث بها أمير شرقى فأغاثته ونصرته، تم عملت ملكه واسترقاق أمته وشعبه؟

إذن فنقطة الخلاف الوحيدة بيننا وبين بعض الإنكليز هى أن زمن الجلاء على رأينا حان، وعلى رأيهم لم يحن إلى الآن، وعهد كل عاقل بالأمة الانجليزية أنها إذا وقفت على الحقيقة وأرشدت إلى الصواب كانت فى مقدمة أمم أوروبا مطالبة بالجلاء.

وعسير على الأمة الانجليزية الوقوف على الحقيقة إلا إذا قام فيها خطباء من أفرادها ومن المصريين أنفسهم يبطلون ما تذيعه :(التيمس) وأخواتها من ذوى الأغراض السافلة من أن الإنجليز لم يقوموا فى مصر إلى الآن بالواجب عليهم، ولقد سألنا شيخ الأحرار غلادستون أن يكون لأبناء جنسه المرشد لأمته عن حقيقة مسألة مصر وعن ضرورة الجلاء، وأملنا أن يجيب طلبنا ويحقق أمنيتنا .

ولكن إرشاد الأمة الإنجليزية إلى ما ينتظره المصريون منها وما يعتقدونه فى شرفها لا يكون إلا برجال من أبناء مصر يقومون وينادون فى كل بلاد أوروبا بحقيقة أحوال مصر وأمانيها ليزيدوا من أنصارها. ويكون للوطن المصرى من الأمم الأوروبية نصراء عند مطالبته الأمة الإنجليزية بإجبار حكومتها على الجلاء.

ويكفينا لاستمالة الأمة الإنجليزية نحو مطالبنا الشرعية أن نقول لها بكل صراحة: لقد صار الشرقيون إلى ريب فى احترامك لشرفك وسك فى محافظتك على الوفاء بعهودك، فهل لك أن تطالبى بالجلاء عن مصر لتحققى للعالم كله بقاءك على عهدك الأول الشريف، ولقد غرر بك أيتها الأمة الخطيرة بعض ذوى الغايات وقالوا لك إن الأمن لا يستتب فى مصر وإن الخديو لا يستطيع حكم بلاده برجاله، ليجبروك على الحكم بلزوم الاحتلال، فاعتقدى أن ذلك محض اختلاف وأن الأمن مستتب والأمة كلها مخلصة لأميرها محبة له.

وإلا فهل يرضى الإنجليز بأن يقال عنهم إنه ليس فى إمكانهم إعادة الامن إلى ديار مصر بعد احتلالهم لها أربعة عشر عاماً؟

إذا قلنا ذلك للأمة الإنجليزية وعرفناها أننا لا نبغض الإنجليزى، بل نبغض المحتل من حيث هو محتل ، ولو كان أقرب الناس إلينا، لأننا أمة حية متمدنة نريد أن نحكم

أنفسنا بأنفسنا ولا نرضى أن نبقى قصراً تحت حكم وصى ننظر إلى تقدم الأمم الأخرى نظره الكئيب التعيس دون أن نستطيع محاكاتها ومجاراتها، إذا قلنا لها ذلك وأسمعناها هذا الصوت «صوت الحق» كانت ولا ريب أول أمة قاضية على الاحتلال، آمرة حكومتها بالإسراع بالجلاء، لأن من شأن كل أمة متمدنة تمدناً عظيما كالأمة الإنجليزية أن تحترم الشعوب المطالبة بحقوقها العارفة بواجباتها.

وإذا كان صالح مصر يقضى كما قلت لكم بوجوب وجود خطباء من أبنائها يطوفون العواصم والمدائن فى أوروبا معلنين آراءهم مجاهرين بإحساساتهم مطالبين بحرية بلادهم فوجود خطباء مثلهم فى مصر نفسها يرشدون الأمة إلى الخير ويحذرونها من الوقوع فى الشر أصبح أمراً محتما.

وغنىٌّ عن البيان أن الصادق فى حب بلاده لا يعرف إلا عند الحاجة، والوطنى لا يسمى وطنياً إلا إذا خدم وطنه فى شقائه، أكثر من خدمته له فى رفعته وهنائه.

ولا ريب عندى فى أنكم كلكم تودون مثلى أن تكون مصر بلاداً حرة، منتشرة فى سائر أرجائها من الإسكندرية إلى منابع النيل أنوار العلوم والمعارف، وتصبح كما كانت مهداً للفضائل والآداب، مشرقا لشمس المدنية فى بلاد الشرق، مرسحاً للتنافس فى الصناعة والتجارة، مجمعاً آمنا للأجانب ذوى المصالح فيها، طريقا سهلا للرائدين، لاريب عندى فى أنكم كلكم تحبون أن تنتسبوا لمصر إذ يكون هذا شأنها، يفتخر عندئذ كلٌّ منكم أن ينادى بأعلى صوته (أنا مصرى).

ولكن ألا تحبون كذلك «مصرا» خيم عليها الشقاء وحل بها البلاء وسبقتها الأمم وأصبحت بعد فى مصاف الشعوب القاصرة، تناديكم وأنتم حولها: «:ألا فانصرونى يا أ البنين، ألا فارفعوا شأنى بين الأمم واجعلوا لى مكانا فسيحا بين الشعوب المتقدمة الحي أجل ! أجل ! تحبونها ويجب عليكم أن تحبوها وتحنوا عليها كما يحن المرء على أمه الشف إذا اعتلت ويسعى فى خدمتها ويبحث عن دوائها.

ولا يكن حبكم واقفا عند حد الحب وحنانكم عند الحنان، بل ليتجاوزوا ذلك العمل لخيرها وإعلاء شأنها.

وثقوا أيها الوطنيون الأعزاء بأن المستقبل لكم ولها، فاعملوا لسعادتها وتذكروا

قول غمبتا الشهير «ليس المستقبل بمستعص على أحد»، نعم لنعمل لسعادة الحال والاستقبال، وننفذ ناموس الطبيعة لئلا نخرج أنفسنا من نوع الإنسان ذلك الناموس القاضى على كل فرد بالعمل حتى تستريح النفس فى السكينة والظلام.

ولقد كنت أحضر فى أوروبا مجتمعات يتردد عليها كثير من الغربيين ذوى الجنسيات المختلفة، فكان كل يفاخر القوم ببلاه وذويه، الأمر الأمريكانى بحرية أوطانه وشرف تاريخها وحسن نظامها وكبار رجالها، والفرنساوى بشهامة أبناء وطنه وفضل جنسه على النوع الإنسانى وحرية مبادئه وشرف تاريخ بلاده العظيم، والألمانى والإنجليزى وغيرهم كذلك، وأنا أنظر الجمع وأسمع الجميع وقلبى فائض حزنا وفؤادى ممتلئ كآبة وعيناى مغرورقتان بالدموع، وليس يجرى على لسانى غير ذكر مصائب مصر وآلامها، فهل لنا أن نفاخر بالأمم يوما من الأيام ببلادنا وأوطاننا؟ هل لنا أن نكون أمة حية قوية محترمة؟ إنى أؤمل ذلك، آمله من صميم فؤادى.

ومستحيل علينا أن نصل إلى السعادة التامة ونفوز برغائبنا الوطنية إلا إذا اتحدت كلمتنا واجتمعت قلوبنا على محبة البلاد بصدق وتجرد عن الشخصيات فلنتحد قلبا ولسانا، ولا يكن مثلنا مثل عائلة اشتعلت النار فى دارها وأفرادها متباغضون، فبدلا من أن يجتمعوا لإطفائها أخذوا يتنازعون ما أبقته يد النار من المتاع، غير ناظرين إلى النار تصل إليهم فتحرقهم وتحرق متاعهم وتقضى على دارهم القضاء الأخير إذا لم تُزل الشقاق من بينهم ويجتمعوا على إطفائها.

وإن يوما تجتمع فيه قلوبنا على محبة البلاد وخدمتها وتتحد فيه كلمتنا يكون يوم تحقيق الآمال وعنوان سعادة الحال والاستقبال، ويحق لنا فيه أن تقف أمام الأمم كافة وننادى بأعلى صوتنا وبكل فخار (نحن بنو مصر الأحرار).

٢ – خطبته بالفرنسية فى الاسكندرية
يوم ١٣ أبريل سنة ١٨٩٦ (انظر صفحة ٨٢)

(تعريب الخطبة)

أيتها السيدات، أيها السادة.

إنى أقف بينكم متكلما وانفعال نفسى عظيم، ولقد كان بودى أن أعتذر للذين شرفونى بدعوتى إلى إلقاء هذه الخطبة لو لم يكن أحساسى بالواجب علىّ دعانى لإطاعة أمرهم والانصياع لرغبتهم؛ فجئت إلى هذه الحفلة وفؤادى منشرح لأنى أخاطب نخبة نزلاء الأوروبيين أولئك العاملين بالنشاط، الذين هم بيننا طليعة المدنية الغربية (تصفيق شديد[١]).

ومما يزيدنى سروراً أنى واقف أمام جمعية أصدقاء لبلادى أوفياء لها، لم يقصدوا بمجيئهم هذه الليلة سماع خطيب بليغ بل جاءوا ليظهروا علامة ودهم لوطنى ضعيف ولمسألة مصر الشريفة الحقة.

أجل أيها السادة، يتكلم الإنسان أمامكم بكل ارتياح، وافتخار عن الأوطان ويدافع عن حقوقها المهضومة ويطلب لها مستقبلاً سعيداً، فإنكم كلكم تنسبون إلى أوطان شريفة حرة سعيدة، وتحبون هذه الأوطان وتعشقونها عشقاً صحيحاً ولا استطاعة لكم غير الموافقة للذين يحبون أوطانهم مثلكم (تصفيق متضاعف)

وإننا معشر المصريين نحب مصرنا الأسيفة بكل إخلاص، ولا نود لها شيئاً آخر غير يقظتها وسعادتها، ولكن من سوء الحظ يوجد فى هذا البلد طغمة من الرجال يطعنون أشد الطعن على الوطنيين، ويدعون مع ذلك أنهم المدافعون عن الاحتلال الإنجليزى، على أنهم لو كانوا حقيقة المدافعين عنه لحسبوا عاراً عليه وخجلا، فإن انجلترا نفسها لا تستطيع أن تبغض أو تحتقر مصرياً وطنياً إذ من ضمن الأسباب التى تنتحلها لنفسها

(١) لم يتيسر فى غير هذه الخطبة معرفة المواضع التى صفق فيها بالضبط الحاضرون أو التى أظهروا فيها علامات الاستحسان.

للإقامة فى مصر تربية المصريين، فهل من الجائز أن يكون المصريون حسنى التربية من غير أن يكونوا وطنيين محبين لبلادهم؟ كلا! (علامات استحسان).

ولقد كان أولئك الذين يدعون الدفاع عن الاحتلال الإنجليزى يزعمون أنهم أوقفونى إلى الأبد، إذ يظنون بسذاجة لا مثيل لها أن الإجحاف الذى لحق أخيراً بأحد إخواتى[٢] يضعف قواى أو يوهن عزيمتى أو يقلل مجاهدتى فى سبيل سعادة بلادى، فأخطأوا الظن لأننى بعيد عن أن أملّ، وسأستمر بقدر استطاعتى فى المدافعة عن وطنى العزيز، سأستمر - ولا يوقفنى فى طريقى إلا الموت - فى وصف مصائب مصر وآلامها والمناداة فى كل مكان بحقوقها المقدسة، والمطالبة بحريتها واستقلالها (تصفيق شديد متواتر).

وإنا نعلم أننا بدفاعنا عن مسألة بلادنا الشريفة وبتقديسنا لها نعرض أنفسنا للضرر والخطر، ولكن اعتقدوا جيداً أيها السادة أن همتنا لا تفتر أبداً، لحق بنا ضرر أم لا (تصفيق واستحسان).

فليس هناك من شىء أجمل فى عين الوطنى من المجاهدة فى سبيل بلاده، فضلاً عن أن المجاهدة بالنسبة لنا ليست أمراً صعباً، إذ ضد من نجاهد نحن؟ أضد الأمة الإنجليزية؟ كلا ليس جهادنا ضدها، إنما هو ضد فريق من الناس يعملون لتأييد الاحتلال الإنجليزى فى مصر إلى الأبد قضاء لأغراض شخصية أو أملاً فى تحقيق مآرب ذاتية.

أجل! إنا نجاهد هذه الفئة التى أعضاؤها أعداء للحقيقة، وضدهم وحدهم نبذل كل قوانا فإنهم وحدهم الآثمون الحقيقيون فى مسألة مصر، فهم ينشرون فى كل مكان عن حالتها الأخبار الكاذبة ويخلقون كل يوم حججاً سافلة واهية لإطالة أمد الإحتلال البريطانى وهو الحمل الثقيل الذى لا يستطاع تحمله (تصفيق).

ومن سوء حظ أولئك المشهورين بالمبالغة فى الدفاع عن انجلترا أن أعمالهم توصلهم غالبا إلى نتائج مخالفة للغرض الذى يعملون له، لأنه كما قال حقاً فيكتور هوجو:

---

(٢) يشير الفقيد إلى اضطهاد الإنجليز شقيقه على فهمى كامل (بك) وكان وقتئذ ضابطاً بالجيش المصرى. (انظر ص ٨١).

للحقيقة والحرية مزية خاصة بها، وهى أن ما يعمل ضدهما وما يعمل لها يخدمهما على السواء (تصفيق شديد).

أما فيما يختص بالأمة الإنجليزية فلا نستطيع إلا احترامها، ومهما وقع فإننا نحترمها دائماً، كما نحترم كل الأمم الأخرى، إذ أنه لا يصح بغض أية أمة ولا يقضى على شعب من الشعوب بخطأ بعض أفراد من أبنائه، وإنا نعلم حق العلم أنه إذا كانت الأمة الإنجليزية موافقة على الاحتلال راضية به، فذلك إنما هو لكونها جاهلة لحقيقة إحساس المصريين لأنها لو كانت تعلم إحساسنا لأظهرت عدم رضائها باحتلال ضار كهذا الاحتلال ولكانت ولا محالة قضت عليه (تصفيق) ولكن وا أسفاه قد تساق الأمم غالباً فى أجهل السبل على يد من تثق به أكثر من غيره!

ولئن قالوا ليس فى السياسة شيء من الشرف وإنها ليست شيئاً آخر غير الكذب والخيانة، فإننا لا نستطيع أن نتصور طرفة عين أن أمة بلغت من العظم والمدنية مبلغ الأمة الإنجليزية تجسر يوماً من الأيام على أن تخون علناً سريرتها وتحتقر أمام الناس شرفها (تصفيق شديد متواتر)، فإنها على نسق كل الأمم غيورة على كرامتها التى يهدرها ولا محالة أن تطيل الاحتلال الإنجليزى إلى أمد غير محدود.

وكل الذين يعرفون للشرف معنى يعتقدون مثل غامبتا «أن ليس هناك سياسة حقيقية فعلية مثمرة إذا اعتدت القوة ولو لزمن مؤقت سريع الزوال على المبادىء الراسخة للعدالة والإنسانية (تصفيق عظيم متواتر).

وإن هذه السياسة المؤسسة على مبادىء العدالة والإنسانية هى السياسة الحقيقية بالأمة الإنجليزية، هذه الأمة التى لا تزال محترمة معتبرة عند جماعة مقهورين مثلنا، عند الذين يريد بعض سواسها أن يضحوهم هم ومستقبلهم فى سبيل نجاح آمالهم الباطلة.

لقد رأينا من عام ١٨٨٢ أشد المناظر وقعاً على النفوس، رأينا أكثر من ٦٠ ألف مصرى ماتوا فى التجريدات التعيسة لأعوام ١٨٨٣ و١٨٨٤ و١٨٨٥، رأينا تقهقر التعليم والتربية، رأينا انحطاط الآداب العامة وفقر الفلاح والوطن نفسه وكم رأينا من أشياء مؤلمة ومناظر مفتتة للأكباد، ومع ذلك كله قد حافظنا على سكينتنا وبقيت ثقتنا عظيمة بالأمة الإنجليزية وبوعودها وبشرفها (تصفيق طويل).

واليوم يسيئون مقابلة تساهلنا وصبرنا وسكينتنا، ويخاطرون بإلقاء البلاد وأبنائها فى هاوية.

أجل أيها السادة يخاطرون بإلقائنا فى أعمق الهاويات وأخطرها، إنى أريد أن أتكلم على حملة السودان.

أما من جهة استرجاع السودان فكلنا نريده وكلنا يجاهر بذلك علنا كل يوم فإننا نعتقد اعتقاداً صحيحاً أن مصر بدون السودان تكون أحقر أرض وأفقر بقعة فى الدنيا، وبطلبنا جلاء الجنود الإنجليزية عن بلادنا لا نطلب فقط تحرير مصر من الإسكندرية إلى وادى حلفا بل نطلب تحرير كل وادى النيل لا يمكن أن يحكم النيل كله إلا بحكومة واحدة (علامةاستحسان).

وإنا نود من صميم أفئدتنا أن نسترد المقاطعات السودانية التى هى لبلادنا روحها نفسها، وإننى قد أعلنت من جهتى هذا الإحساس عدة مرات، وقلت منذ خمسة أسابيع لأبناء وطنى من أهل الإسكندرية إن أعظم واجب على سمو الخديو عباس باشا هو إعادة أملاك مصر المفقودة إليها، وأنا أعيد هذه الليلة ما قلته وما أقوله دائماً، أبداً، ولكنا ما أردنا قط ولا نريد أبداً أن نسترجع السودان تحت قيادة الإنجليز (تصفيق شديد).

فإن وجود الإنجليز على رأس جيشنا يكفى وحده لعدم نجاح الحملة، يكفى لتحقيق مصيبة عظيمة، وبوجودهم على رأس الجيش يحفرون بيننا وبين السودانيين هوة من أعمق الحفر تؤخر لزمن مديد صلحنا معهم، أولئك الذين كانوا من رعايا الخديوية المصرية.

وفضلاً عن ذلك فإن الذى يجعل المصريين ناقمين من حملة دنقلة إنما هو سوء المقصد الذى يبدو عند كثير من رجال انجلترا السياسيين عندما تتكلم الدول بشأن الجلاء عن مصر، فإنا لا ننكر هذه الحملة فقط لكونها داعية لتعريض كل جنودنا لخطر عظيم، وأن من إحدى نتائجها التى لسوء الحظ تبدو لنا مؤكدة إنشاء جيش جديد وجعل العساكر الإنجليزية تحتل مصر كلها فى الحدود كما فى المدائن. ولكننا ننكر هذه الحملة بنوع خاص لأنها تؤخر لزمن طويل تحرير بلادنا (تصفيق شديد).

أجل أيها السادة، إنها تؤخر تحرير بلادنا وهو التحرير الذى نتمناه من كل قلوبنا والذى طالما وُعدنا به.

ذلك لأن انجلترا قد كشفت بيدها الغطاء عن مقصدها، وليس هذا من الوقت الحاضر فقط، بل من سنة ١٨٨٧ عندما أراد السير دورمندوولف أن يعقد مع جلالة السلطان اتفاقية المشهورة، فإن جملة من المادة الخامسة كانت تشير إلى ذلك بالعبارة الآتية:

«إذا ظهر فى ذلك للوقت – يشير إلى الوقت الذى عين للجلاء أى عام ١٨٩٠ – خطر داخل مصر أو خارجها، وكان ذلك الخطر يستوجب تأجيل الجلاء تنسحب الجنود الإنجليزية من مصر بعد زوال ذلك الخطر».

فيفهم إذن من اتفاقية وولف أنه كان يخشى ظهور خطر ما فى وقت الجلاء وبعبارة أخرى كان فى الحسبان أمر مسألة السودان وما يجرى بيننا اليوم، إذ أن خلق الاضطرابات وإيجاد الأخطار ليسا بالنسبة للسياسة الإنجليزية إلا أقل ما تنتجه يد التصنيع (تصفيق مستمر).

وإذا كانت انجلترا تريد بصدق نية وكرم أخلاق أن ترد السودان إلى مصر فكان يكفيها لبلوغ هذه الغاية أن تنجلى عن القطر، فإن الجلاء وحده يعيد لنا السودان.

لماذا بقى السودانيون مصرين على عصيانهم ضد مصر؟ لماذا لا يقبلون أى اتفاق معنا؟ لا ينكر أحد فى العالم أن وجود الإنجليز فى مصر هو الذى جعلهم بهذه الحالة (علامات استحسان).

(وبعد أن فند الخطيب الحجج التى يتذرع بها أنصار الاحتلال لبقائه، رد على تهمة التعصب الدينى المزعوم للمصريين قال):

أجل لنتكلم قليلا عن هذا التعصب الخيالى الذى يقول أعداؤنا إنه فى نفوسنا، إن أعداء مصر يريدون أن يمثلونا أمام أوروبا بهيئة قوم متوحشين مستعدين لإفناء كل أوروبى ساكن بلادنا متى رحلت العساكر الإنجليزية عنا، لقد تطرف فى هذا الادعاء أولئك الأعداء، فأرادوا أن يغشوكم أنتم أنفسكم ويسخروا من سلامة نيتكم، حيث يكررون أمامكم فى الجرائد وفى كل مكان هذه الأكاذيب وهذه الوشايات، كيف ذلك أيتجاسرون على أن يقولوا أمامكم هذه الأقوال أنتم يا أوفى أصدقاء مصر وأعز ضيوفها؟ كيف يستطيعون أن يغشوكم بدناءة كهذه عن صفات أمة مودتها لكم علانية؟

أمة قابلتكم – ونقول ذلك بأعظم فخار – بأوسع كرم وسخاء، إن القول بتعصبنا إنما هو أدنأ أكذوبة.

الأمة المصرية متعصبة! وامصيبتاه! أما ترون بأنفسكم أيها السادة أنه إذا كانت فى العالم أمة صفتها الخصوصية اللطف والوداعة فإنما هى ولا شك الأمة المصرية، فإن الكثير من الأوروبيين يعيشون بأعظم سكينة فى القرى مختلطين اختلاطاً دائماً مع الفلاحين، أى مع أكثر الناس تمسكاً بالدين، والبعض منها يتاجرون فى تجارتى الربا والخمور المحرمتين فى الدين الإسلامى، كل ذلك مع ما هم مع الفلاحين من حسن العلائق، فهل هذا من التعصب؟

هل احتجتم مرة من المرار إلى عضد عسكرى انجليزى ضد مصرى ما؟ هل يستطيع خصومنا أنت يثبتوا أن جيش الاحتلال يحميكم ضدنا؟ وأن وجود العساكر الإنجليزية ضرورى لسلامة حياتكم بيننا؟ كلا. أيها السادة، كلا.؟ (تصفيق شديد جداً).

ليفتش أولئك الذين يتهموننا بالتعصب فى كل تاريخنا، وليجثوا إذا كان الأوروبى فى زمن من الأزمان أسيئت معاملته، من الجائز أن يذكرنا الخصوم بالذكرى التعيسة للثورة العسكرية المشئومة التى كانت سبباً فى مصائب عديدة، ولكن كل رجل عاقل عادل يقول معنا إن تجاوز الحدود يقع كثيراً فى المظاهرات الأهلية الكبيرة، والدليل على ذلك الثورة الفرنساوية، ولقد حصلت فى كل البلاد اضطرابات وهى حاصلة الآن وتحصل فى المستقبل وفضلاً عن ذلك فإن التاريخ سيوضح لنا إذا لم تكن هذه الاضطرابات حدثت بأعمال رجال كان لهم قصد مخصوص (تصفيق).

ولماذا نذهب للبحث فى التاريخ برهاناً على تسامحنا الدينى؟ أليس أمام أعينكم اليوم أسطع البراهين على هذا التسامح الدينى الجميل، أتظنون أنه إذا كانت أمتنا متعصبة، أما كانت تنتهز الآن فرصة غياب كل قوة عسكرية ذات شأن لكى تقوم وتحدث أى اضطراب؟ أتظنون أنه إذا كانت الأمة المصرية متعصبة، هل كانت تسمح أبداً لأبنائها أن يذهبوا لمحاربة أمة أشد تمسكا بالإسلام منها؟ أليس الذين يدعون أننا متعصبون فى الدين يظهرون أنفسهم بمظهر السخرية عندما يقولون كذلك إن الأمة المصرية يزداد تعلقها بالاحتلال؟ كيف إذن تكون الأمة فى آن واحد متعصبة فى الدين ومحبة للانجليز! (تصفيق عظيم جداً).

إن لأعدائنا مقصدين من القول بأننا متعصبون فى الدين، إهاجة الأمة، وإلقاء بذور الشقاق بين الأوروبيين والمصريين، ولكن من حسن حظ مصر أن الأمة محافظة على السكينة عارفة بقيمة الاعتدال الدينى وحسن معاملة الأوروبيين (تصفيق).

فلقد تعارفت أوروبا ومصر منذ قرن وأحبتا بعضهما فاعتبرت أوروبا مصر قطعة منها - قال ذلك وأحسن القول الخديو اسماعيل - ومصر اعتبرت كذلك وجود الأوروبيين بيننا كضمانة للتقدم والرفاهية (تصفيق طويل).

وإنا نعلم جيداً أيها السادة أنكم أحسن نصراء الجلاء، لأنه من جهة موافق للعدالة والشرف الدولى، ومن جهة أخرى لأن مصالحكم قاضية به، أجل إن من صالح الأوروبيين النازلين فى مصر أن يتحقق الجلاء لأنه إذا صارت انجلترا مالكة لمصر تصير حياة الأوروبيين على شواطئ وادى النيل من الأمور المستحيلة، فانكم هنا وكلاء المدينة الأوروبية فى العلوم والفنون، كما أنكم وكلاؤها فى التجارة والصناعة (استحسان عام)، واليوم الذى تصير فيها انجلترا صاحبة مصر تضع يدها على كل شىء غير تاركة شيئاً ما لأحد وتدعى عندئذ أنها الوكيلة الوحيدة للمدنية أمام وادى النيل.

إننا معتقدون كل الاعتقاد أن اليوم قريب حيث نترك وراءنا ماضيا مملوءا بـالحوادث لنسير سواء ويدنا فى يدكم على طريق التقدم نحو أسطع مستقبل (تصفيق عظيم).

ومتى تخلصنا من هذا النظام الإدارى الذى وجهته فائدة بريطانيا العظمى وخرجنا من هذا الشتاء الطويل الذى استمر أربعة عشر عاما والذى كاد يميت أعضـاءنا نعيـد السير ثانيا واثقين من حقنا ومن عطف الشعوب كافة وعدالتها (تصفيق شديد).

وفى ذلك اليوم يكون تقدم مصر باهراً.

ومتى تخلصت التجارة من الملل الذى يسببه لها الاحتلال الإنجليزى فستفتح لنا ولكم آفاقا ذهبية (تصفيق).

ومتى تخلصت الصناعة من العوائق التى يخلقها لها الإنجليز فى الجمارك لغاياتهم فسترقى الصناعة الأهلية وتعود فائدة رقيها على أبناء مصر وعلى ضيوف مصر (تصفيق شديد).

عندئذ يعقب الأزمات الكثيرة المتوالية السلام، وتعقب الريب والشكوك الثقة، ويعقب الموت الحياة (تصفيق متواتر).

فلنتمن جميعاً أيها السادة تحريراً عاجلا لوادى النيل وسعادة أبدية لهذه الأرض العزيزة، أرض الفراعنة الأمجاد (تصفيق شديد متواصل وتهليل عظيم)

LA QUESTION D'ÉGYPTE

CONFÉRENCE

FAITE A ALEXANDRIE

LE LUNDI 13 AVRIL 1896

PAR

MOUSTAFA KAMEL

ALEXANDRIE
TYPO.-LITHOGRAPHIE CENTRALE, I. DELLA ROCCA
1896

عنوان الرسالة التى طبعت فيها خطبة مصطفى كامل
بالاسكندرية يوم ١٣ أبريل سنة ١٨٩٦[٣]

---

(٣) من وثائق المرحوم الدكتور صادق رمضـان. وقد تلقينـا أصل الـرسالـة من حفيده النقيب جعفـر الصادق رمضان. وكان الدكتور صادق رمضان من أصدقاء وأنصار الزعيمين مصطفى كامل ومحمد فريد.

٣ - خطبته فى العيد المئينى لولاية محمد على
٢١ مايو سنة ١٩٠٢ (انظر صفحة ١٦٧)
عمل محمد على وواجبات المصريين نحو وطنهم

سادتى وأبناء وطنى الأعزاء

إنى إذا وقفت الليلة أمامكم لأذكركم بمجد مضى وعظمة خلت، وأحيى معكم أكبر تذكار فى حياة مصر والمصريين، فإنى أعلم أنكم جئتم مرتاحين لسماع هذا الخطاب، وأنكم ترون مثلى أن خير احتفال يقام لأكبر عامل من عمال المجد المصرى، هو المقارنة بين أيامه وأيامنا، وأعماله وأعمالنا، واستنباط عبر التاريخ النا.عة، وعظاته البالغة، وتمثيل الوطن فى مجده وعظمته وإظهاره للعيون والأبصار على حقيقة الحالة الحاضرة، أسيفاً كئيباً حزيناً، مرتدياً ثياب الحداد، باكياً على أيام كان فيها حامل الشرف والفخار بين الممالك والأقطار، أى حال حال مصر فى هذا اليوم بعد مرور مائة عام هجرية على الحادث الخطير والأمر العظيم الكبير، على اجتماع الأمة واتفاقها حول رجل واحد واختيارها له أميراً عليها يدبر شئونها ويرفع شأوها ويعلى مقامها، أى حال حالها وأى موقف موقفها وهى التى ملأت الدنيا دويّا ونافست أقوى الممالك فى جلالها، ثم انحدرت انحدار السيل من قمة ذلك الموقف العالى حتى هوت إلى هاوية ذل وانحطاط وصارت مثالا للمسكنة والهوان!

صبراً أيها الوطن المحبوب على بلواك! فما يزدحم بنوك اليوم إلا لينشدوا أكبر العصور وأجل الأيام، ويجمعوا أمرهم بينهم على إحيائها بالجد والعمل والوفاق والوئام، صبراً أيها الوطن العزيز صبراً! فقد ناجت الضمائر وتفاهمت النفوس والخواطر، وشعر كل مصرى بأنه الوارث لأفضل الأوطان وأعز البلدان.

صبراً صبراً! فمن يرى ذلك الظل الممدود، ظل مرسس العائلة الحاكمة (محمد على الكبير) ويبصر بعين بصيرته روحه الطاهرة ترفرف فوق الرؤس ويسمع صوته العالى يذكر المصريين بأقدس الواجبات نحو الوطن، وأهله، وينظر بعين الحقيقة إلى يده القادرة العاملة، مشيرة إلى سبيل الفلاح والرقى، من ذا الذى يرى ويبصر ويسمع ذلك

ولا يعتبر؟ من ذا الذى ينتسب بدمه أو بماله أو بعلمه إلى ذلك الرجل العظيم ولا تصغر نفسه فى عينه إذا رآها نفس رجل دون الرجال؟

من ذا الذى يذكر منا مجد مصر فى عهد ذلك الأمير ولا يذكر أنه مسئول عن زواله مطالب باسترداده؟

أسمع المعترضين يقولون: عجباً عجباً! أيؤمل الخطيب أن تنال مصر فى حاضر الأيام أو فى مستقبلها ما نالت فى غابرها، وتلبس من جديد ذلك الثوب الباهر الفاخر الذى حسدتها عليه الليالى والحوادث وسلبته منها يد الغدر والانتقام؟

أجل أيها السادة! إن للمصرى أن يؤمل لبلاده مجداً كمجدها الماضى وعزاً وسؤدداً وجلالا، كيف لا وحياة (محمد على) وأعماله كلها دروس ترشد المصريين إلى أن تاج المجد لا يوضع إلا على رأس العامل المجدّ، وأن رايات الفخار لاتنال إلا بالعمل والجهاد، وأن أمة فتحت البلاد والأمصار يوم كانت لا تتجاوز ثلث عددها اليوم قادرة على بلوغ غاية العز والرفاهية ونيل أسمى ما يرام من الحضارة والعمران.

كيف سار (محمد على) بمصر وكيف انقذها من مهاوى الهلاك، وكيف أخرجها من عالم الظلمات إلى النور، وكيف فتح بها وضرب وغلب وكيف ساد ولم يُسدَ وكيف ملأ من جنودها الديار واخضع لسلطانها البحار والأنهار، وكيف رفع ذكرها إلى أعلى منار وجعلها عاصمة الشرق ومصدر الأنوار، وكيف أبهج هذا الثغر بتزاحم الجوارى فى ثغره، وعمم المعامل والمصانع فى المدائن، والقرى ونشر المدارس والمكاتب فى أنحاء البلاد، وأخرج من أبنائها نجوم علم يتهدى بهم ولا يضل بنورهم؟

كيف وفق هذا الرجل العظيم لهذه العظائم؟ كيف أباد المفسدين والظالمين وجمع القطر تحت لواء واحد وكان الف قطر فى وطن واحد؟ هل استعان بغير المصرى على تحقيق غاياته أم استعار أمة من حديد ورجالا من صلب وأرواحا شبت بين الموت والنار حتى أوتى ذلك الجلال ونال من العظمة ما نال؟

كلا! لم يصل إلى ذروة المعالى وأقصى غايات الرجال إلا بعقلك وبأسك أيها المصرى العزيز، فسلاما وألف مرة سلاما على هذا العزم المقبور وهذه الهمة المدفونة، سلاما على من نسى نفسه بعد أن أنسى العالم كل إنسان سواه.

سلمت الأمة المصرية أمرها لمحمد على والبلاد ممزقة بين المماليك يذيقونها أنواع العذاب والنكال، والشرع فى أيديهم شرع الجور والاعتساف، والقانون فى قبضتهم قانون الظلم والاستبداد، والبلاد منقسمة على نفسها. اسمها مصر وهى ألف قطعة وقطعة، لا جامعة بين أهلها ولا رابطة بين بنيها، ولا راحة ولا نعيم ولا حرية ولا عمل!

تولاها الرجل العظيم وهى عليلة ضئيلة لا حراك بها، فقطع دابر المفسدين والأشرار وأزال دولة المماليك كما يزول الغبار، وانقضت تلك السلطة المربعة التى قوضت أركان الدين والعقيدة وهدمت بنيان الوطن والأمة وما تركت فضيلة حتى جنت عليها ولا رذيلة حتى مجدتها، انقضت وكأنها ظل زائل أو سحابة صيف لم تدم إلا قليلا، انقضت والعالم بين مصدق ومكذب يتساءل كيف أتيح لرجل واحد أن يحول مجرى الليالى والأيام ويغير تيار الحادثات العظام؟

مضت أيام المماليك ووقف (محمد على) ناظراً إلى هذه الأمة ليرى أى أمر تقدر عليه وأى عمل تستطيع، فرآها بعد عهد الشقاء وزمن البلاء وأيام المحن والفتن قادرة على القيام بأعظم الأعمال، فيها من روح الحياة وقوة النهوض ما يزحزح الجبال الراسيات وتخر أمامه الشم الثابتات، فجندّ من أهلها الجند وأى جند جنّد؟ جند الغزاة الفاتحين حملة النصر والفخار، جند من المصريين قوما لا تراهم أمة حتى تسلم وتستسلم، جند من أعلوا مكانته ورفعوا رايته وجعلوا اسم مصر فى كافة الأرجاء والآفاق عنوانا للمجد الرفيع والشرف الصحيح.

أخرج من أولئك الفلاحين الذين طالما تصرفت فيهم الكوارث كما شاءت أبطالا وشجعاناً اهتزت الأرض تحت أقدامهم إجلالا وإعظاماً، وعجزت جيوش العالم عن مجاراتهم ومناظرتهم، بعث (محمد على) من السكينة عزما، ومن السكون همة وإقداماً، وسار جيشه من مكان إلى مكان حاملا لواء الظفر والغلبة، فائزاً فى كل بقعة بالنصر والفخر، فما هذه الروح العجيبة التى نقلت بنى مصر من حال إلى حال حتى صار الجريح يأبى أن يغيب عن ميادين القتال، والطفل ولوعا بمناظر الحرب والنزال؟ ما هذا التغير الفجائى الذى اندهش لآثاره العالم طراً؟ وأى سر جعل الأمة المهضومة الحقوق المسلوبة الإرادة أمة فتح وغزو وفوز ونصر؟

السر فى هذا الانقلاب وذلك التغير أن الرجل العظيم الذى تولى أمر مصر أدرك

بواسع عقله أن فى أمتها كنوزا من الشهامة والذكاء مدفونة فكشف عنها الغطاء وأظهرها للعالمين ساطعة بهية تخطف الأبصار، السر فى ظهور المصريين على مرسح العالم بمظهر الفاتحين القادرين أن (محمد على) لم يترك لليأس سلطانا على نفسه ولم يقف فى طريقه لأول عائق حاول منعه عن العمل، بل اجتاز المصاعب والعقبات بعزيمة ماضية وثبات دونه الحديد قوة وبأسا.

اجتاز المصاعب ولم يرضه أن تكون مصر قوية فى البر ضعيفة فى البحر فوهبها أسطولا ضخما لم يمض على إنشائه وتكوينة أكثر من أربع سنوات، وهبها أسطولا كان فى الصف الأول من أساطيل العالم تباهى به الاسكندرية ثغور الأرض وهو يباهى بها وبوادى النيل الدنيا ومن عليها.

كان الغربيون إذا جاءوا مصر زائرين يقفون أمام هذا الأسطول حائرين مندهشين[٤] بهرتهم عظمة مصر وارتقاؤها سلم المعالى فى قليل من الأعوام

ما عساى أقول اليوم عن جيش مصر وأسطولها، ولو نقلت إليكم كتابات المنشئين والمؤرخين، وآراء جماعات الكتّاب عنها لخلتم هذا الوطن غير ذلك ألوطن ومصر غير مصر، ولظننتم أن حادثا استثنائيا محا أمة عاداها الزمان فلم يترك لها إرادة ولم يلبسها غير لباس الوهن والاستسلام.

رددوا الطرف معاشر المصريين فى صحف التاريخ، تروا أن مصر لم تكن ميداناً للجنود والبحارة الممثلين لرفعة قدرها ليس إلا، بل تبدو لكم مصر المحبوبة فوق ذلك فى مصاف الأمم الصناعية ذات الشأن الأول، تبدو لكم المدائن والقرى مزدحمة بالصناع والعمال يحيون أطيب حياة ويخدمون الأوطان أشرف خدمة، تبدو لكم بولاق والخرنفش وشبرا وقليوب وشبين والمحلة الكبرى وزفتى وميت غمر وفوه ومنوف وابيار والأشمونيين والمنصورة ودمياط ودمنهور ورشيد والاسكندرية والروضة والجيزة وبنى سويف والمنيا وأسيوط وأبو تيج وفرشوط وملوى ومنفلوط والفشن وطهطا وجرجا وقنا ميدانا للمعامل والمصانع والورش على اختلاقها. وتبدو لكم بحليها وحللها زاهرة عامرة تسعد مصر

(٤) انظر تأييدا لذلك ص ٣٣٠.

والمصريين وتكفى البلاد حاجاتها وتوفر لأهلها ثروتهم ولا تعطى الأجنبى من خيراتها إلا بمقدار.

ارجعوا البصر كرة أخرى إلى مصر قبل عهد (محمد على) وقارنوا بين حالها فى ذلك الحين وما صار إليه فى عهده، تجدوا أرضاً بلقعاً تحولت إلى رياض وجنان وفضاء واسعاً صار فيه الألوف والملايين يحرثون الأرض ويزرعون ويستثمرون وشقاء تولى ونعيما أقام، وفوضى زالت وأمنا استتب، وزراعات جديدة دخلت إلى البلاد فأحيتها وأنمت ثروتها وملأت نواحيها رغداً وسعداً.

ومن ذا الذى يستطيع أن يقف أمام هذه الأمة موقف المحقق المدقق وينكر على (محمد على) فضله فى إحياء أراضى القطر ونقل زراعة القطن إليها وأياديه البيضاء على كل من يعيش من الزراعة ويعكف عليها؟ من ذا الذى ينكر إصلاحاته العديدة فى الرى، والقناطر البديعة التى أقامها والمصارف التى أنشأها والمشروعات التى لا تزال قاعدة لكل إصلاح؟ من ذا الذى يحارب الحقيقة والتاريخ ليتجاهل أن مصر تجنى اليوم من ثمرات أعمال (محمد على) عشرات الملايين من الجنيهات وأنه صاحب الفضل الأكبر على كل فرد من أهلها والنزلاء المستوطنين بها.

محالٌ أن تخرج مصر واحداً من أبنائها يأتى على الحقيقة والوطنية إعلان فضل (محمد على) والاعتراف بأعماله الجسام وأفعاله العظام، ومحالٌ أن ينسى مصرى تربى فى مهد العلم والأدب إحسان هذا الأب الكبير والمحسن البار العظيم، وهو الذى تعلم القراءة والكتابة بعد الأربعين ليكون خير قدوة للمصريين، وهو الذى فتح المدارس والمكاتب وملأ الديار نوراً وعرفانا، وتولى تربية صغار الفلاحين فبهر العالم بفرط ذكائهم وعظيم إستعدادهم للتعلم والانتقال من شأن إلى شأن.

دعوا الصانع والمزارع، واسألوا كل متعلم فى مصر: ماذا كان يكون حالك لو لم يعلم (محمد على) أباك من قبل؟ أما كنت تكون فى ظلمات الجهالة بعيداً عن مشارق النور والحياة والوجود؟

أجل، إن كل مصرى شب وتعلم وتهذب وعرف أن حياة الفكر والجد هى الحياة الصحيحة وأدرك أن أسمى الهبات هبة العقل وأن أجمل حلية لهذه الهبة الغالية تثقيفها

بالعلوم والمعارف، مدين لمؤسس العائلة الخديوية بما هو فيه من نعمة ونعيم وإنه لخليق بكل مصرى نال العلم بفضل (محمد على) أن ينتسب إليه بالروح والوجدان إنتساب بنيه وذويه إليه ويسلك السبيل الذى وجه الهمم والعزائم إليه ليبلغ بالوطن والبلاد الشأن الأولى والمقام المحمود.

أيها السادة:

مهما بحث الباحث فى حياة (محمد على) ومهما حكم على عصره فإنه لا يستطيع إلا الإعتراف بأنه أحاط مصر بسور من القوة والرهبة، ورمى إلى إنشاء حكومة منتظمة فيها تدير أمورها على قواعد راسخة وأصول ثابتة، وجمع شملها فبعد أن كانت مفرقة موزعة على المماليك يتصرف كل واحد منهم فى الأموال والأرواح والأعراض كما يشاء وتشاء الأهواء صارت وطنا واحداً لأمة واحدة يجمعها لواء واحد تحت سيادة أمير عظيم لا يذكر إسمه إلا مقرونا بالاحترام والإعظام.

ومهما اختلف الناس فى اعتبار نتائج أعمال (محمد على) فلا مراء فى أنه وهب مصر عقلا مديراً وقلبا شاعراً وساعدا شديدا ومجدا تليدا، وأنه وهب المصريين وطناً وأمة وحكومة ولسانا، وطبع على قلوبهم وأفئدتهم محبة الوطن والشهامة والإقدام وحبب إليهم الفتح والنصر ورفع الراية المصرية على كل صقع ومكان.

انظروا معاشر المصريين إلى سياسته فى حكومته تجدوها قائمة على مبادىء ثلاثة لا تدوم دولة بغيرها ولا تحيا مملكة بغير إحيائها: وهى أولا حماية الوطن من اعتداء الأجنبى وسلطته، ثانيا ترقية الجيش المصرى إلى أسمى الوظائف وترشيحه إلى إستلام مقاليد الأمور حتى لا تحتاج البلاد لأجنبى يزاحم بنيها، وتدريب المصريين على كل عمل وصناعة حتى تحفظ الثروة الأهلية فى البلاد ويزداد الوطن عزاً ورغداً ونعيما، ثالثا الامتناع عن الدّين واجتنابه كل الاجتناب.

بأى قلب أم بأى ضمير أم بأى لسان أحدثكم عن حماية الوطن وصيانته ومنع إعتداء الأجنبى على ربوعه وصده عن منازله، ومصر اليوم تمثل الاستسلام للإنجليزى والرضوخ لسلطته، والامتثال لإرادته؛ وهى هى التى ردّته عن الديار تحت إمارة (محمد على) وفى ظل رايته، وقالت له: مكانك أيها المهاجم! مكانك أيها الداخل! مكانك أيها المزاحم، إلى أمة

حية تأبى الضيم والهوان ولا تدرك للحياة معنى بغير الحرية والاستقلال!

بأى قلب أم بأى ضمير أم بأى لسان أحدثكم اليوم معاشر المصريين عن حماية آبائنا للوطن ودفاعهم عنه ونضالهم عن حوزته أيام (محمد على الكبير) وقد حاولت إنجلترا أن تقضى على هذا الملك الجديد وهذه الدولة الناشئة وتزيل من سماء المجد والإقبال هذه الشمس المشرقة فأراها يومئذ بنو مصر أى أمة هم، وأراها (محمد على) أى أمير هو! فتركت الثغور والبلاد، آسفة على فشلها، معجبة بهذا المجد الباهر والعزم القاهر والوطنية الحقة والهمة الحديدية.

اعجبوا أيها المصريون لهذا الحادث الخطير ولتصرفات الليالى كيف أفرحت مصر وأبكتها فى يوم واحد، أفرحتها فى يوم ١٤ سبتمبر من عام ١٨٠٧ حينما جلت الجنود الإنجليزية عن ثغر الإسكندرية بعد احتلال دام ستة أشهر، وأبكتها فى يوم ١٤ سبتمبر من عام ١٨٨٢ حينما دخلت الجنود الإنجليزية عاصمة الديار المصرية.

كوفئت مصر فى يوم بأكبر مجد وأشرف فخار، وعوقبت فى مثل ذلك اليوم بعد خمسة وسبعين عاماً باحتلال جرّ عليها العار والشنار، كوفئت لأنها صانت الوطن والديار، وعوقبت لأنها سلمت البلاد وانشقت على نفسها ونسيت تاريخها وتناست مطامع أعدائها وامتلأت نفوس دعاة الثورة فيها بالأنانية والأغراض الذاتية والآمال الشخصية، فذهب الوطن فريسة. وقُدِّمت الأمة على هيكل الدنايا ضحية، وتولى المجدُ القديم والعز التليد وأقام الذل والهوان.

هذه عبرة العبر فى التاريخ وموعظة المواعظ، فالتقطوها معاشر المصريين الراغبين فى خير البلاد ورفعتها، واذكروها فى كل وقت وآن، اذكروها، وتأملوا فى تاريخ ذلك الرجل العظيم، تأملوا كيف ينتدب علماء الغرب وحكماءه وسادات أدبائه وفضلائه ليعلموا المصريين العلوم والصناعات، حتى إذا صاروا من رجالها وتحلّوا بجمالها سلمهم مقاليد الأعمال وكافأ المعلمين الغربيين على عملهم وزودهم بالشكر والإحسان.

رأى محمد على أن الدِّين (بفتح الدال) أساس الاستعباد، وأن أسمى المبادىء الجديرة بالاتباع مبدأ القائلين «أدِن تستعبد واستدن تُستَعبدْ»، فلم يستدن لأنه خطب السيادة ولم يخطب الاستعباد، وطلب القوة ولم يطلب الضعف والمذلة.

حقاً إنها لآية الآيات ومعجزة المعجزات، كيف يشيد (محمد على) المدارس والمعامل ويقيم الأبنية للجنود والعساكر، وينظم الرى والفلاحة، ويشكل جيشاً بلغ عدد رجاله مائتين وثمانين ألف جندى (٢٨٠٠٠٠) وأسطولا كان البحارة فيه لا يقل عددهم عن ستة عشر ألف بحرى (١٦٠٠٠) وكانت إيرادات مصر إذ ذاك لا تتجاوز مليونين ونصف مليون من الجنيهات، ثم لا يستدين عزيز مصر ولا يعرف الدّين ولا الدّين يعرفه!

ائتونى بعظماء الرجال وكبراء الأمم وفحول السياسة، واعرضوا عليهم هذا العمل المدهش وهذه الآية الكبرى، وأنا كفيل بأنهم لا يصدقون به ولا يؤمنون بها، هل فى طاقة رجل مهما بلغ من العظمة وقوة الإرادة أن يقوم بهذه العظائم ولا يتعثر فى ذيله بالديون الثقال؟ من هذا الرجل الذى تعدى حدود الطاقة البشرية حتى استطاع أن يخرج أمة من الجهالة والظلمات إلى العلم والنور، ويشيد فيها ملكا قائما على جيش عديد وأسطول قوى رهيب ومعامل ومصانع ومدارس، ثم لا يستمد بمال الغير ولا يستعين على أعماله بغير قوة البلاد وهى التى حمّلها الزمان من قبل ما يدكّ الجبال ويفل الإرادة الماضية ويودى بعزائم الرجال؟

ما هذا المجد الفخيم الذى يحدثنا عنه التاريخ؟ أين ذلك المصرى الذى كان إذا جاب المدائن والممالك تحولت عن غيره الأنظار والتفتت إليه الشعوب بعيون الإعجاب والاعتبار؟ أين ذلك الذى إذا فاخر القوم ببلادهم أعطى المقام الأول ونال الشرف الأعلى وأعد وطنه فى مقدمة الأوطان ومصره فى الصف الأول مصاف الأمصار والبلدان.

أين عصرٌ نقل عنه الناقلون أن الدول غدرت بمصر وحرقت أسطولها فى ثغر (ناورين) وأماتت من بحارتها البواسل ستة آلاف رجل وتقدم ضابط فرنساوى بالخبر إلى رجل الحروب وبطل المواقع إبراهيم باشا، فهز الأمير رأسه وقال: «ما أنشئت السفن والبواخر إلا لتكون فريسة النار أو البحار فلست بآسف عليها، وإن أبى لقادر أن يجدد مثلها فى عام أو بعض عام!»

أين ذلك العهد البعيد ليتعزى به المصرى الحزين الأسيف؟ أين هو ليبعث فى القلوب المستميتة شيئاً من الحياة والقوة، ويدل المصرى على حقيقة موقفه وقيمته ومكانته؟ أين هو ليخطب فيكم بلسان الحال فيبلغ من نفوسكم ما لا يبلغه لسان المقال؟

أين كانت اليابان يومئذ؟ أين كانت هذه المملكة الناشئة والدولة الفاخرة؟ كانت - وكأنها لم تكن - فى دياجى الظلمات وغياهب الجهل، تعد إذا ذكرت فى عداد الأموات. فقف أيها المصرى فوق أطلال التاريخ وارقب الحوادث وانظر إلى أى حال صارت اليابان وإلى أى حال صرنا، وماذا كنا نبلغ من الشأن والشأو لو سلكنا ذلك السبيل الذى وجهنا إليه محمد على الكبير.

ليس الموقف موقف حزن يميت النفوس بل موقف عظة واعتبار، وإن العبرة الكبرى فى حياة (محمد على) والدرس المفيد الذى يلقيه التاريخ على أبناء هذه الديار، أنهم لم يفقدوا العصبية والوحدة الملية، ولم يقفوا فى طريق التقدم على حين إسترسال غيرهم فى السير إلى الأمام إلا لأنهم فقدوا الثقة بأنفسهم ونسوا ما قاموا به من جلائل الأعمال.

ثقة الأمة بنفسها هى الأساس الذى يبنى عليه مجدها ويشاد عزها وسؤددها، ترى الأمة إذا إعتقدت الخير والقدرة فى مجموعها وأفرادها تغلبت على الحادثات والأيام وقهرت ألد أعدائها وإجتازت المصاعب غير هيابة ولا وجلة.

هذه أمم الغرب يترك الفرد من أبنائها بلاده ويطوف الأرض من جانب إلى جانب، وهو فى كل مكان ينزل به قوى الجنان شاعر بأنه الممثل لوطنه الدال عليه، معتقد أنه رايته التى إذا أهينت أهين وإذا مست بسوء قامت لأجلها بلاد وقعدت، وما هذا الاعتقاد وذلك الشعور إلا لأن الأمة وثقت ببعضها وإرتبط كل فرد ببقية أفرادها، فصارت كتلة واحدة لا يعتدى عليها زمان ولا يجرؤ على المساس بها إنسان.

أما الأمة التى ظنت السوء بنفسها وتركت هذا الظن الفاسد ميراثا لأبنائها وأحفادها فقل عليها السلام وادعها أمة الموت والفناء.

لا يؤلم المصرى المحب لبلاده مثل ما يسمعه ذات اليمين وذات الشمال من سوء مظنة المصريين بأنفسهم وتناقل هذه الأقوال المميتة للخواطر القاتلة لكل حركة واردة من الكبير إلى الصغير وشيوعها حتى بين الأطفال الناشئين.

ما هذا السمُّ القتال الذى تناولته الأمة عن طيب خاطر؟ ما هذا البلاء المدمر للبلاد الذى حل بها وتساقط على رؤوس أهلها وهم إليه ناظرون؟ كيف تنسى هذه الأمة

العزيزة أنها هى التى فتحت وقهرت وضربت وانتصرت وبهرت العالمين بقدرتها وشدة بأسها؟

لا ريب أن أصل هذا البلاء وجرثومة ذلك الداء إهمال أمر التربية الوطنية ومحو آثار التاريخ المهذب للعقول والأرواح من المدارس والمكاتب، التاريخ هو المدرسة الجامعة لكل طبقات الأمة والمعلم الذى يتأدب بأدبه الأمير الخطير والوزير الشهير والعالم والطالب، والفقير الصغير، من ذا الذى يقرأ تاريخ محمد على ويرى على صفحاته آيات الشهامة والبسالة التى حلى بها المصريون أيامهم وأسماءهم وأوطانهم ولا يشعر بأنه ينتسب لأمة عالية إن أهانها الزمان أياما فلسوف يرغم على إحترامها وإكرامها ورد سؤددها إليها، من ذا الذى يسمع بتلك السفن الجارية والجيوش الجرارة والمعامل العديدة والمدارس الجمة والحياة العامة والاستقلال المصان ولا يرى نفسه من سلالة قوم فاتحين متمدنين جديرين بأن يخلد مجدهم وتدوم أيامهم.

يقول الجاهلون إن الزمان لم يترك من آثار محمد على شيئاً مذكوراً، ولا يدرون أنه ترك شيئاً كبيراً، ترك بذور المجد والمدنية، ترك المواد الحيوية لإحياء الأمم وإعلاء قدرها، ترك العلوم والأنوار.

إن لم يكن إلا هذا الأثر - أثر العلوم والمعارف - فحسب العصر الماضى شرفاً وفخاراً، لأنه ألقى إلينا السلاح الذى ما حارب الجهل والرذيلة حتى تغلب عليهما، ألقى لنا مفتاح الرقى والتقدم وآلة المجد والغلبة وسلم السؤدد والمعالى ونبراس الكمال، ألقى بعدا الحياة فإن استخدمناها كما استخدمها سدنا كما ساد وسادت الديار، وإن أسأنا ماهلها أسأنا إلى أنفسنا وقضينا على الحاضر والمستقبل شر قضاء.

قد ينسى بعض المصريين أن (محمد على) تولى أمر البلاد باختيار أهلها وانتخابهم، وأن علماء مصر وأعيانها رفعوه إلى الإمارة بأيديهم فى مثل هذا اليوم من مائة سنة هجرية مضت، وأن هذه رابطة أكيدة بين الأمة والعائلة الحاكمة لا يصح لأحد أن ينساها ولا يليق بمصرى أن يتناساها، هذا إخاء بين الشعب والأمير لا تنفصم له عرى، ولا ينحل له رباط.

إذا كانت مصر لم تذكر فى بعض حوادثها الماضية وأيامها السالفة هذه الرابطة وهذا

الإخاء مما أودى بها وساقها إلى مهاوى الدمار والشقاء، فخليق بها أن تذكر الآن وفى كل آن هذا العهد المتين وتزداد بعرش الخديوية ارتباطاً وتعلقاً كلما مضت الأيام وتوالت الأعوام.

وكيف لا يذكر المصريون ذلك العهد ويبذلون الأرواح والأموال فى سبيل تأييده وصيانته وهو هو الحامى لبقايا المجد والاستقلال.

فى أى موقف يرى المصرى بلاده الآن؟ فى موقف البلاد المستعبدة التى تنتظر من وقت إلى آخر تحقيق وعود دولة متمدنة عظمى ولا تزف لها الأيام إلا مطلاً فى الوعد وبلاء على بلاء.

دخلت انجلترا هذه الديار مدعية إصلاحها وتأييد عرش الخديوية المصرية فيها ونشر ألوية الأمن والعدل فى نواحيها وإعداد المصريين إلى إدارة شئون بلادهم بأنفسهم، ثم الجلاء عنها وتركها لأهلها، فماذا عملت وأى طريق سلكت وإلى أى نتيجة وصلت؟

وكان أول عمل للدولة الإنجليزية أنها قدمت الوعود والعهود للعالم كله بالجلاء عن مصر ولو بعد حين، وتركها لأهلها المصريين، فاعتقد صدق أقوالها الكثيرون من الشرقيين وقالوا: «محال أن يكذب القوم المتمدنون!» لأنهم لم يكونوا ليعلموا أن السياسة الغربية قائمة على مخالفة الوعود والنكث بالعهود، وأن المدنية البريطانية تطلب سيادة الأمم من مثل هذا الطريق حتى صرح الساسة الإنجليز أنهم لم يقدموا هذه الوعود وتلك العهود إلا للسذج والبسطاء، وأنهم ينزهون العقلاء والحكماء عن التصديق بوعد فى السياسة أو بعهد فى تدبير امتلاك الأمم واغتيال حقوقها، فعلم المصرى يومئذ ما لم يكن يعلم، علم أن انكلترا احتلت بلاده لتقيده بقيود الذل والاستعباد، لا لتضع على رأسه تاج الحرية والاستقلال، علم أن وطنه صار مرمى السهام البريطانية، وأن حياته ومجده على خطر، وسمع صوت البلاد يناديه الحذار! الحذار!.

ولكن صوت الانجليزى ارتفع ليدله على وسائل الرضوخ للمذلة والاستماتة، ارتفع ذلك الصوت، صوت العاملين عل ابتلاع مصر منادياً بأن المصريين لا يزالون أمة طفلة محتاجة لمرب حكيم ومرشد عليم، فهل هم المربى وذلك المرشد؟.

دلَّ سلوك انجلترا فى مصر ويدل على أنها لا تريد لعرش الخديوية قوة ولا للبلاد

خيراً، ولا للمصريين تقدماً وارتقاء، ونحن لا نقول هذا القول جزافاً بل نقدم عليه ألف برهان وبرهان، وما دام الإنجليز يفاخرون ويفتخرون بحرية القول والكتابة فإننا نناقشهم الحساب ونسألهم أمام الملأ كله عن نتائج سياستهم بعد عشرين عاما، نسألهم أين الأمن الذى ادعوا توطيد أركانه؟ هل ازدياد الجرائم والجنح والمخالفات وتعدد السرقات وكثرة اللصوص واعتراف النائب العمومى بذلك كله وتفنن الأشرار فى إشعال النيران وحرق القرى والبلدان مما تفاخر به انجلترا وتعده آية يحق لها أن تمن بها على مصر والمصريين؟ هل انتقال الوظائف من أيدى المصريين شيئاً فشيئاً وخروج السلطة من قبضتهم وإماتة كل نفوذ لهم مما يرشحهم لاستلام مقاليد الأمور والسير بالبلاد إلى الأمام؟ هل محو كل روح وطنية فى المعارف وقلب مدارس الحكومة حتى صار عاليها سافلها، يؤهل المصريين للتقدم فى ميادين الحضارة والعمران؟ هل إنشاء المحكمة المخصوصة، وتعالى المحتلين على المصريين واعتداؤهم على القانون والعدالة والنظام العام مما يؤيد المساواة فى البلاد ويزيد القطر ارتقاء وانتظاما، هل رفع العلم البريطانى عل عاصمة السودان وإخراج العدد العديد من الضباط المصريين من الجيش بعد أن أبلوا ضد الدراويش أحسن بلاء وقاموا بأعمال تخلد لهم المجد والفخر مما يؤيد عرش الخديوية المصرية ويستوجب حمد المصريين؟ هل بقاء الحكومة بغير سلطة مراقبة عليها من الأمة كما يشاء المحتلون مما يجعل مصر فى بحبوحة الراحة والأمن ويوطد أركان الدستور فيها؟

ذكرتُ الدستور وطالما ذكره الذاكرون من أنصار الاحتلال ورجاله، فأين هو الدستور؟ أين ذلك الدستور الذى يلجم الحكومة بلجام من حديد ويهب الأمة حرية الرأى والفكر وحق المراقبة على أعمال الحكام وسن القوانين والشرائع ومناقشة الوزارة عن الصغائر والكبائر؟ أين ذلك الدستور ونحن لا نرى إلا مستشارين من الإنجليز يحركون الحكومة يميناً ويساراً، ويتلقون الأوامر من رجل واحد ولا يحاسبون أمام أحد من أبناء هذه الأمة؟ هل معنى الدستور سقوط السلطة المصرية وقيام السلطة البريطانية مقامها؟

كلا ثم كلا! إنما الدستور هو منح الأمة حق الإشراف على كافة الأعمال ومراقبة ما تجريه الحكومة لخيرها أو لضرها، وسؤال الوزارة عن كل صغيرة وكبيرة، وتغييرها

بغيرها إذا أساءت استعمال السلطة أو تهاونت فى خدمة البلاد بالدستور هو ألا يستطيع أحد، مهما كان عظيماً، وطنياً أو أجنبياً، أن يمس القوانين والنظامات بشىء، فهل يوجد رجل واحد فى هذه الأمة يجرؤ على القول بأننا اليوم متمتعون بنعمة الدستور وأن المحتلين لو شاءوا تغيير أى نظام موجود أو خرق سياج أى قانون لا يستطيعون؟

لعمرى إن ما يسميه المحتلون وأنصارهم بالدستور لهو الفوضى فى لباس النظام، والاختلال فى قالب الاحتلال، وإلا فأين الضمانة التى تطمئن لها القلوب والخواطر؟ أين ذلك المجلس الذى وعدت به بريطانيا على لسان اللورد دفرين؟ أين هو لتعتقد الأمة المصرية أن الدولة البريطانية لم تحتل بلادها إلا لتسعد حالها وتعلى شأنها وتوقف المصرى على مكانته وتعرفه أنه إنسان له حقوق الإنسان؟

يظهر بعض الإنجليز اندهاشاً قيامنا ضدهم، ولست أدرى كيف أكيف هذا الإندهاش؟ كيف أكيف وهم أبناء أمة متمدنة تعرف معنى الوطن والوطنية وتدرك أن الحرية هى أسمى نعيم وأن صيانة البلاد من اعتداء الأجنبى أقدس فرض على أهلها، كيف أكيفه وقد قال اللورد دفرين: «إنه يحق للمصريين أن يبغضونا من عميق قلوبهم إذا أقمنا طويلاً ببلادهم مهما أسعدناهم وأسبغنا عليهم من النعم، لأن الاستقلال لا ثمن له!»

نحن نرى من العار والخيانة عدم المطالبة بالجلاء، نحن نرى من الجبن والاستماتة عدم المطالبة بالدستور أى بالنظام الذى تتمتع به الأمم المتمدنة، ونحن نرى من موت الشعور وفقدان الوجدان السكوت عن حقوقنا الشرعية التى يعترف بها كل إنسان، ونعتقد أن الإنجليز أنفسهم يحتقرون كل مصرى لا يرى هذا الرأى ولا يجاهر به، لأنهم إن أحبوا أن يخون الرجل وطنه لأجلهم، لا يحبون الخائنين، وإن كرهوا القائمين فى وجوههم المدافعين عن بلادهم لا يستطيعون إلا تعظيم الوطنية ورجالها أنى كانت وأنى كانوا!

أيها السادة:

أصبحنا بعد مائة عام قضينا جانباً منها فى الجد والعمل وغرس بذور المدنية وفتح أبواب مصر والسودان للعالم المتمدن فى آخر مصاف الأمم، تمتاز عنا الصرب والبلغار

وشعوب صغيرة لم تكن فى الحسبان، بالحرية والاستقلال والاحترام العام، فمن البلية والشقاء والموت الأدبى أن نقف متفرجين على حركة العالم ونترك الأمم الأخرى ترتقى منصة السمو والجلال!

هذه حياة (محمد على) لنا أن نستنبط منها ما يفيد البلاد فى الحال والاستقبال، لنا أن نضربها مثلاً للأبناء والناشئين ليعلموا أن مصر كانت من القوة والبأس بمكان، وإنها تكون كذلك لو طرقوا أبواب الاتحاد والوئام وسلكوا مسالك العزم والإقدام.

لا تقوم مدنية مصر فى مستقبل الأيام ولا يدوم لها شأن إلا إذا شيدت على الأمة وبالأمة وعرف الفلاح والصانع والتاجر والمعلم والمتعلم وكل فرد من أفرادها أن للإنسان حقوقا مقدسة لا يصح المساس بها، وأنه لم يخلق ليكون آلة بل ليعيش عيشة الأحياء، وأن حب الوطن هو أسمى شعور تتحلى به نفس بشرية، وأن أمة ضاع استقلالها لا مقام لها ولا شأن لأبنائها.

الوطنية أيها السادة، هى العماد لكل مملكة والأساس المتين لكل دولة، الوطنية هى الروح العاملة فى كل بلاد العالم المتمدن، الوطنية هى أم المعجزات وأصل كل تقدم وارتقاء، الوطنية هى التى تنقل الشعب الجبلى إلى الحضارة والعمران، والاقتدار وسمو القدر فى قليل من الأعوام، الوطنية هى الدم فى عروق الأمم والحياة لكل ذى حياة.

الوطنية هى الغذاء الذى يحتاج إليه جسم مصر وروحها قبل كل غذاء فقدموها للأبناء فى غدواتهم وروحاتهم وحركاتهم وسكناتهم، واطبعوها على قلوبهم.

أيها السادة:

أن الرجل العظيم الذى غير أحوال مصر وكساها حلة من المجد والفخار وفق عمله بين مبادىء المدنية العصرية ومبادىء الدين الإسلامى الكريم، لأنه رأى أن فى الإسلام كافة المواد الحيوية لأرقى مدنية يشتهيها بنو الإنسان، وأنه الدين الذى يؤهل أهله وذويه إلى أسعد حالات الحياة وأتم نعيمها، فإذا اقتدينا به واعتمدنا على الإسلام وقواعده وأوامره وإرشاداته، وأخذنا من المدنية الغربية فوائدها ومنافعها واعتبرنا بعبر التاريخ وتركنا النزاع الذى أضر بمصر والإسلام واجتنبنا كل افتراق وشقاق، بلغنا أقصى ما يرام من مجد وعز وسؤدد ومقام رفيع.

وإننا لا نبغى فى هذا الطريق الذى يدعونا لسلوكه كل محب لمصر معاداة أحد من النزلاء أو الخروج عن خلة إكرام الغريب التى اشتهرنا بها، بل إننا نشكر كل أجنبى يساعدنا على خدمة الأوطان كما شكر آباؤنا من قبل وكما شكر تاريخ مصر سليمان باشا، وفارين، وسجرّا، وكلوت بك، وسيريزى، وبسون بك، وجومار، وجومل[٥]، إلا أننا نطلب الاحترام المتبادل والاشتراك فى المنفعة اشتراك إخاء، لا اشتراك شحناء وبغضاء، وإنه يسرنى أن أعلن شكر الأمة المصرية كلها لأولئك الكرماء من النزلاء الذين شاركوها فى مصابها بالحرائق الأخيرة والنوازل المؤلمة، فجادوا بالأموال عن كرم وسخاء، وخففوا بها وبصادق العواطف الآلام عن المنكوبين.

يحلو لى أيها السادة أن أختم خطابى بكلمة قالها نابليون يوم دخل مصر، قال ذلك الرجل الكبير: «لا تُكوّن الأسماء العظيمة إلا فى الشرق»، فالشرق كان ولا يزال ميداناً واسعاً للمجهودات الكبيرة الهمم العالية، لا يزال الشرق مهداً لعظماء الرجال وكبراء الشعوب، وإذا كان قد حُرمهم حيناً من الدهر طويلاً فما علة ذلك الحرمان ألا اليأس والقنوط.

فانزعوا اليأس من قلوبكم معاشر المصريين، وطهروها من القنوط وسوء الظن بالله وقدرته، وابنوا مجدكم المقبل على التربية الوطنية السليمة الصحيحة، وضموا صفوفكم واجمعوا أمركم ليخرج من بينكم رجال عظماء يبدلون ليل الأوطان بالنهار ويردون ما فقدت من استقلال ومجد وفخار!

٤ - خطبته بالإسكندرية

يوم ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ (انظر ص ٢٦٤)

سادتى وأبناء وطنى الأعزاء

بأى لسان أشكركم على مظاهرتكم الودية لى وانعطافكم العالى علىّ، وليس لى مطمع فى هذه الحياة إلا أن أراكم متفقين معى شعوراً ورأياً وقد حققتموه فأبلغتمونى أقصى ما أتمنى.

---

(٥) هم من المستشارين الذين استعان بهم محمد على فى نهضة مصر - انظر تفصيل ذلك فى كتابنا (عصر محمد على).

المبدأ وخادمه

ألا إنى أعلم أنكم أردتم بمظاهرتكم هذه أن تجيبوا أولئك الأعداء الظاهرين والمستترين وتسمعوهم أصواتكم جهيرة وتقولوا للملأ كله إنكم أعوان الشعور الوطنى وأنصار النهضة المصرية، وأن خدام هذه البلاد يجدون منكم على الدوام كل مؤازرة ورعاية.

إنى أعلم أنكم تعتقدون كما أعتقد أن الذين يهبون قواهم وأعمارهم لبلادهم لايحسبون لأشخاصهم وجوداً مستقلا عن المبدأ الذى يعملون لنصرته، بل يندمجون فى المبدأ نفسه، فكل تحية إليهم فهى تحية إليه.

ولذلك استقبل دلائل الحب والميل التى تظهرونها نحوى على أنها إكرام لأشرف مبدأ قام ويقوم فى خدمته الإنسان، ألا وهو مبدأ إحياء الوطن وردّ مجده واستقلاله إليه.

حياة مصر بعد الاتفاق عليها

أيها السادة ! إن مصر خطت فى الثلاث السنوات الأخيرة خطوات واسعات فى سبيل النهضة الأهلية وأسمعت الأمم والدول صوتا ما تعودن سماعه من قبل

ظن الساسة الإنجليز أنهم إذا اتفقوا مع فرنسا على مسألة مصر طويت أوراق هذه القضية الخطيرة وخفت كل صوت ومات كل أمل وحل اليأس محل الرجاء، وصار الشعب المصرى أثراً كتلك الآثار القديمة التى يأتى السائحون لرؤيتها فى كل عام.

ولكنهم أخطأوا خطأً كبيراً، نعم أخطأ أولئك الساسة الذين يظنهم العالم كله أمهر الناس فى تدبير الشئون وإعداد الحوادث ومعرفة المستقبل.

أخطأوا لأن العزلة التى صرنا إليها بعثت فينا روحا جديدا أرشدنا إلى الحقيقة التى لا قوام لشعب بدونها ولاحياة لأمة بغيرها، ولا وجود لنفر من الناس إذا لم يتبعوها، وهى : أن الأمم لاتنهض إلا بنفسها ولاتسترد استقلالها إلا بجهودها، وأن الشعب كالفرد

لايكون آمنا على نفسه إلا إذا كان قوياً بنفسه مستجمعا لكل عدد الدفاع وآلات الذبِّ عن الشرف والمال والحياة.

نعم فقهنا أن الشعوب التى لاترجو الرقى إلا بمعونة جيرانها وأصدقائها ولاتحفظ استقلالها إلا بالاعتماد على حلفائها، هى شعوب فى خطر وحياتها مهددة فى كل وقت.

دهش الذين كانوا لايرون فينا إلا أمواتا تتحرك كما بُهت أعداء الوطنية المصرية من هذه الروح الجديدة التى دبت فى الأمة وقالوا: عجبا أيحيا هذا الشعب؟ أتنهض مصر بنفسها؟ أتعمل للاستقلال وحدها؟ أتقدر على تحقيق مطالبها بمحض إرادتها؟ أتقاتل اليأس والقنوط وتتغلب على الحوادث والكوارث؟

أجل وألف مرة أجل! إن مصر بالغة آمالها ومحققة آمانيها بارادتها وهمتها، إنكم تقولون ياأعداء مصر إننا عشنا القرون الطوال أذلاء تعساء يحكمنا الغير وتتبدل السلطة الأجنبية، ولايتبدل شقاؤنا وتجعلون هذا القول حجة علينا ودليلا على أننا خلقنا للذل والهوان، وأن السيادة الأهلية لن تسكن وادى النيل أبد الزمان! كذبتم وحق مصر يا أعداء مصر! كذبتم على الله والناس، فما بقاء هذه الأمة بعد اشتداد الإحن والمصائب وتعدد الإهانات والنوائب ووجود الروح الوطنية فيها بعد كل ما كان إلا دليل قاطع على أنه قد حان الوقت لأن تسترد حقوقها المسلوبة وتسترجع مكانتها فى الوجود، تقولون يا أعداء مصر أنها لبثت زمنا طويلا مكبلة بقيود الذل والاستعباد، وتتساءلون كيف تعيش بعد ذلك فى سؤدد واستقلال؟ وفاتكم أن ذلك الماضى المظلم يزيدنا تمسكا بحقنا فى مستقبل مضىء باهر، نسيتم أن الشقاء المديد أدعى إلى هناء مثله مديد، وأن شعبا قضى القرون وقواه لاتنصرف إلى خير الوطن يكون أقوى شعوب الأرض يوم يوجهها إلى هذه الغاية السامية.

تقولون يا أعداء مصر أننا لو أفلحنا لمانلنا هذا الاستقلال إلا بعد حين طويل فنجيبكم أننا لو سلمنا بقولكم لما جاز لنا أن نتأخر لحظة واحدة عن العمل.

لأننا لانعمل لأنفسنا، بل نعمل لوطننا، وهو باق ونحن زائلون، وماقيمة السنين والأيام فى حياة مصر وهى التى شهدت مولد الأمم وكلها وابتكرت المدينة والحضارة للنوع الإنسانى كله!

إن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع، ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصرى ونبتهج به،وندعو له كأنه حقيقة ثابتة، وسيكون كذلك لا محالة!

فمهما نعددت الليالى وتعاقبت الأيام، وأتى بعد الشروق شروق وأعقب الغروب غروب فإننا لانمل ولانقول أبداً: لقد طال الانتظار!

إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم فى ماضى الأيام وحاضرها، وأعلى مطلب ترمى إليه فى مستقبلها، فلا الدسائس تخيفنا، ولا التهديدات توقفنا فى طريقنا، ولا الشتائم تؤثر فينا، ولا الخيانات تزعجنا، ولاالموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية.

نعم إنا لو تخطفنا الموت من هذه الديار واحداً بعد واحد، لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا: «كونوا اسعد حظا منا، وليبارك الله فيكم ويجعل الفوز على أيديكم ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد للمطالبة بالحق الوطنى والحرية الأهلية والاستقلال المقدس!

بـلادى بلادى! لـك حبى وفؤادى، لك حيـاتى ووجودى، لـك دمى ونفسى لك عقـلى ولسانى، لك لبى وجنانى؛فأنت أنت الحياة ولاحياة إلا بك يامصر!

حب مصر وإحياؤها

يقول الجهلاء والفقراء فى الإدراك إنى متهور فى حبها، وهل يستطيع مصرى أن يتهور فى حب مصر؟ إنه مهما أحبها فلا يبلغ الدرجة التى يدعو إليهاجمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها.

ألا أيها اللائمون انظروها وتأملوها وطوفوها واقرأوا صحف ماضيها، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض هل خلق الله وطناً أعلى مقاما وأسمى شأنا وأجمل طبيعة وأجل آثاراً وأغنى تربة وأصفى سماء وأعذب ماء وأدعى للحب والشغف من هذا الـوطن العزيز؟

اسألوا العالم كله يجبكم بصوت واحد إن مصر جنة الدنيا وأن شعبايسكنها ويتوارثها

لأكرم الشعوب إذا أعزها، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح فى حقها وسلم أزمتها للأجنبى.

إنى لو لم أولد مصريا لوددت أن أكون مصريا!

قد يرى السفهاء، والطائشون أن الانتساب لشعب مستعبد كالشعب المصرى مما لايليق بإنسان، ولكن أى شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لإحياء الأمة التى سبقت الأمم كافة فى العلم والمدنية والأدب؟ أى رفعة يسعى الشريف إليهاأسمى من إنهاض شعب كان أستاذاً لشعوب البشرية ومربى العالم كله؟ أى سؤدد ترمى النفوس الأبية إليه أعلى من إخراج الوطن المصرى من الظلمات إلى النور وإحلاله المحل الأول بين الأوطان الأخرى التى كانت فى الدجنة الحالكة يوم كانت بلادنا مشرقا للعرفان؟

ليت شعرى، أى لذة وسعادة ومكافأة يطلبها الوطنى المصرى أكبر من اشتراكه فى هذا العمل الخطير الذى هو أجل عمل يراه العالم فى القرن العشرين، إن المكسب الأدبى للوطن المصرى من هذه الخدمة يربى على اتعابه ومجهوداته بكثير.

متطرفون!

أيها السادة!

يروق لبعض الجهلاء والمسخرين لخدمة الإنجليز أن يلقبونا «بالمتطرفين» ويقسموا الأمة فرقا واقساما، ومادروا أنه لايصح ان يوجد فى البلاد الفاقدة استقلالها المتحكم فيها الإجنبى إلا حزب واحد هو حزب الوطن، حزب الحرية حزب الاستقلال، وقد جهلوا أوتجاهلوا أنه ليس للبلاد التى يحتلها الأجنبى إلا سياسة واحدة: وهى سياسة المطالبة بالاستقلال، وان كل قول أو عمل يؤدى إلى إضعاف الروح الوطنية وهدم جزء أو كل من ثقة الأمة بنفسها وبمستقبلها هو أكبر اذى يلحق بالبلاد نسوا أن قانون الحاكم فى معاملته للمحكومين خاضع لدرجة احترامه لهم، فان رآهم امواتا فى أزياء أحياء يقولون مالا يعتقدون ويطلبون منة الإصلاح كما يطلب السائل الإحسان لا كما يطلب صاحب الحق حقه، استبد فيهم وسخرهم للسلطة كما تسخر الأنعام!

نلقب بالمتطرفين! ولماذا ؟ لأننا نطالب بحقوق مصر واستقلالها! لأننا نذكر انجلترا بشرفها وعهودها ووعودها! لأننا نقول لها بصوت الحق والاعتقاد القوى، إن المستقبل يكفل ذلك وأنه خير لها ألا تقاوم الحوادث فيها بعد، وألا تحاول إعدام أمة خلقها الله للحياة والعمل!

متطرفون! لأننا نعلن ثقتنا الكاملة بمستقبل بلادنا، ونقول لهذه الأمة فى الصباح والمساء: اليوم عسر وغداً يسر واليوم أسر وغدا فخر، اليوم احتلال وغداً استقلال، اليوم عناء وشقاء وغداً رخاء وهناء!

متطرفون لأننا نقول للأمة اعملى وحافظى على السكينة، إياك والقلاقل فهى تخدم العدو وتضر بالوطن، إياك والانقسامات فإنها منشأ الخراب والدمار، إياك وهوس العداوات الدينية فإنها آفة الآفات وجالبة المحن، إياك وسوء ظن الملأ المتمدن بك فإن الشعوب فى المدنية متضامنة ويا شقاء من سار ضدها!

متطرفون! لأننا تقول للأمة خذى من العلم أوفر قسط وتسلحى بأسلحته واملأى وادى النيل من نوره، وردى إلى الفقير حقه ونصيبه من هذا المنهل العذب .

متطرفون! لأننا نردّ تهم العدو ونثبت للعالم كله أننا متمدنون وأنه ليس للتعصب بيننا وجود وأن الإسلام عامل قوى لترقية الأمة ونشر أنوار المدنية فيها.

متطرفون! لأننا رفعنا أصواتنا محتجين على فظيعة الفظائع فى دنشواى وعارضنا السياسة الإنجليزية فى دعاويها ووقفنا فى وجوه أعدائنا، والحق سلاحنا والصراحة عدتنا والإقدام مطيتنا.

متطرفون! لأننا نمثل مصر للأمم تتدفق حياة ونشخصها قوية ناهضة شريفة المقاصد أبية لا ترضى المذلة ولا تعرف الكذب والخداع.

متطرفون! لأننا لانطالب استعمار بلاد الغير ولااستعباد شعب من شعوب الأرض، بل نقنع بطلب الاستقلال لوطننا.

فإن كنا نعتبر متطرفين لاننا نعلن ذلك كله ولأن هذه خطتنا فأكرم بالتطرف، ويافخارنا بأن نلقب بالمتطرفين!

ومن منكم لا يفخر بأنه متطرف، وأيكم لايريد أن يكون سائر المصريين متطرفين؟

وهل يكون الاعتدال فى هذه الحالة شيئاً آخر سوى الخوف والجبن والرياء واستعمال خطتين واتباع سياستين ومخاطبة الناس بلسانين؟ ومن ذا الذى يرضى لنفسه ولقومه بهذا الاعتدال وما هو فى الحقيقة إلا المذلة فى أبشع مظاهرها والموت الشنيع الموجب لاحتقار الأمم جمعاء.

عجباً! عجباً! أنلقب نحن بالمتطرفين لأننا نطلب استقلال وطننا من أشرف السبل وبأكمل الوسائل ولانريد أن نتعداه بالاعتداء على أحد، على حين أن الإنجليز لم يكتفوا باستقلال وطنهم بل استعبدوا الأمم وتوسعوا فى الاستعمار وملكوا البحار ولا يزال أكثرهم يقول: هل من مزيد؟

هل هم يلقبون بالعقلاء المدبرين لأنهم انجليز ونلقب نحن بالمتطرفين لأننا مصريون؟ هل الوطنية التى تروق وتعجب هناك، تؤذى وتؤلم هنا؟

هل مصر دون بريطانيا فى الجمال حتى تحدد محبة المصريين لمصر ولايعرف لحب الإنجليز لبريطانيا حد؟

كلا وايم الحق كلا، إن مصر جديرة بأن تُحَب بكل قوة، بكل عاطفة، بكل جارحة، بكل نفس، بكل حياة!

لا عجب إذا وقف من لا يعرف هذا الحب باهتاً أمام من يعرفونه، لا عجب إذا دهش الذى لايتألم لمصاب وطنه ولا يشعر بأوجاع بلاده ممن يتألمون ويشعرون، لا عجب إذا كان الذين خلقوا وقلوبهم من صخر يعدون وطنية من ولدوا ولهم قلوب إنسانية جنوناً فى جنون.

أعداء الوطنية

أيها السادة:

لا يجهل أحد منكم أن الحركة الوطنية المصرية أزعجت محبى الاستعمار من الإنجليز فحاربوها بدنشواى فخابوا، وبزيادة جيش الاحتلال فأخفقوا، وبتهمة التعصب الدينى

ففشلوا وأضحكوا العالم طراً، وها هم الآن يحاربونها بالخونة والمنافقين بعد أن عهدوا الأمر للدخلاء طويلا فلم يبلغوا منا مأرباً، وإنهم لمخفقون أيضاً فى هذه السياسة الجديدة، إنهم لو جردوا جيوشاً من أعداء الحركة الوطنية المصرية فإنها لا تزداد أمامهم إلا قوة وحمية وثباتاً وإقداماً.

ليقلبوا نظام التعليم ما استطاعوا وليحاربوا الناشئين ما أرادوا، فإن رجال الغد لا يكونونُ إلا مصريين وطنيين متشربين بمحبة بلادهم متطلعين لأن ينيلوها من المجد والسؤدد أسمى مما نالت الأمم الأخرى، لينفقوا الأموال ذات اليمين وذات الشمال لشراء الضمائر الخربة والنفوس المنحطة، فإنهم إن كسبوا فرداً واحداً قام من الوطنيين الصادقين العشرات لهدم ما ينبون ودك ما يقيمون.

إن أمة دبت فيها روح الوطنية وطمحت نفسها للاستقلال لا تموت أبداً، وإن صواعق السياسة كلها لا تحول ضميراً لاذ بالوطن عن وجهته!

أيها السادة:

إن الوطنية واحدة لا تتعدد! وقد يضل الإنسان فى أمور كثيرة ويخطىء فى مسائل عدة، ولكن إذا كان هناك شعور لا يضل الرجل فيه ولا يخطىء أبداً فى تقديره وتكييفه وإظهاره بكل مظاهره فهو الشعور الوطنى، لا يحتاج المرء إلى علم ولا إلى فلسفة ولا إلى خبرة وتجارب ليقول إذا سأله السائل: «ما رأيك فى مسألة احتلال الإنجليز لبلادك؟»: «إن خروجهم غاية آمالى وإن العمل له أقدس الفروض المحتمة علىّ»

إن أجهل الشعوب وأبعدها عن العلم والحضارة والمدنية تشعر بهذا الشعور لأنه طبيعى ولا يكون الإنسان إنساناً إلا به.

لذلك كانت ضجة الأمم شديدة ضد من قالوا بإماتة هذا الشعور، ونادوا بأن الوطن خيال وأن الراية قطعة من قماش وأشاروا باعتصاب الجنود لو قامت الحرب ودعت الأمة أبناءها الأشداء للذب عنها.

انظروا إلى فرنسا وهى الدولة التى امتلأت صحف تاريخها بذكر الوطنية وآثارها الفخمة وورث الأبناء عن الآباء فيها حب الوطن والدفاع عنه حتى صار هذا الشعور

مقدساً لا يقربه أحد بسوء، كيف تهتز الآن من شمالها إلى جنوبها ويقول خدامها الأمناء بأعلى أصواتهم:

«حذار حذار من «هرفى» وأنصاره فإنهم يريدون هدم بناء الوطنية الفرنسية، أى بناء المجد الحقيقى والحياة العالية، وإن عدوى أفكارهم أضر بفرنسا من كل جَيش فاتح».

فإذا كان هذا مبلغ سخط الشعوب القوية الراقية على أعداء الوطنية، فكم يجب أن يكون سخطنا شديداً عليهم ونحن أحوج شعوب الأرض إلى هذا الشعور الذى لا ننال حقاً إلا به ولا نبلغ مأربا إلا بفضله.

إننا ما رأينا وما سمعنا ولا روى لنا التاريخ أن أمة سلبت حقوقها واختلس استقلالها وضربها الأجنبى ضربة الاستبداد والاستعباد يقوم من أبنائها من يمجد هذا الأجنبى ويقول له:

«أنت السيد وأنت المنعم فافعل ما شئت؟»

أسمعتم أن أرلندياً واحداً قال هذا القول؛ أوصل إليكم أن بولونياً من أجهل البولونيين طأطأ رأسه أمام الحاكم الأجنبى؟ أم علمتم أن صغار البولونيين أدهشوا العالم كله بتمسكهم بوطنيتهم؟

إن من يظن أن الإنجليز يحبون الخونة يخطىء خطأ كبيراً، نعم إنهم يستخدمونهم لأغراضهم ولكنهم يحتقرونهم أشد الاحتقار، لأن شعباً ينشأ الفتى فيه وهو يرى امتلاك الأرض ومن عليها حقاً من حقوق أبناء جلدته لا يعتبر الخيانة إلا جناية الجنايات.

أين كانت تكون عظمة انجلترا وسلطتها لو كان فيها من الخائنين من ترى مصر، هل كانت تسود الأمم وتملك رقاب الشعوب وتبلغ من الثروة والسؤدد هذا المبلغ؟

كلا وأيم الحق كلا، أنها كانت تكون ممزقة الوجود متفرقة الكلمة متباينة الآراء يلعب بها الأجنبى ويسيرها فى الطريق الذى يختار.

فلا قوام لأمة ولا سلامة لبلاد بقوة العقيدة الوطنية، ولا تدرك الشعوب هده القوة إلا إذا كانت شديدة الحكم على من يتلاعبون بالوطنية، قاسية فى تأديبهم ومعاقبتهم.

سمعت البعض يقول عنى إنى شديد فى تقريع من خالفوا الواجب الوطنى ومالوا عن مصلحة البلاد، فأجيبهم اليوم بأنه إذا صح التسامح فى بعض الأمور وفى ظروف معينة، فإن التسامح فى الوطنية إعدام لها وقضاء عليها، وإن من يتسامح فى حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان.

سياسة المغالطة

ينادى البعض فى هذه الأيام بأن كلمة الاستقلال توجع الإنجليز وأنه أشير عليهم من بعض أنصار مصر فى انجلترا بأن الأصلح والأوفق الاكتفاء بطلب الإصلاح وإهمال مسألة الجلاء والاستقلال، أو على الأقل تأجيلها إلى حين، ويعمل ذلك البعض لترويج هذا الرأى، ويندفع فى طريقه طاعناً فى المطالبين بالاستقلال قائلاً إنهم متطرفون!

وإنى مفصح الآن أمام الأمة كلها عن رأيى فى هذه السياسة التى يتوهم ذلك البعض أنها أكبر ضرب من ضروب الدهاء.

أحرار الإنجليز ومصر

إن العمل بآراء الإنجليز الذين يشتغلون بمسألة مصر فى انجلترا ليس مما يطالب به مصرى، لأن هؤلاء الإنجليز يعملون لخدمة انجلترا بالذات، فهم يريدون أن تكون سياسة بلادهم سياسة لين ومهارة بدلا من أن تكون سياسة شدة وصلابة، وهم أن اتفقوا معنا فى بعض المسائل قد يختلفون فى الجوهر، ولذلك نرى بعضهم يرى بمزيد الاستياء الحركة الوطنية الداعية إلى الاستقلال.

فنحن مسلوبون والإنجليز هم السالبون، ونحن طلاب حق مقدس والإنجليز هم مغتصبو هذا الحق، فلا سبيل إلى الاتفاق بيننا وبينهم إلا باعترافهم بحقنا وردّه إلينا.

أما القائلون بأنه يتم الاتفاق بين المصريين والإنجليز على أساس تضحية الشرف البريطانى، وتضحية استقلال مصر، أى خيانة المصريين لوطنهم وخيانة الإنجليز لشرفهم ووعودهم وعهودهم، فإنما يوجهون إلى الأمتين أكبر مسبة ويطلبون اتفاقاً باطلاً، وأى

احترام لعقد أساسه الخيانة الصريحة؟ إننا نشكر كل إنسان ينصف مصر ويعترف بحقوقها كلها أو بعضها، ولكنا لا نتقيد برأى أحد ولا نتأثر بسياسة خاصة، بل يجب أن نكون خدام العقيدة الصحيحة السليمة، خدام العقيدة الوطنية.

فإن قال المنتصرون لمصر فى بعض أمورها من أحرار الإنجليز إن المطالبة بالاستقلال تؤلم قومهم وطالبونا بالعدول عنها، وجب على كل مصرى أن يجيبهم قائلاً: «لكم دينكم ولى دين».

فساد سياسة المغالطة

يتوهم أنصار سياسة المغالطة أنهم مهرة قادرون وسياسيون محنكون، فلذلك هم يريدون أن يخدعوا الدولة الإنجليزية ويغلبوها بقوة الدهاء، هم يقولون: «لنهجر طلب الإستقلال ولنطالب الإنجليز بالإصلاحات الداخلية مثل تأسيس مجلس نيابى ونشر التعليم حتى إذا صرنا أصحاب الحول والطول فى البلاد قلنا لهم: «انجلوا عنها» فلا يستطيعون إلا أن ينجلوا خاضعين ممتثلين.

اللهم إنى أعترف بأنى لست من المهرة فى السياسة حتى أدبر مثل هذا التدبير وأصرح بأنه لم يخطر لى لحظة واحدة على بال بأنى قادر على أن أصرع السياسة الإنجليزية بمثل هذه المهارة الفائقة، كما أنى مع عداوتى الأكيدة للإحتلال، لا أرى الإنجليز قد تحولوا بسرعة البرق أطفالاً صغاراً حتى تدخل عليهم هذه الحيلة المضحكة.

باطلاً يعتقد البسطاء أن الإنجليز مع كونهم ينوون البقاء فى مصر يقبلون منح أهلها حكومة دستورية، لأنه لو جاز ذلك لكان وجودهم فى هذه الديار يوم يؤسس فيها مجلس نيابى تام واسع السلطان نافذ الكلمة لغواً، ولأصبحوا فى هذا القطر لاعبين.

إن إعطاء المصريين مجلساً نيابياً حقيقياً – لا صورة يراد بها السخرية وذر الرماد فى العيون – هو تجريد للاحتلال من كل سلطة، فلا يستطيع المعتمد البريطانى إبقاء مثل دنلوب فى نظارة المعارف مع سخط الأمة كلها عليه، ولا يمكن تعيين مثل المستر هيل فى مدرسة الحقوق والأكفاء من المصريين يعدون بالعشرات إن لم نقل بالمئات، ولا يقدر أن يطلب أربعمائة ألف جنيه لبناء ثكنات للجيش البريطانى والبلاد فى أزمة شديدة وحاجتها

للمال ظاهرة للعيان، ولا يتيسر له صرف تلك الاعتمادات الطائلة للسودان ومصر فى أشد الحاجات إليها، ولا يجد سبيلاً لمسخ الحكومة الأهلية وتمكين الإنجليز من كل فروعها ومحاربة الأمة فى كل ميولها وسلبها جميع حقوقها.

إنما تساعد انجلترا بكل قواتها على تأسيس حكومة دستورية فى هذه الديار يوم تنوى حقيقة الجلاء عن مصر: ولذلك طلبتُ دائماً المجلس النيابى مقروناً بطلب الاستقلال.

ألا إن الخطة التى وضعتها الحكومة الإنجليزية عندما احتلت هذا القطر هى ترشيح المصريين لأن يحكموا أنفسهم، وإقامة معالم الدستور بينهم ثم الجلاء عن بلادهم، هى خطة متماسكة كل التماسك ولا يمكن تنفيذ مبدأ من مبادئها دون المبدأين الآخرين، فترشيح المصريين لأن يحكموا أنفسهم يجعلهم أقوياء أشداء راقين فى الشعور الوطنى فلا يرضون بحكم الأجنبى، ومنحهم مجلساً نيابياً يحصر السلطة فى أيديهم فلا يبقى للإنجليز بجانبهم عمل ما.

ولذلك صرحتُ أيها السادة بفساد سياسة المغالطة وبضررها الشديد على مصر والمصريين لأنها تؤدى إلى اعتراف فريق من الأمة بقبول الاحتلال وتظهره بمظهر الضعف الشديد ولا تثمر ثمرة ما، هذا فضلاً عن كونها قاتلة للروح الوطنية بإبعادها المصريين عن ذكر الاستقلال والتعلق به.

سياستنا

أسمع المعترضين يقولون: وبم تمتاز سياستكم على سياستهم وما ثمراتها؟

فأجيب بأن سياستنا هى سياسة الصراحة والمناداة بالحق والدعوة للاستقلال، وهى وحدها الموصلة إلى كل الغايات الحسان، فالصراحة وقول الحق من الخلال التى تحمل الحاكم على احترام المحكوم.

فالإنجليزى لا يشك فى أن كافة المصريين يودون الاستقلال من أعماق قلوبهم، فإذا رأى بعضهم يقول عكس ذلك ويتحبب إليه ويطعن فيمن يخالفونه فى خطته عرف أنه منافق واحتقره ورمى الأمة بعدم الاستعداد للاستقلال.

وقد قال غمبتا حقاً وصدقاً: «لأجل أن ننال محبة الإنجليز يجب أن تنال احترامهم» أن الإنجليز أنفسهم فى حاجة لمن يسمعونهم الحقيقة الصارخة، وهى أن أساءتهم وآلمتهمَ فى الظهر فإنها أفيد فى الواقع من نفاق المنافقين وكذب الكاذبين.

أليس أولئك المنافقون هم الذين أدخلوا فى نفس اللورد كرومر اعتقادات كاذبة بشأن الأمة المصرية فاعتدى عليها قولاً وفعلاً وفر بيده هاوية بينها وبينه بفظيعة دنشواى ويسبّها فى وطنها ودينها حتى فارقها وألسنتها تشيعه بالسخط الشديد؟

فمن من الإنجليز يرضى لشرف بلاده ومصلحتها أن يكون كل عهدها فى مصر كرومريا؟ ألا يقول معنا بضميره أن لم يقل بلسانه إن الصراحة والصدق هما أمتن أساس لأشرف سياسة.

الاستقلال والوصول إليه

إن الذين يطالبوننا بعدم ذكر الاستقلال إنما يريدون أن تموت الروح الوطنية فى مصر، أى أن تموت الأمة المصرية، لأن حياة هذه الأمة ومستقبلها مرتبطان بمقدار قوة هذه الروح فى الشعب.

يتساءل البعض عن الوسيلة الموصلة إلى الاستقلال، وهذا تاريخ الشعوب البشرية يدلهم على أن الوسيلة الموصلة إلى الاستقلال تنحصر فى بث روح الوطنية الصحيحة والشهامة والإقدام فى الأمة، وإعلاء ملكتها، وإيجاد حب السؤدد والرفعة، ومسابقة الأمم الراقية، وجعلِ الاستقلال رائدها.

فاذا تمكنت هذه الروح وتلك الميول من كل مصرى فتحت المدارس العلمية والصناعية والتجارية والزراعية فى كل مكان، وظهرت آثار النخوة والهمة والتضامن فى كل جهة وناحية، واتحدت الأمة فى الغايات والمقاصد وازدادت ثروتها فى المال والعلم والوطنية والوئام، وقضت على كل عمال الخصام والانقسام وصارت أمة من أقوى الأمم فعلا، واضطرت انجلترا يومئذ لأن تتفق معها على الجلاء والاستقلال، تفضيلا لمودتها على عداوتها، لأن أمة تبلغ هذا الشأن لا تلبث أن تستخدم الحوادث – وما الحوادث مسيرة بإرادة دولة أو برغبة إنسان – فتنال استقلالها رغما من كل معارض فيه.

فالدعوة للاستقلال وبث الروح الوطنية الطاهرة، هما المؤديان إلى تحقيق آمال الأمة المصرية، فليكن معتقد المصريين جميعا أن نجاة مصر لا تكون إلا بهمم المصريين، وان ارتقاءنا موكول إلى عزائمنا. فلنطلب النهوض من أنفسنا ولنعمل له بالهمة والصدق والاتحاد.

يقول البعض ان المناداة بالوطنية كلام فى كلام، نسى ذلك القائل أن أهم الأعمال البشرية وأرقى الجهود الإنسانية تنحصر فى إدخال عقائد جديدة فى النفوس، لأن العقيدة تحرك الجبال.

فإدخال الروح الوطنية فى نفوس المصريين لتجتمع كلمتهم حول الوطن العزيز ويتفقوا فى المطالبة بمجده واستقلاله، هو أكبر الأعمال.

ومن قال ضد ذلك فقد أنكر الديانات وتأثيرها والتاريخ وأحكامه والعوامل الفعالة فى الشعوب كلها.

العالم ومصر

أيها السادة:

عرف المصريون أجمعون أن اعتقاد العالم فيهم قد تغير وأنه أصبح يرى فيهم أمة حية رشيدة بعد أن كان يعتقد فيهم ضد ذلك، ولماذا؟

أليس لأنه علم أنهم محبون لوطنهم راغبون فى خيره واستقلاله وأن الحركة الوطنية المصرية فى نمو مستمر.

ليقل لنا الطاعنون فينا أكانت تبلغ هذه الحركة الوطنية شأوها الحالى لو لم تكن قد سيرت بقوة وصراحة صارمة لا محاباة فيها؟ أليس من الحقوق الطبيعية لمن سلب حقه أن يعلو صوته بدرجة صوت سالبه، إن لم يرتفع فوقه؟

فأى لوم يوجه إلينا أننا فى أقوالنا وكتاباتنا وأفعالنا نذكر الأمة الإنجليزية بالكرامة والاحترام فهل فعل المحبون للاستعمار من الإنجليز فعلنا؟ هل قالوا مثل قولنا؟ هل كتبوا مثل ما كتبنا؟

كلا وألف مرة كلا، إنهم ما أسمعونا إلا الشتائم والمطاعن البذئية والتهم الباطلة، هذا شيخ ساستهم لورد كرومر أبت عليه آدابه وتجاربة وخبرته أن يترك مصر دون أن يسب أهلها جميعاً ويلقبهم بالعميان ويقضى عليهم بالذل إلى أبد الزمان، فهل قام مصرى واحد يسب الأمة الإنجليزية كما سب لورد كرومر الأمة المصرية؟ هل خالف واحد منا الأدب والكمال أونسى سمو القضية التى نخدمها وقلد اللورد فيما قال.

لاريب فى أن العدو نفسه يجيب سلباً أمام ضميره ويعترض بأن المطالبين باستقلال مصر ساروا فى طريقهم والحمية والحكمة عندهم متلازمتان.

المعارضة الوطنية والحكومة الإنجليزية

أيها السادة:

إن الحكومة الإنجليزية التى فخارها فى وطنها الجدل والمناقشة والسعى وراء الحقيقة تعلن عجزها فى مصر إذا جارت أولئك المضطربين من الحركة الوطنية النادبين سوء حظهم لوجود أفراد فى هذه الأمة يقولون الحق جهاراً ولا يخافون فيه لومة لائم، لأن الحكومة القوية تزداد قوة بفضل المعارضين الواقفين لها بالمرصاد المنادين بسيآتها المشهرين بأغلاطها الدالين لها على عيوبها، فما بالك بسلطة الرجل الفرد. بسلطة الأجنبى الجاهل بأخلاق الأهالى وميولهم ومطالبهم ورغائبهم؟

أليست هى أحوج السلطات إلى قوة معارضة تقف أمامها موقف الخصم العنيد الذى لا ينزل عن حق ولا يسكت على عيب ولا يستر نقصاً ولا يجامل فى خطأ، بل ينادى بما يراه ويعتقده وينتقد الأعمال بصراحة وبطش شديد؟

ألا إن حكومة كحكومة مصر لا يزال شكلها ونظامها أبعد الأشكال والنظم عما يرجوه المصريون لبلادهم ويطلبونه فى الصباح والمساء، لأجدر حكومات العالم بأن تسمع أصوات المخالفين لها وتنظر فى انتقاداتهم بعناية لا بتعنت وغيظ، فإن الموقف لا موقف خدمة عامة وعمل للصالح العام لا موقف خصام وعناد.

يقول بعض الصحف إن الحكومة تأبى تقرير ذلك الأمر النافع وهذا المشروع المفيد

لأن المعارضين أو المتطرفين أو المتحمسين أو أعداء انجلترا فى مصر طلبوا ذلك الأمر وهذا المشروع، وأن المسألة صارت إلى المشاكسة والعناد والمبالغة فى النكاية بالخصم.

ومثل هذا القول هو أكبر مسبة توجه إلى رجال الحكم!

إن الحكومة الصالحة العاملة لخير الرعية هى التى تلتقط الحقيقة أنى وجدتها، وتعمل بالرشد والصواب ولو كان خصمها هو مرشدها، فهى تزداد قوة على قوتها ونفوذا عند الرعية إذا اتبعت رأى خصمها متى كان حقا، لأنها تثبت بذلك أنها حكومة خير ورشاد لا حكومة طيش وأهواء.

أما إذا اعتقد الجمهور فى الحكومة أنها لا تعمل إلا ما تريد وأنها تهمل كل صوت يرتفع بالحق مادام قائلة ليس من مملقيها، فان مقامها يسقط فى نظر الناس ويسىء الكل الاعتقاد فيها وتكون قد أوجدت بنفسها وبإرادتها الشقاق والافتراق بينها وبين المحكومين.

أى معنى لا فتخار الإنجليز بسيادة حرية القول وحرية الأقلام فى مصر إذا كانت هذه الحرية لا تفيد الحكومة شيئاً ولا تصلح المعوج من أمورها؟ وهل القصد من هذه الحرية أن يسمح للمصريين بأن يبكوا استقلالهم وينادوا بالويل والثبور على سالبيه ليس إلا؟

اللهم إن حرية لا تعطى الأمة حقا فى إدارة شئون البلاد، ولا تجعل للناطقين باسم الشعب سلطاناً أدبياً محترما عند الحاكمين، لحرية أجنبية عن حرية الشعوب المتمدنة ولأهانة حقيقية للأمة تقدم إليها فى شكل نعمة.

سيئات المحتلين وفساد حكمهم

ماذا يريد الإنجليز منا؟ أيريدون أن نسمى سيئاتهم حسنات ونصفق لضياع حقوقنا واستيلائهم على بلادنا، وتجريدهم إيانا من كل سلطة ونفوذ؟ هل كانوا يسرون بمثل هذا الحال لو كانت بلادهم محتلة بدولة أجنبية؟

اتفاقية السودان

مَن من المصريين يـذكر اتفـاقية السـودان ويشكر المحتلين ؟ وكيف يشكـرهم وهم قد ضغطوا على حكومة فى قبضتهم فأتت ما أرادوا مـع مخالفـة الأمر للفـرمانـات السلطانيـة وبطلانه من الوجهة القانونية ؟

من ذا الذى يمدح هذه السياسة، سياسة القوة والجبروت التى أنكرت حقوق مصر فى السودان فعلا بعد أن روينا أرضه بدمائنا الغالية وأنفقنا عليه الأموال الطائلة؟

أين العدل ؟؟

أى مصرى يرضى عن قوم لا يعرفون العدل والإنصاف والمساواة وتلك الكلمات الضخمة والمعانى الفخمة إلا إذا كان الأمر متعلقاً بمصرى، أما إذا كان له مساس بإنجليزى فلا عدل ولا إنصاف ولا مساواة !

أليست الوكالة البريطانية هى التى أقامت الدنيا وأقعدتها يوم أدعى أمامها أحد الأرمن بأن أخاه سجين فى سراى رأس التين وأنه يعذب بغير حق ؟ ألم تنتدب يومئذ المستر شايبن للتحقيق وتفتيش السراى أى القيام بعمل لم نسمع بمثله فى حكومة أخرى ؟ ألم تقل يومئذ فى الجرائد الخادمة لسياستها إن هذا أكبر مظهر من مظاهر العدل وإنه يحق للمصريين أن يشكروا المحتلين ليلا ونهاراً ويرتلوا آيات الثناء عليهم؟

فأين هذا العزم اليوم ؟ أين تلك الهمة العالية فى تأييد العدل وعدم التمييز بين الصغير والكبير ؟

كيف سكنت عواطف المدينة والإنسانية والإنصاف والمساواة مرة واحدة فى قلوب السادة الإنجليز لما اتهم عالم من كبار العلماء الفرنسيين مستر دنلوب بتهم شنيعة يأبى الحر قبولها والسكوت عليها.

أين المظهر العادل للعدل أيها المحتلون؟ أين أبناء الأمة التى تعد من أكبر مفاخرها عدم التستر على مرتكب أثيم؟ أين أختفوا!

أين هم لنسمعهم الحق الذى لا ريب فيه ونقول لهم بصوت جهير إن عدم محاكمة دنلوب بعد الفضائح التى أعلنها المسيو لامبير معرة كبرى على الاحتلال والمحتلين!

ينسب البعض سكوتهم أمام هذه التهم الصريحة إلى أنهم لا يريدون إرضاء الرأى العام أو الظهور أمامه بمظهر الضعف.

حقا إنها لحجة تضحك، وإنها لسياسة لا ترضاها لنفسها حكومة «بهنزين» أيظن المسيطرون من الإنجليز أن إخراج دنلوب من المعارف أضر بالسياسة الإنجليزية من بقائه!

إننا كنا نعتقد أنهم أذكى وأفطن من أن يقولوا ذلك، وإلا فكيف فاتهم أن بقاء دنلوب هو أكبر وصمة للاحتلال، وأننا لو كنا نريد تحقير الحكم البريطانى فى مصر لما طلبنا منهم أكثر من بقاء دنلوب بعدتهم الأستاذ لمبير، أليس بقاؤه أكبر دليل نقدمه للأمة على أنه آن لها أن تترك مدارس الحكومة خاوية لا يقصدها طالب وتؤسس هى مدارس لأبنائها بأموالها وهم القادرين من رجالها لتنال الاستقلال العلمى والأدبى وتستريح من أعمال دنلوب ومساعيه!

إذاكان الأستاذ لامبير يقرر أن خطة دنلوب هى التى دفعت بطلاب الحقوق إلى صفوف الوطنيين فصاروا فى مقدمتها، فكيف لا يدرك الإنجليز أننا لو كنا لا نرمى إلا إلى جمع كافة القوى الحية ضدهم وأن هذه طلبتنا الوحيدة، وأننا لا نريد الخير لبلادنا ولا نطلب الإصلاح، لا بتهجنا ببقاء دنلوب عاملا على زيادة الوطنيين المصريين ومجداً فى بث روح العداء فى قلوب الناشئين للانجليز واحتلالهم! إن الأمة المصرية تنظر اليوم بمزيد الاهتمام إلى ما تنوى الوكالة البريطانية عمله مع دنلوب، فان هى تركته وشأنه علم من لم يكن يعلم فى هذا القطر وفى غيره من الأقطار أن العدل خيال فى مصر لا حقيقة، وأن الانجليز يغفرون لرجالهم كل السيئات ويتربصون للمصريين فيعاقبونهم على أصغر صغيرة

فإذا كانت هذه هى النتيجة التى يعمل لها المتعمد الانجليزى الجديد فليفعل، فإنما هو يهدم بيمينه البقية الباقية من نفوذ بلاده عند المغرورين الذى لم يسيئوا بها الظن تماما ويقوى عقدة الذين لايرون فى نواياها ومراميها شيئاً من الخير لمصر والمصريين.

محاربة الأكفاء من المصريين

كيف يطالب المصريون بأن يحسنوا الظن بالمحتلين وهؤلاءهم الذين يدعونهم كل يوم إلى إساءة الظن بهم.

كيف يصدق العلماء والفضلاء والأكفاء من المصريين أن الإنجليز يريدون حقيقة لهذه البلاد التقدم والارتقاء وهذا مستر دنلوب يأمر كل مدير لمدرسة عالية بأن يطعن فى كفاءة المصريين الذين يطلبون وظائف التدريس!

وإذا تركنا المستر دنلوب وارتقينا إلى رئيسه الأعلى معتمد انجلترا فى مصر، فماذا نجد من نياته! نجد أن السير إلدون غورست قد عين المستر هيل مديراً لمدرسة الحقوق وسخر بذلك من المصريين عامة ومن الأكفاء خاصة.

ألم يقل لهم بلسان الحال: «إنى لأسخر من معارفكم وآدابكم وكفاءتكم واستعدادكم وخبرتكم وشهاداتكم لأنكم مصريون وأقدم عليكم من هو دون أصغركم علما وفضلا وخبرة لأنه إنجليزى؟»

فهل بعد هذا يطالب المصريون بأن يحسنوا الظن بالإنجليز؟ وهل هناك عداء صريح من قوم لآخرين أكبر من هذا العداء؟ وهل يليق بشرف دولة كبرى كالدولة الإنجليزية أن تحارب المصريين بمثل هذه الصغائر وهى التى أقسمت أمام العالم كله أن جل رغائبها إعداد المصريين لأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم؟

ومتى يتسنى لهم ذلك القاعدة السائدة فى السياسة الإنجليزية بمصر، هى تجريد المصريين من كل سلطة، وإبعادهم عن كل منصب ذى عمل، والاستعانة بالضعفاء والمارقين منهم على تمثيل مصر فى المناصب التى يشغلونها بأسوأ صورة.

دنشواى

يقول سير إدوارد غراى بأعلى صوته فى مجلس العموم الإنجليزى إن لورد كرومر لم

يعامل المصريين كأمة منحطة، فماذا كان يريد أن يعمل اللورد ليعترف بأنه عاملهم كذلك ؟

أليست دنشواى وحدها بكافية لأن تثبت مدى الدهور والأجيال أن الإنجليز أهانوا المصريين إهانة قاسية لا تنسى أبداً، ولا يمكن اختلاف اثنين من المنصفين فى الحكم عليها ؟

ينادى الساسة الإنجليز بأن الحكم فى دنشواى كان سياسياً وكان يقصد به تأديب الأمة، وإذا طلبت الجماهير العفو عن المسجونين بسبب هذه الحادثة قالوا: «إنما أنتم تطلبون العفو لتعدوه انتصاراً على السياسة الإنجليزية»

فهل هذا هو العدل الذى تجود به علينا المدنية البريطانية؟ هل هذا هو الإنصاف الذى تريد أن تعلمنا إياه الدولة الإنجليزية ؟ أيعاقب أهالى دنشواى بتلك الشدة المتناهية لأن الأمة لم تكن مع الإنجليز فى حادثة العقبة، وهل الحكومة التى تخلط بين السياسة والعدل إلى هذا الحد فتعاقب البرىء وتكافىء المجرم تستحق أن يمدحها مادح ويثنى عليها إنسان؟ وكيف يدهشها قيام المعارضين فى وجهها واعتراضهم عليها بكل شدة وقوة ؟

إننا لو كنا نريد دوام العداء والنفور واستحكام الشقاق والتنازع لطلبنا بقاء مسجونى دنشواى فى سجونهم الأعوام الطوال، لأنه كلما مرت السنون وهم على حالهم تجددت آلام الأمة بما لا يكيف، وجرى ذكر دنشواى على كل لسان، وهكذا سياسة العناد لا تثمر إلا عكس المقصود منها ولا تؤدى إلا إلى ضد الغاية المطلوبة.

إن الرجال لا يحكمون بمثل هذه السياسة ولا تدبر شؤونهم بمثل هذا الاعتساف.

إذا كان الإنجليز يجهلون أحوال المصريين وما يدور بينهم، فليعلموا أن فى هذه الأمة رجالاً مستنيرين رشيدين يعادلون أكفأ العقلاء من الإنجليز وأنهم يغارون على الحق والعدل ولا يرضون بأن تكون الأحكام فى البلاد قائمة على الغايات والأهواء، وهؤلاء الرجال هم القوة المفكرة التى تحترمها كل حكومة فى العالم وتسترشد بآرائها فى المواقف الحرجة.

إننا نقدم العدل والرحمة على السياسة، ولذلك طلبنا ونطلب بأعلى أصواتنا العفو عن مسجونى دنشواى، ونقول بكل صراحة إن السياسة الرشيدة هى التى تعمل لتخفف

الآلام الناشئة من هذه الحادثة الموجعة، لا العمل على تقويتها وزيادتها بدعوى أن طلاب العفو ليسوا من أنصار الاحتلال!

ألا فاقرأوا معاشر الإنجليز التاريخ الإسلامى وانظروا فى أعمال أولئك الخلفاء العظماء الذين كان الواحد منهم ينشد الحقيقة فى كل وقت وفى كل مكان ويمتثل للحق ولو كان قائله من أحقر الناس.

فخليق بالإنجليز وهم الذين يدعون أمن مدنيتهم سادت كل مدنية أن يذكروا أن رجال المدنية الإسلامية لم يكونوا ليقولوا: «السياسة فوق الحق»، بل كانوا يقولون ويؤيدون هذا القول بألف دليل ودليل: الحق فوق كل شىء.

الثروة والأزمة

أيها السادة، يفاخرنا الإنجليز على الدوام بأنهم أغنوا البلاد وملأوها ذهبا حتى حدثت الأزمة الأخيرة وخفت هذا الصوت الذى صمت من سماعه الآذان أعواماً طوالاً.

فما قيمة الثروة التى يفاخرون بها بجانب الحرية الشخصية والعمومية وسيادة المصرى فى بلاده واستقلاله فى وطنه؟ ومن من المصريين لا يفضل أن يكون أفقر الناس جميعاً وحكومة بلاده قائمة على العدل الصحيح على أن يكون أغناهم وأثراهم ويهدد من المحتلين بعقوبات دنشواى؟

وإذا كان من المسلم أن ارتفاع أثمان أراضى الزراعة تابع لثمن القطن، وأن هذا خاضع لطلبات العالم ولحاجة الناس للقطن المصرى بنوع خاص ولقلة المحصول الأمريكى وللمضاربة، فما أثر الإنجليز فى هذه الثروة؟

لاشك أنه جرت إصلاحات جمة فى الرىّ وأن الأعمال التى بدىء بها فى عهد الخديويين السابقين تقدمت فى العهد الحاضر، ولكن هذا الإصلاح فى الرى ليس مزية خاصة للحكم البريطانى، ثم ألم يكن هذا من فائدة الإنجليز أكثر مما هو فى فائدتنا؟ ألم يكن من مصلحتهم إرضاء دائنى مصر وفتح السودان وإصلاحه بأموال مصر.

ومن الذى ينكر اليوم أن الأزمة المالية الحاضرة ناشئة عن فوضى البورصة وعن كثرة

الشركات التى دبرتها اليد التى قيدت الشركات المؤسسة بمقتضى القانون المصرى بقيود جمة لإيجاد أسهم للتأسيس حتى تؤسس الشركات كلها بمقتضى القانون الإنجليزى.

من الذى ينكر أنه كان فى استطاعة الإنجليز أن يطلبوا من الدول وضع قانون للبورصة ويقيدوا السماسرة والشركات بقيود متينة صيانة لمصالح البلاد.

وأى خلل فى المالية المصرية أكبر من الذى فضحه المستشار المالى السابق نفسه حين أعلن أن مصر خسرت ٧٠٠٠٠ جنيه فى كل مليون اشترت به أسهم الترنسفال أو القونصليد الإنجليزى، فهل كانت تجرى هذه الأمور كلها لو كان للأمة مجلس نيابى يراقب أعمال الحكومة وكانت الحكومة مؤلفة من عناصر أهلية وليس للأجنبى عليها سيطرة؟ ومن ذا الذى يتغنى بعد الآن بالإصلاح المالى البريطانى فى هذا القطر.

إن الذى يفاخر بزيادة الثروة وبوصول مالية الحكومة المصرية إلى مركز سام يجب عليه قبل كل شىء أن يعدد الأعمال العامة والمنافع المختلفة التى عادت على القطر من هذه الزيادة.

فهل يستطيع الإنجليز أن يدعوا أنهم رقوا الفلاحين «أصحاب الجلاليب الزرقاء»، ونشروا أنوار المعارف بينهم وهم الذين سدوا أبواب المدارس فى وجوههم وقالوا لهم: «حكمنا على أولادكم بأن يكونوا فقراء تعسين وأن لا يتسلحوا أبداً بسلاح العلم».

هل من مفاخر العهد البريطانى أن ينفق على المجانية ابتداء من هذا العام ١٦٠٠ جنيه ليس إلا، وميزانية الحكومة بلغت خمسة عشر مليوناً ن من الجنيهات على حين أن التعليم كان مجاناً فى كافة مدارس مصر يوم لم تكن ميزانية الحكومة تزيد عن المليونين؟

هل يقدر الإنجليز أن يدعوا أنهم أصلحوا الحالة الصحية فى البلاد وغيروا من معيشة الأهالى وأن مدينة العاصمة صارت نظيفة فاخرة لا يجد المتنقل فيها محلاً للانتقاد فى فصل من فصول السنة؟ هل لهم أن يدعوا أنهم حموا الأطفال من الأمراض المختلفة التى تقتلهم مئات وألوفا؟

فما فائدة الأموال التى تجمع والخزينة التى تملأ بالذهب الوهاج إذا كانت الأسوار قائمة بين الفقراء والعلم، والأحوال الصحية على أسوأ حال، والعدل مزعزع الأركان، والمصرى لا يملك فى بلاده نفوذاً، ولا يسمع له صوت، والأمن مختل أى اختلال؟

الأمن العام

دعا الإنجليز حب نزع السلطة من المصريين إلى تدمير الإدارة المصرية تدميراً حقيقاً بإحلال سلطة المفتش محل سلطة المدير، فصار الأشقياء لا يخافون الحكومة لأن قوتها الحقيقية تلاشت من أمامهم، وصرنا نسمع بحوادث القتل والفتك فى كل بلد، مما أذهل الناس جميعاً، وقد اضطرب المحتلون فى التشريع اضطرابا عجيباً، فتراهم يغيرون القوانين ويقلبون المبادىء التشريعية بسرعة فائقة كأنهم يبدلون فى مواد لائحة من لوائح البوليس والمخالفات لا فى قوانين أساسية يساس بها شعب كبير، وهم اليوم يطلبون تقرير النفى الإدارى الأمر الذى أسخط الأمة كلها وأظهر فشلهم الفاضح.

وهذا خلل كبير فى إدارة شئون مصر، فإن كل بلاد حرمت قوة تشريعية حقيقية تكون خاضعة لسياسة الأهواء.

الحكومة الأهلية

لذلك قلنا أن المصريين لا يرضون بإصلاحات سطحية يعطونها ذراً للرماد فى العيون، بل إنهم لا يطمئنون على أنفسهم وبلادهم إلا إذا عادت الحكومة الأهلية بسلطتها وسطوتها ورهبتها وكانت الحكومة دستورية خاضعة لمبادىء التمدن الحديث ومستمدة قوتها من الشعب وعاملة برغائبه ممتثلة لأوامره.

وإذا كان بعض الإنجليز يرون أن ما عمل فى مصر فى الخمسة والعشرين عاماً الأخيرة كافياً لتشريف انجلترا ولائقاً بمدنيتها وبما ينتظر منها، فإننا نعتقد أن انجلترا قادرة على أن تعمل أحسن مما عملت وتحترم شرفها وعهودها وتاريخها وتقاليدها بخطة أخرى غير الخطة التى اتبعتها.

إن الإنجليز الذين يتألمون لمطالبتنا باحترام تعهدات الملكة فيكتوريا وتصريحات كبار وزرائها ينسون أن مخالفة هذه التعهدات وتلك التصريحات أشد إيلاماً لهم فى الحقيقة من كل انتقاد يوجه إليهم، وأن الذى يدعوهم لاتباع سياسة العدل والمدنية إنما يدعوهم

لما هو أليق بهم وبشرف دولتهم وعظمتهم.

كيف لا ومطاعن الطاعنين وشتائم الشاتمين لا تؤثر فى شرف انجلترا وسمعتها عشر معشار ما يؤثر قول العالم المتمدن عنها إنها تعادى الوطنيين المصريين وتحاربهم لأنهم يطلبون اتباع مبادىء الوطنية وتعميم التعليم وإقامة الدستور مقام الظلم والاعتساف - وينادى بأنهم لا يرضون بحكومة الرجل الفرد سواء كان مصرياً أو أجنبياً، وأن مداركهم ارتقت إلى حد أنهم يعتبرون أنهم من عائلة الشعوب المتمدنة، ويطلبون أن يعاملوا كذلك.

لذلك كان من المؤكد عندنا نجاحنا عاجلًا أو آجلًا، لأن الزمان يكفل النجاح لصاحب الحق على الدوام!

أعداء الحزب الوطنى والنزلاء

هذه خطتنا أيها السادة وهذه مطالبنا التى نرمى إلى تحقيقها، فهل يقول منصف عادل بأنها غير موافقة لصالح مصر والمصريين.

كلا، ولكن عصابة الكتاب الأوروبيين فى هذه الديار حملت علينا حملة شعواء، ووجهت إلينا من السباب ما لا يتصور صدوره من رجال متمدنين، ورمتنا هذه العصابة بتهم شنيعة لو كان لها نصيب من الحقيقة لكنا من المجرمين.

ولقد يتوهم البعض منا أن هؤلاء الكتاب يعبرون عن أفكار النزلاء الأوروبيين فى هذه الديار ونزعاتهم، ولكن هذا الوهم باطل، لأن أولئك النزلاء يحبون مصر على ما أعتقد، ويعترفون لها بالجميل ويرجون لها الخير ولا ينسون أنها البلاد التى لاقوا فيها الإكرام التام والحفاوة الزائدة ووجدوا تحت سمائها ما يطلبون من كسب عميم وخير وفير.

إن النزلاء الأوروبيين يقدرون الوطنية حق قدرها لأنهم يحبون بلادهم حباً جماً ويظهرون هذا الحب فى كل آن، فمن منا يصدق أن أولئك الذين يعيشون وفخارهم استقلال أوطانهم ويعتقد الواحد أنه راية بلاده يمثلها أنى كان وأن الاعتداء عليه اعتداء عليها يجاهدون ضد أمة تنهض مطالبة بالاستقلال وتعمل لزوال الاحتلال!

إنى أعتقد إعتقاداً جازما أن لنا فى النزلاء الأوروبيين أصدقاء عديدين وأن عدد أولئك الأصدقاء يزداد كلما أثبتنا لهم بالدليل والبرهان أننا نريد أن تكون مصر عضواً عاملا فى جسم الأمم المتمدنة، وأننا نطلب الاستقلال لتكون بلادنا مصدر النور والعرفان فى الشرق كله، وأننا لا نريد مطاردة أحد من الناس، بل نعد من شرف مصر وامتيازها على غيرها من البلاد أنها ترحب بكل قادم إليها وتوسع له فى ديارها غير خائفة على أبنائها من مزاحمة أو منافسة بل مسرورة بكثرة العاملين وهم الساعين المجدين.

تهمة الثورة

بماذا طعن الطاعنون فينا:

قالوا إننا نريد إحداث ثورة دينية فى البلاد وأنه أوعز إلينا من الأستانة بها.

وهو قول الجاهل أو المتجاهل المتعنت الذى يريد أن يحارب خصومه بكل سلاح، إذ كيف يقبل العقل السليم أو يتصور إنسان ذو لب وإدراك أن قادة الأفكار فى مصر يعملون لهدم البقية الباقية من استقلال هذه البلاد ويحزبون أوروبا بأسرها على مصر والمصريين، ألم نقل مراراً وتكراراً إن كل فتنة تحدث فى مصر لا تفيد إلا المحتلين؟ ألم نكن أول الداعين للسكينة المطالبين أبناء وطننا بأن يعملوا بعزم وهمة وصراحة ولكن مع السكينة والمحافظة على الأمن العام، ألم نجعل أساس سياستنا وقاعدة خطتنا وروح أعمالنا إستخدام الوسائل السلمية لنيل حقوقنا والتمسك بالطرق القانونية دون غيرها؟.

ومن الذى يستطيع أن يقول إن للاستانة منفعة فى إحداث ثورة فى مصر؟ وما الذى يدفعها إلى ذلك؟ أعداوتها للمسيحيين وأسمى وظائف الدولة فى قبضتهم؟ وماذا يكون مركز الدولة العلية لو ثارت مصر وضربتها أوروبا الضربة القاضية؟ ألا تكون هى المسئولة بالذات عن ذلك إذا صح أنها تحرض على ثورة فيها؟ أو ليس التحريض داعياً إلى المؤازرة؟ فأى مؤازرة ترضى تركيا أن تقوم لنا بها على أوروبا كلها؟

إن القائلين بذلك أعداء متعنتون أو جهلاء لا يدركون معنى ما يقولون، لأن المصرى

الذى يدعو إلى فتنة أو يعمل لها يكون عدواً لبلاده، وإذا وجد فى العالم دولة تنصح للمصريين باستعمال السكينة وملازمة الحكمة والتبصر فهى الدولة العلية، لأنها بلا نزاع أشد الدول غيرة على سلامة مصر وأكثرهن فائدة من عدم إزدياد مصائبها وبلاياها.

تهمة خيانة مصر

رمانا الطاعنون أيضا بأننا نريد أن نخرج الإنجليز من مصر لنعطيها لتركيا كولاية عادية، أى أننا نريد تغيير الحاكمين لا طلب الاستقلال والحكم الذاتى

وما هذه التهمة إلا تصريح بأن علوم الغرب وآدابه التى نقلت إلى مصر من مدة قرن من الزمان ما زادتنا إلا تمسكا بالعبودية والمذلة، وأن معرفتنا لحقوق الأمم وواجباتها لم ترشحنا إلا أن نكون عبيداً أرقاء.

فهذه التهمة هى مسبة للمدنية والمتمدنين وقضاء على الأمة المصرية بأنها لا ترقى أبداً ولا تبلغ مبلغ غيرها من الشعوب، لأنه إذا كان المتعلمون من أبنائها يطلبون إحلال نير محل نير واستبدال استعباد باستعباد فكيف يطمع طامع فى تقدمها وارتقائها ووجود ضمير أهلى لها؟

إن القائلين بذلك يدعون الناس لأن يسخروا من عقولهم ومداركهم لأن الصومالى والحبشى وكافة الأمم التى هى دون الأمة المصرية بمراحل فى العلم والأدب والشعور دافعت عن استقلالها أجمل دفاع وبرهنت للعالم طرا أن حب الوطن فطرة فطر الناس عليها وأن الإنسان لا يحتاج إلى علم ولا إلى أدب ليشعر بهذا الشعور.

فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا، وعلى مسمع من أمم الأرض كلها، وأننا إذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة فإنما نعمل كغيرنا ونتبع ناموس الطبيعة بأن من إتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون.

وإذا كانت إنجلترا تسعى الآن للتقرب من الدولة العلية وتغير سياستها نحوها تغييراً محسوساً، فمن الذى يلوم المصريين على أن يكونوا أقرب الناس من تركيا قولا وفعلا وأن يحافظوا على هذه الصلة ما إستطاعوا؟

تهمة التضيّق فى الوطنية

قال أعداؤنا فينا قالوا: إننا ضيقو الفكر صغار الآمال، وإننا نأبى على الذين ولدوا فى مصر واستوطنوها أن يكونوا مصريين، وهذا قول لا يقوم عليه برهان.

إننا إذا قاومنا بكل قوانا تلك الفئة التى قابلت إحسان مصر بالنكران وأعلنت على البلاد وأهلها حربا عوانا فإننا نميز بينها وبين بقية الشرقيين من ترك وعرب وسوريين الذين إختاروا مصر وطنا لهم وأحبوها وشاركونا فى الآلام والآمال وصاروا مصريين فعلا.

إننا نستقبل بمزيد السرور والانشراح كل راغب فى الدخول فى جنسيتنا، معترف بحقوقنا، مقدر لشرف جهادنا، عامل على بلوغ الاستقلال، لأننا نريد زيادة قوى الوطن والاستزادة من الأيدى العاملة لخيره ولنفعه ومجده وعظمته.

وإن الأمم التى تخاف دخول الغريب فيها وإنتباءه إليها هى الأمم الضعيفة فى وطنيتها، المضطرب فؤادها على جامعتها، ونحن اليوم بحمد الله أمة قوية الشعور راقية الإحساس لا تخاف على وطنيتها، فليدخل فى الجنسية المصرية من أراد فإنه إن لم يزدها قوة زادته هى حمية وإقداما، وملأت قلبه بحب الحرية والاستقلال.

تهمة التعصب الدينى

قال أعداؤنا أيضاً: إننا نخلط الإسلام بالوطنية، ونتكلم دائماً عن المسلمين ونطلب إدخال الدين فى التعليم، وفسروا ذلك بأنه تعصب ذميم.

فكيف لا تكون انجلترا وألمانيا متعصبتين وهما الدولتان المتمسكتان بالتعليم الدينى فى مدارسهما ونتهم نحن بالتعصب الدينى؟ لماذا يكون الإنجليزى وطنياً وبروتستانتياً فى آن واحد ولا يكون المصرى المسلم وطنياً ومسلماً؟ ألا تكون الوطنية صحيحة سليمة إلا إذا قضت على الدين ومحبته؟

ألا إن الحقيقة الساطعة التى لا ريب فيها هى أن الوطنية والدين يتفقان بل وقد يكونان متلازمين.

نحن إذا طلبنا إرشاد أمتنا إلى الحقيقة الدينية، فما ذلك إلا لأن الأضاليل والأكاذيب والخزعبلات التى راجت بين العامة باسم الدين قلبت حقيقة هذا الدين، فصار الجهل والتأخر والانحطاط وكل الآفات مما يلقى على الدين وينسب إليه والدين منه براء.

لذلك كان من المستحيل إحياء الأمة وإنهاضها بغير الحقيقة الدينية، لأنه لا سبيل لإبادة جيش الباطل الذى ألف ونظم باسم الدين إلا بالدين نفسه.

فالتعليم الدينى ليس فرضاً من الوجهة الدينية فحسب، بل هو كذلك أيضاً من الوجهة الوطنية، لأنه لو وقف المرشد أمام الأهالى ونبههم إلى واجباتهم باسم الوطن والعلم والمصلحة وأجابه الضالون منهم بما عندهم من الاعتقادات الباطلة بأن الدين ينافى ما يقول لما قهرهم واستمالهم إلى فكره إلا إذا أثبت لهم أن الدين ليس ما اعتقدوا بل إن الدين مخالف لتلك الخزعبلات التى آمنوا بها وأنه متفق مع العلم والوطن تمام الاتفاق.

على أن بث الحقيقة الإسلامية بين المسلمين من أكبر الأسباب الموجدة للتسامح والتقرب من الشعوب الأخرى، إذ لا تعصب مع علم ولا نفرة مع نور ورشاد، فمن منفعة العناصر كلها أن يعرف المسلمون دينهم على حقيقته وأن تزول أوباء الجهالات والخرافات من بيهم.

تهمة تحريض المسلمين على الدول

لم يكتف الطاعنون فينا بنسبة التهم المتقدمة إلينا بل قالوا إن الحزب الوطنى آلة فى يد ألمانيا تحركها ضد فرنسا وانجلترا لإحداث فتنة فى البلاد الإسلامية التابعة لهما، وما قصدوا بهذه التهمة إلا جمع كلمة الدولتين ضدنا وتنفير أصدقائنا العديدين فى أوروبا منا.

إننا نعلن للملأ كله أن الحزب الوطنى مستقل عن كل الدول والحكومات والملوك والأمراء. وأنه إنما طلب سعادة مصر واستقلالها من كل طريق يجده مساعداً على الوصول إلى الغاية، وليس هناك برهان على إفك أعدائنا أكبر وأقطع من أننا انتقدنا السياسة الألمانية مراراً وقلنا لها إن المسلمين لا يصدقون بمحبتها إلا إذا غيرت خطتها فى مصر

وطلبت حل المسألة المصرية فى مؤتمر دولى كما فعلت بشأن مراكش، وشتان مـا بين مصـر ومراكش فى الأهمية ووفرة المصالح الأوروبية.

إن المسلمين يخدعون أنفسهم كثيراً ويسيئون إلى بلادهم حقيقة إذا اعتقدوا أن سلامتهم فى الاعتماد على دولة من الدول، وأن لهم أن يناموا على وسادة الأمان والاطمئنان إذا جاملتهم هذه الدولة بكلمة حب وانعطاف لغاية يجهلونها.

إنما سلامتهم فى أن يعملوا بأنفسهم لصيانة بلادهم وحمايتها بالعلم والعدل والنظام والدستور. فإن البلاء فى أن يكون الإسلام سلاحاً بيد الجاهل الغبى يقتل باسمه البرىء من المسلمين وغير المسلمين ويخرب البلاد ويؤذى العباد قائلا: «إن هذا من عمل الإسلام».

إن الإسلام برىء من هذه الفظائع، إن الإسلام يقضى بكل قوة على هذه القبائح، الإسلام والجهل عدوان لا يتفقان، فلا إسلام بغير علم وفضل وعدل ومدنية وإنسانية، فلترفع الأمم الإسلامية التى لا تزال قادرة على حماية بلادها وصيانة استقلالها رايته، ولتعمل على اليابان فتعتمد على الجد وحده وتطلب الحياة والسؤدد من جهودها ومساعيها لا من تعضيد دولة ورعاية حكومة أجنبية.

فإن السياسة التى تدفع بهذه الحكومة لمساعدة أمة إسلامية فى ساعة من ساعات حياتها قد تتغير بتغير الظروف والأحوال فلا تساعدها فى ساعة أخرى.

وإنه خير لمرشدى المسلمين والناصحين لهم أن يحملوا على أسباب الفشل والسقوط التى نشأت بينهم ويحاربوا الجهلاء والأغبياء منهم قبل توجيه الملام إلى الهاجمين عليهم، فإنما الجهل هو الذى دعا الأجنبى لأن يطمع فيهم، ولو نظم المسلمون بلادهم وأثبتوا للعالم أن الإسلام دين مدنية وعمران وقوة ورفعة، لما اعتدى عليه أحد ولخطب ودهم كل إنسان!

الاتحاد والعمل

أيها السادة، دعا لورد كرومر قبل سفره كافة العناصر الأجنبية للاتحاد ضد المصريين تنفيذاً لسياسة التفريق التى عمل لها طول حياته، فاسمحوا لى أن أدعوكم للاتفاق

والاتحاد وإزالة كل سبب للنفور والشقاق بينكم وبين النزلاء، فإن الاتحاد هو القوة الكبرى، ولولاه ما قام الشعب فى العالم وما وجد التضامن بين أفراد الهيئة الاجتماعية.

إنه ليحزنكم كثيراً أن تجدوا المنافقين والخائنين من أبناء البلاد، وهو حال يحزن ولكنه ليس خاصاً بمصر، بل هو عام فى الدنيا كلها، وإذا أحزن الوطنيين الصادقين من جهة فإنه يسرهم من جهة أخرى، لأنه يبعد العناصر الفاسدة من الحركة الوطنية ويجعلها طاهرة خالصة من كل شائبة.

فضموا صفوفكم وأجمعوا أمركم واعملوا بجد وهمة واثبتوا للأعداء والأصدقاء أننا أحق الأمم بالدستور والاستقلال، إن الوطنية الحقة تقضى على صاحبها بأن يضحى حياته خدمة لوطنه لو دعت الحاجة لذلك، فلنضحّ جميعاً أحقادنا الذاتية وخصوماتنا الشخصية، ولننس عداواتنا واختلافاتنا أمام المصلحة الوطنية وأمام الوطن المقدس، لننس أشخاصنا ولنترك الطمع فى الزعامات والرئاسات ونتبع أحقرنا إذا كان على الحق، فإننا إذا نصرناه نصرنا الوطن والأمة، وإذا خذلناه خذلناهما معاً.

أيها السادة ! إن العالم ينظر إلى مصر وما سيكون من أمر حركتها الوطنية وإن أعداءنا يدبرون ألف تدبير لهدم دعائم هذه الحركة ومحو آثارها.

فاذكروا ذلك على الدوام ليزداد الاتفاق بيننا وليوجد الإخاء بأسمى معانيه بين صفوفنا.

إنى لأدعو كل واحد منكم للدخول فى الحزب الوطنى، حتى تتسع دائرة العمل لخدمة مصر، ويزداد الطالبون للاستقلال، الممثلون للأمة فى همتها ونخوتها واجتماع كلمتها، العاملون على إنالتها شرف الأحياء ومجد الراقين !

فهرست الكتاب

الفصل الرابع
جهاده سنة ١٨٩٥

الفصل الخامس
جهاده سنة ١٨٩٦

الفصل السادس
جهاده سنة ١٨٩٧

الفصل السابع
حادثة فاشودة وجهاد الفقيد سنة ١٨٩٨

الفصل الثامن
جهاده سنة ١٨٩٩

الفصل التاسع
ظهور اللواء والجهاد الأكبر

الفصل العاشر
الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا

الفصل الحادى عشر
نادى المدارس العليا
وتطور الأفكار سنة ١٩٠٥ و ١٩٠٦

الفصل الثانى عشر
حادثة دنشواى

الفصل الثالث عشر
جهاد الفقيد عام ١٩٠٧

الفصل الرابع عشر
تأسيس الحزب الوطنى
(حزب الجلاء)

الفصل الخامس عشر
القضاء المحتوم

الفصل السادس عشر
الخديو عباس حلمى الثانى

الفصل السابع عشر
مصطفى كامل والخديو عباس الثانى

الفصل الثامن عشر
مصطفى كامل وتركيا

الفصل التاسع عشر
مجلس شورى القوانين

الفصل العشرون
مصطفى كامل ومعاصروه

الفصل الحادى والعشرون
شخصية الزعيم

الفصل الثانى والعشرون
نماذج من خطب الفقيد

فهرست الصور

صفحة

للمؤلف

حقوق الشعب :

يتضمن شرح المبادئ والنظريات والقواعد الدستورية وحقوق الإنسان . طبع سنة ١٩١٢ .

نقابات التعاون الزراعية :

يتضمن تاريخ التعاون الزراعى ومنشآته فى أوروبا ، ونشأة التعاون فى مصر وتاريخه ونظامه ، وعلاقته بالنهضة الاقتصادية والاجتماعية . طبع سنة ١٩١٤ .

الجمعيات الوطنية :

صحيفة من تاريخ النهضات القومية يتضمن تاريخ الانقلابات السياسية والنهضات القومية فى طائفة من البلدان مع شرح أصول الدساتير ، والنظم البرلمانية فيها والمقارنة بينها . طبع سنة ١٩٢٢ .

تاريخ الحركة القومية (فى جزأين) :

الجزء الأول : يتضمن ظهور الحركة القومية فى تاريخ مصر الحديث وبيان الدور الأول من أدوارها وهو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر . وتاريخ مصر القومى فى هذا العهد (الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩)

الجزء الثانى : من إعادة الديوان فى عهد نابليون إلى عهد ولاية محمد على(الطبعة الأولى سنة ١٩٢٩) .

عصر محمد على :

يتناول تاريخ مصر القومى فى عهد محمد على (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٠)

عصر إسماعيل (فى جزأين) :

الجزء الأول : يشتمل على عهد عباس وسعيد وأوائل عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢)

الجزء الثانى : وفيه ختام الكلام عن عهد إسماعيل (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٢) .

الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٧) .

مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال :

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٨٩٢ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٢) .

مصطفى كامل : باعث الحركة الوطنية

تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٨ (الطبعة الأولى سنة ١٩٣٩) .

محمد فريد : رمز الإخلاص والتضحية

تاريخ مصر القومى من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤١) .

ثورة سنة ١٩١٩ فى جزأين :

تاريخ مصر القومى من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٢١ (فى جزأين) الطبعة الأولى سنة ١٩٤٦ .

الجزء الأول : يشتمل على شرح حالة مصر وحوادثها التاريخية أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) وبيان الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية للثورة . وتطور الحوادث من بعد انتهاء الحرب إلى شبوب الثورة فى مارس سنة ١٩١٩ ثم وقائع الثورة فى القاهرة والأقاليم .

الجزء الثانى : وفيه الكلام عن مهادنة الثورة واستمرارها ومحاكمات الثورة ولجنة ملنر . والحوادث التى لابستها ومفاوضات ملنر واستشارة الأمة فى مشروع ملنر . والتبليغ البريطانى بأن الحماية علاقة غير مرضية . ونتائج الثورة فى حياة مصر القومية .

فى أعقاب الثورة المصرية (ثورة سنة ١٩١٩) : فى ثلاثة أجزاء :

الجزء الأول : تاريخ مصر القومى من أبريل سنة ١٩٢١ إلى وفاة سعد زغلول فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧)

الجزء الثانى : تاريخ مصر القومى من وفاة سعد زغلول سنة ١٩٢٧ إلى وفاة الملك فؤاد سنة ١٩٣٦ (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨ - سنة ١٩٤٩) .

الجزء الثالث : تاريخ مصر القومى من ولاية فاروق عرش مصر فى ٦ مايو سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٥١ (الطبعة الأولى سنة ١٩٥١) .

مقدمات ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ :

(الطبعة الأولى سنة ١٩٥٧)

الكفاح فى القنال سنة ١٩٥١ - حريق القاهرة سنة ١٩٥٢ .

وزارات الموظفين - أسباب الثورة - فاروق يمهد للثورة .

ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ :

تاريخنا القومى فى سبع سنوات ١٩٥٢ - ١٩٥٩ (طبع سنة ١٩٥٩)

تاريخ الحركة القومية فى مصر القديمة :

من فجر التاريخ إلى الفتح العربى (طبع سنة ١٩٦٣)

تاريخ مصر القومى .

من الفتح العربى حتى عصر المقاومة والحملة الفرنسية طبع بعد وفاة المؤلف

مذكراتى (١٨٨٩ - ١٩٥١) :

خواطرى ومشاهداتى فى الحياة .

شعراء الوطنية فى مصر :
تراجمهم . وشعرهم الوطنى . والمناسبات التى نظموا فيها قصائدهم الطبعة الأولى سنة ١٩٥٤

مجموعة أقوالى وأعمالى فى البرلمان : (مجلس النواب الأول) طبع ١٩٢٥

أربعة عشر عامًا فى البرلمان :
فى مجلس النواب سنة ١٩٢٤ - ١٩٢٥
وفى مجلس الشيوخ من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٥١ (طبع سنة ١٩٥٥).

كتب مختصرة

مصطفى كامل :
باعث النهضة الوطنية (طبع سنة ١٩٥٢)

بطل الكفاح . الشهيد محمد فريد : (طبع سنة ١٩٥١)

الزعيم الثائر أحمد عرابى :
(الطبعة الأولى - يناير سنة ١٩٥٢)

جمال الدين الأفغانى : (طبع سنة ١٩٦٦)

بحث وتحليل معاهدة سنة ١٩٣٦ :
استقلال أم حماية (طبع سنة ١٩٣٦)

كتب لطلبة المدارس الثانوية :
(طبعت سنة ١٩٥٨ - ١٩٥٩)

مصر المجاهدة فى العصر الحديث :
فى ست حلقات تشتمل على كفاح الشعب فى عهد الحملة الفرنسية ثم كفاحه فى العهود التالية إلى بداية ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ .

(تحت الطبع)
مختاراتى من دواوين الشعراء فى الجاهلية والإسلام .



رقم الإيداع		١٩٨٥ / ٣٥٦٣
الترقيم الدولى	٨-١٣٤٣-٠٢-٩٧٧	ISBN

١ / ٨٣ / ٢٣٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)